دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة المجلد 15

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

المراهق 2





الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الخامس عشر

دوستويفسكي: الاعمال الادبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٢٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

- المراهق -٢-

- قصص

- بوبوك
- الطفل عند يسوع
- الفلاح ماراي
- عجوز تجاوز عمرها مائة سنة
- العذبة
- حلم رجل مضحك
- خطاب عن بوشكين


المراهقة
٢

الفصل السادس

١

قلتُ عازما أمرى وأنا أعـود الى البيت مسرعا : « واضح . يجب أن أذهب اليها . يجب أن أذهب اليها فوراً . ومن الجائز جـداً أن أجدها وحدها ، وحـدها أو مع غيرها ، سيان : ففى وسعى أن أدعوها ، وسوف تستقبلنى ، ستدهش لكنها ستستقبلنى ، واذا لم تستقبلنى ألححت عليها أن تستقبلنى مرسلاً من يقول لها ان علىّ أن أراها. حتماً فتعتقد أن لمجيئى صلة بالوثيقة ، فتستقبلنى ، فأعلم كل شىء عن أمر تاتيانا ... ثم ... ثم ماذا ؟ اذا ثبت أننى على خطأ ، كفرت لها عن خطئى ، واذا ثبت أننى على حق وأنها على خطأ ، انتهى كل شىء . وقد انتهى كل شىء على كل حال . ماذا الذى أخسره ؟ لا شىء ! هلمّ ... هلمّ ! » .

ولكننى لم أذهب . لن أنسى هذا أبداً ، وسأظل أتذكره بفخـر واعتزاز . لن يعلم بذلك أحـد ، سيظل مجهـولاً ، ولكن يكفى أن أعرفه أنا ، يكفى أن أعرف اننى فى تلك اللحظة استطعت أن أكون نبيلاً نبلاً لا نهاية له ! قلت لنفسى بعد تفكير : « هى محـاولة اغـواء . لكننى سأغض النظر عنها . وقد أريد لى أن أرتاع ، ولكننى لم أصدق ، ولم أفقد ايمانى بطهارتهـا ! علام أذهب اليها ؟ وعمّ أسألها ؟ لماذا يكون عليهـا أن تثق بى كمـا أثق بهـا ، أن تؤمن بطهـارتى ، ألاّ تخشى « حرارة اندفاعى » ولا تحتمى بتاتيانا بافلوفنا ؟ اننى لم استحق بعد شيئاً

من ذلك كله في نظرها • فلتجهل آنني أستحق ذلك ، وأنني لا انقاد للاغواءات ، وانني لا أصدق ألسنة السوء ! لتجهل هي ذلك كله • ولكنني سأعلمه أنا ، فازداد احتراماً لنفسي • سأحترم عاطفتي • صحيح أنهاجعلتني أتكلم على مسمع من تاتيانا، لقد قبلت تاتيانا ، كانت تعلم أن تاتيانا هناك وأنها تتصنت (لايمكن الا أن تتصنت) ، وكانت تعلم أن تاتيانا تسخر مني ••• آه ••• شيء فظيع ! شيء فظيع ! •• ولكن لعلها كان يستحيل عليها أن تتجنب ذلك ! ماذا كان في وسعها أن تعمل اذا استحال عليها أن تتجنب ذلك ؟ كيف يمكنني أن أتهمها ؟ أفلم أكذب عليها أنا نفسي بصدد كرافت ؟ ألم أخدعها أنا أيضاً لأنني استحال عليّ أن أتجنب ذلك ؟ أنا أيضاً كذبت هذا الكذب البريء على غير ارادة مني •

وهتفت أقول فجأة وأنا أحمر وأشعر بألم شديد : رباه ! رباه ! ما هذا الذي فعلته أنا ؟ ألم أستدرجها على مسمع من تاتيانا هذه نفسها ؟ ألم أقصص كل شيء على فرسيلوف ؟ ولكن لماذا أتكلم عن نفسي ؟ ان هناك فرقاً ضخماً • لقد كان الأمر أمر الوثيقة فحسب • والحق أنني لم أحدث فرسيلوف الا عن الوثيقة ، اذ لم يكن ثمة شيء آخر أحدثه عنه ، ولا يمكن أن يكون ثمة شيء آخر أحدثه عنه • ألست أنا الذي بادرت الى ابلاغه ، وصحت أقول « انه لا يمكن أن يكون ثمة شيء آخر » ؟ هذا رجل يدرك الأمور •• همْ •• ولكن ما هذا الكره الشديد لا يزال يحمله قلبه لهذه المرأة حتى الآن ! ما عسى تكون القصة التي جرت بينهما في الماضي ؟ لا شك أن حبه لنفسه هو سبب كل شيء • « هذا رجل لا يقدر أن يحس الا عاطفة واحدة هي حبه لذاته حباً لا حدود له » (بالفرنسية) •

نعم ، أفلتت مني هذه الفكرة حتى انني لم أنتبه اليها • تلكم هي

الخواطر الى تلاحقت فى ذهنى سريعة ، وكنت عندئذ صادقا مع نفسى: لم أكن أخادع ، ولم أكن أحاول أن أغشّ نفسى • واذا كان ثمة شيء لم أستطع أن أدركه فى تلك اللحظة ، فانما مرد ذلك الى فقدان الفهم لا الى مخادعة النفس •

وعدت الى البيت مهتاجاً اهتياجاً شديداً ، وكنت مرح المزاج برغم الاضطراب القوى ، لا أدرى لماذا ! ولكننى كنت أخشى أن أحلل نفسى ، وكنت أبذل كل ما أملك من قوة فى سبيل أن أسلو • فسرعان ما ذهبت الى المؤجرة • فرأيت أن شجاراً عنيفاً قد نشب بينها وبين زوجها فعلاً • انها امرأة موظف مصابة بداء السل اصابة قوية ، وهى طيبة القلب ، لكنها كسائر المصدورين صاحبة نزوات جامحة • فأسرعت أصلح بينهما • ثم ذهبت الى المستأجر الشرس ، وهو موظف فى بنك ، غليظ القلب ، فظ الطبع ، أنانى ، مجدور الوجه ، اسمه تشرفياكوف ، كنت لا أحبه كثيراً ولكن العلاقات بينى وبينه كانت حسنة ، لأننى كنت أستعذب أن أستهزىء معه ببطرس هيبوليتوفتش • فسرعان ما أقنعته بألا يترك المنزل الى مسكن آخر ، ولم يكن عازماً على ذلك على كل حال • وأفلحت فى تهدئة المؤجرة تهدئة حاسمة ، واستطعت عدا هذا أن أسوى لها مخدتها • فقالت فى مكر : « ذلك ما لا يستطيع بطرس هيبوليتوفتش أن يفعله أبداً » • ثم عكفت فى المطبخ على الاهتمام بكماداتها ، فصنعت لها بيدى كمادتين رائعتين • فكان المسكين بطرس هيبوليتوفتش ينظر الىّ حاسداً ، ولكننى لم أسمح له حتى بلمس الكمادات ! وقد كوفئت على صنيعى بامتنان عبّر عن نفسه بدموع صادقة • ثم لم ألبث أن شعرت بضجر من هذا كله على حين فجأة ـ لا أزال أتذكر هذا ـ وأدركت أننى لم أعن بالمريضة بدافع الشهامة والأريحية قط ، وانما عنيت بها هكذا ، لا أدرى لأى سبب ، أو لسبب آخر لا علاقة له بالشهامة ولا الأريحية !

وأخذت أنتظر ما تفتئى نافد الصبر : كنت قد قررت فى ذلك المساء أن أجرب حظى مرة أخيرة . وعـدا الحظ ، كنت أشـعر بحاجة شديدة الى المقامرة . والا لم يـكن فى وسعى أن أصبر . فلو اسـتحال علىّ أن أشـغل نفسى بالقمار ، لكان من الجائز جـدا ألا أستطيع مقاومة الرغبة فى الذهاب اليها . وكان على ماتفتئى أن يصـل بعد قليل . ولكن البـاب فتح فجأة ، ودخلت علىّ زائرة لم أكن أتوقع أن تجىء الىّ ، وهى داريا أوسيموفنا . فقطبت حاجبىّ وبانت دهشتى . كانت داريا أوسيموفنا تعرف أين أسكن ، لأنها جاءتنى برسالة من أمى فى أحد الأيام . وأجلستها ، ونظرت اليها مستفهماً . فلم تقل شيئاً ، ولم تزد على أن أخذت تنظر الىّ محدقة وتبتسـم بخضـوع ومذلة . فخطر ببالى فجأة أن ليزا هى التى أوفدتها ، فسألتها :

ـ أليست ليزا هى التى أرسلتك ؟

فقالت :

ـ بل جئت هكذا ... من تلقاء نفسى ...

فأنبأتهـا بأننى خـارج بعد قليل ، فعادت تقول مرة أخـرى انهـا جاءت « هكذا » ، من تلقـاء نفسها ، وانها منصرفة حالاً . فأحسست فجـأة بنوع من الشفقة . يجب أن أذكر هنـا أن أمى ، وتاتيانا بافلوفنـا خاصـــة ، هما اللتان ، من بيننا جميعاً ، عطفتا عليها ، ولكن جميع ذوينـا قد نسـوها تقريبـاً بعد أن وضعت عند ستولبيافا ، ربما باسـتثناء ليزا التى كانت تزورها فى أحيـــان كثيرة . ويرجـع ذلك ، فيما أظن ، الى داريا نفسـها ، لأنها كانت تتصف بالميـل الى الابتعاد والغياب ، رغم كل مذلتهـا وكل ابتساماتهـا المستجدية المستعطية . أما أنا فكانت هـذه الابتسامات لا تعجبنى كثيراً ، اذ كنت أرى أن هذه المرأة تصطنع تعابير

وجهها اصطناعا زائفا ، حتى لقد خطر ببالى ذات يوم أنها لم تبك عزيزتها اوليا مدة طويله . ولكننى فى هـذه المرة شعرت بشفقة عليها ، لا ادرى لمـاذا !

وهاهى ذى تنحنى فجأة دون أنْ تقول كلمه ، وتخفض عينيها ، وترمى دراعيها الى أمام ، فتمسـك بخاصرتى ، وتميـل بوجههـا على ركبتى ، ثم تتناول يدى ، فأظن أنهـا تريد أن تقبلها ، ولكنهـا رفعتها الى عينيها ، فاذا بسيل من الدموع يسيل عليها . وأخـذت تنشج نشيجاً قوياً يهز جسمها كله ، دون أن يُسمع لبكائها صوت . فانقبض صدرى ألما ، رغم أننى أحسست ببداية حنق . ولكنها أخذت تقبلنى بثقة كاملة ، لا تخشى أن أغضب ، على حين أنها كانت منذ قليل تبتسم إبتسامات فيها كثير من الوجل وكثير من المذلة . فرجوتها أن تهدىء نفسها . فأخذت تتكلم فقالت :

ـ سيدى الطبيب ، لقد أصبحت لا أعـرف ماذا أصـنع بنفسى . فما ان يهبط الظلام ، حتى تنفد طاقتى على الاحتمال . اننى أفقد قدرتى على الصمود متى حل المساء ، فأرانى مدفوعة الى الخروج الى الشارع فى العتمة . والحلم هو الذى يجذبنى خاصة . لقد نبت فى رأسى حلم هو أننى متى خرجت فسألقاها فى الشـارع . فأسير ، وأظن أننى أراها . أقصد أن الناس يسـيرون ، فأسير وراءهم عامدة وأنا أقول لنفسى : أليست هذه هى ؟ نعم ، ها هى ذى ، انها ابنتى أوليا . وأفكر ، وأفكر . وأصبحت فى النهاية مجنونة من كثرة الجرى بين الجمهور . وصرت أشعر من ذلك بغثيان . اننى أصـدم الناس كسكرى ويقذفنى بعضـهم بشتائم . لكننى أحتفظ بهذا كله لنفسى ، ولا أذهب الى أحد . ثم اننى لا أذهب الى مكان الا أجـد حالتى أسـوأ مما كانت . وقد مررت منـذ قليـل أمام بيتك ،

فقلت لنفسي : « ماذا لو دخلت ؟ انه خير من الاخرين » ثم انه رأى الأمر بعينيه » • سيدى الطبيب ، اغفر لى ازعاجك ، أنا منصرفة حالاً ••

ونهضت بحركة مباغتة ، وهمت أن تسارع الى الانصراف • ووصل ماتفتى في تلك اللحظة • فأركبتها الى جانبى فى العربة ، وأوصلتها الى منزل ستولبيافا •

٢

أصبحت فى الآونة الأخيرة أتردد الى صالة الروليت التى يملكها زرشتشيكوف . وكنت أذهب قبل ذلك الى ثلاثة بيوت ، فى صحبة الأمير الذى كان « يدخلنى » الى تلك الأماكن . ففى أحد تلك البيوت كان المقامرون يتعاطون البكاراه خاصة ، وكانوا يراهنون على مبالغ ضخمة . فكنت لا أحس هنالك بارتياح ، اذ كنت أرى أن المرء يحتاج فيها الى مال كثير ، عدا أن ذلك البيت كان يرتاده عدد كبير من الوقحين ، وعدد كبير من الشبان الذين ينتمون الى أسر عالية ، وتمتلىء جيوبهم بأموال طائلة . وذلك بعينه ما كان يحبه الأمير . كان الأمير يحب أن يقامر ، ولكنه كان يحب أيضاً أن يحتك بهؤلاء الطائشين . وقد لاحظت أنه اذا دخل معى فى بعض الأحيان جنبا الى جنب ، ابتعد عنى طوال السهرة ، ولم يقدمنى الى أحد من « صحبه » . وكانت هيئتى هيئة انسان متوحش تماماً ، حتى لقد كان ذلك يلفت الىّ الانتباه أحياناً . وكان يتفق لى أن أتحدث على مائدة القمار الى هذا أو ذاك من اللاعبين ، ولكن وقع لى ذات مرة أن حاولت التكلم فى ذلك البيت نفسه مع سيد قصير تحدثت اليه بالأمس ، ضحكت معه جالساً الى جانبه (حتى لقد حزرت له ورقتين من أوراق اللعب) ، فاذا هو لا يتعرفنى ، واذا هو يزيد على ذلك سوءاً فيلقى علىّ نظرة دهشة مصنوعة ، ثم يمضى مبتسماً ابتسامة ساخرة . لذلك لم ألبث أن تركت ذلك البيت ، وأخذت أرتاد محلاً للقمار لا أستطيع أن أسميه الا ماخوراً قذراً . انه صالة روليت حقيرة ،

صغيرة ، تديرها امراة « مومس » كانت لا تظهر في الصاله مع ذلك ابدا • الناس هنالك يتعاملون بدون كلفه ولا حــرج ، فكانهــم اسرة واحدة ، رغم ان بينهــم ضــباطا وتجارا ، فكان هذا يجتذب كثيرا من الرواد • ولكنني انقطعت عن ارتيــاد ذلك المكان في اعقاب قصة قذرة حدثت ذات يوم اثنــاء اللعب ، وانتهت بتضــارب بين اثنين من المقامرين • وبعد ذلك انما أخذت اجيء الى صالة زرشتشيكوف التي قادني اليها الأمير أيضــاً • ان زرشتشيكوف ضابط من سلاح الفرسان محال على التقاعد ، وان جو ســهراته جو محتمل جداً • وهو رجل عسكري قليــلاً في ســلوكه ، حريص على التقيد بالأصول ، سريع وعملي • من ذلك مثــلاً أنه كان لا يقبل في صالته أناساً يسيئون المزاح أو يسرفون في القصف واللهو • ثم ان اللعب نفســه لم يكن فيــه عنده مزاح • وكان المقامرون يتعاطون البكاراه والروليت • وكنت في ذلك المســاء ، مســاء ١٥ تشرين الثاني (نوفمبــر) ، قد جئت الى هــذا المكان قبلئــذ مرتين لا أكثر • وكان زرشتشيكوف يعرف وجهي فيما أظن ، ولكن لم يــكن قد قام بيني وبينه أي تعارف • وشاءت المصادفة التي تشبه العمد أن جاء الأمير في ذلك المساء نفســه مع دارزان عند منتصف الليل عائداً من لعب البكاراه مع أولئك الشبان الطائشين أبنــاء المجتمع الراقي الذين هجرتهــم : هكذا كنت في ذلك المساء رجلاً مجهولاً بين أناس غرباء •

لو كان لي قارىء فقرأ كل ما ســبق أن رويتــه من أحداث حيــاتي لما كان عليّ حتمــاً أن أشرح له أنني أمــرؤ لم أخلق حقاً لحياة المجتمع أيا كان هذا المجتمع • أنا أولاً لا أعرف كيف أمكث بين النــاس • فاذا ذهبت الى مكان فيه ناس كثير ، بدا لي أن جميع الأنظار تنصب عليّ فتلسعني كاسع الكهرباء ، فأجد نفسي متوتر الأعصاب ، منهكاً انهاكاً جسمياً ، حتى في مكان كالمسرح ، ناهيك عن البيوت الخاصــة • وفي جميع صــالات

الروليت هذه وفي جميع تلك المحافل اشعر بعجز عن السيطرة على سلوكي : فتارة أجلس حتى لألوم نفسي على فرط الرقة والأدب والتهذيب ، وتارةً أنهض فأرتكب فظاظة من الفظاظات . وأنظر حولي فأرى أي وغد من الأوغاد الحقيرين أقدر مني على التصرف في المجتمع بيسر عجيب وسهولة مدهشة ، فيزيدني هذا حنقاً ، فاذا أنا أفقد هدوئي مزيداً من الفقدان . ويجب أن أقول بصراحة انني ، لا اليوم فحسب ، بل حتى في ذلك الحين ، كانت تلك السهرة كلها ، وكانت أرباح القمار نفسها (اذا وجب أن أقول كل شيء) قد أمست في النهاية تبدو لي باعثة على الاشمئزاز ، مثيرة للألم . نعم ، حتما : مثيرة للألم . صحيح أنني كنت أشعر بمتعة قصوى ، ولكن تلك المتعة كانت تجيء من خلال الألم . كان ذلك كله ، أقصد الناس والقمار وأنا خاصةً معهم ، كان ذلك كله يبدو لي قذراً قذارة فظيعة . « ألا فلأربح مرةً واحدة ، ثم أركل ذلك كله برجلي الى الأبد ! » . كذلك كنت أقول لنفسي دائماً حين أستيقظ في الصبح بعد لعب الليل . الربح مثلاً : انني لم أكن أحب المال البتة . لا أريد أن أردد تلك الجملة المعادة المكرورة المبذولة وهي أنني كنت أقامر من أجل القمار نفسه ، من أجل الاحساسات القوية ، من أجل لذة المجازفة ، من أجل متعة المصادفة ، وما الى ذلك ، وليس من أجل الربح . لقد كنت في حاجة ملحة الى المال . ولاشك أن هذه الطريق لم تكن طريقي ، لاشك أن هذا لم يكن فكرتي ، ولكن ذلك لا يمنع أنني كنت قد قررت حينذاك أن أسلك هذه الطريق أيضاً من باب التجربة . هناك فكرة قوية كانت تحاصرني ، كنت أقول لنفسي : « لقد خلصت الى هذه النتيجة : وهي أنك تستطيع أن تصبح من أصحاب الملايين بشرط أن تملك ارادة قوية ! وقد برهنت على قوة ارادتك . فهلمّ برهن هنا أيضاً على أنك قوي الارادة : ان الروليت تقتضي من قوة الارادة أكثر مما تقتضيه فكرتك ! » .

ذلك ما كنت اردده لنفسي • ولما كنت مقتنعا حتى هذه الساعه بأن المرء في ألعاب المصادفة يستطيع بالهدوء الكامل الذي يتيح له أن يحتفظ بذقة تفكيره ، أن يتغلب على المصادفة العمياء ، وأن يربح حتماً ، فقد كان لابد لى في ذلك الأوان من أن يزداد حنقى ويشتد حين كنت أرانى أفقد هدوئى واندفع اندفاع صبي صغير • « أنا الذى استطعت أن أتحمل الجوع ، كيف أعجز عن تحمل نفسى فى أمر تافه هذه التفاهة ؟ » ذلك ما كان يغيظنى • أضف الى ذلك أن شعورى بأننى أملك فى قرارة نفسى ، مهما أَبدُ للناس مضحكاً وحقيراً ، كنزاً من قوة سيجبرهم على أن يغيروا حكمهم عليَّ فى ذات يوم ، أقول ان هذا الشعور ـ الذى لازمنى منذ سنى طفولتى الذليلة ـ كان فى ذلك الحين هو النبع الوحيد الذى يروى حياتى ، وكان ضيائى ، وكان تراثى وكان سلاحى وكان عزائى ، ولولا ذلك لانتحرت منذ أن كنت طفلاً • فهل كان فى وسعى ألا أغضب من نفسى حين أرى المخلوق التافه الذى كنت أصير اليه أمام مائدة القمار ؟ ذلك هو السبب فى أننى أرى اليوم هذا رؤية واضحة • وعدا هذا السبب الرئيسى ، كان الغرور التافه يتأذى أيضاً : كانت الخسارة فى القمار تخفض قدرى فى نظر الأمير ، وتخفض قدرى فى نظر فرسيلوف ، (وان يكن فرسيلوف لم يتنازل يوماً فيقول شيئاً عن هذا) وتخفض قدرى فى نظر الجميع ، حتى فى نظر تاتيانا بافلوفنا ـ ذلك ما كان يتراءى لى على الأقل ، ذلك ما كنت أحسه • وهناك أخيراً اعتراف يجب أن أدلى به : كنت قد فسدت • أصبح صعباً عليَّ أن أتخلى عن عشائى المؤلف من سبعة أطباق فى المطعم ، وأن أتخلى عن ماتفئى ، وعن المتجر الانجليزى ، وعن رأى بائع العطور الذى أشترى منه عطورى ، أصبح صعباً عليَّ أن أتخلى عن هذا كله • ولقد وعيت هذا حينذاك ، لكننى أغمضت عينىَّ • والآن حين أدوِّن هذه الحقائق انما احمر منها خجلاً •

٣

دخلت وحيداً ووجدتني في جمهور غريب ، فجلست أول الأمر الى ركن من المائدة وأخذت أقامر بمبالغ صغيرة . ولبثت على هذه الحال ساعتين لا أتحرك . ساعتين راكدتين ركوداً رهيباً : فلا حظ ولا سوء حظ . وأفلتت مني فرص رائعة ، فحاولت ألا أغضب، وأن أنتصر بهدوئي وثقتي . وكان حاصل الحساب خلال هاتين الساعتين أنني لم أربح ولم أخسر . فالثلاثمائة روبل التي كانت معي قد نقصت عشرة روبلات او خمسة عشر روبلا . وأحنقتني هذه النتيجة التافهة ، وحدثت لي عدا ذلك حادثة زادتني حنقاً . انني أعلم أن المرء يلقى حول موائد الروليت هذه لصوصاً ، لصوصاً لم يجيئوا من الشارع ليسرقوا ، ولكنهم من بين القامرين المعروفين . فأنا مقتنع مثلاً بأن المقامر الشهير آفردوف سارق . وهو يظهر في المدينة شامخ الأنف . وقد رأيته منذ مدة قصيرة مع فرسين . ولكن هذا لا ينفي انه سارق ، وأنه سرقني . على أن لهذه الحادثة حديثا سيجيء حينه فيما بعد . أما ذلك المساء فلم يكن الا مقدمة : لقد ظللت طوال تينك الساعتين جالساً الى ركن من المائدة ، وكان الى يساري مفزور صغير ، أنيق الهندام ، أظن أنه يهودي ، هو عضو في جماعة لا أدري ما هي ، كما أنه يكتب ويُنشر له ما يكتب . كنت قد ربحت في آخر لحظة عشرين روبلا على حين فجأة : فكانت أمامي ورقتان حمراوان ، فاذا أنا أرى اليهودي الصغير يمد يده ويجذب اليه احدى الورقتين بأكبر هدوء ممكن . فهممت أن أوقفه ، ولكن ها هو ذا يعلن لي بلهجة وقحة وبدون

أن يرفع صوته أن هذا ربحه هو ، فقد حظ وربح . حتى أنه لم يشأ ان يتابع الحديث معي ، بل أدار لى ظهره . وشاءت المصادفة التى تشبه العمد أن أكون عندئذ في أشد حالاتى النفسية حماقه ، اذ كنت قد تصورت فكرة كبيرة . فلم أزد على أن بصقت ، ثم نهضت بسرعه وانصرفت ، دون ان أناقش ، مهدياً اليه ورقتى النقدية الحمراء . وكان من الصعب على كل حال أن أسوّى الأمــر مع وغد حقير مثله ، فقد فعل فعلته وانقضى وقت ، واستمر اللعب . لكن سكوتى كان غلطة كبيرة نجمت عنها نتائــج وبيلة : فان ثلاثة أو أربعــة من المقامرين حولنا قد لاحظوا هذه المناقشة ، ورأوا تراجعى السريع فلابد أنهم اعتقدوا انني غشاش . وكان الليل قد انتصف. مضيت الى الغرفة المجـاورة ، ووضعت خطه جديدة ، ثم رجعت فبـدّلت أوراقى النقدية من البنك قطعاً ذهبية . فأصبح بين يدىّ أكثر من أربعين قطعـة جعلتهـا عشرة أقســـام وقررت أن أحط عشر مـرات متتالية على « الصفر » ، أى أربعة أنصــاف من الليرات الامبراطورية في كل مرة ، حطةً بعد أخرى ، قائلا لنفسى : « ان ربحت كان هذا حظى وان خسرت فهذا أفضــل : فلن ألعب بعد اليوم أبداً » . يجب أن أذكر أن الصفر لم يخرج خلال هاتين الساعتين مرةً واحدة ، حتى أصبح لا يحط أحد عليه .

كنت ألعب واقفـاً ، صامتـاً ، مقطباً حاجبىّ كازاً أســـنانى . وهذا زرشتشيكوف يعلن في المرة الثالثة بصوت عال عن خروج « الصفر » بعد أن لم يخرج مرة واحدة طوال السهرة . فنقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصــاف الليرات الامبراطورية الذهبيــة . بقيت لى ســبع حطات . واستمررت ، وكان كل شيء في أثناء ذلك يضطرب من حولى ويتراقص .

ـ تعال الى هنا ، تعال الى هنا ، فهنا هنا الحظ !

كذلك صحت منادياً من فوق الطاولة مقامراً كنت بقربه قبل لحظة ، وهو رجل ذو شارب أبيض ووجه أحمر كان يرتدى رداء رسمياً ، وكان

يقامر منذ عدة ساعات بمبالغ زهيدة فيخسر فى كل مرة ، فيصبر صبراً لا يمكن وصفه • فصاح ذو الشارب من أقصى الطاولة يسألنى بدهشة فيها تهديد :

ـ أ اياى تنادى ؟

فقلت :

ـ نعم ، اياك أنادى ، فهناك ستخسر كل شىء !

فقال :

ـ هذا ليس شأنك ، فدعنى ولا تزعجنى !

ولكننى كنت قد فقدت سيطرتى على نفسى • وكان يجلس أمامى فى الجهة الأخرى من المائدة ضابط مسن ، فلما رأى حطتى على الصفر ، دمدم يقول لجاره :

ـ غريب : الصفر • لا ، لا ، لن أحط على الصفر أبداً •

فصحت أقول له وأنا أحط مرةً أخرى :

ـ بل تجرأ يا كولونيل !

فانبرى يقول لى بعنف :

ـ أرجوك ألا تزعجنى أيضاً • لست فى حاجة الى نصائحك • انك تحدث صخباً كثيراً هنا •

ـ اننى أسدى نصيحة حسنة • هل تريد أن تراهن على أن الصفر الذى سيطلع فى هذه المرة أيضاً ؟ أتراهن على عشر قطع ذهبية ؟

قلت ذلك وأنا أمد عشرة أنصاف ليرات امبراطورية ذهبية • فقال لى بلهجة خشنة قاسية :

ـ عشر قطع ذهبيــة ؟ أراهن ؟ مستعد ! أراهن على ان الصفر لن يطلع هذه المرة !

ـ عشرة دنانير لويس يا كولونيل !

ـ ما عشرة دنانير لويس ؟

ـ أى عشرة أنصــاف ليرات ذهبيــة ، وهى تسمى فى اللغة النبيلة عشرة دنانير لويس .

ـ قل اذن عشرة أنصـــاف ليرات امبراطورية ، ولا تمزح معى !

ولم أكن آمــل أن أربح الرهان طبعاً : فان حظ الصفر فى الطلوع لا يعدو أن يكون واحداً من سبعة وثلاثين حظاً . ولكننى انما عرضت هذا الرهان أولاً من أجل أن « أثير الدهشــة » وثانياً من أجل أن اجتذب الىّ مودة الآخرين . كنت قد رأيت أن أحداً هنا لا يحبنى وأنهم يجدون لذة فى اشعارى بذلك . وأخذت الروليت تدور ، فما كان أشد ذهول الجميع حين طلع « الصفر » مرة أخرى ! حتى لقد انطلقت صرخة عامة شاملة . وذهبت نشوة الانتصــار بصوابى ! و'نقدت مائة وأربعين نصفاً من أنصاف الليرات الامبراطورية الذهبية . وسألنى زرشتشيكوف ألا أريد أن أقبض جزءاً من المبلغ أوراقاً نقدية ، فأجبته بغمغمة غير مفهومة ، لأننى أصبحت عاجزاً بالفعل عن التعبير بهدوء ووضوح . كان رأسى يدور ، وكانت ساقاى تصطكان . وأحسست فجــأة بأننى سأتعرض الآن لخطر رهيب . وكنت أرغب فى أن أقوم بعمل آخــر ، أن أعرض رهاناً جديداً ، أن أنقد أحداً آلاف الروبلات . لمت كدسة القطع الذهبية والأوراق النقدية براحة يدى دون وعى ، ولم أستطع أن أعدّها . وفى تلك اللحظــة لاحظت الأمــير ودارزان ورائى فجـــأة ، وكانا آتيين من لعب البكاراه بعــد أن خسرا هنالك كل شىء كما علمت ذلك فيما بعد .

صحت أقول لدارزان :

ـ هيه دارزان ! هنا حظك ! حطّ على الصفر .

فأجابني قائلاً بخشونة :

ـ خسرت كل شيء فليس معي مال .

وتظاهر الأمير بأنه لم يلاحظ شيئاً ، وبأنه لم يعرفني . فصحت أقول لدارزان وأنا أريه كدسة الذهب التي أمامي :

ـ اليك المال ، فخذ ما شئت . كم تريد ؟

فصرخ دارزان يقول وقد احمر احمراراً شديداً :

ـ غريب أمرك . أنا لم أطلب منك شيئاً فيما أظن !

وقال لي زرشتشيكوف وهو يشدني من كمي :

ـ هناك من يناديك .

كان الكولونيل قد ناداني عدة مرات ، وكاد يشفع نداءاته بشتائم ، منذ خسر رهاني معه على عشرة أنصاف الليرات الامبراطورية . وها هو ذا يقول لي وقد تخضب وجهه بحمرة شديدة من فرط الغضب :

ـ خذ ! لست مضطراً أن أنتظرك ! سوف تقول عني انني لم أدفع الرهان . اعدد .

ـ أصدّقك يا كولونيل ، أصدّقك ، أصدّقك بدون أن أعد . لكنني أرجوك ألا تصرخ غاضباً مني ، أرجوك ألا تزعل .

ولممت كدسة ذهبية بيدي . فصرخ الكولونيل يقول لي بعنف :

ـ أيها السيد العزيز ، أرجو أن تتجه بحماستك هذه الى غيري ، فنحن لم نحرس الخنازير معاً في يوم من الأيام ، وليس بيني وبينك سابق علاقة .

وهتف بعضهم متعجباً بصوت خافت :

ـ انه لأمر غريب أن يُسمح بالدخول لأشخاص من هذا الطراز ! من هذا ؟ فتى صغير ؟

ولكنني لم أكن أصغي ، وطفقت أحط بغير روية ، ولكنني لا أحط على الصفر ، وجعلت حطاتي أعداداً من أوراق مالية .

قال الأمير ورائي :

ـ هيَّا بنا ننصرف يا دارزان !

فقلت وأنا التفت اليهما :

ـ الى البيت ؟ انتظراني فننصرف معاً . انتهيت

لقد ربحت . فكان ربحي ضخماً . فصرخت أقول :

ـ كفى !

وبيدين مرتعشتين لمت الذهب وسكبته في جيوبي دون أن أعده ، وأخذت أدعك الأوراق النقدية بحركات خرقاء بين أصابعي أريد أن أدسها جميعاً في جيب جانبي من سترتي ، فاذا بيد سمينة يزينها خاتم ، هي يد آفردوف الذي كان الى يميني وكان قد حطَّ مبالغ ضخمة ، اذا بيده تطبق على ثلاث من أوراقي وتغطيها براحتها . وقال يخاطبني بخشـــونه مقطعاً كلماته مرققاً صوته :

ـ اسمح لي ، هذه ليست لك !

كانت هذه هي المقدمة التي تحملت نتائجها الرهيبة بعد بضعة أيام . اني لأقسم اليوم بشرفي أن تلك الأوراق الثلاث (وهي من فئة المائة روبل) كانت لي ، ولكن شاء سوء حظي أن ظلاً من شك قد ساورني حنيئذ رغم اقتناعي الكامل ، وذلك شيء له خطورته عند من يحرص على أن يـكون

انسانا شريفا ، وأنا انسان شريف ، ولاسيما أنني كنت لا أعلم في ذلك الحين علم اليقين ان افردوف لص ، بل كنت أجهل حتى اسمه ، فلم يكن في وسعي أن أصدق حقا أنني لست مخطئا وأن هذه الأوراق الثلاث ليست من الاوراق التي عدت لي • ولقد كنت طوال السهرة لا أعد كدسة اموالي ، بل اقتصر على لمها بيدي ، اما افردوف فكان يرتب ماله أمامه معدودا محسوبا بجانب مالي • وكان افردوف عدا ذلك معروفا في هذا البيت ، وكانوا يعدونه هنالك رجلا واسع الثراء ، وكانوا يعاملونه باحترام : فكان من شأن ذلك كله أن فرض مهابته علي ، فاذا أنا أسلم مرة أخرى بغير اعتراض • يا للغلطة الفظيعة ! وأنكى ما في الأمر كله أنني كنت في حماسة شديدة • فلم أزد على أن قلت مرتعش الشفتين من الاستياء :

ـ يؤسفني أنني لا أتذكر تذكراً دقيقاً ، ولكن يخيل الي أن هذه الأوراق لي أنا •

فسرعان ما أثارت كلماتي هذه دمدمات تذمر • وقال آفردوف بلهجة فيها استعلاء لا يطاق :

ـ لكي يقول المرء مثل هذا الكلام يجب أن يكون « واثقاً » ، وأنت تعترف بأنك لا تتذكر تذكراً دقيقاً •

وهتفت أصوات عدة تقول متعجبة :

ـ من هذا الفتى ؟ كيف يسمح بمثل هذه الأمور ؟

وارتفع صوت وبش يقول بجانبي :

ـ ما هذه أول مرة • فمنذ قليل اراد هذا الفتى أن يسطو على ورقة عشر روبلات من مال رخبرج •

فصحت أقول :

ـ طيب ، كفى ، كفى ! لست أعترض • خـذ ما تشاء ! يا امير •
ولكن أين الامير و دارزان ؟ انصرفا ؟ يا سـادة ، ألم تروا من أى جه
خرج الأمير و دارزان ؟

ولممت أخيرا مالى كله • وبدون أن أتريث لأدس فى أحـد جيوبي
عدداً من أنصـاف الليرات الامبراطورية كان بيدى ، اندفعت ألاحق الأمير
و دارزان • ان القارىء يرى الآن رؤية واضـحة أننى لا أستر عيوبى
وأننى أتذكر تذكراً كاملاً كيف كانت حالى فى تلك اللحظة ، وكيف كنت
أحمق غاية الحماقة ، فيستطيع أن يفهم ما حدث بعد ذلك •

كان الأمير و دارزان قد بلغا أسفل السلم ، ولم يوليا ندائى وصيحاتى
أىّ انتباه • وقد وصلت اليهما ، لكننى تلبثت لحظةً أمام البواب السويسرى
فدسست فى يده ثلاثة أنصاف من الليرات الامبراطورية ، لا أدرى لماذا
فنظـر الىّ البواب متحيّراً ، حتى أنه لم يشـكرنى ، ولكننى لم أكترث
بذلك ؟ ولو كان ماتفشى هناك ، اذن لناولته قبضةً من القطع الذهبية حتماً
فاننى كنت قد عقدت النية على ذلك جازماً ، ولكن ما ان وضعت قدمى على
درج الباب حتى تذكرت فجـأةً أننى صرفت ماتفشى • وفى تلك اللحظة
كانت عربة الأمير تتقدم نحو البـاب ، فركبها الأمير ، فصحت أقول وأنا
أمسك وقاء العربة وأرفعه لأجلس بجانبه :

ـ أنا آت معك يا أمير !

ولكن دارزان مرّ أمامى فجأة ، فوثب يركب العربة ؟ وانتزع منى
الحوذى الوقاء فغطى به سيّديه ، فصحت أقول خارجا عن طورى :

ـ يا للشيطان !

لكأننى ما رفعت الوقاء الا ليركب دارزان ، مثلما يفعل خادم • وصاح
الأمير يهيب بالحوذى قائلاً :

ـ الى البيت !

فصرخت معولاً وأنا أتشبث بالعربة :

ـ قف !

ولكن الحصان جرّ العربة ، فتدحرجت على الأرض . ثم لم ألبث أن نهضت ، ووثبت أركب أول عربة رأيتها ، وطرت الى منزل الأمير وأنا أستحث الحوذى في كل لحظة ، فأنهك الحصان المسكين .

٤

الحصان يجرى بطيئاً كأنما ليزيد حنقى ، والحوذى لا يبرح يضربه بسوطه لأننى وعدته بروبل مكافأة . وقلبى يخفق خفقاناً شديداً . أخذت أكلم الحوذى ، ولكن الكلمات لا تخرج من فمى ، فكنت أتمتم تمتمةً بسخافات لا أدرى ما هى . تلك كانت حالى حين هرعت الى الأمير .
وقد أوصل الأمير صاحبه دارزان الى بيته . فهو الآن وحيد ، يذرع حجرة مكتبه شاحب اللون منقلب السحنة . يجب أن أذكر مرة أخرى أنه كان قد خسر فى القمار كثيراً . وها هو ذا ينظر الىّ فى حيرة وذهول ، ثم يقول مقطباً حاجبيه :

ـ أ أنت أيضاً ؟

فقلت وأنا أختنق :

ـ جئت لأنهى صلتى بك . كيف تجرأت أن تعاملنى هذه المعاملة ؟

فرشقنى بنظرة مستفهمه . قلت :

ـ اذا كنت قد أردت أن تصطحب دارزان ، فما كان عليك الا أن تقول لى انك ستصطحب دارزان ، ولكنك أجريت الحصان ، فاذا بى ...

ـ آ ... نعم ... أظن أنك وقعت أنت فى الثلج .

قال ذلك وطفق يضحك . قلت :

ـ هذه أمور يـكون الرد عليها بدعوة الى مبارزة ، ولذلك سنصفي أولاً حساباتنا ...

واستللت أموالى بيد مرتعشة ، فوضعت بعضها على الديوان ، وبعضها على المنضدة الرخامية ، بل وضعت بعضها الآخر على كتاب مفتوح ، وكنت أتناولها بقبضة يدى ملأى ، وألقيها حزماً وأكداساً ، حتى لقد تدحرجت قطع ذهبية كثيرة على السجادة . قال :

ـ ها ... نعم ... أظن أنك ربحت كثيراً ؟ يدرك المرء ذلك من لهجة كلامك .

انه لم يكلمنى بمثل هذه الوقاحـة فى يوم من الأيام وكان وجهى شاحباً شحوباً شديداً .

ـ يوجد هنا ... لا أدرى كم يوجد ... يجب أن نعد ... اننى مدين لك بثلاثة آلاف ... أم ماذا ؟ أأكثر أم أقل ؟

ـ أظن أننى لا أجبرك على أن تدفع لى شيئاً .

ـ بل أنا الذى أريد ذلك . ولابد أنك تعرف لماذا . خذ !

وطفقت أعد المال بيد مرتجفة ، ولكننى ما لبثت أن عدلت عن العد ، قائلاً له :

ـ لا يهمنى أن أعرف المجموع معـرفة دقيقة . أنا أعرف أن ههنا ألف روبل . فسآخذ هذه الألف لنفسى ، وخذ أنت الباقى كله ، خذ هذه الأكداس جميعها ، سـداداً لدينك علىّ أو لبعض دينك علىّ : أظن أن الباقى يبلغ نحو ألفى روبل وقد يزيد .

قال الأمير مبتسماً :

ـ وتلك الألف الأولى تحتفظ بها لنفسك مع ذلك ؟

ـ أأنت فى حاجـة اليها ؟ اذن ... أعطيك اياها ... كنت أظن أنك قد لا تريد أن ... ولكن خذها اذا وجب أن تأخذها ...

ـ لا ، لا أريد .

قال ذلك وأشاح عني باحتقار ، وعاد يذرع الغـرفة ذاهبا آيباً . ثم التفت الىّ فجأة وقد لاحت فى وجهه معانى التحدى والاستفزاز :

ـ ولكن ما الذى جعلك تفكر فى سداد ديونك ؟

فزأرت أقول أنا أيضاً :

ـ انما أرد اليك مالك لأستطيع أن أحاسبك على ما فعلت !

ـ اذهب الى الشيطان أنت وألفاظك الضخمة واشاراتك الأبدية !

وقرع برجليه الأرض كأنما هو خرج عن طوره ، وأضاف يقول :

ـ اننى أريد منذ مدة طويلة أن أطردكما كليكما أنت وصاحبـك فرسيلوف .

صرخت أقول :

ـ هل جُننت ؟

وكان كمن جُنّ فعلاً . وتابع كلامه قائلاً :

ـ لقد عذبتمانا تعذيبـاً رهيبـاً بجملكما المتفخمة . دائمـاً جمل ، جمل ، جمل ! فيما يتعلق بالشرف مثـلاً ! أف ! اننى أريد منـذ مدة طويلة أن أقطع صـلتى بكمـا . ويسرنى ، يسرنى أنه آن الأوان . كنت أظن أننى مرتبط ، وكنت أحمر خجلاً من أننى مضطر أن أستقبلكما ... كليكمـا ! أما الآن فأرى أننى غير مرتبط بشىء ، غير مرتبط بشىء ، ألا فاعلم ذلك ! لطالمـا حضنى صـاحبك فرسـيلوف على أن أهاجـم آخماكوفا ، وأن ألطخ شرفها بالعار ... لا تتكلما عن الشرف بعد اليوم

عندي أبداً ! كلاكمـــا غير شريف ، كلاكمـا غير شريف ! وأنت ، ألم تستح أن تأخذ مالى ؟

زاغ بصرى ، وقلت متمتماً برفق :

ـ أنا اقترضت منك كمـا يقترض رفيق من رفيقـه ، وأنت الذى عرضت علىّ أن تقرضنى فصدّقت حسن نياتك ...

ـ ما أنا رفيقك ! لقد أعطيتك مالاً ، ولكن لغير هذا الغرض ، أنت تعلم لماذا أعطيتك ،

ـ أعطيتنى من حساب فرسيلوف ، وذلك غباء طبعاً ، ولكن ...

ـ لم يـكن فى امكانك أن تأخذ من حساب فرسيلوف بدون اذنه ، ولا كان فى امكانى أن أعطيـك ماله بغـير اذنه ... فانا انما أعطيتك من مالى ، وكنت أنت تعرف ذلك ، كنت تعرفه وكنت ترضاه ، ولشدما قاسيت أنا فى بيتى من تمثيل هذه المسرحية الكريهة ،

ـ ما الذى كنت أعـرفه ؟ عن أية مسرحيـــة تتكلم ؟ ولماذا كنت تعطينى اذن ؟

ـ لجمال عينيك يا ابن عمى ! ،

قال هـذه الجملة السـاخرة بالفرنسـية ، وطفق يضحك أمامى ، فصرخت معولاً أقول :

ـ اذهب الى الشيطان ! خـذ كل شىء ، اليك هذه الألف أيضـاً ! هاقد سددت دينى كله الآن ، وغداً ...

ورميت له كدسة الأوراق المالية التى كنت قد احتفظت بها لنفسى ، فسقطت على صـــديرته ، وتدحرجت الى الأرض ، فاذا هو يتقدم منى

ثلاث خطوات سريعة واسعة ، ويقول لى بغتةً بلهجة وحشية وكلمات مقطّعة :

ـ هل تجرؤ أن تدّعى أنك حين كنت تأخذ منى المال طوال هذا الشهر ، كنت تجهل أن أختك حبلى منى ؟

ـ ماذا ؟ كيف ؟

كذلك هتفت أسأله . وارتخت ساقاى فأصبحتا لا تستطيعان حملى فتهاويت على الديوان خائر القوى .

لقد ذكر لى هو نفسه فيما بعد أن وجهى اصفر اصفراراً شديداً يشبه أن يكون بياضاً كبياض منديل .

اضطرب ذهنى . وأذكر أن كلاً منا قد حدّق الى عينى صاحبه صامتاً . وألمّ بوجهه هو نوع من ذعر . ومال علىّ فجأة ، فأمسكنى من كتفىّ يسندنى . انى أتذكر ابتسامته المتجمدة تذكراً واضحاً كل الوضوح . لقد قرأت فيها معانى الشك والدهشة . نعم ! لم يكن يتوقع لكلماته أن تحدث فى نفسى هذا الأثر ، لأنه كان موقناً بأننى على علم بالأمر ، وبأننى كنت آثماً .

وأغمى على اخيرا ، غير أن الاغماء لم يدم الا دقيقة واحدة . فلما أفقت وقفت على قدمى ونظرت اليه وفهمت . لقد انكشفت الحقيقة فجأة لفكرى الذى طال نومه ! لو قد حكى لى الأمر من قبل وسئلت ما عسانى صانعاً بالرجل ، اذن لأجبت حتماً بأننى سأمزقه تمزيقاً . ولكن ما حدث كان غير هذا تماماً ، وقد حدث بغير ارادتى أبداً : فاننى لم ألبث أن دفنت وجهى بيدىّ فجأةً ، وأخذت أذرف دموعاً حارة مُرّة . ذلكم ما حدث . لقد انبعث الطفل الصغير فى الرجل الشاب . معنى ذلك أن الطفل

الصغير كان لا يزال حياً في نفسي ، وتهالكت على الديوان وطفقت انشج منتحباً : « ليزا ! ليزا ! ليزا المسكينة ! » •

وعندئذ صدّقني الأمير تصديقاً تاماً • فهتف يقول بحزن عميق :

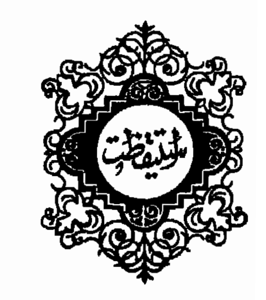
ـ آه ! ما أكبر الذنب الذي ارتكبته في حقك ! ما أبشع الأشياء التي تصورتها عنك ! سامحني يا آركادي ماكاروفتش !

فانتفضت ، وأردت أن أقول له شيئاً ، وتسمرت أمامه ، ولكن دون أن أنطق بكلمة ، ثم لم ألبث أن ولّيت هارباً من الغرفة ومن البيت •

رجعت الى مسكني سائراً على القدمين ، ولا أكاد أتذكر كيف وصلت • ارتميت على سريري ، مكباً بوجهي على الوسادة في الظلام ، ورحت أفكر وأفكر • ان الأفكار في مثل هذه اللحظات لا تتسلسل متسقة منسجمة أبداً ، ويكون الفكر والخيال كأنهما معلقان بخيط يترجح ويتراقص • أذكر أنني أخذت أحلم بأشياء غريبة كل الغرابة عما أنا فيه ، بل بأشياء لا يعلم الا الله ما الذي جعلها تخطر ببالي ! ولكن حزني وشقائي ما يلبثان أن يدركاني مؤلمين موجعين ، فأعقف يديّ كمداً ، وأصيح قائلاً : « ليزا ! ليزا ! » ، وأعود أسكب دموعاً سخينة غزيرة • لا أدري كيف نمت ولكنني نمت نوماً عميقاً هادئاً •

الفصل السابع

١



فى نحو الساعة الثامنة من الصباح ، فسارعت أقفل بابى بالمفتاح فوراً ، وجلست أمام النافذة ، وعدت أحلم من جديد . وبقيت على هذه الحال حتى الساعة العاشرة . وقد قرعت الخادمة الباب مرتين ، لكننى طردتها . وبعد الساعة العاشرة قُرع الباب مرةً أخرى ، فأوشكت أن أصرخ أيضاً ، لولا أن عرفت أنها ليزا . وقد دخلت الخادمة معها : جاءتنى بقهوتى ، واستعدت لاشعال المدفأة . فكان يستحيل أن أطردها . فكنت طوال الوقت الذى قضته فى وضع الحطب واشعال النار أذرع غرفتى الصغيرة بخطى واسعة ، دون أن أشرع فى الحديث ، متحاشياً أن أنظر الى ليزا . وكانت الخادمة تعمل ببطء شديد ، وتتعمد هذا البطء تعمداً ، كما تفعل جميع الخادمات فى مثل هذه الحالة ، حين يلاحظن أن أسيادهم متحرجون من الكلام بحضورهن . وكانت ليزا جالسةً على المائدة أمام النافذة تتابعنى بنظرها . فقالت فجأة :

ـ توشك قهوتك أن تبرد .

فنظرت اليها . لم أر فى وجهها أثراً لاضطراب ، فوجهها هادىء هدوءاً تاماً ، حتى أن ابتسامة كانت تلم بشفتيها .

قلت محدثاً نفسى وأنا أرفع كتفى : هذه هى النساء !

وانتهت الخادمة أخيراً من اشعال المدفأة ، وشرعت فى تنظيف الغرفة

وترتيبها • ولكننى طردتها طردا صارماً ، وأقفلت الباب بالمفتاح من جديد •

سألتنى ليزا :

ـ قل لى ، من فضلك ، لماذا أغلقت الباب ثانية ؟

فتسمرت أمامها ، وهتفت أقول فجأة دون أن يكون قد خطر ببالى أن تكون هذه بداية كلامى :

ـ ليزا ، كيف أمكن أن تظنى أنك ستظلين تخدعيننى ؟

لم أذرف فى هذه المرة دموعاً ، وانما اجتاحت قلبى عاطفة تشبه أن تكون شراً ، حتى اننى لم أكن أتوقع ذلك أنا نفسى • فاحمرت ليزا ولكنها لم تجب ، وانما ظلت تحدق الى عينى •

ـ انتظرى يا ليزا ، انتظرى ! آه ••• ما أغبانى ! ولكن هل كنت غبياً الى هذا الحد من الغباوة حقاً ؟ ان التلميحات كلها لم تتجمع حزمة واحدة الا بالأمس ، أما قبل ذلك فكيف كان يمكننى أن أحزر ؟ أكان يمكننى أن أحزر الحقيقة لأنك كنت تذهبين الى ستولبيافا أو الى ••• داريا أونيسيموفنا هذه ؟ لقد كنت أعدك شمساً يا ليزا ، فكيف كان يمكن أن يخطر ببالى ••• ؟ انك تتذكرين كيف استقبلتك منذ شهرين عنده ، وكيف مضينا نتنزه فى الشمس معاً ، وكيف سررنا أعظم السرور • هل كانت الأمور بينكما جارية منذ ذلك الحين ؟

فأومأت ليزا برأسها لتقول نعم •

ـ اذن كنت تخدعيننى منذ ذلك الحين يا ليزا ! لا ، يا ليزا ، لم يكن ذلك منى غباء ، بل كان أنانية • ليس الغباء هو المسئول ، وانما أعمتنى الأنانية ، وأعمتنى ثقتى الكبيرة بقداستك • كنت لا أنظر الا فى نفسى • وعلام أنظر فيكم أنتم ؟ لقد كنت واثقاً بكم جميعاً ، وكنت أعدكم أعلى

مني كثيراً ! وأمس ، في البيت ، لم يستطع سـلوككم الغريب أن يزيـل الغشاوة عن بصري ، وكنت عـدا ذلك مشغول البال بأمور أخرى ، فلم أستطع أن أدرك شيئاً ، رغم جميع الاشارات والتلميحات .

وتذكرت في تلك اللحظة كاترين نيقولايفنا فجأة . فأحسست مرةً أخرى بألم يشبه أن يكون وخز ابرة في القلب ، واحمر وجهي احمراراً شديداً . فكان طبيعياً ألا أستطيع أن أكون عندئذ طيباً .

قالت ليزا بصوت رفيق لكنه جازم :

ـ ولكن عمَّ تعتذر يا أركادي ؟ يبدو لي أنك تحاول أن تعتذر عن شيء ، أن تبرىء نفسك من شيء ، ولكن عمَّ تعتذر ؟ مم تبرىء نفسك ؟

ـ ما الذي يجب عليَّ أن أفعله الآن ؟ لو لم يكن ثمة الا هذا السؤال لكفى . فكيف تقولين ممَّ تبرىء نفسك ؟ لقد أصبحت لا أعرف كيف أتصرف ! لست أعلم ماذا يفعل الاخوة في مثـل هذه الحـالة .. أعلم أن منهم من يجبر الجاني على الزواج مشهراً عليه المسـدس ... ولسوف أتصرف كما يجب أن يتصرف رجـل شريف . لكنني أجهل كيف ينبغي أن يتصرف رجل شريف ! لماذا ؟ لأننا لسنا من طبقة النبلاء . انه أمير . وهو يصنع حياته ويهيىء مستقبله ، فلن يرضى حتى أن يصغي الينا نحن الشرفاء . وأنا وأنت لسنا أخاً وأختـاً ، وانما نحن ولدا زنا بغير اسم ، نحن من أولاد الأقنان . هل يتزوج الأمراء بنات أقنان ؟ آه ... ياللعار ! وتظلين تنظرين اليَّ وتُدهشين ؟ ...

فاحمرت ليزا من جديد ، وقالت :

ـ أظن أنك معذب ، ولكنك تتسرع كثيراً وتؤذي نفسك ..

ـ أتسرع ؟ أفي رأيك اذن أنني لم أتأخر ؟ أأنت تقولين هذا الكلام يا ليزا ؟ (أخيراً نشط خيالي) . ما أكثر ما تكدس عليَّ من عار مع ذلك ،

وما اسد الاحتقار الذى لابد ان هذا الأمير قد حمله لى ! اه ... الان أصبح كل شيء واضحاً . الان اصبحت اللوحه كلها ماثله امامى : لقد تصور اننى عرفت صلته بك منذ مدة طويلة ، ولكننى سكت عليها ، أو حتى شمخت بأنفى تباهياً « بالشرف » العظيم ـ ذلك ما تصوره عنى . وتصور أننى كنت آخذ ماله فى سبيل أختى ، تصوّر أننى كنت آخذ ماله ثمناً لعرض أختى . وذلك ما كان يشمئز منه . وانى لأعذره ، أعذره كل العذر : فليس غريباً أن يضيق ذرعاً بمخلوق دنيء يُضطر أن يلقاه مرةً بعد مرة كل يوم لا لشيء الا أنه « أخوها » ، وأن يسمعه ـ فوق ذلك ـ متحدثاً عن الشرف ... ذلك خليق بأن يقسى قلب المرء ، أن يقسى حتى قلب رجل مثله ! وقد ارتضيت أنت هذا كله ، ولم تنبهينى ! لقد بلغ من شدة احتقاره لى أنه كان يحدث عنى ستيبلكوف ، حتى لقد قال هو نفسه بالأمس انه يريد منذ مدة طويلة أن يطردنا كلينا أنا وفرسيلوف . وهذا اذن ما جعل ستيبلكوف يقول : « ان آنا آندرييفنا أختك مثل اليزابت ما كاروفنا سواء بسواء » ، حتى لقد صرخ يقول ورائى : « مالى أنا أفضل » . وكنت أنا استلقى فى بيت الأمير على دواوينه مسترخيا ، وكنت ألتصق بأصدقائه ندا لهم ونظيراً ! وسمحت أنت بهذا كله ! ولا شك أن دارزان نفسه على علم بالأمر الآن ، كما تدل على ذلك لهجته فى مساء أمس .. جميع الناس عارفون بالأمر ، جميعهم عارفون به ، الا أنا ! ...

قاطعتنى ليزا تقول :

ـ لا أحد يعرف . انه لم يتحدث الى أحد من أصدقائه ، انه لم يستطع أن يتحدث الى أحد منهم . أما ستيبلكوف هذا ، فأنا أعرف أنه يعذبه ، وأن ستيبلكوف قد استطاع أن يشتبه اشتباهاً فى أكثر تقدير ... أما أنت فقد كلمته عنك مراراً ، وصدّق ما قلته له تصديقاً كاملاً ...

لقد قلت له انك تجهل كل شيء ، ولكنني لا أدرى لماذا وكيف حدثت هذه القصة بينكما أمس .

ـ الحمد لله على أنني دفعت له دينه أمس ، فتخففت على الأقل من هذا الحمل الذى يجثم على قلبى ! ليزا ، هل ماما على علم بالأمر ؟ ولكن كيف لا تكون على علم به . انها بالأمس ثارت علىّ ! آه يا ليزا ! ولكن هل يمكن أن تعتقدى بأنك على حق ؟ ألا تتهمين نفسك بشيء ؟ انني لا أدرى كيف يُحكم على هذه الأمور اليوم ، ولا أدرى ما هى آراؤك ، أقصد ما هى آراؤك فىّ ، فى أمك ، فى أخيك ، فى أبيك ! هل فرسيلوف على علم ؟

ـ لم تقل له ماما شيئاً . وهو لا يسأل عن شيء . لاشك أنه لا يريد أن يسأل .

ـ يعلم ولكنه لا يريد أن يعلم . هذا هو الأمر . ذلك فى طبيعته . طيب ، وفى وسعك أن تسخرى من أخيك ، من أخيك الغبى ، اذا هو تكلم عن مسدسات ، ولكن هلا فكرت فى أمك ؟ ألم تحدثك نفسك أبداً يا ليزا بأن ما فعلته هو ملامة لأمك ؟ لقد عذبتنى هذه الفكرة طوال الليل . ان الفكرة الأولى عند ماما اليوم هى هذه : « لقد أثمت ابنتى لأننى أثمت أنا أيضاً . هل تلد الحية الا الحية ؟ » .

ما ان سمعت ليزا هذا الكلام حتى طفرت الدموع من عينيها ، وهتفت تقول :

ـ آه ما أقسى هذا الذى تقوله وما أسوأه !

ثم نهضت وسارت مسرعةً نحو الباب ، فقلت لها :

ـ قفى قفى !

وأمسكتها ، وأجلستها من جديد ، وجلست بقربها دون أن أسحب يدى . قالت :

ـ كنت أقدّر ، وأنا آتيه الى هنا ، أن هذا كله سيحدث ، وأنك ستكون فى حاجة الى أن أتهم نفسى حتماً . فاغتبطْ : هأنا ذى أتهم نفسى . اننى لم اصمت حتى الآن ولم أمتنع عن الكلام الا كبرياءً ولكننى أشفق عليك وعلى ماما أكثر مما أشفق على نفسى ...

ولم تكمل ليزا جملتها ، وانما انفجرت تبكى . فقلت لها :

ـ كفى يا ليزا ! لا ، لست فى حاجة الى شىء . ما أنا لك بالقاضى يا ليزا . ولكن قولى لى : هل علمت ماما بالأمر منذ مدة طويلة ؟

فأجابت ليزا برقة وهى تخفض عينيها :

ـ أظن . ولكننى لم أذكر لهـا أنا متى وقـع « الأمـر » الا منـذ زمن قصير .

ـ فماذا كان منها ؟

ـ قالت : « احتفظى به » .

نطقت ليزا هذه الكلمات بلهجة فيها مزيد من الرقة . فقلت لها :

ـ نعم يا ليزا ، « احتفظى به » . لا تحـاولى أن تصنعى بنفسـك شيئاً . حماك الله من مثل ذلك !

قالت بثبات :

ـ لن أفعل شيئاً .

ورفعت بصرها الىّ من جديد . ثم أضافت تقول :

ـ اطمئن . ليس الأمر هذا !

ـ ليزا ، عزيزتى ! كل ما أراه هو أننى لا اعلم شيئاً . لكننى علمت

الان أنني احببك • هناك شيء واحد لا افهمه يا ليزا : لقد اصبح كل شيء واضحا لى يا ليزا ، ولكنني لن افهم فى يوم من الأيام ، فهماً كاملاً ، لماذا افتتنت به يا ليزا ؟ كيف أمكن آن تحبى رجلاً مثله ؟ ذلك هو السؤال•

فأجابت ليزا وهى تبتسم ابتسامة رقيقة عذبة :

ـ ولا شك أن هذه الفكرة أيضاً قد عذبتك فى الليل ، أليس كذلك ؟

ـ انتظرى يا ليزا ، هذا سؤال سخيف ، وأنت تستهزئين بى • استهزئى بى ، ولكن من المستحيل على المرء مع ذلك ألا يدهش : أنت و « هو » نقيضان ! لقد درست طبعه : انه رجل قاتم المزاج ، كثير الشك ، قد يكون طيباً ، ولكنه ميال كثيراً الى رؤية الشر فى كل مكان • (هنا على الأقل يشبهنى تماماً) • وهو يحترم النبل احتراماً شديداً ، أعترف بهذا أيضاً وأراه ، ولكننى أعتقد أن هذا الاحترام لا يتعدى نطاق المثل الأعلى • وهو ميّال الى الندم طول حياته بغير انقطاع ، وهو ينحى على نفسه باللائمة دائماً ، ولكنه لا يصلح حاله أبداً (وهو هنا أيضاً يشبهنى على كل حال) • فى رأسه ألف وهم من الأوهام الاجتماعية ، وألف معنى من المعانى الزائفة ، ولكن ليس له فكرة واحدة ! يسعى الى المآثر الكبرى ، لكنه لا يزيد على أن يُراكم دناءات فوق دناءات • معذرة يا ليزا ، اننى أسيء الى شعورك • والحق أننى غبى : فحين أقول هذا الكلام أجرح عاطفتك ، وأعلم أننى أفعل ذلك ؟ اننى أفهم هذا •••

قالت ليزا مبتسمة :

ـ الصورة التى رسمتها كان يمكن أن تكون صحيحة ، ولكنك مسرف فى السخط عليه ، لذلك لم يبق فيها شيء من صحة • لقد ارتاب فيك منذ البداية ، ولم تستطع أن تراه كاملاً ، أما معى أنا فانه منذ أن كنا فى لوجا ••• انه لم ير أحداً غيرى منذ أن كنا فى لوجا ••• نعم انه

كثير الشك مهيأ للمرض ، ولولاى لفقد عقله . ولسوف يفقده اذا هو تركني أو سوف ينتحر .

وأضافت ليزا تقول لنفسها واجمة مفكرة :

ـ أظن أنه يدرك ذلك وأنه يعرفه .

وتابعت كلامها فقالت :

ـ صحيح أنه ضعيف ، ولكن أمثال هؤلاء الضعفاء قادرون أحيانا على أشياء قوية قوة هائلة . ما كان أسخف كلامك عن المسدس يا أركادى: لا حاجة الى شيء من هذا البتة ، وأنا أعرف ما سوف يحدث . لست أنا التى ألاحقه وأطارده ، بل هو الذى يجرى ورائى . ان ماما تبكى وتقول : « اذا تزوجته فسوف تشقين ، لأنه سيكف عن حبك » . أما أنا فلا أصدّق هذا الكلام . قد أشقى ، ولكنه لن ينقطع عن حبى . ليس هذا هو السبب الذى حملنى على تأخير موافقتى ، وانما هنالك سبب آخر . لبثت شهرين لا أوافقه على الزواج . ولكننى أجبته اليوم قائلة : « نعم ، أتزوجك » . هل تعلم يا أركادى (هنا سطعت عيناها وطوقت عنقى بذراعيها فجأة) انه ذهب أمس الى آنا آندرييفنا ، وأبلغها بكلام صريح قاطع أنه لا يستطيع أن يتزوجها ؟ نعم ، لقد أفصح عن نفسه ، وانتهى أمر تلك الفكرة الآن ! وهو لم يشارك فيها أبداً على كل حال ، وانما كان ذلك حلم الأمير نيقولا ايفانوفتش ، وكان ذانك الجلادان ، ستيبلكوف وشخص آخر ، يضغطان عليه ضغطاً شديداً . فكان أن كافأته اليوم بجوابى : « نعم ، أتزوجك » . لا تجرحنك قصة الأمس يا عزيزى أركادى . انه يدعوك اليه ، وهو اليوم مريض ، وسيبقى طول النهار فى البيت . حقاً انه مريض يا أركادى . لا تظنن أن هذا تعلل . لقد أوفدنى اليك خصيصاً ورجانى أن أقول لك انه « محتاج » اليك ، وان فى نفسه أشياء كثيرة يريد أن يقولها لك ، وان هذه الأشياء لو قالها لك هنا فى مسكنك هذا لكانت فى غير محلها .

هيَّا ، الى اللقـاء ! آه يا أركادى ، اننى استحى أن أقول لك هذه الحقيقة ، وهى أننى فى طريقى اليك كنت أشعر بخوف رهيب من أن يكون حبك لى قد زال . فكنت أرسم اشارة الصليب طـوال الطريق . ولكننى أحمد الله على أنك طيب جداً ، ولطيف جداً ! لن أنسى هذا فى حياتى . أنا ذاهبة الى ماما . حاول أن تحبه قليلاً ، هه ؟

فقبلتها بحرارة وقلت لها :

ـ أعتقد يا ليزا أنك قوية الارادة . نعـم ، أصدّق أنك لست أنت التى تجـرين وراءه ، بـل هو الذى يجـرى وراءك . ولـكن ، رغم كل شىء ...

فقالت ليزا تكمل جملتى :

ـ ولكن رغم كل شىء ، « لماذا افتتنت به ؟ هذا هو السؤال » .

قالت هذه الجملة وهى تضحك ضـحكة ماكرة كمـا فعلت من قبل ، ونطقت بعبارة « هذا هو السؤال » مقلدةً لهجتى تقليداً تاماً ، رافعةً ابهامها الى مستوى عينيها مثلما فعلت أنا .

وتعانقنا ، ولكن قلبى انقبض ثانية بعد انصرافها .

٢

أريد أن أسجل هذا لنفسى : بعد انصراف ليزا تلاحقت فى خاطرى أفكار غريبة كثيرة أورثتنى ارتياحاً كبيراً . فكنت أقول لنفسى مثلاً : « لماذا أقحم نفسى فى هذه الشئون ؟ فيم يعنينى هذا الأمر ؟ ان هذه الأشياء تحدث لجميع الناس أو لجميعهم تقريباً . وقد حدثت لليزا . فماذا ؟ هل علىّ أن أنقذ شرف الأسرة ؟ هل علىّ أن أمحو عار الأسرة ؟ » . اننى أسجل هذه الخطرات الحقيرة لأبيّن مدى ما كنت عليه فى ذلك الأوان من ترجح فى فهم الخير والشر . والعاطفة وحدها هى التى أنقذتنى : كنت أعرف أن ليزا شقية ، وأن ماما شقية ؛ كنت أعرف ذلك بالعاطفة حين أفكر فيهما ، فأحس أن كل ما حدث كان شراً ولم يكن خيراً .

والآن يجب أن أذكر أن الأحداث ، منذ هذا اليوم الى يوم كارثة مرضى ، قد تلاحقت بسرعة تبلغ من الشدة أننى أدهش أنا نفسى ـ حين أفكر فيها اليوم ـ من أننى استطعت أن أصمد ، ومن أن القدر لم يسحقنى . لقد تعرض عقلى وتعرضت عاطفتى للمخاطر أثناء تلك الأحداث ، فلو قد نفدت طاقتى فى آخر الأمر فارتكبت جريمة (جريمة أوشكت أن أرتكبها) ، لكان من الممكن جداً أن يبرئنى المحلفون . ولكننى سأحاول أن أقص كل شىء بترتيب محكم ، رغم أن فكرى أثناء تلك الأحداث لم يكن فيه شىء من ترتيب . انى لأنبّه الى هذا . لقد هاجمتنى الأحداث كعاصفة ، فدارت الأفكار فى رأسى كأوراق الأشجار اليابسة فى أعاصير

الخريف . لقد كنت متشبعا حينذاك بافكار الاخرين ، فأين أجد فكرة نابعة من نفسي فاتخذ قراراً حراً ! ولم يكن ثمة من يرشدني .

قررت أن أذهب في المساء الى الأمير ، لأكلمه عن كل شيء بحرية تامة ، والى أن يحين المساء بقيت في البيت . ولكنني حين حل الغسق تلقيت بالبريد رسالةً جديدة من ستيبلكوف ، مؤلفه من ثلاثة أسطر ، يطلب اليَّ فيها بالحاح وبلهجة « مقنعة » الى أبعد حد أن أزوره غداً في الساعة الحادية عشرة من الصباح « لأعمال ذات شأن هام ، وسترى بنفسك ما هي » . فقررت ، بعد تفكير ، أن أتصرف وفقا للظروف ، فالغد لا يزال بعيداً .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة . وكان يمكن أن أمضي الى الأمير منذ مدة طويله ، غير أنني كنت لا أزال أنتظر فرسيلوف : فان هناك أشياء كثيرة يجب أن أعبرَ له عنها ، وكان قلبي يحترق احتراقاً . ولكن فرسيلوف لم يجيء ، وقد أصبحت لا أستطيع في تلك اللحظة أن اظهر عند أمي وليزا ، وكنت أحس من جهة أخرى أن فرسيلوف قد غاب عن البيت طول النهار . فخرجت سيراً على القدمين ، وفيما أنا في الطريق خطر ببالي أن ألقي نظرة على حانة الأمس التي تقع تحت مستوى الأرض . فوجدت فرسيلوف هناك ، في المكان الذي كان فيه البارحة .

قال وهو يبتسم ابتسامة غريبة ، ويحدجني بنظرة عجيبة :

ـ كنت أعرف أنك ستأتي .

كانت ابتسامته خالية من الطيبة ، لم أر مثلها في وجهه منذ مدة طويلة .

جلست الى المائدة ، ورويت له من البداية الى النهاية جميع الوقائع التي تتصل بالأمير وليزا ، وقصصت عليه المشهد الذي وقع لي أمس مع الأمير بعد الروليت ، ولم أنس أن أذكر له أنني أصبت في القمار ربحاً

كبيراً • فأصغى الىّ بانتباه شديد ، وسألنى عن القرار الذى اتخذه الأمير فى تزوج ليزا • وقال :

ـ « يا للطفلة المسكينة » ! لعلها لن تجنى من هذا ربحاً • ولكن أغلب الظن أن الأمر لن يتم ••• رغم أن الشاب قادر على أن •••

ـ قل لى كما يقول صديق لصديقه : هل كنت تعلم ؟ هل كانت نفسك تحدثك بشىء ؟

ـ يا صديقى ، ماذا كان فى وسعى أن أعمل ؟ ذلك أمر من أمور العاطفة والوجدان ، ولو من جانب هذه البنت المسكينة على الأقل • أكرر لك ما سبق أن قلته : لقد طالما تدخلت فى شئون غيرى فى الماضى ، ثم أقلعت عن هذه الدعوى الخرقاء وصرت ألتزم جانب التحفظ ! هذا لا ينفى طبعاً اننى لا أرفض أبداً أن أساعد أحداً اذا ألم به شقاء ، أن أساعده فى حدود طاقتى ، بشرط أن أفهم شيئاً مما يحدث • ولكن قل لى : ألم تساورك أنت أية شبهة طوال هذه المدة ؟

فقلت وقد اشتعلت نفسى غضباً :

ـ ولكن كيف أمكنك وقد اشتبهت فى أننى أعرف علاقة ليزا بالأمير ـ ولو أقلّ اشتباه ـ ورأيت فى الوقت نفسه أننى أقبل أن آخذ من الأمير مالاً ، كيف أمكنك أن تتحدث معى ، وأن تجالسنى ، وأن تصافحنى ، أنا الذى لابد أنك كنت تعدنى شخصاً حقيراً ؟ أراهن على أنك كنت تشتبه حتماً فى أننى أعرف كل شىء ، واننى كنت آخذ المال من الأمير ثمناً لأختى وأنا عالم بالأمر كل العلم !

قال وهو يبتسم :

ـ أقول لك مرةّ أخرى ان هذا شأن من شئون الوجدان والضمير •

ثم أضاف يقول وقد لاح فى وجهه تعبير عن عاطفة ملتبسة ملغزة :

ـ ومن أدراك أنني كنت لا أخشى ـ كما خشيت أنت ، في حالة أخرى ـ أن أفقد مثلي الأعلى ، وأن أكتشف في ابني النزق الشريف وغدا حقيرا ؟ لقد كنت أخشى هذا ، فكنت أؤجل لحظة المعرفة الاليمة • لماذا لا تفترض فيّ ، بدلاً من الكسل والدناءة ، شيئاً أقرب الى البراءة ، بل شيئاً من الغباء أيضاً ، والغباء أنبل على كل حال • على أنني كثيراً ما أكون غبياً بغير نبل • بأي حق يمكن أن أكون متشدداً في محاسبة ابني ؟ هذا عدا أن اصلاحك بالاكراه لا قيمة له في نظري •

ـ وليزا ؟ ألا تشفق عليها ؟ ألا ترثي لحالها ؟

ـ أشفق عليها كثيراً يا عزيزي • من قال لك انني خال من الاحساس ؟ ••• بالعكس ، انني أحاول بجميع الوسائل ••• وأنت ؟ كيف تسير أمورك « أنت » ؟

ـ دعنا من أموري • لم يبق لي « أنا » أمور • اسمع ! لماذا تشك في أنه سيتزوجها ؟ لقد ذهب أمس الى آنا آندرييفنا ، وأعرب لها عن عدوله اعراباً واضحاً ••• أقصد عن هذه الفكرة السخيفة ••• التي قامت في ذهن الأمير نيقولا ايفانوفتش ••• فكرة أن يزوجهما • لقد عدل عن هذه الفكرة عدولاً صريحاً •

ـ صحيح ؟ متى حدث هذا ؟ ممن علمته ؟

ألقى عليّ هذه الأسئلة مستطلعاً باهتمام • فحكيت له كل ما كنت أعرفه • فقال واجماً كمن يفكر بينه وبين نفسه :

ـ همْ ••• اذن حدث الأمر قبل مصارحة أخرى بساعة واحدة • همْ ••• نعم ••• جائز جداً أن تكون هذه المصارحة قد تمت بينهما •• رغم أن شيئاً لم يُقل ولم يعمل هناك أبداً حتى ذلك اليوم ، لا من هذا

الجانب ولا من ذاك .. أنا أعرف هذا . نعم ... حتماً ... تكفى كلمتان اثنتان للعرض . ولكن ...

هنا ضحك ضحكة غريبة على حين فجأة ، وتابع كلامه فقال :

ـ ولكن اسمع ... سأذكر لك نبأ خارقاً لا شك أنه سيهمك : لو أن صاحبك الأمير طلب من آنا آندريفنا أن يتزوجها (وذلك عرض كنت سأبذل كل ما أملك من قوة لأحول دون تنفيذه ، لما فى ذهنى من شبهات عن العلاقة التى بين الأمير وبين ليزا ، أقول لك هذا سراً بينى وبينك) لرفضت آنا آندريفنا طلبه فوراً . على كل حال أظن أنك تحب آنا آندريفنا كثيراً ، وتحترمها ، وتقدرها ، أليس كذلك ؟ هذا لطف كبير منك ، ولسوف تبتهج لها اذن : فاعلم يا عزيزى أن آنا آندريفنا مقبلة على زواج ، واذا صدق ما أعرفه عن طبعها ، فانها ستتزوج حتماً ، وسأبارك أنا زواجها طبعاً .

هتفت أقول مدهوشاً :

ـ ستتزوج ؟ من الذى ستتزوجه ؟

ـ أحزر . هيّا ، لا أريد أن أعذبك . ستتزوج الأمير نيقولا ايفانوفتش ، شيخك العزيز .

حملقت . وتابع كلامه بقول بتراخ ووضوح :

ـ من الجائز جداً أن تكون هذه الفكرة قد نبتت فى ذهنها منذ مدة طويلة ; ولاشك أنها صقلتها صقلا فنيا على جميع وجوهها، وفى تقديرى أن الأمر قد تم بعد زيارة « الأمير سرجويا » بساعة تماماً (هذا مثال على غزواته التى تجىء فى غير الأوان) . لقد جاءت الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ببساطة وعرضت عليه أن يتزوجها .

ـ كيف ؟ هى عرضت عليه أن يتزوجها ؟ تقصد : عرض عليها أن يتزوجها ؟

ـ هو ؟ دعك من هذا ! هى التى عرضت عليه ، هى ! وواقع الأمر الآن أنه ممتلىء حماسة • ويبدو أنه مدهوش من أن هذه الفكرة لم تخطر باله • ولقد سمعت أنه أصبح مريضاً ، من فرط الحماسة أيضاً ••• فى أغلب الظن •

ـ اسمع ••• انك تتكلم بسخرية شديدة • فلا أكاد أصدقك • كيف تعرض عليه أن يتزوجها ؟ ماذا قالت له ؟

أجاب وهو يصطنع هيئة فيها جد مدهش على حين فجأة :

ـ ثق يا صديقى اننى مبتهج ابتهاجاً صادقاً • صحيح أنه شيخ ، ولكن جميع القوانين والعادات تجيز له أن يتزوج • أما عنها هى ، فالأمر هنا أيضاً أمر وجدان الغير ، كما سبق أن كررت لك ذلك يا صديقى • ثم انها أهل لأن يكون لها رأيها وأن تتخذ قرارها الخاص بها • وأما عن التفاصيل ، وعن الكلمات التى استعملتها فى مخاطبته ، فهذه أمور لا أعرف عنها شيئاً يا صديقى • ولكنها دبّرت أمرها على كل حال ، كما لا نستطيع أن نفعل نحن ، لا أنا ولا أنت يا صديقى • وخير ما فى المسألة أن هذا كله لا يشتمل على أية فضيحة ، فهو فى نظر جميع الناس سليم كل السلامة ، هو « كما يجب » جداً • واضح أنها أرادت أن تنشىء لنفسها مركزاً فى المجتمع ، ولكنها تستحق أن يكون لها هذا المركز فى المجتمع • تلك كلها أمور رائجة فى المجتمع • ولابد أن العرض الذى تقدمت به قد صاغته بعبارات رائعة فاتنة • ان لها طبعاً قاسياً يا صديقى ؟ هى راهبة شديدة المراس كما ألقبها بذلك منذ مدة طويلة • لاحظ أنها ربيبته تقريباً ، وأنها خبرت طيبته كثيراً • وطالما أكدت لى أنها تحمل له « كثيراً من الاحترام وكثيراً من التقدير والمودة ! » ، الخ ، لذلك كنت شبه متهىء

لتلقى النبأ . هذا كله قد نقله الى اليوم باسمها وتلبية لرجائها ابنى آندره آندريفتش ، أخوها ، الذى لا تعرفه ، والذى أراه مرةً واحدة كل سته أشهر تماماً . وهو يؤيد خطوتها باحترام عظيم .

ـ اذن أذيع النبأ ؟ ما أشد دهشتى !

ـ لا ، لم يُذع بعد ... ولن يذاع الا بعد مـدة . متى ؟ لا أدرى . على كل حال ، أنا لا دخل لى أبداً . ولكن كل ما قلته لك صحيح .

ـ ولكن ما عسى أن يـكون موقف كاترين ايفانوفنا الآن ؟ لاشك أن هذا الأمر لن يسر بيورنج !

ـ ذلك ما أجهله . ولكن ممَّ يمكن ألا يسر ؟ صـدقنى على كل حال ان آنا آندريفنا سـوف تعرف كيف تحسن التصرف فى هذا المجـال أيضاً . يا لآنا آندريفنا هذه ! لقد سألتنى فى صباح أمس هل أحب السيدة آخماكوفا . هل تتذكر ؟ لقد رويت لك هذا بالأمس مدهوشاً : ألا يمكنها أن تتزوج الأب اذا تزوجت أنا البنت ؟ هل تفهم الآن ؟

هتفت أقول :

ـ آ ... فعلاً . ولكن هل يخطر ببال آنا آندريفنا حقاً أنك يمكن أن تريد تزوج كاترين نيقولايفنا ؟

ـ طبعاً يا صـديقى . على كل حـال ، على كل حال ، آن الأوان لأن تذهب الى حيث كنت تريد أن تذهب . اننى أشـعر بألم فى رأسى . سوف أطلب أن تُعزف « لوسيا » . أحب عظمة الضجر والسأم . أظن أننى قلت لك هذا قبـل الآن . ما أكثر ما أكرر تكراراً لا يغتفـر ! قد أنصرف من هنا مع ذلك . أحبك يا صديقى ، ولكن استودعك الله ! حين أحس بألم فى الرأس أو فى الأسنان فاننى أشتاق دائماً الى الوحدة .

وارتسم على وجهه غضب يعبر عن ألم • اننى أصدقه الآن • لقد كان يشعر بألم فى رأسه ، فى رأسه خاصة •••

قلت :

ـ الى الغد •

ـ ما تعنى بقولك الى الغد ؟ وما الذى سيحدث غداً ؟

وابتسم ابتسامة شزراء •

ـ أجىء اليك أو تجىء الىّ •

ـ لا لن أجىء اليك ، بل أنت الذى ستهرع الىّ • كان فى وجهه سوء وشر ، ولكننى لم أنتبه الى هذا • ياله من حادث !

٣

كان الأمير مريضاً بالفعل : فهو ملازمٌ بيته ، معصوب الرأس بخرفة مبللة . وكان ينتظرنى نافد الصبر . ولكن لم يكن رأسه وحده مريضاً ، بل كان شخصه كله يعانى من ألم نفسى . تنبيه آخر : اننى فى هذه الآونة الأخيرة ، وحتى وقوع الكارثة ، لم ألق الا أناساً مهتاجين اهتياجاً شديداً ، فكان لابد أن تسرى عدواهم الىَّ رغم ارادتى .

يجب أن أعترف بأننى حين وصلت اليه كانت نفسى زاخرة بعواطف سيئة ، وكنت عدا ذلك أشعر بعار كبير من أننى بكيت عنده أمس . لقد بلغا من خداعى ، هو وليزا ، أننى كنت أقدِّر أنهما يعدانى غبياً ولاشك . الخلاصة أن قلبى كان مترعاً بمشاعر رديئة حين دخلت عليه . ولكن هذا كله كان سطحياً ، فسرعان ما تبددت تلك المشاعر . يجب أن أنصف الأمير فأقول : انه متى خفت حدة تأذيه أو زالت ، فتح نفسه لك صادقا ، فاذا أنت تكتشف فيه صفات تكاد تكون صفات طفل ، من حنان وثقة ومحبة . لقد قبّلنى والدموع تترقرق فى عينيه ، ثم سرعان ما شرع يتحدث فى الأمر ... نعم ، لقد كان فى حاجة الىَّ حقاً . وكان فى أقواله وفى تتابع أفكاره اضطراب كبير .

أعلن لى جازماً أنه عاقد عزمه على أن يتزوج ليزا ، وعلى أن يتزوجها فى أقرب وقت . وقال لى : « ألا تكون ليزا من طبقة النبلاء ، فذلك أمر لم يهمنى لحظة واحدة . لقد تزوج جدى فتاة من الأقنان كانت

مغنية فى مسرح خاص لملاك مجاور • صحيح ان اسرتى تعقد على امالاً من نوع خاص ، ولكنها ستذعن الان مضطرة ، وسيتم هذا بغير صراع • اريد أن اقطع صلتى بكل مجتمع هذا الزمان ! اريد شيئا اخر ، شيئا جديدا ! لا أدرى لماذا أحبتنى أختك ، ولكن لعل السبب هو اننى لولاها لكنت قد بارحت هذا العالم • أحلف لك صادقاً كل الصدق أننى أعد لقائى لها فى لوجا رحمةً الهية • أعتقد أنها أحبتنى بسبب « فداحة سقوطى » ••• ولكن هل تفهم هذا يا أركادى ما كاروفتش ؟

فأجبته بصوت يعبر تعبيرا واضحاً عن الاقتناع :

ـ كلّ الفهم •

كنت جالساً على المقعد الذى يواجه المائدة ، وكان هو يسير فى الغرفة طولاً وعرضاً •

ـ يجب أن أروى لك قصة لقائنا كلها دون أن أخفى شيئاً • لقد بدأ كل شىء بسرٍ خاص عرفته وحدها ، لأننى لم أبح به الا لها ، ولا يعرفه أحد حتى الآن • لقد وصلت لوجا مكروب النفس يائساً ، وأقمت عند ستولبيافا ، لا أدرى الآن لماذا ! لعلنى أردت أن أنشد أكمل عزلة • لقد تركت الجيش منذ قليل • وكنت قد دخلت الجيش عند عودتى من الخارج بعد ذلك اللقاء فى الخارج مع آندره بتروفتش • وكنت أملك فى ذلك الحين ثروة ، وكنت أبدّد المال تبديداً ، وأعيش حياة بذخ ولهو • ولكن رفاقى كانوا لا يحبوننى • ومع ذلك كنت أحاول ألا أسىء اليهم • يجب أن أعترف لك بأن أحداً لم يحبنى فى يوم من الأيام • وكان هناك حاملُ علم اسمه ستيبانوف ، وهو فى الواقع رجل فارغ تافه بل يكاد يكون أبله • الخلاصه أنه ليس له ميزة من الميزات • ولكنه كان رجلاً شريفاً لا يمكن أن يجحد أحد شرفه • وقد تشبث هذا الرجل بى • فكنت

لا أضيق بوجوده ولا أشعر بحرج منه • كان يأتي الى ، فيجلس فى ركن من الاركان اياما كاملة دون أن يفتح فمه بكلمة ، ولكن بوقار وكرامة ، فلا يزعجنى أى ازعاج • وقد قصصت عليه فى ذات يوم حكاية من حكايات الساعة زخرفتها بسخافات كثيرة : وهى أن ابنة الكولونيل تحمل لى عاطفة حب ، وأن الكولونيـل يعوّل علىّ فأستطيع أن أحرّكه كيف أشاء • ولا حاجة الى ذكر التفاصيل ، فانما المهم أنه قد نشأت عن كلامى هذا شائعات وأقاويل معقدة غاية التعقيد ، قذرةٌ الى أبعد حدود القذارة • وهذه الشائعات والأقاويل لم يكن مصدرها ستيبانوف ، وانما كان مصدرها خادمى الذى سمع كل شىء وحفظ كل شىء ، لأن الكلام كان حكاية سيئة تفسد سمعة فتاة • فلما سأل الضباط هذا الخادم عن مصدر القصة حين شاعت فى الناس سمّى ستيبانوف بل ذكر أننى الذى رويتها لستيبانوف • وكان يستحيل على ستيبانوف أن ينكر أنه سمعها • فهذه مسألة شرف • ولما كنت قد اخترعت أكثر من ثلثى الحكاية اختراعاً لزخرفتها فقد استاء الضباط واضطر الكولونيل أن يجمعنا فى بيته لتوضيح الأمور ووضعها فى نصابها • وهناك ألقى هذا السؤال على ستيبانوف بحضور الجميع : أسمعت أم لم تسمع ؟ فقال ستيبانوف الحقيقة • فكيف كان تصرفى أنا الأمير الذى أنتسب الى سلالة أمراء عمرها ألف سنة ؟ لقد أنكرت ، وقلت أمام ستيبانوف انه كذب ، أو بتعبير مهذب : « لم يحسن فهم ما قلت » ، الخ • هنا أيضاً لا داعى الى ذكر التفاصيل • وانما المهم أن أشير الى أن موقفى يمتاز على موقف ستيبانوف بأننى كنت أستطيع بسبب مواظبة ستيبانوف على المجىء الى بيتى ، أن أعرض الأمر عرضاً يوهم بأن ثمة تواطأً قد تم بين ستيبانوف وبين خادمى لتحقيق بعض المنافع ، وذلك شىء يمكن أن يُصدّق •• وذلك ما كان • فلم يزد ستيبانوف على أن نظر الىّ وهزّ منكبيه دون أن ينطق بكلمة واحدة • اننى أتذكر

نظرته ولن انساها ما حييت • ولم يلبث ستيبانوف ان قدم استقالته فوراً •
ولكنك لن تحزر أبداً ما حدث • ان جميع الضباط ، من أولهم الى
آخرهم ، قد زاروه وناشدوه ألا يرحل • حتى اذا مضى اسبوعان
كنت أنا الذي أترك الجيش : لم يطردني أحد ، ولم يدعني أحد الى
الرحيل ، وانما انتحلت عذراً عائلياً لتقديم استقالتي • هكذا انتهت القضية•
وقد بقيت في أول الأمر غير مكترث ، حتى لقد كنت غاضباً منهم • وأقمت
في لوجا ، وتعرفت الى البزابت ماكاروفنا ، ولكنني أخذت بعد انقضاء
شهر واحد ، أنظر الى مسدسي وأفكر في الموت • انني أرى الأمور
سوداء دائماً يا آركادي ماكاروفتش • وأعددت رسالة الى الكولونيل
والى رفاقي في الجيش لأعترف بكذبي ولأرد الى ستيبانوف اعتباره • وحين
انتهيت من كتابة الرسالة ألقيت على نفسي هذا السؤال : « أأرسلها وأعيش
أم أرسلها وأموت ؟ » • وكان يمكن أن أعجز عن الاهتداء الى اجابة •
لكن مصادفة من المصادفات ، مصادفة عمياء ، قربتني فجأة من البزابت
ماكاروفنا بعد حديث سريع خاص جرى بيني وبينها • كانت حتى ذلك الحين
تختلف الى ستولبيافا ، فكنا نلتقي أحياناً ، ونتبادل التحية ، ولا نتخاطب
الا في القليل النادر • فاذا أنا أكشف لها فجأة عن كل شيء • وعندئذ
انما مدت لي يدها •

ـ وكيف حلت المشكلة ؟

ـ لم أبعث الرسالة • هي التي قررت ذلك • وسوغت قرارها على
هذا النحو : اذا بعثت الرسالة فلا شك أن عملي يكون نبيلا يغسل عاري
ولكن هل أطيق أنا نفسي احتمال هذه الخطوة ؟ وكان رأيها أن أحداً
لا يستطيع احتمال مثل هذه الخطوة ، لأن كل مستقبل يكون
قد ضاع ، وكل انبعاث من أجل حياة جديدة يصبح مستحيلاً • ثم ان
ارسال الرسالة يكون له ما يوجبه لو أن ستيبانوف قد أوذي وتألم ، ولكن

ستيبانوف قد ردّ اليه الضباط اعتباره ، وهو معهم على أحسن حال •
الخلاصة أن كلامها كان مفارقة غريبة • ولكنها صدتنى عن بعث الرسالة ،
وانقدت لها انقياداً تاماً •

هتفت أقول :

ــ ولقد اتخذتْ قراراً على غرار ما يفعل يسوعى ، ولكن على غرار ما تفعل امرأة أيضا • كانت تحبك منذ ذلك الحين •

ــ وهذا بعينه هو ما بعثنى الى حياة جديدة • حلفت لأغيرن نفسى ولابدلن حياتى، ولاكسبن جدارة فى نظرى وفى نظرها • فانظر الى أى شىء انتهى ذلك كله ! ركضنا أنا وأنت الى بيوت القمار ، لعبنا الباكاراه ، أطاش الميراث صوابى ، لم أفطن الا الى اللذة ، لم أنتبه الى ضمان مستقبلى وعملى ، وعاشرت الأوغاد من الناس ، وحفلت بمظاهر الأبهة والفخامة واندفعت فى ترهات المجتمع الراقى • وعذبت ليزا • آه •• يا للعار !

قال ذلك وفرك جبينه بيده، وراح يذرع الغرفة، ثم أردف يقول:

ــ نحن كلانا مصابان بالداء الروسى المألوف يا آركادى ماكاروفتش : فلا أنت تعرف ماذا يجب أن تعمل ، ولا أنا أعرف ماذا يجب أن أعمل • ان الروسى متى خرج عن الطريق الذى رسمته له العادة أصبح لا يعرف ماذا يجب أن يعمل • فى الطريق المرسوم كل شىء واضح : دخل ، ورتبة ، ومركز فى المجتمع ، ومركبة ، وزيارات ، ومصب ، وامرأة • ماذا يبقى منى عند أول انحراف عن الطريق الممهد ؟ ورقة تذروها الريح ! أصبحت لا أعرف ماذا أعمل ! لقد حاولت فى هذين الشهرين أن أبقى فى الطريق المرسوم ، وأردت أن أحب الطريق المرسوم ، وغصت فى هذا الطريق المرسوم • انك لا تعرف حتى الآن الهاوية الجديدة التى سقطت فيها : لقد كنت أحب ليزا ، كنت أحبها حباً صادقاً ، وكان فكرى فى الوقت نفسه ينصرف الى السدة أخماكوفا !

هتفت أقول متألما :

ـ أهذا ممكن ؟ قل لى بالمناسبة يا امير : ماذا ذكرت لى أمس عن فرسيلوف ؟ هل قلت لى انه كان يحضك على ارتكاب دناءة فى حق كاترين ايفانوفنا ؟

ـ لعلنى بالغت • ولعلنى بسبب ما أتصف به من سرعة التأذى قد أذنبت في حقه مثلما أذنبت فى حقك • ولكن دعنا من هذا الآن • هل تتصور أننى طوال هذه المدة ، وربما منذ أيام لوجا ، لم أكن وفياً لأى مثل أعلى فى الحياة ؟ أقسم لك أن المثل الأعلى لم يفارقنى قط ، بل كان دائماً أمامى ، ولم يفقد شيئاً من جماله فى نظرى • كنت أتذكر العهد الذى قطعته على نفسى لاليزابت ماكاروفنا وهو أن أبعث بعثاً جديداً • وحين حدثنى آندره بتروفتش بالأمس هنا عن النبل فانه لم يقل لى شيئاً جديداً ، ثق بذلك • ان مثلى الأعلى ثابت راسخ : بضع عشرات من الهكتارات (بضع عشرات لا أكثر ، اذ لم يبق من الميراث شىء تقريباً) ؛ وقطيعة تامة ، تامة اطلاقاً ، مع المجتمع الراقى وعالم المناصب ؛ ومسكن ريفى ، وأسرتى ، وأنا ••• أحرث الأرض أو أقوم بعمل من هذا القبيل • وليس هذا فى سلالتنا شيئاً جديداً : ان عمى كان يدفع سكة المحراث ، وكذلك كان جدى • نحن أمراء منذ ألف سنة ، ونبلاء مثل آل روهان ، ولكننا فقراء • واليك ما كنت سأقوله لأولادى : « تذكر طول عمرك يابنىّ أنك نبيل ، وأن الدم المقدس ، دمُ الأمراء الروس ، يجرى فى عروقك ، ولكن لا تحمرّ خجلاً من أن أباك دفع سكة المحراث : فهو انما فعل ذلك كما يفعله أمير » • ولن أترك لأولادى ثروة عدا تلك الرقعة من الأرض ، ولكننى فى مقابل ذلك سوف أعلمهم تعليماً عالياً ، سوف أجعل ذلك واجباً يقع على عاتقى ولا أتخلى عنه أبداً • وستساعدنى ليزا فى ذلك • ليزا ، الأولاد ، العمل ! آه •• لكم حلمنا بهذا كله ، أنا وهى ، فى

هذا البيت نفسه ! وفي الوقت نفسه كان فكرى ينصرف الى آخماكوفا ، دون أن أحبها أبداً ، وكنت أفكر في زواج ثرى واف ! ولم أقرر أن أذهب الى آنا آندريفنـــا الا بعد ذلك النبأ الذى حمله ناشتشوكين بالأمس من بيورنج ذاك .

ـ ولكنك ذهبت اليها لتنسحب . هذه خطوة شريفة فيما أري .

ـ أتظن ذلك ؟

ألقى هذا السـؤال ، ووقف أمامى متسمراً ، ثم اسـتأنف كلامه قائلاً :

ـ بل انك لا تعرف طبيعتى بعد . أو قل ... أو قل ان هاهناشيئاً لا أعرفه أنا نفسى ، لأن الأمر لا يمكن أن يكون أمر طبيعة فحسب . اننى أحبك صادقاً يا آركادى ماكاروفتش ، وعدا هذا فقد أثمت في حقك اثماً عميقاً خلال هذين الشهرين ، لذلك أريد أن تعرف كل شيء ، من حيث أنك أخو ليزا : أنا انما ذهبت الى آنا آندريفنا لأخطبها ، لا لأنسحب .

ـ أهذا معقول ؟

ـ لقد خدعت ليزا .

ـ اسمح لى : أخطبت آنا آندريفنا خطبة رسمية ورفضت ؟ نعم ؟ أهذا ما حدث ؟ ان التفاصيل تهمنى كثيراً يا أمير .

ـ لا ، لم أتقدم بخطبتها ، ولكن السبب هو أننى لم يتح لى ذلك . وهى التى أفهمتنى ، لا بألفاظ الرفض طبعاً ، ولـكن بكلمـات واضحة شـــفافة مع ذلك ، أفهمتنى « برقة » أن هذه الفكرة أصبحت بعـد الآن مستحيلة .

ـ فكأنك اذن لم تخطبها ، وبقيت كرامتك سـليمة لم يمسسـها أذى .

ـ كيف تستطيع أن تفكر هذا التفكير ؟ وحكم ضميري ، وليزا التي خدعتها ... والتي أردت اذن أن أهجرها ؟ والعهد الذي قطعته على نفسي وعلى سلالة أسلافي جميعاً ، وهو أن أبعث بعثاً جديداً وأن أكفّر عن دناءاتي الماضيات ؟ أتوسل اليك : لا تحدثها في هذا الأمر . فلعل هذا هو الشيء الوحيد الذي لا تستطيع أن تغفره لي ! انني من ذلك مريض منذ الأمس . ويخيّل اليّ خاصةً أن كل شيء قد انتهى وأن آخر أمير من أمراء سوكولسكي سيودع في السجن ! مسكينة ليزا ! لقد انتظرتك نافذ الصبر ، يا آركادي ما كاروفتش ، لأكشف لك ، بصفتك أخا ليزا ، ما لا تعرفه ليزا حتى الآن . انني مجرم من مجرمي الحق العام ، أشارك في صنع أسهم مزيفة باسم شركة من شركات السكك الحديدية .

ـ ما هذا أيضاً ؟ ماذا تقول ؟ تودع في السجن ! ...

قلت له ذلك منتفضاً وتأملته مذعوراً . كان وجهه يعبر عن مرارة عميقة قاتمة لا مخرج منها . قال :

ـ اجلس !

وجلس هو أيضاً على مقعد قبالتي . وشرع يتكلم :

ـ اعلم أولاً هذا : منذ أكثر من سنة ، في ذلك الصيف ، صيف امس وليديا وكاترين ايفانوفنا وباريس بعد ذلك ، يوم أردت أن أذهب الى باريس لقضاء شهرين ، وفي باريس بطبيعة الحال ، كنت في عوز . وحينذاك انما جاءني ستيبلكوف ، وكنت أعرفه على كل حال ، فأعطاني مالاً ووعدني بمزيد ، ولكنه سألني أن أساعده : كان في حاجة الى أحد يكون فنانا رساما حفاراً طباعا وهلم جرا .. كيميائياً وتكنيكياً ، وذلك لأغراض معينة . وقد جعلني أدرك تلك الأغراض منذ المرة الأولى

ادركا واضــــحا • لقد كان يعــرف طبعى • فلم يزد ذلك كله على ان أضحكني وسلاني • وكنت أعرف منذ أن كنت تلميذاً على مقاعد الدرس ، شخصاً هو الآن مهاجر روسى ، لا روسى الأصــل على كل حال ، يقيم فى مكان بمدينــة هامبورج • كان هذا الرجــل قد شارك ابان اقامته بروسيا فى قصة تزييف أوراق • وعلى هذا الرجل انما كان يعوّل ستيبلكوف ، ولكنه كان فى حاجة الى من يوصى به لديه ، فاتجه الىّ يلتمس منى هذه التوصية • فكتبت له سطرين بخط يدى ثم لم أفكر فى هــذا الموضــوع • وقد رآنى بعد ذلك مراراً ، وبلغ ما أعطانيه زهاء ثلاثة آلاف روبل • ولقد نسيت تلك المسألة نسياناً تاماً • وصرت اقترض منه هنا من حين الى حين ، على رهون أو بســندات ، وكان يتلوى أمامى ذليلاً كما يتلوى عبد • وعلمت منه أمس فجأة ، لأول مرة ، اننى مجرم من مجرمى الحق العام •

ـ أمس ؟ أية ساعة ؟

ـ ساعة كنا نتصــارخ فى مكتبى قبيل وصــول ناشتشوكين • لأول مرة ، وبألفاظ صريحة فى هذه المرة ، تجرأ أن يكلمنى عن آنا آندريفنا• وقد رفعت يدى لأضربه ، لكنه نهض فجأةً ليعلن أننى متضامن معه ، وأن علىّ أن أتذكر أننى كنت شريكه فى الجرم ، وأننى وغــد مثله • ذلك ما قاله لى ، ان لم يكن بنصه فبمعناه •

ـ ما هذه السخافات ؟ أهذا حلم ؟

ـ لا ، ليس حلماً • ولقد جاءنى اليوم ، فزادنى ايضاحاً • ان هذه الأسهم المزيفة هى الآن فى التداول ، وسينزل غيرها الى التداول • ويظهر أن عدداً منها قد صــودر هنا وهنــاك • وأنا ليس لى فى الأمر أى دخــل طبعاً • ولكن ستيبلكوف قال لى : « أما تكرمت فأعطيتنى كتاب التوصية هذا فى ذلك الحين ؟ » •

ــ ولكن أكنت تعلم لماذا التمس منــك تلك التوصية به أم كنت لا تعرف ؟

أجاب الأمير وهو يخفض صوته ويخفض عينيه أيضاً :

ــ كنت أعرف ، بل قل كنت أعرف دون أن أعرف . لقد ضحكت وسلاّني الأمر . ولم أفكر وقتئذ في شيء ، لا سيما وأنني لم أكن أنا في حاجة الى أسـهم مزيفة ، ولم أكن أتهيأ أبداً لصنع أسهم مزيفة . ولكن الثلاثة آلاف روبل التي أعطانيها حينذاك لم يقيدها ديناً عليّ ، وقبلت أنا ذلك . ثم ما أدراك ؟ ربما أكون مزيفاً أنا أيضاً ! لم يكن في الامكان ألا أعلم ، ما أنا بطفل . ولكن الأمر سـلاّني وأضحكني ، وساعدت مجرمين ... ساعدتهم طمعاً في مال ! واذن فأنا أيضاً مزيف !

ــ لا ، لا ، انك تبالغ ! صحيح أنك مذنب ، ولكنك تبالغ !

ــ الخطير في الأمر أن هنـاك شاباً اسـمه جيبلسكي يعمل كاتباً في القضاء وتحوم حوله الشبهات ، قد شـارك أيضاً في حكاية الأسهم المزيفة هذه ، ثم جاءني بعد ذلك عدة مرات موفداً من الرجل المقيم بهامبورج ، جاءني لترهات وسـفاسف طبعاً ، بـل انني لا أعـرف لأي غرض من الأغراض على وجه التحديد قد جاءني ، ولكنه يحتفظ برسالتين مني ، هما أيضاً رسالتان قصيرتان لا تعدو احداهما سطرين ، غير انهما تشهدان عليّ . اليوم أدركت هذا . ويقول ستيبلكوف ان جيبلسـكي هذا مزعج : فقـد سرق لا أدري ماذا ، سرق مالا من الخزينـــة فيما أظن ، وهو ينتوي أن يسرق المزيد ثم يهاجـر ؟ ومن أجـل أن يهاجـــر يجب أن يتزود للسفر بثمانيـة آلاف روبـل ، لا أقل من ذلك . ان نصيبي من الميراث يكفي ستيبلكوف . ولكن ستيبلكوف يقول ان علينـا أن نرضي جيبلسكي أيضاً . الخلاصة أن عليّ أن أتنازل عن حصتي من الميراث وأن أدفع فوق

ذلك عشرة آلاف روبل • هذه كلمتهم الآخيرة • فاذا نفّذت هذا الشرط ردّوا الىّ الرسالتين • وواضح أنهم متواطئون •

ـ يا للسخافة ! انهم اذا وشوا بك كانوا يسلّمون أنفسهم ! فلا يمكن أن يشوا بك •

ـ أعرف هذا • ثم انهم لا يهدّدون بأن يشوا بى • بل يقولون : « نحن لن نشى بك ، ولكن افتضح الأمر ••• » • ذلك ما يقولونه • ذلك كل ما يقولونه • وأظن أنه كافٍ • ولكن ليس هذا هو الأمر : هبنى استرددت الرسائل • فهل ينجينى هذا من أن أظل مرتبطاً بهؤلاء الأوغاد متضامناً معهم ؟ آه •• كيف يمكننى أن أبقى الى الأبد رفيقهم ؟ أكذب على روسيا ، أكذب على الأطفال ، أكذب على ليزا ، أكذب على ضميرى ••• ؟

ـ هل تعلم ليزا ؟

ـ لا ، لا تعلم كل شيء • لو علمت ، وهى على ما هى عليه من حال ، لماتت من هول الصدمة • اننى أرتدى الآن بزة الجيش ، فكلما صادفت جندياً من الجيش ، شعرت شعوراً كاوياً بأننى لا أستحق ارتداء هذه البزة •

هتفت أقول فجأة :

ـ اسمع ! لا حاجة الى الاكثار من الكلام • ليس أمامك الا طريق واحدة للخلاص • اذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ، وخذ منه عشرة آلاف روبل ، اسأله ان يعطيك هذا المبلغ دون أن تكشف له عن شيء ، ثم استدع هذين الوغدين ، وصفّ حسابك معهما تصفيةً نهائية بافتداء رسائلك •• فينتهى كل شيء ! ينتهى كل شيء ، وتمضى تحرث الأرض ! دع الأوهام وثق بالحياة !

قال مؤكداً :

ـ لقد فكرت في هذا • فكرت فيه طول هذا اليوم ، واتخذت أخيراً قراري • وكنت لا أنتظر الا أن تجيء أنت • سوف أذهب اليه • هل تعلم انني لم يسبق لى أن اقترضت فى حياتى كلها قرشاً واحداً من الأمير نيقولا ايفانوفتش ؟ انه طيب فى معاملة أسرتنا ، حتى انه ••• أظهر اهتماماً بنا •• ولكننى •• شخصياً •• لم أطلب منه أىَّ مال فى يوم من الأيام • وهأنذا الآن أرتضى لنفسى أن أطلب منه • لاحظ أن فرعنا أقدم من فرع الأمير نيقولا ايفانوفتش : انهم هم الفرع الحديث ، الفرع الهجين ، الفرع المشكوك فيه تقريباً ••• ولقد تناصب أسلافنا العداء • وفي بداية عهد الاصلاح ، أيام بطرس الأكبر ، كان أبو جدى ، واسمه بطرس أيضاً ، كان راسكولنيكاً وظل كذلك وطَّوف فى غابات كوستروما • فهذا الجد تزوج زواجاً ثانياً بامرأة لم تكن من طبقة النبلاء هى أيضاً ، وعندئذ انما تقدمنا آل سوكولسكي هؤلاء ••• ولكن عمَّ كنت أتكلم ؟

كان متعباً كأن الكلام قد أنهكه •

قلت وأنا أنهض وأتناول قبعتي :

ـ هدىء نفسك • نَمْ قبل كل شيء • أما الأمير نيقولا ايفانوفتش فانه لن يرفض حتماً ، ولا سيما الآن ، فى غمرة فرحه • هل تعرف القصة ؟ لا ! غير معقول ! لقد بلغنى نبأ عجيب : أنه سيتزوج • هذا سر ، ولكن لا يُكتم عنك أنت طبعاً •

ورويت له كل شيء وأنا واقف ممسك قبعتى أهمُّ بالانصراف • لم يكن على علم بالأمر • فجعل يسألنى عن تفاصيل ، ويسألنى خاصةً عن الزمان والمكان وحظ النبأ من امكان التحقق • فلم أخف عنه طبعاً أن الأمر حدث فيما يقولون بعد زيارته آنا آندريفنا بالأمس فوراً • لا أستطيع أن أصوِّر لكم الأثر الأليم الذى أحدثه هذا النبأ فى نفسه • فقد تشوه وجهه وتخدَّد ، وتشنجت شفتاه بابتسامة غضب ، واصفر أخيراً ، ثم

خفض عينيه وغاص في تفكير حالم عميق • لقد رايت رؤيه واضحه ان رفض انا اندريفنا كان فد جرح كبرياءه جرحا بالغا عميقا • ولعله وهو فيما هو فيه من حالة مرضية قد غلا وأسرف الآن في تصور الدور المضحك الذليل الذي قام به امس امام تلك الفتاة التي كان يتوقع موافقتها بثقه تامة كما طهر ذلك واضحاً • ولعله اخيرا قد تصور الدناءة التي ارتكبها في حق ليزا ، وهي دناءة لم تعد عليه بطائل ! انه لأمر طريف شائق أن يرى المرء ما هي آراء أبناء المجتمع الراقي بعضهم في بعض ، وعلى أي أساس يحترم بعضهم بعضاً : لقد كان في امكان هذا الأمير مع ذلك أن يفترض أن آنا آندريفنا على علم بالصلة التي بينه وبين ليزا ، أختها مهما يكن من أمر ، وأنها ان كانت تجهل هذه الصلة الآن فستعرفها حتماً في يوم من الأيام • ولكنه رغم ذلك كان لا « يخالجه شك في قراره » !

وحدّق الىّ فجأة بعينين فيهما استعلاء ووقاحة وقال :

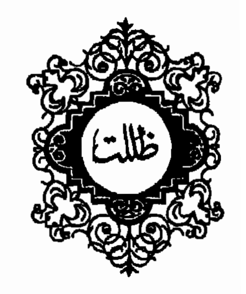
ـ فكيف أمكنك أن تظن أنني أرضى ، « أنا » أن أذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش أسأله مالاً بعد نبأ كهذا النبأ ؟ أذهب الى خطيب الخطيبة التي رفضتني ؟ ان هذا يكون استجداء ، وذلاً ، وعبودية ! لا ، لا ، ضاع الآن كل شيء • اذا كانت معونة هذا الشيخ هي آخر أمل ، فليهلك هذا الأمل أيضاً !

كنت في قرارة نفسي موافقاً على ما يقول • ولكن كان ينبغي على المرء مع ذلك أن ينظر الى الأمور نظرة أوسع : هل الأمير العجوز رجل حقاً ؟ هل هو خطيب حقاً ؟ وتحركت في رأسي أفكار كثيرة • وكنت قد قررت أن أزوره في الغد • فحاولت ، بانتظار ذلك ، أن أخفف وقع النبأ في نفس الأمير المسكين ، وأن أحضه على النوم قائلاً له : « سوف

تقضي ليلة مريحة ، فتكون أفكارك غداً أوضح . لسوف ترى ذلك ! » .
فصافحني بحرارة ، ولكن دون أن يقبلني . وقطعت له على نفسي عهداً
لأجيئنَّ اليه مساء غد وقلت له : « سوف نتحدث ، سوف نتحدث ، هناك
كلام كثير سوف نقوله » . فحين سمع هذه الكلمات ألمت بشفتيه ابتسامة
مشئومة .

الفصل الثامن

١



طوال تلك الليلة أحلم بالروليت والقمار والذهب وسداد الديون . كنت كالجالس الى مائدة القمار احسب مبالغ الحظ واحتمالات الربح ، فقضيت ليلتي كلها فريسة كابوس ساحق . سأقول الحقيقة : انني طوال النهار السابق ، رغم جميع تأثراتي الخارقة ، كنت أتذكر من حين الى حين ، الربح الذي جنيته بالقمار عند زرتشتشيكوف . صحيح أنني كنت أطرد الفكرة ، ولكنني لم أستطع أن أدفع عن نفسي الشعور والعاطفة ، فكنت أرتعش كلما وافتني ذكرى . كان هذا الربح قد ملك عليَّ نفسي . أتراني خلقت مقامراً ؟ لاشك على كل حال في انني أملك صفات المقامر . فحتى في هذا اليوم ، وأنا أكتب هذه الأسطر ، أحب أحياناً أن أفكّر في القمار ! وربما اتفق لي أن أقضي ساعات كاملة أجري في الصمت حسابات قمار ، وأتخيلني في الحلم لاعباً ورابحاً . نعم ، انني أتصف « بصفات » كثيرة التنوع ، وليست نفسي هادئة مطمئنة .

لقد كنت أنتوي الذهاب الى ستيبلكوف في الساعة العاشرة سيراً على القدمين. فصرفت ماتفئي منذ جاء . وفيما كنت أحسو قهوتي حاولت أن أنعم النظر في الأمور . فلاحظت أنني مسرور ، فلما انكفأت الى نفسي لحظةً أدركت أن سروري انما يرجع خاصة الى « أنني سأكون هذا اليوم

في منزل الامير نيقولا ايفانوفتش » • ولكن ذلك اليوم من حياتي كان يوما مشئوماً ، ولم يكن في الحسبان ، وقد ابتدأ بمفاجأة •

ففي الساعة العاشرة تماماً ، رأيت بابي يفتح على مصراعيه ، ورأيت تاتيانا بافلوفنا تدخـل عليّ كهبوب الريح • كان يمكن أن أتوقع كل شيء الا هذه الزيارة ، فوثبت مذعورا • كان وجهها وحشيا ، وكانت حركاتها واشاراتها مشوشة ، وأغلب الظن أنها ما كانت لتستطيع أن تجيبني لو سألتها ما الذي جاء بها اليّ هذا المجيء المباغت • ويجب أن أشرح سلفاً فأقول : انها قد تلقت منذ هنيهة نبـأ خارقاً ساحقاً ، وكانت لا تزال واقعـة تحت تأثير الانفعال الأول ، وكان النبأ يمسني أنا أيضاً • على أنها لم تقض عندي الا نصف دقيقة ، أو دقيقة ان شئتم ، ولكن من المحقق أنها لم تزد على الدقيقة • وقد بادرتني فوراً بقولها وهي تتسمر قدامي ماثلةً الى أمام :

ـ آ ••• هأنت ذا اذن ! هأنت ذا أيها الوغد ؟ ما هذا الذي فعلت ؟ ماذا ، ألا تدري ؟ انه يشرب قهوته ! آه ! يا ثرثار ! يا طاحونة حـكي ! يا ماضغ ورق ! •• يجب أن تُجلد بالسوط ، أن تجلد ، أن تجلد •••

ـ تاتيانا بافلوفنا ، ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ ماما ؟

فقالت مهددة متوعدة وهي تولّي هاربة :

ـ ستعرف !

وغابت • وانطلقت ألاحقها طبعاً ، ولكن فكرة طارئة أوقفتني ، بل قل ان ما أوقفني ليس فكرة ، وانمـا هو قلق غامض : لقد أحسست أن الشيء الأساسي في صراخها انما هو قولها « يا ماضغ ورق » • وما كان لي أن أكتشف شـيئاً بنفسي طبعـاً ، ولكنني خرجت مسرعاً لأفـرغ من ستيبلكوف بأقصى سرعة ، ثم أذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ، قائـلاً لنفسي بغريزتي : « هنالك مفتاح الأمور كلها » •

فسرعان ما عرفت أن ستيلكوف كان عالما بقصة آنا آندريفنا كلها ، بل كان يعرف تفاصيلها . شيء غريب . لن أروى الآن حديثه ولن أصف اشاراته وحركاته ، وحسبى أن أذكر أننى رأيته يتدفق افتتاناً وحماسة « لما لهذه المأثرة من قيمة فنية » . قال صائحاً :

ـ يالها من امرأة شجاعة ! هذه امرأة شجاعة ! لا ، لا ، انها ليست مثلنا . نحن نبقى فى مكاننا ساكنين ، أما هى فقد أرادت أن تشرب الماء من منبعه الحق ، وقد شربته من منبعه الحق . هذه ... هذه تمثال قديم لمينيرفا ، لكنه تمثال يتحرك ويسير ويرتدى فساتين حديثة !

ورجوته أن ينتقل الى الموضوع . فاذا الأمر كله ، كما أدركت ذلك من قبل ، هو ضرورة اقناع الأمير بأن يذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش ليسأله المعونة والنجدة ، « والا فان العاقبة ستكون وخيمة عليه ، وخيمة جداً ، وليس الذنب ذنبى . صحيح أم لا ؟ » .

كان يحدّق الى عينيّ ، ولكنه كان فى أغلب الظن لا يفترض أننى أعرف شيئاً يزيد على ما عرفته البارحة . ولم يكن فى امكانه أن يفترض ذلك : فأنا لم أدعْ له طبعاً ، لا بالتصريح ولا بالتلميح ، أن يعرف اننى على علم بأمر « الأسهم » . ولم يطل الحديث بيننا : فقد أسرع يعدنى ، على الفور تقريباً ، بمبلغ من المال ، قائلا انه « مبلغ كبير ، مبلغ كبير ، وانما المهم أن أقنع الأمير بطلب المعونة ، وان الأمر مستعجل ، مستعجل جداً ، وان كل شيء يتوقف على السرعة ، فالأمر مستعجل الى حد رهيب ! » .

لم أشأ أن أدخل فى مناقشات معه كما فعلت البارحة ، وهممت أن أنصرف ، قائلاً له عرضاً « اننى سأحاول » . ولكنه أدهشنى على حين فجأة ادهاشاً لا سبيل الى وصفه : كنت قد اتجهت الى الباب ، فاذا هو

يحضننى بغتة في رقه وحنان ، ويأخذ يقول لى أشياء تستعصى على الفهم الى اقصى حد .

سوف أهمل التفاصيل ، فلا أذكر سلسلة كلامه كلها ، حتى لا أتعب القارىء . ولكن اليك فحوى ما قاله : لقد عرض علىّ « أن أصله بالسيد درجاتشيف ، ما دمت أتردد على ذلك المنزل » .

أصخت اليه بسمعى ، محاولاً بكل قواى ألا أفضح نفسى بأية اشارة . وأجبته على الفور قائلاً اننى لا أعرف أحداً هناك ، واننى ان ذهبت الى ذلك المنزل مرةً فقد حدث ذلك عرضاً ومصادفة . قال :

ـ ولكن ما دمتَ قد « قبلت » مرة ، ففى وسعك أن تذهب مرة أخرى ، أليس هذا صحيحاً ؟

فسألته صراحةً ، ولكن ببرودة شديدة ، فيم يعنيه هذا . وحتى هذا اليوم لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يلقى المرء هذه السذاجة كلها لدى أناس يلاحظ حين يراهم أنهم ليسوا أغبياء ، بل يلاحظ أيضاً أنهم « عمليون » كما وصفه بذلك فاسين . ولقد شرح لى بصراحة تامة أن شبهاته توحى اليه بأن شيئاً يحدث عند درجاتشيف ، شيئاً لابد أنه محرّم قطعا ، محرم أقسى التحريم فيكفى أن يلاحظ وأن يدرس حتى يستطيع أن يجنى من ذلك نفعاً . قال لى ذلك وغمز بعينه اليسرى وهو يبتسم .

لم أجبه بشىء يؤكد أننى سألبى رغبته ، ولكننى تظاهرت بالتفكير ، ووعدته بأن « أفكر في الأمر » ، ثم سارعت الى الانصراف . ان الأمور تتعقد . وطرت الى فاسين ، فوجدته فى بيته .

ـ ها ! ... أنت أيضاً !

انه منذ رآنى استقبلنى بهذه الجملة الملغزة . ولكننى لم أتلبث على

جملته ، بل انتقلت الى الموضـوع رأسـاً ، وقصصت عليه القصة ، فكان واضحاً أنه دهش ولكنه لم يفقد هدوءه البته ، وساءلني في جميع التفاصيل، وقال :

ـ يجوز جداً أنك لم تحسن الفهم !

ـ بل فهمت أحسن الفهم . لقد كان المعنى واضحاً وضوحاً مطلقاً .

فأضاف يقول بصدق :

ـ على كل حال ، أشكرك أجزل الشكر . نعم حقاً ، اذا كان كل شيء قد جرى على هذا النحو ، فمعنى ذلك أنه يفترض أنك لن تستطيع أن تصمد لاغراء مبلغ من المال .

ـ انه عـدا ذلك يعرف حالى ، فلقد كنت أقامـر كثيراً ، وكانت سيرتى سيئة يا فاسين .

ـ سمعت عن هذا .

قلت :

ـ وما يحيرنى أكثر من أى شيء آخر هو أنه يعلم أنك أنت أيضاً تتردد الى ذلك المنزل .

فقال فاسين ببساطة كبيرة :

ـ هو يعلم علماً تاماً أننى لاصلة لى بالأمر . وهؤلاء الشبان جميعاً انما هم ثرثارون لا أكثر . وانك لتتذكر هذا أكثر من أى انسان آخر على كل حال .

بدا لى انه يضمر نوعاً من سوء الظن بى ، أو نوعاً من الحذر منى .

قال :

ـ اننى أشكرك أجزل الشكر على كل حال .

وحاولت أن أسأله مزيداً من الاسئلة فقلت :

ـ سمعت أن أمور السيد ستيبلكوف لا تجرى مجرى حسناً ، سمعت على الأقل كلاماً عن اسهم •••

ـ أية أسهم تعني ؟

لقد تعمدت أن أذكر الأسهم ، ولكنني لم أفعل ذلك من أجل أن أكتشف له عن سر الأمير • كل ما أردته هو أن ألمح الى الأسهم لأتبين من النظر الى وجهه والى عينيه هل يعلم عن هذا الامر شيئا • وقد وصلت الى هدفي : استطعت أن أدرك ، من حركة سريعة خفيفة في وجهه ، أنه ربما كان على علم بشيء • ولم أجب عن سؤاله : « أية أسهم ؟ » ، بل صمت • ومن الغريب أنه لم يلح •

سألني باهتمام :

ـ كيف حال اليزابت ماكاروفنا ؟

ـ هي بخير • ان أختي تكن لك الاحترام دائماً •••

فسطعت عيناه سروراً ورضا : كنت قد أدركت منذ مدة طويلة أنه يحمل لأختي عاطفة ما •••

وقال لي فجأة :

ـ زارني في هذه الأيام الأخيرة ، الأمير سرجي بتروفتش •

فهتفت أسأله :

ـ متى ؟

ـ منذ أربعة أيام •

ـ لا أمس ؟

ـ لا ، لا أمس .

وألقى عليّ نظرة مستفهمة . واردف يقول :

ـ قد أحدثك في المستقبل عن هذه الزيارة حديثا فيه مزيد من التفصيل ، أما الآن فأعتقد أن من الضروري أن أنبّهك (قال فاسين ذلك بلهجة يلفعها السر) الى أنني لاحظت أن حالته النفسية ... بل حالته العقلية .. غير طبيعية . وقد زارني شخص آخر أيضاً ..

قال ذلك وهو يبتسم فجأة ، ثم تابع كلامه :

ـ زارني شخص آخر منذ هنيهة قصيرة ، قبل وصولك بلحظة ، وقد اضطررت أن استخلص أن حالة الزائر الآخر ليست طبيعية تماماً هي أيضاً .

ـ هل جاءك الأمير منذ قليل ؟

ـ لا ، لا الأمير ، لا أتكلم الآن عن الأمير . لقد زارني ، منذ برهة ، آندره بتروفتش فرسيلوف ، و .. ألا تعرف شيئاً ؟ ألم يحدث له شيء ؟

أسرعت أسأله :

ـ ربما حدث له شيء ، ولكن ماذا جرى هنا ، عندك ؟

ـ يجب عليّ أن أكتم السر طبعاً ... ما أعجب هذا الحديث بيننا ! ان مداره كله على أسرار ...

قال فاسين ذلك وابتسم مرة أخرى . ثم أردف :

ـ على أن آندره بتروفتش لم يطلب مني كتمان السر . ثم انك ابنه ؟ ولعلمي بما تحمل له من عواطف ، يخيّل الىّ انني أحسن صنعاً

اذا أنا نبهتك فى هذه المرة • تصور أنه ألقى علىّ هـذا السؤال : « اذا اتفق لى فى يوم قريب ، قريب جداً ، أن وجدتنى مضطراً الى مبارزة ، فهل تقبل أن تكون شـاهدى ؟ » • ولقد رفضت ذلك رفضـاً قاطعاً بطبيعة الحال •

دهشت دهشة شديدة • ان هذا النبأ هو أشد الأنباء اقلاقاً • لقد حدث شىء • لابد أن حادثاً مازلت أجهله قد وقع ! وتذكرت فجأة أن فرسيلوف قال لى أمس : « لست أنا الذى سأجىء اليك ، بل أنت الذى ستهرع الىّ »•

وطرت الى الأمـير نيقولا ايفانوفتش وأنا أوجس بمزيد من القـوة أن مفتاح السر هناك • وقد شكرنى فاسين مرةً أخرى حين فارقته •

٢

كان الأمير العجوز جالساً أمام مدفأته ، مدثراً ساقيه بغطاء . وقد استقبلني بنظرة فيها شيء من الاستفهام ، كأنه دهش من زيارتي ، مع أنه كان يرسل من يدعوني اليه كلَّ يوم تقريباً . على أنه قد حيَّاني بلطف ، لكنه أجاب عن أسئلتي الأولى بنوع من الاحتقار وقد لاح في وجهه ذهول رهيب . وكان في بعض اللحظات يبدو مفكراً ، ويحدِّق الىَّ بنظرة ثابتة ، كأنه كان قد نسي شيئاً يتعلق بي ثم اذا هو يتذكره الآن . فقلت له بصراحة انني أعرف كل شيء ، واني سعيد بما حدث . فسرعان ما بانت على شفتيه ابتسامة فيها مودة وسرعان ما انتعش وزال تحفظه واختفى حذره ، حتى لكأنه نسيهما ، بل لا شك في أنه نسيهما . قال :

ـ صديقي العزيز ، كنت أعلم حق العلم أنك ستكون أول من يأتي ، حتى لقد سألت نفسي أمس : « من ذا الذي سيبتهج ؟ » ثم أجبت على هذا السؤال قائلاً : « هو الذي سيبتهج » . نعم ، لا أحد غيرك ، حتماً . ولكن لا ضير . ان ألسنة الناس ألسنة سوء ... ولكن لا قيمة لهذا ! ... « يا بنيَّ العزيز » (بالفرنسية) ، ذلك كله سامٍ كل السمو ، لذيذ كل اللذة . ولكنك تعرفها معرفة جيدة ، أنت . ثم ان آنا آندريفنا ترى فيك أحسن رأي . هي ذات وجه قاس آسر أخاذ ، وجه صورة انجليزية . انها أحلى الصور الانجليزية قاطبة . لقد كنت منذ سنتين أملك مجموعة من هذه الصور ... ان هذه النية كانت في نفسي دائماً ، دائماً . وانما يدهشني أنني لم أفكر في هذا الأمر أبداً .

ـ ولكنك أحببت آنا آندريفنا دائماً ، وقدرتها دائماً ، طوال المدة التى أذكرها •

ـ يا صديقى ، اننا لا نريد أن نلحق ضررا بأحد • ان الحياة مع أصدقاء وأقرباء وأشخاص أحبة هى الجنة • نحن جميعاً شعراء ••• الخلاصه : هذا معروف منذ العصور السابقة على التاريخ • اسمع ، سوف نقضى الصيف أولاً بمدينة سودن ، ثم بمدينة بادجاستاين ! أين ذهبت ؟ كنت أنتظرك • ما أكثر الأحداث التى مرت منذ ذلك الوقت ، ما أكثرها ، اليس كذلك ؟ وانما المحزن أننى لست هادئا : فمتى خلوت الى نفسى شعرت بأننى قلق • هذا هو السبب فى أننى يجب ألا أبقى وحيداً ، أليس كذلك ؟ هذا واضح وضوح النهار • آه يا صديقى ، انها لم تقل الا كلمتين ••• ولكن كان كلامها أروع قصيدة • ولكن ••• أنت أخوها تقريباً ، أليس كذلك ؟ يا عزيزى ، ليس غريباً أننى أحببتك ذلك الحب كله ! كنت أتوقع كل هذا ، أحلف لك • ولقد قبّلت يدها ، وبكيت •

واستل منديله من جيبه ، كأنه يهم أن يبكى من جديد • كان متأثراً جداً ، بل أظن أنه كان فى حالة من تلك الحالات « المحزنة » التى أتيح لى أن أراها فيه مدة معرفتى به • انه فى العادة ، بل فى جميع الأوقات تقريباً ، يكون أكثر نضارة وقوة مما هو الآن • وتمتم يقول :

ـ سوف أغفر لهم جميعاً يا صديقى • أحب أن أغفر لجميع الناس ، وقد صرت منذ مدة طويلة لا أحقد على أحد • الفن ، « الشعر فى الحياة » ، مساعدة البؤساء ، وهى ، ذلك هو جمال التوراة •• « ما أروعها من انسان » ، هه ؟ « أناشيد سليمان •• لا •• ليس هو سليمان ، بل هو داود الذى أضجع فتاة جميلة فى سريره طلباً للدفء فى شيخوخته • أوه •• داود ، سليمان » ، هذا كله يدور فى رأسى دوران اعصار

حقاً . « ان تلك الحسناء في شيخوخه داود ، لهي قصيدة » ، أما بول دوكوك فليس له ذوق ولا احساس بالتوازن ، رغم أنه صاحب موهبة .. ان كاترين نيقولايفنا تبتسم . ولقد قلت لها اننا لن نضايقها . اننا بدأنا روايتنا ، فليسمح لنا بأن نتمها . سمه حلماً ان شئت ، ولكن فليتركوا لنا حلمنا ولا ينتزعوه منا .

ـ كيف تقول انه حلم يا أمير ؟

ـ كيف أقول انه حلم ؟ فليعدوه حلماً ، ولكن فليتركوا لنا أن نموت مع هذا الحلم .

ـ آه ... أمير ... لماذا الموت ؟ ان الحياة هي الواجبة الآن !

ـ وماذا كنت أقول ؟ لست أقول غير هذا ! حقاً انني لا أدري لماذا الحياة قصيرة هذا القصر كله . اغلب الظن أن الغاية من قصرها هي ألا تكون مملة ، ذلك أن الحياة هي أيضاً عمل فني من أعمال الخالق الأعظم صاغها صياغة نهائية كاملة كقصيدة من قصائد بوشكين . ان الايجاز أول شروط الفن . ولكن الذين لا يشعرون بالملل يجب أن يتاح لهم أن يعيشوا مدة أطول .

ـ قل لي يا أمير ، هل أذيع النبأ في الناس ؟

ـ لا ، لا يا عزيزي ، لم يُذع تماماً . انه محدود بحدود الأسرة ، بحدود الأسرة وحدها حتى الآن . لم أبح بما في نفسي بوحاً كاملاً الا لكاترين نيقولايفنا ، لأنني أعد نفسي آثماً في حقها . ذلك أن كاترين نيقولايفنا ملاك ، ملاك .

ـ نعم ، نعم .

ـ نعم ؟ أنت أيضاً تقول نعم ؟ كنت أظنك عدواً لها . آه ...

بالمناسبه : لقد طلبت منى ألا أستقبلك بعد اليوم • تصور أننى نسيت ذلك منذ دخلت علىّ •

انتفضت وسألته :

ـ ما هذا الذى تقوله ؟ لماذا طلبت منك ذلك ؟ ومتى ؟

(لم يكذبنى احساسى • ان شيئاً من هذا النوع هو ما أوجسته منذ زيارة تاتيانا بافلوفنا !) •

ـ أمس يا صديقى ، أمس • لا أدرى كيف استطعت أن تدخل • ذلك لأن التدابير قد اتخذت لمنعك من الدخول • كيف دخلت ؟

ـ ببساطة •

ـ هذا هو الأرجح • فلو أنك دخلت بالمكر والحيلة لأوقفوك حتماً ، ولكنك دخلت ببساطة فتركوا لك أن تدخل • البساطة يا عزيزى ، البساطة هى أمكر المكر •

ـ لست أفهم شيئاً • هل قررت اذن ، أنت أيضا ، ألا تستقبلنى بعد اليوم ؟

ـ لا يا صديقى • لقد أجبت بأن هذا ليس شأنى ••• أقصد أننى وافقت موافقة تامة • ثق يابنى العزيز أننى أحبك حباً كثيراً • ولكن كاترين نيقولايفنا طلبت ذلك بكثير من الالحاح • آه ••• هى ذى !

فى تلك اللحظة ظهرت كاترين نيقولايفنا على العتبة • كانت مرتدية ثياب الخروج ، وقد جاءت الى أبيها لتقبله على عادتها دائماً من قبل • فلما رأتنى توقفت واضطربت ، ثم استدارت وخرجت • فصاح الأمير مذهولاً منفعلاً أشد الانفعال :

ـ كذلك هى !

فهتفت أقول :

ـ هو سوء تفاهم لا أكثر • دقيقة واحدة يا أمير ••• سوف ••• سوف أرجع فوراً يا امير !

وركضت وراء كاترين نيقولايفنا •

ان كل ما حدث بعد ذلك قد حدث بسرعه بلغت من الشدة انني لم أستطع التفكير ، بل لم أستطع أن أهيء سلوكي أقل تهيئه • فلو انني استطعت أهيء سلوكي لتصرفت تصرفاً آخر حتما • ولكنني كنت قد طاش صوابي كصبي صغير • هرعت الى حجراتها ، غير أن الخادم قال لي ان كاترين نيقولايفنا قد خرجت في هذه اللحظة نفسها وأنها تركب عربتها • فاندفعت أهبط السلّم الكبير منكس الرأس • فرأيت كاترين نيقولايفنا تنزل على السلّم ، مرتدية معطفها ، ورأيت ضابطاً فارع القد حسن القامة ببزة عسكرية من غير معطف يسير الى جانبها بل قل يقودها متقلداً سيفه الذي يتدلى على جنبه • وكان خادم يحمل له معطفه وراءه • هذا هو البارون • انه كولونيل في الخامسة والثلاثين من عمره ، نموذج الضابط الأنيق الجاف ، له وجه بيضوي كثيراً ، وله شاربان أحمران ، بل ان حاجبيه أحمران أيضاً • ليس وجهه جميلا ألبتة ، ولكن هذا الوجه يعبّر عن الجزم والتحدي • انني أصفه الآن على عجل ، كما رأيته في تلك اللحظة • لم أكن قد اقيته حتى ذلك الحين • وركضت وراءها بغير قبعة وبغير معطف • فأبصرتني كاترين نيقولايفنا قبل صاحبها وهمست في أذنه بشيء •• فالتفت ، وسرعان ما أومأ للخادم والبواب السوسري باشارة من رأسه • فتقدم الخادم مني خطوة أمام الباب ، ولكنني دفعته بيدي ووثبت الى درج الباب في اثرهما • أجلس بيورنج صاحبته في العربة • وصحت أنا قائلاً بغباء (كما يفعل أبله ، كما يفعل أبله ! آه ! انني أتذكر كل شيء • كنت بغير قبعة) :

ـ كاترين نيقولايفنا ! كاترين نيقولايفنا !

فالتفت بيورنج مرة أخرى غاضبا ، وصاح يقول للخادم كلمه او كلمتين لم اميزهما . واحسست انني امسكت من الكوع . وانطلقت العربه في تلك اللحظة . فصرخت صرخه واندفعت اجرى وراء العربه . كانت كاترين نيقولايفنا تنظر من نافذة العربة ـ رايت انا ذلك ـ وكانت تبدو قلقة قلقا شديداً . ولكننى بحركتي السريعة حين انطلقت أعدو وراء العربة قد صدمت بيورنج صدمة قوية دون أن أفكر في هذا البتة ، وأظن أننى دست على رجله أيضاً . فصرخ صرخة صغيرة ، وصر بأسنانه ، وأمسك كتفى بيد قوية ودفعنى دفعة بلغت من شدة الغضب والحنق أننى تقهقرت ثلاث خطوات . وفى تلك اللحظة مد اليه معطفه ، فارتداه ، وركب عربته الزلاجة ، ومن هناك صرخ صرخة تهديد أخرى وهو يشير للخدم وللبواب الى . فأمسكوا بى ، وثبتونى فى مكانى ، وألقى الى أحد الخدم معطفى ، ومد الى خادم ثان قبعتى ؛ لست أتذكر الآن ماذا قالوا لى : لقد كانوا يتكلمون ، وكنت أصغى اليهم دون أن أفهم شيئاً . ولكننى تركتهم فى مكانهم فجأة ، ووليت هارباً .

٣

ظللت أركض دون آن أميِّز شيئاً ، وأصدم المارة أثناء ركضى يمنة ويسرة ، حتى وصلت أخيراً الى بيت تاتيانا بافلوفنا ، ولم يخطر ببالى فى الطريق حتى أن أستقل عربة • لقد دفعنى بيورنسج بحضورها « هى » ! صحيح أننى دست على قدمه فدفعنى عنه بغريزته كما يفعل شخص ديس على قدمه فانتزع ثفن من أصبعه (يجوز فعلاً أن أكون قد سحقت له ثفن فى رجله !) • ولكنها رأت ، رأت الخدم يقبضون علىَّ • هذا كله حدث بحضورها ، أمامها !

حين داهمت تاتيانا بافلوفنا لم أستطع فى أول الأمر أن أنطق بكلمة • كانت فكى السفلى ترتعش من الحمى • لقد اجتاحتنى حمى فعلاً • وكنت عدا ذلك أبكى ••• فالى هذا الحد كنت أشعر بالهوان والمذلة !

ـ هه ! طردوك اذن ؟ أحسنو صنعاً ! أحسنوا صنعاً !

كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا • وتهاويت على الديوان دون أن أقول شيئاً ، ونظرت اليها •

قلت وهى تحدِّق الىَّ :

ـ ولكن ماذا أصابه ؟ خذ ، خذ هذه الكأس ، ابلع قليلاً من ماء ، اشرب ! وقل لى ما الحماقة الجديدة التى ارتكبتها •

تمتمت قائلاً انى طُردت ، وان بيورنج دفعنى فى الشارع •

ـ هل تمكنك حالتك الآن من أن تفهم شيئاً ؟ اقرأ اذن ، ولينشرح فؤادك .

قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وتناولت من على المائدة ورقه ومدتها الى وتسَمّرت أمامي . فسرعان ما تعرفت خط فرسيلوف . لم يكن ثمة الا أسطر قليلة : انها رسالة الى كاترين نيقولايفنا . ارتعشت . ولكن القدرة على الفهم لم تلبث أن وافتنى أقوى ما تكون . واليكم نص تلك الرسالة الفظيعة ، الفاضحة ، المستحيلة ، الاجرامية ، اليكم نصها كلمةً كلمة :

الى السيدة كاترين نيقو لايفنا

« رغم علمى بما انت عليه من فساد الخلق سواء اكان هذا الفساد طبيعة فيك ام كان فنا تحذقينه ، فلقد كنت اتصور انك تستطعين ان تسيطرى على اهوائك ، وانك فى اقل تقدير لن تلحقى اذى باطفال . ولكنك لم تتورعى حتى عن هذا . اننى ابلغك ان الوثيقة التى تعرفين لم تحرق على لهب شمعة حتما ، ولم تكن عند كرافت فى يوم من الايام ، فلن تجنى نفعا مما تفعلين . فلا تفسدى اخلاق شاب فى غير طائل . كفى اذاك عنه . فانه لا يزال قاصرا ؛ بل انه ليكاد ان يكون طفلا لما يبلغ بعد كمال نموه العقلى والجسمى . فيم يفيدك ؟ اننى اهتم بامره ، ولذلك جازفت فكتبت اليك هذه الكلمات ، رغم اننى لا ارجو لها اى نجاح . ويشرفنى ان ابلغك اننى ابعث بنسخة من هذه الرسالة الى البارون بيورنغ » .

اصفر وجهى أثناء القراءة ، ثم انفجرت فجأة واختلجت شفتاى استياء وسخطاً . وصحت أقول غاضباً :

ـ اياى يقصد ؟ هذا بمناسبة ما بحت له به أمس الأول !

ـ ذلك لأنك بحت له به !

وانتزعت تاتيانا الرسالة من يدى .

ـ ولكن ... ليس هذا ما كنت أقوله له ! آه ... رباه ! ما عسى

يكون ظنها بى الآن ؟ ولكن هل هو مجنون ؟ انه مجنون ٠ لقد رأيته أمس ٠ متى بعث الرسالة ؟

ـ أمس نهاراً ٠ وقد وصلت فى المساء ، فأعطتنيها اليوم بنفسها ٠

ـ ولكننى رأيته أمس ٠ انه مجنون ! لا يمكن أن يكتب فرسيلوف هذا ٠ هذا عمل رجل مجنون ! من ذا الذى يكتب كلاماً كهذا الكلام الى امرأة ؟

ـ يكتبه مجانين من نوعه حين تجعلهم الغيرة ويجعلهم الغضب صماً عمياً ويتحول الدم فى عروقهم الى زاج ٠ انك لم تكن تعرفه بعد ! ولكنه سيدفع الثمن غالياً ٠ لسوف يسحق سحقاً ٠ انه يضع نفسه بنفسه تحت الساطور ٠ ألا ان من الأفضل له أن يذهب ذات ليلة الى خط نيقولا ، فيضع رأسه فوق السكة الحديدية فتقطعه له عجلات القطار قطعاً مناسباً ، مادام يستثقل حمله ! وما الذى حملك على التحدث اليه ؟ ما كانت حاجتك الى مذاكرته ؟ أردت أن تزهو بنفسك ؟

ـ يا له من كره ! ما أشد هذا البغض ! كذلك هتفت وأنا ألطم رأسى بيدى ٠ وتابعت أتساءل :

ـ ولماذا ؟ لماذا ؟ يسىء هذه الاساءة الى امرأة ؟ ماذا صنعت ؟ أى ذنب جنت ؟ ما العلاقات التى كانت بينهما حتى يكتب لها رسائل كهذه ؟

ـ كره ! بغض !

هكذا كررت تاتيانا بافلوفنا وهى تقلد لهجتى وحركاتى بسخرية حانقة ٠

وازدحم الدم فى وجهى من جديد : بدا لى فجأة اننى أفهم شيئاً جديداً كل الجدة ٠ نظرت الى تاتيانا بافلوفنا نظرة مستفهمة ، أودعتها

كل ما أملك من قوة . فزعقت تاتيانا بافلوفنا وهي تدير لي ظهرها وتهدّدني بيدها ، قائلة :

ـ اذهب من هنا ! كفاني ما لقيت منكم جميعاً ! حسبي ! في وسعكم أن تغيبوا كلكم ... الوحيدة التي ما أزال أشفق عليها هي أمك .

ركضت الى فرسيلوف طبعاً . ولكن ما أقبحــه من عذر ! ما أقبحه من عذر !

٤

لم يكن فرسيلوف وحيداً . يجب أن أذكر سلفاً انه بعد أن أرسل تلك الرسالة الى كاترين نيقولايفنا أمس ، وأرسل نسخة منها (لا يعلم الا الله لماذا !) الى البارون بيورنج ، كان ينتظر أثناء النهار « عواقب » الخطوة التى قام بها ، فلذلك اتخذ بعض التدابير : فنقل ماما وليزا منذ الصباح الى فوق ، الى « التابوت » (وقد علمت فيما بعد أن ماما كانت قد مرضت فى الصباح عند عودتها فرقدت فى سريرها) ، كما عنى بنظافة الغرف وترتيبها عناية كبيرة ، ولاسيما « الصالون » . وما وافت الساعة الثانية بعد الظهر فعلا ، حتى جاء الى الدار بارون اسمه « ر .. » ، وهو عسكرى برتبة كولونيل ، فى نحو الأربعين من عمره ، ألمانى الأصل ، طويل القامة ، جاف الهيئة ، قوى الجسم جداً فيما يبدو ، أحمر البشرة هو أيضاً ، مثل بيورنج ، لكنه أصلع قليلاً . انه واحد من البارونات « ر ... » الكثير عددهم فى الجيش الروسى ، وهم جميعاً أناس شديدو التأذى فى كل ما يمس الشرف ، ليس لهم ثراء ، وانما هم يعيشون من رواتبهم ضباطاً كباراً ومقاتلين كباراً . لم أشهد بداية الحديث الذى جرى بينهما . كانا كلاهما فى أوج النشاط والاندفاع . وكيف لا يكونان كذلك ؟ كان فرسيلوف جالساً على الديوان أمام الطاولة ، وكان البارون جالساً فى مقعد الى جانب . وكان فرسيلوف شاحب اللون ، ولكنه يتكلم برصانة ، ويزن أقواله ، وكان البارون يرفع صوته ، ويهم أن يحرك يديه باشارات عنيفة ، ولكنه يكبح جماحه . وكانت نظرته قاسية

فيها تعال بل فيها احتقار ، ولكنها مع ذلك لا تخلو من دهشـــة • فحين رآني قطب حاجبيه ، ولكن فرسيلوف كاد يغتبط لرؤيتي • وقال يحييني :

ــ يومك سعيد يا عزيزي •

وأضاف يخاطب البارون :

ــ يا بارون ، هذا هو الشاب الذي عنيته في رسالتي • صدّق أنه لن يضايقنا وجوده ، حتى لقد يفيدنا •

رمقني البـارون بنظرة شزراء فيها احتقار • وأردف فرســـيلوف قائلا لي :

ــ يا عزيزي ، يسعدني أنك جئت • تلبّث في ركن ، أرجوك ، الى أن ننتهي •

ثم قال للبارون :

ــ اطمئن يا بارون ، سيبقى في ركن •••

لم يهمني ذلك • كنت قد عزمت أمري • وكان كل شيء عدا هذا يدهشني ويذهلني • وجلست في ركن لا أنطق بكلمة ، ولبثت هنـالك لا تطرف لي عين ، ولا أتحرك ، الى آخر الحديث •

قال فرسيلوف مقطعاً جميع الكلمات تقطيعاً قوياً :

ــ أكرر لك مـرة أخـرى يا بارون انني أعـُد كاترين نيقولايفنـا آخماكوفا ، التي كتبت اليها تلك الرسالة الدنيئة الخسيسة ، أنبل المخلوقات طراً ، بل أعـُدها ذروة الفضائل الكاملة !

فزأر البارون يقول :

ــ ان هـذا الدحض لأقوالك ، كما قلت لك من قبـل ، أشبه بتأكيد لها • فتعابيرك تخلو من الاحترام خلواً واضحاً •

ـ ان الأفضل مع ذلك أن تفهم أقوالى بالمعنى الذى يدل عليه نصها حرفاً حرفاً . اننى أصاب أحياناً بنوبات تستبد بى وتسيطر علىّ ، حتى اننى مضطر الى معالجة نفسى ومداواة مرضى ، وقد اتفق لى فى أثناء نوبة من تلك النوبات أن ...

ـ هذه الايضاحات والاعذار لا يمكن قبولها . أكرر لك مرة أخرى أنك لا تزال تصر على ضلالك اصراراً عنيداً ولعلك تتعمد أن تخدع نفسك . لقد نبهتك منذ البداية الى أن المسألة المتعلقة بتلك السيدة ، أعنى رسالتك الى الجنرالة آخماكوفا ، يجب اقصاؤها من الحديث الذى نحن بصدده ، ولكنك لا تزال تعود الى تلك المسألة . لقد رجانى البارون بيورنج وكلفنى أن أوضح ما يتعلق به هو وحده ، أعنى ما اجترحت من وقاحة اذ بعثت اليه تلك « النسخة » من الرسالة ، ثم الحاشية التى أضفتها قائلاً انك « على استعداد لتحمل المسئولية أمام أى انسان ، وبأية طريقة » .

ـ ولكن يبدو لى أن هذه النقطة الأخيرة جلية لاتحتاج الى مزيد من الايضاح .

ـ أفهم ، أعلم . انك تتهرب حتى من الاعتذار ، وتظل تؤكد أنك « مستعد لتحمل المسئولية أمام أى انسان وبأية طريقة » . ولكن سيكون معنى ذلك أن تتخلص من الأمر بأبخس ثمن . لذلك أجد أن من حقى ، بسبب ما أراه من اصرارك على توجيه الايضاح هذه الوجهة ، أن أفصح لك عن رأيى بغير تحرج : لقد وصلت من تفكيرى فى الأمر الى النتيجة التالية : ان البارون بيورنج لن يقبل بحال من الأحوال أن يكون له معك قضية ... فكأنكما ندان .

ـ أرى أن هذا الحل أنفع الحلول لصديقك البارون بيورنج . وانى لأعترف لك بأنك لا تدهشنى البتة : فلقد كنت أتوقع هذا الأمر .

يجب أن أذكر هنا مستطرداً أننى لاحظت منذ الكلمات الأولى ومنذ النظرة الأولى أن فرسيلوف كان يسعى الى احداث انفجار ، فكان يستفز ويتحدى ويناكد هذا البارون الذى من طبعه الاهتياج ، ولعله كان يمتحن صبره امتحاناً قاسياً • فكان البارون كالجالس على الشوك نفاد صبر •

ـ كنت أعلم أنك تستطيع أن تكون حاضر البديهة فى الفكاهة ، ولكن هذا ليس هو الذكاء •

ـ هذه ملاحظة عميقة الى أبعد حدود العمق يا كولونيل •

صرخ البارون يقول :

ـ لست فى حاجة الى مدحك ، ولا جئت هنا لاتكلم فى الهواء سدى • اسمعنى من فضلك : ان البارون بيورنج ، حين تلقى رسالتك ، احتار حيرة شديدة ، اذ كانت تفوح منها رائحة مستشفى مجانين • ولقد كان فى الامكان طبعاً أن تلتمس الوسائل •• لتهدئتك فوراً • ولكن أسباباً خاصه حملتهم على مراعاتك ، وقد سألوا عنك ، فاتضح أنك كنت تنتمى الى المجتمع الراقى ، وأنك فى الماضى قد عملت فى « الحرس » ، غير أنك أُقصيت من ذلك المجتمع ، واتضح أن سمعتك الآن مشبوهة بل أكثر من مشبوهة • ورغم ذلك انتقلت اليك لأستطلع الأمر بنفسى ، وهأنت ذا تستبيح فوق ذلك أن تتلاعب بالألفاظ حتى الآن ، ثم تشهد على نفسك بأنك تصاب بنوبات ••• كفى ! ان مركز البارون وسمعته لا يمكن أن يتورطا فى هذا الأمر • والخلاصة أيها السيد اننى مكلف بأن أعلن لك أنك اذا كررت هذا الفعل أو قمت بعمل آخر من هذا النوع ، فسوف تلتمس لتهدئتك وسائلها على الفور ، وهى وسائل أؤكد لك أنها مضمونة جداً وسريعة جداً • اننا لانعيش فى الغابات ، بل فى دولة لها شرطة !

ـ هل أنت واثق كل الثقة يا عزيزى الطيب البارون « ر ••• » ؟

ـ أف ...

كذلك صرخ البارون ثم نهض فجأة وقال :

ـ انك تغريني بأن أبرهن لك حـالاً على انني لست « عزيزك البارون الطيب » .

نهض فرسيلوف هو أيضاً وقال :

ـ أنبّهك مرةً أخرى الى أن زوجتي وابنتي ليستا بعيدتين ، لذلك أرجوك ألا ترفع صوتك كثيراً ، لأن صرخاتك تصل اليهما .

ـ امرأتك .. هاه ! لئن بقيت أتحدث اليك هذه المدة كلها ، فمن أجل أن أستوضح هذه القضية القذرة ...

كذلك تابع البارون كلامه وهو لا يزال غاضباً حانقا ، ولم يخفض صوته أي خفض . ثم صرخ يقول ساخطاً :

ـ كفى ! انك لست مطروداً من مجتمع الشرفاء فحسب ، بل أنت كذلك رجل مهووس ، مهووس حقاً ، رجل مختل العقل ؛ وهذا بعينه ما وصفوك به ! انك لا تستحق التسامح ، واني لأعلن لك أن تدابير معنية سوف تُتخذ في هذا اليوم نفسه ، وانك ستُستدعى الى مكانٍ تُردُّ فيه الى الصواب ... وستُخرج من المدينة !

قال ذلك وغادر الغرفة سريعاً بخطى واسعة . ولم يشيعه فرسيلوف ، بل ظل واقفاً ينظر الي في ذهول كأنه لا يلاحظني . وابتسم فجأة ، وهزّ شعره ، وتناول قبعته ، واتجه نحو الباب هو أيضاً . فأمسكت يده . فتوقف أمامي وقال :

ـ ها .. حقاً .. أنت هنا ! هل ..أصغيت ؟

ـ كيف أبحت لنفسك أن تتصرف هذا التصرف ؟ كيف أمكنك أن تشوه وأن تلطخ بالعار ... وأن تغدر هذا الغدر كله ؟

حدق الىّ بنظرة ثابتة ، ولكن ابتسامته كانت تتسع شيئاً بعد شيء ، حتى صارت الى ضحك حقاً .

صحت أقول خارجاً عن طورى :

ـ لكننى أنا الذى لطخت بالعار .. أمامها ! أمامها ! هزئت على مرأى منها . لقد دفعنى دفعاً مهيناً .

قال :

ـ هل هذا ممكن ؟ آه يابنى المسكين ، لكم أشفق عليك ! هزموك ؟

ـ أتضحك ، أتضحك منى ؟ أترى هذا داعياً الى الضحك ؟

استل يده من يدى مسرعاً ، وتناول قبعته ، وخرج من البيت ضاحكاً ، ضاحكاً الآن ضحكاً حقاً !

أألحق به ؟ علام ؟ لقد فهمت كل شيء وفقدت كل شيء فى دقيقة ! وأبصرت ماما فجأة . كانت قد نزلت ، وهى تلقى علىّ الآن نظرة وجلة .

ـ هل خرج ؟

قبلتها فى صمت ، وقبلتنى بقوة ، بقوة ، ملتصقة بى التصاقاً .

ـ ماما العزيزة ، كيف يمكنك أن تبقى هنا ؟ لنرحل فوراً ، سوف أؤويك ، سوف أعمل من أجلك كما يعمل محكوم بالأشغال الشاقة ، من أجلك ومن أجل ليزا . لنتركهم جميعهم ، جميعهم ، ولنرحل . سنكون وحدنا . ماما ، هل تتذكرين يوم جئت تزورينني عند توشار ورفضت أن أتعرفك ؟

ـ أتذكر يا بنى . طوال حياتى كنت آثمة فى حقك . ولدتك ثم لم أعرفك .

ـ هو الآثم يا ماما . هو سبب كل شيء . لم يحبينا في يوم من الأيام .

ـ بلى . أحبنا .

ـ لنرحل يا ماما .

ـ كيف أتركه ؟ هل هو سعيد ؟

ـ أين ليزا ؟

ـ في السرير . ما ان عادت حتى مرضت . أنا خائفة . ما بالهم حانقين عليه هذا الحنق كله ؟ ماذا يريدون به ؟ لماذا كان هذا الضابط يهدده ؟

ـ لن يقع له سوء يا ماما . لن يقع له سوء أبداً . لن يقع له سوء أبداً . ولا يمكن أن يقع له سوء . هكذا خلق ! ولكن ها هي ذي تاتيانا بافلوفنا . اسأليها ان كنت لا تصدقينني .

كانت تاتيانا بافلوفنا قد دخلت علينا . وتابعت أقول :

ـ الى اللقاء يا ماما ، سأعود حالاً ، وسأطلب منك هذا الطلب مرة أخرى ...

ووليت هارباً . كنت لا أطيق أن أرى أحداً ، ناهيك عن تاتيانا بافلوفنا . كان أمر ماما يعذبني عذاباً شديداً . كنت أريد أن أخلو الى نفسي ، وحيداً ، وحيداً .

٥

ولكن ما ان وصلت الى الشارع التالى حتى أحسست أننى عاجز عن السير • وكنت أصطدم اصطداماً غبياً بأولئك الناس ، الغرباء ، غير المكترثين • الى أين أذهب ؟ مَنْ هو فى حاجة الىَّ ، وما الذى احتاجه أنا الآن ؟ وسرت سيراً آلياً حتى وصلت الى بيت الأمير سرجى بتروفتش دون أن يخطر على بالى البتة • لم يكن الأمير بالبيت • فقلت لبطرس (خادمة) اننى سأنتظر فى مكتبه (كما سبق أن فعلت ذلك مراراً) • انها غرفة واسعة ، عالية السقف جداً ، ملأى بأثاث كثير • مضيت الى أعتم ركن ، وجلست على ديوان ، ووضعت كوعىَّ على المائدة ، وأسندت رأسى الى يدىَّ • نعم ، كان هذا هو السؤال : « ما الذى أنا فى حاجة اليه الآن ؟ » • ولئن كنت أستطيع أن أصوغ السؤال ، فلقد كنت عاجزاً عن الاجابة عنه كل العجز •

ولكننى كنت لا أقدر أن أفكر ولا أن أسأل • سبق أن ذكرت من قبل أننى فى نهاية تلك المرحلة كانت « الأحداث قد سحقتنى » • والآن ، فيما أنا جالس ، كان شىء كالسديم يدور فى رأسى اعصاراً • « نعم ، اننى لم أر من هذا الرجل شيئاً ، ولم أفهم عنه شيئاً » • تلك هى الفكرة التى كانت تبرق فى خاطرى فى بعض اللحظات • « لقد ضحك منى فى وجهى منذ قليل ؟ ولكن لا ، انه لم يضحك منى أنا ، بل كان لا يزال يضحك من بيورنسج ، لا منى أنا • أمس الأول ، أثناء العشاء ، كان يعرف كل شىء ، وكان قائم النفس • لقد استولى على اعترافى الغبى فى

المطعم ، فشوه كل شيء ، على حطـام الحقيقة • ما حاجته الى الحقيقة ؟ انه لا يصدِّق نصف كلمة مما كتبه اليها • كانت حاجته كلها هي أن يجـرح ، أن يجـرح لغير سبب ، بل دون ان يعرف لماذا ، متشبثا بأية حجة ، وقد قدمت انا اليه تلك الحجة •• هذه فعلة كلب مسعور ! •••
هل ينوى الآن أن يقتل بيورنبج ؟ لماذا ؟ لأى سبب ؟ ان قلبه يعرف السبب ! أما أنا فانني أجهـل ما فى قلبه ••• نعم ، مازلت أجهل هذا حتى الآن • هل يحبها هذا الحب المشبوب كله ؟ لا أدرى • وهل يدرى هو نفسه ؟ لماذا قلت لأمى « انه لا يمكن أن يقع له سوء » ؟ وماذا عنيت بهذا الكلام ؟ أترانى فقدته أم لم أفقده ؟ ••• » •

••• « لقد رأت كيف دُفعت •• وضحكت أيضـاً •• أم أنهـا لم تضحك ؟ لو كنت أنا فى مكانها لضحكت ! الجاسوس هو مَنْ ضُرِبَ ، الجاسوس ! ••• » •

« وما الذى عنـاه (واتتنى هذه الفكرة فجأة) ، ما الذى عناه حين دسَّ فى رسالته الدنيئـة تلك أن الوثيقة لم تُحـرق ، وأنها لا تزال موجودة ؟ ••• » •

« لن يقتل بيورنبج • هو الآن فى المطعم قطعاً ، يصغى الى أغنيـــة لوسيا ! ولكن لعله بعد لوسيا سيمضى يقتل بيورنبج • لقد دفعنى بيورنبج ، بل ضربنى تقريبـاً • هل ضربنى ؟ ان بيورنـبج يأبى حتى أن ينـازل فرسـيلوف : فهل ينازلنى أنا ؟ » ، « قد يـكون علىَّ أن أقتله فى الغد برصاصة مسدس ، وأن أتربص به فى الشارع •• » • نشأت هذه الفكرة فى ذهنى من تلقاء نفسها تماماً ، ولم أتلبث عليها البتة •

وفى بعض اللحظات كنت أحلم بأن الباب سيُفتح فتدخـل كاترين نيقولايفنا : تدخل فتمد لى يدها وننفجر ضاحكين كلانا •• آه •• عزيزى،

الطالب ! ان هذه الفكرة بل قل هذه الرغبة انما عرضت لى حين ساد الظلام الغرفة تماماً • ولكن هل وقفت أمامهـا مدة طويلة أودّعهـا بينا هى تمد الى يدها وتضـحك ؟ كيف يمـكن هذا : فى برهة وجيزة من الزمن ، على مثل هذه المسافة الرهيبة ! ألا فلأذهب اليها ببساطة فأناقشها حالاً ، ببساطة ، ببساطة ! رباه ! هذا عالم جديد كل الجدة يبدأ ، جديد كل الجدة ، كل الجدة •• ليزا ، الأمير ، لا يزال هذا هو العالم القديم •• أنا الآن عند الأمير • وماما ، كيف أمكنها أن تعيش معه اذا صدق الأمر ؟ أنا كان فى امكانى ، أنا فى امـكانى ، ولـكن هى ؟ ما الذى سـيحدث الآن ؟ » • وأخذت أطياف ليزا ، وآنا آندريفنا ، وستيبلكوف ، والأمير ، وآفردوف ، والجميع ، تتلاحق كاعصـار دون أن تتـرك أثراً فى ذهنى المريض • وأصبحت الصور تزداد ابهاماً وتستعصى على الادراك مزيداً من الاستعصاء • فأسعدنى أن أفهم واحدةً منها وأن أمسك بها •

قلت لنفسى فجأة : « ان لى « فكرتى » ، ولكن هل هـذا صـحيح حقاً ؟ أليست هذه جملة حفظتها على ظهر القلب ؟ ان فكرتى هى العتمة والعزلة ، ولكن هل أستطيع الآن أن أعتصم بعتمة الماضى تلك ؟ آه ! يارب! ولكن السبب هو أننى لم أحرق « الوثيقـة » ! لقد نسيت أن أحرقهـا أمس الأول • سأرجع الى بيتى فأحرقهـا على لهب الشمعة ، نعـم ، على لهب الشمعة • ولكننى لا أدرى هل حسن ما أفكر فيه الآن •• » •

ساد الظلام منذ مـدة طويلة وجاء بطرس بالشـموع • وقف أمامى وسألنى هل أكلت ؟ فلم أزد على أن أشرت له بيدى • ومع ذلك جاءنى بعد سـاعة بشـاى ، فشربت كأساً كبيرة بشراهة • ثم سألته كم الساعة ؟ كانت السـاعة قد بلغت الثامنة والنصف • لم يدهشنى حتى أن أكون قد قضيت هنا خمس ساعات • قال بطرس :

ـ جئت ثلاث مرات ، ولكننى أعتقد أنك كنت نائماً •

لم أتذكر أنه دخل عليّ . ولكنني لا أدرى لماذا روّعني فجأة أن أكون قد « نمت » ، فاذا أنا أنهض وآخذ أمشي في الغرفة طولاً وعرضاً حتى لا أنام . وأخيراً أحسست بصداع في رأسي . حتى اذا كانت الساعة العاشرة تماماً دخل الأمير ، فأدهشني أنني انتظرته . كنت قد نسيته كل النسيان ، كل النسيان .

قال لي :

ـ أنت هنا ، وأنا ذهبت أبحث عنك في بيتك !

كانت هيئته مكفهرة قاسية خالية من أيسر ابتسام . وكانت عيناه تعبران عن فكرة ثابتة ثاوية في قرارة ذهنه .

تابع يقول :

ـ كافحت طول النهار واستعملت جميع الوسائل ، ولكن كل شيء أخفق فأصبح وضعي الآن رهيباً . (ملاحظة : لم يذهب الى الأمير نيقولا ايفانوفتش) . رأيت جيلسكي . انه انسان فظيع . اسمع : لابد أولاً من الحصول على المال ، ثم نرى ما يكون من الأمر . واذا لم نظفر بالمال ، فعندئذ .. لكنني قررت ألا أفكر اليوم في هذا . اليوم يجب أن نحصل على المال ، وفي غد نرى ان المبلغ الذي ربحته أنت أمس الأول لا يزال كاملاً . هو ثلاثة آلاف روبل ينقصها ثلاث روبلات . فاذا طرحنا دينك يبقى عليّ أن أرد اليك ثلاثمائة . فخذها وأضف اليها سبعمائة لتصبح ألفاً ، وآخذ أنا الألفين . ثم نمضي معاً الى تسرشتشيكوف ، فنجلس على طرفين متقابلين ونحاول أن نربح عشرة آلاف ، فعسى أن نصل الى شيء .. والا .. هذا هو المخرج الوحيد الذي بقي لي .

وألقى عليّ نظرة يائسة .

هتفت أقول فجأة كأنني بعثت بعثاً جديداً :

ـ نعم نعم ! هيا بنا ! لم أكن أنتظر الا أن تجيء ..

لاحظوا أن الروليت لم تخطر ببالي لحظة واحدة طوال تلك الساعات كلها .

وقال الأمير يسأل على حين فجأة :

ـ والدناءة ؟ وحقارة الفعل ؟

فهتفت أقول :

ـ ماذا ؟ ذهابنا الى الروليت ؟ ولكن هذا هو المخرج . ان المال هو كل شيء . نحن القديسان أنا وأنت ، على حين أن بيورنج باع نفسه ، وأن آنا آندريفنا باعت نفسها ، وأن فرسيلوف .. هل تعرف أن فرسيلوف مختل ؟ مختل ، مختل ! ...

ـ ألست مريضاً يا آركادى ماكاروفتش ؟ ان عينيك غريبتان .

ـ هل تقول هذا لتذهب الى الروليت دون أن تصطحبني ؟ لن أتركك بعد الآن . ليس عبثاً أنني حلمت بالقمار طول الليل . هيا بنا الى الروليت ! هيَّا بنا !

كذلك صحت كأنني اكتشفت حل اللغز فجأة .

ـ طيب ، هيَّا بنا ، رغم أن بك حمى ، وهناك ...

لم يكمل الأمير جملته . كان في وجهه شيء أليم مرعب وخرجنا .

قال لي فجأة وهو يقف على العتبة :

ـ هل تعلم أنه لايزال هناك مخرج آخر غير القمار ؟

ـ ما هو ؟

ـ مخرج جديد بامراء .

ـ ما هو ؟ ما هو ؟

ستعرفه فى المستقبل . ولكن أعلم أننى الآن لا أستحقه ، لقد فات الأوان . هلمّ ، وتذكر أقوالى هذه . لنجرب المخرج الجديد بعامة الناس . هل يمكن أن أجهل أننى أتصرف تصرف خادم ، بوعى واضح وارادة كاملة ؟

٦

طرت الى الروليت طيراناً كأن السلامة كلها قد تجمعت هناك ، وكأن الروليت هي الحل الوحيد . ومع ذلك لم تكن الروليت قد خطرت ببالي قبل وصول الأمير ، كما سبق أن ذكرت . على أنني لم أذهب مقامراً لنفسي ، وانما ذهبت مقامراً بمال الأمير ومن أجل الأمير . انني لا أستطيع أن أفهم ماذا كان يجذبني ، ولكنني كنت منجذباً انجذاباً لاسبيل الى مغالبته . لا ، لا ، ان هؤلاء الناس ، وهذه الوجوه ، وأولئك القوامين على مائدة الروليت ، وتلك الصرخات التي يطلقها المقامرون ، وتلك الصالة الحقيرة كلها ، صالة تسرشتشيكوف ، ذلك كله لم يبد لي في يوم من الأيام على هذا القدر كله من البشاعة والجهامة والفظاظة والحزن كما بدا لي في هذه المرة ! انني أتذكر بوضوح ما بعده وضوح شعور الحداد والحزن الذي كان يعض قلبي أثناء تلك الساعات الماضية كلها أمام مائدة القمار . ولكن لماذا لم أبارحها ؟ لماذا بقيت وتحملت كمن يذعن لقدر أو كمن يقدم نفسه قرباناً أو كمن يقوم بسخرة ؟ يمكنني أن أقول شيئاً على كل حال : هو أنني لا أستطيع أن أقطع حقاً بأنني كنت أملك عقلي كاملاً حينذاك . ومع هذا لم أقامر في حياتي بتعقل كما قامرت في ذلك المساء . كنت صامتاً متركز التفكير شديد الانتباه بارعاً في الحساب الى حد رهيب ، وكنت صبوراً وبخيلاً ، وكنت في الوقت نفسه حازماً في اللحظات الحاسمة . جلست من جديد أمام الصفر ، أي مرةً أخرى بين تسرشتشيكوف و أفردوف الذي يجلس دائماً على يمين تسرشتشيكوف .

لقد كنت أشمئز من هـذا المكان ، ولكنني أردت أن احط على الصفـر حتماً ، وكانت جميع الأماكن الأُخـرى حول الصفر محتلة . قامرنا قرابة ساعة . وأخيراً رأيت الأمير من بعيد ينهض ويتجه شاحب الوجه الى الطرف الذي كنا فيه ، ويقف أمامي في الجهة الأخرى من المائدة : كان قد خسر كل ما معه ، فهو ينظر الى لعبي صامتـاً ، ربما دون أن يفهـم منه شـيئاً بـل دون أن يفـكر في اللعب . وكنت قد أخـذت أربـح ، وكان تسرشتشيكوف قد نقدني مبلغـاً . فاذا أنا أرى آفردوف يتنـاول ورقة من أوراقي بمائة روبل ، فيضمها الى الكدسـة التي كانت أمامه . فعـل هذا فجأة ، دون أن يقول كلمة ، على مرأى مني ، بأكبر وقاحة . فصرخت وأمسكت يده . حدث لي عندئذ شيء لم أتوقعه أنا نفسي : ان جميع الأهوال والاهانات التي قاسيت منها في النهـار قد تجمعت فجـأة في هذه اللحظة الوحيدة ، في سرقة هذه الورقة . لكأن كل ما تراكم وانضغط في نفسي كان لا ينتظر الا هذه اللحظة لينفجر . فهأنذا أصرخ خارجاً عن طوري ناظراً فيما حولي :

ـ هذا لص . لقد سرق مني ورقة بمائة روبل .

لا أريد أن أصف كل ما أثارته هذه الكلمات من جلبة ولغط . ان حادثة كهذه هي في هذا المكان شيء جديد كل الجدة . ان الناس في صالة تسرشتشيكوف يتصرفون تصرفاً لائقاً ، وقد اشتهرت داره بهذه السمعة . ولكنني كنت قد فقدت صوابي . وهذا صوت تسرشتشيكوف يجلجل وسط الضجة والصياح قائلاً على حين فجأة :

ـ اختفت فعـلاً ، ليس في ذلك شـك . كانت هنـا . أربعمـائة روبل !

هذه قضية أخرى : ان كدسـة تضم أربعمائة روبل قد اختفت من « البنك » تحت أنف تسرشتشيكوف . وأخذ تسرشتشيكوف يبيّن المكان

الذى كانت فيه الكدسة قائلاً : « كانت هنا منذ لحظة » ، وكان هذا المكان قريباً منى كل القرب ، بل كان يلاصقنى ، كان يلاصق الموضع الذى فيه مالى ، كان أقرب الىّ منه الى آفردوف كثيراً •

وهتفت أقول مشيراً الى آفردوف :

ـ اللص هنا ! هو الذى سرق أيضاً ! نبّشوه !

وارتفع بين الصيحات صوت مهيب راعد يقول :

ـ مرجع هذا كله الى أنه يُسمح لأى شخص بالدخول الى هنا • أناس لم يوص بهم أحد • من أتى به ؟ من هو هذا ؟

ـ رجل يقال له دولجوروكى •

ـ الأمير دولجوروكى •

وصرخ أحدهم يقول :

ـ الأمير سوكولسكى هو الذى أتى به •

صرخت أقول للأمير عبر المائدة وقد طاش صوابى :

ـ اسمع يا أمير : يظنون أننى أنا السارق مع أننى سُرقت فى هذه اللحظة نفسها ! فقل لهم ، قل لهم من أنا !

عندئذ حدث شىء هو أفظع من كل ما سبق حدوثه فى ذلك اليوم كله ••• بل فى حياتى كلها : أنكرنى الأمير • رأيته يرفع منكبيه ، ويجيب عن الأسئلة التى كانت تنهمر عليه قائلا بصوت واضح قاطع :

ـ أنا لست مسئولاً عن أحد • أرجوكم أن تدعونى وشأنى •

وفى أثناء ذلك انتصب آفردوف بين الحشد طالباً بصوت عالٍ أن ينبشوه ، وأخذ يقلب جيوبه ، ولكن الأصوات ارتفعت تجيب عن مطالبته

صائحة : « لا ، لا ، السارق نحن نعرفه » • وكان قد نودى خادمان ، فاذا هما يمسكان ذراعيَّ من خلف •

فصرخت أقول وأنا أحاول أن أخلِّص يديَّ :

ــ لن أسمح لأحد بأن ينبشني ، لن أسمح لأحد بذلك •

ولكنني جررت جراً الى غرفة مجاورة ، وهناك نبشت ثيابي كلها دون أن تغفل منها ثنية واحدة ؛ فكنت أصرخ وأتخبط محتجا • قال أحدهم :

ــ لابد أنه رمى ما سرقه الى الأرض •

فأجاب آخر :

ــ ولكن أين نبحث عنها الآن في الأرض ؟

ــ تحت المائدة • لاشك أنه رماها تحت المائدة •

ــ لم يبق لها أثر حتماً ••

واقتادوني ، لكنني استطعت أثناء ذلك أن أتوقف على العتبة وأن أصرخ في حنق مجنون :

ــ الروليت تحظرها الشرطة • سأشي بكم جميعاً في هذا اليوم نفسه •

ــ أنزلوني على السلم ، وألبسوني معطفي و ••• فتحوا لي باب الشارع •

الفصل التاسع

١

هكذا

انتهى النار بكارثة . وبقى الليل . فاليكم ما أتذكره عن تلك الليلة :

أظن أن الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل قليلاً حين وجدت نفسي في الشارع . كانت الليلة صافية هادئة باردة . وكنت أسير سيراً يشبه أن يكون ركضاً ، متعجلاً تعجلاً محموماً ، لكنني لا أتجه الى البيت . « علام الرجوع الى البيت ؟ هل يمكن أن أفكر في البيت الآن ؟ ان المرء في البيت يحيا فاذا ذهبت الآن الى البيت استيقظت من النوم غداً لأحيا : فهل هذا الآن ممكن ؟ لقد انتهت الحياة ، فيستحيل علىَّ بعد اليوم أن أحيا » . هكذا ظللت أهيم على وجهي في الشوارع ، لا أرى أين أمضي ، بل انى لأجهل هل كنت أريد أن أمضي الى مكان . وكنت أحس بحرٍ شديد ، حتى لأحل أزرار معطفي في بعض اللحظات ، ويتراءى لي أنه « ما من عمل يمكن أن يكون له أية غاية » . شيء غريب : كان يبدو لي بغير انقطاع أن كل شيء من حولي ، حتى الهواء الذي أتنسمه ، انما ينتمي الى سيارة أخرى غير الأرض ، وكأنني وجدت نفسي فجأة على سطح القمر . كل شيء : المدينة ، المارة ، الرصيف الذي أركض عليه ، ذلك كله لم يبق لي أنا فكنت أقول لنفسي : « هذا ميدان القصور ؟ وهذه بحيرة اسحاق ، ولكن لم يبق لي بهما الآن شأن ، لا علاقة لي بهما الآن ! » . أصبح كل شيء غريباً عني ، كفَّ كل شيء عن أن يكون لي . « ان لي ماما و ليزا !

ولكن ماذا تستطيع ماما وليزا أن تصنعا لي الآن ؟ انتهى كل شيء ، انتهى كل شيء دفعةً واحدة ، الا شيئاً واحداً : أنني سارق الى الأبد » .

« كيف أبرهن على أنني لست سارقاً ؟ هل يمكن الآن هذا ؟ أأسافر الى أمريكا ؟ ولكن ما الذي أستطيع بذلك أن أبرهن عليه ؟ لسوف يكون فرسيلوف أول من يصدّق أنني سرقت ! « الفكرة » ؟ أية « فكرة » ؟ ما « الفكرة » الآن ؟ بعد خمسين سنة ، بعد مائة سنة ، حين سأمر ، سيوجد دائماً من يشير اليّ باصبعه قائلاً : هذا سارق ، دشّن « فكرته » بسرقة مال في الروليت ... » .

هل شعرت بحقد ؟ لا أدري . لعلني شعرت بحقد . غير أن هناك صفة غريبة أتصف بها ، ربما منذ نعومة أظفاري : اذا نالني أحد باساءة ، اذا بلغت هذه الاساءة حدها الأقصى ، اذا أهانني أحد اهانة شديدة ، فانني أشعر دائماً برغبة نهمة في تحمل الاهانة دون رد ، بل في أن أستبق رغبات المسيء ، فكأنني أقول له : « خذ ، انك تذلني ، فهأنذا أذل نفسي مزيداً من الاذلال . فانظر اليّ واعجب بي ! » . كان توشار يضربني وكان يريد أن يُظهر أنني خادم ، انني لست ابن عضو من أعضاء مجلس الشيوخ . فسرعان ما كنت أقوم بدور الخادم ، فلا أقتصر على أن أناوله ثيابه بل أتناول الفرشاة طوعاً من تلقاء نفسي ، وآخذ أنفض عن ثيابه أيسر غبار عالق بها ، دون أن يكون قد طلب مني ذلك أو أمرني به ، وكنت في بعض الأحيان أتابع هذا العمل بالفرشاة مندفعاً بحماسة الخادم ، لأزيل عن ردائه آخر ذرة من غبار ، الى أن يوقفني من تلقاء نفسه قائلاً : « كفى كفى يا آركادي ، هذا كاف ! » . وكنت اذا عاد بعد خروج ، فنزع معطفه ، آخذ أنظف المعطف بالفرشاة ، وأطويه بعناية تامة ، وأغطيه بغطاء من حرير ذي مربعات . كنت أعرف أن رفاقي يسخرون مني ويحتقرونني ، كنت أعرف هذا حق المعرفة ، ولكن ذلك بعينه هو ما كان

يرضيني ، فكأنني أقول لهم : « أردتم لى أن أكون خادماً ، فانظروا كيف أنني خادم . ما دمت خادماً فلأكن خادماً تماماً ! » . وقد احتفظت بهذا الكره السلبي وهذا الحقد الخفى سنين طويلة . وعند تسرشتشيكوف ، حين صرخت قائلاً لجميع من فى الصالة وقد ثارت ثائرتى وخرجت عن طورى : « سوف أشى بكم جميعاً ، فالروليت تحظرها الشرطة » ، فيميناً ان عاطفة من هذا النوع هى التى كانت تحركنى : لقد أذلونى ونبشونى ووصفونى على رءوس الأشهاد بأننى لص ، أى قتلونى قتلاً ، فكأننى رددت على ذلك قائلاً : « طيب .. اعلموا جميعاً أنكم عرفتمونى على حقيقتى ، اعلموا أننى لست لصاً فحسب ، بل اننى أيضاً واش ! » . حين أتذكر اليوم ما حدث ، فاننى أفسّره هذا التفسير وألخصه هذا التلخيص . ولكن الأمر حينذاك لم يكن أمر تحليل ، فأطلقت صرختى تلك بغير نية ، وقبل ذلك بثانية واحدة كنت أجهل أننى سأطلقها . لقد خرجت الصرخة من تلقاء نفسها ، ولكنها خرجت لأن هذه الصفة التى أتصف بها كانت قائمة فى نفسى .

لاشك أن هذيانى كان قد بدأ حين أخذت أركض ، ولكننى أتذكر تذكراً واضحاً كل الوضوح أننى كنت أتصرف واعياً . كل ما هنالك ــ وهذا ما أستطيع أن أقطع به واثقاً ــ أن ميداناً كاملاً من الأفكار والاستنتاجات كان موصدا دونى : فحتى فى ذلك الوقت كنت أشعر بينى وبين نفسى أن « ثمه أفكاراً يمكن أن توافينى ، وأن ثمة أفكاراً أخرى ممنوعة عنى اطلاقاً » . وكذلك كانت بعض قراراتى ، فهى وان اتخذت بوعى واضح وشعور كامل ، كان يمكن أن تخلو حينذاك من أى منطق داخلى . بل أكثر من ذلك اننى أتذكر تذكراً واضحاً أن قراراً من قراراتى كان يمكننى فى بعض اللحظات أن أشعر بسخافته واستحالته ثم أشرع مع ذلك فى تنفيذه على الفور واعياً كل الوعى . نعم ، لقد كانت الجريمة

تتربص بى فى تلك الليلة ، ولئن لم أرتكب جريمـة فان الفضل فى ذلك يرجع الى الصدفة وحدها .

وفجـأة وافتنى الكلمة التى قالتها تاتيانا بافلوفنـا عن فرسـيلوف : « ليذهب الى خط نيقولا فيضع رأسـه على السـكة الحديدية ، فينفصـل رأسه عن جسمه على نحو مناسب » . وسيطرت هذه الفكرة لحظةً على جميع مشاعرى ، ولكننى لم ألبث أن طردتها من ذهنى على الفور متأملاً ، اذ قلت لنفسى : « أضع رأسى على السكة الحديدية وأموت ؟ لو فعلت هذا لقالوا غداً : هو السارق اذن ، شعر بالخزى والعار فانتحر . لا ، لن أفعل هذا أبداً ! » . وأذكر أن شرارة كره رهيب قد شبت فى قلبى فى تلك اللحظة . قلت : « ماذا ؟ يستحيل علىَّ بعد اليوم أن أبرىء نفسى ، يستحيل علىَّ أن أبدأ حياة جديدة . فيجب اذن أن أخضع ، يجب أن أجعل نفسى خادماً ، يجب أن أكون كلبـاً ، أن أكون ذبابة ، أن أكون واشـياً ، أن أكون الآن واشـياً بالفعل ، وفى أثنـاء ذلك أستعد بهدوء ورفق ، حتى اذا آن الأوان فى ذات يـوم دمـرت كل شىء ، أبـدت كل شىء ، أفنيت العالم كله ، المجرمين فيه والأبرياء . وسيعلم الناس جميعاً حينذاك ، على حين فجأة ، أن الذى فعـل ذلك انما هو الرجـل الذى اتهموه بأنه لص ، وبعدئذ انما انتحر » .

لا أذكر الآن كيف أفضى بى السـير الى زقاق صـــغير قريب من شارع « الفرسان الحرس » . ان هذا الزقاق تحفه فى الجانبين ، على طول مائة متر تقريباً ، جدران عالية هى حواجز تحجب وراءها أفنية منازل . وأبصرت خلف أحـد هذه الجدران ، على اليســـار ، كومة كبيرة من حطب ، كومة عالية جـداً يتجاوز ارتفاعها ارتفاع الجدار مترين . فوقفت فجأة وأخذت أفكر . كان فى جيبى أعواد كبريت من شـمع ، محفوظة فى علبة من فضة . أكرر مرةً أخرى أننى كنت عندئذ أعى وعياً واضحاً

ما أفكر فيـه وما أريد أن أعمله ، ومازلت أذكر هذا الى اليوم ، ولكن لو سألتني لماذا أردت أن أقدم على هذا العمل لما استطعت أن أجيبك بشيء البتة . كل ما أتذكره هو أن هـذه الرغبـة قد استبدت بي وملكت عليَّ مشاعري فجأة . قلت لنفسي : « ان تسلق الجدار ممكن جداً » . لقد كان هناك ، على بعد خطوتين ، باب كبير لاشك أنه مغلق منذ أشهر طويلة . وتابعت تفكيري قائلاً لنفسي : « اذا وضعت قدمي على حرف أسـفله ، كان في امكاني أن أتشبث بأعلاه ، فأتسلق الجدار ، ولن يرى أحد شيئاً . لا أحد سـيرى شيئاً ! صمت كامل ! وهنـاك في أعلى الجدار ، سأستقر مرتاحاً ، فأشعل النار في الحطب . هذا سهل ، حتى بدون أن أنزل الى الفناء ، لأن الحطب يكاد يلامس الجدار . وبسبب البرد ستسري النار في الحطب سريعة . ليس عليَّ الا أن أسحب بيدي حطبة سندر .. بل لماذا الحطبة ؟ أستطيع رأسـاً ، وأنا جالس على الجدار ، أن أنتزع بيدي قليلاً من القش ، فأشعله بلهب الكبريت ، أشعله ثم أدسـه في وسط الحطب ، فيشب الحريق . وأثب أنا الى أسفل الجدار وأنصرف . ولا داعي حتى الى الركض ، لأن الحريق لن يلاحظه أحد الا بعد مدة ... » . أدرت هذا كله في رأسي ، ثم عزمت أمـري تماماً على حين فجأة . وشـعرت بلذة قصوى ، بلذة قصوى وتسلقت . كنت أجيد التسلق اجادة عظيمة : انني منذ كنت في الليسيه كنت متفوقاً في الرياضة البدنية تفوقاً كبيراً . ولكنني كنت أنتعل حذاءين من كاوتشوك ، فكان ذلك عقبة . ومع ذلك استطعت أن أمسك باحدى يديَّ حافة لا يكاد يُرى بروزها ، وأن أصعد . وهممت أن أقذف يدي الأخرى لأتشبث بأعلى الجدار ، فاذا بقدمي تنزلق فأسقط منقلباً . أظن أن رقبتي اصطدمت بالأرض . ولاشك أنني بقيت مغشياً عليَّ مدة دقيقة أو دقيقتين . فلما أفقت من غيبوبتي ، عقدت أزرار معطفي بغير شعور ، لأنني أحسست ببرد لا يحتمل ، وجررت نفسي جراً الى حيث

الباب الكبير ، فلطوت هناك وأنا لا أعى ما أفعل وعياً واضحاً ، وتجمعت على نفسى فى تجويف بين البـاب ونتوء الجدار . كانت الأفكار فى ذهنى مضطـربة ، وأغلب الظن أننى سرعان ما غفوت . اننى أذكر الآن ، كما لو كنت فى حلم ، أن صوت نواقيس ، عميقاً ثقيلاً ، قد ترجّع فى أذنىّ فجأة ، وأننى أصغيت الى ذلك الصوت متلذذاً .

٢

كان الناقوس يرن مـرةً كلَّ ثانيتين ، بل كل ثلاث ثوان ، ولكن صوته ليس صـوت ناقوس الخطـر ، بل هو صـوت ممتع بهيج عريض ، ولم ألبث أن ميزته فجـأة : انه ناقوس كنيسة القديس نيقولا ، الكنيسة الحمراء التى تقع فى مواجهـة منزل توشـار ! ـ هى كنيسـة موسـكوبية قديمـة ، ذكراها فى خيـالى واضـحة ، شـيدت فى عهـد ألكسى ميخائيلوفتش ، بمسنناتها وقبابهـا الكثيرة وأعمدتهـا • وقد انتهى أسبوع الفصـح منذ برهة قصـيرة ، وعلى أشـجار السندر النحيلة فى حديقة آل توشار ، أخذت تهتز الأوراق الخضر الجديدة منذ الآن • والشمس المتألقةعند الأصيل تسكب أشعتها المائلةفى صفنا بالمدرسة، وأنا،فى غرفتى الصغيرة التى تقع على اليسـار ، والتى أقصـانى اليها توشـار بعيداً عن « أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ » ، عندى زائرة • نعم ، أنا الولد الذى لا يُعرف له منبت ، عندى زائرة ، أتتنى أول مرة منذ أن أودعت فى مدرسة توشار • ولقد تعرفتها منذ دخلت : انها أمى • تعرفتها رغم اننى منذ العهد الذى كانت تقودنى فيه الى كنيسة القرية لتناول القربان المقدس ، وهى الكنيسة التى كانت الحمامة تجتاز قبتها ، لم أرها مرةً واحدة • نحن الآن جالسان معاً • وأنا أتأمل وجهها تأملاً غريباً • ولقد عرفت فيما بعد ، عرفت بعد سنين كثيرة ، أنها فى ذلك الحين ، وقد بقيت وحيدة اذ تركها فرسيلوف وسافر الى الخارج فجـأة ، جاءت الى موسـكو دون أن يكون لأحد سلطان عليها ، مستعينةً على ذلك بما تملك من مال زهيد ، كاتمة

امر سفرها تقريبا عن اولئك الذين عهد بها اليهم ، وذلك كله من أجل أن تراني لا أكثر . شيء غريب أيضاً : انهـا حين دخلت قد تحدثت الى توشار ، أما أنا فلم تقل لي انهـا أمي . هي الآن هنـا على مقربة مني ، واني لأذكر أنني قد أدهشني أن أراها لا تتكلم الا قليـلاً جداً . وهاهي ذي تفض صرّة كانت تحملهـا : ان في الصرة ست برتقالات ، وبضعة أقراص من الحلوى ، ورغيفين من خبز أبيض . وقد سـاءني الخبز ، فأجبت أمي متجهم الهيئة بأننا نُطعم هنا أحسن الطعام ، وأننا نعطى كلّ يوم مع الشاي رغيفاً كاملاً . فقالت لي أمي :

ـ لا بأس يا عزيزي ، لقد قلت لنفسي بسذاجة : « لعلهم في هذه المدرسة لا يغذونكم تغذية حسنة » . لا تؤاخذني يا حبيبي .

قلت :

ـ وسـوف يُجرح شـعور آنطونين فاسيليفنا (زوجـة توشار) ، وسوف يسخر رفاقي مني ...

ـ ألا تريده اذن ؟ قد تأكله مع ذلك !

ـ اتركيه ، اذا شئت .

ولم أمسس الهدايا . فالبرتقالات وأقراص الحلوى بقيت على المائدة أمامي ، وبقيت أنا جالساً خافضاً عينيّ ، ولكن على وقار . من يدري ؟ لعلني كنت أتمنى ألا أخفي عنها أن زيارتها تُخجلني أمام رفاقي ، وأن أظهر لها ذلك قليلاً لتفهم ، كأن أقول لها : « انك تخجلينني ولا تدركين ذلك من تلقـاء نفسك » . نعم ، أقول لها ذلك أنا الذي في تلك اللحظة ذاتها كنت أجري وراء توشار حاملاً الفرشاة لأنفض عن ثيابه أقل غبار ! وكنت أتصور كذلك مدى السخريات التي سيصبها عليّ الصبية الآخرون متى انصرفت ، وقد يصبها عليّ توشار نفسه ، فلم يهتز قلبي بأية عاطفة طيبة نحو أمي . كنت أنظر شزراً الى فسـتانها القاتم العتيق ، والى يديها

الغليظتين اللتين تشبهان يدى شغاله ، والى حذاءيها الثقيلين ، والى وجهها الذى نحل نحولاً شديداً . ان جبينها قد تخدّد منذ الآن بغضون صغيرة ، مع أن آنطونين فاسيلفنا قالت لى بعد ذلك في المســاء ، بعد انصرافها : « لابد أن أمك كانت فى الماضى جميلة جداً » .

وفيما كنا على هذه الحال اذا بآجاتى تدخل علينا بصينية فوقها فنجان قهوة . الوقت بعد الظهر . وآل توشار ، في هذه الساعة ، يحتسون القهوة دائماً عندهم في الصالون . ولكن ماما شكرت ولم تتناول الفنجان . وعلمت فيما بعد أن ماما لا تشرب القهوة أبداً ، لأن القهوة تحدث لهـا خفقاناً فى القلب . وآل توشار ، فى قرارة أنفسهم ، يرون أن زيارتها وسماحهم لها بزيارتى هو منتهى التســامح والكرم منهـم ، وأن فنجان القهوة الذى أرسلوه اليها هو ذروة الانسانيـة ومأثرة كبيرة من مآثر مشاعرهم المتمدنة وأفكارهم الأوروبيـة . ولكن أمى رفضت القهوة بمصــادفة تشــبه أن تكون عمداً .

ونوديت الى عند توشار . فطلب منى أن آخذ جميع دفاترى وجميع كتبى وأن أظهر عليها أمى « لترى مدى ما أجنيه من فائدة فى مدرسته » . وانبرت آنطونين فاسيليفنا عندئذ فقالت لى بلهجة ساخرة وهى تزم شفتيها :

ـ أظن أن قهوتنا لم تعجب أمك .

وجمعت دفاترى لأحملها الى أمى التى كانت تنتظر . ومررت أمام « أبناء الكونتــات وأعضــاء مجلس الشيوخ » الذين احتشدوا فى الصف وأخذوا يرقبوننا كلينا . وسرّنى أن أنفذ أمر توشار تنفيذاً دقيقاً محكماً . فكنت أفتح دفاترى فتحاً منظماً ، وآخذ أشرح لأمى قائلا : « هذه دروس قواعد اللغة الفرنســية . وهنا نصــوص الاملاء . وهذا تصريف الفعلين المساعدين ، فعل avoir وفعل être ، وهنا الجغرافيا ، وصف المدن

الكبرى بأوروبا وجميع أجزاء العالم ، الخ » . ظللت نصف ساعة أو أكثر أشرح لأمي ذلك كله بصوت رقيق مطرد خافضاً عينيّ كما يفعل ولد أحسن تأديبه . وكنت أعلم أن ماما لا تفقه في العلوم والآداب شيئاً ، وأنها ربما كانت لا تعرف القراءة والكتابة ، وهذا هو السبب في أن الدور الذي قمت به أعجبني . ومع ذلك لم أفلح في أن أتعبها ، فكانت تصغي الىّ دون أن تقاطعني ، وكانت تنصت بانتباه بل بخشوع ، حتى اعتراني أنا السأم والضجر فكففت عن الاستمرار من تلقاء نفسي . وكانت نظرتها حزينة ، وكان في وجهها شيء يبعث على الشفقة .

ونهضتْ أخيراً لتنصرف . فاذا بتوشار يدخل بنفسه بغتةً ، ويسألها بوقار مصطنع غبي هل هي راضية عن النجاح الذي حققه ابنها . فأخذت أمي تتمتم معبّرةً عن شكرها الجزيل بجمل مشوشة . ثم دخلت آنطونين فاسيليفنا . فرجتهما أمي ألا يتركا اليتيم ، « لأنه الآن في حكم اليتيم ، فاستمرا في احسانكما اليه ونعمكما عليه . . » . وحيتهما مغرورقة العينين بالدموع ، حيت كلا منهما على حدة ، بانحناء شديد ، كما يفعل العامة من أبناء « الشعب » حين يجيئون الى سادة كبار يلتمسون منهم شيئاً . وكان توشار وامرأته لا يتوقعان هذا كله ، حتى لقد لانت آنطونين من ذلك ليناً واضحاً ، ولاشك أنهما سرعان ما غيرّت رأيهما فيما يتعلق بفنجان القهوة . وازداد توشار اصطناعاً للوقار ، وأجاب قائلاً بلهجة انسانية « انه لا يفرّق بين الأولاد ، وانهم هنا جميعاً أولاده ، وانه هنا آبوهم كافة ، وانني أعامل كما يعامل تقريباً أبناء الكونتات وأبناء أعضاء مجلس الشيوخ ، وان هذا شيء يجب أن يقدر حقّ قدره » ، الخ ، الخ . فكانت أمي تزيد تحياتها أثناء كلام توشار . وتفاقم اضطرابها ، فالتفتت الىّ والدموع تلتمع في عينيها وقالت : « استودعك الله يا بني » .

وقبّلتني بل قل انني سمحت لها أن تقبّلني . وكان واضحاً

أنها ودّت لو تقبّلني مزيدا من التقبيل ، وأن تعانقني وأن تحضنني وأن تشدني اليها ، ولكنها أمسكت عن ذلك اما لأنهـا استحت من الحضـور ، واما لأنها شعرت بحزن ، واما لأنها أدركت أنني أشعر بخجل ، فهاهي ذي تحيي توشار وامرأته تحية أخيرة ، وتسرع متجهةً الى باب الخروج • وبقيت أنا مسمراً في مكاني •

قالت آنطونين فاسيلفينا :

ـ « هلاّ تبعت أمك ! ان هذا الولد لا قلب له ! » •

ورفع توشار منكبيه ، كأنه يقول لهـا : « ليس عبثاً أنني أعامله كما يعامل خادم » •

وأطعت أمر آنطونين فاسيليفنا ، فنزلت وراء أمي ، وخرجنـا الى درج الباب • وكنت أعلم أن الآخـرين ينظرون الينـا الآن من النافذة • والتفتت أمي الى الكنيسة ، فرسمت اشارة الصليب ثلاث مرات بخشوع ، وكانت شفتاها تختلجان • ورنّ جرس جهير في أعلى برج الناقوس رنات قوية منتظمة • فالتفتت أمي اليّ ، ثم لم تطق صبراً فاذا هي تضع يديها على رأسي وتجهش باكية بكاء غزيراً •

ـ كفي ياماما ، هذا يخجلني ••• انهـم يروننـا من النافذة •••

فارتدت أمي الى وراء ، وأسرعت تريد الانصراف وقالت :

ـ طيب ! •• الرب •• الرب معك ! •• ملائكة السماء تحرسك ، ومريم العذراء والقديس نيقولا •••

وظلت تردد بسرعة ، وهي لا تزال ترسـم اشـارة الصليب ، وتحاول أن تضع عليّ مزيداً من الصلبان بمزيد من السرعة :

ـ الرب •• الرب •• حبيبى •• عزيزى •• ولـكن انتظـر قليلاً •••

وأسرعت تدس يدها فى جيبها فتستل منها منديلاً •• منديلاً أزرق ذا مربعات قد عقد فى طرفه عقداً قوياً •• وأخذت تحاول حلّ العقدة •• ولكنها لم تفلح ، فقالت :

ـ طيب •• لا بأس •• خـذ المنديل أيضـاً •• انه نظيف كل النظافة •• قد تستعمله • ان فى العقدة أربعة نقود كبيرة فيما أظن ، فعسى أن تنتفع بها فى شىء • لا تحقد علىّ يا بنى ، ليس معى أكثر من ذلك •• لا تزعل منى يا حبيبى •

أخذت المنديل • وقد أردت أن أنبّهها الى « أن مسيو توشار وآنطونين فاسيليفنا يعاملاننا أحسن معاملة ، وأننا لا يعوزنا شىء » ، ولكننى أمسكت عن الكلام وقبلت المنديل •

ورسمت علىّ اشـارة الصليب مرةً أخرى ، وتمتمت أيضاً بدعاء لا أدرى ما هو ، ثم اذا هى تحيينى بانحنـاءة كبيرة بطيئة طويلة على حين فجـأة ، تماماً كمـا حيّت توشار وامرأته فوق • لن أنسى هذه التحية ما حييت ! لقد ارتعشت من قمة رأسى الى أخمص قدمىّ ، لا أدرى أنا نفسى لماذا ! ماذا قصدت من هذه التحية ؟ أكانت « تعترف بخطيئتها أمامى » كما تخيلت ذلك كثيراً فيما بعد ؟ لا أدرى • ولكننى شعرت حينذاك بمزيد من الخجل والخزى ، « لأنهم كانوا هناك فى أعلى ينظرون ، وقد يضربنى لامبير بعد قليل » •

وانصرفت أخيراً •

كانت البرتقالات وأقراص الحلوى قد التهمها أبناء الكونتات وأعضاء مجلس الشيوخ حتى قبل أن أعود ، وسرعان ما انتزع منى لامبير النقود

الأربعة الكبيرة • فاشتروا بها كتلة كبيرة من الشوكولاتة والجاتوه من عند بائع الحلوى ، ولم يذيقوني شيئاً مما اشتروا •

انقضت ستة أشهر • نحن الان في سهر تشرين الاول (أكتوبر) • رياح وأمطار • نسيت أمي نسياناً تاماً • والكره ، الكره الأسود العميق لكل شيء ، قد نفذ الى قلبي واستولى عليه استيلاء كاملاً • ومازلت أنفض الغبار عن ثياب توشار بالفرشاة ، لكنني أكرهه الآن بكل ما أملك من قوى ، ومازال كرهي يزداد شدة وتأججاً • وذات يوم ، في ساعة الغسق الحزينة ، بينما كنت أنبش علبتي ، اذا أنا أبصر المنديل الأزرق في الركن الذي دسسته فيه منذ أعطتنيه أمي • فأخرجته وأخذت أتأمله باهتمام • ان طرفه لا يزال يحتفظ بآثار العقدة ، بل لا يزال يحتفظ بأثر قطعة نقدية مستديرة • ولكنني لم ألبث أن أعدت المنديل الى مكانه وأغلقت العلبة • كان ذلك في عشية عيد ، وقد أخذت الأجراس تقرع مؤذنة بقداس الليل • وكان التلاميذ قد ذهبوا الى أسرهم بعد الغداء ، ولكن لامير قد بقي في هذه المرة ، لأن أهله لم يرسلوا أحداً يصطحبه • انه لا يزال يضربني كما كان يفعل من قبل ، ولكنه أصبح يبوح لي بأشياء كثيرة ، وأصبح في حاجة الي • لبثنا طوال السهرة نتكلم عن مسدسات لوباج التي لم يسبق لأحد منا أن رآها ، وعن السيوف الشركسية ، وانتقل لامير أخيراً الى حديثه المفضّل ، وهو حديث سافل كنت أحب أن أصغي اليه رغم ما أشعر به من دهشة بيني وبين نفسي • ولكنني في هذه المرة وجدت الحديث كريهاً لايطاق ، فقلت للامير انني أشعر بصداع في رأسي ، ومضينا الى النوم • فغمرت رأسي بالغطاء ، واستللت المنديل الأزرق من تحت المخدة : كنت قد عدت الى اخراجه من العلبة قبل ساعة ، فما ان رُتّب سريرانا حتى وضعته تحت المخدة • شددت المنديل الى وجهي وأخذت أقبّله • وهمست أقول وقد استولت عليّ ذكرى أمي وانقبض

صدري كأنه مضغوط بين فكي ملزمة : « ماما ، ماما » . وتراءى لي وجهها وأنا مغمض عينيّ ، تراءى لي بشفتيه المختلجتين حين كانت ترسم على نفسها اشارة الصليب أمام الكنيسة ، ثم ترسم اشارة الصليب عليّ أنا ، فأقول لها : « انني أشعر بخجل ، انهم يروننا » . وتابعت هتافي لماما : « ماما ، ماما الحبيبة ، لقد جئت الىّ مرةً على الأقل .. أين أنت الآن يازائرتي البعيدة ؟ هل تذكرين الآن ابنك الصغير المسكين الذي جئت تزورينه ؟ .. تعالى الىّ مرةً أخرى ، تعالى الىّ في الحلم على الأقل ، لأقول لك انني أحبك حباً عظيماً ، وانني أصبحت لا أشعر منك بخجل وخزي ، وانني كنت أحبك في ذلك الوقت أيضاً ، وان قلبي كان يتألم حين كنت أقبع هناك كخادم ! لن تستطيعي أبداً يا ماما أن تقدري كم كنت أحبك حينذاك ! ماما الحبيبة ، أين أنت الآن ؟ هل تسمعينني ؟ ماما ، ماما ، هل تتذكرين الحمامة ، في الكنيسة ؟ ... » .

دمدم لامبير من قرارة سريره يقول :

ـ شيطان يأخذه ! ماذا دهاه ؟ انتظر قليلاً ! انه يمنع الناس من النوم ...

وها هو ذا يثب عن سريره أخيراً ، فيركض الى سريري ، وينزع عني الغطاء ، ولكنني أتشبث بالغطاء تشبثاً قوياً وأظل مطوقاً رقبتي به .

ـ تبكي ؟ ماذا دهاك حتى أخذت تئن يا أبله ؟ خذ هذه لك !

قال ذلك وأخذ يكيل لي الكلمات على ظهري وعلى أضلاعي ، ويؤلمني مزيداً من الايلام عند كل ضربة .. وفجأة فتحت عينيّ ...

النهار قد طلع تماماً ؛ والجليد يسطع على الثلج وعلى الجدار ... وأنا جالس متجمع على نفسي نصف ميت ، متخدر في معطفي . وهذا رجل يقف أمامي يحاول أن يوقظني من نومي بشتائم مقذعة ، ويركلني

على الأضلاع بطرف قدمه اليمنى . فأنهض وأنظر : هو رجل يرتدى معطفاً ثميناً من جلد الدب ، ويدثر رأسه بقبعة من الفراء ، له عينان سوداون ، وأسنان بيض مسددة الى . انه أبيض اللون ، محمر الخدين ، يشبه وجهه أن يكون قناعاً ... لقد مال على حتى كاد وجهه يلامس وجهى ، فكلما زفر زفرة خرج من فمه بخار متجلد :

ـ لقد تجمدت من البرد يا سكير ، يا أبله ! لسوف تفطس هنا من التجلد كما يفطس كلب ! قم ! قم !

صرخت أقول :

ـ لامبير .

ـ من أنت ؟

ـ دولجوروكى .

ـ أىُ دولجوروكى ؟

ـ دولجوروكى فحسب ! .. ذلك الذى غرزت فى فخذه شوكة ..

فهتف وهو يبتسم ابتسامة طويلة ، ابتسامة من يتذكر :

ـ آ .. آ .. آ .. هذا أنت اذن ؟ أنت ؟

(أتراه نسينى ؟) .

وأنهضنى ، وأوقفنى على قدمىّ ، فكنت أترنح وأجد فى الوقوف والحركة مشقة ، فقادنى وهو يسندنى بيده . كان ينظر فى عينىّ كمن يريد أن يتذكر وأن يفهم ، وكان ينصت الى كلامى بكل ما أوتى من قوة ؛ وكنت أنا أتمتم بكل ما أوتيت من قوة أيضاً ، فأتكلم وأتكلم بدون انقطاع ، وأشعر بسرور لأننى أتكلم ولأنه لامبير . ألأنه بدا لى « خلاصاً »

مما أنا فيه ، أم تراني ارتميت عليه ارتمائي على انســـان من عالم آخر ؟ لا أدري . لم أكن في ذلك الوقت أفكر . لقد ارتميت عليه بغير تفكير . ماذا قلت ؟ لا أتذكر البتة . ولا شك أن ما قلته كان مفككاً . بل لا شــك أن نطقي لم يكن واضحاً . ولكنه كان يصغي الىّ اصغاء شديداً . واستوقف أول عربة مرت بنا ، فما انقضت بضع دقائق حتى كنت في دفء غرفته .

٣

ان كل انسـان ، أياً كان ، يحتفظ حتماً بذكرى حادثة شخصـية يعدّها أو يميل الى أن يعدّها غير مألوفة ، خارقة ، كأنها تنتمى الى عالم الخيال ، كأنها معجزة من المعجزات ؟ وهذه الحادثة تكون حلماً رآه أو لقاءً وقع له ، أو نبوءة تنبأ بها ، أو احســاساً سابقاً بأمر سيقع ، أو شيئاً من هذا القبيل • وانى محمول حتى الآن الى اعتبار لقائى هذا بصاحبى لامبير مشتملاً على شيء من ذلك ••• على الأقل اذا نحن نظرنا الى ظروف هذا اللقاء والى ما كان له من نتائج ضخمة • ولقد حدث هذا كله حدوثاً بسيطاً غاية البساطة ، من أحـد الجوانب على الأقل : لقد كان لامبير عائداً من احـدى مهماته الليلية (سـنرى ماذا كانت تلك المهمة) ، وكان نصف سكران ، فلما توقف لحظةً أمام باب من الأبواب ، أبصرنى • ولم يكن قد انقضى على وجوده ببطرسبرج الا بضعة أيام •

الغرفة التى نُقلت اليها غرفة صغيرة ، أثاثها بسيط جداً ، مزودة بما تزوّد به غرفة بطرسبرجية عادية من الدرجة الثانية • أما لامبير نفسه فكان يرتدى ثياباً فاخرة باذخة • وكان على أرض الغرفة حقيبتان لم تفرغا الا من نصف ما فيهما • وكان ركن من الغـرفة محجوباً بحـاجز يخفى وراءه السرير •

صاح لامبير منادياً :

ـ آلفونسين !

فأجاب من وراء الحاجز صـوت نسوى مرتعش يقول بلغة فرنسـية باريسية اللهجة :

ـ نعم !

وسمعت من وراء الحاجز حفيف قدمين عاريتين ، وما هي الا لحظة حتى ظهرت « مدموازيل آلفونسين » بقميص النوم • انسانة عجيبة ؛ طويلة القـامة نحيلة كعود يابس ، فتيـة ، سـمراء ، طويلة الوجـه ، عيناها تنطنطان ، وخداها خاسفان • مخلوقة بالية بلى رهيباً •

ـ أسرعى ! (أنا الآن أترجـم لأنه كلـّمها بالفرنسـية) • لابد أن عندهم سماوراً يعيرونه • اسرعى • هاتى ماءً ساخناً ونبيذاً أحمر وسكراً ، وقدحاً ، وأسرعى ، فانه متجلد من البرد • هو صديقى وقد قضى الليل فى الثلج •

فهتفت تقول بالفرنسية وهى تلوى يديها بحركة مسرحية :

ـ مسكين !

ـ هلمى ، هست •••

كذلك صرخ لامبير كأنه يكلم كلباً ، ولوّح لها بأصبعه مهدّداً • فسرعان ما كفّت عن حركاتها ، وركضت تنفذ ما أمرها به •

وأخذ لامبير يفحصنى ويمسنى ويجس نبضى ويلمس صدغىّ • ثم جمجـم يقول : « غـريب أنك لم تتجمد تجمـداً تاماً ••• ولكنك كنت مدفوناً فى معطفك مع رأسك ، فكان لك معطفك كجحر ••• » •

ووصـل كأس الماء المغلى ، فابتلعته بشراهـة ، فسرعان ما أنعشنى ، وعـدت أتمتم • كنت مضطجعاً فى الركن على الديوان نصف اضطجاع ، وكنت أتكلم نشوان بالكلام ، ولكننى لا أكاد أتذكر الآن ماذا كنت أقول ،

بل ان هناك صفحات من ثرثرتي قد امحت الان من ذاكرتي امحاءً تاما .
هل فهم من كلامي شيئا؟ لا أدرى. ولكنني أدركت فيما بعد انه لابد أن يكون قد فهم على الاقل أن لقاءه هذا بي امر لا ينبغي له أن يهمله ، وأن الابقاء على علاقته بي يمكن أن يجلب منه منافع . وسأشرح فيما بعد ما لعله أجراه من حساب .

لم أنتعش انتعاشاً قوياً فحسب ، بل أظن أنني كنت في بعض اللحظات مرحاً . انني أتذكر الشمس التي أضاءت الغرفة فجأة حين أزيحت الستائر ، وأتذكر المدفأة التي طقطقت نيرانها حين أشعلت . أما من أشعل المدفأة وكيف أشعلها فلا أدرى . وأتذكر الكلب الصغير الأسود الذي كانت مدموازيل آلفونسين تمسكه بيديها وتشده الى قلبها بغنج ودلال . لقد سلاني هذا الكلب وأضحكني كثيراً ، حتى انني انقطعت عن الكلام ومددت اليه يدي مرتين ، ولكن لامبير أومأ ايماءة فاذا بآلفونسين وكلبها يختفيان فوراً وراء الحاجز .

وكان لامبير شديد الصمت ، وكان جالساً أمامي ينصت الى كلامي انصاتاً قوياً وقد مال عليَّ فلا يبتعد عني . وكان يبتسم في بعض الأحيان ابتسامة طويلة بطيئة ، ويكشف عن أسنانه ويطرف بعينيه كمن يبذل جهداً من أجل أن يفهم وأن يحزر . أذكر أنني حين رويت له قصة « الوثيقة » لم أفلح في أن أعبِّر تعبيراً واضحاً وأن أعرض قصة متسقة ، فكنت أرى في وجهي أنه لا يستطيع أن يفهم عني . حتى لقد جازف مرةً فألقى سؤالاً ، وكان هذا شيئاً خطراً ، لأنني كنت أغير موضوع الحديث متى أُلقي عليَّ سؤال ، وأنسى ما كنت بصدد الكلام عنه . كم قضينا من الوقت على هذه الحال مسترسلين في الحديث ؟ لا أدرى ، وهاهو ذا ينهض فجأةً وينادى آلفونسين فيقول لها :

ــ انه في حاجة الى هدوء . وقد نحتاج الى استدعاء طبيب . افعلي

كل ما يطلب ، أعنى ... « تفهمين يا بنيتى ؟ هـل معـك مال ؟ لا ؟ خذى اذن !

قال دلك وأخـرج من جيبه ورقة مالية بعشرة روبلات ، ثم همس يقول لآلفونسين وهو يلوّح لها باصبعه مهدّداً ويقطب حاجبيه بقسوة :

ـ « هل تفهمين ؟ هل تفهمين ؟ » .

ورأيت أنها كانت ترتعد أمامه ارتعاداً شديداً . وأردف يقول :

ـ سأرجع .

ثم اتجه الىّ فقال لى مبتسماً :

ـ أما أنت فعليك أن تنام . هذا خير ما تفعله .

وتناول قبعته . فصاحت آلفونسين تقول له بلهجة عاطفية :

ـ « ولكنك لم تنم البتة يا موريس ! » .

فأجابها بقوله :

ـ « اسكتى ! سأنام فيما بعد » .

وخرج .

همست تقول لى بنبرة التأثر وهى ترينى ظهرها :

ـ أُنقذت !

وسرعان ما أخـذت تخطب قائلة وقد انتصبت فى وسـط الغـرفة (بالفرنسية) :

ـ سـيدى ، سـيدى ، ما من رجـل كهذا الرجل كان قاسياً هذه القسوة كلها ، وكان بسماركاً الى هذا الحد ، فنظر الى المرأة نظرته الى

فاذوره ، ما امرأة في عصرنا هذا ؟ « اقتلها ! » هذه هي الكلمة الأخيرة التي قالتها اكاديميتنا الفرنسية !

حملقت عيني • انني أرى الشخص شخصين • انني ارى آلفونسينتين اثنتين • ولاحظت فجأة أنها تبكي • فارتعشت وأدركت أنها كانت تكلمني منذ مدة طويلة وأنني كنت اذن نائماً طوال ذلك الوقت ، أو كنت مغشياً علي •

وصاحت تكمل خطابها (بالفرنسية) :

ـ ••• « وا أسفاه يا سيدي ، فيم كان يمكن أن يفيدني أن اكتشفه في وقت مبكر ••• أفلم يكن من الخير لي أن أظل كاتمة عاري طوال حياتي ؟ قد لا يشرف فتاة أن تشرح ما يدور في نفسها بمثل هذه الحرية أمامك يا سيدي ، ولكنني أعترف لك بأنني اذا سمح لي أن أريد شيئاً ، فسوف يكون هذا الشيء هو أن أغمد في قلبه خنجري ، ولكن على أن أشيح عنه بصري ، مخافة أن أرى نظرته فترتعش ذراعي وتتجمد عزيمتي ! لقد اغتال ذلك الكاهن الروسي يا سيدي ، ونتف لحيته الحمراء من أجل أن يبيعها لفنان عند « جسر المارشالات » بقرب متجر مسيو آندريو ـ أزياء راقية ، بضائع باريسية ، ملابس داخلية ، قمصان أنيقة ، تعرف يا سيدي ، أليس كذلك ؟ آه يا سيدي ، حين تضم الصداقة ، على مائدة واحدة ، زوجة وأولاداً وأخوات وأصدقاء ، ويشتعل في القلب فرح قوي ••• هل هناك يا سيدي سعادة أفضل من هذه السعادة التي ينعم بها جميع الناس ؟ ولكنه يضحك يا سيدي ، هذا الشيطان الكريه العجيب الذي لا يتصوره العقل • يمناً يا سيدي ، لولا وساطة مسيو آندريو ، لما •• آه •• مستحيل ، لما كنت •• ولكن ماذا يا سيدي ، ماذا بك ؟ ماذا بك يا سيدي ؟

كذلك هتفت تسألني ، ثم اندفعت الي • لعلني كنت أرتعد ، بل

لعلني قد اغمي على . لا استطيع ان اصف الشعور الشاق الأليم الذى احدثته فى نفسى هذه المخلوقة نصف المجنونة . ولعلها تخيلت ان عليها آن تسليني وتسرى عنى. المهم أنها لم تتركني لحظة واحدة. ولعلها كانت تمثل فى الماضى . لقد كانت تنشد للامها انشاداً ، وتدور على نفسها ، وتتكلم بدون انقطاع ، على حين كنت قد صمت منذ مدة طويلة . كل ما استطعت أن أفهمه من أقوالها هو أنها كانت لها « علاقات وثيقة بمتجر مسيو آندريو ـ أزياء راقية ، بضائع باريسية ، الخ » ، وأنها لعلها كانت تخرج من عند مسيو آندريو » ، ولكن « هذا الشيطان الحانق الذى لا يتصوره العقل قد انتزعها من مسيو اندريو الى الأبد » ، وتلك هى مأساتها .. انها تشهق وتنتحب ، ولكن بدا لى أنها لا تفعل ذلك كله الا تقيداً بالشكل . وشعرت فى بعض اللحظات أنها توشك أن تتهاوى متهشمة كهيكل من عظم . وكانت تتكلم بصوت مختنق فيه ارتعاش ومط ، فالألف الممدودة تخرج من حلقها كأنها ثغاء شاة . وحين أفقت من غيبوبتى رأيتها تستدير فى وسط الغرفة على رجل واحدة ، ولكن دون أن ترقص ، لأن استدارتها هذه كانت تمثيلاً يتصل بقضيتها . واندفعت فجأة نحو بيانو صغير قديم غير مدوزن ، كان بالغرفة ، ففتحته وأخذت تنقر على أصابعه وتغنى ... أظن أننى غبت عن وعيى عشر دقائق أو أكثر ، وأننى نمت ، ولكن الكلب الصغير نبح ففتحت عينيّ ، وعاد اليّ شعورى كاملاً فأضاءنى بنوره كله لحظةً ، فانتفضت مذعوراً ، وأنا أقول لنفسى : « لامبير ، اننى عند لامبير » ، وتناولت قبعتى وارتميت على معطفى .

قالت لى آلفونسين اليقظة :

ـ « الى أين تذهب يا سيدى ؟ » .

فأجبتها :

ـ أريد أن أنصرف ، اريد أن أذهب ، لا تمنعينى !

فقالت آلفونسين مؤيدةً بقوة وهى تندفع لتفتح لى باب الدهليز :

ـ نعم يا سيدى !

ثم هتفت تقول بصوت عالٍ حتى يُسمع كلامها فى الدهليز كله :

ـ « ولكن المكان ليس بعيدا يا سيد ، فلا داعى الى ارتداء الفروة . انه قريب يا سيدى ! » .

فلما خرجت من الغرفة ، انعطفت يمنةً . فصاحت آلفونسين تقول بكل ما تملك من قوة وهى تتشبث بمعطفى بأصابعها الطويلة المعروقة وتدلنى باليد الأخرى على مكان فى يسار الممر لم أكن فى حاجة الى الذهاب اليه البتة :

ـ « من هنا يا سيدى ، المكان من هنا ! » .

ولكننى أفلت منها وركضت الى باب الخروج نحو السلم . فأخذت الفونسين تصرخ قائلة بصوت مكسَّر وهى تركض ورائى :

ـ « انه ينصرف ! انه ينصرف ! ولكنه سيقتلنى يا سيدى ، سيقتلنى ! » .

ولكننى صرت على السلم ، واستطعت أن أفتح الباب فى أسفل رغم أنها كانت تلاحقنى على الدرجات ، ووثبت الى الشارع ، وسارعت أرتمى فى أول عربة ، ذاكراً للحوذى عنوان أمى ...

٤

ولكن شعورى ما ان أضاء لحظةً حتى انطفأ • فلا أكاد أذكر الآن كيف ُنقلت الى بيت أمى ، وهناك لم ألبث أن غبت عن الوعى على الفور تقريباً • وفى الغد ، كما قيل لى هذا فيما بعد (واننى لأتذكر ذلك أنا نفسى على كل حال) أضاء عقلى مرةً أخرى لحظة • فرأيتنى فى غرفة فرسيلوف على ديوانه ، ورأيت حولى وجوه فرسيلوف و ماما و ليزا • وانى لأتذكر تذكراً واضحاً كل الوضوح كيف كلمنى فرسيلوف عن تسرشتشيكوف والأمير ، وكيف أرانى رسالةً وحاول أن يهدئنى • وقد رووا لى فيما بعد أننى كنت لا أنفك ألقى أسئلة مذعورة عن شخص أسميه لامير ، ولا أنفك أسمع نباح كلب صغير • ولكن هذا الشعاع الضئيل من الشعور لم يلبث أن أظلم ، فلما كان المساء من ذلك اليوم الثانى كانت الحمى قد اجتاحتنى اجتياحاً تاماً • ولكننى أحب أن أستبق الأمور فأذكر الواقعة التالية رغم أننى لم أستطع أن أعبها على الفور •

فى ذلك المساء الذى ُطردت فيه من عند تسرشتشيكوف ، وحين هدأ فى الصالة كل شىء ، واستأنف تسرشتشيكوف اللعب ، أعلن فجأة بصوت مدوٍ ، أن خطأ مؤسفاً قد وقع : فالمال المفقود ، أى الأربعمائة روبل ، قد عثر عليه فى كومة أخرى من المال ، وأجريت حسابات البنك فاتضح أنها كاملة لم ينقص منها شىء • فاذا بالأمير ، وكان قد بقى فى الصالة ، اذا به يقترب من تسرشتشيكوف ويلح عليه أن يعلن براءتى على رءوس الأشهاد ، وأن يعبرّ لى عدا ذلك عن اعتذاره كتابة • ورأى

تسرشتشيكوف أن هذا الطلب مشروع ، وتعهد امام الجميع بان يبعث الى في الغد رسالة ايضاح واعتذار . وقد زوّده الأمير بعنوان فرسيلوف منذ الغد فعلاً ، وتلقى فرسيلوف من تسرشتشيكوف رسالةً موجهةً اليّ ، ومعها مبلغ يزيد على ألف وثلاثمائة روبل ، هو مالٌ لي نسيته على مائدة الروليت . كذلك انتهت قضية تسرشتشيكوف . وقد أسهم هذا النبأ المفرح في ابلالي من المرض حين عاد اليّ شعوري .

أما الأمير فانه حين رجع من صـــالة القمار قد كتب في تلك الليلة رسالتين : احداهما اليّ والثانيـــة الى الكتيبة التي كان ينتمي اليهـا والتي وقعت له فيها تلك الحادثة مع حامل الراية سيتبانوف . وقد بعث الرسالتين كلتيهما في صباح الغد . وبعد الرسالتين كتب تقريرا الى رؤسائه ، وجاء الى الكولونيل في الصباح حاملاً تقريره بنفسه ، فأعلن للكولونيل أنه « مجرم من مجرمي الحق العام ، وشريك في جناية تزييف أسهم ، فهو لذلك يسلّم نفسه للعدالة ، ويطالب بأن يحكم عليه القضاء » ، وفي الوقت نفســه سلّم التقرير الذي يعرض فيــه كل شيء كتــابةً . فأودع السجن .

واليكم نص الرسالة التي كتبها لي في تلك الليلة كلمةً كلمة :

عزيزي الغالي آركادي ماكاروفتش !

« انني ، وقد جرّبت المخرج « العامي » ، قد فقدت الحق في أن أواسي نفسي أية مواســاة بأنني استطعت أخيراً أن أعزم أمري على القيام بعمل شجاع وعادل . انني مجـرم في حق الوطن وفي حق السلالة التي أنحدر منها وأنتمي اليها، لذلك أعاقب نفسي بنفسي، أنا آخر أفراد هذه السلالة . لست أفهم كيف أمكنني أن أتشبث بغريزة البقاء الدنيئة ، وأن

أفكر لحظةً في أن أفدى نفسى بمالٍ أدفعـــه لشركائى فى الجريمـة . فلو فعلت ذلك لبقيت فى نظر نفسى مجـرماً رغم كل شيء . ولو ردّ الىّ أولئك الناس رسائلى لظللت قلقاً طوال حياتى ، فلا راحة ! ماذا يبقى لى لو فعلت ذلك ؟ أعيش معهم ، وأرافقهم طوال عمرى : ذلك هو المصير الذى كان ينتظرنى ! فما كان لى أن أرضى بهذا . وأخيراً وجدت فى نفسى من الصلابة أو ربما من اليأس ما يتيح لى أن أفعل ما أفعله الآن .

« لقد كتبت الى كتيبتى السـابقة ورفاقى القدامى مبرئاً ستيبانوف . وليس فى هذا أى مأثرة تكفر عن ذنبى ، ولايمكن أن يـكون فيـه أى مأثرة تكفر عن ذنبى : وانما هى وصـية رجل سيموت غداً . هكذا يجب أن يُفهم عملى » .

« اغفر لى أننى أشحت عنك فى صـالة القمار . ذلك أننى لم أكن فى ذلك الوقت واثقاً بك . الآن وأنا رجل ميت ، أستطيع أن أدلى بهذه الاعترافات ... من العالم الآخر » .

« مسكينة ليزا ! انهـا لم تعرف شـيئاً عن هـذا القرار . فقل لهـا ألا تلعننى ، بل أن تفكر . اننى لا أستطيع أن أبرىء نفسى ، ولا أجد كلمات أشرح لها بها أى شيء . واعلم أيضاً ، يا آركادى ماكاروفتش ، أننى فى صباح أمس ، حين جاءت تزورنى آخـر مـرة ، كشفت لها عن خداعى ، فاعترفت بأننى ذهبت الى آنا آندريفنـا خاطبـاً . لم أستطع أن أبقى هذا السرّ حملاً ثقيلاً على ضميرى قبل قرارى الأخير الذى كنت قد اتخـذته ، فلم يسعنى الا أن اكشف لهـا عنه حين رأيت حبها . وقد

غفرت لى ، غفرت لى كل شىء ، لكننى لم أصـــدقها . ليس هذا منها غفراناً . فلو كنت فى مكانها لما غفرت .

« تذكرنى .

صديقك الأمير الأخير التعيس

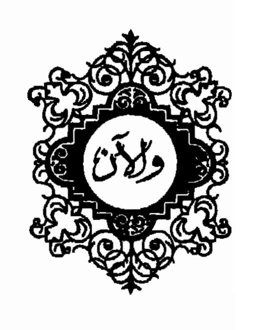
سوكولسكى

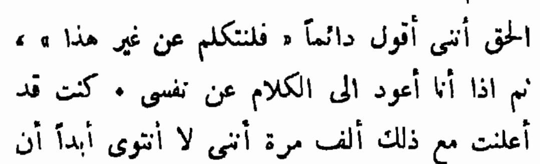
وقد بقيت فى سريرى بلا شعور تسعة أيام تماماً .

الجزء الثالث

الفصـــل الأول

١





فلنتكلم عن غير هذا تماماً .

الحق أننى أقول دائماً « فلنتكلم عن غير هذا » ، ثم اذا أنا أعود الى الكلام عن نفسى . كنت قد أعلنت مع ذلك ألف مرة أننى لا أنتوى أبداً أن أحكى عن نفسى ، وكنت قد عزمت أمرى على ذلك جازماً حين بدأت تدوين هذه الأمــور : اننى أدرك حق الادراك أن ما يحــدث لى لا يهــم القــارىء فى شىء . فأنا أصف غيرى وأريد أن أصف غيرى ، فاذا كان شخصى يعود فيندس تحت قلمى دائماً ، فليس ذلك الا خطأ يؤسف عليه ، ويستحيل الافلات منه رغم كل ما أملك من ارادة ورغبة . ومما يحز فى نفسى خاصــةً أننى حين أروى أحداث حياتى بمثل هذه الحرارة المتأججة كلها أوهم القارىء بذلك أننى لا أزال الآن كمــا كنت فى ذلك الوقت . ولكن القارىء يتذكر على كل حال أننى هتفت أقول غير مرة : « آه ... ليت المرء يستطيع أن يبدل الماضى وأن يبــدأ كل شىء بداية جــديدة ! » فما كان لى أن أهتف ذلك الهتاف لولا أننى قد تبدلت الآن تبدلاً عميقاً ، ولولا أننى أصــبحت شخصــاً آخـــر يختلف عن الشخص الأول كل الاختــلاف . ذلك واضح وضوحاً قوياً . ولكن ليت القارىء يستطيع أن يتصــور مدى ما أشــعر به من ضيق حين أسوق جميع هذه الاعتذارات وهذه المقدمات التى أضطر أن أدسّها كلّ لحظة فى وسط هذه الصفحات التى أدونها .

ولا نتنقل من بعد الى الوقائع .

أفقت من غيبوبتى بعد تسعة أيام ، أفقت وقد بعثت بعثاً جديداً ، ولكننى لم أصلح . وكان انبعاثى حيوانيا على كل حال ، اذا نحن فهمنا هذه الكلمة بمعناها الواسع ، ولعل الأمر لو تمّ الآن لجرى مجرى آخر . وكانت فكرتى أو عاطفتى لا تزال (كما كانت من قبل ألف مرة) تنصب على ضرورة أن « أتركهم » كلهم تركاً تاماً ، تركاً حاسماً مطلقاً ، لا كما حدث من قبل حين اتخذت هذا القرار ألف مرة دون أن أفلح فى تنفيذه أبداً . يمينا لم أكن أريد أن أنتقم من أحد ، رغم أننى كنت اشتكى منهم جميعاً . وكنت أهيىء نفسى للرحيل دون اشمئزاز ، ودون لعن ، وانما أنا أريد أن تكون لى قوتى الشخصية ، قوتى الحقيقية فى هذه المرة ، قوتى المستقلة « عنهم » جميعاً وعن العالم بأسره ! اننى لا أسجل هذا الحلم كفكرة بل كاحساس عارم لا يغالب سيطر علىّ فى ذلك الوقت . وكنت لا أريد أن أصوغ ذلك الحلم فى كلام ما بقيت راقداً فى السرير . كنت أحس وأنا مريض خائر القوى راقد فى غرفة فرسيلوف مهجور « منهم » جميعاً ، كنت أحس مدى ما هويت اليه من عجز ، فيؤلمنى ذلك ايلاماً شديداً : كنت قشةً ملقاة على سرير ، لا انساناً ! ولم يكن المرض وحده سبب ذلك ، فما أشد ما أورثنيه هذا من عذاب ! هكذا أخذ يصعد من أعماق كيانى احتجاج قوى ، فكنت أختنق فى قرارة نفسى نوعاً من وقاحة مغالبة وتحدٍ شديد . لا أذكر أن عهداً من عهود حياتى قد حفل بمشاعر الاستعلاء والتكبر مثلما حفلت بها هذه الأيام الأولى من نقاهتى ، أعنى الفترة التى كانت فيها القشة ملقاة على السرير .

ولكننى كنت بانتظار تحقيق حلمى ألتزم الصمت ، حتى لقد قررت ألا أفكر فى شىء ! كنت أسبر وجوههم محاولاً أن أحزر فيها كل ما كنت فى حاجة اليه . وكان واضحاً أنهم هم أيضاً كانوا لا يحبون أن

يسائلوني ، ولا ان يظهروا بمظهـر المستطلعين ، وانما هم يكلمونني في أمور ليست بذات بال • فكان هذا يرضيني ويحزنني في أن واحد • ولن أحلل هذا التناقض • وكنت أرى ليزا أقل مما أرى ماما ، رغم أنها تجيء الىَّ كل يوم ، وربمـا جاءت في اليوم مرتين • وقد اسـتخرجت مـن شذرات من أحاديثهـم ومن هيئتهم كلهـا أن لليزا هموماً ومتاعب كثيرة ، وأنها تغيب عن البيت أحياناً كثيرة جدا بسبب مشاغلها ، فكان مجرد تفكيري في أن لها « مشـاغل » خاصـة بها يجرح شعوري ويؤذي نفسي • ولكن هذه الاحساسات كانت احسـاسات مرضـية على كل حـال ، احسـاسات فزيولوجيـة صرفاً ، فلا داعي الى وصـفها • وكانت تاتيانا بافلوفنا أيضاً تجيء الىَّ كل يوم تقريبـاً ؛ ولئن لم تكن تعاملني برقة ولطف ، فانهـا لم تكن تشتمني كما كانت تفعل من قبل ، وهذا أمر أغاظني كثيراً ، حتى لقد عبَّرت لها عن غيظي بسذاجة فقلت لها : « أنت يا تاتيانا بافلوفنا تكونين مملة مضجرة اذا لم تنطقي بشـتائم ! » فاذا هي تجيبني بلهجة قاطعة : « لن أجيء اليك اذن ! » • وانصرفت • فسرَّني أنا أني طردت واحـدة على الأقل •

ولكنني كنت أعذِّب أمي خاصة • كانت أمي هي التي تحنقني أكثر من غيرها • كانت قد استبدت بي شهوة الطعام استبداداً قوياً ، فكنت أتذمر تذمراً شـديداً من أن وجبتي تتأخر دائماً (وهذا ما لم يحدث في يوم من الأيام) • وكانت أمي تتفنن في تخيـل ما يرضيني • وقد جاءتني مـرةً بالحساء ، وأخذت تطعمنيه بيدها على عادتهـا ، فكنت أتذمر وأنا ألتهمه • وفجأة خجلتُ من تذمري وقلت لنفسي : « ربما كانت هي الوحيدة التي أحبها ، ومع ذلك فهي التي أسـومها سوء العذاب » • ولـكن فظاظتي لم تهدأ ، ثم اذا بهذه الفظاظة تتحول الى بكاء فجـأة • فظنت المسكينة انني أبكي حنـاناً ورقة ، فمالت عليَّ وطفقت تقبلني • فصـبرت ، وتركت

للزوبعة أن تنقضي ، ولكنني في تلك اللحظة قد كرهت أمي في الواقع .
والحق أنني قد أحببتها دائماً ، وحتى في تلك اللحظة كنت أحبها ، فليس صحيحاً أنني كرهتها ، وانما حدث عندئذ ما يحدث دائماً : ان الذي نحبه أكثر من غيره نعذبه قبل غيره .

والشخص الذي كنت أبغضه حقاً في تلك الأيام الأولى انما هو الطبيب . كان هذا الطبيب شابا متعجرف الهيئة ، شرس اللهجة ، بل قليل التهذيب . ان أمثال هذا الطبيب يصطنعون دائماً وضع من حقق في العلم اكتشافات خارقة مفاجئة بالأمس القريب ، ولا يكون الأمس القريب قد شهد شيئاً ذا بال . ولكن هذا شأن « التافهين » و « العامين » . وقد صبرت عليه طويلاً ولكنني انفجرت أخيراً على حين بغتة ، فأعلنت له أمام جميع من في الدار أنه يزعج نفسه في غير طائل ، وانني سأشفى بدون أن يكلف نفسه عناء مداواتي ، وأنه رغم ما يتظاهر به من أنه واقعي، محشو العقل بالأوهام، وانه لم يدرك حتى الآن أن الطب لم يشف أحداً من مرض في يوم من الأيام ، وأنه في أغلب الظن جاهل جهلاً فاحشاً ، « كسائر اختصاصيي هذا الزمان الذين يشمخون بأنوفهم كثيراً » . وقد استاء الطبيب استياءً شديداً (فظهر بذلك على حقيقته) ، ولكنه ظل يعودني . وقد أعلنت لفرسيلوف أخيراً أنني ، اذا لم ينقطع الطبيب عن زيارتي ، فلأقولنّ له كلاماً أغلظ مما سبق أن قلته له عشرة أضعاف .
فأجابني ان قول كلام أغلظ ضعفين اثنين أمر مستحيل ، فما بالك بكلام أغلظ عشرة أضعاف ! فسرّتني ملاحظة فرسيلوف هذه .

يا له من انسان على كل حال ! أقصد فرسيلوف . لقد كان وحده سبب كل شيء . ومع ذلك كان الوحيد الذي لم أغضب منه . وليست معاملته وحدها هي التي فتنتني ، وانما كان كل منا يحس أن عليه ايضاحات يجب أن يقدمها لصاحبه ، فالأفضل لهذا السبب ألا يوضح أحد لأحد

شيئاً قط . انه لشيء ممتع في ظروف كهذه الظروف أن يعامل المرء رجلاً ذكياً ! سبق أن قلت ، في الجزء الثاني من روايتي ، مستبقاً الأمور ، ان فرسيلوف كلمني بايجاز شديد عن رسالة بعثها الى الأمير المعتقل ، وعن تسرشتشيكوف واعتذاره لي ، الخ . واذ أنني كنت قد أزمعت الصمت ، فقد ألقيت عليه ، بأشد ايجاز ممكن ، سؤالين أو ثلاثة أسئلة مقتضبة ، فأجاب عنها اجابات واضحة دقيقة ، ولكن دون أن تشتمل اجاباته على كلمات زائدة ، ودون أن تشتمل على عواطف زائدة ، وهذا أعلى قيمة أيضاً . ان العواطف الزائدة هي ما كنت أخشاه في ذلك الحين .

ولست أقول شيئاً عن لامبير ، ولكن لاشك أن القارىء قد حزر أنني كنت أفكر فيه كثيراً . لقد تكلمت عن لامبير أثناء الهذيان مراراً . ولكن حين أفقت من غيبوبتي ، وألقيت بضع نظرات حولي ، فانني سرعان ما اعتقدت أن حكاية لامبير لا تزال سراً ، وأن أحداً لا يعرف عنها شيئاً ، حتى فرسيلوف . فاغتبطت لهذا وانقضى خوفي . ولكن ما كان أشد دهشتي حين علمت فيما بعد أنني كنت مخطئاً في اعتقادي : لقد جاء لامبير أثناء مرضي ، غير أن فرسيلوف لم يحدثني عن مجيئه بشيء ، فاستنتجت من ذلك أنني الآن في نظر لامبير قد انتقلت الى العالم الآخر . ومع ذلك كنت أفكر فيه في كثير من الأحيان ، أفكر فيه بغير اشمئزاز منه ، بل أفكر فيه بمودة له ، كأنني أحس فيه شيئاً جديداً يلبي ما أخذ ينشأ في نفسي من مشاعر جديدة وخطط جديدة . الخلاصة أنني قررت أن أفكر في لامبير قبل أن أفكر في أي شيء آخر متى عقدت العزم على الشروع في التفكير . شيء غريب : لقد نسيت نسياناً تاماً أين يسكن ، وفي أي شارع جرى كل الذي جرى . كنت أتذكر كل شيء : الغرفة ، آلفونسين ، الكلب الصغير ، الدهليز؛ حتى لقد كان يمكنني أن أرسم هذا كله لو شئت . ولكن أين جرت هذه الأحداث كلها ؟ في أي شارع ؟

في أية عمـارة ؟ لا أدرى ! نسيت نسـياناً تاماً . والأغرب من هذا انني لم أدرك ذلك الا في اليوم الثالث أو الرابع من عودة شعورى الىّ ، أى بعد انقضاء مدة طويلة على شعورى بالقلق من لامبير .

تكلم هى اذن احساساتي الأولى بعد انبعاثي، لم أذكر منها الا أكثرها سطحيةً ، ولعلني لم أستطع أن أذكر منها الشيء الأساسي . والحق أن الشيء الأساسي لعله تحدد وتبلور في قلبي في ذلك الأوان نفسه ؛ انني لم أقض وقتي كله في الغضب والحنق من تأخـر وصـول حسائي . آه .. انني لأتذكر كم كنت حزيناً ، وكم كان يستبد بي السأم أحياناً ، ولاسيما حين أبقى وحيداً خـلال مدة طويلة . كانوا قد لاحظوا ، هم ، أنني أضيق ذرعاً بهم وبشفقتهم ، فكانوا يتركونني وحيـداً فترات ما تنفك تزداد : افراط في الذوق !

٢

في اليوم الرابع من صـحوى الكامل ، كنت راقداً على سريرى فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، ولم يكن معى أحد . كان الجو رائقاً وكنت أعلم أن الشمس ستأفل بعد ثلاث ساعات ، وأن شعاعاً مائلاً أحمر سيسقط على زاوية جدارى ، فيضيئها ببقعة متوهجـة . كنت أعلم هذا من الأيام السابقة ، وكنت أعلم أيضاً أن ذلك سيحدث بعد ساعة حتماً ، فكان يقينى من ذلك يسخطنى الى حـد الخنق الشـديد . ولذلك رأيتنى أنقلب الى الجهة الأخرى بحـركة متشنجة ، فاذا أنا فجـأةً ، فى الصمت العميق ، أسمع هذه الكلمات سماعاً واضحاً : « يا ربنا يسوع المسيح ، يا الهنا ، ارحمنا » نُطقت هذه الكلمات بما يشـبه الهمس ، ثم انطلقت من صدر المتكلم زفرة عميقـة ، ثم عاد كل شيء الى الصـمت . فأنهضت رأسى بسرعة .

وكنت قبـل ذلك ، أمس ، بل أمس الأول ، قد لاحظت أن فى غرفنا الثلاث ، تحت ، شيئاً خاصاً . فلابد أن الغرفة الصغيرة التى كانت تقيم فيها ماما وليزا ، على الجهة الأخـرى من الصالة الكبيرة ، تضم الآن شخصاً آخر . وكنت قد سمعت بعض الأصـوات عدة مرات ، فى النهار وفى الليل ، ولكن خلال لحظات قصار دائماً ، فسرعان ما كان الصمت يخيم من جديد سـاعات عدة ، لذلك لم أحفل بالأمر ولا انتبهت اليه . وخطر ببالى أمس أن فرسيلوف هو الذى أحدث تلك الأصوات ، لا سيما وأنه جاء الىّ بعد لحظة . ومع ذلك كنت أعلم من أحاديثهم علم اليقين أن

فرسيلوف قد انتقل أثناء مرضى الى غرفة أخرى يبيت فيها • أما ماما وليزا فكنت أعلم منذ مدة طويلة أنهما انتقلتا كلتاهما (من أجل هدوئى وراحتى فيما اعتقدت) الى الطابق الأعلى ، الى « تابوتى » القديم ، حتى لقد تساءلت بينى وبين نفسى ذات يوم : « كيف أمكنهما أن تقيما فيه كلتاهما ؟ » • ثم هأنذا أتبين فجأة أن غرفتهما التى كانتا تقيمان بها انما يسكنها اليوم شخص آخر ، وأن هذا الشخص الآخر ليس فرسيلوف • وهأنذا ، بخفة لم أكن أظنها فى نفسى (اذ كنت أتصور حتى ذلك الحين أننى لا أملك أية قوة) ، أُخرج ساقىّ من السرير ، وأدسهما فى بابوجين ، وألقى على كتفى ثوباً للمنزل رمادى اللون مصنوعاً من جلد الحمل كان على مقربة منى (ضحى به فرسيلوف) ، وأسير عبر الصالون متجها الى الغرفة التى كانت تسكنها أمى من قبل • ان ما رأيته هناك قد شدهنى وأذهلنى • لم أكن أتصور شيئاً مما رأيت ، فوقفت فى العتبة كالمتسمر •

ان فى الغرفة شيخاً أشيب الشعر تماماً ، له لحية بيضاء بياضاً هائلاً ، كان واضحاً أنه مقيم هنا منذ مدة طويلة • ولم يكن الشيخ جالساً على السرير ، وانما هو جالس على كرسىّ ماما ، مستند الى السرير بظهره فحسب ؛ وكان عدا ذلك منتصب الجذع فى جلسته ، فكأنه ليس فى حاجة الى أى استناد رغم ما به من مرض بيّن لا يخفى • وكان يرتدى فوق قميصه سترةً مبطنة بفراء خروف ، ويغطى ركبتيه بشال لأمى ، وينتعل بابوجين • لابد أنه طويل القامة • وهو عريض المنكبين ، تدل هيئته على شكيمة قوية ، رغم مرضه ورغم شىء من الشحوب والنحول ؛ وهو بيضوى الوجه ، شعره غزير ولكنه ليس طويلاً جداً ؛ ويبدو أنه تجاوز السبعين من عمره • وعلى مقربة منه ، فوق مائدة صغيرة فى متناول يده ، ترقد ثلاثة كتب أو أربعة ، ونظارتان من فضة • فما ان أبصرته حتى حزرت من هو ، رغم أننى لم يخطر ببالى لحظةً واحدةً أن ألقاه ، ولكننى

لم أستطع أن أفهم كيف أمكن أن يقضي هذا الوقت كله بجواري مستخفياً هذا الاستخفاء الذي بلغ من الشدة أنني لم يدر في خلدي وجوده .

لم يتحرك حين رآني ، وانما نظر اليّ ملياً بصمت ، ونظرت اليه أنا كذلك ، مع فارق واحد هو أنني أظهرت دهشةً شديدة ، أما هو فلم يظهر أية دهشة . حتى انه بعد أن تفرس فيّ خلال خمس ثوان أو عشر ، ابتسم فجأة ، بل ضحك ضحكة خفيفة لا تكاد تدرك ، ضحكة سرعان ما انقضت ، ولكن بقي أثرها المضيء الفرح في وجهه ، ولا سيما في عينيه ، الزرقاوين جداً ، المشعتين ، الواسعتين ، اللتين يعلوها حاجبان منتفخان متهدلان من الشيخوخة ، وتحيط بهما غضون صغيرة لانهاية لعددها . ان ضحكته خاصةً هي التي أثرت في نفسي .

انني أرى أن الانسان حين يضحك يكون منظره منفّراً في أكثر الأحيان . فالضحك يبرز في العادة لدى الناس نوعاً من العامية والتدني ، وان كان الضاحك لا يعرف شيئاً عن الأثر الذي يحدثه في نفوس الآخرين . انه يجهل هذا الأثر جهل المرء بشكل وجهه أثناء النوم . فمن النائمين من تبقى وجوههم ذكيةً ، ومنهم من تصبح أثناء النوم غبيةً فمضحكةً رغم أنهم أذكياء . لا أدري سبب هذه الظاهرة . كل ما أريد أن أقوله هو أن الضاحك ، كالنائم ، لايعرف عن وجهه شيئاً في أكثر الأحيان . هناك كثرة كبيرة من الناس لا تجيد الضحك البتة . والحق أن الأمر ليس أمر اجادة يحصّلها المرء بالمران ، وانما الضحك موهبة يؤتاها المرء فطرةً ، فاذا أراد أحد أن يحصّل هذه القدرة على اجادة الضحك كان عليه أن يربي نفسه تربية جديدة ، وأن يحسّن ذاته ، وأن ينتصر على غرائزه السيئة ، فاذا فعل ذلك فقد يتحسن ضحكه . ومن الناس من يفضحهم ضحكهم ، فمتى رأيتهم ضاحكين حزرت فوراً ما تخبئه بطونهم . فرب ضحكة ذكية حقاً ثم هي تنفرك مع ذلك أحياناً . ان

الضحك يقتضي الصراحة قبل كل شيء : فاين الصراحة في البشر ؟ والضحك يقتضي نفساً طيبة كريمة ، والناس في أكثر الأحيان انما يصدرون في ضحكهم عن خبث وشر . والضحك الصريح الذي لا شرَّ فيه فرح : فأين الفرح في زماننا هذا وأين الناس الذين يعرفون كيف يفرحون ؟ (هذه الملاحظة عن الفرح في زماننا انما سمعتها من فرسيلوف فحفظتها) . فرح الانسان هو السمة التي تكشف عن خلقه أكثر من سائر سماته ، الى جانب رجليه ويديه . هناك طباع لا تستطيع أن تنفذ اليها ، فاذا اتفق لأحد الذين يملكون طبعاً من هذه الطباع أن انفجر يضحك أمامك ضحكاً صريحاً ذات مرة ، رأيت طبعه مبسوطاً أمام بصرك فوراً . لا أحد الا أولئك الذين ينعمون برقي رفيع سعيد ، يمكن أن يفرح فرحاً معبرا سارياً ، فرحاً طيباً لا سبيل الى مقاومة فتنته . ولست أقصد هنا رقي الذكاء والعقل بل رقي الطبع والخلق ، أعني رقي الانسان كله جملةً . لذلك اذا أردت أن تدرس امرأ وأن تعرف نفسه فلا تنتبه الى طريقته في الصمت ، أو في الكلام ، أو في البكاء ، أو حتى في تأثره بأنبل المعاني والأفكار ؛ وانما انظر اليه حين يضحك . فاذا أحسن الضحك فهو امرؤ طيب . وعليك أن تلاحظ الفروق الطفيفة : يجب مثلاً ألا يبدو لك ضحكه غبياً بحال من الأحوال مهما يكن هذا الضحك صريحاً ومهما يكن بريئاً وساذجاً . فمتى لاحظت في ضحكه أية علامة من علامات الغباء فاعلم أنه انسان محدود العقل ، مهما يحفل عقله بأفكار كثيرة . واذا لم يكن ضحكه غبياً ، لكنه بدا لك هزلاً على حين فجأة ، فاعلم أن هذا الانسان لا يحترم نفسه احتراماً حقيقياً ، أو لا يحترم نفسه احتراماً كاملاً . واذا كان هذا الضحك معبرا وسارياً ولكن بدا لك عامياً مبتذلاً فاعلم أن طبيعة الرجل عامية ، وأن كل ما تكون قد لاحظته فيه قبل ذلك من نبل وسمو انما كان مقصوداً أو مصطنعاً أو مستعاراً على غير شعور منه ، وأن الرجل سيرتد حتماً الى

طبيعته السيئة ، فيهتم بما يعود عليه « بارباح » ، وينبذ أراءه السمحه الكريمة نبذاً لا هوادة فيه ولا رحمة ، ويعدُّها من أخطاء الشباب وحماساته ٠

اذا كنت أسهب هذا الاسهاب الطويل فى الكلام عن الضحك مضحياً بمواصلة سرد قصتى فلست أفعل ذلك استطراداً بغير نية ٠ اننى أعد هذه الآراء نتيجةً من أثمن النتائج التى استخلصتها طوال حياتى ٠ واننى أوصى بها الفتيات المخطوبات اللواتى يوشكن أن يتزوجن الخطيب ولكنهن مازلن يتفرسن فيه بشك وحيرة ولمّا يعزمن أمرهن بعد ٠ ألا لا تسخروا من مراهق يتصدى لاعطاء دورس فى أمور الزواج التى لا يفهم منها شيئاً ٠ اننى أعرف شيئاً واحدا لا أكثر : هو أن الضحك أضمن مقياس تُعرف به النفس ٠ انظروا الى الأطفال : ان بعضهم يحسنون الضحك احساناً تاماً ، وهذا هو السبب فى أن المرء لا يستطيع أن يقاوم فتنتهم ٠ ان الطفل البكّاء كريه الى نفسى ، أما الطفل الذى يضحك ويبتهج فانه شعاع من الجنة ، واطلالة على المستقبل الذى سيصبح فيه الانسان آخر الأمر طاهرً طهارة طفل ، ساذجاً سذاجة طفل ٠

ولقد كان فى الضحكة العارضة التى ضحكها ذلك الشيخ شيء من طفولة لا حدود لفتنتها ٠ فسرعان ما دنوت منه ٠

٣

قال لى بلطف وهو يشير الى مكان بقربه ، ويرمقنى بتلك النظرة المشعة نفسها :

ـ اجلس ، اجلس لحظةً ، فلا تزال ساقاك ضعيفتين .

فجلست الى جانبه وقلت له :

ـ اننى أعرفك . أنت ماكار ايفانوفتش .

ـ نعم يا عزيزى . حسن أنك تقف الآن على قدميك . انك شاب . هذا حسن لك . للشيخ القبر ، وللشاب الحياة .

ـ هل أنت مريض ؟

ـ نعم يا صديقى ، الساقان خاصةً . حملتنى ساقاى المسكينتان حتى وصلت الى هنا ، ولكن ما لبثتا أن تورمتا منذ جلست . بدأ هذا يوم الخميس الماضى ، حين وقف الترمومتر (ملاحظة : يقصد حين تجلد من البرد) . كنت قبل ذلك أدهنهما بمرهم . الدكتور لشتن ادموند كارلوفتش هو الذى وصف لى ذلك المرهم بموسكو منذ ثلاث سنين ، وكان ذلك المرهم ينفعنى كثيراً . ومنذ أمس ، سرى الوجع الى الظهر ، حتى لكأن الكلاب تنهش ظهرى نهشاً ... وصرت لا أنام الليل ..

قاطعته سائلاً :

ـ وكيف لا يُسمع لك صوت هنا البتة ؟

فنظر الىّ وبدا مفكراً ، ثم أضاف يقول كأنما وافته ذكرى مباغتة :

ـ حذار أن توقظ أمك . لقد ظلت تضطرب حولى طول الليل ، ولكن بدون أن يُسمع لها أى صوت ، كما لا يسمع صوت لفراشة . وهى الآن ترتاح .

وتنهد قائلاً :

ـ شىء حزين أن يكون المرء شيخاً مسكيناً . لا أدرى بمن تتشبث روحى ، ولكنها لا تزال صامدة ، وهى سعيدة بأن تبقى فى هذا العالم ، بل لو كان عليها أن تستأنف حياتها كلها على هذه الأرض لما جزعت من ذلك . ولكن لعل مثل هذه الفكرة اثم .

ـ لماذا تكون اثماً ؟

ـ هذه الفكرة حلم ، وعلى الشيخ أن يمضى الى نهايته . نعم ان استقبال الموت بتذمر أو استياء اثم كبير . على كل حال ، اذا كان حب الحياة ناشئاً عن فرح روحى ، فأظن أن الله سوف يغفره حتى لشيخ . يصعب على الانسان أن يعرف الفرق بين ما هو اثم وما ليس باثم . هذا سر يفوق العقل الانسانى . وعلى الشيخ أن يكون دائم الرضى ، وأن يموت مغموراً بضياء روحه ، سعيداً بما قضى من أيام ، متطلعاً الى ساعته الأخيرة ، فرحاً بالرحيل كسنبلة تنضم الى باقة السنابل ، بعد أن حقق سرّه .

ـ أراك تتكلم دائماً عن السر . فما الذى تعنيه بقولك : « حقق سره » ؟

سألته هذا السؤال وأنا ألقى نظرة على الباب . كنت سعيداً بأننا وحيدان ، وأن كل ما حولنا سكون وهدوء . وكانت الشمس تسطع قوية على النافذة قبل أفولها . وكان الشيخ يتكلم بشىء من التفخيم وبدون دقة

كأنه كان فرحاً بوجودى حقاً . ولكننى لاحظت أنه يعانى من حمى لا شك فيها ، بل يعانى من حمى قوية . وكنت مريضاً أنا أيضاً ، وكنت أشعر بحمى كذلك منذ دخلت عليه . قال :

ـ ما هو السر ؟ كل شيء سر يا صديقى . سر الله موجود فى كل مكان . كل شجرة . كل عشبة تشتمل على سر . أن يغرد طير صغير ، وأن تسطع النجوم متلألئة فى الليل ، فذلك كله سر ، ذلك كله سر واحد . ولكن ما ينتظر نفس الانسان فى العالم الآخر هو سر الأسرار ، هو أكبر الأسرار . هكذا يا صديقى !

ـ لا أدرى ماذا تعنى .. وثق اننى لا أقول هذا الكلام مناكدةً لك، وثق أننى أؤمن بالله . ولكن هذه الأسرار جميعها قد كشف عنها العقل منذ مدة طويلة ، وما لم يكتشفه العقل فسوف يكتشفه يوماً ـ هذا مؤكد حتماً ـ وربما اكتشفه فى وقت قريب . عالم النبات يعرف تماماً كيف تنبت الشجرة ، وعالم الفزيولوجيا وعالم التشريح يعرفان لماذا يغرد الطائر ، أما النجوم فقد أحصى عددها ، بل حُسبت كل حركة من حركاتها حتى ليمكن التنبوء بظهور أى مذنب قبل ألف سنة من ظهوره بخطأ لا يتجاوز دقيقة واحدة . وحتى تركيب أبعد الكواكب صار الآن معروفاً . خذ مجهراً ـ المجهر عدسة مكبرة تضخم الأشياء مليون مرة ـ وانظر فى قطرة ماء . ولسوف ترى فى قطرة الماء عالما كاملا يعج بالمخلوقات الحية ، وكان ذلك سرا فاكتشفناه .

ـ سمعت أناساً يتكلمون عن هذا مراراً كثيرة يابنى . لست أنكر أن ذلك شيء عظيم مدهش . كل شيء وُهب للانسان بارادة الله . ليس عبثاً أن أعطى الله الانسان نسمة الحياة : « عش واعرف » .

ـ هذه معان تلوكها جميع الألسن . ما أنت مع ذلك بعدو من أعداء العلم ، ما أنت كهنوتى ؟ أعنى ... لا أدرى هل تفهم ...

ـ لا يا بنى ، لقد احترمت العلم دائماً منذ أن كنت صبياً ، واذا كنت لا أعرف من العلم شيئاً فاننى لا أناصبه العداء • مالم يوهب لنا قد وهب لآخرين • ولعل فى هذا خيراً : كل امرىء ميسر لما خلق له • ذلك أن العلم يا بنى ليس دائماً ميزة • فمن الناس من ينقاد للرغبة فى ادهاش العالم ، فلو كنت عالماً فقد أرغب فى ذلك أكثر من سائر البشر • أما وأننى جاهل فكيف يمكننى أن أتباهى؟ ولكنك أنت شاب ملىء ذكاء• وذلك قدرك • فعليك بالدراسة • حاول أن تعرف كل شىء ، فاذا لقيت رجلاً زنديقاً أو رجلاً تافهاً كان فى وسعك أن ترد عليه ، ولا يغرنَّك بأقوال باطلة تعكر عقلك الغض • أما تلك العدسة التى جئت على ذكرها فقد رأيتها منذ مدة ليست بالطويلة كثيراً •

قال ذلك واسترد أنفاسه وتنهد • ولا شك أن مجيئى اليه قد سرَّه سروراً عظيماً • كانت تعتمل فى نفسه حاجة قوية الى البوح ، حاجة تكاد تكون مرضية • زد على ذلك أننى لا أظننى مخطئاً اذا قلت انه كان فى بعض اللحظات ينظر الىَّ نظرات تزخر بعاطفة قوية : كان يضع يده على يدى بحنان ، ويلاعب كتفى ••• ولكن يجب أن أعترف أنه كان فى لحظات أخرى يبدو كمن نسينى نسياناً تاماً ، فكأنه وحيد فى الغرفة ، فاذا واصل كلامه بحماسة كان كمن يكلم نفسه •

تابع يقول :

ـ ان فى دير جناديفا ـ بوستين ، يا صديقى ، رجلاً عظيم الذكاء ، نبيل الأصل ، واسع الثراء ، برتبة ليوتنان كولونيل • لقد امتنع هذا الرجل عن الزواج منذ كان يعيش فى المجتمع • وهو الآن فى الدير منذ قرابة عشر سنين ، انفصل عن الناس حباً بالسكون والوحدة وأراح حواسه من أباطيل الحياة الاجتماعية • انه يلتزم جميع قواعد الحياة الرهبانية ، ولكنه لا يريد أن يرتدى مسوح الرهبان • وما أكثر ما عنده

من كتب يا صـــديقي ! انني لم ار هــذا القــدر من الكتب في أي مكان الا عنده ! ثمنها يبلغ ثمانية آلاف روبل • هو قال لي ذلك • اسمه بطرس فالريانتش • وقد عـَلمني أشياء كثيرة في فترات مختلفة ، فطالما كنت أحب أن أصغي اليه • قلت له ذات مرة : « كيف يا سيدي وأنت رجل عظيم الفكر يعيش منذ عشر سنين في طاعة النظام وهجر الارادة والتنازل عن الرغبة ، كيف لا تتمنى أن ترتدي المسـوح فتزداد كمالاً ؟ » فقال لي : « كيف يا شيخ تجـرؤ أن تزعم لي فكراً عظيماً ؟ لعـل فكري هو الذي أسرني واستعبدني بدلاً من أن أروّضه وأسيطر عليه • وما هذا الذي تقوله عن طاعتي ؟ لعلني منذ مدة طويلة قد فقدت القصد والاعتدال ! وتتكلم أيضاً عن هجري ارادتي وتنـازلي عن رغبتي ؟ فاعلم اذن أنني مستعد لأن أدع على الفور مالي ، وأن أردّ رتبي ، وأن أضع على هذه المائدة جميع أوسمتي •• ولكن غليوني •• هأنذا منـذ عشر سنين أخشى ألا أستطيع الاستغناء عنه ! فأيّ راهب يمـكن أن أكون ، وأين هجـر الارادة الذي تمدحه فيّ ؟ » دُهشت عندئذ من هذا التواضع • وقد مررت بذلك الدير في الصيف الماضي يوم القديس بطرس ـ أراد الله لي ذلك ـ فماذا رأيت في الحجرة ؟ رأيت ذلك الشيء الذي حدثتني عنه : مجهراً كان الرجل قد استقدمه من الخارج وتحمل في سبيل ذلك نفقات ضخمة • قال لي : « انتظر قليلاً ، سوف أريك شيئاً مدهشاً لم تره في حياتك حتى الآن • هل ترى هذه القطرة من الماء ؟ انها صـافية رائقـة كدمعـة • فانظر اذن الى ما في داخلها • لتجدنّ أن علماء الميكانيكا سـيكشفون قريبـاً عن جميع أسرار الرب •• فلا يدعون منها واحداً » • هذا ما قاله وقد حفظته • وكنت أنا قد نظـرت في المجهـر قبـل ذلك بخمسـة وثلاثين عاماً عند مولانا الكسندرا فلاديميروفتش مالجاسوف ، خال آندره بتروفتش ، الذي آلت أملاكه بعد وفاته الى آندره بتروفتش • لقد كان سـيداً خطير الشأن ، وكان جنرالا

كبيراً ، وكان يملك رهطاً كبيراً من كلاب الصيد ، وقد عملت عنده صيادا بالكلاب مدة طويلة • وكان قد احضر هو أيضا هذا المكروسكوب ، فكان يدعو جميع الناس بعضاً وراء بعض ، رجالاً ونساءً ، للنظر فيه ، عارضاً تحت عدسته قملةً وبقة ورأس دبوس وشعرة وقطرة ماء • ما أكثر ما تسلينا وضحكنا ! كنا نخاف أن نقترب من المكروسكوب ، ولكننا كنا نخاف مولانا أيضاً اذا نحن لم نقترب ، لأنه كان شديد الغضب • وكان بعضنا لا يعرف أن ينظر ، فهم يغمضون أعينهم فلا يرون شيئاً • وكان آخرون يصرخون جزعاً وهلعاً • حتى ان العمدة سافين ماكاروف وضع يديه على عينيه صارخاً : « اصنع بى ما شئت فلن أنظر !» ، فانطلق الضحك من كل صوت ! كنت اذن قد رأيت هذا المكروسكوب قبل ذلك بمدة طويلة ، قبل ذلك بأكثر من خمسة وثلاثين عاماً ، كنت قد رأيت هذه المعجزة ، ولكننى لم أقل هذا لبطرس فالريانوفتش ، اذ كان يسره سروراً عظيماً أن يريها • حتى لقد تظاهرت بأننى أدهش وأرتاع • فتركنى لحظةً ثم سألنى : « فما قولك يا شيخ ؟ » • قلت وأنا انتصب : « الرب قال : كن يا ضياء فكان الضياء •» • فأجابنى فجأةً : « لعل الظلمات هى التى كانت ! » قال ذلك بطريقة غريبة دون أن يبتسم • وشعرت فى تلك اللحظة باستغراب ، أما هو فقد كاد يغضب ثم لم يقل بعدئذ شيئاً •

قلت له :

ـ الأمر بسيط جداً ، ان صاحبك بطرس فالريانوفتش يقيم فى الدير ليأكل كوتيا ويركع ويسجد ، لكنه لا يؤمن بالله ، وأنت انما وقعت عليه وهو فى لحظة من لحظات صراحته تلك • هذا كل شىء ، ثم انه شخص عجيب جداً : فلا شك أنه رأى هذا المكروسكوب عشر مرات ،

فلماذا جنَّ به فى المرة الحادية عشرة ؟ هذه حساسية عصبية ••• أغلب الظن أنه اكتسبها فى الدير •

قال الشيخ باقتناع :

ـ انه رجل طاهر القلب رفيع الفكر ، وليس زنديقاً • ان له عقلاً واسعاً ، ولكن قلبه قلق • وما أكثر أمثاله الذين يفدون علينا من عند هؤلاء السادة العلماء • ثم اسمع ما سأقوله لك : ان الرجل يعاقب نفسه • فلاحظ هؤلاء الناس ، ولا تعذبهم ، واذكرهم فى صلواتك قبل النوم ، لأنهم انما يبحثون عن الله • هل تصلى قبل أن تنام ؟

ـ لا • أنا أعتقد أن الصلاة طقس من الطقوس السخيفة لا طائل فيه • ولكن يجب أن أعترف لك أن صاحبك بطرس فالريانوفتش يعجبنى: فهو على الأقل ليس خرقة بل رجلا ، وهو يشبه بعض الشبه رجلاً آخر قريباً منا نعرفه كلانا •

لم ينتبه الشيخ الا الى الجزء الأول من جملتى • وأردف يقول :

ـ خطأ منك يا صديقى ألا تصلى • الصلاة شىء حسن يبهج القلب عند النوم وعند الصحو فى الصباح وحين يستيقظ المرء فى الليل • أنا أقول لك هذا • فى صيف من الأصياف ، فى شهر تموز (يوليه) ، كنا نحث الخطى نحو دير « العذراء » احتفالا بعيد • فكلما اقتربنا من المكان ازداد عددنا ، فاذا نحن نصبح مائتى شخص تقريباً ، مسرعين الى تقبيل الرفات المقدس للشهيدين آنيكى و جريجوار • كنا قد قضينا الليل فى حقل من الحقول ، وفتحت عينىَّ فى الفجر حين كان الجميع لا يزالون نائمين وحين لم تكن الشمس قد خرجت بعد من الغابة • رفعت رأسى يابنى ، وشملت الأفق بنظرة وتنهدت : كان كل شىء جميلاً جمالاً لا يوصف ! كل شىء هادىء ، الهواء نسيم ، العشب ينبت ـ انبت يا عشب الرب ••• والطائر

الصغير يغرد ـ غرّد يا طائر الرب ••• والطفل الصغير يزقزق على ذراعي أمه ـ ليحرسك الله أيها الرجل الصغير ، اكبر وكن سعيداً ! لعلني أدركت الجمال يومئذ أول مرة في حياتي ! وعدت أرقد ، ونمت نوماً ما كان أخفه وأحلاه ! العالم جميل يا صديقي ! اذا تحسنت صحتي فسوف أستأنف طوافي متى طلع الربيع • اذا كان هناك أسرار ، فمرحباً بالأسرار • صحيح أن الأسرار ترهب القلب وتثير فيه العجب ، ولكن هذا الخوف يبهج القلب أيضاً : « كل شيء متجمع فيك أيها الرب ، أنا نفسي موجود فيك ، فخذني اليك ! » •

وأضاف يقول برقة وحنان :

ـ لا تتململ يا فتي ! لأن يوجد سر فذلك أجمل •

ـ « لأن يكون سر فذلك أجمل ••• » • سوف أتذكر هذه الكلمات • الأسرار ترهب القلب ، كما عبرتَ عن ذلك تعبيراً غير صحيح ، ولكنني أفهم ••• ان ما يدهشني هو أنك تعرف وتدرك أموراً أكثر مما تستطيع التعبير عنه • ولكن كأنك تتكلم وأنت في حالة هذيان •••

أفلتت مني هذه الجملة وأنا أرى عينيه المحمومتين ووجهه الشاحب • ولكن أظن أنه لم يسمعني •

واستأنف كلامه فقال كمن يتابع كلامه الذي انقطع :

ـ هل تعرف يا بني الصغير أن لذكرى الانسان على هذه الأرض حداً ؟ ان هذا الحد لا يتجاوز مائة سنة • قد تبقى ذكرى المرء عند أولاده أو أحفاده الذين رأوا وجهه • واذا بقيت ذكراه مدة أطول ، فانما تكون بعد ذلك ذكرى شفهية ، ذكرى عقلية ، لأن جميع الذين رأوا وجهه الحي سوف يمضون وسوف يخفي العشب قبره في المقبرة ، وتتكسر الشاهدة ، وينساه جميع الناس حتى أعقابه ، وأخيراً ينسون اسمه أيضاً ، لأن الذين

تبقى اســـماؤهم فى ذاكرة البشر قلة قليلة جـــداً • لا بأس ! فلينسى أعزائى • ولكننى سأظل أنا أحبهم من قرارة قبرى • أيها الأولاد الصغار ، اننى أسمع أصواتـكم الفرحـة ، وأسمع أصوات وقع أقداكم على قبور آبائكم فى يوم عيد الأموات ، وسوف أصلى من أجلكم ، وسوف أنزل اليكم فى أحلامكم ••• ان الحب يبقى بعد الموت ! ••

كنت فى حمى مثله • وبدلاً من أن أنصرف أو أن أحضه على أن يهدأ ويسكن ، أو أن أرقده فوق سريره ، لأنه كان يبدو فى حالة هذيان كامل ، أمسكت يده فجأةً ، وقلت له وأنا أميل عليه وأشد على يده ، قلت له بهمس متأثر ودموع فى القلب :

ـ اننى سـعيد برؤيتك • لعانى كنت أنتظرك منـذ مدة طويلة • لا أحب أحـداً : ليس فى أحـد منهـم جمال •• لن أتبعهم ، ولا أعرف الى أين أذهب ، فسأمضى معك •••

ولكن شاء حسن الحظ ان تدخل أمى فى تلك اللحظة • فلولا ذلك لما عرفت كيف كان يمكن أن ينتهى الأمر • دخلت دخول شخص استيقظ الآن وأوجس خطـراً • وكانت تحمل بيـدها قارورة وملعقة حساء • فلما رأتنا صاحت تقول :

ـ آ ••• توقعت هذا ! لقد نسيت أن أجرّعك جرعة الكينا فهأنت ذا قد اعترتك حمى شـــديدة ! نمتُ مـدة طويلة يا ماكار ايفانوفتش ، يا عزيزى !

نهضت وخرجت • وأعطته أمى جرعته وأرقدته على السرير • واندسستُ أنا أيضـــاً فى سريرى ، ولكننى كنت مضطـرباً أشـــد الاضطراب • لقد رجعت الى غرفتى وأنا أشـعر بدهشـة كبيرة ، وأخذت أفكر فى هذا اللقاء بكل ما أملك من قوة • لا أدرى ماذا كنت أنتظر من

هذا التفكير • وأغلب الظن انني كنت أفكر في الأمور تفكيراً مشوشا لا تسلسل فيه ، وأن ما كان يتلاحق في ذهني لم يكن أفكاراً بل شذرات أفكار • كنت في اضطجاعي متجهاً برأسي الى الجدار ، فاذا أنا أرى البقعة المضيئة المتوهجة التي أسقطتها الشمس الغاربة على الزاوية ، والتي كنت أنتظرها من قبل ساخطاً لاعناً • انني أتذكر أن نفسي كلها قد اشتعلت حماسة في تلك اللحظة ، كأن شعاعاً جديداً قد نفذ الى قلبي • انني أتذكر تلك اللحظة العذبة ، ولا أريد أن أنساها • لم تكن الا لحظة أمل جديد ، وقوة جديدة ••• كنت قد بدأت فترة النقاهة طبعاً ، فمن الجائز اذن أن تلك النوبات لم تكن الا نتيجة لا مفرّ منها لحالة أعصابي ، ولكنني ما زلت الى اليوم أومن بذلك الأمل المضيء الذي ملأ نفسي • ذلكم ما أردت اليوم أن أسجله وأن أحفظه • صحيح أنني كنت أعلم حق العلم أنني لن أصحب ماكار ايفانوفتش لأجوب الأرض مثله ، وأنني كنت أجهل أنا نفسي ماذا كان ذلك التطلع الجديد الذي استولى على نفسي ، ولكنني كنت قد نطقت بتلك الجملة ، ولو في الهذيان : « ليس فيهم جمال ! » قلت أحدث نفسي مفتتناً : « انتهى الأمر ، سوف أبحث منذ هذه اللحظة عن الجمال ، وهم ليس فيهم جمال ، فسأتركهم » • وسمعت حفيفاً ورائي ، فالتفت • انها ماما ، تميل عليّ وتنظر في عينيّ مستطلعةً على خجل • فأمسكت يدها فجأة ، وسألتها دون أن أتوقع أنا نفسي ماذا كنت سأقول :

ــ لماذا لم تقولوا لي شيئاً عن ضيفنا العزيز ؟

فاذا بقلقها كله يختفي بغتةً ، واذا الفرح يضيء وجهها ، ولكنها لم تجبني الا بهذه الكلمات :

ــ لا تنس أيضاً ليزا ، ليزا • انك قد نسيت ليزا •

قالت ذلك بسرعة وقد احمر وجهها ، وهمّت بالانصراف مستعجلةً ، لأنها كانت هي أيضاً تكره أن تبسط عواطفها • انها من

هذه الناحيـة تشبهنى ، أعنى أنهـا مغلقة على نفسها عفة . هذا عدا أنها ما كانت لتريد أن تشرع فى حـديث معى عن هـذا الموضـوع : ماكار ايفانوفتش . كان ما استطعنا أن نتبادله من نظرات كافياً . ولكننى ، أنا الذى أكره أن أعرض عواطفى ، قد احتجزتهـا عنوةً باحـدى يدىَّ ، وأخذت أنظر فى عينيها برقة ، وأضحك برفق ولطف، وألامس باليد الأخرى وجهها العزيز وخديها الخاسفتين . فمالت علىَّ ، ووضعت جبينها على جبينى ، ثم قالت لى فجأة وهى تنتصب مشرقة المحيا :

ـ أبلَّ من مرضـك فأكون لك شـاكرة . انه مريض ، مريض جـداً .. ان حيـاته بين يدى الرب .. آه ! ما هـذا الذى قلته ؟ مستحيل ! ..

وانصرفت . لقد ظلت طـول حياتهـا خائفةً مرتعدة زاخرة النفس بالاحترام والتعظيم والتكريم لزوجها الشرعى ، الجوّاب ماكار ايفانوفتش ، الذى غفر لها الى الأبد بنفس كبيرة وقلب عظيم .

الفصل الثاني

١

أنا

ما نسيت ليزا . أخطأت ماما الظن . لقد رأت هذه الأم الحساسة أن هناك نوعاً من الفتور بين الأخ وأخته ، ولكن هذا لم يكن وهناً طرأ على ما يربطهما من عاطفة ، وانما كان ضرباً من الغيرة . وهأنذا أشرح ما في نفسي ببضع كلمات .

ان المسكينة ليزا قد انتابها منذ اعتقال الأمير نوع من الاستعلاء المتغطرس ، والتكبر الشديد الذي لا يكاد يحتمل . ولكن كل من في البيت قد أدرك الحقيقة ، فعرف أنها تعاني عذاباً قوياً ، ولئن حزنت أنا في أول الأمر وقطبت حاجبي ، فانما كان مرد ذلك الى ما أتصف به من سرعة التأذي وفرط الحساسية ، وهما أمران زاد المرض حدتهما عندي ، أو هذا ما أقدِّره الآن . ولكنني لم أنقطع عن حب ليزا أبداً . بالعكس : اشتد في نفسي ما كنت أحمله لها من حب . كل ما هنالك أنني لم أشأ أن أقوم بالخطوة الأولى ، رغم أنني أدركت أنها هي أيضاً لن تقوم بالخطوة الأولى في حال من الأحوال ، مهما كلفها الأمر .

ان ليزا ، منذ عُرفت قصة الأمير فور اعتقاله ، سارعت تتخذ منا ومن جميع الناس موقف انسان لا يمكن أن يحتمل أن يرثي أحد لحاله أو أن يشفق عليه أو أن يسري عنه بمحاولة تبرئة الأمير . بالعكس : أصبحت ، مع حرصها على ألا تفصح عما بنفسها وألا تجادل أحداً قط ،

تصطنع هيئة من يمجد سلوك خطيبها المسكين ويعده بطولة ما بعدها بطولة .
لكأنها كانت تقول لنا جميعاً في كل لحظة (دون أن تنطق بكلمة ، أكرر
هذا) : « لا أحـد منكم يمكن أن يفعل ما فعله هو أبداً . لا أحـد منكم
يمكن ان يسلم نفسـه مدفوعا الى ذلك بدواعي الشرف والواجب . ذلك
أنكم لا أحد منكم يملك وجـدانا يبلغ هذا المبلغ من الرهافة والطهارة .
أما عن أعماله فأي انسان من البشر لا تثقل على ضميره سيئة من السيئات ؟
الآخـرون يكتمون ويخفون أما هو فقـد آثر أن يهلك على أن يفقـد
قيمته في نظر نفسه . » . ذلك ما كانت تعبرّ عنه كل حركة من حركات
ليزا تعبيراً واضحاً . وأظن أنني لو كنت في مكانها لتصرفت هذا التصرف
نفسه . ولا أدري هل هذه المعاني هي التي كانت راسخة في قرارة قلبها ،
في أعماق نفسها : وأغلب الظن عندي أنها في النصف الآخر من عقلها ،
في النصف المضيء ، كانت تدرك حتماً كل تفاهة « بطلها » . فمن ذا الذي
يرفض اليوم أن يعترف أن هـذا الانسـان الذي يمـكن أن يعـد من
جهـة أولى تعيسـاً شـقياً ، وأن يعد من جهـة أخـرى شهماً كريه النفس
في نوعه ، قد كان في الوقت نفسـه امرأ تافهـاً كل التفاهة ؟ ان شـدة
تأذيهـا نفسـهـا ، وان تأهبهـا الدائم للتهجـم علينـا ، وان ما كانت
تحسـه من اشتباه مستمر في أننـا قد نرى فيـه رأياً آخـر ، ان ذلك
كله يدل على أنها في أعماق نفسها كان حكمها على صديقها حكماً آخر .
ومع ذلك أسـارع فأضيف أنها في نظري كانت على حق ، أو على بعض
الحق في أقل تقدير . انهـا تُعـذر أكثر منـا جميعاً اذا هي ترددت في
اسـتخلاص نتيجة حاسـمة ورأي قاطع . أنا نفسي أعترف من كل قلبي ،
بعـد أن مضى وانقضى ذلك كله ، انني لا أدري على وجـه اليقين كيف
أحكم حكماً قاطعاً وكيف أقدّر تقديراً حاسماً ذلك المسكين الذي جعلنا
جميعاً أمام لغز لا نعرف كيف نحله .

على أن المنزل قد استحال بسببها الى جحيم صغير . ان ليزا التي أحبت حباً قوياً كان لابد أن تتألم كثيراً . وكانت بحكم طبعها تفضّل أن تتألم صامتة . ان طبعها يشبه طبعي ، أعني ان يجنح بها الى التحكم والتسلط والتكبر .. وقد اعتقدت دائما ولا ازال أعتقد الى اليوم انها قد أحبت الامير مدفوعة الى ذلك بالرغبة في التسلط والتحكم ، لان الأمير كان بغير ارادة ، ولأنه منذ الكلمة الأولى ومنذ الساعة الأولى قد خضع لها وانقاد لمشيئتها انقياداً تاماً . ذلك كله انما يتم في القلب من تلقاء نفسه بدون أي حساب سابق . ولكن هذا الحب الذي يحمله قوى لضعيف يكون في بعض الأحيان أعنف كثيراً وأبعث على الألم كثيراً من حب يقوم بين اثنين متكافئين ، ذلك لأن القوى يتحمل تبعة صديقة الضعيف رغم ارادته . أو هذا ما اعتقده أنا على الأقل . ولقد أحاطها أهل الدار منذ البداية بأكبر المراعاة وأشد المداراة ، ولا سيما ماما . ولكنها لم ترق ، ولم تستجب لهذه العاطفة ، وتأبت على كل مساعدة . ولئن ظلت تكلم ماما في أول الأمر ، فانها أصبحت تبخل بالكلام مزيداً من البخل يوماً بعد يوم ، وأصبحت أكثر فظاظة بل أكثر قسوة . وكانت تستشير في أول الأمر فرسيلوف ، ولكنها لم تلبث أن اتخذت فاسين مستشاراً لها ومساعداً ، وهذا أمر أدهشني حين عرفته فيما بعد . كانت تذهب كلَّ يوم الى فاسين ، وتركض الى المحاكم ، وتقابل رؤساء الأمير ، وتراجع المحامين ووكيل النيابة . وفي النهاية صار ينقضي النهار كله دون أن يراها أحد في البيت تقريباً . وكانت تزور الأمير مرتين كل يوم طبعاً ، في قسم النبلاء من السجن الذي أودع فيه ، ولكن هذه اللقاءات كانت قاسية شاقة على ليزا كما علمت ذلك من بعد . صحيح أنه ليس ثمة شخص ثالث يمكن أن يعرف شئون حبيبين معرفة تامة . ولكنني أعلم مع ذلك أن الأمير كان يجرح شعورها جرحاً عميقاً في بعض الأحيان . كيف ؟ بغيرة لا تنقطع . أمر عجيب ! ان لنا الى هذه النقطة عودة . غير انني أحب أن

آضيف هذه الفكرة : انه لمن الصعب ان يقطع المرء فى هـذا السـؤال : أيهما كان يعذب الآخر تعذيباً أشد ؟ لعل ليزا التى كانت بيننا تعتز ببطلها ، لعلها كانت تعامله معاملة أخرى ، كما يجوز لى أن افترض ذلك على أساس بعض الوقائع التى سنجىء على ذكرها فيما بعد أيضاً .

ففيما يتعلق بعواطفى وعلاقاتى بأختى ليزا ، لم يكن كل ما يُرى ويلاحظ الا كذباً مقصـوداً عنيداً من الطرفين كليهما ، والحق أننـا لم نتحابّ يوماً كما تحاببنا فى تلك الفترة . يجب أن أضيف شيئاً آخر هو أن ليزا منذ أن جـاء الينـا ماكار ايفانوفتش قد عاملته ، بعد الاسـتغراب والفضول اللذين أحستهما فى اللحظة الأولى ، عاملته بنوع من الاحتقار بل الاستعلاء ، وتعمدت أن تتظاهر بأنها لا توليه أىّ انتباه .

عاهدت نفسى اذن على التزام الصمت ، كما أوضحت ذلك فى الفصل السابق ، وقدّرت نظرياً ، أى فىأحـلامى ، أننى سأفى بالعهد طبعاً . نعم ، اننى لأوثر ، مع فرسيلوف مثلاً ، أن أتحدث فى علم الحيوان ، أو أن أتكلم عن أباطرة الرومان على أن أتكلم « عنها » أو عن ذلك السطر من رسالته ، الذى يبلغها فيه أن « الوثيقة » لم تُحرق بل هى موجودة ، وأنها يمـكن أن تظهر الى النور ــ ذلك السطر الذى أخذت أفكّر فيـه بينى وبين نفسى فوراً منـذ صـحوت من غيبوبتى وعاد الىّ رشـدى بعد الحمى . ولكن وا أسـفاه ! لقد أدركت منـذ الخطوات العملية الأولى بل قبلها تقريباً ، أدركت كم يصعب على المرء بل كم يستحيل عليه أن يتقيد بهذه القرارات التى تصورها خياله . ان ظرفاً لم يـكن فى الحسبان قد هزّنى هزاً قوياً رهيباً غداة لقائى بماكار ايفانوفتش .

٢

كان الظرف الذى هزّنى هزاً قوياً هو زيارة داريا أونيسيموفنــا ، أم الفتاة اوليــا التى انتحرت شــنقا • كنت قد عرفت من أمى انها جاءت مرتين أثناء مرضى ، وأنها كانت تهتم كثيراً بأنباء صحتى • أمن أجلى حقا انما جاءت تلك « المرأة الرائعــة » كما كانت تصفها أمى بذلك دائمــاً ، أم هى جاءت لزيارة أمى فحسب ، جرياً على عادتها ؟ اننى لم أسأل عن هذا • لقد كانت أمى تقص علىّ أحداث المنزل دائماً ، وكانت تقص علىّ هذه الأحداث فى العادة حين تجىء لتطعمنى حسائى (قبل أن أصبح قادراً على تناول طعامى بنفسى) ، وذلك تسليةً لى وتسريةً عنى • وكنت أحرص فى كل مرة على أن أظهر أننى لا أحفل بما ترويه لى ، لذلك لم أســألها شيئاً من التفاصيل عن داريا أونيسيموفنا •

الساعة هى الحادية عشرة • وقد دخلت علىّ داريا أونيسيموفنا حين كنت أهمُّ أن أنهض لأنتقل الى مقعد بقرب المائدة • فلمــا دخلت تعمدت أن أبقى فى السرير • كانت أمى منهمكة بالعمل فوق ، فلم تنزل لتراها ، فأمكننــا أن نبقى وحيدين • جلست قبالتى ، على كرسى بقــرب الجدار ، تبتسم ولا تنطق بكلمة • وتوقعت أن يطول الصمت • وكان مجيئها يحدث فى نفسى ضيقاً وحنقاً واهتياجاً فى جميع الأوقات على كل حال • فلم أتجه اليها ولو بحركة من رأسى محيياً ، وظللت أحدق الى عينيها بنظرة ثابتة • ولكنها حدّقت الىّ هى أيضاً •

وسألتها فجأة وقد نفذ صبرى :

ـ لا شك أنك تضجرين الآن وحيدةً بعد غياب الأمير ؟

فأجابت تقول :

ـ لا ، اننى لا أقيم هنـالك الآن . فأنا بفضل آنا آندريفنا ، أعنى الآن بالطفل .

ـ أى طفل ؟

ـ طفل آندره بتروفتش .

قالت ذلك هامسةً ، بلهجة البوح ، وهى تنظر الى الباب .

ـ ولكن هناك تاتيانا بافلوفنا ...

ـ بل تاتيانا بافلوفنـا وآنا آندريفنـا كلتـاهما ، وكذلك اليزابث ماكاروفنا ، وأمك ... انهن جميعاً يشاركن . وقد انعقدت الآن أواصر صداقة قوية بين تاتيانا بافلوفنا وآنا آندريفنا .

هذا نبأ !

وكانت المرأة تنتعش وتنشط أثناء كلامها . ونظرت اليها نظرة كره . وقلت لها :

ـ أرى أنك الآن أنشـط مما كنت عليه ابان زيارتك الأخـيرة لى فى بيتى .

ـ آ ... نعم !

ـ وأظن أنك سمنت ؟

فألقت علىّ نظرة غريبة . ثم قالت :

ـ اننى أحبها كثيراً ، كثيراً .

ـ من هى ؟

ـ آنا آندريفنا طبعاً . أحبها كثيراً . انسانة نبيلة ، عاقلة ...

ـ نعم ، وكيف حالها الآن ؟

ـ هادئة جداً ، هادئة جداً .

ـ كانت دائماً هادئة .

ـ صحيح . دائماً .

ونفد صبري فهتفت أقول لها فجأة :

ـ اذا كنت قد جئت الىّ لتروى لى أقاويل وتنقلى الىّ نمائم ، فاعلمى أننى الآن لا أتدخل فى شىء ، واننى عزمت على أترك كل شىء وأن أترك جميع الناس ... لقد استوت عندى الأمور كلها : اننى راحل !

قلت ذلك وصمت اذ ثاب الىّ رشدى . اننى لا أريد أن أهبط الى حيث أشرح لها أهدافى الجديدة . وقد أصغت الىّ بدون اندهاش وبدون اضطراب ، ولكن خيمّ صمت جديد . ثم اذا هى تنهض فجأة ، فتتجه نحو الباب ، وتلقى نظرةً على الغرفة المجاورة . حتى اذا اطمأنت الى أن الغرفة خالية ليس فيها أحد ، وأننا وحيدان ، رجعت بهدوء شديد ، وعادت تجلس فى مكانها نفسه .

قلت وأنا انفجر ضاحكاً :

ـ شىء لطيف !

سألتنى فجأة وهى تميل علىّ قليلاً وتخفض صوتها كأن هذا هو السؤال الأساسى الذى من أجله جاءت :

ـ مسكنك عند ذلك الموظف ، أتنوى أن تحتفظ به أم لا ؟

ـ مسكنى ؟ لا أعرف . قد أتركه ... ما يدرينى ؟

ـ ذلك أن السكان ينتظرونك • الموظف ينتظرك بفارغ صبر ، وكذلك زوجته ••• ولقد أكد لهما آندره بتروفتش أنك عائد حتماً •

ـ ولكن فيم يهمك هذا الأمر ؟

ـ آنا آندريفنا أيضاً تريد أن تعرف • لقد سرّها كثيراً أن تعلم أنك باق •

ـ من أين جاءتها هذه الثقة بانني سأبقى فى ذلك المسكن ؟

وهممت أن أسألها : « وما شأنها هى فى هذا الأمر ؟ » ولكننى امتنعت عن القاء هذا السؤال تكبراً واستعلاء •

ـ أكده لها مسيو لامبير •

ـ من ؟

ـ مسيو لامبير • هو أيضاً أكدّ لآندره بتروفتش تأكيداً قاطعاً بأنك باق ، وطمأن كذلك آنا آندريفنا •

اضطربت اضطراباً شديداً • ما هذه القصة أيضاً ؟ اذن أصبح لامبير يعرف فرسيلوف • اذن وصل لامبير الى فرسيلوف ! لامبير وآنا آندريفنا : وصل لامبير حتى الى آنا آندريفنا ! وانتابتنى حمى • لكننى صمت • وأغرق نفسى سيل رهيب من صلف ، صلف أو شىء آخر • المهم أننى كنت كمن يقول لنفسه : « اذا طلبت كلمة ايضاح واحدة ، كنت أقحم نفسى فى هذا العالم من جديد ، فلا أتركه بعد ذلك أبداً » • واشتعل فى قلبى كره شديد • وقررت جازماً أن أصمت ، ولبثت فى سريرى ساكناً لا أتحرك • ولبثت هى أيضاً صامتة خلال دقيقة كاملة •

سألتها فجأةً بغير تمهيد :

ـ كيف حال الأمير نيقولا ايفانوفتش ؟

ألقيت هذا السؤال بلهجه قوية لأغيرّ موضوع الحديث ، فاذا أنا آلقى السؤال الأساسى اعتباطاً كمن فقد عقله ، فأرجع كالمجنون الى ذلك العالم الذى كنت قد قررت مهتاجاً أن أهرب منه .

قالت :

ـ هو فى تساركويه سيلو . انه مريض قليلاً . المدينة ملأى الآن بهذه الحميات نصحه الجميع أن يعتزل فى تساركويه سيلو بمنزله هناك نشدانا للهواء النقى .

لم أجب . وأردفت هى تقول :

ـ تزوره آنا آندريفنا والجنرالة كلّ ثلاثة أيام . تذهبان اليه معاً .

آنا آندريفنا والجنرالة (أى « هى ») صديقتان ! تذهبان اليه معاً !

لم أقل شيئاً .

ـ ذلك أنهما أصبحتا صديقتين جداً . وآنا آندريفنا تمدح كاترين نيقولايفنا كثيراً ...

بقيت صامتاً .

ـ عادت كاترين نيقولايفنا الى ولعها بالمجتمع ، فهى تنتقل من حفلة الى حفلة ، تتلألأ ... بل يقال ان كثيراً من رجال البلاط يهيمون بحبها ، أما السيد بيورنيج فقد انقطع الحبل بينه وبينها ، فلن يتم الزواج . ذلك ما يؤكده جميع الناس ... منذ تلك المرة ...

أرادت أن تقول : منذ وصول رسالة فرسيلوف . وقد ارتعدت ، لكننى لم أقل كلمة واحدة .

ـ ما أشد اشفاق آنا آندريفنا على الأمير سرجى بتروفتش ! وكذلك

كاترين نيقولايفنا ! انهما تتحدثان عنه دائما ، ونقولان ان القضاء سيبرئه وسيحكم على الآخر ، ستيبلكوف ..

نظرت اليها نظرة تفيض كرهاً . ونهضت فجأة ومالت عليّ تقول لى بهمس :

ـ أوصتنى آنا آندريفنا بأن أستفسر عن صحتك ، وأمرتنى أن أرجوك أن تذهب اليها متى خرجت ، فأرجو أن تبل من المرض . استودعك الله .

وخرجت . فجلست على سريرى . وأخذ عرق بارد يتصبب فى جبينى . غير أن ما شعرت به لم يكن قلقا . ان هذا النبأ الكريه الذى لم أستطع أن أفهمه ، هذا النبأ عن لامبير ومكائده ، لم يروّعنى كما كانت تروعنى أثناء مرضى وفى الأيام الأولى من نقاهتى ، ذكرى لقائى به فى تلك الليلة . حتى اننى فى تلك اللحظة الأولى من الاضطراب المبهم الذى أعقب انصراف داريا أونيسيموفنا ، لم يتلبث فكرى على لامبير ... وانما استولى على ذهنى ما أنبأتنى به داريا عن القطيعة التى وقعت بين كاترين نيقولايفنا وبين بيورنج ، وعن سعادة كاترين فى المجتمع ، وعن الحفلات التى تتنقل بينها ، وعن النجاح الذى تلقاه ، وعن تألقها . لقد قالت داريا أونيسيموفنا « انها تتلألأ » . وشعرت فجأة بأننى عاجز عن انتزاع نفسى من هذا الاعصار ، رغم اننى استطعت أن أتجلد وأصمت ، وألا ألقى على داريا أسئلةً بعد الأشياء المذهلة التى روتها لى . واجتاحنى ظمأ شديد الى تلك الحياة ، « حياتهم » ، و ... واجتاحنى كذلك ظمأ آخر لذيذ عذب ، لا أدرى ما هو ، ظمأ أحسسته كالسعادة وأحسسته كالعذاب . وطفقت أفكارى تدور فى رأسى كزوبعة .. وتركت لها أن تدور هذا الدوران ! كنت أقول لنفسى : « علام التفكير ؟ » . ثم جعلت أفكّر تفكيراً متقطعاً لا تسلسل فيه ، فأقول لنفسى : « ان أمى نفسها قد

أخفت عنى مجىء لامبير . ذلك أن فرسيلوف أمرها أن تسكت . اننى أفضل أن أموت على أن أسأل فرسيلوف عن لامبير بحال من الأحوال ! » . ثم عدت أقول : « فرسيلوف ! فرسيلوف ولامبير ! أوه ! ما أكثر ما حدثت من أمور جديدة عندهم ! ما أمكر فرسيلوف هذا ! لقد أخاف ذلك الألمانى بيورنج بتلك الرسالة . لقد أذاع فى حقه النمائم ... « النميمة لابد أن يبقى منها شىء دائما » . خاف الرجل من الفضيحة . آه .. آه .. درس حسن لها ! « لامبير ! ولكن ألا يكون لامبير قد وصل اليها هى أيضاً . لابد أنه وصل اليها حتماً ! ما عسى يحملها على أن ترفض عقد صلة به ؟ » .

وهنا كففت فجأة عن ادارة هذه الأفكار المضطربة المشوشة فى ذهنى، وهويت برأسى على الوسادة من شدة الكرب واليأس . ثم صحت أقول بعزم مباغت : « ولكن لا ! » .ووثبت عن سريرى ودسست قدمى فى البابوجين ، وألقيت علىّ ثوب المنزل ، ومضيت قدُما الى ماكار ايفانوفتش كأن الشفاء من هذه الأفكار التى تحاصرنى انما يجب أن ألتمسه عنده ، كأن لديه النجاة والخلاص ، كأن عنده المرساة التى أستطيع أن أتشبث بها فلا أغرق .

وأغلب الظن أننى أحسست بهذه الفكرة احساساً قوياً ، والا فهل كنت أنهض هذا النهوض الذى لا سبيل الى مغالبته ، وهل كنت أسرع الى ماكار ايفانوفتش وأنا على ما أنا عليه من تلك الحالة النفسية المضطربة ؟

٣

لكنني وجـدت عند ماكار ايفانوفتش زواراً لم أكن اتوقعهـم : ماما والدكتور • ولأنني كنت أتصور حين مضيت الى الشيخ أنني سألقاه وحيداً كما حدث أمس ، فقد وقفت في العتبة متحـيراً تحيراً غبيـاً • ثم ما ان قطبت حاجبي حتى وصل أيضاً فرسيلوف ، ووصلت وراءه ليزا • التأم الشمل كله اذن عند ماكار ايفانوفتش « في وقت غير مناسب » !

قلت وأنا اتجه الى ماكار ايفانوفتش رأساً :

ـ جئت أسأل عن صحتك •

ـ شـكراً يا ابني ، كنت أعلم أنك سـتأتي ! هذه الليلة أيضـاً فكرت فيك •

وكان ينظر في عيني برقة وحنـان ، فرأيت أنه ربما كان يحبني أكثر من الآخرين جميعاً • ولكنني لاحظت فوراً برغم ارادتي أنه اذا كان وجهه فرحاً فان مرضه قد تفاقم في الليل كثيراً • وكان الطبيب قد فحصه منذ لحظة فحصـاً دقيقاً جـداً • وقد علمت فيما بعد أن هذا الطبيب (وهو الطبيب الشاب الذي تشاجرت معه يداوي ماكار ايفانوفتش منذ وصوله) قد عامل مريضه بكثير من الاهتمام ، وهو يشخِّص لديه جملة معقدة من الأمراض المتنوعة لا أستطيع أن أسـميها بلغتهم الطبية • وقد انعقدت بين ماكار ايفانوفتش وبين الطبيب علاقات فيها كثير من الصـداقة كما أدركت

ذلك منذ أول نظرة ، فلم يعجبنى هـذا كثيراً فى تلك اللحظة • ثم اننى كنت آنئذ معتكر المزاج جداً •

سأل فرسيلوف قائلاً :

ـ فماذا يا الكسندر سيمونوفتش ؟ كيف صحة مريضنا العزيز اليوم ؟

لولا أننى كنت مضطرباً لجعلت أول همى أن أدرس ، باهتمام شديد وشغف كبير ، علاقات فرسيلوف مع هذا الشيخ • وقد خطر ذلك ببالى منذ الأمس • والشيء الذى خطف بصرى الآن خاصة هو ما كان يعبر عنه وجهه فى الظاهر من لطف وبشاشة • أظن أننى سبق أن أشرت الى أن هيئة فرسيلوف تصبح جميلة جمالاً مدهشاً متى كان بسيطاً بعض البساطة •

أجاب الطبيب يقول :

ـ نحن لانفتأ نتشاجر •

ـ تتشاجر مع ماكار ايفانوفتش ؟ لا أصدق شيئاً من هـذا : لا يستطيع المرء أن يتشاجر معه •

ـ لكنه لا يريد أن يطيعنى : انه لا ينام الليل •••

ـ دعك من هذا الكلام يا ألكسندر سيمونوفتش ، كفى تقريعا !

كذلك قال ماكار ايفانوفتش ضاحكاً • وتابع كلامه سائلاً آندره بتروفتش :

ـ هيه آندره بتروفش العزيز ؟ ما صنعت بآنستنا ؟

ثم أضاف وهو يشير الى أمى :

ـ لقد ظلت مضطربة قلقة طول الصباح •

فهتفت أمي تقول بقلق شديد فعلاً :

ـ نعم يا آندره بتروفتش ، حدثنا بسرعة عما فعلوا بصاحبتنا المسكينة ! ماذا قرروا في حقها ؟

فقال :

ـ حكموا عليها .

ـ أوه !

ـ هدئي روعك ، لن تنفى الى سيبريا : حكموا عليها بدفع غرامة مقدارها خمسة عشر روبلاً . مهزلة !

قال ذلك وجلس . فجلس الطبيب أيضاً . كانوا يتكلمون عن تاتيانا بافلوفنا . ولم أكن أعرف شيئاً عن تلك القصة بعد . كنت على يسار ماكار ايفانوفتش . وجلست ليزا أمامي على اليمين . كان واضحاً أنها تعاني ألماً خاصاً جاءت تفضي به الى أمي . كان وجهها ينم عن اضطراب واستياء . وقد تبادلنا نظرة في تلك اللحظة ، فقلت لنفسي فجأة : « كلانا تلطخ شرفه ، وعليّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى نحوها » . لقد رقّ قلبي لها فجأة . وفي تلك الأثناء أخذ فرسيلوف يروي ما جرى في الصباح .

لقد مثلت تاتيانا بافلوفنا في هذا الصباح أمام قاضي الصلح مع طباختها . وكانت القضية مضحكة جداً . سبق أن ذكرت أن الفنلندية المتعبة كانت اذا غضبت تلازم الصمت في بعض الأحيان أسابيع متصلة فما تجيب بكلمة واحدة على أسئلة مولاتها . وذكرت أيضاً أن تاتيانا بافلوفنا ضعيفة تجاهها ، فهي تحتمل منها كل شيء ، ولا يمكن أن تطردها من خدمتها بحال من الأحوال . ان جميع هذه النزوات النفسية التي تلاحظ في العوانس أمور تستحق الاحتقار في نظري ولا تستحق أي اهتمام ، واذا كنت قد قررت أن أروي هذه القصة هنا ، فانما يدفعني الى ذلك

ان هذه الطباخة سيكون لها في روايتي دور مشئوم لا يمكن اغفاله ٠ وأعود الى حكايتها فأقول ان تاتيانا بافلوفنا قد نفد صبرها أخيراً وضاقت ذرعاً بهذه الفنلندية العنيدة التي لم تجب عن أسئلتها بكلمة واحدة منذ عدة أيام ، فاذا هي تضربها فجأة وذلك ما لم يسبق أن حدث من قبل أبداً ٠ وقد صمتت الفنلندية عندئذ ولم تقل شيئاً ألبتة بل لم يصدر عنها أي صوت ، ولكنها اتصلت في ذلك اليوم نفسه بمستأجر كان يقيم في مكان يطل على سلم الخدم نفسه ، تحت ، وهو الملازم البحري المتقاعد أوستروف الذي كان يعمل وسيطاً في جميع أنواع القضايا ، وكان يرفع الى المحاكم قضايا من هذا النوع ، طلباً للرزق في الكفاح من أجل البقاء ٠ وكانت النتيجة أن طُلبت تاتيانا الى المثول أمام قاضي الصلح ، واستدعي فرسيلوف شاهداً ٠

روى فرسيلوف هذه الحكاية كلها بلهجة بلغت من المرح والطرب أن أمي نفسها أخذت تضحك ٠ وقد قلد شخصيات تاتيانا بافلوفنا والملازم البحري والطباخة ٠ فذكر كيف أعلنت الطباخة للقاضي أنها تطالب بتعويض مالي وكيف عقبت على ذلك قائلة : « والا فلمن أهيىء العشاء اذا هي سجنت ؟ » ٠ وروى كيف أن تاتيانا بافلوفنا قد أجابت عن أسئلة القاضي بكثير من التكبر حتى انها أبت أن تبرز فعلتها وانتهت الى القول : « ضربتها ولسوف أضربها أيضاً » ، فكان أن حُكم عليها بغرامة قدرها ثلاثة روبلات لعدم توقيرها القاضي ٠ وأخذ يصف الملازم البحري ، وهو شاب متخلع المشي نحيل الجسم ، فذكر كيف اندفع يلقي خطاباً طويلاً في مدح صاحبته الطباخة ، ولكنه لم يلبث أن ارتبك ارتباكاً مخجلاً فأخذت القاعة كلها تضحك ٠ وسرعان ما انتهت المناقشات فحكم على تاتيانا بافلوفنا بأن تدفع خمسة عشر روبلاً لطباختها ماري ، التي أساءت اليها وأهانتها ٠ فما كان من تاتيانا بافلوفنا الا أن استلت محفظة نقودها فوراً

بدون انتظار ، وعدت المبلغ ، فاذا بالملازم البحرى ينبجس حالاً ويمد يده ، ولكن تاتيانا بافلوفنا دفعت يده بقوة حتى كادت ان تضربها ضربا ، والتفتت نحو مارى تريد ان تنقدها المبلغ ، فقالت لها مارى : لا تكترثى يا سيدتى ، وأضيفى المبلغ الى حسابى ، أما هذا السيد فساقوم أنا بدفع أجره له » ، فقالت تاتيانا بافلوفنا : « أرأيت يا مارى ما أغبى الرجل الذى اتخذته مدافعاً عنك ؟ » . قالت تاتيانا بافلوفنا ذلك وهى تومىء الى الملازم البحرى ، فرحةً أعظم الفرح بأن مارى قد فتحت فمها أخيراً . فأجابت مارى وهى تنظر نظرة ماكرة : « هو غبى فعلاً يا سيدتى . أظن أنك أمرتنى اليوم بأضلاع مشوية وبازلاء ، أليس كذلك ؟ اننى لم أسمع كلامك حين كنا فى البيت اذ كنت استعجل المجىء الى هنا » . فأجابتها تاتيانا بافلوفنا : « بل أمرتك بأضلاع وكرومب يا مارى ، واياك أن تحرقيها كما فعلت أمس ! » فقالت مارى : « سأكون شديدة الانتباه يا سيدتى ، ولا سيما اليوم . هاتى يدك » . وقبلت مارى يد مولاتها دليلاً على المصالحة . فكانت الصالة كلها أثناء ذلك تضحك .

ـ يالها من امرأة غريبة الأطوار !

كذلك قالت ماما وهى تهز رأسها ، راضية مع ذلك بالنبأ ، مغتبطةً أيضاً بما قصه آندره بتروفتش . ولكنها كانت تختلس النظر الى ليزا قلقة .

قال ماكار ايفانوفتش وهو يضحك :

ـ هكذا كانت الآنسة منذ طفولتها .

فقال الدكتور :

ـ هذا من أثر الصفراء والفراغ .

ـ اياى تعنون ؟ عنى تجيئون على ذكر الصفراء والفراغ ؟

ان تاتيانا بافلوفنا هي التي دهمت الغرفة ، وكان واضحاً أنها راضية عن نفسها جداً • وأردفت تقول مخاطبة الطبيب :

ـ يا ألكسندر سيمنوفتش ، خير لك ألا تقول هـذه السخافات • لقد عرفتني حين لم تكن قد بلغت العاشرة من عمـرك ، فلا بد أنك تعلم هل آنا في بطالة وفراغ حقـاً • أما عن الصفراء فانك تداويني منذ سـنة كاملة ولا تفلح في شفائي • كان عليك أن تخجل من هذا ! هيًّا هيًّا ، لقد سـخرتم مني سخراً كافياً • شكراً يا آندره بتروفتش لأنك رضيت أن تجيء الى المحكمة شاهداً • أما أنت أيها العزيز ماكار ، فمن أجلك انما جئت • لقد جئت لأعودك أنت لا لأعود هذا (أشارت اليَّ ، ولكنها لم تلبث أن ربتت على كتفي بمودة • انني لم أرها مشرقة المزاج الى هذا الحد في يوم من الأيام) •

وختمت كلامها تقول وهي تلتفت فجأة الى الطبيب وتقطب حاجبيها مهمومة :

ـ فماذا يا دكتور ؟

ـ لا يريد أن يبقى راقداً ، وهو بالجلوس يرهق نفسه •

فجمجم ماكار ايفانوفتش يقول بهيئة متضرعة كطفل :

ـ ولكنها لحظة نقضيها مع الاصدقاء ••

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول :

ـ نعم نحن نحب هـذا ، نحب أن نثرثر مع النـاس ؟ نحب أن يتحلق حولنا جمهور • انني أعرف صاحبنا ماكار •

وابتسم الشيخ مرة أخرى وقال ملتفتاً الى الطبيب :

ـ وما أشد اصراره • انتظر قليلاً ، دعني أتكلم : لسوف أرقد على

السرير ، ولكن المثل عندنا يقول : « من يرقد فقد لا ينهض » • ذلك بعينه هو ما يتربص بي يا صديقي •

ـ هوه ! هي الأوهام الشعبية ما تنفك تعشش في عقولنا « اذا رقدت فقد لا أنهض » ، ذلك ما تخشاه عامة الشعب في أكثر الأحيان ، فيؤثر الرجل أن يقضي فترة مرضه واقفاً على أن يذهب الى المستشفى • أما أنت يا ماكار ايفانوفتش فان ما يستولي على نفسك الآن هو الضجر ، هو التحسر على الحرية ، هو الشوق الى السفر والتجول والتجواب • مرضك كله هو أنك فقدت عادة المكث في مكان • نعم ، ان التشرد ضرب من هوى جارف يستبد بشعبنا • لاحظت هذا مراراً • ان شعبنا هو أكثر شعوب الأرض حباً للتشرد •

قالت تاتيانا بافلوفنا :

ـ في رأيك اذن أن ماكار متشرد ؟

ـ لا ، ليس متشرداً بهذا المعنى • لقد استعملت الكلمة بمعناها العام • ان ماكار متشرد عن تدين وتقى ، ولكنه متشرد على كل حال • صحيح أنه متشرد بمعنى حسن ، بمعنى نبيل ، ولكنه متشرد •• من وجهة النظر الطبية •••

التفت فجأة نحو الدكتور ، وقلت :

ـ أؤكد لك أننا أنا وأنت وسائر الحضور هنا ، أولى بأن نُعدّ متشردين من هذا الشيخ الذي يحق له أن يلقننا كثيراً من الدروس لأن له في حياته مبدأ ثابتا ، أما حياتنا نحن جميعاً فنتشرد على غير هدى في كل اتجاه •• ولكنك في الواقع لا تستطيع أن تفهم !

لا شك أنني تكلمت بخشونة ، ولكن من أجل هذا انما جئت

والحق أنني لا أدرى لماذا بقيت ، ولكنني كنت خارجاً عن طورى حتى لكأنني جننت •

فنظرت الىّ تاتيانا وقد بدا فى هيئتها الاشتباه ، وقالت تسألني :

ـ ماذا أصابك ؟

ثم قالت تسأل ماكار ايفانوفتش مشيرة بيدها الىّ :

ـ كيف تجده ؟

فأجاب ماكار ايفانوفتش :

ـ باركه الله • ان له فكراً متقداً •

ولكن الحضور ما أن سمعوه يصفني بأن لى فكرا « متقداً » حتى طفقوا يضحكون • فكظمت غيظى • وكان الدكتور أشدهم ضحكاً • من المؤسف أنني كنت أجهل فى ذلك الحين ما كانوا قد تواطئوا عليه • ان فرسيلوف والطبيب وتاتيانا بافلوفنا قد تعاهدوا ، قبل ثلاثة أيام ، على أن يصرفوا أمي عن توجساتها السيئة وأن يبعدوها عن مخاوفها على ماكار ايفانوفتش الذى كان مرضه أخطر كثيراً وأشد استعصاءً على المداواة مما كنت أظن حينذاك • ذلك هو السبب فى أن الجميع كانوا يمزحون وكانوا يحاولون أن يضحكوا • غير أن الطبيب كان أحمق ، وكان بطبيعته لا يعرف كيف يمزح • هذا هو السبب فى كل ما أعقب ذلك • فلو كنت على علم بما اتفقوا عليه لتصرفت تصرفاً آخر • وكانت ليزا لا تعلم أيضاً •

ظللت أصغى بجزء من سمعى ، فكانوا يتكلمون ويضحكون ؛ أما أنا فكان رأسي مشغولاً بشيء آخر : داريا أونيسيموفنا وما ذكرته لى من أنباء ؛ وكنت لا أستطيع أن أتحرر مما كان يدور فى رأسي • انها تتراءى لها هناك، جالسةً تنظر الىّ ، ثم قائمة بحذر لتلقى نظرة على الغرفة الأخرى •

وانفجروا يضحكون ضحكاً عالياً على حين فجأة . كانت تاتيانا بافلوفنا قد وصفت الطبيب بأنه ملحـد قائلة له : « هـذا معروف ، ما أنتـم جميعاً يا أطباء النحس الا ملاحدة » .

فهتف الدكتور يقول متظاهراً تظاهراً غبياً بأنه أهين ، مطالباً بأن يُنصف :

ـ ماكار ايفانوفتش ! هل أنا ملحد ؟ نعم أم لا ؟

ـ أنت ملحد ؟ لا ، لست ملحداً !

بذلك أجابه الشيخ وهو يحدق اليه بنظرة ثابتة ، وأضاف يقول هازاً رأسه بوقار :

ـ لا ، الحمد لله . أنت انسان مرح .

فسأله الدكتور بسخرية :

ـ واذا كان الانسان مرحاً فلا يمكن أن يكون ملحداً ؟

قال فرسيلوف بدون أن يضحك :

ـ هذا رأى !

فهتفت أقول على غير ارادة منى وقد فتنت بهذه الفكرة :

ـ رأى قوى !

وكان الطبيب ينظر فيما حوله مستفهماً .

فبدأ ماكار ايفانوفتش يتكلم فقال وقد خفض عينيه قليلاً :

ـ هؤلاء المثقفون ، هؤلاء الأساتذة (أغلب الظن أنهم كانوا قد قالوا شيئاً عن الأساتذة من قبل) كنت فى البداية أخشاهم كثيراً : كنت اذا لقيتهم أتهيبهم ، لأننى لا أخاف أحداً كما أخاف الملاحدة . كنت أقول

لنفسي : « انني لا أملك الا نفساً واحدة ، فاذا ضيعتها فلن أجد عنها عوضاً » ، ولكنني استرددت شجاعتي بعد ذلك فقلت لنفسي : هيّا ، ما هم آلهة على كل حال ، هم بشر مثلنا ، لهم ما لنا من أهواء ! » ثم استبد بي حب الاطلاع قوياً شديداً ، فقلت لنفسي : « أريد أن أعرف أخيراً ما الالحاد . » . ولكن حب الاطلاع هذا قد انقضى هو أيضاً يا صديقي .

صمت ماكار ايفانوفتش لحظة ، ولكنه ظل عاقداً عزمه على الكلام ، مبتسماً تلك الابتسامة الوقور الرصينة نفسها . ان هناك سذجا يركنون الى جميع الناس والى كل انسان دون أن تخطر السخريه لهم ببال . وهؤلاء يكونون ‹سذّجاً› ، فهم مستعدون لأن يخرجوا من قلوبهم أثمن ما تخفي . ولكن يبدو لي أن ماكار ايفانوفتش كان يتصف بشيء آخر غير السذاجة وأن براءة البساطة لم تكن هي الشيء الوحيد الذي يدفعه الى الكلام . انه يملك شيئاً من صفات الدعاة . ولقد سرّني أن ألاحظ فيه استهزاءً لا يخلوا حتى من بعض المكر ، تناول به الدكتور ، وربما فرسيلوف أيضاً . وكان واضحاً أن هذا الحديث تتمة لأحاديث سابقة جرت بينه وبينهم هذا الأسبوع . ولكن شاء سوء الحظ أن تفلت تلك الكلمة المشئومة التي كهربتني بالأمس ، فأهاجتني اليوم هيجاناً مازلت آسف له .

تابع الشيخ كلامه متجمع الفكر فقال :

ـ « الملحد ـ الانسان » ، ربما كنت أخشاه الى الآن . ولكن هذا الملحد ـ الانسان ، يا ألكسندر سيمنوفتش ، لم يتفق لي أن لقيته مرة واحدة في يوم من الأيام ، وانما أنا لقيت « الملحد ـ المشوش » . نعم هكذا يجب ان يسمى . أناس من كل نوع ، لا يستطيع المرء حتى أن يرى رؤية واضحة من هم . بينهم كبار وصغار ، وبينهم حمقى وعلماء ،

وبينهم حتى افراد من عامة الشعب . وهم جميعا مشوشون . انهم يقضون حياتهم كلها في القراءة والاستدلال والتفكير ، وقد امتلأت نفوسهم افتتانا بالكتب ، ولكنهم يظلون دائماً في الشك ، ولا يستطيعون أن يعزموا أمرهم على شيء . منهم من تبعثروا تبعثراً تاماً فأصبحوا لا يلاحظون أنفسهم ، ومنهم من جمدوا فكانوا كالصخر على امتلاء قلوبهم بالأحلام . ومنهم خفاف يحسون ولا يكترثون ولا يهمهم الا أن يطلقوا السخريات تلو السخريات . ومنهم لا يقطفون من الكتب الا الزهرة ، ولكنهم يقطفون الزهرة التي يريدون ، ثم يظلون مشوشين لا يستقرون على حال . اسمع ما سأقوله لك : ان في هذا كله ضجراً كثيراً . الانسان البسيط يعيش في عوز ، فهو في حاجة الى خبز ، ولا يملك ما يقدمه للصغار ، وينام على قش خشن ، ولكن قلبه فرح خفيف دائماً . قد يرتكب خطايا ويقول كلاماً غليظاً ، ولكن قلبه يبقى مرحاً خفيفاً . أما الانسان الذي له شأن خطير فهو يتملأ شراباً وطعاماً ، وينام على أكداس ذهبه ، ولكن قلبه يبقى مترعاً بالضجر . ان بين هؤلاء من طافوا بجميع العلوم ، ولكن الضجر بقي في قلوبهم . أعتقد أن الانسان كلما كان أكثر فكراً كان أكثر ضجراً . انظر في هذه النقطة : لقد وجد التعليم منذ وجد العالم . فهل جاء التعليم بما يجعل مسكناً جميلاً عامراً بالأفراح ؟ بل انني لأقول لك : انهم ليس فيهم جمال ، ولا يريدون الجمال . هم جميعاً أموات ، ولكن كلاً منهم يتباهى بموته ، ولا يخطر بباله أن يتجه الى الحقيقة « الوحيدة » . أن يعيش المرء بغير اله فذلك عذاب . وربما لعن البشر ما قد ينير لهم الطريق، حتى دون أن يفطنوا الى ما يفعلون . أين العقل والحكمة في هذا ؟ ان الانسان لا يستطيع أن يعيش بغير سجود . بغير سجود لا يمكن أن يحتمل الانسان نفسه . ما من أحد قادر على هذا . فاذا جحد الله سجد لمعبود من خشب أو من ذهب ، أو سجد لمعبود صنعه له الخيال . انهم جميعاً وثنيون لا ملحدون . هكذا يجب أن نسميهم . ولكن كيف لا يكون

هناك ملحدون ! ان بعض الناس ملحدون حقاً ، وهؤلاء ابعث على الخوف والرهبة من الآخرين ، لأن اسم الله ماثل فى أفواههم دائماً . سمعت عن هؤلاء مراراً ، ولكننى لم ألق أحداً منهم يوماً . هم موجودون يا صديقى ، وأظن أنهم لابد أن يوجدوا .

انبرى فرسيلوف يقول مؤيداً :

ـ موجودون يا ماكار ايفانوفتش و « لابد أن يوجدوا » !

ـ موجودون حتماً و « لابد أن يوجدوا » !

أفلتت منى هذه الجملة بغير ارادتى حـارةً ملتهبةً لا أدرى لماذا . ولكن لهجة فرسيلوف كانت قد أهاجتنى ، كما أن فكرةً فتنتنى فى قوله : « لابد أن يوجدوا » . ماكنت أتوقع هذا الحديث أبداً . وحدث فى تلك اللحظة شىء لم يكن بالمتوقع البتة أيضاً .

٤

كان النهار مضيئاً جداً . وقد جرت العادة فى غرفة ماكار ايفانوفتش أن تسدل الستارة طول النهار بأمر من الطبيب . غير أن ما كان مسدلاً على النافذة لم يكن ستارة بل حجاباً ، فلم يكن أعلى النافذة مغطى . ذلك أن الشيخ تضايق حين كان لا يرى الشمس أبداً بسبب الستارة القديمة . وقد بقينا معه الى أن سقط شعاع من الشمس على وجهه رأساً . واذ كان منهمكاً فى الحديث فانه لم ينتبه الى ذلك فى أول الأمر ، ولكنه أشاح وجهه مراراً بغير شعور وهو مستمر فى الكلام ، لأن الشعاع الساطع كان يضايقه ويهيج عينيه المريضتين . وكانت أمى واقفةً أمامه ، فنظرت الى النافذة عدة مرات فى قلق . وكان ينبغى أن تغطى النافذة تماماً ، ولكن أمى ، من حرصها على ألا تقطع جمل الحديث ، بدا لها أن تزحزح المقعد الذى كان يجلس عليه ماكار ايفانوفتش، أن تزحزحه نحو اليمين بدفعه خمسة عشر سنتميترا أو عشرين فى أكثر تقدير . وقد مالت عدة مرات لتفعل ذلك فلم تفلح ، اذ أبى المقعد أن يتزحزح . وأحس ماكار ايفانوفتش بجهودها ، ولكن على غير شعور البتة ، وذلك من شدة انجرافه فى الحديث ، وحاول أن ينهض عدة مرات ، ولكن ساقيه لم تسعفاه . وظلت ماما مع ذلك تواصل بذل جهودها وتشد المقعد . فاذا بهذا كله يثير حنق ليزا فى نهاية الأمر . اننى أتذكر بعض نظراتها الملتهبة الساخطة . ولكننى فى اللحظة الأولى لم أستطع أن أعزو هذه النظرات الى سبب ، هذا عدا أننى كنت مشغولاً بالحديث عن كل ما عداه .

وفجأةً دوّى هذا النداء العنيف الذى يشبه الصراخ ، متجهاً الى ماكار ايفانوفتش :

ـ ولكن هلاّ نهضت قليلاً ! ألا ترى كم تبذل ماما من جهد ؟

فنظر الشيخ الى ليزا بسرعة ، وفهم على الفور ، وحاول فى الحال أن يطيعها ، ولكنه لم يفلح ، فانه ما ان ارتفع عن المقعد عشرة سنتمترات حتى تهاوى عليه ثانية . فقال يجيب ليزا بصوت شاك وهو ينظر اليها بمذلة :

ـ لا أقدر يا ابنتى !

ـ تقدر أن تتدفق فى كلام يملأ كتاباً بكامله ، أما أن تتحرك قليلاً فلا تقدر ، هه ؟

فصرخت تاتيانا بافلوفنا تنهر ليزا :

ـ ليزا !

وعاد ماكار ايفانوفتش يبذل جهداً خارقاً من أجل أن ينهض . فصاحت ليزا تقول له من جديد :

ـ تناول عكازتك فاستعن بها . هى ذى على الأرض !

فقال الشيخ ، وهو يسرع الى تناول عكازته :

ـ حقاً .

فانبرى فرسيلوف يقول وهو ينهض :

ـ بل ننهضه وكفى !

وتحرك الطبيب ، واندفعت تاتيانا بافلوفنا ، ولكنهما لم يصلا الى ماكار ايفانوفتش الا وقد توكأ على عصاه ، ونهض فجأة ، ووقف على ساقيه

ناظراً حوله ، فرحاً بانتصاره ، ضاحكاً فى مرحه ، قائلاً بما يشبه الظفر :

ـ استطعت مع ذلك . شكراً يا ابنتى ، لقد رددتنى الى الصواب وكنت أظن أن ساقىّ أصبحتا عاجزتين لا تصلحان لشىء !

ولكنه لم يلبث واقفاً مدة طويلة . فانه ماكاد ينهى جملته حتى انزلقت العكازة التى كان يستند اليها بكل وزنه ، انزلقت على السجادة فجأةً ، فاذا هو يسقط على الأرض بجسمه كله . كان المنظر رهيباً . اننى أتذكر ذلك . صاح الجميع بصوت واحد : « أوه ! » ، وأسرعوا يرفعونه عن الأرض . ولكن شاء حسن الحظ ألا يحدث له أى كسر . صحيح أن ركبتيه قد صدمتا الأرض صدماً قوياً فأحدث سقوطه ضجة شديدة ، ولكنه كان قد استطاع أن يقدم يده اليمنى وأن يستند اليها . وأنهضوه وأرقدوه على السرير . كان وجهه شاحباً ، لا من الخوف ، بل من الهزة (كان الطبيب قد اكتشف لديه مرضاً فى القلب عدا الأمراض الأخرى) واضطربت أمى أشد الاضطراب هلعاً . واذا بماكار ايفانوفتش الذى لا يزال شاحب اللون ولا يزال جسمه يهتز اهتزازاً قوياً ، ولم يكد يثوب الى نفسه ، اذا هو يلتفت الى ليزا ويقول لها بصوت رقيق يكاد يكون حنوناً زاخراً بالعاطفة :

ـ لا يا ابنتى . أصبحت ساقاى لا تحملانى ، كما ترين .

لا أستطيع أن أصف الشعور الذى أحسسته . ان أقوال الشيخ المسكين لم يكن فى نبرتها أى شكوى أو ملامة . بالعكس : كان واضحاً أنه منذ البداية لم ير فى كلمات ليزا أى سوء ، وأنه عدّ صراخها شيئاً واجباً ، أى تقريعاً يستحقه خطؤه . وقد أثر هذا فى ليزا تأثيراً رهيباً أيضاً . لقد وثبت لحظة سقوطه كما وثب الجميع ، ووقفت فى مكانها

كالميتة ، متألمةً طبعاً لأنها كانت سبب كل ما حدث . لكنها حين سمعت هذه الكلمات احمرت احمراراً شديداً من الخجل والندم .

قالت تاتيانا بافلوفنا آمرة :

ـ كفى ! سبب هذا كله هو هذه الأحاديث . فليرجع كل واحد الى حيث كان . ولكن ما العمل اذا كان الطبيب نفسه هو الذى يبدأ الثرثرة ؟

فقال ألكسندر سيمنوفتش وهو يسعى حول المريض منهمكاً :

ـ حقاً يا تاتيانا بافلوفنا . معذرة . انه فى حاجة الى راحه .

ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت قد انقطعت عن الاصغاء : انها منذ نصف دقيقة تنعم النظر الى ليزا صامتة . ثم قالت فجأة :

ـ تعالى يا ليزا وقبّلينى ، قبّلى العجوز الحمقاء ، اذا أردت طبعاً !

وقبّلتها ، لا أدرى لماذا ، وكان هذا ما يجب فعله حقاً ، حتى اننى أوشكت أنا نفسى أن اندفع الى تاتيانا بافلوفنا فأقبّلها . كان يجب فعلاً ألا تُسحق ليزا باللوم ، وانما يجب أن تُستقبل العاطفة الطيبة الجديدة التى ستنشأ فى نفسها بالمرح والتهنئات .

ولكننى لم أسلك هذا السلوك فى الواقع . لقد نهضت فجأة ، وقلت وأنا أقطع كلماتى بغية أن تكون بارزة واضحة :

ـ ماكار ايفانوفتش ، انك قد استعملت مرةً أخرى هذه الكلمة : « الجمال » ، وكانت هذه الكلمة تعذبنى بالأمس ، وتعذبنى طوال هذه الأيام الأخيرة . بل انها عذبتنى فى جميع أيام حياتى ، ولكننى لم أكن أعرف فى الماضى ماذا كان عذابى . فأنا أعد هذه المصادفة قدراً بل أكاد أعدها معجزة ... اننى أعلن هذا بحضورك .

ولكنهم أوقفونى عن الكلام • أكرر أننى كنت أجهل ما تواطئوا عليه بصدد ماما وماكار ايفانوفتش • وقياسا على ما عرفوا من أفعالى الماضية ، حكموا بأننى لا أتورع عن أية فضيحة •

غضبت تاتيانا بافلوفنا غضبا شديدا ، وزأرت تقول :

ـ أسكتوه !

وأخذت ماما ترتجف • وذعر ماكار ايفانوفتش هو أيضاً حين رآهم جميعاً مذعورين • وصرخ فرسيلوف يقول بقسوة :

ـ اسكت يا آركادى •

ولكننى لم أسكت بل أردفت أقول بصوت أعلى :

ـ يشدهنى ويقززنى يا سادتى أن أراكم جميعاً بقرب هذا الطفل (أشرت بيدى الى ماكار) • ليس هنا الا قديسة واحدة هى ماما ، ولكنها هى أيضاً •••

قال الدكتور ملحاً :

ـ انك تروّعها !

فتمتمت أقول :

ـ أعلم أننى عدو الجميع ••

أو قلت كلاماً من هـذا المذاق • ثم التفت الى فرسـيلوف ألقى عليه نظرة تحدٍ واستفزاز • فصرخ فرسيلوف قائلاً :

ـ آركادى ••• سبق أن حدث بيننا هنا مشهد من هذا النوع • فسيطر على نفسك الآن • أرجوك !

لا أستطيع أن أصف العاطفة القوية التى ظهرت على فرسيلوف وهو

ينطق بهذه الجملة • لقد عبرّ وجهـه عندئذ عن حزن خارق ، صـادق ، كامل • ومما يدعو الى الدهشـة أكثر من ذلك أن هيئته كانت هيئة انسان نادم : فالآن أنا القاضى وهو الجانى • فكان من شأن ذلك كله أن أخرجنى عن طورى • فهتفت أجيبه قائلاً :

ـ نعم ، حدث هذا يوم كنت قد دفنت فرسـيلوف ، يوم كنت قد انتزعته من قلبى ••• ولكن جاء يوم الحشر بعد ذلك وُبعث الموتى ••• أما الآن فقد انتهى كل شيء • ولسوف ترون جميعاً ، جميعاً ، ما أنا قادر عليه ! انكم لا تتوقعون ما أستطيع أن أفعله •

قلت ذلك ، واندفعت الى غرفتى • فهرع فرسيلوف ورائى •

٥

انتكست بعد ابلال : انتابتني حمى شديدة ، وفي المساء كنت أهذي . ولكن لم يكن كل شيء هذياناً ، فقد رأيت أحلاماً كثيرة غريبة ، حفظت واحداً منها الى آخر حياتي ، أو قل حفظت شذرات واحد منها أرويه الآن بدون تفسير . لقد كان في ذلك الحلم تنبؤ ، فلا أستطيع أن أغفله .

رأيتني في غرفة واسعة عالية وقد امتلأ قلبي فجأة بنية عظيمة نبيلة . أين ؟ لا أدري . ولكن لم أكن عند تاتيانا بافلوفنا . وأقول سلفاً : انني أتذكر تلك الغرفة تذكراً وضحاً كل الوضوح . ورغم انني كنت وحيداً ، فقد كنت أحس ـ متألماً قلقاً ـ انني لست وحيداً وأنني أُنتظر ، وأن شيئاً يُتوقع مني ، ففي مكان وراء الباب أشخاص ينتظرون ما سأفعله . احساس لا يطاق : « آه .. ليتني كنت وحيداً » . وها « هي » ذي تدخل فجأة . انها تنظر اليّ خجلةً ، خائفةً خوفاً شديداً ، باحثةً عن عينيّ . و « الوثيقة بين يديّ » . وابتسمت لتغريني ، والتصقت بي . فأشفقت عليها . ولكنني أخذت أشعر باشمئزاز . وفجأة غطت وجهي بيديها ، فرميت الوثيقة على المائدة باشمئزاز لا يوصف : « لا تسأليني شيئاً . خذي . لا أطالبك بشيء ! بالاحتقار انتقم لنفسي من كل الاهانات التي تحملت » .

وخرجت من الغرفة شاعرا بكبرياء قويه واعتزاز شديد . ولكن لامبير يوقفني على العتبة في الظلام ، ويهمس قائلاً لي وهو يمسك

ذراعي بقوة : « أحمق ، أبله ! سوف تنشىء في فاسيلي اوستروف مدرسة داخلية لبنات النبلاء (يعنى لتستطيع أن تجنى رزقهـا اذا علم أبوها بأمـر الوثيقة فحـرمها من الميراث وطردها من بيتـه • اننى اسجل تعابير لامبير بنصها كما سمعتها فى الحلم) •

ـ آركادى ماكاروفتش يسعى وراء « الجمال » •

ذلك صوت آنا آندريفنا النحيل سمعته قريباً منى على السلم • ولكن هذه الكلمات لم تكن مدحاً بل كانت سـخرية لاتطاق • وأعود الى الغرفة مع لامبير • فاذا « هى » ، حين تراه ، تأخـــذ تضحك مستهزئة • ان الشعور الأول الذى أحسسته كان ارتياعاً رهيباً ، ارتياعاً بلغ من الهول أننى توقفت ورفضت أن أتقدم • ونظـرت اليها فلم تصـدق عيناى ما رأيت • لكأن قنـاعاً كان على وجهها فانحسر القناع فجأة : لا تزال قسمات وجهها كما هى ، غير أن كل واحدة منها قد شوهتها وقاحة لا حدود لها • وصاح لامبير يقول لها : « الفدية يا سيدتى ، الفدية ! » ، فاذا ضحكهما كليهما يشتد • وكف قلبى عن الخفقان • « هل يُعقل أن تكون هذه المرأة الوقحة هى المرأة نفسها التى كان يكفينى أن تنظر الىّ حتى يشتعل قلبى فضيلة ؟ » •

ويهتف لامبير قائلا :

ـ هذا ما يفعله هؤلاء المتعجـرفون من أبنـــاء المجتمع الراقى فى سبيل المال !

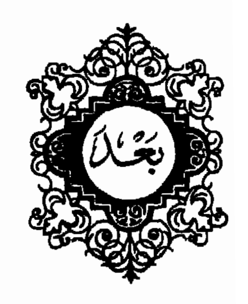
ولكن الوقحة لم تضطرب • وهى انما تضحك لأننى مروّع • آه ! انها مسـتعدة للفدية ، و •• و •• ماذا يحـدث فى نفسى ! أصـبحت لا أشعر بشفقة ، بل باشمئزاز • وأرتعش كما لم أرتعش فى حياتى من قبل ••• واستولت علىّ عاطفة أخـرى لا سبيل الى وصـفها ، عاطفة لم أعرفها فى يوم من الأيام ، عاطفة قوية قوة الكون • أصبحت لا أقوى على

الانصراف • لن أنصرف بحال من الأحوال • آه •• لشدما يسعدنى أن يبلغ الأمر هذه الدرجة من الخلاعة ! وهانذا امسك يديها • ان ملامسة يديها تهز نفسى هزا اليما • وهأنذا أقرب شفتى من شفتيها الوقحتين ، القرمزيتين ، اللتين ترتجفان ضحكاً وتناديانى •

بعداً لهذه الذكرى المخزيه ! سحقاً لهذا الحلم اللعين ! أحلف لكم أننى قبل هذا الحلم الدنىء لم يراود خيالى أى شىء يشبه هذه الفكرة المخجلة ! لا ، لم يراود خيالى شىء من ذلك حتى فى أحلام من هذا النوع بغير ارادة (وان كنت قد احتفظت « بالوثيقة » مخيطة فى جيبى ، وكنت أتحسسها من حين الى حين مبتسماً ابتسامة غريبة) • فمن أين جاءنى هذا فجأة ؟ جاءنى من أن لى نفس عنكبوت ! أعنى أن هذا كله كان قائماً فى نفسى منذ مدة طويلة على حال بذرة ، وكان ثاوياً فى قلبى الفاسق ، فكنت « أشتهى » ، ولكن قلبى كان الخجل لا يزال يصده ، وكان فكرى لا يجسر ، بعدُ ، أن يتصور شيئاً من هذا القبيل تصوراً واعياً • أما فى الحلم فان النفس قد عرضت كل ما كان قائماً فى قلبى ، فجاءت هذه اللوحة الكاملة الواضحة الدقيقة ، وكانت نبوءة • هل « هذا » ما كنت أريد أن أبرهن لهم عليه حين ولّيت فى الصباح من عند ماكار ايفانوفتش ؟ ولكن كفى ! لا كلمة عن هذا الأمر قبل أن يحين الحين ! ان هذا الحلم الذى رأيته هو من أغرب مغامرات حياتى •

الفصل الثالث

١



ثلاثة أيام نهضت فى الصباح فشعرت فجأة ، حين وقفت على قدمىّ ، أننى لن ألزم السرير بعد اليوم . لقد أحسست فى كيانى كله باقتراب الشفاء . لعل هذه التفاصيل كلها لا تستحق أن تسجل . لقد تتالت أيام لم يحدث فيها شىء ذو بال ، ولكنها بقيت فى ذاكرتى بتمامها شيئاً هادئاً فرحاً : هذا أمر نادر فى ذكرياتى . لا أريد الآن أن أصف حالتى النفسية . فلو عرف القارىء ماذا كانت لما صدّق . فالأفضل أن يبرز هذا من الوقائع فيما بعد . ولكننى بانتظار ذلك أقول : ليتذكر القارىء ما هى « نفس عنكبوت » ، ما هى نفس عنكبوت لدى انسان يريد أن يتركهم ، « هم » والعالم كله سعياً وراء « الجمال » ! صحيح أن ظمئى الى الجمال كان فى ذروته ، ولكن كيف تحالف هذا الظمأ الى الجمال مع أنواع أخرى من الظمأ يالها من أنواع ! ذلك ما يبقى لغزاً أعجز عن حله . ولقد كان لغزاً على الدوام ، وطالما أدهشنى أن يستطيع الانسان (الانسان الروسى خاصةً) أن يهدهد فى قلبه أسمى شىء وأدنأ شىء فى آن واحد ، صادقاً مع ذلك صدقاً كاملاً . هل مرد هذا الى « رحابة الفكر » التى تُعزى الى الروسى أم مرده الى حطة لا أكثر ؟ ذلك هو السؤال .

ولكن دعونا من هذا . المهم أنه كان ثمة هدنة . لقد أدركت أن على أن أسترد عافيتى بأى ثمن ، وبأقصى سرعة ممكنة ، لأبدأ العمل فى أقرب

وقت ، كذلك قررت أن أعيش ملتزما قواعد الصحة ، وأن أطيع الطبيب (كيف كان) ، وأن أرجىء نيـات القتال والعدوان بكل حكمة (وهذه ثمرة رحابة الفكر) الى أن أخـرج ، اى الى ان اشفى • كيف امكن أن تجمع مشاعر المسالمة ومباهج الهدنة تلك كلها مع خفقات قلبى العارمة الجامحة الاليمة ألماً لذيذاً ، ومع توجس القرارات العاصفة الهوجاء التى أزمع أن أتخذها ؟ لا أدرى • ولكننى أعزو ذلك الى « رحابة الفكر » • أصبحت لا أشـعر بالقلق الذى كنت أحسـه من قبـل • لقد أرجـأت كل شىء الى وقته المعيّن ، دون أن أرتجف من تصور المستقبل كما كنت أرتجف من قبل أيضـاً ، وانما أنا الآن أمام المستقبل رجـل غنى واثق بما يملك من موارد وقوى • وكانت مشاعر الغطرسة والتحدى تجاه المصير ما تنفك تزداد ، ولعل ذلك يرجع قليـلاً الى شـفائى الذى أصبح الآن واقعاً ملموسـاً ، والى اننى اسـتردت طاقاتى الحيوية • ومازلت الى الآن أتذكر ، بكثير من الاتيـارح والسرور ، تلك الأيام التى كنت قد شفيت فيها شفاء حاسماً بالفعل •

وكانوا قد غفروا لى كل شىء ، غفروا لى اندفاعتى العنيفة وأقوالى القاسية هم الذين وصفتهم أمامهم أبشع وصف ! هذا ما أحبه فى الناس ، هذا ما أسميه ذكاء القلب • أو قل اننى افتتنت بهذا الموقف على الفور ، بعض الافتتان طبعاً • فمع فرسيلوف مثـلاً ظللت أتحدث كمـا يتحـدث صديقان قديمان ، ولكن الى حـد لا نتجاوزه : فمتى أسرفنا فى اظهار عواطفنا (وكان هذا يحدث) ، أمسكنا عن الكلام كلانا فوراً ، وشعرنا بشىء من الخجل • ثمة حالات لا يستطيع فيها الغالب أن يمتنع عن الخجل من المغلوب ، لا لشىء الا لأنه غلبه • ولقد كنت أنا الغالب طبعاً ، فكنت أحمر من ذلك خجلاً •

وفى ذلك الصباح ، أعنى يوم نهضت عن سريرى بعد الانتكاس ،

جاء فرسيلوف الىّ • وعندئذ انما علمت منه أول مرة ما كانوا قد تواطئوا عليه في شأن ماما و ماكار ايفانوفتش • وقد أضاف فرسيلوف أن الشيخ تحسنت صحته ولكن الطبيب لا يضمن شفاءه • فوعدته من كل قلبي بأن أكون في المستقبل أكثر حذراً وترويا • وحين كان فرسيلوف يروى لى هذا كله ، لاحظت فجأةً ، أول مرة ، أنه كان هو نفسه قلقاً على الشيخ ، وأن قلقه صادق لا اصطناع فيه ، أي كان قلقه يفوق كثيراً ما كان يمكن أن أتوقعه من رجل مثله ، ولاحظت أنه يعده رجلاً عزيزاً ، عزيزاً عليه هو ، بغض النظر عن أمي • وقد تساقني هذا الأمر ، بل أدهشني تقريباً • فأنا أعترف بانني لولا فرسيلوف لفاتتني أشياء كثيرة ما كنت لأقدرها حق قدرها عند ذلك الشيخ الذي خلّف في قلبي ذكرى من أقوى الذكريات وأبقاها وأكثرها أصالةً •

وكان يبدو على فرسيلوف أنه قلق من علاقاتي بماكار ايفانوفتش ، أو قل انه كان لا يركن الى ذكائي ولا الى كياستي ، فلذلك ارتاح كل الارتياح فيما بعد حين أدرك أنني أيضاً قادر في بعض الأحيان على أن أفهم كيف يجب التصرف مع انسان له آراء وتصورات مختلفة عن آرائنا وتصوراتنا كل الاختلاف ، أي انني أستطيع عند اللزوم أن أكون انساناً مسالماً مصالحاً منفتح النفس واسع النظرة • وأعترف أيضاً (دون أن أخفض قدر نفسي فيما أظن) بأنني وجدت في هذا الانسان الآتي من صفوف الشعب شيئاً جديداً علىّ كل الجدة من ناحية العواطف والأفكار ، شيئاً أجهله ، شيئاً هو أوضح كثيراً وأدعى الى العزاء والسلوى كثيراً من أسلوبي في فهم الأشياء من قبل • ولكن كان يستحيل علىّ مع ذلك ألا أغضب في بعض الأحيان حين كنت أراه يتشبث بأوهام قاطعة يؤمن بها ايماناً هادئاً ويطمئن اليها اطمئناناً ثابتاً لا يتزعزع • على أن ذلك انما يرجع طبعاً الى نقص ثقافته • أما نفسه فقد كانت في الواقع تنعم باتساق ونظام ما رأيت أحداً يفوقه فيهما •

٢

ان ما كان يجذبني اليه قبـل كل شيء آخر ، كما سبق أن ذكرت ذلك، هو بساطته القصوى وخلوه من الأنانية خلواً تاماً ، حتى ليحس المرء أن له قلباً بلا خطيئة تقريباً • كان قلبه عامراً« بالفرح » ، وعامراً اذن « بالجمال » • وكان يحب كلمة « الفرح » هذه حباً كثيراً ، وكان يستعملها في كلامه كثيراً • صحيح أنه كان ينتـابه في بعض الأحيان نوع من هياج مرضي ، نوع من حنان مرضي لعله يرجع الى أن الحمى لم تبارحه طوال هذه المدة • ولكن ذلك كان لا يمنع الجمـال الروحي من أن يتألق فيه • وكان يتصف عدا ذلك بصفات متناقضة : فالى جانب السذاجة الشديدة التي كانت تجعله عاجزاً عن ملاحظة السخرية عجزاً تاماً (وكان هذا يحزنني)، كان يتصف بنوع من مكر مرهف يستعمله خاصةً في المناوشات الجدلية • كان يحب الجدال ، ولكنه يحبه بين الفينة والفينة ، ويحبـه على طريقتـه الخاصة • ان المرء يلاحظ أنه جاب في أرجاء روسيا كثيراً ، وسمع كثيراً • ولكنني أعود فأقول انه يحب الحنان أكثر من أي شيء آخر ، ويحب اذن كل ما يؤدي الى الحنان ، ويحب أن يقص أموراً تثير الحنان • وكان يحب كثيراً أن يقص • لقد سمعت من فمه عدداً كبيراً من القصص عن أسفاره ، وأنواعاً من الأساطير عن الحياة الخفية التي عاشها قدامى النساك • وهذه أمور ليست معروفة عندي أو مألوفة لي ، ولكنني أظن أنه كان يمزج بهذه الأساطير أشـياء مختلفة كثيرة جاءه معظمها مما يتناقله شـعبنا بالرواية • كان في قصصه أشياء لا يقبلها العقل حقاً • ولكن الى جانب هذه التحريفات

الواضحة او التلفيقات البينة كان يشيع في قصصه الزاخرة بالعاطفة الشعبيه والمثيرة للحنان دائما ، شيء مضيء قوي راسخ . لقد حفظت من قصصه ، مثلاً ، تلك الحكاية الطويلة التي تسمى « حياة ماريا المصرية » . لم أكن أعرف حتى ذلك الحين شيئا عن حياة ماريا المصرية هذه ، ولا عن حياة أحد غيرها تقريباً . ولكنني أستطيع أن أقول بصراحة : انه يستحيل على المرء أن يسمع قصة حياة ماريا المصرية دون أن تترقرق الدموع في عينيه ، لا بتأثير ما تثيره في النفس من حنان ، بل بتأثير نوع من حماسة غريبة : ان المرء يحس في هذه القصة بشيء خارق حار كرمل الصحراء المحرقة التي تملؤها الأسود والتي كانت ماريا تجوبها . ولكن ليس هذا ما أريد أن أتكلم عنه ، ولست من أهل الاختصاص في هذا الميدان على كل حال .

ومما أعجبني في ماكار ايفانوفتش ، عدا الحنان ، أنه كانت له آراء أصيلة كل الأصالة في مسائل لا تزال موضع خلاف كبير بين الناس في عصرنا هذا . ففي ذات يوم ، مثلاً ، روى لي قصة حديثة عن جندي انتهت خدمته ، وقد شهد ماكار الحادثة بنفسه تقريباً ، فقال ان هذا الجندي حين عاد الى بلده ، ووجد نفسه بين فلاحين ، لم يعجبوه ولا أعجبهم . فأخذ الرجل المسكين يفقد صوابه شيئاً بعد شيء ، وأخذ يشرب ويسرف في الشراب ، وقام ذات يوم بعمل سلب ونهب . ولم يكن ثمة أدلة قاطعة على ارتكابه هذه الجريمة ، ولكنه اعتقل أثناء ذلك وحوكم . وقد أخذ المحامي يدافع عنه وكاد يثبت براءته لعدم توفر الأدلة ، فاذا بالرجل الذي كان يصغي الى دفاع المحامي ينهض فجأة فيقاطع المحامي قائلاً : « لا ، انتظر قليلاً » ، ثم طفق يروي الوقائع من أولها الى آخرها ، ويعترف بذنبه باكياً نادماً . فانسحب المحلفون وأغلقوا عليهم باب القاعة ، ثم عادوا يخرجون ليعلنوا بأن « المتهم بريء » . فتعالت صيحات

الفرح من كل صوب . ولكن الجندى بقى جامداً فى مكانه كأنه استحال عموداً ، لأنه لم يفهم شيئاً ، لا ولا فهم ما قاله له رئيس المحكمة حين أفرج عنه . وانصرف الجندى أخيراً وهو لا يصدق عينيه ولا يدرك ما يحدث له . واستبد به الضجر ، وغرق في التفكير والتأمل ، فهو لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم من الناس أحداً . وبعد خمسة أيام شنق نفسه . قال ماكار ايفانوفتش خاتماً حديثه : « فانظر كيف تكون الحياة حين تثقل على ضمير المرء خطيئة » . صحيح أن القصة لا قيمة لها ، وأن أعمدة جميع الصحف في أيامنا هذه تمتلىء بحكايات من هذا النوع ، ولكن الشيء الذي أعجبني انما هو اللهجة . ومما أعجبنى أكثر من اللهجة أيضاً ما كان يستعمله ماكار ايفانوفتش من ألفاظ تعبر عن فكرة جديدة حقاً . من ذلك أنه حين روى لى كيف لم يعجب الجندى الفلاحين عند عودته الى القرية قال : « معروف ما الجندى : الجندى فلاح فسد » ؟ وحين تكلم بعد ذلك عن المحامى الذى كاد يربح الدعوى قال أيضاً : « معروف ما المحامى : المحامى ضمير للتأجير » . لقد وقع ماكار ايفانوفتش على هذين التعبيرين عرضاً بدون أى عناء ، وبدون أن ينتبه هو نفسه اليهما . ولكنهما يشتملان على جملة تصوره لهذين الموضوعين ، وهو تصور ان كان لا يمثل رأى الشعب كله فانه يمثل رأى ماكار ايفانوفتش تمثيلاً رائعاً . ان هذه الأحكام الجاهزة التى يصدرها الشعب فى موضوع من الموضوعات تكون فى بعض الأحيان حافلة بأصالة باهرة حقاً .

سألته فى هذه المناسبة :

ـ ماكار ايفانوفتش ، ما رأيك فى خطيئة الانتحار ؟

فأجابنى وهو يتنهد :

ـ الانتحار أكبر خطيئة يرتكبها الانسان . ولكن الرب هو الحاكم الوحيد ، لأنه وحده يعرف كل شيء ، مقاييس وحدوداً . وواجبنا نحن

هو أن ندعو الله لأمثال هؤلاء الخطاة الكبار • فاذا سمعت عن خطيئة كهذه الخطيئة ، فادع لمرتكبها دعاءً حنوناً قبل أن تنام ، وتشفع له عند الرب ولو كنت لا تعرفه ، واذا كنت لا تعرفه فان شفاعتك تكون أجدى أيضاً •

ـ هل ينفعه الدعاء وقد حكم عليه ؟

ـ ما يدريك ؟ ان ناساً كثيرين لا يؤمنون ، فيضلون من لا يعلمون • فلا تستمع لهؤلاء ، فانهم لا يعرفون الى أين هم ماضون • ان صلاة صادرة عن انسان حي من أجل انسان ميت تصل الى الرب فعلاً • ولكن ما عسى يصير اليه من ليس له أحد يصلي من أجله ؟ لذلك يجب عليك ، حين تصلي قبل النوم ، أن تضيف هذا الدعاء : « ارحم يا يسوع أيضاً جميع أولئك الذين ليس لهم أحد يصلي من أجلهم » • ان هذا الدعاء نافع جداً ، مبهج جداً • بل صلِّ كذلك من أجل الخطاة الذين لا يزالون أحياء • قل « ربِّ أنقذ جميع السادرين في ذنوبهم بما تعرف من وسائل »• هذا أيضاً صلاة حسنة •

وعدته بأن أتلو هذه الصلوات ، لأنني أحسست أن هذا الوعد سيسره سروراً عظيماً • وقد سطع الفرح في وجهه فعلاً حين قطعت له على نفسي هذا العهد • ولكن يجب عليَّ أن أسارع فأضيف أن ماكار ايفانوفتش كان في مثل هذه الأحوال لا ينظر اليَّ من عل ، كناسك يخاطب مراهقا غراً • بالعكس : كان يحب في كثير من الأحيان أن يصغي اليَّ ، وأن ينصت الى كلامي بدون كلال في مواضيع شتى ، وكان يرى أنه اذا كان يتفوق عليَّ بالسن فانني أتفوق عليه كثيراً بالثقافة • من ذلك مثلاً أنه كان يحب في أحيان كثيرة أن يتكلم عن النساك ، وكان يضع « عزلة الصحراء » في منزلة أعلى كثيراً من منزلة « جوب الآفاق » ، فكنت أوجه اليه اعتراضات شديدة حارة ، وألح على أنانية هؤلاء الناس الذين يهجرون العالم ، ويتركون ما يستطيعون أن يقدموه للانسانية من خير ، لا لشيء الا خلاص

أنفسهم . فلم يفهمني في أول الأمر ، بل لعله لم يفهمني في لحظة من اللحظات ، ولكنه ظل يدافع عن عزلة الصحراء قائلاً : « ان المرء يشفق على نفسه في أول الأمر طبعاً (أي حين يستقر في الصحراء) ، ثم يغتبط يوماً بعد يوم ، ولا يزال يزداد اغتباطه الى أن يرى الرب آخر الأمر » . فأخذت أصوّر له تصويراً كاملاً ما يقوم به العالم والطبيب وصديق الانسانية عامة من عمل مفيد ، فاستطعت أن أصل به الى حماسة صادقة ، لأنه أخذ هو نفسه يتكلم عن هذا بحرارة ، وكان يؤيدني في بعض اللحظات قائلاً : « نعم يا بني نعم ، باركك الله ، انك على حق ! » . ولكنه ، حين فرغت من كلامي ، لم يوافقني مع ذلك موافقة تامة ، وقال متنهداً تنهداً عميقاً : « هذا كله حسن ، ولكن هل هم كثيرون أولئك الذين يصمدون ويواظبون على الاهتمام بسعادة الآخرين ؟ اذا لم يكن المال الهاً فهو نصف اله . انه اغراء كبير . ثم هناك المرأة أيضاً ، ثم هناك الشك ، ثم هناك الحسد . فاذا بالمرء ينسى القضية الأساسية ، ويمضي يهتم بالأمور الصغيرة . ولا كذلك في عزلة الصحراء . ففي عزلة الصحراء يقوى المرء نفسه للقيام بجميع المبرات والأعمال المقدسة . نعم يا صديقي . أما في العالم فماذا يحدث ؟ » ثم هتف يقول بعاطفة خارقة : « أليس العالم حلماً لا أكثر ؟ خذ رملاً وبذره على حصى ، فاذا نبت الرمل الأصفر فوق الحصى فسوف يتحقق حلمك في العالم . » . هذا ما يقولونه عندنا . أما عند المسيح فيقال : « امض ووزّع ثروتك ، واجعل نفسك خادماً للجميع » ، فتصبح عندئذ أغنى مما كنت ألف مرة . ذلك أن السعادة لا يصنعها الطعام وحده ، ولا الثياب الثمينة ، ولا الزهو والحسد ، وانما يصنعها حب لا نهاية له . ان ما ستكسبه حينذاك ليس ثروة ضئيلة ، ولا مائة ألف ، ولا مليوناً ، وانما أنت ستكسب الكون بأسره ! نحن الآن نجمع المال بدون شبع ، ونتلفه بجنون . أما حينذاك فلن يبقى يتامى ولا فقراء ، لأن الجميع لي أنا ، لأن الجميع أقربائي،

كسبتهم جميعاً ، اشتريتهم الى آخرهم • ليس بالأمر النادر أن نرى اليوم أناساً أغنياء أو أناساً من أصحاب الشأن لا يهتمون بعدد أيامهم ، ولا يعرفون هم أنفسهم ما عساهم يخترعون من تسليمات • أما حينذاك فان أيامك وساعاتك ستتضاعف ألف مرة ، لأنك لن تريد أن تضيّع دقيقة صغيرة واحدة ، وستشعر فى كل دقيقة من حياتك بالفرح فى قلبك • وعندئذ سوف تكتسب الحكمة لا من الكتب وحدها ، لأنك ستكون مع الرب نفسه وجهاً لوجه • وسوف تتألق الأرض عندئذ أكثر مما تتألق الشمس ، ولا يكون حزن ولا يكون تأوه ، ولا يبقى الا جنة واحدة لا تقدر بثمن ••• » •

تلك هى نوبات الحماسة التى كان يحبها فرسيلوف فيما أظن حباً عظيماً • ولقد اتفق أن كان فرسيلوف هذه المرة في الغرفة •

قاطعت ماكار ايفانوفتش فجأة لأقول وقد فارت حماستى أنا أيضاً (اننى أتذكر تلك السهرة) :

ـ ماكار ايفانوفتش ! ان ما تنادى به وتدعو اليه هو الشيوعية ، هو شيوعية حقيقية !

واذ كان لا يعرف أى شىء عن المذهب الشيوعى ، حتى انه يسمع هذه الكلمة الآن أول مرة ، فقد أخذت أعرض له كل ما كنت أعرفه عن المذهب الشيوعى • اعترف أن ما كنت أعرفه ضئيل وغامض ، وأننى حتى الآن لست حجةً فى هذا الموضوع ، غير أن القليل الذى كنت أعرفه قد عرضته بحرارة وحماسة رغم كل شىء • مازال يسرنى أن أتذكر التأثر الخارق الذى أحدثته فى الشيخ ، بل أستطيع أن أقول ان ما أحدثته فيه لم يكن تأثراً بل كاد يكون هزة • وقد اهتم بالتفاصيل التاريخية ، فكان لا ينفك يسألنى : «أين ؟ كيف من فعل هذا ؟ من قال هذا ؟ ••

وكنت قد لاحظت على كل حال ان هذه خاصة من خصائص الشعب : ان الشعب متى اهتم بشيء اهتماماً كبيراً ، لم يكتف بالفكرة العامة بل طالب بالتفاصيل حتماً . ولقد أربكتني التفاصيل وتهت في شعابها ، واذ كان فرسيلوف يستمع الى حديثي ، فقد خجلت منه قليلاً ، ولكنني ازددت من ذلك حماسة واندفاعاً . وأصبح ماكار ايفانوفتش في النهاية ، وقد ذاب حناناً ، لا يزيد على أن يعقب على كل كلمة من كلماتي بقوله : « نعم نعم » ، ولكن كان واضحاً أنه لا يفهم عني ولا يتابع سلسلة حديثي . وقد ضايقني هذا ، ولكن فرسيلوف قاطعني فجأة ، ونهض معلناً أنه آن أوان النوم . وكانت الأسرة كلها مجتمعة ، وقد طالت السهرة . وحين جاء فرسيلوف بعد بضع دقائق يلقي نظرة على غرفتي أسرعت أسأله عن نظرته الى ماكار ايفانوفتش ، وعن رأيه فيه عامة . فضحك ضحكه فرحة (ليست تهكماً على أخطائي في حديثي عن الشيوعية ، فانه لم يتكلم عن هذا الأمر) . أعود فأقول : ان فرسيلوف كان شديد الالتصاق بماكار ايفانوفتش ، وكثيراً ما فاجأت على وجهه ابتسامة فتانة حين كان ينصت الى الشيخ . ولكن هذه الابتسامة كانت لا تمنع النقد . بادر فرسيلوف يقول :

ـ قبل كل شيء ، ليس ماكار ايفانوفتش فلاحاً ، وانما هو قن خادم كان أبوه قناً خادماً . فهؤلاء الأقنان الخدم كانوا يشاركون أسيادهم جوانب كثيرة من حياتهم الخاصة الفكرية والروحية ، في العهد الماضي . لاحظ أن ماكار ايفانوفتش لايزال حتى اليوم يهتم اهتماماً خاصاً بوقائع حياة الأسياد والارستقراطية . انك لا تعلم بعد مدى ولعه وشغفه ببعض الأحداث التي جرت في بلادنا في الآونة الأخيرة . هل تعلم أنه شديد الاهتمام بالسياسة ؟ هذا رجل لا يكفيه أن تحكي له كلاماً عاماً ، وانما يجب عليك أن تذكر له كل شيء : من الذي قام بالحرب ؟ هل سنقوم بالحرب أيضاً .. ؟

ما أعظم البهجة التى هيأتهـا له فى الماضى بأحاديث من هـذا النوع ! وهو يحترم العلم كثيراً ؛ ومن بين جميع العلوم يفضّل علم الفلك . عـدا هذا يجب أن نذكر أن له فى الأمور آراء مستقلة يستحيل أن تزحزحه عنها . ان له اقتناعات ثابتة وواضـحة ... ومخلصة ! ورغم جهله فانه قادر على أن يدهشك فجـأةً بمعرفته بأمور ما كان لك أن تتصور أن يعرفها . هو يمدح لك عزلة الصـحراء بحماسة ولكنه لن يعتكف فى الصحراء بحال من الأحوال ، لا ولن يدخل الدير ، فانما هو خاصةً « متشرد » ، كما سـماه بهذا الاسم اللطيف ألكسندر سيمنوفتش الذى يجب أن أذكر لك فى هذه المناسبة أنك تخطىء اذا أنت آخذته وحقدت عليه . ماذا أيضاً ؟ هو كذلك فنان قليلاً ، له كلمات من ابتداعه وكلمات ليست من ابتداعه . منطقه ليس سليماً كل السلامة . انه تارةً يسبح فى عالم مجرد ، وتارة يغوص فى عاطفية شديدة ، ولكن عاطفيته عاطفية شعبية صافية ، أو قل انها نوبات من ذلك الحنان الذى يتصف به شعبنا ويدخله فى شعوره الدينى ولن أتكلم عن نقـاء قلبه وطيب نفسـه : فليس الحديث عن هـذا من شأننا نحن ...

٣

كى أنتهى من رسم صورة ماكار ايفانوفتش ، سأنقل الآن قصة من قصصه ، مستمدةً من حياته الخاصة • ان لقصص ماكار ايفانوفتش طابعاً غريباً ، بل قل انها لا يجمعها طابع مشترك • يستحيل عليك أن تستخرج منها أخلاقاً معينة أو اتجاهاً عاماً ، اللهم الا كونها مثيرة للحنان جميعاً • غير أن بينها قصصاً لا تتصف بهذه الصفة ، حتى ان بينها قصصاً مرحة فكهة تشتمل على سخريات من بعض الرهبان الفاسدين ، وهذه قصص كانت روايتها تسىء الى فكرته ، وقد نبهته أنا الى هذا ، ولكنه لم يفهم ماذا أردت أن أقول • وكان يصعب على المرء أحياناً أن يحزر ما الذى كان يدفعه الى رواية هذه القصص ، حتى لقد استغربت منه هذا الاكثار من الكلام ، فعزوته الى شيخوخته والى حالته المرضية •

همس فرسيلوف يقول لى يوماً :

ـ ليس الآن كما كان فى الماضى • ان وفاته قريبة ، انها أقرب كثيراً مما نظن • فيجب أن نكون متأهبين •

نسيت أن أقول ان « سهرات » مطردة كانت قد استقرت عادة عقدها عنده ؛ فعدا ماما التى كانت لا تترك ماكار ايفانوفتش ، كان يأتى فرسيلوف الى غرفته كل مساء ، وكنت آتى أنا أيضاً ، ولم يكن ثمة مكان آخر أذهب اليه على كل حال ؛ وفى الأيام الأخيرة أصبحت تأتى ليزا فى العادة ولو أنها تصل متأخرة عن الآخرين وتظل صامتةً طول الوقت

تقريباً ؛ وكانت تاتي تاتيانا بافلوفنـا ، وكان يجيء الطبيب أيضـاً ولـكن مجيئه نادر • ولا أدرى كيف رأيتنى أصـبح قريباً من الطبيب • صحيح أننى لم أقترب منه كثيراً ، ولكننى على كل حال أصبحت لا أثور عليه كما كنت من قبل • ان ما أعجبنى فيه نوع من بساطة لاحظتها أخيراً ، ونوع من التعلق بأسرتنـا ، فقررت أن أغفر له غروره الطبى ، وعلمته عدا ذلك أن يغسل يديه وأن يعنى بأظافره ، أما أن يلبس قميصاً نظيفاً فذلك أمر لم أفلح فى أن أحمله عليه • وقد أفهمته أننى لا أطلب منه هذا حرصاً على الأناقة ، وتعلقاً « بالفنون الجميلة » ، وانما أنا أطلبه منه لأن النظافة جزء من وظائف الطبيب نفسها مبرهناً له على ذلك بالحجة الدامغة • وكانت لوكيريا تأتى من مطبخنـا فى أحيـان كثيرة فتقف وراء الباب منصتةً الى ما يرويه ماكار ايفانوفتش • وقد دعاها فرسـيلوف يوماً أن تدخل فتجلس معنا • فأعجبنى منه هذا • ولكنهـا انقطعت منـذ ذلك اليوم عن المجيء • ان لها طبعها !

أحب أن أسوق الآن قصـة من قصص ماكار ايفانوفتش وقع عليها اختيارى عرضاً لسبب واحد هو أننى أحفظها أكثر مما أحفظ القصص الأخرى • هى قصـة تاجر أظن أن مدننـا الكبيرة والصغيرة تجرى فيها آلاف من القصص تشبهها ، فيكفى أن تحسن النظـر حتى نـراها • وللقـارىء أن يقفز فوق هذه القصـة اذا شـاء ، لا سيما وأننى أرويها بأسلوب صاحبها •

٤

حدث هذا عندنا ، بمدينـة آفيميافو . سـأحكى لكم الآن هـذه المعجزة . كان يوجد تاجر اسمه سكوتوبوينيكوف ، مكسيم ايفانوفتش . لم يكن فى المقاطعة أحد أغنى منه . كان قد بنى مصنع نسيج يشغّل مئات من العمال . وهذا كبّر رأس الرجل . ويجب أن نذكر أن جميع الناس كانوا يخضعون لأوامره . وكانت السلطات لا تضع له العصى فى العجلات . وكان الأرشمندريت يشكر له همته وحماسته ، اذ كان يقدم للدير هبات كثيرة ، وكان فى بعض الأحيان ، اذا بدا له أن يفعل ذلك ، يتكلم كثيراً عن الروح ، ويهتم اهتماماً شديداً بالحياة الآخرة . وكان أرمل ، ولم يكن له أولاد . عن زوجته كانت تجرى شائعات تقول انه أساء معاملتها كثيراً فى السـنة الأولى من زواجهما ، مستعملاً قبضتى يديه فى أكثر الأحيان . أما أن يتزوج مرة أخرى فذلك أمر لا يخطر له ببال . وكان يحب الشراب أيضاً . فاذا شرب رآه النـاس يركض فى أرجاء المدينـة ثملاً ، خالعاً ثيابه ، صارخاً . والمدينة صغيرة ، فجميع الناس يعرف بعضهم بعضاً . حتى اذا صحا من سكره عاد رجلاً جاداً ، كلُّ رأى يراه فهو الصواب ، وكل أمر يصـدره فهو يعرف كيف يصـدره . مع الناس كان يصفى حسـاباته كما يشـاء هواه . هاهو ذا يمسـك عدادته ويضـع نظارتيه ـ : « أنت يا فوما ، كم لك علىّ ؟ » فيجيبـه فوما : « لم أقبض شيئاً منذ عيد الميلاد يا مكسيم ايفانوفتش . لى عليك تسعة وثلاثون روبلاً ». فيقول : « لا ، هذا كثير ! هذا كثير عليك ! أنت لا تساوى تسعة وثلاثين

روبلا • هذا لا يناسبك أبداً ! يجب أن نخصم عشرة روبلات • خذ • هذه تسعة وعشرون ! » • فلا يقول فوما شيئاً • لا أحد يمكن أن يتفوه بكلمة • صمت عام •

ـ أنا أعرف كم يجب أن يُدفع له • هذا هو التصرف الواجب مع هؤلاء الناس • الناس هنا فاسدون لولاى أنا لماتوا جوعاً منذ زمن طويل • لماتوا كلهم بدون استثناء • أكرر لكم أنهم جميعاً لصوص : عيونهم أكبر من بطونهم • وليس لهم قلوب تتحرك • زد على ذلك أنهم سكّيرون : متى دفعت لهم راتبهم حملوه الى الحانة ثم لم يخرجوا منها الا عرياً لا يستر جسمهم شيء ، عرياً كدودة • ثم انهم أوغاد : اجلس على صخرة أمام الحانة واسمع أنينهم وشكواهم : « لماذا ولدتنى يا أمى العزيزة ، أنا السكير المسكين ؟ لماذا ولدت هذا السكّير ؟ كان الأفضل أن تخنقيه منذ ولد ! » • أهذا انسان ؟ بل هو حيوان لا انسان • يجب أن نربيه أولاً ، وبعد ذلك نعطيه مالاً • أنا أعرف متى يجب أن يعطى أحدهم مالاً •

هكذا كان يتكلم مكسيم ايفانوفتش عن أهل آفيميافو • لم يكن ذلك حسناً منه • ولكنه ليس وحده مخطئاً • كان سكان مدينتنا ضعافاً لا يملكون قوة الارادة •

وكان يوجد فى تلك المدينة نفسها تاجر آخر • ولكن هذا التاجر الآخر مات • كان شاباً وطائشاً ، فأفلس وفقد كل رأس ماله • كان فى السنة الأخيرة يتخبط كسمكة على الرمل ، ولكن ساعته كانت قد حانت • وكانت علاقاته بمكسيم ايفانوفتش شجاراً مستمراً ، وكان مديناً له بمبالغ كبيرة • حتى وهو على فراش الموت ، حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، كان يلعن مكسيم ايفانوفتش • ومات الرجل تاركاً زوجة شابة وأطفالا خمسة وأما أرملة ؟ سنونو بلا مأوى • هذه محنة قاسية ، ولا سيما مع خمسة أولاد لا تعرف الأم من أين تطعمهم • وكان كل ما بقى

لهم بيتا صغيراً من خشب انتزعه مكسيم ايفانوفتش سداداً لديونه • واليكم ما فعلته الأرملة : صفّت أطفالها الخمسة أمام باب الكنيسة : ان أكبرهم صبي عمره ثماني سنين ؛ والأطفال الآخرون كلهم بنات صغيرات • كبراهن عمرها أربع سنين ، صغراهن لاتزال ترضع • فلما انتهى القداس ، خرج مكسيم ايفانوفتش من الكنيسة ، فركع الأطفال الأربعة أمامه (كانت أمهم قد علمتهم هذا الدرس) ، وضم كل منهم يديه الصغيرتين متضرعاً ، وانحنت الأم الى الأرض وهي تحمل الطفل الخامس على ذراعيها ، انحنت محيية مكسيم ايفانوفتش قائلةً له على مسمع من جميع الناس : « يا سيدى الطيب مكسيم ايفانوفتش ، ارحم أطفالاً يتامى ، ولا تنتزع منهم آخر لقمة ، لا تطردهم من عش أبيهم ! » • جميع الذين رأوا المشهد ذرفوا دموعاً • أحسنت الأم تعليم أطفالها الدرس • قدّرت أن مكسيم ايفانوفتش لابد أن يخجل أمام الناس ، فيغفر ويرد البيت الى اليتامى • ولكن حدث غير هذا • وقف مكسيم ايفانوفتش وقال : أيتها الأرملة الشابة ، أنت تريدين زوجاً ، وليس من أجل الأطفال تبكين • زوجك لعنني وهو على فراش الموت ! ومضى مكسيم ايفانوفتش ولم يردّ البيت • قال : « كيف تنطلي عليّ ألاعيبهم ؟ اذا أنت أكرمت اللئيم تمرد ! لا يفيد هذا كله في شيء ، ولا يؤدى الا الى فوضى ! » • وكان يتناقل الناس في المدينة أن مكسيم ايفانوفتش ، قبل عشر سنين ، قد عرض على هذه الأرملة التي كانت يومئذ فتاة بارعة الجمال ، مبلغاً ضخماً من المال ، ناسياً أن هذه الخطيئة كخطيئة تدمير كنيسة من كنائس الرب • ولكنه لم يظفر منها بشيء • وكان قد ارتكب أعمالاً قذرة من هذا النوع في المدينة بل في المقاطعة كلها • ولكنه في هذه المرة جاوز الحدود •

أخذت المرأة تعول مع صغارها • وطرد مكسيم ايفانوفتش الأيتام من البيت ، لا حباً بالشر فحسب ، بل لأن المرء في بعض الأحيان يجهل

هو نفسه سبب عناده واصراره على فكرته • وقد هبّ بعض الناس الى مساعدة الأرملة في البداية ، ثم مضت بعد ذلك تلتمس عملاً • ولكن ما عسى يجنى المرء من العمل عندنا في غير المصنع ؟ تغسل أرضاً هنا ، وتعزق حديقة هناك ، وتوقد حماماً هنالك ، وعلى ذراعيها طفل يبكي وفي الشارع أربعة صغار يركضون عراةً الا من قميص ؟ حين أركعتهم أمام الكنيسة كانوا لا يزالون ينتعلون أحذيتهم الصغيرة ، ويرتدون معاطفهم الصغيرة ، كأولاد التجار • أما الآن فانهم يركضون حفاة • تعلمون أن الثياب تبلى بسرعة أجسام الأطفال • وعلى كل حال فالأطفال لا يحتاجون الى أشياء كثيرة ما ظلت الشمس تطلع • هم في ذلك الفصل لا يحسون بالبؤس ، بل ينطلقون سعداء ، يزقزقون كالعصافير ، وترن أصواتهم رنين الأجراس الصغيرة • كانت الأرملة تقول : « سيأتي الشتاء فما عساني صانعة بكم ؟ » ليت الرب يأخذكم اليه ! » ولكنها لم تضطر الى الانتظار حتى حلول الشتاء • انتشر في مقاطعتنا سعال أطفال ، السعال الديكي ؛ فكان يسرى من طفل الى طفل • فماتت البنت الرضيع أولاً ، ومرض الآخرون فماتت البنات الأربع في ذلك الخريف نفسه • ولكن واحدةً منهن لم تمت من المرض بل ماتت لأن عربة داستها في الشارع • فماذا الذي تظن أنه حدث ؟ دفنت الأم بناتها باكية معولة • كانت قبل ذلك تلعنهن وتدعو لهن بالموت ، فلما أخذهن الرب اليه ؟ طفقت تنتحب وتتشنج • هكذا قلوب الأمهات !

لم يبق لها الا ابنها البكر • فكانت ترتعش خوفاً عليه ، حتى لتكاد تختنق اختناقاً • وكان الولد نحيلاً رقيقاً ، وكان له وجه لطيف كأنه بنت • مضت بالولد الى المصنع ، فعهدت به الى عرابه الذي كان مديراً • وذهبت هي تعمل خادمةً في بيت أحد الموظفين • وفي يوم من الأيام كان الولد يركض في الحوش ، فاذا بمكسيم ايفانوفتش يصل راكباً عربته ،

وكان مخموراً كأنما بمصادفة . وكان الولد قد هبط السلم ، فانزلق وصدمه لحظة كان ينزل من عربته ، ووضع كلتا يديه على بطنه . فأمسك مكسيم شعر الولد ، وصاح يسأل : « لمن هذا الولد ؟ هاتوا السياط ! اجلدوه فورا ، أمامي . » كاد الولد أن يموت خوفا ، وأخذوا يجلدونه ، فكان يصرخ . قال مكسيم : « تصرخ أيضا ؟ اجلدوه الى أن يكف عن الصراخ ! » . جلدوه مزيدا من الجلد ، الى أن أشرف على الموت فعلاً . فتوقفوا عن جلده ، وارتاعوا : أصبح الطفل لا يتنفس ، وظل راقداً مغشياً عليه . لقد قيل فيما بعد انه لم يجلد كثيراً ، ولكنه كان طفلاً شديد الخوف جداً . وارتاع مكسيم ايفانوفتش نفسه . وسأل : « لمن هذا الولد ؟ » . فقالوا له من هو . فقال : « هكذا اذن ! احملوه الى أمه . ماذا جاء به الى المصنع يسرح فيه ويمرح ؟ » . وبعد يومين سأل : « ما أخبار الولد ؟ » . وكانت الأخبار سيئة : كان الولد مريضاً ، راقداً في ركن عند أمه ، لأن أمه تركت عملها في هذه المناسبة . كان الولد مصاباً باحتقان في الرئة . قال مكسيم : « عجيب ! لماذا ؟ انه لم يُضرب كثيراً . وانما خُوِّف تخويفاً فحسب . لقد ضربت جميع الأولاد الآخرين مثلما ضربته ، فلم يحدث شيء . » . وكان يتوقع أن تشكو المرأة أمرها الى القضاء . فكان يتكبر ويتعالى . ولكن أنَّى للمرأة أن تشتكي ! لم تجرؤ . عندئذ أرسل اليها خمسة عشر روبلاً ، وأوفد لها طبيباً . فعل هذا لا لأنه كان خائفاً ، بل فعله هكذا ، بعد تفكير . ثم أصابته نوبة اقبال على الخمر ، فلم يصح من سكره مدة ثلاثة أسابيع .

وانقضى الشتاء . حتى اذا كان الفصح ، سأل في يوم العيد مرة أخرى : « ما أخبار الولد ؟ » . لقد صمت طول الشتاء لايسأل أبداً . قيل له : « الولد شفي ، وهو عند أمه ، والأم تعمل خادمة في النهار » . ذهب مكسيم ايفانوفتش الى الأرملة ، ولكنه لم يدخل البيت ، بل استدعاها

الى المدخل ، وبقى فى عربته • قال لها : « اسمعى ايتها الارملة المحترمة ، اننى أريد لابنك الخير ، أريد أن أكون المحسن اليه ، وأن أغدق عليه نعمى بغير حدود : آخذه الى منزلى منذ اليوم • فاذا أعجبنى قليلاً تركت له مبلغاً كبيراً ، واذا أعجبنى اعجاباً تاماً جعلته وريثى بعد موتى وتركت له كل ثروتى كأنه ابنى ، ولكننى أفعل هذا بشرط واحد : أن لا تجيئى الى بيتى أبداً ، الا فى الأعياد الكبيرة • قال هذا وانصرف • وبقيت الأم كالمجنونة • سمع الناس كلام مكسيم ، فقالوا للأم : « حين يكبر الولد فسوف يلومك كثيراً اذا أنت حرمته من هذا الحظ » • فظلت الأم تبكى ابنها طول الليل ، حتى اذا طلع الصبح اصطحبته الى مكسيم • فكان الولد أقرب الى الموت منه الى الحياة •

ألبسه مكسيم ايفانوفتش كما يلبس سيد صغير ، وأستأجر له معلماً ، ووضعه بين الكتب منذ تلك اللحظة • أصبح لا يحوّل عنه بصره ، ويجلسه الى جانبه دائماً • فمتى تثاءب الطفل انبرى يقول له : « خذ كتاباً وادرس ! أريد أن أجعلك رجلاً » • ولكن الولد كان ضعيفاً هزيلاً منذ المرة الأولى ، منذ جُلد بالسياط • وكان يسعل • فكان مكسيم ايفانوفتش يقول مدهوشاً : « اذن فالحياة عندى لا تروقه • كان عند أمه يركض حافى القدمين ، ولا يأكل الا كسرات خبز ، ثم ها هو ذا الآن أشد هزالاً مما كان » • فقال له المعلم : « الأطفال يحتاجون الى الركض ، ولا يستطيعون أن يقضوا الوقت كله فى الدرس ، فلابد لهم من الحركة ••• » • شرح له ذلك كله مدعوما بالحجج • فقال مكسيم ايفانوفتش : « ما تقوله حق » • المعلم هو بطرس ستيبانوفتش حفظه الله • رجل طيب يشبه أن يكون « مجذوبا » • كان يحب الشراب ، بل كان يسرف قليلاً فى الشراب ، لذلك طرد من جميع الوظائف التى عين لها ، فكان يعيش على الصدقات تقريباً • ولكنه كان دماغاً كبيراً ، كان قوياً فى

العلوم • حتى لقد كان يقول بينه وبين نفسه : « هذا ليس مكانى ، فانما يجب أن أكون استاذاً بالجامعة • أما هنا فأنا فى الوحل » حتى صارت ثيابى تتقزز منى » • وهذا مكسيم ايفانوفتش ينادى الطفل صارخاً فيقول له: « هيَّا اركض » ، وكان الطفل لا يكاد يستطيع التنفس أمامه • حتى لقد صار لا يستطيع أن يحتمل صوته • فأخذ يرتجف • فازدادت دهشة مكسيم ايفانوفتش وقال : « أخرجته من الوحل ، وألبسته ناعم الثياب ، ونعلته بأحسن الجلد ، وجعلت له قميصاً مطرزاً ، وعاملته كما يعامل ابن جنرال ، ثم هو لايزال غير متعلق بى ! ما باله ينظر الىَّ كما ينظر صغير الذئب ؟ » • منذ مدة طويلة أصبح لا يندهش أحد من صدور أى شىء عن مكسيم ايفانوفتش • ولكن الناس عادوا يدهشون : انه مرتبط بالولد أشد الارتباط ، لا يستطيع أن يفارقه ، ولا يعرف ماذا يتخيل من أجله • وكان يقول : « انى أفضِّل أن أُشنق على أن أعجز عن تغيير طبعه • لقد لعننى أبوه وهو على فراش الموت بعد أن تناول القربان المقدس • انه صورة أبيه ! » •

لم يجلده مرةً واحدة (كان خائفاً أشد الخوف منذ المرة الأولى) وكان الطفل مروَّعاً بدون جلد ، فما الحاجة الى جلده ؟

حينئذ حدث الحادث • ففى ذات يوم ، بعد أن خرج مكسيم من الغرفة ، ترك الطفل كتابه وصعد على كرسى ، اذ كانت كرته قد وقعت على خزانة ملابس ، فأراد أن يلتقطها ، ولكن كمه اشتبكت بمصباح من الخزف كان على الخزانة ، فسقط المصباح على الأرض وتهشم متناثراً ألف قطعة • دوَّى صوت سقوط المصباح فى المنزل كله ، وكان المصباح تحفة ثمينة من خزف ساكس • سمع مكسيم صوت سقوط المصباح من الغرفة الثالثة ، فأخذ يزأر • ذعر الولد ذعراً شديداً ، وأسرع يولى هارباً الى الشرفة ، ثم اجتاز الحديقة ، وخرج من الباب الخلفى حتى

صار على رصيف النهر . كان هناك شارع تزينه شجيرات مزهرة . مكان رائع الجمال . وهرع الولد الى الماء ، ورآه النـاس ، حتى اذا صار على حافة النهر ، فى الموضع الذى ترسو فيه معدية ، باعد ذراعيـه ، ثم لعله خاف من الماء فبقى جامداً فى مكانه . المكان عريض ، والنهر سريع ، والقوارب تمر ؛ وفى الجهة الأخـرى دكاكين وميدان وكنيسة ذات قباب من ذهب يسطع . وفى تلك اللحظة كانت الكولونيله فرتسنج تهبط نحو النهر مع ابنتها . كان بمدينتنا كتيبة مدفعيـة . وابنـة الكولونيلة صبية فى الثامنة من عمرها هى أيضـاً ، ترتدى فستاناً أبيض . نظـرت الى الولد وضحكت . وكانت تحمل بيدها قفصاً صغيراً من خشب فيه قنفذ . قالت لأمها : « انظرى الى الصبى كيف يتطلع الى قنفذى يا ماما ». فقالت الأم : « لا بل هو خائف من شىء ما . لماذا تبدو خائفاً هذا الخوف الشديد أيها الصبى اللطيف ؟ ما أحسن ثيـابه ! من أنت يا ابنى ؟ » (هـذا ما رُوى فيما بعد) . ولم يـكن هو قد رأى قنفذاً من قبـل . فاقترب ونظـر . نسى ما كان فيه . هكذا الأولاد ! قال يسأل : « ما هذا الذى معك ؟ » . أجابت الآنسة : « قنفذ . اشتريناه منذ قليل من فلاح وجده فى الغابة » . قال الصبى : « وما القنفذ ؟ » . وضـحك . وأراد أن يلمسه باصـبعه ، فانتفش القنفذ ، وضـحكت البنت ، وقالت : « سـنأخـذه الى البيت فنؤنّسه » . قال الصبى « اعطينى قنفذك ! » طلب منها ذلك هكذا ، بلطف . ولكن ما ان أنهى جملته حتى كان مكسيم ايفانوفتش يصرخ من أعلى : « آ ... هذا أنت ! أوقفوه ! » (كان مكسيم قد بلغ من شـدة الغضب أنه خـرج من البيت بدون قبعـة) . تذكر الطفل كل شىء ، وصرخ ، وتقدم نحو الماء ضاماً يديه الصغيرتين الى صدره ، ونظر الى السماء (رأوه ينظر الى السـماء) ، وألقى نفسـه فى النهـر . فتعالى الصراخ فى كل صوب ، واندفع ناس من المعدية يلقون أنفسهم فى النهر عسى أن يتشبثوا ، ولكن الماء كان قد جرفه ، فالنهـر سريع ، حتى اذا أخـرجوه كان قد

فارق الحياة • لم يتحمل الماء بسبب ضعف صدره • لم يحتج الى وقت طويل حتى يموت • ما يسمع الناس فى بلادنا قبل ذلك اليوم عن طفل مات منتحراً • خطيئة كبرى ! ما عساها تقول للرب فى السماء ، هذه النفس الصغيرة ؟

منذ ذلك الحين أخذ مكسيم ايفانوفتش يفكر فى المسألة • وتبدلت حاله ، حتى صار المرء ينكره ولا يعرفه • حزن حزناً كبيراً • وأخذ يشرب • أخذ يشرب كثيراً • ثم انقطع عن الشراب : لم ينفعه شيء • وانقطع أيضاً عن الذهاب الى المصنع • وأصبح لا يصغى الى أحد • اذا كلموه لم يجب ، أو حرك يده مشيراً الى أنهم يضجرونه • وانقضى شهران ، ثم صار يكلم نفسه • صار يسير وهو يكلم نفسه • وشبت النيران فى قرية فاسكوفا ، بقرب المدينة ، فالتهمت تسعة بيوت • ذهب مكسيم الى الحريق ليرى • أحدق به المصابون وأخذوا ينتحبون : فوعد بأن يمد اليهم يد المعونة ، وأصدر أمره بذلك ، حتى اذا رجع الى بيته استدعى وكيله وألغى كل ما وعد به ، قائلاً له : « لا تعطهم شيئاً » ،ولم يذكر السبب • قال يحدث نفسه : « ان الرب خلقنى شيطاناً ، وجعلنى بليةً لسائر البشر ، فليكن ذلك ! وقد طارت سمعتى فى الناس سريعة كالريح » • وجاءه الأرشمندريت بنفسه فى يوم من الأيام : انه راهب عجوز قاس أدخل على الدير أسلوب الحياة المشتركة • قال له الأرشمندريت بلهجة قاسية : « ما هذا السلوك الذى تسلكه » ، فأجابه مكسيم : « هكذا ! » وفتح له كتاباً واشار له الى فقرة من الكتاب :

« من أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى فخير له أن يعلَّق فى عنقه حجر الرحى ويُغرق فى لجة البحر » (انجيل متى ، الاصحاح الثامن عشر ، ٦) •

قال الأرشمندريت :

ـ نعم ، هذا لم يُذكر فى هذه المناسبة ، رغم أن ثمة علاقة . ما أشقى الانسان الذى يتجاوز الحدود ! انه يضيع نفسه . وأنت قد أسرفت فى الارتفاع .

تصلب مكسيم ايفانوفتش ، حتى لكأنه أصيب بداء التيتانوس .

قال له الأرشمندريت :

ـ اسمع واحفظ . لقد قيل : « كلام المكروب اليائس تحمله الرياح » . وتذكر أيضاً ما يلى : ملائكة السماء نفسها ليست كاملة ، والكامل الوحيد المبرأ من الخطيئة انما هو الرب ، يسوع المسيح ، الذى تخدمه الملائكة . ثم انك لم تشأ موت ذلك الطفل . كل ذنبك أنك كنت متهوراً قليل التبصر والتروى . غير أن هناك ما يملأ نفسى دهشة : لقد سبق أن ارتكبت سيئات كثيرة أخرى ؟ ما أكثر الذين جعلتهم متسولين مستجدين ، ما أكثر الذين أفسدت أخلاقهم ، ما أكثر الذين دفعتهم الى الموت دفعاً ، فكأنك قتلتهم ! وأولئك البنات الصغيرات ، وأخواته ، ألم يمتن قبله هن الأربع على مرأى منك تقريباً ؟ فلماذا ينفرد هو بادخال الاضطراب الى نفسك ؟ أتراك نسيت جميع السوابق ناهيك عن الأسف لها والندم عليها ؟ ما بالك ترتاع هذا الارتياع الشديد كله لموت هذا الطفل الذى لم تكن أنت مسئولاً عن موته كل المسئولية ؟

تمتم مكسيم ايفانوفتش يقول :

ـ لأننى أراه فى المنام .

ـ ثم ماذا ؟

ولكن مكسيم ايفانوفتش لم يكشف للأرشمندريت عن شىء ، وظل صامتاً . فدهش الأرشمندريت وانصرف : لا فائدة !

عندئذ أرسل مكسيم ايفانوفتش من يستدعى له المعلم ، بطرس سيتبانوفتش • انهما لم يلتقيا منذ حدث الحادث •

قال له :

ـ هل تتذكر ؟

ـ أتذكر •

ـ سمعت أنك رسمت لوحات بالزيت للمطعم ، وأنك تنسخ الآن صورة للمطران • هل تقدر أن ترسم لى لوحةً بالألوان ؟

ـ نعم ، أقدر • انني أملك جميع المواهب ، وأقدر على كل شىء •

ـ ارسم لى اذن لوحة ، أكبر لوحة ممكنة ، لوحةً تحتل الجدار كله • ضع فيها النهر ، والمنحدر ، وجميع الناس الذين رأوا المشهد • ضع الكولونيلة وابنتها والقنفذ • وارسم الشاطىء الآخر كله بحيث يراه الناظر كما هو : الكنيسة والميدان والدكاكين والمكان الذى ترابط فيه العربات ، ارسم كل شىء كما هو فى الواقع • وارسم الولد أمام المعدية ، على ضفة النهر ، فى ذلك المكان نفسه ، واجعل يديه مضمومتين الى صدره • وأمامه ، على الشاطىء الآخر ، شُقّ السماء ، وصوِّر جميع الملائكة فى النور السماوى وهم يطيرون الى لقائه • هل تقدر أن ترسم هذا ؟

ـ أقدر أن أفعل كل شىء •

ـ اسمع ، أستطيع أن استقدم أكبر رسّام من موسكو وحتى من لندن ، بدلاً من الاعتماد على مخربش مثلك • غير أنك ، أنت ، تتذكر وجهه • فاذا جاءت صورة وجهه لا تشبهه ، أو لا تشبهه شبهاً كافياً أعطيتك خمسين روبلاً ، أما اذا جعلتها تشبهه كل الشبه فسأعطيك مائتى روبل •

تذكر عينيه الصغيرتين الزرقاوين ... ولكن اللوحة أكبر لوحة ممكنة .

وأبرما اتفاقهما . وأخذ بطرس ستيبانوفتش يعمل ، ولكنه جاء الى التاجر يقول له فى ذات يوم :

ـ لا سبيل الى رسم ما ذكرت .

ـ لماذا ؟

ـ لأن هذه الخطيئة ، خطيئة الانتحار ، هى أكبر الخطايا جميعاً ، فكيف يمكن أن تستقبله الملائكة بعد أن ارتكب هذه الخطيئة ؟

ـ لكنه طفل . ليس مسئولاً .

ـ لا ، لم يكن طفلاً صغيراً . كان قد بلغ سن الرشد . كان عمره ثمانى سنين حين حدث الحادث . فو مسئول قليلاً رغم كل شيء .

ازداد مكسيم ايفانوفتش ارتياعاً . قال :

ـ وجدت حلاً : لاتشق السماء ولا ترسم ملائكة ، حسبك أن تسقط عليه من السماء شعاعاً . هذا شيء على كل حال .

فعل الرسام ما تخيله مكسيم ايفانوفتش . أسقط على الطفل شعاعاً من السماء . وقد رأيت اللوحة بنفسى ، فيما بعد ، مع الشعاع والنهر الأزرق ، رأيتها تغطى الجدار كله . كان فيها الطفل ضاماً ذراعيه الصغيرتين الى صدره ، وكان فيها الآنسة الصغيرة والقنفذ ، كان فيها كل شيء . ولكن مكسيم ايفانوفتش لم يسمح لأحد برؤية اللوحة : أغلق عليها مكتبه بالمفتاح . هرع الناس من المدينة كلها يريدون أن يروا اللوحة ، ولكنه طردهم جميعاً . وتكلم الناس فى الأمر كثيراً . وتغيرت حال بطرس سيتبانوفتش حتى لكأنه شخص آخر . أصبح يقول لنفسه : « أنا الآن أقدر على كل شيء . مكانى الذى استحقه هو البلاط فى بطرسبرج . » . ان بطرس ستيبانوفتش من أحب الناس الى القلب . ولكنه كان يحب أن

يعظم نفسه كثيراً . وسرعان ما وافته منيته : فانه بعد أن قبض المائتي روبل، هرع يشرب ويطلع الناس على ماله تباهياً ، فقتل ذات ليلة ثملاً . قتله بورجوارى كان يشرب معه ، وأخذ ماله . واكتُشف هذا كله فى الصباح .

اما تتمة القصة فلا يزال جميع الناس يذكرونها هناك : فى ذات يوم جاء مكسيم الى الأرملة راكباً عربته . كانت الأرملة تسكن كوخاً صغيراً فى آخر المدينة . وقد دخل هذه المرة الى فناء البيت . وتسمَّر أمامَ المرأة ثم حيَّاها منحنياً حتى الأرض . وكانت المسكينة مريضة منذ حدوث تلك الأحداث كلها ، فهى لاتكاد تستطيع أن تجر نفسها جراً . قال لها : « تعالى أيتها العزيزة ، أيتها الأرملة المحترمة ، تعالى تزوجينى رغم أننى شيطان رجيم ، ردِّى الىَّ القدرة على الحياة . نظرت اليه المرأة لا حيةً ولا ميتة .قال لها : « أريد أن يكون لنا صبى صغير آخر ، فاذا وُلد لنا صبى آخر ، كان معنى ذلك أن الأول قد غفر لنا كلينا ، أنا وأنت . هو الذى أمرنى بذلك . » . لاحظت المرأة أن الرجل لا يملك صوابه كاملاً ، وأنه خارج عن طوره ، ومع ذلك لم تطق صبراً فقالت له :

ـ هذه سخافات وحقارة . بسبب هذه الحقارة فقدت جميع صغارى. لا أستطيع حتى أن أراك أمامى ، ناهيك عن أن أحكم على نفسى بمثل هذا العذاب الى الأبد ؟

انصرف مكسيم ايفانوفتش ، ولكنه لم يهدأ . ذُهلت المدينة كلها من هذه المعجزة . أرسل مكسيم ايفانوفتش الى الأرملة نساءً يتشفعن له عندها . واستدعى من بلده عمتين له ، قد تكونان عمتيه وقد لا تكون عمتيه ، ولكنهما بورجوازيتان من قريباته على كل حال ، أى امرأتان لهما وزن وقيمة . أخذت النساء تنصحها ، وتمدحها ، ولا تخرج من عندها . وأرسل أيضاً أشخاصاً من المدينة : أرسل تجاراً ، وامرأة

الأرشمندريت ، وزوجات موظفين • المدينـة كلهـا راحت تتقرب منهـا وتتزلف اليها • ولكنهـا احتقرتهـم جميعاً • كانت تقول :« لو كان هذا يبعث يتاماى أحياء فقد أقبل ، أما وأنهم لن يبعثوا فعلام أفعل ؟ اذا رضيت لأثمت فى حق أولادى اليتامى ! » •

وقد استطاع مكسيم ايفانوفتش ان يحمل الارشمندريت نفسـه على الشفاعة لديها ، فقال لها الأرشمندريت : « سـوف تخلقين منه انسـاناً جديداً » • فارتاعت • وكان الناس يدهشون من سلوكها : « كيف يمكن أن ترفض امرأة مثل هذه السعادة ؟ » • واليكم الطريقة التى استـطاع بها أخيراً أن يقنع المرأة : قال لها : « لقد قتل نفسه رغم كل شىء • ولم يكن طفلاً صـغيراً • كان قد بلغ سن الرشد • كان فى سن يستطيع فيها أن يتناول القربان المقدس بدون اعتراف • فهو اذن مسئول عن خطيئة الانتحار بعض الشىء • فاذا تزوجتنى نذرت لأبنينّ كنيسـة جديدة لترتاح نفسه راحةً أبدية • » • أذعنت المرأة لهذه الحجة ، وارتضت أن تتزوج مكسيم ايفانوفتش ، وتمّ الزواج •

دهش جميع الناس من نتيجة هذا الزواج • لقد عاش الزوجان منذ اليوم الأول فى وئام كامل صادق ، كان كل منهما وفياً للآخر وفاء عظيماً ، فكأنهما نفس واحدة حلت جسدين • وحملت المرأة فى ذلك الشتاء نفسه ، وطفق الزوجان يزوران الكنـائس ويتقون غضب الرب • وذهبا الى ثلاثة أديرة يسمعان النبوءات • وقام مكسيم ايفانوفتش ببنـاء الهيكل الذى وعد ببنائه ، وأنشأ فى المدينة مستشفى وملجأ • ووهب جزءاً من ثروته لأرامل ويتامى • وتذكر جميع أولئك الذين أساء اليهم ، وحاول أن يرد اليهم ما اغتصبه منهم • ولكنه أخـذ يبـدد المال بغير اعتدال ، حتى ان امرأته والأرشمندريت اضطرا أن يصداه عن ذلك : « كفى ! ما فعلته كاف » • وانصاع مكسيم ايفانوفتش • لكنه قال : « لقد غششت قوما مـرةً » •

ورد الى فوما حقه . وذرف فوما دموع التأثر ، وقال : « لاداعي الى هذا ... أخذنا منك كثيراً ، فنحن شاكرون لك فضلك الى الابد » . وتشبع جميع الناس بهذه الروح . حقاً ان الانسان يتأثر بالقدوة الصالحة . ان الناس في بلدنا طيبو القلب .

وتولت الزوجة ادارة المصنع ، بلغت من حسن ادارتها أن الناس لا يزالون يتذكرون ذلك . ولم ينقطع هو عن الشراب ، لكنها كانت تراقبه ، وحاولت أن تشفيه . وأصبحت أحاديثه رصينة حتى لقد تغير صوته . وصار رحيما رءوفاً حتى بالحيوانات : في ذات يوم رأى من نافذته رجلاً يضرب حصانه بالسوط ، فأرسل من يشترى الحصان بضعفي ثمنه . ووهبت له القدرة على البكاء : ففيما هو يتكلم مع أحد الناس ، تغرق عيناه بالدموع فجأة . ولما حان الموعد استجاب الرب لدعائهما فرزقهما غلاماً ، فاذا بمكسيم ايفانوفتش يشرق وجهه بالفرح أول مرة بعد الشقاء الذى أصابه . ووزع صدقات كثيرة ، وردّ ديوناً كثيرة ، ودعا المدينة كلها الى حفلة التعميد . ولكن وجهه كان فى الغد مكفهراً .

ورأته زوجته مهموماً ، فجاءته بالوليد وقالت له : « ان ابنى غفر لنا ، فدموعنا وصلواتنا أثرت فى قلبه » . يجب أن نذكر أنهما لم يتحدثا عن هذا الموضوع بكلمة واحدة طول السنة . وكان كل منهما يحتفظ به لنفسه . نظر مكسيم ايفانوفتش اليها مظلم الوجه كالليل ، وقال لها : « اسمعى . انه لم يجئنى طول هذه السنة . ولكننى رأيته فى الحلم الليلة» . وقد وصفت الزوجة بعد ذلك ما انتابها من شعور حينذاك فقالت : « عندما سمعت هذه الكلمات الغريبة ، نفذ الرعب فى قلبى » .

لم يكن عبثاً أن الولد ظهر لمكسيم فى الحلم . وما ان نطق مكسيم بهذه الكلمات حتى مرض الوليد فى تلك اللحظة نفسها . ودام مرضه ثمانية أيام ، فكانوا يصلون من أجله بغير انقطاع ، واستدعوا له الأطباء .

حتى لقد استقدموا من موسكو بالقطار أكبر طبيب . وقال الطبيب غاضباً : « انني أكبر طبيب ، وموسكو كلها تنتظرني . ووصف للمريض قطرات دواء وأسرع عائداً الى موسكو ، بعد أن قبض ثمانمائة روبل . ومات الطفل في المساء .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ ترك مكسيم ايفانوفتش ثروته كلها لزوجته العزيزة ، سلّمها جميع أمواله وأوراقه ، متنازلاً لها عن ذلك كله وفقاً للأصول المرعية والأنظمة الشرعية ، ثم وقف أمامها وانحنى يحييها حتى الأرض ، وقال لها : « يا زوجتي ، يا أغلى ما في الحياة عندي ، دعيني أمضي لانقاذ روحي ما دمت أملك الآن سبيلاً الى ذلك . فاذا قضيت هذا الوقت دون أن أظفر بطائل ، فلن أعود . لقد كنت قاسي القلب . ولقد سمت الآخرين سوء العذاب . ولكنني أظن أن الآلام التي سأتحملها في المستقبل ، وحياة التجواب التي سأعيشها ، قد تشفع لي عند الرب فيهب لي رحمته ، ذلك أن ترك هذا كله ليس صليباً صغيراً ولا ألماً صغيراً . » . حاولت زوجته أن تثني عزمه بالدموع . قالت له : « ليس لي الآن على هذه الأرض أحد غيرك ، فمن ذا الذي سيرعاني ؟ لقد انفتح قلبي في هذه السنة للمحبة والحنان » . وظلت المدينة كلها تنصحه خلال شهر كامل . تضرعوا اليه ، قرروا أن يحتجزوه بالقوة . ولكنه لم يصغ الى أحد . وتسلل فجأة في ذات ليلة ومضى ثم لم يعد . يقال انه لا يزال الى الآن يجوب الآفاق ويتحمل العذاب ، ويزور امرأته الغالية مرةً كلّ شهر .

الفصل الرابع

١

الآن

أصل الى الكارثة النهائية التى تختتم هذه المذكرات. ولكننى قبل أن أواصل الكتابة أرانى مضطراً الى أن استبق الحوادث فأشرح أمراً ما كنت أعرفه فى حينه وانما أنا عرفته وأدركته بعد ذلك بمدة طويلة ، أى بعد أن انتهى كل شىء . واذا لم أفعل ذلك فلن يكون حديثى واضحاً ، بل سيكون ألغازاً لا تفهم . ومن أجل هذا التوضيح التمهيدى سوف أضحى فى سبيل الوضوح والايجاز بكل ما يسمى اثارة فنية أو تشويقاً فنياً ، فكأن الذى يكتب ليس أنا ، وكأن قلبى لا يشارك فيه أية مشاركة . سيكون ما أقوله غير شخصى ، فهو أشبه « بمقالة صغيرة » فى جريدة .

كان فى وسع رفيق طفولتى ، لامبير ، أن ينتمى انتماءً تاما الى عصابة من تلك العصابات الرهيبة التى تتألف من متآمرين حقيرين يتواطئون على القيام بما يطلق عليه اليوم اسم « الابتزاز » ، وما يقع الآن تحت طائلة العقوبة فى بعض مواد القانون المدنى . والعصابة التى شارك لامبير فى أعمالها بعض المشاركة انما تكونت بموسكو ، وارتكبت عدداً كبيراً من المكائد (واكتشف شىء من أمرها فى النهاية) . وقد علمت فيما بعد أن أعضاءها كان لهم بموسكو ، خلال فترة من الزمن ، رئيس واسع الخبرة جداً ، ليس بالغبى ، وليس بالشاب اليافع ، وانما هو رجل متقدم فى السن . وكان أفراد العصابة ينفذون مشروعاتهم جماعةً واحدة فى بعض

الاحيان أو ينفذونها زمراً زمراً فى أحيان أخرى • وعدا الجرائم القذرة الكثيرة التي ارتكبوها (والتى تحدثت عنها الصحف) كانوا بقيادة رئيسهم يقدمون على أعمال معقدة غاية التعقيد ، ماكرة أشـد المكر • وقد عرفت بعض هـذه الأعمال فيما بعد • لكنني لا أحب أن أدخـل فى التفاصيل • فحسبى أن أذكر سمة بارزة من سمات أسلوبهم فى العمل : انهم يحاولون أن يكتشفوا أسرار أناس يكونون شرفاء جداً فى بعض الأحيان ، وتكون لهم فى المجتمع منزلة عالية • فاذا عرفوا هـذه الأسرار ذهبوا الى أولئك الأشخاص فهددوهم بنشر بعض الوثائق (وهى وثائق ليست فى حوزتهـم أحياناً) ويطالبونهم بأن يدفعوا لهم مبالغ من المال ثمناً لسكوتهم • ان هناك أمـوراً لا توجب العقاب ، وليس فيهـا شىء من اجرام ، ولكن أشرف الناس وأشدهم ثباتاً وصلابة يخشون نشرها • وكان أفراد العصابة يستغلون الأسرار العائلية فى أكثر الأحيـان • فمن أجـل أن أبيّن للقارىء مدى الحذق والمكر فيما كانـوا يقومـون به من أعمـال ، سـأروى مكيدة من مكائدهم ، دون أن أدخـل فى التفاصـيل • لقد حدث فى أسرة كريمة من الأسر شىء يؤسف له حقاً ، بل شىء يمكن ان يوصف بأنه جريمة ، وهو أن زوجـة رجـل معروف مرموق قامت علاقة بينها وبين ضابط غنى شاب • وقد ترامى هذا السر الى علم أفراد العصابة ، فاليكم ما فعلوه : ذهبوا الى الشـاب وهددوه بأنهم سيبلغون الزوج • لم يـكن لديهم أى برهان • ولكن كل حذقهـم فى اللجوء الى استعمال هـذا الأسلوب وكل براعتهم فى الحساب انما يقومان على أن الزوج ، اذا بلغه الأمر ، ولو لم يكن هنـاك براهين ، سيتصرف تصرف من يملك البراهين القاطعـة ، وسيتخذ الاجراءات التى يتخذها من توفرت له الأدلة الدامغـة • فهم قد بنوا حسابهم على معرفتهم بطبع الزوج ومعرفتهم بظروف الأسرة • وكان بين أفراد العصـابة شاب من المجتمع الراقى استطاع أن يحصل سلفاً على معلومات مفيدة • فطالبوا العشيق بمبلغ ضخم من المال ، دون أن يتعرضوا

من ذلك لأى خطر ، لأن الضابط الذى وقع فريسة لهم كان هو نفسه لا يهتم الا بكتمان الأمر •

ان لامبير ، رغم مشاركته فى أعمال تلك العصابة المسكوبيه ، لم يكن ينتمى اليها انتماء تاماً • لكنه وقد استطاب هذه الصنعة ، أخذ يجرب العمل لنفسه شيئاً فشيئاً • يجب أن أبادر فأقول انه لم يكن قادراً على السير فى هذا الطريق كل القدرة • صحيح أنه لم يكن غبياً ، وصحيح أنه كان حيسوباً ، ولكنه كان شديد الاندفاع ، وكان عدا ذلك مسرفاً فى البساطة أو قل فى السذاجة : فهو لا يعرف البشر ولا يعرف المجتمع • أظن مثلاً أنه كان لا يدرك الدور الذى يقوم به رئيس تلك العصابة بموسكو ، فكان يتخيل أن ادارة مثل هذه الأعمال وتنظيمها هما من الأمور السهلة جداً • وكان عدا ذلك كله يكاد يحسب جميع الناس أوغاداً جبناء مثله ، فاذا لاحظ مثلاً أن فلاناً من الناس خاف فى ظرف خاص ، تخيَّل أنه سيخاف فى كل ظرف لأنه جبان • كان هذا عنده بديهية من البديهيات •

أحسب اننى لا أحسن التعبير عما أريد أن أقوله • وهذه الأمور كلها ستوضحها الوقائع فيما بعد • ولكننى أعتقد أن لامبير كان سىء الخلق ، فهناك عواطف سامية نبيلة لا يصدق أن تكون موجودة ، بل لا يخطر له وجودها على بال •

وقد جاء الى بطرسبرج لأنه كان يحلم منذ مدة طويلة بأن مجال العمل فيها أوسع من مجال العمل بموسكو ، ولأنه كان قد وقع له بموسكو حادث مزعج ، فكان يلاحقه ويطارده هنالك شخص يضمر له أسوأ النيات • فلما وصل الى بطرسبرج أسرع يتصل برفيق من رفاقه القدامى • ولكنه لم يلبث أن وجد مجال النشاط محدوداً ووجد الأعمال ضئيلة تافهة • ثم اتسعت دائرة معارفه ، ولكنه لم يصل الى ثمرة • وقد قال لى فيما بعد:

« الناس هنا خرق بالية وصـيية صـغار لا أكثر » . وهاهو ذا في ذات صباح ، عند طلوع النهار ، يلقاني متجلداً من البرد في محاذاة جدار ، ثم يكتشف مما قلته اثناء هذياني انه وقع على « قضية هامة جداً » يمكن أن تدر عليها أرباحاً طائلة ، أو هذا ما قدّره .

لقد استخرج هذه القضـية كلهـا مما رويته له حين كنت أتدفأ في بيته وأنا في حالة هذيان حتماً . فمن كل ما أفلت من لسـاني ذلك اليوم كان يتضح أن الاهانة الكبرى انما وقعت عليّ من بيورنيج ، ومنها « هي » : والا لكان يمـكن أن يدور هذري على ما جـرى لي عند تسرشتشكوف . ولكنني لم أهذر الا في الأمر الأول ، وهذا ما عرفته بعد ذلك من لامبير نفسه . ثم انني كنت متحمسـاً ، وكنت في ذلك الصبـاح الرهيب أعد لامبير وآلفونسـين منقذين ومحرّرين . وحين تساءلت بعد ذلك ، أثناء نقاهتي ، وأنا لا أزال في السرير : ما عسى عرف لامبير من أحاديثي ابان الهذيان ، والى أي مدى أفضيت اليه بأسراري ، لم يخطر ببالي أبداً أنه ربما عرف أشياء كثيرة ! صحيح أنني كنت أقدّر ـ وهذا ما تدل عليه مشـاعر الندامة التي أخـذت بخناقي ـ أنني قد أكثرت من الكلام حتماً ، ولكن أعود فأقول انني لم يدر في خلدي قط أن أكون قد بلغت من كثرة الكلام ذلك المبلغ كله ! وقد أمّلت أيضاً ـ وكنت أعوّل على هذا ـ أن أكون قد عجـزت في ذلك الوقت ، بسبب ضعفي ووهني ، عن النطق بكلام واضح . وهذا ما أتذكره الآن تذكراً واضحاً . ولكن تبيّن في الواقع أنني قلت كلاماً أوضح كثيراً مما كنت أقدّر وأؤمل . ولكن المهم أن هذا كله لم يتكشف لي الا بعد مدة طويلة ، وذلك كان سبب بلائي .

استطاع لامبير أثناء هذياني أن يعرف من هذري وتمتماتي وحماساتي وما الى ذلك ، استطاع أن يعرف أولاً : جميع الأسماء تقريباً ، وحتى بعض العناوين ، معرفةً دقيقة . واستطاع ثانياً أن يكـوّن لنفسه فكرة قريبة

من الواقع عن دور كل شخص من الأشخاص (الأمير العجوز ، بيورنج ، هى ، آنا آندريفنا ، وحتى فرسيلوف) . واستطاع أن يعرف ثالثاً أننى أُهنت وأننى هدّدت بالانتقام . واستطاع رابعاً وأخيراً أن يعلم أن فى حوزتى وثيقة سرية مخبأة هى رسالة يكفى أن يُطلع عليها أمير عجوز نصف مجنون حتى يعرف أنها مكتوبة بخط بنته التى تصفه فى هذه الرسالة بأنه مجنون وتستشير فيها أناسا من رجال القانون من أجل أن توقع حجراً عليه ، فاما أن يجنّ نهائياً واما أن يطردها من بيته ويحرمها من الميراث أو يتزوج آنسة تسمى فرسيلوفا يفكر فيها منذ الآن ولكنهم لا يسمحون له بتزوجها . الخلاصة أن لامبير عرف أشياء كثيرة . ولا شك أن هناك أشياء كثيرة بقيت غامضة فى ذهنه ، ولكنه قد أمسك بالخيط ووضع قدمه فى الطريق . وحين فررت بعد ذلك من عند آلفونسين استطاع أن يعرف عنوانى فوراً (بأبسط وسيلة : مكتب العناوين) . ثم أسرع يجمع المعلومات اللازمة ، فعرف أن جميع الأشخاص الذين سميتهم موجودون فعلاً . فبادر عندئذ الى القيام بأول مسعى .

كان الشىء الأساسى هو أن هناك وثيقة ، وأن الوثيقة فى حوزتى أنا . ولم يخامر لامبير أى شك فى أن لهذه الوثيقة قيمة كبيرة . هنا أسكت عن ظرف يستحسن أن أرجىء ذكره الى أن يحين وقته . ولكننى أشير الى أن هذا الظرف قد عزز اقتناع لامبير بأن الوثيقة موجودة فعلاً وبأن لها قيمة كبيرة (وأبادر فأقول حالاً ان الظرف كان حاسماً ، ولم يكن فى امكانى أن أتخيله فى ذلك الوقت ، حتى ولا الى آخر القصة ، أى الى اللحظة التى انهار فيها كل شىء دفعةً واحدة واتضح من تلقاء نفسه) . حتى اذا تم له الاقتناع بهذه النقطة الأساسية مضى يزور آنا آندريفنا قبل كل شىء .

لايزال هنالك لغز يحيّرنى : كيف استطاع هذا الرجل ، لامبير ، أن

يتسلل فيصل الى امسانة صعبة الماخذ رفيعة مثل انا اندريفنا ؟ صحيح أنه حصل على معلومات ، ولكن ما قيمة هذا ؟ وصحيح انه كان حسن الهندام وأنه كان يتكلم بلهجــة باريســـية ويسمى باسم فرنسى ، ولكن كيف لم تدرك آنا آندريفنــا على الفور أنه وبش ؟ أم ترانا يجب أن نفترض أن هذا الوبش نفســه هو الذى كانت محتـــاجة اليه فى ذلك الوقت ؟ هل هذا ممكن ؟

لم أشأ فى يوم من الأيام أن أعرف تفاصيل اللقاء الذى تم بينهما . ولكننى تصورت المشــهد بعد ذلك مــراراً كثيرة . أغلب الظن أن لامبير منذ البداية ، قد مثّل بأقواله وحركاته ، دور صديق الطفولة القلق على رفيق عزيز . وأغلب الظن أنه أشــار فى الوقت نفسه اشارة واضحة الى « الوثيقة » التى فى حوزتى ، وأنه أفهــم آنا آندريفنــا أن هذه الوثيقة سر لا يعرفه أحــد غيره ، هو لامبير ، وأننى أعوّل على هذه الوثيقــة للانتقام من الجنرالة آخماكوفا ، الى آخــر ما هنــالك . واستطاع خاصة أن يشرح لهــا ما لهذه الورقة من شأن كبير وقيمة عظيمة ، شرحاً فيــه كل ما يجب من دقة ، وكانت آنا آندريفنا فى ذلك الأوان نفسه تمر بظرف لا يمكنها فيــه الا أن تتشبث بمثل هذا النبــأ ، والا أن تنصت اليه بانتباه شديد .. والا أن تعلق بالفخ ــ انقياداً لدافع « الصراع من أجل البقاء » .

كانوا ، فى ذلك الأوان نفسه ، قد انتزعوا منها خطيبها ، ونقلوه الى تساركويا تحت الوصاية ، ووضــعوها هى نفسها تحت الوصــاية . ثم اذا بحظ موات يعرض لهــا : فالأمر الآن ليس أمــر نمائم يهمس بهــا همســاً ، ولا أمر شــكاوى ترافقها دموع ، ولا أمر أقاويل ووشايات ، انما الأمر الآن أمر رسالة ، رسالة مكتوبة بالخط ، أى برهان قاطع على سوء ما تضمره ابنة الأمير لأبيها من نيات دنيئة ، وما يضمره جميع الذين انتزعوا الأمير منها من مثــل هذه النيات . هو برهان قاطع على أنه ينبغى

للأمير أن ينقذ نفسه ولو بالهروب ، وأن يجيء اليها هي انا آندريفنا ، وأن يتزوجها في غضـون أربع وعشرين ساعة ، والا أودعوه مستشفى للمجانين .

ومن الجائز أيضـاً ألا يـكون لامبير قد عمـد الى المكر مع هذه الآنسـة دقيقة واحدة ، وانما قال لها فجأة منذ أول كلمة : « يا آنسـة ، اما أن تبقي عانسـاً ، واما أن تصبحي أميرة ومليونيرة : هنـاك وثيقة ، سأستلمها من ذلك الشـاب ، وأسلـّمها اليك .. فهـاتي ثلاثين ألفاً » .
بل اني لأظن أن هذا هو ما حـدث . نعم ، لقد كان لامبير يتصور جميع الناس أوغاداً مثله . أكرر مرةً أخـرى أن لامبير يتصف بما يتصف به الوغد من سذاجة ، وبراءة . ومن الجائز جداً كذلك ، أن آنا آندريفنا لم تضطرب لهذه الهجمة لحظة واحدة ، وعرفت كيف تسيطر على نفسها سيطرة تامة ، وكيف تصغى الى الرجـل المبتز الذي يتكلم بلغته اصغاء كاملاً ، وذلك بفضـل « رحابة الفكر » . ولعلها احمـرت في أول الأمر قليلاً ، ولكنه تجلدت وأنصتت الى النهاية . ما أوضح الصورة التي أتخيلها لهذه المرأة الصعبة المأخذ ، ذات الكبرياء ، الرصينة حقاً ، التي تملك فكراً واسـعاً ، وهي تمد يدها الى يد رجـل مثل لامبير ! نعم ... فكراً واسـعاً ! فكراً روسـياً بعيد الأفق ، شغوفاً « بالرحابة » ، هو الى ذلك فكر امرأة تمر بمثل هذه الظروف .

سألخص الآن : لقد كان لامبير ، في يوم خـروجي بعد المرض ، يقف الموقفين التاليين (الآن انما أعـرف هذا معـرفة اليقين) : فهو أولاً يريد أن يطلب من آنا آندريفنـا ثلاثين ألف روبـل على الأقل ، ثمنـاً للوثيقة . وهو يريد ثانياً أن يسـاعدها في تخويف الأمير ، واختطافه ، وتزوجه فوراً ، أو في شيء من هـذا القبيل . حتى لقد تم وضـع خطة مقررة . ولكن تنفيذ الخطة ينتظرني أنا ، أي ينتظر الوثيقة .

ولكن لامبير كان فى ذهنه مشروع آخر أيضاً ؟ هو أن يخون آنا آندريفنا ، فيتركها ويبيع الوثيقة للجنرالة آخماكوفا ، اذا كان ذلك يعود عليه بربح أكبر . وفى هذه الحالة يكون التعويل على بيورنج . ولكن لامبير لم يكن قد لقى الجنرالة بعد ، وانما هو يتتبع خطاها . وهنا أيضاً يجب انتظارى أنا .

آه ... ما كان أشد حاجته الىّ ، لا الىّ أنا ، بل الى الوثيقة ! وكان لامبير يتصور أن يتبع معى احدى خطتين أيضاً . فأما الخطة الأولى فهى ، اذا لم يمكن سلوك سبيل آخر ، أن نتعاون معاً ، فنتقاسم الربح بعد أن يكون قد استولى علىّ جسماً وروحاً . وأما الخطة الثانية ـ وهى تغريه اغراءً أشد ـ فقوامها أن يغرِّر بى كما يغرر بصبى صغير ، فيسرق منى الوثيقة ، أو ينتزعها منى عنوةً وقسراً . وكان يحب هذه الخطة الثانية ويداعبها فى أحلامه . أكرر مرةً أخرى أن ثمة ظرفاً معينا كان يجعله لا يشك فى نجاح هذه الخطة الثانية تقريباً ، ولكن سبق أن ذكرت أننى سأشرح هذا الظرف فيما بعد . ومهما يكن من أمر ، فقد كان لامبير ينتظرنى نافد الصبر ، فكل شىء متوقف علىّ : المساعى التى يجب أن يقوم بها ، والخطة التى يجب أن يختارها .

ويجب أن أنصفه فأقول : انه رغم نفاد صبره قد سيطر على نفسه الى اللحظة الأخيرة . فلم يجىء الىّ أثناء مرضى أبداً ، ولكنه مرّ بالبيت مرةً وكلّم فرسيلوف . لم يرهقنى ، ولم يخفنى ، حتى لقد ظلّ الى ساعة خروجى يظهر عدم المبالاة . وكان على يقين من أننى لن أكلم عن الوثيقة أحداً ، ولن أسلمها الى أحد ، ولن أتلفها بحال من الأحوال . لقد استطاع أن يستخلص من أقوالى نفسها فى بيته أننى أحتفظ بالوثيقة سراً مكتوماً ، بل أخاف أن يفتضح أمرها . وكان لا يشك فى أننى متى شفيت فسيكون هو أول من أسعى اليه فوراً ، واننى لن أسعى الى أحد

قبله . وقد عادتني داريا أونيسيموفنـا تنفيذاً لأوامره ، فكان يعلم أنني خائف وأنني احترق شـوقاً الى معرفة ما حدث ، وأنني لن أصمد ... وكان عدا ذلك قد اتخذ جميع التدابير ، واستطاع أن يطلع حتى على اليوم الذي سأخرج فيه ، بحيث لا يمكنني أن أفلت منه ولو أردت .

ولكن اذا كان لامبير ينتظرني ، فلقد كانت آنا آندريفنـا تنتظرني أكثر منه أيضـاً . ويجب أن أقول بصراحـة ان لامبير كان على حق في تأهبه لخياناتها والغدر بها ، وكان الذنب في ذلك ذنبها هي . فرغم تفاهمهما المحقق (وأنا أجهل صـورة ذلك التفاهم ، لكنني أعـرف أنه حدث) ظلت آنا آندريفنا الى آخـر دقيقة لا تلتزم في تعاملها معه جانب الصراحة التامة ، ولم تكشفـ عمّا تضمره كشفاً كاملاً . وانما هي تكتفي بالاشارة والتلميح . لقد لمّحت له بـكل أنواع الموافقـة ، ولمحت له بكل أنواع الوعود ، ولكن كلامهـا كان تلميحاً فحسب . لعلهـا أصغت الى جميع تفاصيل خطته ، ولكنها لم توافق عليها الا بالصمت . ان هناك أسباباً قوية تدفعني الى الاعتقاد بهذا . وكان يحضها على اتباع هذا الأسلوب أنها كانت « تنتظرني » . لابد أنهـا كانت تفضّل أن تتعامل معي على أن تتعامل مع وغد مثل لامبير ؟ وهذا أمر بديهي ومفهوم . ولكن المصيبة هي أن لامبير أدرك ذلك أخيراً . فلو أخـذت آنا آندريفنـا الوثيقة مني بالاتفاق معي رأسـاً ، لألحق ذلك به خسـارة كبيرة . وكان هو مقتنعاً بضخامة « الصفقة » . ولو كان غيره في مكانه لخاف ولظلت تساوره الشكوك . ولكن لامبير شاب ، وجريء ، وظامىء الى الربح السريع ، ولا يعرف البشر كثيراً ، ويتصـور قلة الشرف في جميع الناس . فليس في وسع انسان مثله أن يشك ، لا سيما وأنه قد حصل من آنا آندريفنا على تأييدها للنقاط الأساسية فيما يعزم عليه .

ثمة أمر آخر له شأن كبير : هل كان فرسيلوف ، في ذلك اليوم ،

يعرف شيئاً ما ؟ هل كان يشارك لامبير فى بعض الخطط ولو من بعد ؟ كلا ، ثم كلا ! انه فى « ذلك الوقت » لم يكن يشارك بعد . لعل كلمة طائشة قد أفلتت منه . ولكن كفى كفى ! حسبى استباقاً للأحداث !

ثم ماذا عنى أنا ؟ هل كنت أعرف شيئاً يوم خروجى ؟ لقد ذكرت حين بدأت بكتابة هذه الزاوية من حديثى أننى كنت يوم خروجى لا أعرف شيئاً ، وأننى عرفت كل شىء فيما بعد . هذا صحيح . ولكن هل صحيح كل الصحة ؟ الحق أننى كنت أعرف شيئاً ما ، بل كنت أعرف أشياء كثيرة . ولكن كيف ؟ فليتذكر القارىء « حلمى » الذى رأيته . اذا كان حلم من هذا النوع قد أمكن أن أراه فى نومى ، وأن ينبجس من نفسى فى هذه الصورة ، فان هذا يدل على أنى كنت لا أزال أجهل أموراً كثيرة ، ولكنه يدل على أننى كنت « أتوجس » هذه الأمور ، كما يستدل على ذلك مما شرحته هنا من أشياء لم أعرفها فى الواقع الا بعد أن كان قد « انتهى كل شىء » . صحيح أننى كنت لا أعلم شيئاً علم اليقين ، ولكن قلبى كان يخفق بتوجسات تتنبأ بما سيحدث ، وكانت الأرواح الشريرة قد غزت أحلامى واستولت عليها . ذلكم هو الرجل الذى هرعت اليه وأنا أعرف من هو ، وأوجس جميع التفاصيل . لماذا هرعت اليه ؟ تخيلوا أننى ، الآن ، فى هذه اللحظة ، وأنا أكتب هذه الأسطر ، يبدو لى أننى منذ ذلك الحين ، كنت أعرف ، بأدق التفاصيل ، لماذا سعيت اليه مسرعاً ، رغم اننى فى واقع الأمر لم أكن أعرف شيئاً كما سبق أن ذكرت ذلك . قد يفهم القارىء عنى هذا الكلام . ولننتقل الى الوقائع ، ولنذكرها بعضها وراء بعض .

٢

بدأ كل شيء هكذا : قبـــل خـروجي الأول بيومين، دخلت ليزا مضطربةً أشد الاضطراب • كانت منزعجةً انزعاجاً شديداً • لقد حدث لها في الواقع شيء لا يطاق •

سبق أن أشرت الى صلاتها بفاسين • لقد ذهبت اليه لا لتبيِّن لنا أنها في غير حاجة الينا فحسب ، بل لأنها كانت تقدره فعلاً • كانا قد تعارفا بمدينـة لوجا • وقد لاح لي دائمـا أن فاسين ليس غير مكترث بها وكان طبيعياً ، وهي فيما هي فيه من شـقاء ، أن ترغب في طلب النصـح من انسان يملك عقلاً راجحـاً ، ويتمتع بالهدوء ، ويتسم بسمو النفس ، وهذا كله كانت تفترضـه في فاسين • ثم ان النساء لا يملكن بصيرة نافذة في تقدير شخص يحجبهن • حتى لقد يرين في المفارقات الغريبـة آراء سديدة ، متى جاءت تلك المفارقة مطابقة لرغباتهن • ولقد كانت ليزا تحب في فاسين اهتمامه بحالتها الراهنة وعطفه على الأمير ، كما بدا لها ذلك منذ المرات الأولى • واذ كانت من جهـة أخـرى تحس بما يحمله لها من عواطف ، فقـد كان يستحيل عليهـا ألا تحترم فيـه تقديره لمنافســه والأمير ، حين باحت له هي نفسها بأنهـا تستشـير فاسين أحيـاناً ، أحس بقلق شديد ، وشعر بغيرة قوية عليها • فجـــرح هذا شـعور ليزا . وأصبحتْ تواصل زيارة فاسين متعمدةً منذ ذلك الحين • فسكت الأمير ، ولكنه صمت على مضض وظل مكفهر الوجه • وقد اعترفت لي ليزا فيما بعد (بعد مدة طويلة جداً) أن فاسين سرعان ما أصبح لا يعجبها • لقد كان

هادئا ، وهذا الهـدوء المستمر المطـرد الذى أعجبها كثيراً فى البداية قد أصبح يغيظها بعد ذلك • صحيح أن فاسين كان رجلاً عملياً ، وأنه أسدى اليها فعلا بعدد من النصائح التى يوهم ظاهرها بأنها نصائح رائعة ، ولكن هذه النصائح جميعها قد تبيّن بما يشـبه المصـادفة أنها لا يمكن تنفيذها • وكان في بعض الأحيان ينظر الى الأمور نظرة مسرفة في التعالى ، وأخذ خجله أمام ليزا يقل شـيئاً بعد شىء • وقد عزت هى ذلك الى أن اهتمامه بحالها أخذ يتضاءل مزيداً من التضـاؤل على غير شـعور منه • وفى ذات مرة شكرت له أنه لا يزال يلقـانى ويحدثنى حديث الند للند رغم تفوقه علىّ فى الفكر (وهى بذلك قد أبلغته كلماتى نفسـها) ، فما كان منـه الا أن أجابها بقوله :

ـ ليس الأمر ما تظنين ، بل هو أبسط من ذلك كثيراً • فأنا لا أرى أىّ فرق بينه وبين سائر الناس • ولا أعده أغبى من الأذكيـاء ولا أسوأ من الأخيار • لذلك أعامل الناس كلهم معاملة واحدة ، لأنهم فى نظرى متماثلون لايختلف بعضهم عن بعض •

ـ كيف ؟ لا ترى بين الناس فروقاً ؟

ـ بلى • ان الناس يختلف أحـدهم عن الآخـر فى هذه النقطة أو تلك ، ولكن هذه الاختلافات لا وجود لها فى نظرى لأنها لا تتعلق بى ولا شأن لى بها • هم عندى متسـاوون جميعاً • والأمور كلها تستوى عندى • وذلك هو السبب فى أننى أعامل الناس كافةً معاملة حسنة •

ـ ولا تضجر من هذا ؟

ـ لا ، أنا راض عن نفسى دائماً •

ـ وليس لك رغبات ؟

ـ بلى ، ولكن رغبـاتى ليست كثيرة • لست فى حاجـة الى شىء ،

أو لا أكاد أكون في حاجة الى شيء ، لست في حاجة حتى الى روبل واحد زيادة على ما معي • يستوى عندى أن ألبس ذهباً وأن أبقى كما أنا • الملابس الذهبية لا تضيف الى فاسين شيئا • والطعام الفاخر لا يغريني • وهل المناصب والأمجاد تساوى قيمتي ؟

لقد حلفت لى ليزا بشرفها أنه قال لها هذا الكلام بنصه يوماً • والحق أننا قبل أن نقطع برأى ، يجب أن نعرف الظروف التى قيلت فيها هذه الكلمات •

ان تسامح فاسين تجاه الأمير (وهو تسامح اقتنعت ليزا أخيراً بأنه لا يرجع الى ما يحمله لها من عاطفة ، وانما يرجع الى قلة الاكتراث التى يتخذها فاسين عقيدة له ومذهباً) قد أخذ يفسد شيئاً فشيئاً حتى استحال الى نوع من سخرية فيها احتقار • وقد أحنق هذا ليزا ، ولكن فاسين أمعن فيه • وكان يعبر عن آرائه دائماً برقة ولطف ، بل كان يتهم ويدين بغير اظهار شيء من الاستياء أو الامتعاض ، وانما هو يستعمل البراهين المنطقية وحدها ليحكم بأن بطل ليزا رجل تافه لا قيمة له • وفى هذا المنطق انما كانت تثوى السخرية • وبرهن لها أخيراً على أن حبها للأمير « يجافى العقل » ، وأنها تُكره نفسها عليه اكراهاً وتقسرها عليه قسراً • وختم كلامه قائلاً : « لقد ضلت في عواطفك ، وعلى المرء حين يدرك ضلاله أن يتداركه بالاصلاح حتماً • » •

حدث هذا في ذلك اليوم • وقد استاءت ليزا، ونهضت لتنصرف ، فما الذى فعله واستنتجه هذا الانسان العاقل ؟ انبرى يعرض عليها الزواج بنبل ، وحتى بعاطفة ! فما كان من ليزا الا أن بادرت تصفه على الفور بأنه غبى أحمق ! قالت له ذلك وجهاً لوجه • وخرجت •

أن يعرض على امرأة أن تخون انساناً شقياً لأن هذا الانسان الشقى

« لا يستحقها » ، وأن يعرض هذا على امرأة حبلى من هذا الانسان الشقى ، ذلكم هو ذكاء هؤلاء الناس من أمثال فاسين ! اننى أسمى هذا انحباساً فى النظريات وجهلاً مطلقا بالحياة مردُّه الى زهو وغرور • وقد أدركت ليزا ، من جهة أخرى ، ادراكاً واضحاً كل الوضوح ، أن إعتزاز فاسين باقدامه على هذا العرض انما يرجع الى معرفته بأنها حامل • وسرعان ما ذهبت الى الأمير وقد فاض دمعها استياء واستنكاراً ، فاذا بالأمير يتفوق على فاسين سخافة • كان ينبغى له ، بعد الذى قصته عليه من أمر فاسين ، أن يقتنع بأن غيرته لا محل لها • ولكن نقيض هذا هو ما حدث • فقد طاش صوابه عندئذ تماماً • وكذلك شأن جميع الغيورين على كل حال ! لقد شاجرها شجاراً عنيفاً ، وصدّع رأسها تصديعا رهيباً ، وأثخن شعورها بالجراح وأهانها حتى أوشكت أن تقطع كل علاقة لها به على الفور •

ومع ذلك رجعت الى البيت كاظمةً غيظها مسيطرةً على نفسها ، ولكنها لم تستطع الا أن تبوح لأمها بما حدث • فذاب الجليد ، وعادت المرأتان الى سابق عهدهما ، فتعانقتا كما كانتا تتعانقان من قبل ، وبكت كل منهما فى ذراعى الأخرى على عادتهما ، وبدا أن ليزا قد هدأ روعها وان ظلت مكفهرة الوجه مظلمة النفس • وفى المساء بقيت جالسةً عند ماكار ايفانوفتش دون أن تنطق بكلمة ، ولكن دون أن تغادر الغرفة • وأصغت كثيراً الى ما كان يقوله ماكار ايفانوفتش •انها منذ وقع له حادث السقوط عن المقعد أصبحت تحترمه احتراماً كبيراً يمازجه شىء من خجل ، وان ظلت قليلة الكلام •

ولكن ماكار ايفانوفتش قد غير الحديث فى هذه المرة تغييراً غريباً لم يكن فى الحسبان • يجب أن أذكر أن فرسيلوف والطبيب كانا قد تحدثا فى الصباح عن صحته ، فكان يبدو على وجهيهما هم وقلق • ويجب أن

أذكر أيضاً أن البيت كان منذ عدة أيام يستعد للاحتفال بعيد ميلاد ماما الذى سيكون موعده بعد خمسة أيام تماماً ، وأن جميع أهل البيت كانوا يتكلمون عن هذا الاحتفال . ففى هذه المناسبة اندفع ماكار ايفانوفتش يستعيد ذكرياته فجأة ، وتذكر طفولة ماما ، أيام « كانت لا تحسن الوقوف على ساقيها بعد » . قال : « كنت لا أتركها أبداً . وكنت أعلمها المشى : أضعها فى ركن على بعد ثلاث خطوات منى ، ثم أناديها ، فتجتاز الغرفة مترنحة بلا خوف ، ضاحكة ، وتركض الىّ ، وترتمى بين ذراعى ، وتقبل عنقى . ثم كنت أقص عليك حكايات يا صوفيا آندريفنا ، اذ كنت تعشقين الحكايات عشقاً . كانت تبقى على ركبتىّ ساعتين تصغى الى . وكان جميع من بالكوخ يدهشون فيقولون : « انظروا ما أشد تعلقها بماكار » أو كنت أمضى بك الى الغابة يا صوفيا آندريفنا ، فأعثر على شجرة عليق ، فأجلسك هناك ، ثم أصنع لك صفارة من خشب . حتى اذا ارتوينا من النزهة ، عدنا الى البيت والطفل نائم على ذراعى . وفى ذات يوم ، خافت من الذئب ، فارتمت علىّ مرتجفة مرتعدة ، ولم يكن ثمة ذئب .

ـ قالت ماما :

ـ هذا أتذكره !

ـ تتذكرينه ؟ لا يمكن ...

ـ بل أتذكر أشياء كثيرة أيضاً .

وأضافت تقول بصوت متأثر وقد احمرت احمراراً شديداً :

ـ كلما أوغلت فى تذكر الماضى رأيتك ورأيت ما كنت تحمله لى من حب وحنان .

انتظر ماكار ايفانوفتش لحظةً ثم قال :

ـ وداعاً يا أولادى ، أنا راحل • الآن حان حينى • لقد وجدت في شيخوختى عزاء عن جميع آلامى • شكراً يا أصدقائى •

هتف فرسيلوف متأثراً بعض التأثر :

ـ دعك من هذا الكلام يا ماكار ايفانوفتش ، يا عزيزى • لقد قال لى الطبيب منذ قليل ان صحتك تحسنت تحسناً كبيراً •

وكانت أمى تصغى الى الحديث مرتاعة •

قال ماكار ايفانوفتش مبتسماً :

ـ وما يُدرى صاحبك الكسندر سيمينتش ؟ صحيح انه لطيف ، ولكن هذا كل شيء • أم تراكم تظنون يا أصدقائى أننى خائف أن أموت ؟ في هذا الصباح ، بعد أن تلوت صلاتى ، راود قلبى احساس بأننى لن أخرج من هنا حياً • أحد قال لى هذا • هيا ! تبارك اسم الرب ! ولكننى أتمنى لو أظل أراكم جميعاً • كان أيوب المعذب يتعزى عن آلامه برؤية أحفاده الجدد ، ولكن هل كان ينسى أولاده السابقين ، وهل كان يستطيع أن ينساهم • كلا • ذلك مستحيل ! على أن الحزن يمتزج بالفرح كلما مضت السنون ، ثم يستحيل الى زفرة سعيدة • هكذا تجرى الأمور في هذا العالم : كل نفس تُمتحن وتتعزى •

وأردف ماكار ايفانوفتش يقول وهو يبتسم ابتسامة عذبة جميلة لن أنساها ما حييت :

ـ قررت يا أولادى أن أقول لكم كلمة ، كلمة لا أكثر •••

ثم التفت نحوى فجأة وقال :

ـ أنت يا عزيزى ، اعمل للكنيسة بهمة وحماسة ، ومت في سبيلها اذا دعا الداعى •

ثم أضاف يقول ضاحكاً :

ـ ولكن انتظر . لا تخف ! أنا لا أقول هذا لتفعله الآن . انك اليوم لا تفكر في هـذا الأمر ، وقد تفكر فيـه في المستقبل . غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً : اذا أردت أن تفعل خيراً ، فافعله في سبيل الله ، ولا تفعله انقياداً لنزوة . كن رابط الجأش صـلب العود ، ولا تدع لنفسـك أن تسترسـل في أنواع من الجبن . ولـكن تمهل في عملك ، ولا تتسرع ولا تهرع واثباً . ذلك هو كل ما انت في حاجة اليه . شيء آخر : تعود أن تتلو صلاتك كل يوم حتماً . أقول لك هذا عرضا ولعلك تتذكره في يوم من الأيام .

ثم التفت الى فرسيلوف فقال له :

ـ لك أيضاً يا آندره بتروفتش ، يا عزيزي ، أريد أن أقول بضع كلمـات . ان الرب سيهدي قلبك دون أن أتكلم أنا على كل حـال . لقد كففنا عن الكلام في ذلك الأمر منذ مدة طويلة ، منذ أن نفذ ذلك السهم في قلبي . أما وأنني الآن راحـل فأحب أن أذكرك .. بالوعـد الذي قطعته لي على نفسك حينذاك .

نطق بهذه الكلمات همساً وهو خافض رأسه ، وأردف يقول :

فهتف فرسيلوف متأثراً وهو ينهض :

ـ ماكار ايفانوفتش ! .

ـ طيب طيب ، لا تضطرب يا عزيزي . ما هذه الا ذكرى ..

ان أكبرنا اثما أمام الله في هذه القضية هو أنا . كان ينبغي ألا أسمح بما حـدث رغم أنك كنت مـولاي . فلا تضطربي أنت أيضـاً يا صوفيا ،

لا تدعي لنفسك أن تسرف في الاضطراب ، لأن الاثم اثمي أنا ، ولأنني أعتقد أنك كنت في ذلك الأوان لا تعرفين ماذا تفعلين •

هنا ابتسم ماكار ايفانوفتش واختلجت شفتاه من ألم • ثم تابع كلامه فقال :

ـ كان يمكنني يا زوجتي أن ألقنك درساً في ذلك الحين ولو باستعمال العصا ، بل كان يجب عليّ أن أفعل • ولكنني أشفقت عليك حين ارتميت أمامي باكية ، واعترفت لي بكل شيء وأنت تقبّلين قدميّ • ليس فيما أقول لك الآن لوم أو مؤاخذة ، ولكنني أريد أن أذكر آندره بتروفتش ••• وانك يا عزيزي لتتذكر عهد الشرف الذي قطعته على نفسك • ان الزواج يستر كل شيء • أقول لك هذا أمام أولادي •••

كان ماكار ايفانوفتش منفعلاً الى أقصى حدود الانفعال ، وكان ينظر الى فرسيلوف منتظراً منه أن يقول كلمة تأكيد • أكرر أن هذا كله لم يكن في الحسبان ، فبقيت جالساً على كرسيي بلا حراك • وكان فرسيلوف لا يقل عنه انفعالاً بل يزيد عليه : وها هو ذا يدنو من ماما صامتاً فيقبلها • وها هي ذي ماما تتقدم من ماكار ايفانوفتش ، صامتةً كذلك ، فتحييه بانحناءة شديدة •

الخلاصة أن المشهد كان يبعث في النفس أشد التأثر • ولم يكن بالغرفة في هذه المرة غريب ، ولا تاتيانا بافلوفنا • وكانت ليزا منتصبة الجذع فوق كرسيها تصغي صامتة • فهاهي ذي تنهض فجأة ، وتقول لماكار ايفانوفتش بلهجة ثابتة قوية : باركني أنا أيضاً يا ماكار ايفانوفتش ، لأتحمل المحنة الكبيرة التي تنتظرني • غداً يتقرر مصيري كله • فادعُ اليوم لي •

قالت ليزا ذلك وخرجت • انني أعرف أن ماكار ايفانوفتش كان على

علم بأمر ليزا ، فقد أطلعته ماما عليه • ولكننى فى ذلك المســاء رايت فرسيلوف وماما أول مرةً معــاً • أما قبــل ذلك فلم أكن أرى الى جانبــه الا عبدة • ثمة أشياء كثيرة كنت لا أزال أجهلها ولم أكن قد لاحظتها لدى هذا الرجل الذى كنت قد أدنته • لذلك رجعت الى غرفتى مضطرباً • يجب أن أذكر أننى فى تلك اللحظة نفســها قد تكاثفت شكوكى فيه مزيداً من التكاثف • انه لم يبد لى فى يوم من الأيام أقرب الى السر واللغز مما يبدو لى الآن • ولكن هذا هو كل القصـــة التى أكتبها : ولسوف يأتى كل شىء فى حينه •

قلت محدثاً نفسى وأنا أرقد على سريرى : « لقد قطع لماكار ايفانوفتش على نفســه عهد الشرف ليتزوجنَّ أمى متى ترمَّلت • ولكنه لم يقل لى شيئاً عن هذا الأمر من قبل حين كلمنى عن ماكار ايفانوفتش » •

فى الغد غابت ليزا عن المنزل طول النهار ، فلمــا عادت كان الوقت متأخــراً ، فمضت الى غــرفة ماكار ايفانوفتش رأساً • وكنت لا أريد أن أدخــل حتى لا أضايقهما ، ولكننى لاحظت أن ماما وفرســيلوف كانا قد دخلا فدخلت • كانت ليزا جالسةً بجانب الشيخ تبكى على كتفه • وكان الشيخ يلاعب رأسها صامتاً حزين الوجه •

وقد شرح لى فرسيلوف (فى غرفتى بعد ذلك) أن الأمير يلح على أن يتزوج ليزا متى أمكن ذلك ، حتى قبل صدور قرار المحكمة ؛ وأن ليزا مترددة لمَّا تعزم أمرها بعد رغم أنها لم يبق لها حق فى التردد تقريباً • وكان ماكار ايفانوفتش « يأمرها » أيضاً بأن تتزوجه • وهذا كله كان ينبغى أن يتم من تلقاء نفســه فتوافق ليزا على الزواج من تلقــاء نفسها أخيراً ، بلا تردد ولا أوامر ، ولكنها الآن تشعر بأن الرجل الذى تحبه قد أهانها اهانة شديدة ، وأن حبها يذلها حتى فى نظر نفسها ، فكان يصعب عليها

أن تعزم أمرها • ولكن هنـاك شـيئاً غير الاهانة ، قد تدخل فى الموضوع وما كان ليخطر لى ببال •

أضاف فرسيلوف يسأل فجأة :

ـ هل جاءك نبأ شباب بطرسبورسكايا الذين اعتقلوا أمس ؟

فهتفت :

ـ ماذا ؟ درجاتشيف ؟

ـ نعم • وفاسين أيضاً •

ذُهلت ، ولا سيما من سماع اسم فاسين •

ـ هل له دخل في شيء ؟ ما عساهم يصنعون بهم ! رباه ! ويحدث هذا فى الوقت الذى تشتكى فيه ليزا من فاسين ! ما عسى يحدث لهم فى رأيك ؟ يميناً ان لستيبلكوف يداً فى الأمر !

قال فرسيلوف وهو يرشقنى بنظـرة خاصـة ، كما ينظر الى امرىء لا يفهم شيئاً ولا يحزر شيئاً :

ـ دعنـا من هذا الآن ! ما أدرانا بما وقع ، وما يدرينا بما سيُصنع بهـم ؟ ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله : لقد علمت أنك تريد أن تخرج غداً • فهل تذهب الى الأمير سرجى بتروفتش ؟

ـ سأذهب اليه قطعاً ، رغم أن هذه الزيارة تشق على نفسى وتؤلمنى ، أعترف بذلك • هل تريد أن أنقل اليه شيئاً على لسانك ؟

ـ لا ، لا شيء • سأراه بنفسى • اننى أرثى لحال ليزا • أية نصيحة يستطيع ماكار ايفانوفتش أن يسـديها اليها • انه هو نفســه لا يدرك شيئاً لا من أمور الناس ولا من أمور الحيـاة ! شيء آخـر يا عزيزى (كان منذ مدة طويلة قد انقطع عن مخاطبتى بقوله : « يا عزيزى ») • ان فى القضية

أيدى عدد من الشبان ... أحدهم رفيقك القديم لامبير . يخيل الى انهم جميعا أوغاد رهيبون .. أردت تنبيهك فحسب .. هذا شأنك وحدك . أنا أعلم أننى ليس من حقى أن ...

فرأيتنى أمسك يده فجأة دون أن أفكر ، مدفوعاً الى هذا بما يشبه الحماسة والالهام ، كما يحدث لى كثيرا (وقد حدث هذا كله فى ظلام كامل) ، ورأيتنى أقول له :

ـ آندره بتروفتش ، لقد صمت أنا حتى الآن ، وأنت تعرف لماذا صمت . صمت لأتحاشى أن أتدخل فى أسرارك التى قررت ألا أطلع عليها فى يوم من الأيام . اننى جبان . اننى أخشى أن تنتزعك هذه الأسرار من قلبى انتزاعاً تاماً ، وذلك ما لا أريده . أفلا ينبغى لك والحالة هذه أن تعاملنى بمثل ما أعاملك به ، فتتركنى وشأنى أمضى حيث أريد ! أليس هذا صحيحاً ؟

فقال لى وهو يتركنى :

ـ انك على حق . ولكن أرجوك : لا تزد على هذا كلمة واحدة !

وهكذا تكاشفنا عرضاً . كانت مكاشفة ضئيلة جداً ، ولكنها كافية لمضاعفة اضطرابى ازاء الخطوة الجديدة التى سأقوم بها غداً . لذلك قضيت الليل متأرقاً . ولكننى تخففت من بعض ما كان يجثم على صدرى .

٣

حين خرجت فى الغد من البيت ، كانت الساعة هى العاشرة • لكننى بذلت كل جهودى من أجل أن أنصرف خفيةً بدون وداع وبدون كلمة واحدة • تسللت تسللاً • لماذا ؟ لا أدرى • ولكن لو اتفق أن رأتنى أمي عند خروجي فحاولت أن تكلمنى ، لكان يمكن أن أغلظ لها القول • فلما صرت فى الشارع وتنسمت الهواء الطرى ، رأيتنى أهتز من احساس قوى جداً ، يكاد يكون حيوانياً ، وأستطيع أن أصفه بانه احساس « وحش ضار » • لماذا أذهب والى أين أذهب ؟ كان احساسى شيئاً لا يمكن تحديده ، ولكنه ضار شديد الضراوة • كنت خائفاً منه وفرحاً به فى آن واحد •

ـ أأتدنس اليوم أم لا أتدنس ؟

كذلك تساءلت بينى وبين نفسى ، على علمى بأن الخطوة التى سأخطوها هذا النهار ستكون ، متى تمت ، حاسمة فى حياتى كلها • ولكن لماذا الكلام بألغاز ؟

مضيت الى سجن الأمير رأساً • كنت قد حصلت منذ ثلاثة أيام على رسالة من تاتيانا بافلوفنا الى مدير السجن ، فاستقبلنى استقبالاً حسناً جداً • لا أدرى أهو رجل طيب أم لا ، ولكننى أظن أن هذا السؤال نافل لا داعى اليه • المهم أن المدير أذن لى بلقاء الأمير ، بل تلطف فأخلى لنا غرفته ليتم فيها اللقاء • كانت الغرفة كجميع الغرف ، غرفةً عادية

لموظف متوسط يسكن على نفقة الدولة • أظن أن من نافل القول أيضاً أن أصف الغرفة • وهكذا خلوت الى الأمير •

طلع الأمير بلباس لا هو عسكرى ولا هو مدنى ، بل هو بين بين ، لكن قميصه نظيف ، ورباط عنقه أنيق ، وقد غسل وجهه ومشط شعره ، ولكنه نحل نحولاً رهيباً ، واصفر اصفراراً شديداً ، وقد لاحظت هذا الاصفرار حتى فى عينيه • الخلاصة أنه بلغ من التغير أننى وقفت مشدوها مذهولاً • وهتفت أقول :

ـ لشدما تغيرت !

فقال مزدهياً بعض الشىء :

ـ لا قيمة لهذا ! اجلس يا عزيزى !

واشار لى الى كرسى ، وجلس قبالتى • وأردف يقول :

ـ لنناقش النقطة الأساسية : هأنت ذا ترى يا عزيزى ألكسى ماكاروفتش •••

فقاطعته مصححاً :

ـ آركادى !

ـ ماذا ؟ آ •• نعم • طيب طيب • لا قيمة لهذا • آ •• نعم ••

أدرك خطأه فى تلك اللحظة ، فأضاف يقول :

ـ معذرة يا عزيزى • ولننتقل الى النقطة الأساسية •••

كان يتعجل الوصول الى غايته تعجلاً شديداً • لكأن فكرة أساسية كانت تلبسه من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، فهو يريد أن يعبر عنها وأن يعرضها • وكان يتكلم بغزارة ، وبسرعة ، وكان يبذل فى الكلام

جهداً ويعانى منه عذاباً ، ويستعين عليه بالاشـارات والحركات . ولكننى لم أفهم منه فى أول الأمر أى شىء اطلاقاً .

وختم يقول :

ـ الخلاصة ... (كان قد استعمل هذه الكلمة عشر مرات فى أقل تقدير) .. الخلاصة : لئن ازعجتك يا آركادى ماكاروفتش فالححت على ليزا بالأمس الحاحاً شديداً أن تأتى بك ، فلأن الأمر مستعجل . ولكن لما كان القرار الذى يجب اتخاذه قراراً استثنائياً ونهائياً ، فان علينا ...

قاطعته قائلاً :

ـ اسـمح لى يا أمير . تقول انك طلبت أمس أن أجىء اليك ؟ ان ليزا لم تبلغنى شيئاً .

فهتف يقول وهو يقف عن الكلام فجأة ، ويدهش دهشة شديدة ، حتى ليكاد يرتاع ارتياعاً :

ـ كيف ؟

ـ لم تبلغنى شـيئاً البتة . لقد عادت الى البيت بالأمس مضطـربة اضطراباً يبلغ من الشدة أنها لم تقل لى كلمة واحدة .

انتفض الأمير .

ـ هل تقول الحقيقة يا آركادى ماكاروفتش ؟ اذن ...

ـ ولكن ماذا هنالك من أمر يبلغ هذا المبلغ من ... ؟ ما لى أراك قلقاً هذا القلق كله ، لابد أنها نسيت أن تبلغنى ، أو أن شيئاً ما قد ...

جلس الأمير ، ولكنه ظل كالأبله . لكأن هذا النبأ ، وهو أن ليزا لم تبلغنى رغبتـه ، قد سـحقه سـحقاً . ثم سرعان ما عاد يتكلم محركاً ذراعيه ، ولكن كلامه بقى مضطرباً فيستحيل على المرء أن يفهمه .

وقال فجأة :

ـ انتظر ! ...

ثم سكت رافعاً اصبعه فى الهواء . ثم استأنف كلامه مجمجماً ، فقال وهو يبتسم ابتسامة رجل مهووس :

ـ هذه .. هذه .. اذا لم يخطىء ظنى .. هذه مكائد ! .. معنى ذلك أن ..

قاطعته قائلاً :

ـ ليس لهذا كله أية قيمة ! ولست أفهم لماذا تقلق هذا القلق كله لأمر تافه . آه يا أمير ، منذ تلك الليلة ، هل تتذكر كيف ...

فصرخ يقول متضايقاً من مقاطعته :

ـ أية ليلة ؟ ماذا ؟

ـ عند تسرشتشيكوف ، حيث التقينا آخر مرة ، قبل رسالتك ... لقد كنت فى تلك الليلة أيضاً مضطرباً اضطراباً مخيفاً . ولكن شتان بين اضطرابك فى تلك الليلة واضطرابك الآن . اننى الآن أراك فأرتعد خوفاً ... أم تراك لا تتذكر ...

فأجاب بصوت رجل من أبناء المجتمع الراقى وكأنه تذكر كل شىء فجأة :

ـ آ .. نعم .. نعم .. ذلك المساء .. لقد سمعت أن .. كيف صحتك الآن ، كيف حالك بعد تلك القصص كلها يا آركادى ماكاروفتش؟ ... ولكن فلنرجع الى النقطة الأساسية . ذلك أننى ألاحق ثلاثة أهداف . ان أمامى ثلاثة أغراض ، فأريد ...

وعاد يتكلم عن « نقطته الأساسية » ، فأدركت أخيراً أننى أمام رجل

يجب أن توضع على رأسه خرقة مبلولة بالخل فوراً، أو يجب اسعافه بالقصد حالا . كان حديثه المشوش يدور فى أغلب الظن على الدعوى وما قد تنتهى اليه ، وعلى قيام الكتيبة بزيارته بنفسه ومحاولته ثنى عزمه عن خطوة يريد ان يخطوها ولكنه لم يصغ اليه ، وعلى رسالة بعث بها الى جهة ما ، وعلى وكيل نيابة ، وعلى انه سينفى حتما الى مكان بشمال روسيا مجرداً من حقوقه ، وعلى أن من الممكن أن يستوطن طشقند مسترداً رتبته ، وعلى الدروس التى سيلقنها لابنه (ابنه الذى ستلده له ليزا) ، وما سيسلمه اياه هناك « فى الفلاة ، فى أرخارنجل ، وفى خولموجورى » . لئن أردت أن أعرف رأيك يا آركادى ايفانوفتش ، ثق كل الثقة أننى أقدر عاطفتك قدراً كبيراً ... ليتك تعلم يا آركادى ايفانوفتش ، يا عزيزى ، يا أخى العزيز ، ليتك تعلم ما ليزا عندى ، ماذا كانت ليزا لى هنا طول هذا الوقت ! » كذلك صاح فجأة وهو يمسك رأسه بيديه .

ـ سرجى بتروفتش ، هل يُعقل أن تريد لها الموت باصطحابها الى خولموجورى !

أفلتت هذه الجملة من لسانى برغم ارادتى . لقد تراءى لى ارتباط مصير ليزا بهذا المهووس مدى الحياة واضحاً كل الوضوح أول مرة ، فجزعت . فنظر الىّ ، ونهض مرةً أخرى ، ومشى خطوة ، وأدار ظهره ، ثم عاد يجلس وهو لا يزال ممسكاً رأسه بيديه .

قال فجأة :

ـ اننى أحلم دائماً بعناكب .

ـ أنت فى اضطراب رهيب يا أمير . أنصحك بأن ترقد فى سريرك وأن تستدعى الطبيب فوراً .

ـ لا ، اسمح لي ، فيما بعد . وانما استدعيتك خاصة لأشرح لك .. مسألة الزواج . ان الزواج ، كما تعلم ، سيتم هنا ، سبق أن قلت هذا . لقد أعطيت الاذن بالزواج ، حتى انني أشجع عليه . أما ليزا ...

صحت أقول :

ـ ارحم ليزا يا أمير ، يا عزيزي : لا تعذبها بغيرتك ، الآن على الأقل !

فهتف قائلاً وهو يصوب الي عينين محملقتين ، ويبتسم ابتسامة متشنجة فيها استفهام أبله :

ـ كيف ؟

كان واضحاً أن كلمة « الغيرة » قد فجأته فجأ شديداً .

ـ معذرة يا أمير ، قلت هذا الكلام برغم ارادتي . اسمع : لقد تعرفت في الآونة الأخيرة الى شيخ عجوز ... هو أبي الشرعي ... لو رأيته لأصبحت أكثر هدوءاً وسكينة . ان ليزا أيضا تقدره قدراً كبيراً .

ـ آ .. نعم .. ليزا .. آ .. نعم .. هو أبوك ؟ نعم .. معذرة يا عزيزي . هناك شيء .. أتذكر الآن .. حدثتني ليزا عن هذا . شيخ طيب .. أنا متأكد ، أنا أيضاً عرفت شيخاً طيباً . ولكن دعنا من هذا الآن . ان الأمر الأساسي هو أن نوضح جوهر المسألة ، يجب ...

قمت لأنصرف . كان يؤلمني منظره . فلما رآني أهم أن أنصرف ، قال بقسوة ووقار :

ـ لست أفهم !

فقلت :

ـ يؤلمني أن أراك على هذه الحال .

ـ كلمة أخرى يا آركادى ماكاروفتش ، كلمة أخرى .

وأمسك كتفىَّ بحركة مختلفة كل الاختلاف ، وقد تبدلت هيئته كل التبدل ، وأجلسني على المقعد ، وأردف يقول وهو يميل علىَّ :

ـ هل جاءك نبأ أولئك الناس ؟ أقصد ...

ـ نعم ، درجاتشيف .

ولم أستطع أن أسيطر على نفسى فأضفت أقول صائحاً :

ـ لابد أن ستيبلكوف هو الواشى !

ـ نعم ، ستيبلكوف ... ألا تعلم ؟

وتوقف عن الكلام ، وحدَّق الىَّ مرة أخرى بعينين محملقتين وابتسامة متشنجة عريضة فيها استفهام أبله ، وما تنفك تزداد عرضاً . وأخذ وجهه يشحب شيئاً فشيئاً . فاذا برعدة تسرى فى جسمى على حين فجأة ، اذ تذكرت نظرة فرسيلوف حين أنبأنى أمس باعتقال فاسين . وهتفت أقول مذعوراً :

ـ هل يُعقل هذا ؟

ـ اسمع يا آركادى ماكاروفتش ، أنا انما استدعيتك لأشرح لك ..

وأضاف هامساً بصوت خافت :

ـ أردت أن ...

فصحت أقاطعه قائلاً :

ـ أنت الواشى بفاسين !

ـ لا ، وانما كان هناك مخطوطة ؛ وقد سلم فاسين المخطوطة الى

ليزا قبل اليوم الأخير ••• لتحفظها • وتركتهـا لى ليزا هنـا لأتصفحها ، وبعد ذلك حدث أن تخاصما فى اليوم التالى •••

ـ فأرسلت أنت المخطوطة الى السلطات ؟ •••

ـ آركادى ماكاروفتش ! آركادى ماكاروفتش !

صحت أقول واثباً من مكانى مقطعاً كلماتى :

ـ هكذا اذن ، بدون أى دافع آخـر ، وبدون أى هدف آخـر عدا الغيرة • لأن فاسين المسكين غريمك ، سلّمت الى السلطان المخطوطة التى عُهد بها الى ليزا ! الى من سلّمتها ؟ الى من ؟ الى وكيل النيابة ؟

ولكن لم يتسع الوقت لأن يجيب عن أسئلتى • وبمـاذا كان يمكنه أن يجيب ؟ لقد تسمر أمامى كتمثال وهو لا يزال يبتسـم تلك الابتسـامة المرضية ، ويحملق تلك الحملقة الجامدة • وانه لكذلك اذا بالباب ينفتح فتدخـل ليزا • فلما رأتنا معاً كادت تسقط مغشياً عليها • وصرخت تقول وقد انقلب وجهها فجأة وأمسكت يدىّ :

ـ أنت هنا ؟ اذن ••• « علمت » ؟

لقد قرأت فى وجهى أننى « علمت » • وقبلتها بسرعة ، قبل أن تستطيع الاعتـراض ، قبّلتهـا بقـوة ، بقـوة • لقد أدركتُ فى تلك اللحظة ، أول مرة ، ادراكاً كاملاً ، مدى الحزن القاتم الذى لا مخرج منه ولا حدود له ، مدى العذاب الرهيب الذى سيجثم الى الأبد على حياة هذه الانسانة ••• الباحثة عن الآلام !

قالت وهى تنتزع نفسها منى فجأة :

ـ ولكن هل يجوز للمرء أن يـكلمه الآن ؟ هـل يجوز للمرء أن يبقى معـه ؟ لماذا جئت الى هنـا ؟ انظر اليه ، انظر اليه ، هل يمـكن أن يدان ؟

كان وجهها يفيض ألما وشفقة لا حدود لهما ، حين أشارت لى بيدها الى الرجل المسكين وهى تهتف ذلك الهتاف • كان جالسا على المقعد دافنا وجهه فى يديه • انها على حق : لقد كان يعانى من حمى حارة ، فهو غير مسئول عن أعماله • ولعله كان غير مسئول عن أعماله منـذ ثلاثة أيام • وقد أودع المستشفى فى ذلك الصباح نفسه ، ولم يحل المساء حتى تكشفت اصابته فى الدماغ •

٤

تركت الأمير مع ليزا فى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، ومضيت من هناك الى مسكنى القديم . نسيت أن أذكر أن الجو كان رطباً ، معتماً ، وأن الجليد كان قد بدأ يذوب ، وأن ريحاً فاترة كانت تهب فتثير حتى أعصاب فيل . استقبلنى المؤجر فرحاً ، وأخذ يسعى ويتحرك حولى كثيراً ، وهذا شىء أكرهه وأمقته فى مثل هذه الأحوال . ولقد أظهرت له شيئاً من الجفوة ، واتجهت الى غرفتى رأساً ، ولكنه تبعنى : كان لا يجرؤ أن يسألنى عن شىء ، ولكن حب الاطلاع كان يلتمع فى عينيه ، وكانت هيئته هيئة انسان من حقه أن يستطلع . كان ينبغى لى أن ألاطفه ، فى سبيل مصلحتى . ولكننى رغم حاجتى القصوى الى معرفة شىء ما (وكنت أعلم أننى لو لاطفته لعرفت شيئاً ما) ، كرهت أن استرسل فى سؤال وجواب . واكتفيت بأن سألته عن صحة زوجته ، ثم ذهبنا اليها . فاستقبلتنى بلطف ومودة ، ولكنها حافظت على رصانتها وكانت قليلة الكلام . فهدأنى هذا قليلاً . على أننى علمت فى النهاية أموراً تثير أكبر الدهشة .

كان لامير قد جاء طبعاً ، ثم جاء مرتين أخريين ، « وطاف بجميع الغرف » قائلاً انه قد يستأجر غرفة . وجاءت داريا أونيسيموفنا عدة مرات . فكان أهل البيت يتساءلون : « لماذا تجىء ؟ » . وقد أضاف المؤجر قوله : « كانت شديدة حب الاطلاع أيضاً » . غير أننى لم أسره فأسأله عن حب الاطلاع عندها ماذا كان ! وكنت على وجه العموم لا ألقى على

الرجل سؤالاً ، وانما كان يتكلم وحده ، وكنت أتظاهر بأنني أنبش في حقيبتي (التي لم يكن قد بقي منها شيء تقريباً) . ولكن الشيء المزعج أنه قد ارتأى هو أيضاً أن يعمد الى السر والتعمية ، وأنه حين لاحظ امتناعي عن سؤاله اعتقد أن من واجبه هو أيضاً أن يقتضب كثيراً ، حتى ليكاد كلامه أن يصبح ألغازاً .

أضاف يقول وهو يلقي عليّ نظرة غريبة :

ـ جاءت آنسة أيضاً .

ـ أية آنسة ؟

ـ آنا آندريفنا . جاءت مرتين . وتعرفت بزوجتي . انسانة لطيفة ، بشوشة . ان معرفة آنسة مثلها شيء ثمين يا آركادي ماكاروفتش ..

قال هذه الكلمة وهو يتقدم مني خطوة : كان يرغب رغبة قوية في أن يُفهمني شيئاً !

قلت مدهوشاً :

ـ مرتين ؟ غير معقول ...

ـ وكانت في المرة الثانية مع أخيها .

قلت في نفسي : « انه لامبير » .

ـ لا ، ليس هو لامبير ، بل هو أخوها .. شاب اسمه فرسيلوف . أظن أنه يعمل في البلاط .

لقد حزر الرجل ما تصورته ، كأن عينيه قد نفذتا الى قرارة نفسي .

اضطربت اضطراباً شديداً . وكان ينظر اليّ وهو يبتسم ابتسامة تودد كريه . ثم أضاف :

ـ آ .. نعم .. وجاءت آنسة أخرى تسأل عنك ، الآنسة الفرنسية ،

مدموازيل آلفونسين دو فردان • آه •• ما أحسن غناءها ! ما أجمل انشادها الشعر ! ولقد ذهبت خفية الى تسارسكويا لترى الأمير نيقولا ايفانوفتش ، فتبيعه كلباً صغيراً نادراً ، حالك السواد ، لا يزيد حجمه على حجم قبضة الكف •••

رجوته أن يتركني وحيداً بحجة أنني أعاني من صداع • فأطاعني فوراً ، قبل أن ينهي جملته ، وبدون غضب ، بل بابتهاج ، محركاً يده باشارة غريبة كأنها تقول : « أفهم ، أفهم ! » • وخرج على رءوس الأصابع من غير أن ينطق بكلمة واحدة ، متيحاً لنفسه هذه المسرة • ان على سطح هذه الأرض أناساً يثيرون الأعصاب فعلاً !

بقيت وحدي أفكر ، ساعة ونصف ساعة • بل قل انني لم أفكر ، وانما أخذت أحلم • كنت مضطرباً ، ولكنني لم أكن مدهوشاً • حتى لقد كنت أتوقع المزيد ، وأنتظر عجائب أكبر • قلت أحدث نفسي : « لابد أنهم عملوا أشياء كثيرة منذ الآن ! » • كنت مقتنعاً كل الاقتناع ، منذ مدة ، منذ كنت في البيت ، أن آلتهم قد تحركت وأنها تعمل بسرعة • وقلت لنفسي أيضاً ، وأنا أشعر بنوع من الرضى العصبي اللذيذ : «لا ينقصهم الآن الا أنا ، انهم ينتظرونني على أحر من الجمر ، انهم يريدون أن يدبروا أمراً في مسكني ، هذا واضح وضوح النهار ، أيكون الأمر الذي يدبرونه هو زواج الأمير العجوز ؟ انهم ينصبون له فخاً ، ولكن هل أسمح أنا بهذا ياسادة ؟ ذلكم هو السؤال » • كذلك ختمت حديثي الى نفسي مزدهياً •

« اذا دخلت في هذا الأمر ، فسرعان ما سيجرفني الاعصار كما يجرف قشة • أأنا حر في هذه اللحظة أم لم أبق حراً ؟ ألا أزال أستطيع حين أعود الى ماما في هذا المساء أن أقول لنفسي كما أقول في كل يوم : « أنا ما أنا » ؟ »•

ذلكم هو جوهر أسئلتى أو قولوا جوهر خفقات قلبى أثناء تلك المدة التى دامت ساعةً ونصف ساعة ، والتى قضيتها فى ركن على السرير ، واضعاً كوعىَّ على ركبتى ، جاعلاً رأسى فى يدىَّ ؟ ولقد كنت أعلم منذ ذلك الحين أن هذه الأسئلة كلهـا ليست الا ترهات ، فانما كانت « هى » التى تجذبنى وتجرنى ، « هى » ، « هى » وحدها ! أخيراً أقول هذا واضحاً قاطعاً ، وأسجله على الورق بأحرف بارزة ! اننى حتى فى هذا اليوم ، وأنا أكتب بعد انقضـاء سنة ، لا أزال أجهـل الاسم الذى يجب أن أسمى به العاطفة التى كانت تختلج فى نفسى آنذاك !

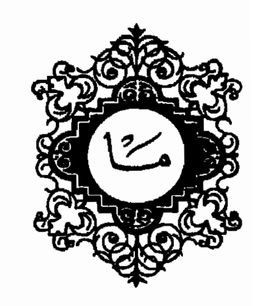
صحيح أننى كنت أشعر بشفقة على ليزا ، وكنت أعانى ألماً صادقاً ! وكان يمكن لهذا الألم وحده أن يطامن أو أن يمحو من نفسى ، ولو الى حين قصـير ، ما كان يجيش فيها من شعور وحشى ضار (هأنا أستعمل هذا التعبير مرة أخـرى) • ولكن كان يجرفنى استطلاع رهيب وخوف غامض ، وكانت تجـرفنى عاطفـة أخـرى لا أعـرف ما هى ، ولكننى كنت منذ ذلك الحين أعرف أنها ليست عاطفة طيبة ، بل هى عاطفـة فاسدة • لعلنى كنت أصبو الى أن أترامى عند قدميها ، ولعلنى كنت أريد كذلك أن أغرقها فى جميع أنواع العـذاب وأن أبرهن لهـا على شىء ما « بسرعة » • فلم يكن لأى ألم أو أى عطف على ليزا أن يوقف اندفاعى • هيا ، هل أستطيع أن أنهض فأعـود الى البيت ••• وأجلس الى ماكار ايفانوفتش ؟

« ولكن هل يستحيـل علىَّ حقاً أن أذهب اليهـم ، فأعرف منهـم كل ما 'يدبرَّ ، ثم أتركهـم فجـأةً الى الأبد ، فأكون قد مررت بالعجائب والشياطين سليماً لم يمسسنى سوء ؟ » •

فى الساعة الثالثة ، اذ ثبت الى نفسى ورأيت أننى كدت أتأخر ، خرجت مسرعاً ، فركبت عربة وطرت الى آنا آندريفنا •

الفصل الخامس

١



ان أبلغوا آنا آندريفنا وصولى حتى تركت شغلها وأسرعت تستقبلنى فى الغرفة الأولى ، وتلك حفاوة لم ألق مثلها من قبل . وقد مدت الىّ يديها كلتيهما ، واحمر وجهها بسرعة . وقادتنى الى حجرتها صامتة ، وعادت تتناول شغلها ، وأجلستنى بجانبها . لكنها كفت عن التطريز ، وظلت تتفرس فىّ باهتمام حار دون أن تقول شيئاً .

قلت فجأة وقد تضايقت قليلاً من هذا الاهتمام المتصنع رغم أنه طاب لى كثيراً :

ـ أرسلت الىّ داريا أونيسيموفنا ؟ ...

فسرعان ما شرعت فى الكلام دون أن تجيب عن سؤالى ، فقالت :

ـ لقد قصوا علىّ ما وقع لك ، فعرفت كل شىء . يالها من ليلة رهيبة ! ... ما أشد العذاب الذى لابد أنك عانيته ! هل صحيح ، هل صحيح أنهم وجدوك فى غيبوبة ، وكنت توشك أن تتجمد ؟

فجمجمت أقول وقد احمر وجهى :

ـ هل ... لامبير ... ؟

ـ حكى لى كل شىء فى ذلك الوقت . ولكننى كنت أنتظرك . لقد جاءنى مرتاعاً . عندك ... فى البيت الذى كنت راقداً فيه على سرير

المرض ، رفضوا أن يراك ، وقد استقبلوه استقبالاً سخيفاً ... لا أدرى في الواقع كيف وقع لك ما وقع ، ولكنه حدثنى كثيراً عن تلك الليلة ، وقال لى انك حين فتحت عينيك قد ذكرت اسمى ، فأثرّ هذا فى قلبى تأثيراً قوياً ، لقد ترقرقت الدموع فى عينىّ من شدة التأثر يا آركادى ماكاروفتش ، وانى لا أدرى حقاً ماذا فعلتُ حتى استحق منك هذه العاطفة كلها ، ولاسيما فى حالة كالحالة التى كنت فيها ، قل لى : هل مسيو لامبير رفيق طفولتك ؟

ـ نعم ، ولكننى أعترف بأننى ... فى ذلك الحادث ... كنت متهوراً فلعلنى قلت له أكثر مما كان ينبغى أن أقول .

ـ ولكننى كنت سأعرف تلك المكيدة السوداء الرهيبة دون أن يروى هو لى شيئاً ! لقد كنت أحس دائماً ، دائماً ، أنهم سيوصلونك الى هذا ! قل لى : هل صحيح أن بيورنج تجرأ أن يرفع يده عليك ؟

انها تتكلم كلام من يعتقد أننى لم يُعثر علىّ عند الجدار الا بسبب بيورنج وبسببها « هى » ، وقد قلت لنفسى : « الواقع أنها على حق » ، ولكننى انفجرت أقول مع ذلك :

ـ لو رفع علىّ يده لما تركته بغير عقاب ، ولما وجدتنى الآن أمامك قبل أن أثأر لنفسى .

لقد أحسست أنها تريد أن تغيظنى ، وأن تثير حنقى على شخص ما (أعرف من هو) ، ومع ذلك رأيتنى أنقاد لاستثارتها ، فقلت :

ـ تقولين انك كنت قد أدركت أننى بسببها سأصل الى ماوصلت اليه. فأحب أن أذكر لك أن ما وقع بينى وبين كاترين نيقولايفنا ليس الا سوء تفاهم ، وان يكن صحيحاً أنها سرعان ما تغيرت عواطفها نحوى فى أعقاب سوء التفاهم ...

ـ تماماً • سرعان ما تغيرت عواطفها !

كذلك قالت آنا آندريفنا متعاطفة • ثم تابعت :

ـ آه ••• ليتك تعرف المكيدة التي تُدبَّر الآن ! لاشك أن حالتك لا تساعدك في هذا الوقت على أن تدرك حراجة وضعي كل الادراك •••

قالت ذلك وقد احمر وجهها وغضَّت طرفها • واستطردت تقول :

ـ انني في ذلك الصباح نفسه الذي التقينا فيه آخر مرة ، قد خطوت خطوة لا يستطيع جميع الناس أن يفهموها وأن يقدروها كما يمكن أن يفهمها وأن يقدرها رجل له ذكاؤك السليم وقلبك المحب الغض الذي لم يفسد • ثق يا صديقي انني أحسن تقدير عاطفتك ، وأعرف كيف أكافئك عليها بالشكر والامتنان الى الأبد • لاشك أن الناس في المجتمع الراقي سيرمونني بحجر ، بل لقد رموني بالحجر فعلاً • ولكن هبهم على حق من وجهة نظرهم الرهيبة ، فمن ذا الذي يستطيع ، من ذا الذي يجرؤ منهم أن يدينني ؟ لقد هجرني أبي منذ طفولتي • اننا ، آل فرسيلوف ، الأسرة العريقة النبيلة ، أناس مغامرون ، وأنا الآن آكل خبز الآخرين فضلاً منهم واحساناً • أفليس طبيعياً اذن أن أتجه الى ذلك الذي كان لي منذ طفولتي بمنزلة الأب ، وأغرقني بحسناته سنين طويلة ؟ الله وحده يرى ما أحمل لهذا الرجل من عواطف ، والله وحده يحق له أن يحكم على الخطوة التي خطوتها • انني لا أقبل حكم البشر على هذه الخطوة • وعدا ذلك ، حين تحاك أدنأ وأحقر مكيدة ، حين يوشك أن يقع أب شهم كريم ضحيةً لمؤامرة تدبرها له ابنته ، فهل يستطيع المرء أن يحتمل هذا ؟ لا ، اني لأوثر أن أضيع سمعتي على ألا أنقذه • اني مستعدة أن أكون له خادماً وحارساً وممرضة ، ولكنني لن أدع لحساب دنيء وضيع كريه أن ينتصر !

كانت تتكلم بحرارة شديدة ، قد يكون نصفها مفتعلاً ، ولكنها حرارة صادقة رغم كل شيء ، فليس يخفى أن اهتمامها بهذه القضية اهتمام شديد • ولقد احسست بأنها كانت تكذب (تكذب كذباً صادقاً ، فالمرء يمكن ان يكذب كذباً صادقا) ، وأحسست بأن كل ما فيها زيف وزور • ولكن ما أغرب ما يحدث للمرء مع النساء : ان هذه النبرة الراقية ، وهذه الأنفة الشماء ، وهذه العفة الفخور ، ان هذا كله كان يذهلني عن نفسي ويحيرني في أمري ، فاذا أنا أوافقها على جميع النقاط ، ما بقيت معها • لا شك أن الرجل تستعبد المرأة روحه ، ولا سيما اذا كان رجلاً شهماً ذا أريحية ! ان امرأة كهذه المرأة تستطيع أن تنتصر على أي رجل كريم • قلت أحدث نفسي وأنا أنظر اليها مرتبكاً متحيراً : « هي و لامبير ! رباه ! »• على أنني سأقول كل شيء : انني لا أزال حتى هذا اليوم عاجزاً عن أن أقطع فيها برأي • ان الله وحده قادر على أن يرى عواطفها ، ثم ان الانسان جهاز يبلغ من التعقيد أن المرء لا يستطيع أن يفهم من أمره شيئاً ، ولاسيما اذا كان هذا الانسان امرأة •

سألتها بلهجة جازمة :

ـ فماذا تنتظرين مني يا آنا آندريفنا ؟

ـ ما تعني بهذا السؤال يا آركادي ماكاروفتش ؟

قلت مرتبكاً :

ـ يبدو لي •• مما سمعته •• ومن اعتبارات أخرى أيضاً ، أنك انما أرسلت تستدعينني لأنك تنتظرين مني شيئاً • فما الذي تنتظرينه مني على وجه التحديد ؟

ولكنها لم تجب عن سؤالي ، وانما سارعت تستأنف كلامها ، بمثل تلك السرعة وبمثل تلك الحرارة :

ـ ولكنني لا أستطيع ، انني أشد اباءً وكبرياءً من أن أدخل في ايضاحات ومساومات مع أناس لا أعرفهم مثل مسيو لامبير • فأنت من كنت أنتظر ، لا مسيو لامبير • ان وضعي حرج رهيب ، يا آركادي ماكاروفتش! فأنا مضطرة الى الحيلة والمكر ، لأنني محاطة بمؤامرات تحوكها لي هذه المرأة • وهذا لايطاق • انني أتدنى الى مستوى المكيدة ، فكنت انتظرك كما ينتظر منقذ مخلّص • ما ينبغي أن أتهم لأنني أنظر فيما حولي بشراهة عسى أن اكتشف صديقاً واحداً على الأقل ، وهذا هو السبب في أنني لم أستطع الا أن أفرح حين وقعت على هذا الصديق ؟ ان الذي أمكنه ، حتى في تلك الليلة ، وهو يكاد يكون متجمداً من البرد ، أن يتذكرني وألا يردد الا اسمي لهو صديق مخلص حتماً • ذلك ما قلته لنفسي ، وهذا هو السبب في أنني كنت أعوّل عليك •

كانت تنظر في عينيّ نافدة الصبر شوقاً الى سماع جوابي • ومرةً أخرى أعوزتني الشجاعة اللازمة لأبدد أوهامها ولاذكر لها بصراحة أن لامبير خدعها وأنني لم أزعم له أبداً أن صداقتي لها تبلغ هذا المبلغ كله من القوة ، وانني لم أردد اسمها وحدها • فكان صمتي بمثابة تأكيد لكذب لامبير • وأنا أعلم أنها كانت هي نفسها تدرك حق الادراك أن لامبير قد بالغ وغالى ، بل لعله كذب عليها أيضاً ، لا لشيء الا أن يجد عذراً كريما لمجيئه اليها وعقد صلة بينه وبينها • ولئن كانت تنظر في عينيّ نظرة الموقن بصدق أقوالي وقوة صداقتي ، فانما مرد ذلك طبعاً الى أنها كانت تعلم أنني لن أجرؤ على التكذيب ، بحكم ذوقي وأدبي ، وبحكم سني أيضا • على أنني أتساءل : هل هذا الافتراض صحيح أم هو غير صحيح ، فلا أجد لهذا السؤال جواباً • ولعلني أمرؤ فاسد فساداً رهيباً •

وانبرت تقول فجأة بحرارة شديدة حين رأت انني لا أجيب :

ـ ان أخي سيدافع عني •

تمتمت أقول مضطرباً :

ـ قيل لى انك جئت تزورينني معه •

ـ ذلك أن هذا المسكين ، الأمير نيقولا ايفانوفتش لم يكد يبقى له ملجا يعصمه من هذه المؤامرة أو قل يحميه من ابنته الا مسكنك ، اعنى الا مسكن صديق • ألا يحق له فعلاً أن يعدك صديقا ، أنت على الأقل ؟ فان كنت تستطيع أن تصنع له شيئا فاصنعه ، اصنعه اذا استطعت ، اذا كان لك قلب كبير زاخر بالجرأة والشجاعة ، واذا كنت « قادرا على أن تصنع شيئا بالفعل » • اننى لا أسألك هذا من أجلى • لا • لا أسألك هذا من أجلى ، بل من أجل شيخ تعيس أحبك وحده حبا صادقا ، وتعلق بك تعلقه بابنه ، ولا يزال يضجره بعدك عنه الى الآن • من أجلى أنا لا أنتظر شيئا ، لا أنتظر شيئا حتى منك ، بعد أن رأيت أن أبى نفسه قد دبر لى مكيدة دنيئة !

قلت :

ـ يخيل الى أن آندره بتروفتش •••

فقاطعتنى قائلة وهى تبتسم مرة :

ـ ان آندره بتروفتش قد أجاب عن سؤالى الصريح بأن حلف لى بشرفه أنه لم يضمر لكاترين نيقولايفنا شيئاً فى يوم من الأيام ، ولا طمع فى شىء منها أبداً ، فصدقته أنا كل التصديق فخطوت خطوتى • ثم اتضح أنه لم يحافظ على هدوئه الا الى الوقت الذى جاءه فيه ذلك النبأ عن رجل اسمه بيورنيج •

هتفت أقول :

ـ ليس هذا هو الأمر • أنا أيضاً ظننت فى لحظة من اللحظات أنه يحب تلك المرأة • ولكن ليس هذا هو الأمر ••• وحتى لو صدق أن

هذا هو الأمـر ، فان في امكانه الآن أن يبقى هادئاً وألا يحـرك سـاكنا بعد أن انسحب ذلك السيد .

ــ أي سيد ؟

ــ بيورنيج .

فقالت وهي تضحك ضحكة ساخرة :

ــ من قال لك انه انسحب ؟ لعـل هذا السـيد لم يكن في يوم من الأيام قوياً كقوته الآن .

وبدا لي الآن أنها كانت تحدجني أنا أيضا بنظرة ساخرة .

تمتمت أقول وقد اضطربت اضطـراباً لم أقدر أن أخفيـه ولا شك أنها لاحظته :

ــ داريا أونيسيموفنا قالت لي هذا .

ــ داريا أونيسيموفنـا انسـانة طيبة ، ولست أملك طبعاً أن أمنعها عن حبي ، ولكنها لا تستطيع أن تعرف ما لايتعلق بها .

انقبض صدري . وكما كانت تنوي أن تلهب اسـتيائي فقد التهب استيائي فعلا ، ولكن هذا الاستياء لم ينصب على المرأة « الأخرى » بل انصب على أنا آندريفنا نفسها ، فنهضت وقلت :

ــ ان من واجبي ، كرجل شريف ، أن أنبهك يا آنا آندريفنا الى أن الآمال التي تعقدينها عليّ قد تكون أوهاماً باطلة لا جدوى منها ..

فحدقت الي بنظرة ثابتة وقالت :

ــ انني أنتظر أن تحميني .. أن تحمي انسانة هجرها الجميع .. أن تحمي أختك يا آكاري ماكاروفتش !

وكادت أن تجهش باكية .

فتمتمت أقول وأنا أشعر بألم شديد :

ـ الأفضـــــل ألا نقول على هـذا ، لأن « من الجـائز » أن لا يحدث شيء .

ـ ماذا يجب أن أفهم من أقوالك هذه ؟

ألقت هذا السؤال بكثير من التروى والحذر . فاذا أنا أصرخ قائلاً بما يشبه الغضب :

ـ افهمى من أقوالى أننى ســأبتعد عنـكم جميعـاً ، وكفى ! أما « الوثيقة » ... فسوف أمزقها . استودعك الله !

حييتها وخرجت صامتـاً لا أجـرؤ حتى أن أنظـر اليهـا . ولكن ما ان بلغت أسفل السلم حتى أدركتني داريا أونيسيموفنا وهى تحمل ورقة من ورق الرسـائل مطويةً نصفين . من أين جـاءت داريا أونيسيموفنا ؟ أين كانت مختبئـةً فيما كنت أكلم آنا آندريفنـا ؟ ذلك ما لم أستطع أن أفهمه . وقد أعطتنى الورقة دون أن تقول كلمة واحدة ، وعادت أدراجها مسرعة . وفضضت الورقة ، فاذا أنا أقرأ فيها عنوان لامبير مكتوباً بأحرف جلية دقيقة ، فكان واضحاً أن كل شيء قد تمّ اعداده وتحضيره منذ بضعة أيام . تذكرت فجأة أننى ، يوم جاءت الىّ داريا أونيسيموفنا ، قد أفلت منى أننى لا أعـرف أين يقيم لامبير ، ولكننى انما قلت هذا الكلام بمعنى أننى « لا أعرف ولا أريد أن أعرف » . وأنا الآن أعرف عنوانه بعد أن كلفت ليزا بالحصول عليه من « مكتب العناوين » . بدت لى هذه المبـادرة من آنا آندريفنا بليغة الدلالة بل شـديدة السخرية : فانهـا ، رغم رفضى

التعاون معها ، ترسلني الى لامير رأساً ، فكأنها تفهمني أنها لا تصدقني أي تصديق . كان واضحاً جداً أنها على علم بقصة « الوثيقة » كاملةً . ومن عسى يعلمها بها غير لامير الذى ترسلني اليه ليتم التفاهم بيني وبينه ؟

قلت لنفسى مستاءً : « انهـم جميعاً يعدونني صبياً صغيراً لا ارادة له ولا حزم عنده ، فيستطيعون أن يفعلوا به ما يشاءون ! » .

٢

مع ذلك ذهبت الى لامير • وهل كان يمكننى أن أرضى حب الاطلاع الذى تملكنى الا عنده ؟ ان لامير يسكن بعيداً جداً ، فى شارع كوسوى بيريؤلوك ، بقرب « حديقة الصيف » ، فى ذلك البيت المفروش نفسه • ولكننى حين ولّيت هارباً من عنده لم أنتبه الى طول المســافة ، حتى اذا زوّدتنى ليزا بعنوانه بعد أربعة أيام ، دهشت ولم أكد أصدق أنه يسكن هناك • وفيما كنت أصــعد الســلم بصرت أمام باب البيت المفروش ، فى الطابق الثالث ، بشــابين اعتقدتُ انهما قرعا الجرس قبلى فهما ينتظران أن يُفتح لهما الباب • وكانا كلاهما يتفرسان فىّ أثناء صعودى ، وقد أدارا للبــاب ظهرهما • قلت لنفسى حين وصــلت اليهما : « هذا بيت مفروش ، فلابد أنهما آتيــان الى مســتأجرين آخرين غير لامير » • كان يمكن أن يزعجنى جداً أن ألقى أحــداً عنده • ومددت يدى الى الجرس لأقرعه ، محاولاً ألا أنظر اليهما • فاذا باحدهما يصيح قائلاً لى :

ـ انتظر !

وقال الآخر بصوت رنان رقيق ، ممطوط قليلاً :

ـ انتظر من فضــلك • ســنقرع الجرس معــاً متى انتهينا ، اذا تكرمت •

فأمسكت عن قرع الجرس • انهما شابان فى ريعان الشباب ، يبلغان من العمر عشرين عاماً أو اثنين وعشرين ، قد وقفا أمام الباب منهمكين

فى عمل عريب حاولت أن أفهمه مدهوشاً • ان الذى صـــاح يقول : « انتظر » ، مديد القامة جـدا ، يبلغ طوله مائة وتسعين سنتيمترا فى أقل تقدير ، وهو شديد النحول ، لكنه بارز العضلات ، الى رأس صغير جداً بالقياس الى طول القامة ، هذا عدا وجه مجدور قليلاً ، مكفهر اكفهراراً مضحكاً ، لكنه ينم عن ذكاء ، بل يـكاد يكون محبياً • ان عينيه تحدقان تحديقاً ، بصلابة لا محل لها بل لا داعى اليها • وهو سيء الهندام ، يرتدى معطفاً عتيقاً مبطناً بقطن ، ذا ياقة صغيرة من فراء مكشوط ، معطفاً قصيراً مسرفاً فى القصر بالنسبة الى طول قامته ــ فلاشك أنه مستعار ــ وهو ينتعل حذاءين تكاد تكون من أحذية الفلاحين ، ويضـع على رأسه قبعة عالية مشققة ، بالية رهيبة البلى • هو على وجه الاجمال وسخ ، يداه اللتان لا يسترهمـا قفازان قذرتان ، وأظـافره الطويلة مســودّتان • ولا كذلك رفيقــه : فانه أنيق الى أبعد حـــدود الأناقة : معطف خفيف من فــراء ابن عرس ، قبعة حلوة ، قفازان نضران زاهيان على أصابع رقيقة ناعمة • انه فى مثل طولى ، على محيًّا فتان ووجه فتيٍ غض •

كان الشاب الطويل ينزع عن عنقه كرافتته ، وهى شريط مهترىء كل الاهتراء ، متســخ بالدهن ، كاد يستحيل الى خيوط ؛ على حين اسل رفيقه من جيبه كرافتة أخرى سوداء ، جديدة كل الجدة ، اشتُريت من المتجـر منذ هنيهة ، وراح يعقدها له على رقبتـه • فكان الأول يمد رقبته الطويلة طائعـاً معبِّراً بوجهه عن أكبرِ الجد ، تاركاً لمعطفه أن يسقط عن جســـمه •

قال الشاب الأنيق •

ــ لا ، مستحيـل • القميص وسـخ جداً • وسيظهر بالتضاد أشد اتساخاً • ألم أقل لك أن تلبس ياقة مضافة ؟ لا أستطيع •••

ثم التفت الىّ وقال يسألنى :

ـ ألا تستطيع أنت ؟

ـ ماذا ؟

ـ أن تعقد له كرافتته منتفخةً بحيث لا يظهر تحتها قميصه الوسخ ، والا فقدت كل قيمتها وتأثيرها . لقد اشتريتها له خصيصاً من عند الحلاق فيليب ، ودفعت ثمنها روبلاً .

تمتم الطويل يقول :

ـ هل هو روبلك أنت ؟

ـ نعم . ولم يبق معى كوبك واحـد . هيـه ؟ ألا تستطيع ؟ يجب أن نسأل آلفونسين .

وسألنى الطويل بغتةً فى غلظة :

ـ هل أنت آتٍ الى لامبير ؟

فأجبته بمثل لهجته وأنا أحدق الى عينيه :

ـ نعم ، الى لامبير .

فعاد يسأل بتلك اللهجة نفسها وذلك الصوت نفسه :

ـ دولجورفكى ؟

فقلت أجيبه بفظاظة كفظاظته :

ـ لا ، لست كورفكين .

لقد سمعت خطأً .

فقال كمن يصرخ صراخاً ويتقدم نحوى خطوة كمن يهددنى :

ـ دولجوروفكى ؟

فانفجر رفيقه ضاحكاً ، وقال شارحاً :

ـ انه يقول دولجوروفكي ولا يقول كوروفكين • انت تعلـــم ان الفرنسيين في « جريدة الجدال » يشوهون الأسماء الروسية دائماً •

فقال الطويل مصححاً مقرعاً :

ـ بل جريدة « الاستقلال » •

ـ ••• غير مهم • جريدة « الاستقلال » أيضاً • فاسم دولجوروكى مثـلاً يكتبونه دولجوروفكي • قرأت هذا بنفسى • واســم فـ ••• ـوف يكتبونه دائماً كونت فالونييف •

صاح الطويل :

ـ دوبوينى !

ـ نعم ، هناك أيضاً اسم دوبوينى • قرأته بنفسى ، وضحكنا جميعاً : هى امرأة يقال لها مدام دوبوينى ، روسية في الخارج •••

ثم أضاف يقول ملتفتاً الى الطويل :

ـ ولكن علام ذكرهم جميعاً ؟

وعاد يكلمنى فقال :

ـ معذرة • هل أنت السيد دولجوروكى ؟

ـ نعم ، دولجوروكى • ولكن من أين عرفت اسمى ؟

هنا همس الطويل في أذن رفيقه اللطيف ببعض الكلام ، فقطب هذا حاجبيه وحـرك يده باشـارة نفي • ولكن الطويل التفت الىّ فجأة وقال يسألنى بالفرنسية :

ـ « سيدى الأمير ، هلاّ أعطيتنا روبلاً فضة ، لا روبلين ، بل روبلاً واحداً ! » •

فصرخ القصير يقول مؤنباً :

ـ يا للحيوان !

وعاد الطويل يكلمنى فقال وهو ينطق الكلمات الفرنسية نطقاً رديئا أخرق :

ـ « سنرد اليك » .

وانفجر القصير يضحك ، وقال :

ـ هذ افتى رقيع ! هل تظن أنه لا يحسن الكلام بالفرنسية ؟ انه ليتكلم كما يتكلم باريسى ، ولكنه يقلد الروس من أبناء المجتمع الراقى الذين تتملكهم رغبة جنونية فى التخاطب بلغة لا يجيدونها ...

فانبرى الطويل يقول مخصصاً :

ـ « فى حافلات القطار » .

ـ طيب . فى حافلات القطار أيضاً . انك لمضجر حقاً . ما الداعى الى مزيد من الشرح . أية لذة تجد فى تمثيل دور الغبى ؟

فى أثناء ذلك كنت قد أخرجت روبلاً ومددته الى الطويل . فقال وهو يضع الروبل فى جيبه (بالفرنسية) :

ـ « سنرد اليك » .

ثم التفت فجأة الى الباب بهيئة ساكنة كل السكون جادة كل الجد ، وأخذ يدقه بطرف حذائه الضخم ، ولكن بدون أى اهتياج أو حنق . فقال له القصير قلقاً :

ـ سوف تتشاجر مرة أخرى مع لامبير . الأفضل أن تقرع الجرس .

وقرعت أنا الجرس ، ولكن ذلك لم يمنع الطويل من مواصلة دق الباب بقدمه .

وفجأة دوّى صوت لامبير وراء الباب قائلاً :

ـ هوه ! يا للّعين !

وفتح لامير الباب بسرعة ، وصرخ يقول للطويل (بالفرنسية) :

ـ « قل لى ، أتراك تريد أن أهشم لك رأسك ؟ » .

فقال الطويل بجد ووقار وهو يواجه لامير الذى احمر غضباً :

ـ « يا صديقى ، هذا دولجوروكى ! أما الثانى فهو صديقى ! » .

فما ان رآنى لامير حتى تغير تغيرا كاملا وهتف يقول :

ـ هذا أنت يا آركادى ! أخيراً ! كيف صحتك ؟ هل شفيت ؟

وتناول يدىّ كلتيهما ، وشدّ عليهما شداً قوياً . الخلاصة أنه بلغ من صدق الحماسة للقائى أننى سرعان ما رقّ قلبى له ، وافتتنت به . قلت :

ـ هذه أول زيارة أقوم بها !

فصرخ لامير منادياً :

ـ « آلفونسين » !

فوثبت آلفونسين من وراء الحاجز ، فقال لها لامير :

ـ « هو ذا ! » .

فصاحت آلفونسين مصفقةً بيديها :

ـ « انه هو » !

ثم عادت تباعد يديها واندفعت الىّ لتقبّلنى ، ولكن لامير حمانى منها ، اذ صاح يقول لها كمن يخاطب كلباً صغيراً :

ـ هيه ! هيه ! على مهلك !

ثم التفت الىّ فقال :

ـ اسـمع يا آركادى ، لقد اتفقنا ، عدداً من الأشخاص ، على أن نتعشى اليوم فى مطعم " التتر " • فلن اتركك • ستصحبنا • سنتعشى معاً • وسأصرف هذين حالاً ، ثم نأخذ نتحدث • ادخل • سنخرج على الفور • دقيقة واحدة لا أكثر •••

دخلت ، وتسمرت فى وسط الغرفة ، أنظر الى ما حولى وأستعيد ذكرياتى • كان لامبير قد أخذ يرتدى ثيابه وراء الحاجز • وقد دخل الشاب الطويل ورفيقه وراءنا ، رغم ما قاله لامبير • فكنا نحن الثلاثة وقوفاً •

خار الطويل يقول لآلفونسين :

ـ « مدموازيل آلفونسين ! بوسبنى ! » •

وقال الصغير وهو يتقدم ويريها الكرافتة الجديدة :

ـ « مدموازيل آلفونسين ! » •

ولكنها هجمت عليهما كليهما حانقة مسعورة وقالت :

ـ « آه ••• يا للسافل ! لاتقترب منى ، لا توسخنى ! »

قالت هذا للشاب القصير ، فهو الذى كانت حاقدة عليه •

ثم اتجهت الى الطويل فقالت له :

ـ « وأنت أيها الأبله الطويل ! لسوف أطردكما كليكما ركلاً بقدمى ••• هل تعرف هذا ؟ » •

ورغم أنها أشاحت عن القصير بازدراء واحتقار ، كأنها تخشى حقاً أن يوسخها (وهذا مالم أفهمه ، لأنه كان نظيفاً كل النظافة ، وقد ظهر حسن هندامه واضحاً حين خلع معطفه) ، رغم ذلك رجاها القصير ملحاً أن تعقد للطويل الأبله كرافتته ، وأن تعيره قبل ذلك ياقة نظيفة

من ياقات لامير • فأوشكت آلفونسين أن تضربهما استياءً من هذا الطلب ، ولكن لامير الذى سمع الكلام ، صاح من وراء الحاجز يطلب منها ألا تبقيهما وان تعطيهما ما يريدان ، و « الا فلن يدعانا هادئين » ، فسرعان ما تناولت آلفونسين ياقة وأخذت تلبسها الشابّ الطويل بدون أى اشمئزاز • ومدّ الطويل لها رقبته وهى تعقد له كرافتته ، كما فعل لرفيقه حين كانا على السلم أمام الباب •

قال يسألها بغتةً :

ـ « مدموازيل آلفونسين ، هل بعت البولونيا الذى كان عندك » •

ـ « ما البولونيا هذا ؟ » .

فانبرى القصير يشرح لها أن « البولونيا » كلب صغير •

ـ « هه ! ما هذه الرطانة ؟ »

ـ « اننى أتكلم كما تتكلم سيدة روسية فى مدينة من مدن المياه المعدنية » •

بذلك أجابها « الطويل الأبله » وهو لا يزال ماداً رقبته • فقالت له :

ـ « ما سيدة روسية فى مدينة من مدن المياه المعدنية ؟ » •

ثم أضافت تخاطب القصير وهى تلتفت اليه فجأة :

ـ « و ••• أين ساعتك الجميلة التى أعطاك اياها لامير ؟ » •

فصاح لامير يقول من وراء الحاجز ساخطاً :

ـ ماذا ؟ بغير ساعة مرةً أخرى ؟

فدمدم « الأبله الطويل » قائلاً :

ـ أكلنا بثمنها !

وأضاف القصير يجيب لامبير مبرراً عمله بدون حرارة :

ـ بعتها بثمانية روبلات . هي من فضة مذهبة ، وليست ذهباً كما زعمت . أمثال هذه الساعات تباع الآن في المتاجر بستة عشر روبلاً .

فتابع لامبير كلامه بمزيد من السخط قائلاً :

ـ يجب أن يوضع حد لهذا . يا صديقي ، اذا كنت أشترى لك ثياباً وأعطيك أشياء ثمينة ، فانني لا أفعل ذلك من أجل أن تبيعها فتنفق ثمنها على صاحبك الطويل الأبله ... ما قصة هذه الكرافتة التي اشتريتها له أيضاً ؟

ـ هذه ثمنها روبل واحد لا أكثر . ولم أدفع ثمنها من مالك أنت . لم يكن عنده كرافتة ، ولا يزال يحتاج الى قبعة .

قال لامبير وقد استعر غضبه استعاراً رهيباً في هذه المرة :

ـ كفى حماقات ! لقد أعطيته ما يكفي لشراء قبعة أيضاً . ولكنه سرعان ما ينفق المال في أكل محار وشرب شمبانيا . ان رائحته عفنة . انه قذر . لا يستطيع المرء أن يصطحبه الى أى مكان . كيف أصطحبه الى العشاء ؟

جمجم « الطويل الأبله » يجيب قائلاً :

ـ في عربة ! « ان معنا روبلاً فضة اقترضناه من صديقنا الجديد » .

فصرخ لامبير يقول :

ـ لاتعطهما شيئاً يا آركادى ، لاتعطهما شيئاً البتة !

قال القصير فجأة وقد احمر احمراراً شديدا فتضاعف جماله :

ـ اسمح لى يا لامبير • اننى أطالبك بعشرة روبلات فوراً • ولا تقل سخافات كهذه التى قلتها الآن لدولجوروكى ! اطالبك بعشرة روبلات ، لأرد الروبل الى دولجوروكى حالاً ، ثم أشترى بالباقى قبعة لآندرييف ، وسترى •

خرج لامبير من وراء الحاجز ، وقال :

ـ اليك ثلاث ورقات صفر ، ثلاثة روبلات ، ولن أعطى شيئاً آخر قبل يوم الثلاثاء القادم ، ولا أحب أن أراكما قبل ذلك الموعد • والا •••

انتزع « الطويل الأبله » من يديه الورقات الثلاث • فمدّ روبلاً الى دولجوروكى قائلاً له :

ـ « دولجوروكى ، اليك روبلاً ، نرده شاكرين أجزل الشكر » •

ثم صاح يقول لرفيقه :

ـ هلمّ بنا يا بييرو !

وفجأة رفع الورقتين الأخريين يلوّح بهما فى الهواء ، وأنشد يقول بأعلى صوته وهو ينظر الى لامبير وجهاً لوجه :

ـ « أوهيه لامبير ! أين لامبير ؟ هل رأيت لامبير ؟ » •

فزأر لامبير ينهره بغضب رهيب :

ـ اسكت ! اسكت !

وأدركت أن وراء هذا كله قصة قديمة أجهلها كل الجهل ، فكنت أنظر الى المشهد مدهوشاً • ولكن الطويل لم يحدث له غضب لامبير أى خوف • بالعكس : أخذ يزأر منشداً بصوت أعلى : « أوهيه لامبير ! » الخ •

وخرج الشابان وصـارا فى السلم ، وركض لامبير يلاحقهما ، ولكنه لم يلبث أن عاد أدراجه . وقال :

ـ لسوف أطردهما ! سوف أطردهما قريباً ! انهما يكلفانى نفقات أكبر مما يعودان عليّ به من أرباح . هلمّ بنا يا آركادى ! لقد تأخرت . ينتظرنى هنالك شخص ... شخص مفيد !

وهتف يقول مرة أخرى وهو يكز أسنانه :

ـ أوباش ! أوباش !

لكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه فجأة . قال :

ـ يسعدنى أنك جئت أخيراً . يا آلفونسـين ! لا يخطرن ببـالك أن تخرجى ! هلمّ بنا يا آركادى !

أمام الباب ، كانت تنتظره عربة فخمة . ركبنـا العربة . ولكنه ظل طوال الطريق لا يفلح فى تهدئة حنقه على ذينك الشابين تهدئة تامة . وقد أدهشنى أن أراه يأخذ الأمر مأخذ الجد الشديد ، وأدهشنى أن رأيتهما يعاملان لامبير بغير احترام ، حتى لقد كاد لامبير أن يرتعد أمامهما ارتعاداً . لقد كان يخيَّل الىّ دائماً ، بالاستناد الى شعور قديم من مشاعر الطفولة ، أن لامبير شخص لابد أن يخشاه جميع الناس ، حتى لقد كنت أنا نفسى ، رغم كل ما أتصف به من استـقلال ، أشعر بخوف منه فى تلك اللحظة قطعاً .

استمر لامبير يعبرّ عن غضبه ، فقال :

ـ أقول لك انهما وبشان رهيبان . صدقنى : ان هذا الطويل قد سامنى سـوء العذاب منذ ثلاثة أيام فى مجتمع راق . وقف أمامى ينشـد صائحـاً : « أوهيـه لامبير » . فى مجتمع راق . وأخـذ النـاس جميعاً يضحكون . كانوا يعلمون أنه انما يفعل ذلك لأعطيه مالاً . رأيت المشهد

هنا بنفسك . وقد أذعنت فأعطيته . آه ... انهم أوغاد . كن تلميذاً ضابطاً . فطردوه من المدرسة . تستطيع أن تتصور . وهو مثقف . نشأ في أسرة كريمة . في أسرة كريمه ، صدقني . وله أفكار . كان في وسعه أن ... ! ذلك أنه قوى قوة هرقل . انه يقدم بعض الخدمات الصغيرة ، ولكن بغير همة وحماسة . وقد رأيت بعينك : انه لا يغسل يديه . ذات مرة أوصيت به سيدة من السيدات ، سيدة عجوزاً من الطبقة الأرستقراطية ، وزعمت لها أنه شاب نادم يريد أن ينتحر من شدة ما يلقى من عذاب الضمير . فذهب اليها ، وجلس عندها ، وطفق يصفر ! أما الآخر ، الفتى ، فهو ابن جنرال . أسرته تخجل أن يكون ابنها . خلصته من المحكمة ، أنقذته . فانظر كيف يكافئنى ! ليس ههنا رجل! ولكننى سأطردهما ، سأشدهما من جلد الرقبة وأضعهما على الباب .

ـ انهما يعرفان اسمى . فهل أنت الذى حدثتهما عنى ؟

ـ ارتكبت هذه الحماقة . فى أثناء العشاء ، سيطر على نفسك ، أرجوك ، ابق فى مكانك . سيجىء الى العشاء وغد آخر رهيب . ذاك وبش فظيع ، ماكر مكراً فظيعاً . ليس ههنا الا سفلة على كل حال . مامن رجل واحد شريف ! ولكن سنتخلص منهم .. ثم ، ماذا تحب من طعام فاخر ؟ لا قيمة لهذا السؤال على كل حال . جميع وجبات العشاء طيبة . أنا الذى سأدفع ، لا تهتم ! من حسن الحظ أنك ترتدى ثياباً حسنة . أستطيع أن أعطيك مالاً . ليس عليك الا أن تجىء وتطلب . تصور أننى أتخمتهما شراباً وطعاماً . فى كل يوم فطائر . وتلك الساعة التى باعها هى الساعة الثانية . ذلك القصير تريشاتوف ـ رأيت كيف تشمئز آلفونسين حتى من رؤيته وكيف تمنعه أن يقترب منها ـ ما ان يجد نفسه فى مطعم ، ومن حوله ضباط ، حتى يأخذ يصرخ : « أريد حجلاً » . فأطلب له حجلاً ! لكننى سأنتقم .

ـ هل تذكر يا لامبير ... يوم ذهبنا معك الى المطعم بموسكو ، فطعنتني هناك بشوكة في فخذي ! كان معك خمسمائة روبل في ذلك اليوم !

ـ نعم ، أذكر . طبعاً أذكر . انني أحبك . صدقني . لا أحد يحبك . لكنني أنا أحبك . أنا وحدي ، تذكر هذا . ان الرجل الذي سيجيء الى العشاء ، الرجل المجدور ، هو أمكر الأوغاد قاطبة . حذار منه . اذا كلمك فاصمت ، واذا أخذ يسألك فأجبه بسخافات ، لا تقل شيئاً ..

ان اضطرابه قد منعه على الأقل من أن يلقي علي أسئلة أثناء الطريق . وقد جرح شعوري أن أراه واثقاً بي هذه الثقة كلها ، والا يخطر بباله أن يشك فيّ أي شك . انه يتصور ، استناداً الى طواعيتي القديمة له ، حين كنا في مدرسة توشار ، أنه لا يزال يستطيع أن يأمرني فأصدع بأمره . وقلت لنفسي ونحن ندخل المطعم : « هو فوق ذلك كله جاهل جهلاً فظيعاً ، فلا أثر فيه لثقافة » .

٣

هذا المطعم ، فى شارع مورسكايا ، كنت قد ترددت اليه فى أيام سقوطى المخزى .. فلما رأيت هذه الصالات وهؤلاء الخدم الذين حيونى وعرفوا فيّ واحداً من رواد المطعم ؟ وأحسست بالغربة فى جو رفاق لامبير ، وفى جو هؤلاء الصحب الذين رأيتنى بينهم على حين فجأة وكأننى واحد منهم ؟ وخالجنى توجس غامض بأننى مقبل على أمور قذرة وأننى سأنتهى فى أغلب الظن الى ارتكاب عمل سيء ، شعرت بطعنة تنفذ فى قلبى دفعة واحدة ، حتى هممت فى لحظة من اللحظات أن أنصرف ، ولكن تلك اللحظة مرت ، وبقيت .

ان « المجدور » الذى يخشاه لامبير تلك الخشية كلما كان قد وصل قبلنا فهو ينتظرنا . هو واحد من أولئك الناس الذين يبدو عليهم انهماك غبى فى العمل ، والذين أكرههم كرهاً شديداً منذ أن كنت طفلاً . هو فى نحو الخامسة والأربعين من العمر ، متوسط القامة ، أشيب الشعر قليلاً ، أمرد الوجه الى حد الفحش ، مع عارضين شائبين مقصوصين حلقا ، كأنهما نقانق على خدين فى وجه مسطح كريه . وهو طبعا مضجر ، شديد الرصانة ، صموت ، بل هو على عادة أمثاله متعال متكبر . وقد تفرس فيّ بانتباه ، ولكن دون أن ينطق بكلمة . وشاءت خراقة لامبير وهو يجلسنا على مائدة واحدة ألا يعرّف أحدنا بالآخر . فكان يمكن لهذا الرجل أن يعدنى واحداً من أولئك المبتزين الذين يرافقون لامبير . وقد وصل الشابان لحظة وصولنا تقريباً ، فلم يخاطبهم الرجل أيضاً بكلمة

واحدة طول مدة العشاء ، ولكن كان واضحاً أنه يعرفهما معرفة وثيقة . لم يكلم الا لامبير ، بل لم يكلمه الا بما يشبه أن يكون همساً . وكان لامبير يكاد ينفرد بالكلام على كل حال ، أما المجدور فكان يكتفي باجابات مقتضبة وكلمات غاضبة مستفزة . كان هو متغطرساً متعجرفاً ، وكان لاذعاً وساخراً ، ولا كذلك لامبير ، فقد كان يبدو شديد الاهتياج ، وكان كأنه يستحثه على أمر من الأمور لاشك أنه الاشتراك فى مشروع من المشروعات . وقد مددت يدى الى قارورة النبيذ مرة ، فاذا بالمجدور يتناول زجاجة من خمر الخريز ، فيمدها الىّ . لم يكن قد خاطبني قبل ذلك أبداً . وها هو ذا يقول لى الآن :

ـ جرّب هذا !

حزرت عندئذ أنه هو أيضاً كان يعرف عنى كل شيء ، اسمى وتاريخى ، وربما الخطط التى يعوّل لامبير فى تنفيذها علىّ . فلما تصورت أنه يعدنى مستخدماً عند لامبير ، استعر حنقى مرة أخرى ؛ ومنذ أن كلمنى هذا الرجل المجدور ، قرأت فى وجه لامبير قلقاً شديداً فيه كثير من الحماقة . ولاحظ المجدور نفسه ذلك ، فانفجر يضحك . قلت لنفسى : « لا شك أن لامبير مستعبد لهم جميعاً » ، وكرهته عندئذ بكل قلبى . هكذا انقسمنا قسمين ، رغم أننا نجلس الى مائدة واحدة : قسماً هو المجدور ولامبير جلسا بقرب النافذة متقابلين ، وقسماً هو أنا والطويل الوسخ آندريف بجانبى وتريشاتوف أمامى . وكان لامبير يستعجل انتهاء العشاء فهو ماينفك يستحث الخادم : حتى اذا جيء بالشمبانيا، قطع حديثه مع المجدور ، ومدّ كأسه نحوى قائلاً :

ـ نخب صحتك . فلندق الأقداح !

فعقّب تريشاتوف اللطيف قائلاً وهو يمد نحوى قدحه من فوق المائدة :

ـ اسمح لى أنا أيضاً أن أدق قدحى بقدحك •

وكان تريشاتوف ، الى حين وصول الشمبانيـا ، واجماً صامتـاً • أما « الأبله » فكان لا يقول شيئاً البتة ، وانما هو يأكل ساكتاً ويأكل كثيراً •

أجبت تريشاتوف بقولى :

ـ يسرنى هذا !

ودققنا القدحين وشربنا • فقال « الأبله » فجأةً وهو يلتفت الىّ :

ـ أما أنا فلن أشرب نخب صـحتك ، لا لأننى أتمنى لك الموت ، بل لتكف عن المزيد من شرب الخمر هذا اليوم •

قال هذه الكلمات مربد الوجه متصنع اللهجة • وتابع يقول :

ـ أنت تكفيك ثلاثة أقداح !

ثم أدرف وهو يضع قبضة يده على المائدة :

ـ أرى أنك تنظر الى قبضة يدى الوسخة • اننى لا أغسلها ، بل أؤجـرها على حالتها هذه غير مغسولة ، أؤجرها للامير ، لكسر رءوس الآخرين فى القضايا التى تفتح شهيته •

قال هذه الكلمات وضرب المائدة بقبضة يده ضربة بلغت من القوة أن الأطباق والأقداح انقلبت وسقطت • وكان فى القاعة أربع موائد أخرى قد جلس اليها طاعمون من ضباط وسادة محترمين • انه مطعم من المطاعم الرائجـة • فاذا بجميع المحادثات تنقطع ، واذا بجميع الأنظـار تتجه الى الركن الذى نحن فيـه • وكنا قد أثرنا فضول الناس قبل مدة طويلة على كل حـال • اصطبغ وجـه لامير بحمرة شـديدة • وقال بهمس خانق يخاطب آندرييف :

ـ آ ... ها هو ذا يستأنف أظن يا نيقولا سيمنوفتش أنني رجوتك أن تسيطر على نفسك .

فرشقه الرجل بنظرة طويلة بطيئة وقال :

ـ لا أريد لصديقي الجديد « دولجوروفكي » أن يسرف اليوم في شرب الخمر .

ازداد احمرار لامبير . وكان المجدور يصيخ بسمعه صامتاً ، ولكن كان واضحاً أنه راض مغتبط . لقد أعجبته ثورة آندرييف . أنا وحدي لم أدرك لماذا كان يجب عليّ ألا أشرب .

قال لامبير وهو يكز أسنانه :

ـ انه لا يفعل هذا الا ليأخذ مالاً . سأعطيك سبعة روبلات . هل تسمع ؟ سأعطيك سبعة روبلات بعد العشاء . ولكن دعنا نفرغ . لا تخزنا.

فزأر « الأبله » منتصراً :

ـ آ ... آ ...

وابتهج المجدور قطعاً ، فهاهو ذا يضحك .

وقال تريشاتوف لصديقه بقلق ، بل بما يشبه الألم ، راغباً في صدّه طبعاً :

ـ اسمع ، انك تسرف !

فصمت آندرييف ، ولكن صمته لم يطل ، فان ما فعله لم يشف غليله . كان يتحشى على مائدة ثانية تبعد عنا خمس خطوات سيدان منهمكان في حديث حار . انهما سيدان متقدمان في السن ، يبدو عليهما أنهما حساسان سريعا التأذي . أحدهما طويل سمين جداً ، والثاني سمين أيضاً لكنه قصير . كان الرجلان يتكلمان باللغة البولندية عن الأحداث الأخيرة

التي وقعت بباريس . وكان « الابله » ينظر اليهما منذ مدة طويلة باستطلاع وفضول ، ويصيخ بسمعه الى حديثهما . وأغلب الظن ان البولندى القصير قد بدا له رجلاً سخيفاً مضحكاً ، فسرعان ما أبغضه ، شأنه فى ذلك شأن جميع الأشخاص الصفراويين المصابين بمرض فى الكبد ، الذين يحدث لهم هذا بغتةً بدون أى سبب . واتفق أن نطق البولندى القصير فجأةً باسم النائب ماديه دومونجو ، لكنه نطق الاسم بلكنة بولندية على عادة كثير من البولنديين ، أى انه شدّد المقطع السابق على المقطع الأخير من الاسم ، فجاء نطق الاسم هكذا : مآديه دو موونجو . ولم يكن « الأبله » فى حاجة الى أكثر من ذلك ، فهاهو ذا يلتفت الى البولنديين ، ثم ينتصب بوقار ، ويقول بصوت عال واضح وكأنه يلقى سؤلاً :

ـ مآديه دو موونجو ؟

فالتفت البولنديان حانقين . وسأله البولندى الطويل السمين مهدداً :

ـ ماذا تريد ؟

وكان « الأبله » ينتظر هذه اللحظة . فكرّر سؤاله بصوت عال جداً ليسمعه كل من بالصالة :

ـ مآديه دو موونجو ؟

كرر سؤاله هذا فوراً بغير مزيد من الايضاح ، تماماً كما فعل معى من قبل أمام الباب حين كرر سؤاله لى وهو يتقدم منى : « دولجوروفكى ؟ » فانتفض البولنديان . ونهض لامبير وهم أن يهجم على آندرييف ، لكنه سرعان ما تركه واندفع نحو البولنديين يقدم لهما الاعتذارات .

فأخذ البولندى القصير يقول باحتقار وقد احمر احمراراً شديداً حتى صار لون وجهه كلون جزرة :

ـ هؤلاء مهرجون ، يا سيد ، هؤلاء مهرّجون . قريباً سيستحيل على المرء أن يجيء الى هنا .

واضطربت الصالة كلها ، وسُمعت من كل مكان دمدمات تذمر ، ولكن الضحكات كانت أكثر من الدمدمات .

تمتم لامبير يقول وقد طاش صوابه ، محاولاً ان يدفع آندريف الى خارج الصالة :

ـ اخرج ، أرجوك ...

فوافق آندريف على الخروج بعد أن ألقى على لامبير نظرة فاحصة فأدرك أنه سيعطيه مالاً . لا شك أنه قد سبق له مراراً أن ابتز منه مالاً بهذا الأسلوب . وأراد تريشاتوف أن يركض وراءهما ، ولكنه نظر الىّ وتوقف . ثم قال وهو يخفى عينيه باصابعه اللطيفة الناعمة :

ـ آه .. شيء كريه !

فقال المجدور هامساً وقد ظهر الاستياء فى وجهه هذه المرة :

ـ كريه فعلاً !

ورجع لامبير فى أثناء ذلك مصفرّ الوجه ، وهمس فى أذن المجدور ببعض الكلام محركاً يديه باشارات عنيفة ! وكان المجدور قد أمر أن يؤتى بالقهوة حالاً . وقد أصغى الى لامبير باحتقار . وكان واضحاً أنه يود الانصراف . ولم تكن القضية كلها مع ذلك الا عبثاً صبيانياً . وحمل تريشاتوف فنجان قهوته وجاء يجلس بجانبى . وأخذ يتكلم بهيئة صريحة كأنما نحن قد بحثنا هذا الموضوع مراراً .

ـ اننى أحبه كثيراً ، آندريف هذا . لا تستطيع أن تتصور مدى تعاسته . لقد بدّد مهر أخته فى الشراب والطعام ، بل بدّد فى الطعام

والشراب كل ما يملكه أهله في أثناء خدمته العسكرية • وأنا أرى الآن كيف يتعذب عذاباً شديداً • اذا كان لا يغتسل فانما مرد ذلك الى الكمد واليأس • تراوده أفكار جنونية : يقول لك على حين فجأة سيان أن يكون المرء وغداً سافلاً أو رجــلاً شريفاً ، فلا فرق بين الأمرين • يجب على المرء ألا يفعل شــيئاً ، لا خيراً ولا شراً • في وســع المرء أن يفعل الخير وأن يفعل الشر ، فكلاهما سواء • ولكن الأفضل من هذا أن يظل راقداً مدة شهر كامل لا يخلع ثيابه ، وانما هو يأكل ويشرب وينام لا أكثر • ولكن صــدّق أن هذا الكلام كله انما يقوله بغير جد • بل انى لأعتقد أن ما فعله اليوم انما فعله لينتهى من لامبير ويقطع صلته به قطعاً تاما • بالأمس كان يحدثنى فى هذا • هل تصــدّق أنه فى الليــل ، أو حين يخلو الى نفسه مدة طويلة ، يأخذ يبكى • وهو اذا بكى فانما يبكى كما لا يبكى انسان آخر غيره • انه يعول عويلاً رهيبــاً ، وهذا أبعث على الشفقة • تصور رجلاً يبلغ مبلغه من الطول ومن القوة ، ثم هو يبــكى معولاً ! بائس ، أليس كذلك ؟ أريد أن أنقذه ، ولكننى أنا نفسى شخص حقير ، فتى ضائع ، لعلك لا تصدق ! هل تسمح لى بالدخول يادولجوروكى اذا أنا جئت أزورك أحياناً ؟

ـ طبعاً ! أنا أحبك كثيراً .

ـ لماذا تحبنى ؟ شــكراً على كل حال ! اســـمع • فلنشرب كأساً أخرى • ماذا أقول ؟ لا ، لا تشرب ! لقد صدقك القول : يجب أن تكف عن الشراب هذه الليلة •

قال ذلك وهو يلقى على نظرة معبرة • وأردف يقول :

ـ أما أنا فسأشرب مع ذلك • أصــبح الشراب لا يحدث لى شيئاً ، وأصبحت لا أستطيع أن أمنع نفسى عن شىء • انصحنى اليوم بأن أمتنع عن تناول العشاء فى المطاعم ، تجدنى فى الغد مستعداً لكل شىء فى سبيل أن

أتعشى في المطاعم . أؤكد لك أننا نود ، مخلصين ، أن نصبح شرفاء ، ولكننا نرجيء ذلك دائماً الى الغد . وما ينفك الغد يتراجع ،

وتمضي السنون تليها السنون ويغني دبيع القمر

ولكني أخاف عليه هو . سوف يشنق نفسه . سوف يمضي يشنق نفسه دون أن يقول لأحد شيئاً . هذه طبيعته . ما أكثر الذين يشنقون انفسهم في هذه الأيام ! من يدرى ؟ لعل أمثالنا كثير . أنا مثلاً لا أستطيع أبداً أن أحيا بدون أن يكون معي فضل من المال . أنا أحوج الى المال الزائد مني الى المال اللازم . اسمع ، هل تحب الموسيقى؟ أنا أحبها حبا جنونيا . سأعزف لك شيئاً حين أجيء اليك . انني أجيد العزف على البيانو اجادة كبيرة . درست العزف زمنا طويلاً . دراسة جادة . لو أتيح لي أن أؤلف أوبرا لاخترت موضوع « فاوست » . انني أحب هذا الموضوع كثيراً . فتراني دائماً أبني بخيالي مشهداً في كاتدرائية : أتصور كاتدرائية قوطية ، وأتصور جوقات المغنين والأناشيد . وتدخل جرتشن . الجوقات من القرون الوسطى ، حتى يشعر المرء بجو القرن الخامس عشر . جرتشن حزينة مكتئبة ، في البداية تُسمع تلاوة منغمة ، بصوت جهير ، لكنه صوت رهيب ، معذّب . ثم يدوى صوت الجوقات بغناء قاتم ، قاس ، غير مكترث :

هذا يوم الغضب

وفجأة يعلو صوت الشيطان، يغني الشيطان. انه لا يرى، ولكن يُسمع صوته ، الى جانب الأناشيد ، ينطبق عليها تقريباً ، ولكنه مختلف عنها كل الاختلاف . ذلك ما يجب التوصل اليه . وغناء الشيطان طويل ، لا يتعب ، وهو تينور ، تينور حتماً . يكون في البداية رفيقاً ، رفيقاً : « هل تذكرين يا جرتشن أيام كنت لا تزالين بريئة ، أيام كنت لا تزالين طفلة ، كيف كنت تجيئين مع أمك الى هذه الكاتدرائية وتتمتمين بصلوات

تفرئينها فى صبب عبيق ؟ » • ولكن الغنـاء يقوى ثم يقوى ، وما ينفك يزداد حرارة واندفاعا • أصبحت النغمات اعلى : يحس فيهـا الســامع دموعا ، يحس فيها ضجرا ، ضـجراً لا ينتهى ، لا مخرج منه ، ثم ياتى الياس : « لا غفـران يا جرتشن ، لا غفران لك هنا ! » • وتريد جرتشن أن تصلّى وتدعو ، ولكن من صـدرها لا تخرج الا صرخات ـ اتعرف هذا النوع من الصرخات ؟ الصرخات التى تنطلق تشنجات من صدر أترع دموعا • ويظل الشـيطان يغنى • انه لا يصمت ، ويظـل ينفذ فى النفس الى أعماق أبعد ، ثم اذا هو ، على حين فجأة ، ينقطع مرة واحدة بهذه الصرخة : « انتهى كل شيء ، انصبت عليك اللعنة ! » • وتتهاوى جرتشن على الأرض راكعة ، ضـامةً يديهـا أمامهـا • وتنطلق عندئذ صلاتها ، صلاة قصيرة جداً ، هى قراءة منغّمة ، ولكنهـا ساذجـة ، لا يُصطنع فيها فن ، هى تلاوة تترجع فيها آثار القرون الوسطى قوية • أربعة أبيـات ، أربعـة أبيات فقط ـ عند ستراديلا نغمات كهذه ! ـ ثم الاغماء ، بعد آخـر نغمـة ! ويحدث هرج ومـرج • وتُرفع جرتشن ، وتنقل • فاذا بالجوقة يُرعد غناؤها فجأة • لكأنها صـاعقة تنزل • غناء فيه الهام، غناء ظافر، ساحق، شيء من نوع نشيدنا، نشيد الملائكة الصغار• يهتز كل شيء حتى آساسه ، ويفضى كل شيء الى تسبيحة « المجد لله ! » •. لكأنه صراخ الكون كله ، بينما هى تُحمل و تُنقل • تُنقل جرتشن ، وتسدل الستارة • حقاً لو كنت أستطيع لفعلت شيئاً ما • ولكننى أصبحت لا أصلح لشيء • فانما أنا أكتفى بأن أحلم • أحلم بهـذا طول الوقت • أحلم • حياتى كلها ليست الآن الا حلماً • وفى الليل أحلم أيضاً • آه ! دولجوروكى ، هل قرأت كتاب ديكنز « مخزن العاديات » ؟ •

ـ نعم قرأته ، فماذا ؟

ـ لاشك أنك تتذكر ••• انتظر • سأفرغ كأساً أخرى • لاشك

أنك تتذكر ذلك الجزء من أواخر القصة ••• الذى تراهما فيه ، ذلك الشيخ المجنون وتلك البنية الصغيرة ، حفيدته ، التى عمرها ثلاث عشرة سنة ، نراهما ، بعد هروبهما العجيب وتجوالهما الطويل ، يجدان ملجأ يأويان اليه بمكان فى أقاصى انجلترا ، قرب كاتدرائية قوطية قديمة ، وترى البنت الصغيرة تحصل هناك على وظيفة دليل ويرى الزائرين الكاتدرائية ، ففى ذات يوم تغرب الشمس ، فاذا بالطفلة ، والواقفة فى فناء الكاتدرائية ، وقد غمرتها أواخر أشعة النهار ، اذا بها تنظر الى الشمس الغاربة وقد امتلأت نفسها ، نفس الطفلة ، نفسها المدهوشة ، امتلأت تأملاً هادئاً وتفكراً عميقاً ، كأنما هى تقف أمام لغز من الألغاز ، لأن الشيئين كليهما ، الشمس التى هى فكر الله ، والكاتدرائية التى هى فكر البشر ، انما هما لغزان حقاً ؟ ••• أليس هذا صحيحاً ؟ آه ••• اننى لا أجيد التعبير • ولكن الرب يحب هذه الخواطر الأولى التى تملأ نفوس الأطفال • وهناك ، على مقربة منها ، فوق الدرجات ، كان ذلك الشيخ المجنون ، جدها ، يتأملها بنظرة جامدة • صحيح أن هذا كله ليس فيه شيء خارق ، هذا المشهد الذى رسمه ديكنز ، ولكن المرء لا يمكن أن ينساه أبداً • وقد بقى فى أوروبا كلها • لماذا ؟ لأن هذا هو الجمال • لأن فى هذا براءة • آه ••• أنا لا أدرى ما الذى يشتمل عليه هذا ، ولكننى أحس فيه جمالاً • كنت فى المدرسة الثانوية أكثر من قراءة الروايات • ان لى أختاً فى الريف ، تكبرنى بسنة واحدة ••• الآن بيع كل شيء هناك ، ولم يبق لنا أملاك ! كنا واقفين على الشرفة معاً ذات يوم ، نقرأ هذه الرواية ، تحت أشجار الزيزفون فى دارنا ، وكانت الشمس تغرب أيضاً ، فاذا نحن ننقطع عن القراءة ، ويقول كل منا للآخر : نحن أيضاً سنكون خيرين ، سنكون جميلين ••• كنت أستعد حينذاك لدخول الجامعة • ان لكل انسان ذكرياته يا دولجوروكى •••

وفجأة مال برأسه الجميل على كتفى ، وطفق يذرف دموعاً غزيرة . فأشفقت عليه ، أشفقت عليه كثيراً . صحيح أنه كان قد شرب كثيراً ، ولكنه كان يكلمنى بصدق كبير ، وأخوة خالصة ، وعاطفة طاهرة .

وفى تلك اللحظة سمعنا من الشارع صرخة ، وسمعنا قرعات قوية على زجاج النافذة (كانت كل نافذة من النوافذ قطعة واحدة من الزجاج ، وكانت كبيرة ، وكانت فى الطابق الأرضى ، فيستطيع المرء أن يبلغها من الشارع) . انه آندرييف الذى طُرد .

ـ « أوهيه لامبير ! أين لامبير ؟ هل رأيت لامبير ؟ » .

داهمتنا هذه الصرخة من الشـارع . فهتف الفتى وهو يثب عن مكانه مندفعاً :

ـ لايزال اذن هنا ! انه اذن لم ينصرف !

وصاح لامبير يقول للخادم :

ـ الحساب !

وكانت يداه ترتجفان غضباً وهو يدفع الحساب . ولـكن المجدور لم يسمح له بأن يدفع عنه .

ـ لماذا ؟ أنا الذى دعوتك وقد قبلت أنت الدعوة .

ـ لا ، اسمح لى .

وأخـرج المجدور محفظة نقوده ، ودفع حصـته بعـد أن حسب ما عليه . قال له لامبير :

ـ انك تهيننى يا سيمون سيدوروفتش !

ـ هذا ما أريده .

بذلك أجاب سيمون سـيدوروفتش . وتناول قبعته ، وخرج من

الصالة وحـده دون أن يودع أحداً • فقدف لامبير باقى الحساب للخادم وأسرع يركض وراء المجدور ، حتى لقد نسينى من شـدة اضطرابه • وجرجنا أنا وتريشاتوف آخر من خرج • كان آندريف متسمرا أمام الباب ، كنصب ، ينتظر تريشاتوف •

قال له لامبير الذى أصبح لا يستطيع كظم غيظه :

ـ سافل !

فاذا بآندريف يزأر صائحاً :

ـ هيه !

ثم اذا هو يقلب له قبعته بقفا يده ، فتسقط القبعة على الرصيف • ويسرع لامبير الى التقاطها بمذلة •

ـ « خمسه وعشرون روبلاً » •

كذلك قال آندريف لتريشـاتوف وهو يريه الورقة النقدية التى استطاع أن ينتزعها من لامبير • فصرخ تريشاتوف قائلاً له :

ـ كفى ! لماذا الجرسـة دائماً ؟ ولماذا أخذت منه خمسة وعشرين روبلاً ؟ انه لا يدين لك الا بسبعة روبلات •

ـ لماذا ؟ لأنه وعدنا بأن نتعشى وحـدنا مع نساء ، فاذا هو يعشينا مع هذا المجدور بدلاً من النسـاء • هذا عدا أننى لم أفرغ من طعامى ، وقد تجمدت من البـرد على الرصيف بما يسـاوى ثمانية عشر روبلاً ، فيكون المجموع خمسة وعشرين •

زأر لامبير يقول :

ـ شـيطان يأخذكما ! اننى أطردكما كليكما ولسوف أريكما •••

فصرخ آندريف قائلاً :

ـ لامبير ، أنا الذى اطردك ، وانا الذى سـوف أريك ! ...
« الوداع يا أميرى » ! لاتزد على ما شربت . هلمّ يا بييرو ! الى الأمام ، سر ! « أوهيه لامبير ! أينَ لامبير ؟ هل رأيت لامبير ؟ » .

كذلك ردّد مرة أخيرة وهو يبتعد بخطى عملاق ! .

تمتم تريشـاروف يقول لى بسرعة وهو يتعجل اللحاق بصديقه :

ـ اذن سأجىء اليك ، هل تسمح ؟

وبقيت وحـدى مع لامبير . قال وهو لايكاد يستطيع أن يسترد أنفاسه ، وكأنه فقد صوابه :

ـ هيّا بنا !

فأسرعت أصيح قائلا له بلهجة متحدية مستفزة :

ـ الى أين ؟ لا ، لن أصحبك الى أى مكان !

فسألنى قلقاً وقد ثاب الى نفسه فجأة :

ـ كيف هذا ؟ اننى لم أكن أنتظر الا أن نبقى وحدنا .

ـ الى أين ؟

يجب أن أعترف بأن رأسى كان يدور قليـلاً بعد أن شربت ثلاث أقداح من الشمبانيا ، وكأسين من خمرة الخريز .

ـ الى هنا ، الى هنا ، هل ترى ؟

ـ ولكن فى هذا المحل محاراً طازجاً كما ترى . مكتوب ذلك . فالرائحة اذن كريهة .

ـ هذا ما يجب لنا بعد العشاء . انه محل ميليوتين . المحار لن نأكله . ولكننى سأقدم لك شمبانيا .

ـ مستحيل . أنت تريد أن تُسكرنى .

ـ هما اللذان قالا لك هذا . ضحكا عليك . أتصدق هذين الوغدين ؟

ـ لا ، ليس تريشاروف وغداً . ثم أنني أعرف بنفسي كيف أكون حذراً .

ـ فلك اذن ارادة قوية ؟

ـ نعم ، لي ارادة قوية ، أقوى من ارادتك على الأقل ، فأنت يستعبدك أول قادم ! لقد جللتنا بالعار . مضيت تعتذر لذينك البولنديين ذليلاً كخادم . لابد أنك كثيراً ما ضربت في المطاعم .

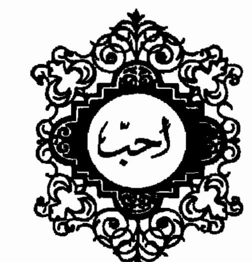
صاح يقول باحتقار وقد نفد صبره نفاداً معناه : « وأنت أيضاً ؟ » .

ـ ولكن بيننا كلام يا غبي ! أتراك خائفاً ؟ أأنت صديقي أم لا ؟

ـ لست صديقك ، ما أنت الا وحش دنيء . على كل حال ، هيا بنا ! أريد أن أبرهن لك على أنني لست خائفاً منك . هوه ! ما أبشع هذه الرائحة ! رائحة جبن عفن ! ما أشدها قذارة !

الفصل السادس

١



أحبَّ

أن أذكرّ مرةً أخرى بأن رأسى كان يدور قليلاً . والا لكنت تصرفت وتكلمت على غير هذا النحو .

فى قاعة خلفية من تلك الدكان كان يؤكل محار فعلاً . وقد جلسنا الى مائدة عليها غطاء وسخ . وأمر لامبير بشامبانيا . فاذا أمامى قدح مملوءة بخمرة باردة لونها كلون الذهب ، تنظر الىّ وتغرينى بنفسها . لكننى كنت مستاءً مهموماً .

ـ هل تعلم يا لامبير ما الذى يسوءنى منك خاصة ؟ أنك تتصور نفسك قادراً حتى الآن على أن تأمرنى فأطيع ، كما كان الحال فى مدرسة توشار ، مع أنك أنت المستعبد لهم جميعاً هنا !

ـ غبى ! هيَّا ! لندق الأقداح !

ـ لا تريد حتى أن تجبر نفسك على شىء . ليتك تحاول على الأقل أن تخفى عنى أنك تريد أن تسكرنى !

ـ انك تقول سخافات ، وانك لسكران . يجب أن تشرب المزيد فتصبح أكثر مرحاً . هيَّا تناول قدحك . ما بالك لا تتناول قدحك ؟

ـ أتناول قدحى ؟ أنا منصرف . ذلك كل ما ستحصل عليه منى !

وهممت أن أنصرف فعلاً . ولكن هاهو ذا يغضب غضباً شديداً :

ـ ان تريشاتوف هو الذى أثارك علىّ : رأيتكما ، كنتما تتهامسان .

ما أنت الا غبى . ان آلفونسين تشمئز منه اذا هو أقترب منها ... انه مقزز . سأحكى لك عنه فتعرف ما قيمته !

ـ سبق أن حكيت لى . ليس فى فمك الا اسم آلفونسين ! انك لمحدود العقل حقاً !

ـ محدود ؟

لم يفهم عنى . وأردف يقول :

ـ هاهما الآن مع المجدور . ذلك هو السبب فى أننى طردتهما . ان هذا المجدور رجل دنىء . سوف يفسدهما . أما أنا فكنت أطالبهما بأن يلتزما الشرف والنبل فى سلوكهما دائماً .

جلست ، وتناولت القدح بغير شعور ، وجرعت جرعة . قلت له :

ـ أنا بثقافتى أعلى منك كثيراً !

ولكنه كان قد امتلأ فرحاً بأننى عدت أجلس . وسرعان ما ملأ لى القدح مرة أخرى . تابعت كلامى لأغيظه (ولا شك أننى كنت عندئذ أبعث منه على الاشمزاز) ، فقلت :

ـ ولكنك خائف منهما ، أليس كذلك ؟ أسقط آندرييف قبعتك عن رأسك ، فكافأته على ذلك بخمسة وعشرين روبلاً .

ـ نعم ، ولكنه سينال عقابه . انهما يتمردان ، ولكننى سأعرف كيف أقتص ...

ـ والمجدور يعذبك . أظن أنك لم يبق لك أحد غيرى . فجميع آمالك معقودة علىّ أنا الآن ، هه ؟

ـ نعم يا عزيزي آركادي • هذا صحيح جداً : لم يبق لي صديق غيرك • صدقت !

قال ذلك وربت على كتفي •

ما العمل برجـل يبلغ هـذا المبلغ من الغبـاء ! انه بعقله المحدود يحسب السخرية مديحاً •

تابع كلامه وهو ينظر الىّ برقة وعاطفة :

ـ في وسعك أن تجنبني كثيراً من المنغصات ، وأن تخلصني من ورطة اذا كنت رفيقاً مخلصاً يا آركادي !

ـ كيف ذلك ؟

ـ أنت تعرفه • ما لم أساعدك فستظل غبياً طول حياتك ، لكنني أستطيع أن أهيىء ثلاثين ألف روبل نقتسـمها نصفين ، نصـفاً لك ونصفاً لي • انظر ماذا أنت الآن : انك لا تملك شيئاً ، لا اسماً ولا أسرة • فاذا قبلت ما أعرضـه عليك صرت غنيـاً في طرفة عين • وبثروة كهذه الثروة تستطيع أن تشق لنفسك طريقاً •••

ذهلت من هذا الأسـلوب • كنت أتصـور أنه سـيعمد الى المكر والحيلة ، ثم هاهو ذا يمضي الى الهدف رأساً فيكلمني بلا لف ولا دوران كما يكلمّ صبي صغير • قررت أن أصغي اليه ، من باب رحابة الفكر •• وبتأثير الفضول الشديد أيضاً !

قلت له بلهجة ثابتة صارمة :

ـ اسـمع يا لامبير ، قد لاتفهـم ما سأقوله لك ، لكنني سأقوله : انني أقبل أن أصغي الى كلامك لأنني رحب الفكر •

وجرعت جرعة أخرى ، فسرعان ما عاد لامبير يكمل ملء الكأس . وقال :

ـ اسمع يا آركادى : لو أن رجلاً مثل بيورنيج قد أباح لنفسه أن يشتمنى وأن يضربنى بحضور سيدة أعبدها ، لما عرفت ماذا كان يمكن أن أفعل ! أما أنت فقد تحملت . ولذلك أحتقرك : ما أنت الا خرقة بالية !

فهتفت أقول وقد اصطبغ وجهى بحمرة شديدة :

ـ تجرؤ أن تقول ان بيورنيج ضربنى ؟ أنا الذى ضربته ، وليس هو الذى ضربنى !

ـ بل هو الذى ضربك ولست أنت الذى ضربته !

ـ كذاب ! حتى اننى دست على قدمه !

ـ لكنه دفعك عنه بيده وأمر الخدم أن يقتادوك ... وكانت هى فى العربة تنظر اليك وتضحك عليك ! هى تعلم أنك ليس لك أب ، وأنك تبلع كل اهانة !

ـ يخيل الى يا لامبير أننا نتكلم الآن كما يتكلم تلاميذ مدرسة . واننى لأشعر عنك بخزى وعار . أنت تقول هذا كله لتستثيرنى ، وتقوله بغلظة شديدة وفظاظة صريحة ... أتراك تحسبنى صبياً فى السادسة عشرة من عمرى ؟

ثم هتفت أقول وأنا أرتعش غضباً وأشرب كأسى جرعات بغير شعور :

ـ انك تفاهمت مع آنا آندريفنا !

ـ آنا آندريفنا وغدة ماكرة ، ستضحك علينا أنا وأنت والعالم بأسره ! وأنا انما انتظرتك لأنك تستطيع أن تتفق مع الأخرى .

ـ من الأخرى ؟

ـ السيدة آخماكوفا . اننى أعـرف كل شىء . أنت نفسك قلت لى انها تخشى الرسالة التى فى حوزتك ...

ـ أية رسالة ؟ ... أنت كذاب !

وتمتمت أقول مضطرباً أشد الاضطراب :

ـ هل رأيتها ؟

ـ رأيتها . جميلة ، « جميلة جداً » . ان لك ذوقاً رفيعاً !

ـ أعرف أنك رأيتها . ولكنك لم تجرؤ أن تكلمها . ولا أريد أن تتكلم عنها .

ـ انك مازلت فتى غـراً ، وهى تضـحك عليك وتسـخر منك لا أكثر . عرفنـا فاضلة من هذا النوع بموسكو . ما كان أشد شموخها بأنفها ! ولكن ما ان هُدِّدت بفضـح كل شىء حتى أخـذت ترتجف ، وسرعان ما أصبحت طيِّعة ! فنلنـا منها كل ما أردنا : المال وغير المال . هل تفهـم ؟ لقد عادت الآن الى المجتمع ، وأصـبح الوصـول اليهـا مستحيلاً ، وصـارت تحلق عاليـاً . ما أفخم العربة التى تركبها ! ليتك رأيت الماخور الذى تمَّ فيـه هذا كله ! انك لم تعش بعد . ليتك تعرف المواخير التى لا يخشين فيها أن ...

تمتمت أقول بغير ارادة :

ـ خطر ببالى هذا !

ـ انهن فاسقات حتى نخاع العظام ! انك لا تعرف كيف لا يتورعن عن شىء ! لقد عاشت آلفونسين فى بيت من تلك البيوت ، فما كان أشد اشمئزازها !

فقلت أؤيده مرةً أخرى :

ـ فكرت في هذا !

ـ أ تضرب ثم تأخذك شفقة ؟ ...

فأدركت قصده على الفور ، فصرخت أقول له وأنا أرتجف غضباً :

ـ لامبير ، أنت وغد ، أنت وبش لئيم ! لقد رأيت هذا كله في المنام . حلمت بك جالساً بجانب آنا آندريفنا ... آه ... انك سافل دنيء ! أكنت تحسبني حقيراً الى هذا الحد ؟ لقد رأيت هذا في المنام لأنني كنت أعلم منذ ذلك الحين أنك ستحدثني هذا الحديث . ثم ان الأمور ليست بسيطة هذه البساطة كلها فتحدثني عنها بمثل هذه الصراحة ، وبمثل هذه البساطة !

ـ أرأيت ؟ ها هو ذا يغضب ! هيء هيء هيء ...

أخذ لامبير يضحك منتصراً . وتابع كلامه فقال :

ـ اسمع يا عزيزي آكاردي . عرفت الآن ما أنا في حاجة اليه . لهذا انما كنت انتظرك ، استمع الى ما أقول : أنت تحبها ، وتريد أن تنتقم من بيورنج . هذا ما كنت أريد أن أعرفه . ولقد كنت أقدّره أثناء هذا الانتظار . « اذا كان الأمر كذلك ، فقد تغيرت المسألة » (بالفرنسية) . وفي هذا خير . ذلك أنها تحبك هي أيضاً . فتزوجها بلا ابطاء . هذا خير ما تفعل . ثم انك لا تستطيع أن تفعل غير هذا . لقد اخترت أفضل حل . ثم اعلم يا آركادي أن لك صديقاً . أنا الصديق الذي تستطيع أن تفعل به ما تشاء . ان هذا الصديق سيساعدك وسيزوجك . سأجد كل شيء . سأمضي أبحث تحت الأرض عن كل ما تحتاجه ، يا عزيزي آركادي . وفي مقابل ذلك تعطي رفيقك القديم ثلاثين ألف روبل أجراً على ما بذل من جهد ، هه ؟ سأساعدك . لا تقلق . أنا في مثل

هذه الأمـور أعرف جميع المداخل والمخارج .. ستنال المهر كله ، فاذا انت غنى ، واذا باب المستقبل اللامع ينفتح امامك .

كان راسى يدور . ولـكن هذا لا ينفى اننى كنت أنظـر الى لامبير مدهوشـا . لقد كان جـاداً فيما يقول ، او قـل اننى كنت ارى رؤية واضـحة أنه كان يصدّق هو نفسه أن فى امكانه أن يزوجنى ، بل انه يتبنى هذه الفكرة بحماسـة . وكنت أدرك كذلك طبعاً أنه يسـتدرجنى الى فخ كأننى طفل صغير (لاشك أننى قد أدركت هذا منذ ذلك الحين) . ولكن فكرة هذا الزواج بهـا كانت بلغت من قوة النفاذ الى كيـانى كله اننى رغم اندهاشى من أن يستطيع لامبير تصـديق هذا الخيـال ، قد اندفعت أنا نفسى الى تصديقه تصديقاً لا سـبيل الى مقاومتـه ، دون أن أفقد ، خلال لحظة واحدة ، شعورى بأن هذا أمر لا يمكن تحقيقه طبعاً . لا أدرى كيف أمكن أن تجتمع هذه المشاعر المتناقضة فى نفسى معاً .

تمتمت أسأله :

ــ ولكن هل هذا ممكن ؟

ــ لم لا ؟ تريها الوثيقة فتخاف فتتزوجك حتى لا تضيّع الميراث .

قررت ألا أصـدّ لامبير عن المضى فى هـذه الحقارات ، لأنه كان يعرضـها أمامى بسذاجة كبيرة ، ولا يخطر بباله أنه من الممكن أن يثور عليه حنقى فجأة . ومع ذلك دمدمت أقول له اننى لا أحب على كل حال أن أتزوج بقوة التهديد وحدها :

ــ مسـتحيل ، لن أتزوج عنـوةً . كيف يدور فى خلدك أن أكون من الخسة بحيث لا أتورع عن هذا ؟

ــ هوه ! ولكنها ستجىء اليك من تلقاء نفسها . لا أنت بل هى ستخاف فتتزوجك !

ثم استدرك يقول :

ـ ثم انها ستتزوجك لأنها تحبك .

ـ كذاب . أنت تسخر منى . كيف عرفت أنها تحبنى ؟

ـ أعرف هذا طبعاً . آنا آندريفنا تفترضه أيضاً . اننى جاد فيما أقول . اننى أقول الحقيقة : آنا آندريفنا تتصور هذا . سأحكى لك شيئاً آخر حين تجىء الىّ ، فترى أنها تحبك . لقد ذهبت آلفونسين الى تسارسكويا . وحصلت هي أيضاً على معلومات ...

ـ ماذا استطاعت أن تعلم هناك ؟

ـ لنذهب الى البيت : ستحكى لك هى نفسها ، فيكون ذلك أمتع لك وأحلى . ثم هل أنت أقلُّ من غيرك ؟ انك جميل ، ومتعلم ...

دمدمت أقول :

ـ نعم ، متعلم ...

كنت أتنفس بمشقة ، وكان قلبى يخفق خفقاناً شديداً حتى ليكاد يتحطم ، ولم تكن الخمرة هى السبب الوحيد طبعاً ...

ـ أنت جميل وأنيق .

ـ نعم أنيق .

ـ وطيب ...

ـ نعم طيب ...

ـ فكيف لا ترضاك اذن زوجاً ؟ ان بيورنج لن يتزوجها بدون أن يكون لها مال ، وأنت تستطيع أن تحرمها من مالها ، فتخاف فتتزوجك . واذا تزوجتها فقد انتقمت من بيورنج فى الوقت نفسه . لقد قلت لى فى تلك الليلة ، حين كنت متجمداً من البرد ، انها تحبك .

ـ أنا قلت لك هذا ؟ أنا لم أقل هذا الكلام حتماً !

ـ بلى بلى . قلت هذا الكلام بعينه .

ـ قلته أثناء الهذيان . ولابد انني حدثتك اذن عن الوثيقة ؟

ـ نعم ، ذكرت أن تلك الرسالة هي في حوزتك . فتساءلت أنا : اذا كان يملك تلك الرسالة فماذا ينتظر ؟ كيف يضيّع وقته ؟

تمتمت أقول :

ـ أضغاث أحلام . لست من الحماقة بحيث أصدّق أن هذا الزواج يمكن أن يتم . هناك أولاً فرق السن . وهناك ثانياً أنني ليس لي اسم .

ـ أقول لك انها ستتزوجك . يستحيل ألا تتزوجك حين تكون مهدّدة بفقد ميراث ضخم . وسوف أدبر هذا الأمر . ثم انها تحبك . هل تعلم ؟ ان هذا الأمير العجوز يحمل لك أطيب المشاعر . فما أكثر العلاقات التي تستطيع أن تعقدها برعايته ! أما عن الاسم ، فان المرء في هذا الزمان لا يحتاج الى اسم : متى ملكت المال فسوف تسير قدماً الى أمام ، وسوف تمضي بعيداً ، فما هي الا عشر سنين اذا أنت تملك من الملايين ما تهتز له روسيا كلها : ما حاجتك الى الاسم حينذاك ؟ ان في وسع المرء أن يشتري من النمسا لقب بارون . وحين تتزوج عليك أن تفرض ارادتك . يجب على الرجل أن يعرف كيف يعامل النساء . ان المرأة التي تحب رجلاً تريد أن يسيطر هذا الرجل عليها . المرأة تهوى في الرجل الصلابة .. وأنت متى أخفتها بالرسالة تكون قد برهنت لها في الوقت نفسه على صلابتك . ستقول : « آ ... لا يزال في ريق الشباب ثم هو صلب العزيمة الى هذا الحد ! » .

بقيت على مقعدي كالمصعوق . ما كان لي أن أنقاد لمثل هذا الحديث

الأحمق مع اى انسان اخر • ولكن ظمأ لذيذا لا ادرى ما كنهه كان يدفعني الى اطالة الحديث • ثم ان لامبير كان اشد غباء واشد حطة من أن يخجل المرء أمامه • قلت فجأة :

ـ اسمع يا لامبير • قل ما شئت • ولكن كلامك زاخر بالسخافات• ولئن كنت أكلمك فلأننا رفيقان ، فليس لأحدنا أن يخجل من الآخر • وما كان لى أن أنزل الى هذا المستوى لو كنت أكلم شخصاً آخر • ثم ما الذى يجعلك تجزم بأنها تحبنى ؟ لقد صدقت منذ قليل حين تكلمت عن المال • ولكنك يا لامبير لا تعرف المجتمع الراقى : ان كل شىء فى تلك البيئة يخضع لتقاليد نظام الأبوة ، ويخضع لاعتبارات التمييز بين الطبقات • وهى الآن تجهل طاقاتى ، ولا تعرف المدى الذى يمكن أن أبلغه فى هذه الحياة ، فلا يمكن الا أن تشعر بالعار اذا هى تزوجتنى • لكننى لا أكتمك يا لامبير أن هناك نقطة تبعث على الأمل هى أنها قد تتزوجنى على سبيل الشكر والامتنان ، لأننى سأخلّصها عندئذ من كره يضمره لها رجل تخاف منه •

ـ أباك تعنى ؟ هل هى تحبه اذن كثيراً ؟

ألقى لامبير هذا السؤال وقد هزّه فضول شديد • هتفت أقول :

ـ لا ، لا • حقاً انك لفظيع وغبى فى آن واحد ، يا لامبير ! هل يمكن أن أريد تزوجها لو كان يحبها ؟ الابن وأبوه ! سيكون هذا مخزياً رغم كل شىء ! ان أبى يحب ماما • لقد رأيته يقبّلها • ما كان أغبانى حين كنت أتصور فى الماضى أنه يحب كاترين نيقولايفنا ! صحيح أنه كان يحبها ، ولكنه أصبح يكرهها منذ مدة طويلة • انه يريد الانتقام ، وهى خائفة • ذلك أنه رهيب اذا هو أخذ ينتقم يا لامبير ! يكاد يصبح عندئذ مجنوناً • اذا غضب منها فانه يفقد صوابه فلا يتورع عن شىء ! هذا كره من نوع الكره الذى كان ينشب بين الأسر القديمة

ويقوم على اساس من مبادىء • الناس فى عصرنا هذا لا تقيم وزناً للمبادىء • في عصرنا هذا لا مبادىء بل حالات خاصة • اه ••• لامبير ! انك لاتفهم شيئاً • أنت غبى كقدميك • أنا أكلمك الآن عن المبادىء ، وأنت لا تفهم من أمر المبادىء شيئاً • أنت جاهل جهلاً رهيباً • هل تتذكر كيف كنت تضربنى ؟ ولكننى الآن أقوى منك • هل تعلم هذا ؟

— عزيزى آركادى ، لنذهب الى بيتى ! سنقضى السهرة معاً ، وسنشرب زجاجة أخرى ، وستغنى لنا آلفونسين عازفةً على القيثار •

— لا ، لن اذهب • اسمع يا لامبير • أنا لى « فكرتى » • فاذا لم ينجح المشروع ولم أتزوج ، فسوف أرتد الى فكرتى • أما أنت فليس لك فكرة •

— طيب طيب • ستحدثنى عن هذا • هيَّا بنا !

— لن أذهب الى بيتك !

ونهضت ، وأنا لا أزال أقول :

— لا أريد أن أذهب ، ولن أذهب • سأجىء اليك ، ولكن ما أنت الا وغد • سأعطيك ثلاثين ألفاً • ليكن • لكننى أطهر منك وأنبل منك • أما هى ، فاننى أمنعك حتى من أن تفكر فيها : انها فوقنا جميعاً • ما خططك الا قذارات استغربها حتى منك أنت • أريد أن أتزوج • هذه قضية أخرى • ولكننى لست فى حاجة الى ثروة • أنا أحتقر الثروة • لن أقبل ولو قدمت لى ثروتها راكعة ••• أن أتزوج ؟ هذه مسألة أخرى • ثم ••• هل تعلم ؟ صدقت حين قلت ان على الرجل أن يكون صلباً فيعرف كيف يسيطر عليهن • حسن أن يحب الرجل ، أن يحب حباً قوياً مشبوباً ، بكل ما يقدر عليه الرجل وتعجز عنه المرأة من عظمة النفس ، ولكن يجب أن يكون الرجل طاغية مستبداً • ذلك أن المرأة ،

يا لامبير ، تحب الاستبداد • أنت يا لامبير تعرف النساء ، ولكنك في كل ما عدا ذلك غبي غباءً يثير الدهشة • ثم هل تعلم يا لامبير ؟ ما أنت بالمقزز الى الحد الذي يتصوره المرء حين يراك • أنت بسيط • أحبك يا لامبير • آه يا لامبير ، لماذا أنت وبش ؟ الحياة معك يمكن أن تكون ملأى بالفرح والمرح ! هل تعلم يا لامبير ؟ أنا أرى أن تريشاتوف لطيف وديع •

هذه الجمل الأخيرة المفككة التي لا يربطها رابط انما تمتمتها بعد أن صرنا في الشارع • انني أتذكر أيسر التفاصيل : يجب أن يرى القارىء كيف أمكنني عندئذ أن أسقط في مثل هذا الوحل بمثل هذه السهولة بعد كل ما شبّ في نفسي من حماسة ، وكل ما حلفته من أيمان ، وكل ما قطعته من عهود لأرجع الى الخير وأبحث عن الجمال • قسماً ما كنت لأعترف بهذه المخازي على أية حال من الأحوال ، على أية حال من الأحوال ، لولا اقتناعي الكامل التام بأن الحياة قد أحالتني انسانا آخر تعلم الحياة العملية وتعودها •

كنا قد خرجنا من الدكان ، وكان لامبير يسندني محيطاً بذراعه قامتي • ورفعت اليه بصري فجأة ، فرأيت في نظرته الثابتة المتفحصة اليقظة المختلسة ذلك التعبير نفسه الذي رأيته فيها يوم كنت متجلداً من البرد عند الصباح ، فقادني محيطا بذراعه قامتي ، على هذه الصورة تماماً ، الى أن أوصلني الى عربة ركبتها ، وكان يصغي بأذنيه وعينيه جميعاً الى تمتماتي المفككة التي لا يربطها رابط • ان الأشخاص الذين أثملهم الشراب ولكنهم لم يسكروا سكراً تاماً ، توافيهم على حين فجأة لحظات صحو كامل •

قلت له بصلابة وأنا ألقي عليه نظرة ساخرة وأدفع ذراعه عني :

ـ لن أصحبك الى بيتك بحال من الأحوال !

ـ طيب طيب • سآمر آلفونسين بأن تهيىء لنا شاياً •

كان مقتنعاً أعمق الاقتنـــاع بأنني لن أفلت منـــه • وكان يحيطني بذراعه ويسندني مغتبطاً أعظم الاغتباط ، لأنه أطبق على فريسته • لقد كان محتاجاً الي في ذلك المساء ذاته ، وأنا على هذه الحـال نفســها • وسترون سبب ذلك فيما بعد •

كررت أقول :

ـ لن أذهب معك ! يا حوذي !

وكانت زلاجة تمـر في تلك اللحظة نفسها فوثبت وصرت فيها • فزأر لامبير خائفاً خوفاً رهيباً وهو يشدني من معطفي :

ـ الى أين تذهب ؟ ما هذا الذي تفعل ؟

فصحت أقول له :

ـ ولا تحاول أن تتبعني ، لا تجر ورائي !

وضرب الحوذي حصانه بسوطه ، فسارت العربة ، وأفلت معطفي من يدي لامبير • فصرخ لامبير ورائي يقول بصوت خبيث :

ـ سيان ! لسوف تجيء !

ـ أجيء اذا أردت •

كذلك أجبته من العربة وأنا التفت اليه •

٢

لم يلاحقنى ، ويرجع ذلك فى أغلب الظن أنه لم يقع على عربة فوراً ، فاستطعت أن أفلت منه • ولكن ما ان وصلت الى « سوق العلف » حتى نزلت من العربة وصرفتهـا • كان بى شوق جنونى الى المشى • لم أكن أشعر لا بتعب ولا بسكر شديد • وانما كنت أشعر بنوع من نشاط الهمة وفيض القوة ، وبقدرة خارقة على القيام بأى عمل ، وبأفكار لذيذة لا نهاية لها تزدحم فى رأسى •

وكان قلبى يخفق خفقاناً قوياً ، حتى لقد كنت أسمع كل دقة من دقاته • وكان كل شىء فى نظرى فاتناً وسـهلاً • فلما وصـلت الى أول مخفر بسـوق العلف شبت فى نفسى رغبة قوية فى أن أمضى الى الخفير فأعانقـه وأقبّله • وكان الجليد يذوب ، وكان الميدان مظلمـاً ، وكانت تفوح فيـه روائح كريهـة ؟ غير أن كل شىء كان يعجبنى ، حتى هذا الميدان •

قلت لنفسى : « سأسير الآن فى شارع أوبوخوف ، ثم التفت يسرةً فأمشى فى شـارع سيمينوفسـكى ، فأكون قد درت دورة • هذا لذيذ • وكانت أزرار معطفى محلولة : لا أحـد يشد معطفى • أين هم اللصـوص اذن ؟ يقال ان فى « ميـدان العلف » لصوصـاً • فما بالهم لا يتقدمون منى ! قد أعطيهم معطفى • ما حاجتى اليه ؟ المعطف تملك • و « كل تملك سرقة » • ولكن كفى بلاهة ! ما أجمل كل شىء ! ما أحلى أن يذوب الجليد • علام الجليد ؟ ما ينبغى أن يـكون جليد • ما أحسن

ان يقول المرء سـخافات . عجيب ، ماذا قلت للامير عن المبادىء ؟ قلت انه لا مبادىء بل حالات خاصة . كذبت . كذبت أكبر الكذب . كذبت متعمدا ، لادهشـه واذهله . هذا عيب ، هذا خزى . ولكن لا ضير . سأصلح الامر . لا تشعر بعار يا آركادى ماكاروفتش ، لا تعذب نفسك ! انك تعجبنى يا آركادى ماكاروفتش ، بل انك تعجبنى كثيراً يا صديقى الشـاب . خسـارة أن تكون وغداً صغيراً .. و .. و .. آه . آه .. » .

وقفت فجأة وانتشى قلبى من جديد .

« رباه ! ماذا قال ؟ قال انهـا تحبنى ! يا للسـافل ! لقد كذب . قال ذلك لأصحبه فأقضى الليلة عنده . ولكن قد أكون مخطئاً . قال ان آنا آندريفنا تعتقد بهذا هى أيضاً ... هىء هىء ! لعل داريا أونيسيموفنا استطاعت أن تعرف شيئاً : انها تحشر أنفها فى كل مكان . ثم لماذا لم أصحبه الى بيته ؟ لو صحبته لكان يمـكن أن يحـكى لى كل شىء . هم .. ان له خطته . أوجست هذا وتنبأت بجميع تفاصيله . حلم . انك قد أجدت تصور خطتك يا مسيو لامبير . ولكنك تكذب . لن تجرى الأمور هذا المجرى . ولكن قد تجـرى هذا المجرى ! قد تجـرى ! هل هو يعجز عن تزويجى ؟ انه قادر على هذا قدرة تامة . هو ساذج وهو يصدّق . هو غبى وجرىء ، كجميع رجـال الأعمال . اجتماع الغباء والجسارة قوة كبيرة . اعترف يا آركادى ايفانوفتش ، اعترف أنك خفت من لامبير ! وما حاجتـه الى رجال شرفاء ؟ انه قال هذا الكلام جاداً : ما من رجل شريف هنا ! ولكن ماذا أنت ؟ هوه ! ما هذا الذى أقوله ؟ أليس الأوغاد فى حاجة الى شرفاء ؟ ان الحاجة الى الشرفاء هى فى الأعمال السافلة أشد منها فى أى مجال آخر . هأهأهأ ! كنت لا تعـرف هذا بعدُ يا آركادى ماكاروفتش ، من شدة براءتك ! يا رب ! ماذا لو زوجنى حقاً !

وتوقفت مرةً أخرى • يجب ان أعترف هنا بأمر سخيف (مادام هذا الامر يرجع عهده الى زمان بعيد) ، يجب ان اعترف بانني كنت منذ مدة طويلة أريد أن أتزوج • بل قل انني كنت لا أريد هذا ، وما كان لهذا أن يحدث (وهو لن يحدث أبداً ، أقسم على ذلك بشرفي) ، لكنني كنت قد حلمت بالزواج مراراً كثيرة ، خلال مدة طويلة ، قلت لنفسي عدداً لانهاية له من المرات : ما أحلى أن أتزوج ! وكان يحدث لى هذا كل مساء حين أستلقى فى فراشى لأنام • بدأ ذلك عندى وأنا فى السادسة عشرة من العمر • كان لى فى المدرسة الثانويه رفيق اسمه لافروفسكى • هو فتى لطيف جداً ، وهادىء ، وجميل • ولكن هذه مزاياه كلها لا ميزة له غيرها • كنت لا أكاد أكلمه أبداً • ثم اذا نحن نجد نفسينا فى ذات يوم وحيدين ، قد جلس كل منا بجانب الآخر • كان غارقاً فى التفكير • وها هو ذا يقول لى فجأة : « آه يا دولجوروكى ! ما رأيك ؟ ليتنا نتزوج ! ومتى نتزوج اذا لم نتزوج الآن؟ هذه أصلح فترات العمر للزواج• ومع ذلك يستحيل الزواج ! »• قال ما قاله صادقاً مخلصاً • فشعرت باننى أوافقه على رأيه بكل نفسى ، لأننى كنت أحلم هذا الحلم من قبل • والتقينا بعد ذلك عدة مرات متتالية ، فكنا نتكلم فى هذا الأمر دائماً ، متخفين متكتمين • وبعد ذلك انفصلنا ، لا أدرى لماذا ، وانقطعنا عن التخاطب • فى ذلك الحين اذن انما أخذت أحلم بالزواج • ولكن علام أذكر كل شيء ؟ اننى ما تحدثت عن تلك الفترة الا لأبين كيف أن الأمور يرجع عهدها فى بعض الأحيان الى زمان بعيد •••

قلت لنفسى وأنا استمر فى المشى : « ليس هناك الا اعتراض هام واحد : ان فرقاً طفيفاً فى السن لن يكون عقبةً ، ولكنْ هى ارستقراطية ، وأنا دولجوروكى فحسب ! هذا سيء جداً ! همْ ••• يستطيع فرسيلوف

اذا تزوج ماما أن يطلب من الحكومة موافقتها على أن يتبناني ... مكافأة للأب على خدماته . لقد خدم في الوظيفة . فله اذن خدمات . كان وسيط صلح . آه ... ما هذه الدناءة التي أنحط اليها ! » .

هتفت هذا الهتاف ، ووقفت مرة ً ثالثة على حين فجأة ، لكنني في هذه المرة كنت كمن سحق في مكانه سحقاً . أحسست بمذلة أليمة من هذه الفكرة التي أمكن أن تخطر ببالي وهي أن أغير اسمي بالتبني فأخون كل طفولتي . وبدّد هذا كلّ ما كنت أحسه من بهجة ، وطار فرحي دخاناً . قلت محدثاً نفسي وأنا أحمر احمراراً فظيعاً : « لن ، لن أفضي بهذا الى أحد ، ولئن انحططت الى هذه الدناءة كلها ، فذلك ... فذلك لأنني عاشق وغبي . لا ، اذا صدق لامبير في أمر ، فقد صدق حين قال ان المرء في هذا الزمان لا يحتاج الى هذه السخافات ، وان الشيء الأساسي في عصرنا انما هو الشخص ثم ماله . بل الشخص ثم قوته لا ماله . انني أستطيع بهذه الثروة أن أنطلق في تحقيق « فكرتي »، فما هي الا عشر سنين حتى يترجع ذكر اسمي في روسيا كلها ، وأنتقم من الجميع . ولا حاجة بي معها الى هذا الاحتفال كله ! هنا صدق لامبير أيضاً : لسوف تخاف فتتزوجني . الأمر بسيط . سوف توافق ببساطة تامة ، على أنفه نحو . وتذكرت أقوال لامبير : « انك لا تعرف في أي ماخور تمّ هذا » ، فقلت أحدث نفسي مؤيداً كلام لامبير : « صحيح . ان لامبير على حق في جميع النقاط . هو أصدق رأياً مني ألف مرة ، وأصدق رأياً من فرسيلوف ، ومن سائر هؤلاء المثاليين ! انه رجل واقعي . سوف ترى أن لي ارادة صلبة . وسوف تقول : ان له ارادة صلبة . » لامبير وغد . وهو لا يفكر الا في أن يحصل مني على ثلاثين ألفاً . ولكنه صديقي الوحيد ، رغم كل شيء . ما من صداقة أخرى ممكنة . ان الذين تخيلوا هذا أناس عمليون . وأنا لا أذلها هي .

هل أنا اذلها ؟ ابدا • النساء جميعا سواء • هل في الدنيا كلها امراة غير دنيئة ؟ لهذا هن في حاجة الى الرجل • لقد خلقن عبيداً • المرأة رذيله وفضيحة ، والرجل نبل وكرم • وستبقى الحال على هذا المنوال الى اخر الدهر • انني أفكر في استغلال الوثيقة : أي ضير في هذا ؟ هذا لا ينفي النبل ولا الكرم • ليس في هذه الحيـاة شيللر كامل لا تشوبه شائبـة • تلك صورة لفقها الخيال • لا قيمة للوسيلة الدنيئة اذا كانت الغاية نبيلة • ثم يُغسل كل شيء فلا يبقى أثر من وساخة • هذه رحابة الفكر ، هذه هي الحيـاة ، هذه هي الحقيقة العملية • كذلك يجب أن تسـمى الأمور اليوم ! » •

أعود فأستغفر القارىء عن ذكر كل هذا الهذيان الذي دار في رأس سكران ، استغفره عن ذكره كاملاً لم أسقط منه شـيئاً • ان ما ذكرته هو زبدة الأفكار التي تلاحقت في رأسي آنـذاك ، لكنني أظن مع ذلك أنني استعملت هذه العبارات نفسها • وكان لابد لي أن أنقلها الآن ما دمت أكتب لأحكم على نفسي • والا لم يبق ما أحكم عليه • هل في الحياة ماهو أخطـر من هذا ؟ وليست الخمر بمبرر • فقديماً قال المثـل اللاتيني : « الخمر تكشف » •

وفيما كنت مسترسـلاً في هذه الأحـلام غارقاً في هذه الأخيلة ، لاحظت أنني قد وصلت الى البيت ، أعني بيت أمي • حتى أنني لم ألاحظ كيف دخلت • ولكن ما ان وضعت قدمي في حجرة المدخل الصغيرة حتى أدركت فوراً أن شيئاً خارقاً قد حدث • ففي الغرف يُسمع كلام ويُطلق صراخ ، وأمي تبكي • وكادت لوكيريا أن تقلبني وهي تمـر كالاعصار من غرفة ماكار ايفانوفتش الى المطبخ • فخلعت معطفي ، ودخلت غـرفة ماكار ايفانوفتش لأن الجميع كانوا محتشدين فيها •

كان في الغرفة فرسيلوف وأمي • وكانت أمي متهالكة على ذراعي

فرسيلوف ، وكان فرسيلوف يشدها الى صدره شدا قويا • وكان ماكار ايفانوفتش جالسا على المقعد كعادته ، لكنه يبدو منهارا لا قوة له • فكانت ليزا تسند كتفه بمشقة كبيرة لتمنعه من السقوط • وكان واضحاً أنه يوشك في كل لحظة أن يسقط • فلما تقدمت نحوه بخطوة سريعة ، ارتعدت وأدركت كل شيء : كان الشيخ ميتاً •

لقد مات منذ قليل ، ربما قبل وصولى بدقيقة واحدة • كان قبل عشر دقائق لا يحس بأى تغير فى حالته • ولم يكن عنده الا ليزا • كانت جالسةً بجانبه تحدثه عن حزنها وتفضى اليه بأشجانها ، وكان هو يلاعب رأسها كما فعل بالأمس • ثم اذا هو يرتجف على حين فجأة (هذا ما روته ليزا) ، وقد أراد أن ينهض ، وأراد أن يصرخ ، لكنه لم يلبث أن سقط على جنبه الأيسر صامتا • قال فرسيلوف : «هو القلب ! »• وصرخت ليزا صرخة قوية جعلت كل من فى البيت يهبون واقفين ، وهرع الجميع • حدث هذا كله ربما قبل وصولى بدقيقة واحدة !

صرخ فرسيلوف يقول لى :

ـ آركادى ! اركض فوراً الى تاتيانا بافلوفنا ! هى الآن فى بيتها حتماً • فقل لها أن تأتى فوراً • اركب عربة • أسرع ، أرجوك •

كانت عيناه تسطعان ، أتذكر هذا تذكراً واضحاً • لم ألاحظ فى وجهه شيئاً مما يشبه أن يكون حسرة واضحة أو دموعاً • ان أمى وليزا ولوكيريا هنّ اللواتى كن يبكين • بل انى لأذكر ذكراً واضحاً أن ما فجأ بصرى فى وجهه انما هو اهتياج شديد ، نوع من حماسة • وركضت متجهاً الى بيت تاتيانا بافلوفنا •

ليس الطريق طويلاً • تعلمون هذا مما سلف • لم أركب عربة ، وانما اجتزت المسافة راكضاً بغير توقف • كنت مضطرب الفكر ، حتى

لأكاد أكون متحمساً أنا أيضـاً . لقد أدركت أن حادثاً له شأن خطير قد وقع . فلما وصلت الى بيت تاتيانا بافلوفنـا ، كان سكرى قد تبدد تماما ، وتبددت معه جميع تلك الأفكار الدنيئة .

فتحت الفنلندية الباب وقالت : « السيدة خرجت ! » ، وهمَّت أن تغلق ثانيةً .

فقلت وأنا أقتحم الباب الى حجرة المدخل اقتحاماً :

ـ خرجت ؟ كيف ؟ مستحيل . مات ماكار ايفانوفتش !

فاذا بصوت تاتيانا بافلوفنا يدوّى من خلال باب صالونها المغلق :

ـ ما ... ذا ؟

مات ! ماكار ايفانوفتش ما مات ! يرجوك آندره بتروفتش أن تجيئى حالاً .

ـ كذاب !

وصرّ المزلاج ، ولـكن الباب لم يفتح فتحاً وانما شقّ بمقدار اصبع :

ـ « ماذا حدث ؟ قل ! » .

ـ لا أدرى . وصلت الى البيت فوجدت ماكار ايفانوفتش ميتـاً . آندره بتروفتش يقول : « هو القلب ! » .

ـ حالاً ، حالاً ! اركض . قل انى آتيـة فوراً . هيا اذهب . ما بالك لاتذهب ! ماذا ؟ ما بقاؤك واقفاً هنا ؟

لقد رأيت رؤية واضـحةً ، من خلال الباب المشقوق ، ان أحداً خرج من وراء الستارة التى تحجب سرير تاتيانا بافلوفنا ، وتسمّر فى قرارة الغرفة ، وراء تاتيانا بافلوفنا ، فوجدتنى أضع يدى على المزلاج آلياً ، غريزياً ، بحيث لا يمكن اغلاق الباب ثانية .

ـ آركادى ايفانوفتش ! هل صحيح أنه مات ؟

انه صوت أعرفه ، صوت رقيق عذب متسق ، يرن رنين المعدن ، هزّ أعماق نفسى منذ سمعته • وكان سؤالها يختلج بعاطفة وتأثر •

قالت تاتيانا فافلوفنا وهى تترك الباب فجأة :

ـ اذا كان الأمر كذلك ، فدبرا أمركما بنفسكما كما تريدان • أنت التى أردت هذا !

وولّت مسرعة تختطف شالاً ومعطفاً قصيراً ، وتهرع الى السلم • وبقينا وحيدين • نضوت عنى معطفى ، وتقدمت خطوة ، وأغلقت الباب •

كانت واقفةً أمامى كما حدث فى لقائنا السابق ، مشرقة المحيا ، واضحة النظرة • .وكما فى المرة الماضية مدت الىّ كلتا يديها • وكأن منجلاً قطع ساقىّ ، فاذا أنا أهوى على قدميها •

٣

أخذت أبكى ، لا أدرى لماذا . لقد نسيت الآن كيف أجلستنى بجانبها . ولكننى ــ وهذه ذكرى ثمينة ــ رأيتنا جالسين جنباً الى جنب ، قد أمسك كل منا يد الآخر ، واندفعنا فى حديث سريع . سألتنى عن الشيخ وعن موته ، فحكيت لها ما أعرف ، فلو رآنى أحد أثناء ذلك لظننى أبكى على ماكار ايفانوفتش ، ولكان ذلك ذروة السخافة . وأنا أعلم على كل حال أنها لا يمكن أن تفترض فىّ بلاهةً كهذه البلاهة الصبيانية . وثبت الى نفسى أخيراً على حين فجأة ، وشعرت بخزى وعار . أفترض الآن اننى انما بكيت حينذاك من فرط الحماسة ، وأظن أنها أدركت ذلك فوراً ، فأنا من هذه الناحية مطمئن .

وبدا لى فجأة أن من المستغرب جداً أن تسألنى بمثل هذا الالحاح عن ماكار ايفانوفتش . فسألتها مدهوشاً :

ــ هل تعرفينه ؟

فأجابت :

ــ منذ مدة طويلة . اننى لم أره يوماً . ولكنه لعب فى حياتى دوراً . سمعت عنه أشياء كثيرة فى الماضى من الرجل الذى أخشاه . تعرف من أعنى .

ـ أعرف الآن أن « ذلك الرجل » كان أقرب الى نفسك كثيراً مما أظهرت ٠

قلت لها ذلك وأنا لا أدرى ما الذى أردت أن أعبرّ عنه ، ولكننى قلته مؤاخذاً مقطب الجبين ٠

تابعت مساءلتى فقالت دون أن تصغى الى كلامى :

ـ تقول انك رأيته يقبّل ماما منذ قليل ؟ قبّلها ؟ رأيته بعينيك ؟

فأسرعت أجيب مؤكدا ، وقد رأيت كيف تهلل وجهها فرحاً :

ـ نعم رأيته ٠ وصدّقى أن ذلك كله كان صادقاً كل الصدق كريماً كل الكرم ٠

قالت وهى ترسم اشارة الصليب :

ـ الحمد لله ٠ الآن تحلل من أغلاله ٠ كان هذا الشيخ يكبل حياة آندره بتروفتش بالأصفاد ٠ ولسوف ينبعث الشعور بالواجب والشعور بالكرامة فى نفسه من جديد ، كما حدث هذا مرةً من قبل ٠ ذلك أنه رجل كريم قبل كل شيء ٠ وسوف يهدىء قلب ماما التى يحبها أكثر مما يحب أى شيء فى هذه الحياة ، وسيهدأ هو نفسه أخيراً ٠ الحمد لله ٠ آن الأوان ٠

ـ هل هو عزيز عليك ؟

ـ نعم ، عزيز جداً ، ولكن ليس بالمعنى الذى يريده هو وتقصده أنت ٠

سألتها فجأة :

ـ ولكن الآن ، أأنت خائفة على نفسك أم خائفة عليه ؟

ـ هذه أسئلة صعبة ٠ لنتركها !

ـ لنتركها ، نعم ، ولكننى كنت لا أعرف من هذا كله شيئاً ، ولعل هناك أموراً كثيرة أخرى أجهلها كل الجهل ، مهما يكن من أمر ، أنت على حق ، لقد تبدل الآن كل شيء ، واذا كان أحد قد بُعث بعثاً جديداً فهو أنا ، لقد انحططت بتصوراتى وأفكارى انحطاطاً شديداً تجاهك يا كاترين نيقولايفنا ؟ ولعلنى ، منذ ساعة لا أكثر ، قد ارتكبت عملاً دنيئاً فى حقك ، ولكن اعلمى أننى الآن ، وأنا جالس بجنبك ، لا أحس بشيء من عذاب الضمير ، ذلك أن كل شيء قد زال ، ذلك أن كل شيء قد تبدل ؟ والرجل الذى كان منذ ساعة يضمر لك شراً أنا لا أعرفه ، ولا أريد أن أعرفه ،

ابتسمت وقالت :

ـ أفقْ ، لكأنك تهذى قليلاً ،

تابعت كلامى قائلاً :

ـ وهل يستطيع المرء أن يتحكم على نفسه حين يكون معك ؟ سواء أكان حقيراً أم كان شريفاً فانك تظلين كالشمس لا يمكن الوصول اليك ، ولكن ليتك تعرفين ماذا حدث منذ ساعة ، منذ ساعة لا أكثر ، يا للحلم الذى كان بصدد التحقق !

قالت وهى تبتسم ابتسامة رقيقة عذبة :

ـ أظن أننى أعرف كل شيء ، لقد أردت منذ قليل أن تنتقم منى ، وحلفت لتضيّعنّى ، ولا شك مع ذلك فى أنك لو سمعت أحداً يتجرأ فيقول كلمة سوء فى حقى أمامك لقتلته أو لألحقت به أذى ،

صحيح أنها ابتسمت وكانت تمزح ، ولكن مردّ ذلك الى طيبة قلبها ، فقد عرفت فيما بعد أنها فى تلك اللحظة كانت نفسها كلها مترعة بهم شخصى ضخم وبعاطفة تبلغ من القوة والصرامة أنها كانت لا تتحدث

معي ولا تجيب عن أسئلتي الجوفاء المحنقة الا كما يجيب المرء في بعض الأحيان عن أسئلة سخيفة يصرُّ طفل صغير على القائها اصراراً عنيداً ، فهو يجيب عنها ليتخلص ويرتاح . وقد أدركت ذلك فجأة ، فشعرت بخجل وخزي ، ولكنني كنت لا أستطيع أن أتوقف .

هتفت أقول وقد فقدت سيطرتي على نفسي :

ـ لا ، لم أقتل الشخص الذي قال في حقك سوءاً ، بل أيَّدته وشجعته !

ـ أرجوك ، ناشدتك الله ، لا تقصص على شيئا ، لا فائدة في هذا ، لا يجب هذا .

ومدَّت يدها لوقفي عن الكلام ، حتى لقد ظهر في وجهها ألم . ولكنني كنت قد وثبت ووقفت أمامها لأروي لها كل شيء . ولو قد فعلت لما حدث ما حدث بعد ذلك . لأنني كنت سأنتهي حتماً الى الاعتراف لها بكل شيء ، والى تسليمها الوثيقة . ولكنها انفجرت تضحك على حين فجأة قائلة :

ـ لا داعي الى الكلام . ما أنا في حاجة الى شيء . دعك من التفاصيل ! جرائمك كلها ، أنا أعرفها . أراهن أنك أردت أن تتزوجني، أو أردت شيئاً من هذا القبيل ، وأنك قد تواطأت منذ قليل مع واحد من أعوانك ، هو رفيق من رفاقك القدامى في المدرسة ... أظن أنني حزرت !

بهذا هتفتْ وهي تحدّق اليَّ .

فقلت لها متمتماً كما يتمتم أبله ، وقد اعتراني شده وذهول :

ـ كيف ... كيف أمكنك أن تحزري ؟

ـ أين الصعوبة فى هذا ؟ ولكن كفى كفى ! انى أغفر لك ، ولكن كفَّ عن الكلام فى هذا الأمر •

حتى لقد حرَّكت يدها باشـارة تنم عن شدة التململ • وأردفت تقول :

ـ أنا أيضاً أحب أن أحلم • ليتك تعلم الأسـاليب التى ألجأ اليها فى أحلامى ، حين لا يصـدنى شىء ! كفى ! انك لا تزيد على أن تبث الاضطراب فى نفسى • يسرنى جداً أن تاتيانا بافلوفنا خرجت • كنت أريد كثيراً أن أراك ، فلو بقيتْ لما استطعنا أن نتكلم كما نتكلم الآن • أظن أننى مذنبـة فى حقك ، مسئولة عما وقـع لك حينـذاك • أليس كذلك ؟

ـ أنت ؟ مذنبة ؟ ولكننى أنا الذى أسلمتك « اليه » • ترى ما عساك قلت عنى ؟ لقد ظللت أفكر فى هـذا الأمر طول الوقت ، فى جميع هذه الأيام ، كلَّ لحظة ، أفكر فيه وأحس به •

لم أكذب عليها • قالت :

ـ أخطأت اذ عذَّبت نفسك هذا التعذيب • لقد أدركتُ أنا على الفور كيف حدث كل شىء • لقد كشفتَ له ، بكل بسـاطة ، وأنت فى غمـرة الفـرح ، أنك تحبنى و ••• أننى ، وأننى كنت أدع لك أن تتكلم وأصغى اليك • ذلك أنك لم تتجـاوز من عمـرك العشرين • أنت تحبـه أكثر مما تحب الكون بأسره ، وتبحث فيه عن صديق ، عن مثـلٍ أعلى ، وقد أدركتُ أنا هـذا حق الادراك • ولكن بعـد فوات الأوان • صحيح أننى أخطأت أنا أيضاً ، لا شك فى هذا ، لكننى كنت معتكرة المزاج مكفهـرة النفس ، فأمـرت بألا تُقبـل فى البيت بعـد ذلك • وعندئذ انما وقع ذلك المشهد أمام الباب ، ثم كانت تلك الليلة •

اعلم انني طول هذا الوقت كنت أحلم ، مثلك ، بأن أراك خفيةً ، لكنني كنت لا أعـرف السبيل الى تحقيق هذه الأمنيـة . وما الذى كنت أخشاه أكثر من أى شيء آخر فيما تظن ؟ لقد كنت أخشى أن تصدّق نمائمه عني وأقاويله في حقي .

هتفت أقول :

ـ أبداً !

ـ انني أقدّر لقاءاتنا الماضية . وما أحبه فيك هو الفتى المراهق ، وربما هذا الصـدق أيضاً .. ذلك أن لى طبعاً يتصف بالجد . أعلم انني بين نساء عصرى أكثرهن صرامة وجداً . هأ هأ هأ ! لسوف يتاح لنا أن نتحادث كثيراً ، أما الآن فلست هادئة النفس مطمئنة البـال . انني الآن منفعلة انفعالاً شـديداً ... بل انني في حـالة هستريا . ولكن ، أخيراً ، أخيراً ، سوف يتركني وشأني أعيش في سلام !

أفلتت منها هذه الجملة الأخيرة بغـير ارادة . وقد فهمتها أنا فوراً ولم أشأ أن أتلبث عليها . لكنني كنت أرتجف ارتجافاً شديداً .

ثم عادت تهتف من جديد كأنها تحدث نفسها :

ـ هو يعلم أنني غفرت له !

فلم أتمالك نفسي فهتفت أسألها :

ـ كيف أمكنك أن تغفرى له تلك الرسالة . وكيف يستطيع أن يعرف هو أنك غفرت له ؟

فتابعت كلامها تجيبني ، ولكن كأنهـا لاتخاطبني وانما هى تحدث نفسـها :

ـ انه يعرف ! لقد استـرد صـوابه الآن . كيف لا يدرك انني

غفرت له وهو يعرف نفسى كلهـا على ظهر القلب ؟ انه ليعلم حق العلم أننى من نوعه تقريباً •

ـ أنت ؟

ـ نعم ، وهو يعرف ذلك • أنا لست مشبوبة العاطفـة بل هادئة ، لكننى أنا أيضاً أحب أن يـكون جميع النـاس أخياراً طيبين ••• ليس عبثاً أنه افتتن بى حباً !

ـ فلماذا قال اذن انك تتصفين بجميع العيوب والنقائص ؟

ـ قال هذا كلاماً لا أكثر • أما رأيه الذى يكتمه سراً فى قرارة نفسـه فيختلف عن هدا الكلام كل الاخـتـلاف • ولكن أليس صحيحاً أن رسالته كانت مضحكة ؟

ـ مضحكة ؟

كنت أصغى اليها بكل ما أملك من قوة الانتباه • وأظن أنها كانت تعانى نوبة هستريا حقـاً ، و ••• أنهـا ربمـا كانت لا تتكلم من أجلى أنا أبداً • ولكننى لم أستطع أن أمسك عن مساءلتها • قالت :

ـ مضحكة قطعاً • ولشدما كان يمكن أن أضحك لولا ••• لولا أننى كنت خائفةً خوفاً شـديداً • لست مع ذلك جبانة • لا يذهبن بك الظن الى أننى جبانة • لـكن رسالته قد حرمتنى من النوم تلك الليلة• لكأنهـا كتبت بدم ، بدم رجل مريض • ماذا يبقى للمرء أن يفعل بعـد رسالة كتلك الرسالة ؟ اننى أحب الحياة ، وأخاف على حيـاتى كثيراً • فى هذه النقطة أنا جبانة حقاً •

وهتفت فجأة تقول :

ـ اذهب اليه • هو الآن وحيد • آغلب الظن أنه لم يبق هناك • لابد أنه مضى الى مكان آخر • فأدركه بأقصى سرعة ، يجب أن تدركه ،

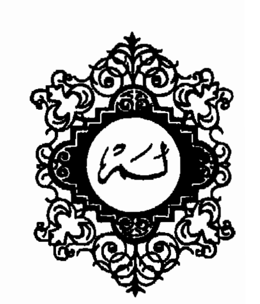
اركض اليه ، وأظهـر له انك ابنه المحب ، وبرهن له على أنك فتى طيب لطيف ، يا عزيزى الطالب ، وعلى أنى .. لا .. اننى أسأل الله أن يهب لك السـعادة . أنا لا أحب أحـدا ، ذلك أفضل ، ولكننى أتمنى السعادة للجميع ، للجميع ، وأتسناها له قبل أى انسان آخر . ألا فليعرف هذا ... فيعرفه حالاً . سيسرّه كثيراً أن يعرف ...

ونهضتْ ، واختفت فجـأة وراء الستارة . كانت دموع تلتمع فى وجهها حينـذاك (دمـوع هسترية بعد الضحك) . بقيت وحيـداً ، مضطرباً . كنت لا أعرف حقـاً الى أى شىء يجب أن أعزو مثـل هذا الانفعال الشديد الذى ما كان لى أن أفترضه فيها . وانقبض صدرى .

انتظـرت خمس دقائـق ، ثم عشراً . وأدهشنى الصمت العميق فجأةً ، فقررت أن أنظر من الباب وأن أنادى . فلما ناديت ظهرت لى ماريا فأعلنت لى بلهجة هادئة ، أن مولاتها ارتدت ثيابها منذ مدة طويلة ، وغادرت البيت خارجة من سلم الخدم .

الفصل السابع

١



لم يكن ينقصني الا هذا . تناولت معطفي ، ولبسته بسرعة ، وهرعت أخرج وأنا أتساءل : « انها تريد أن أذهب اليه ، فأين يمكنني أن أجده ؟ » .

غير أن هناك ، عدا هذا كله ، سؤالاً كان يحيّرني : « لماذا تتصور أن الزمان قد تبدل الآن ، وأنه سيدعها وشأنها تعيش في سلام ؟ لأنه سيتزوج ماما قطعاً . ولكن ما علاقتها هي بهذا ؟ أيبهجها أن يتزوج ماما أم يشقيها ؟ أليس هذا هو ما يجعلها في حالة هستريا ؟ ما أعجزني عن حل هذه المشكلة ! » .

انني اسجل هذا الخاطر الثاني الذي لمع في ذهني سريعاً كالبرق ، أسجله للتذكرة . ان له شأناً كبيراً . كان ذلك المساء حاسماً . ان المرء مضطر أن يصدق أخيراً بالقدر : فانني ما ان قطعت مائة خطوة متجهاً الى بيت ماما ، حتى اصطدمت بالرجل الذي كنت أبحث عنه . وضع يده على كتفي ووقف ، وهتفت يقول فرحاً مدهوشاً في آن واحد :

ـ أنت ؟

وأضاف مسرعاً في الكلام :

ـ تصور آنني ذهبت الى بيتك ساعياً اليك ، وسألت عنك : أنت وحدك من أحتاج اليه الآن فى الكون كله ! لا أدرى بماذا أجابنى صاحبك الموظف ، مؤجر بيتك ، لقد طفق يقول أشياء كثيرة المهم أنك لم تكن هناك ، فانصرفت من عنده ، ناسياً حتى أن أطلب منه ابلاغك أن تجيء الى ّ فوراً • وفيما أنا أمشى راجعاً ، كنت مقتنعاً اقتناعاً لا يتزعزع بأن القدر لا يمكن الا أن يضعك فى طريقى فى هذا الوقت الذى أحتاج فيه اليك هذا الاحتياج الشديد كله • فكنت أول شخص ألقاه • هلمّ بنا الى بيتى • انك لم تزرنى حتى الآن فى يوم من الأيام •••

الخلاصة أن كلاً منا كان يسعى الى الآخر ويبحث عنه ، فوقعت لنا كلينا مصادفة واحدة • وحثثنا الخطى • فى الطريق لم يوجّه الىّ الا بضع جمل قصيرة : انه ترك ماما مع تاتيانا بافلوفنا ، الخ الخ • وكان يقودنى ممسكاً ذراعى • لم يكن بيته بعيداً ، فسرعان ما وصلنا • لم أزره قبل اليوم فعلاً • هو بيت صغير من ثلاث غرف استأجره (بل قل استأجرته تاتيانا بافلوفنا) لسكنى « الطفل الرضيع » لا أكثر • وقد كانت تاتيانا بافلوفنا هى التى تشرف على البيت مع خادم للطفل (هى الآن داريا أونيسيموفنا) • ولكن البيت كان يضم غرفة لفرسيلوف هى الغرفة الأولى التى تقع على يمينك حين تدخل • انها غرفة واسعة حسنة الأثاث ، هى نوع من حجرة للقراءة والعمل • فعلى المائدة وفى الخزانة وفوق الرفوف ، يرى المرء كتباً كثيرة (كان مسكن ماما يكاد يخلو من الكتب خلواً تاماً) ، وأوراقاً فيها كتابة ، وحزم رسائل • الخلاصة أن هذا كله يشير الى أن المكان ركن مسكون منذ مدة طويلة ، وكنت أعرف أن فرسيلوف كان ينتقل الى هذا البيت من وقت الى آخر (ولو نادراً) ، فيمكث فيه مدداً تبلغ عدة أسابيع فى بعض الأحيان •

ان أول شيء لفت انتباهى صورة فوتوغرافية لماما معلقة فوق المكتب

ضمن اطار رائع من خشب محفور • واضح أن الصورة قد أخذت لها فى الخارج ، وانها بحكم كبرها النادر شيء ثمين • لم أكن أعرف هذه الصورة قبل الان ، ولا سمعت عنها، غير أن ما خطف بصرى خاصة هو شبهها الكبير بماما • انه شبه روحى ان صح التعبير : لكأنها صورة رسمتها يد فنان صناع ، ولم يلتقطها جهاز آلى • فما ان دخلت حتى رأيتنى أقف أمام الصورة جامداً رغم ارادتى •

قال فرسيلوف :

ـ أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

كان يريد أن يقول : « أليست تشبهها حقاً ؟ » • فالتفت اليه ، ففجأنى تعبير وجهه • كان شاحب اللون قليلاً ، غير أن نظرته المشدودة الحارة كانت تسطع سعادةً وقوة : لم أعهد فى وجهه مثل هذا التعبير قبل الآن •

قلت متحمساً على حين فجأة :

ـ ما كنت أعرف أنك أحببت ماما هذا الحب كله !

فابتسم ابتسامة سعيدة ، فيها مع ذلك ألم ، أو قل فيها عاطفة انسانيه أعلى ••• لا أعرف كيف أعبر ! ولكن يبدو لى أن الانسان حين يكون على جانب كبير من الثقافة ، لا يستطيع أن يعبر وجهه عن سعادة منتصرة ظافرة • وهاهو ذا ، بدون أن يجيبنى ، يرفع الصورة بكلتا يديه ، فيقربها منه ، ويقبِّلها ، ثم يعود فيعلقها بالحائط • قال :

ـ لاحظ أن الصور الفوتوغرافية يندر أن تشتمل على شبه • وسبب ذلك واضح : فالأصل ، أعنى كل واحد منا ، يندر أن يشبه نفسه • هناك لحظات نادرة يعبِّر فيها الوجه عن السمة الأساسية فى الانسان وعن فكره الذى يميزه • ان الفنان يدرس الوجه ، فيدرك

ذلك الفكر الأساسى ، حتى حين لا يكون ذلك الفكر بارزا فى الوجه اثناء الرسم . اما الفوتوغرافيا فانها تفاجىء الشخص كما هو فى اللحظة التى تلتقط له فيها الصورة . ومن الجائز جداً أن يفاجأ نابوليون فى لحظة من اللحظات غبياً ، وأن يفاجأ بسمارك فى لحظة من اللحظات رقيقا حنوناً . ولكن هنا ، فى هذه الصورة ، شاءت المصادفة أن تدرك الشمس صونيا فى لحظتها الأساسية ، فظهرت على حقيقتها ، امرأةً ذات خفر ، تفيض حباً رقيقاً ، ويشع منها عفاف فيه وجل . ما أعظم السعادة التى ملأت جوانحها حين اقتنعت بأننى أرغب كثيرا فى الحصول على صورتها هذه ! ان هذه الصورة لا يرجع عهدها الى زمن بعيد . ولكن صونيا كانت فى تلك الأيام أفتى وأجمل ! ومع ذلك كان خداها منذ ذلك الحين خاسفين ، وكانت لها هذه الغضون فى الجبين ، وكان فى نظرتها هذا الحياء الوجل ، وذلك كله قد ازداد بتقدم السنين وبرز مزيداً من البروز شيئاً بعد شىء . هل تصدق يا صغيرى ؟ انى لأكاد أعجز الآن عن أن أتصورها بوجه آخر ! ومع ذلك كانت ، هى أيضاً ، شابة وفاتنة ! ان النساء الروسيات تدب اليهن الدمامة بسرعة ، وينقضى جمالهن ، ولاشك فى أن هذا لا يرجع الى خصائص فى طبيعة الجنس الروسى فحسب ، وانما يرجع أيضاً الى أن النساء الروسيات يعرفن كيف يندفعن فى الحب بلا تحفظ . اذا أحبت المرأة الروسية ، فانها تهب كل شىء دفعةً واحدة : تهب اللحظة والمصير ، الحاضر والمستقبل : انهن لا يستطعن الاقتصاد والتوفير ، انهن لا يدّخرن. فسرعان ما ينتقل جمالهن الى من يحببن . هاتان الخدان الخاسفتان هما أيضاً جمال ضحت لى به من أجل متعة قصيرة . أنت يسرك أننى أحببت أمك ، ولعلك كنت لا تصدّق أن أكون قد أحببتها ، أليس كذلك ؟ بلى يا صديقى بلى ! أحببتها كثيراً . لكننى لم أجلب لها فى يوم من الأيام الا السوء . هناك صورة أخرى . خذ . انظر فى هذه أيضاً .

تناول الصورة من على المكتب ومدّها الىّ • هي صورة فوتوغرافية أيضاً ، أصغر من صـورة ماما كثيراً ، قد وضعت في اطار بيضوى من خشب نحيل : وجه فتاة هزيلة مصدورة ، لكنها جميلة • ان الفتاة تفكر ، ولكن وجهها خال من الفكر خلواً غريباً • قسمات متسقة • طلعة تصفّت وراقت بتعاقب الأجيال ، ولكنها تشعرك بأن فيها مرضاً : فكأن هذه الانسانة قد فاجأتها فكرة ثابتة ، فنالتها بعذاب شديد لأنها فوق طاقة قواها •

قلت أسأله وأنا أشعر ببعض الخجل :

ـ هذه ••• هذه هي الفتاة التي أردت أن تتزوجها هناك ثم ماتت بالسل ، أليس كذلك ؟ بنت زوجها « هي » •

ـ نعم ، أردت أن أتزوجها • ماتت بالسـل • بنت زوجها • كنت أعلم أنك تعلم • تلك نمائم • على كل حال ، ما كان يمكنك أن تعرف هنا شيئاً ، بغض النظر عن النمائم • دع هذه الصورة في مكانها يا صديقي • هي مجنونة شقية لا أكثر •

ـ مجنونة تماماً ؟

ـ أو معتوهة • لكنني أظن أنها مجنونة أيضاً • لقد ولدت ولداً من الأمير سرجي بتروفتش (عن جنـون ، لا عن حب ، وهـذا عمل من أدنأ وأحقر أعمال الأمير سرجي بتروفتش) : والطفل هنا الآن ، في هذه الغرفة • انني منذ مدة طويلة أريد أن أريك الطفل • والأمير سرجي بتروفتش لم يجرؤ أن يجيء الى هنا ليرى ولده • هذا اتفاق أبرمناه معاً في الخارج • ضممت الطفل الىّ باذن من أمك • وباذن من أمك ، أردت أيضاً أن أتزوج تلك •• البائسة ••

قلت بحرارة :

ـ كيف يمكن اذنٌ كهذا ؟

ـ يمكن . ما كان لأمك أن تغار ! ليست تلك المختلة بامرأة !

هتفت أقول :

ـ فى نظر الآخرين ليست امرأة . ولكنها فى نظر أمى امرأة . لن أصدق أبدا أن أمى لم تغر !

صدقت . لقد أدركت أنا هذا بعد أن انتهى كل شيء ، أى بعد أن آذنت أمك . ولكن دعنا من هذا . ان الأمر لم يتم ، لأن ليديا ماتت . ولعل الأمر ما كان ليتم ولو بقيت حية . على كل حال ، أنا لا أدع لأمك أن تأتى الى الطفل ، حتى فى هذا الحين . ذلك حادث عارض مضى . يا عزيزى ، اننى أنتظرك هنا منذ مدة طويلة . اننى أحلم بلقاء بيننا هنا منذ زمن طويل . هل تقدّر طول هذا الزمن ؟ سنتان .

قال ذلك وهو يلقى علىّ نظرة يتجلى فيها الصدق ، وتعبر عن اندفاع من القلب حار . فتناولت يده ، وهتفت أسأله :

ـ لماذا تأخرت ؟ لماذا لم تنادنى ؟ لو علمت ما حدث ، فأشرت لى بأصبعك أن أجيء اليك ، لما وقع الذى وقع ...

فى تلك اللحظة جيء بالسماور ، ثم اذا بداريا أونيسيموفنا تدخل حاملةً الطفل . وكان الطفل نائماً .

قال فرسيلوف :

ـ انظر اليه . اننى أحبه . ولقد أمرت باحضاره لتراه أنت . والآن أرجعيه يا داريا أونيسيموفنا . أجلس الى جانب السماور . سأتخيّل أننا عشنا دائماً هكذا ، أنا وأنت ، وأننا اجتمعنا كل مساء هذا الاجتماع ، دون أن ننفصل فى يوم من الأيام . دعنى أنظر اليك : اجلس هكذا لأرى وجهك . كم أحبه ، هذا الوجه ، وجهك ! لطالما تصورته وتخيلته ! لطالما انتظرتك وأنا بموسكو ! تسألنى لماذا لم أرسل من يجيئنى بك منذ مدة طويلة ؟ انتظر . لعلك ستفهم الآن .

ـ أيكون موت ذلك الشيخ هو الذى حل عقدة لسانك ؟ غريب ...

نطقت بتلك الجملة ، ولكن ذلك لا ينفى أننى كنت أنظر اليه بحب . وتحدثنا كما يتحدث صديقان ، بأكمل وأسمى معانى هذه الكلمة . لقد جاء بى الى هنا ليشرح لى ، ليحكى لى ، ليبرر نفسه ... ولكن كل شيء قد اتضح وتبرر قبل كل كلام . مهما أسمع منه الآن ، فان الهدف قد تم بلوغه . وكنا كلانا نعرف ذلك ، وكان كل منا ينظر الى الآخر بسعادة .

أجابنى يقول :

ـ لا ، ليس موت الشيخ هو الذى حل عقدة لسانى ، ليس هذا الموت وحده هو الذى حل عقدة لسانى . هناك شيء آخر كان له تأثيره فى هذا الاتجاه نفسه . بورك فى هذه اللحظة ، وفى حياتنا ، منذ الآن ، والى الأبد. لنتحدث ياعزيزى . اننى أبتعد دائما عن الموضوع، وأشرد الى غيره . أهمُّ أن أتكلم فى شيء ، فاذا أنا أتوه فى تفاصل شيء آخر . ذلك يحدث دائماً حين يكون القلب طافحاً . ولكن فلنتحدث . آن الأوان ، وانى لموله حباً بك منذ مدة طويلة يا صغيرى .

ارتد فرسيلوف الى ظهر مقعده ، وجعل يتأملنى مرةً أخرى من الرأس الى القدمين .

قلت وأنا غارق فى افتتانى :

ـ ما أغرب أن أسمع هذا ، ما أغرب أن أسمعه ! ...

ولكن هأنذا أرى الغضن المألوف الذى يعبِّر عن الأسى والسخرية معاً ، هأنذا أرى هذا الغضن الذى أعرفه حق معرفته ، يظهر فى وجهه من جديد . اننى أتذكر هذا تذكراً واضحاً . ولكن فرسيلوف تجلد . وبجهد ، بدأ يتكلم .

٢

ــ اسمع يا أركادى ، ما عسى كنت أقول لك لو ناديتك قبل الآن ؟

كان ذلك جوابه كله •

ــ هل تريد أن تقول انك اليوم زوج أمى وانك أبى ••• وانك ما كنت تستطيع أن تقول لى شيئاً عن وضعى الاجتماعى ؟ هل هذا ما تعنيه ؟

ــ لا هذا وحده • هناك أشياء كثيرة كنت سأضطر الى السكوت عنها • هناك أشياء مضحكة ، بل مُذلة ، لأنها تشبه أن تكون مكائد مشعبذين ، وألعاب مهرّجين • كيف كان يمكن أن يفهم أحدنا عن الآخر ، اذا كنت أنا نفسى لم أفهم نفسى الا اليوم ، فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، أى قبل موت ماكار ايفانوفتش بساعتين تماماً ؟ أراك تنظر الىّ بارتباك واضح وحيرة أليمة • لاتقلق ! سأشرح لك الأمر • غير أن ما قلته صحيح كل الصحة • حياة كاملة تنقضى فى ترحال وشك ، ثم اذا بالحل يأتى فجأة ، فى يوم معين ، فى الساعة الخامسة بعد الظهر • شىء مُذل ، أليس كذلك ؟ لو حدث هذا قبل مدة قصيرة ، لكان يمكن أن أشعر منه بمهانة حقاً •

كنت أصغى بحيرة أليمة فعلاً • وكنت أرى الغضن القديم فى وجه

فرسيلوف ، بارزاً بروزاً قوياً ، الغضن الذى كنت أتمنى ألا أراه فيه ذلك المساء بعد كل ما قيل من كلام . وفجأة رأيتنى أهتف قائلاً :

ـ هل وصلك « منها » شيء ، هذا اليوم ، فى الساعة الخامسة ؟

فنظر الىّ محدقاً ، وكان واضحاً أنه فوجىء بهتافى بل لعله فوجىء أيضاً بقولى « منها » ، وها هو ذا يقول مبتسماً ابتسامةً يمازجها تفكر :

ـ ستعلم كل شيء . ولن أخفى عنك شيئاً مما يجب أن تعلمه ، فمن أجل هذا انما جئت بك الى هنا . ولكن فلنؤجل هذا الى وقت آخر . اننى يا صديقى أعرف منذ مدة طويلة أن لنا أولاداً يتساءلون عن أسرتهم منذ طفولتهم ، ويجرح أنفسهم ما يرونه من بشاعة فى آبائهم وفى بيئتهم . وقد لاحظت أن هؤلاء الأولاد تمتلىء قلوبهم قلقاً منذ يكونون فى المدرسة ، واستخلصت من ذلك أن السبب هو أنهم عرفوا الحسد قبل الأوان . وبعد ذلك عددت نفسى واحداً منهم . ولكن ... معذرة يا عزيزى ، اننى أشرد شرودا غريباً . كنت أريد أن أقول اننى خفت عليك دائماً هنا ، طوال هذا الوقت تقريباً . كنت أراك دائماً كواحد من أولئك الصغار الذين يشعرون بما يملكون من موهبة فيعتصمون بالعزلة . أنا أيضاً ، مثلك ، لم أحبّ رفاقى فى يوم من الأيام . ما أكبر شقاء هؤلاء الصغار الذين يُتركون لقواهم وحدها ، ويُتركون لأحلامهم ، وقد أوتوا ظمأ مشبوباً الى الجمال ، ظمأ سابقاً لأوانه ، يكاد يكون مشبعاً بروح الانتقام ، نعم ، بروح « الانتقام » . ولكن كفى يا عزيزى ، لقد شردت مرةً أخرى . اننى حتى قبل أن يبدأ حبى لك ، كنت أتخيلك أنت وأحلامك ، أحلام المعتزل المتوحش . ولكن كفى . لقد نسيت حقاً عمّ كنت أريد أن أتكلم ... على كل حال ، هذا كله أيضاً كان يجب أن يقال . ماذا كان يمكننى أن أقول لك من قبل ؟ الآن أرى نظرتك ترمقنى ، فأعرف أن « ابنى » هو الذى ينظر الىّ . وما كان لى بالأمس ،

بالأمس فقط ، أن أصدّق أنني سأجد نفسي في يوم من الأيام متحدثاً مع ابني كما أفعل اليوم •

كان يبدو ذاهلاً ذهولاً شـديداً بالفعل ، ولكنه كان يبـدو في الوقت نفسه متأثراً تأثراً عميقاً •

قلت مسلماً له نفسي كلها :

ـ الآن لم أعد في حاجة الى أن أحلم ؛ الآن يكفيني أن تكون لي • لسوف أتبعك !

ـ تتبعني أنا ؟ ولـكن ترحـالي قد انتهى ، انتهى في هـذا اليوم نفسه : لقد وصلت متأخـراً يا عزيزي • اليوم ينتهي الفصـل الأخير ، وتسدل السـتارة • طال هذا الفصـل الأخير كثيراً • لقد بدأ منـذ زمن بعيد ، بدأ حين فررت الى الخارج آخـر مرة • تركت يومئذ كل شيء • واعلم أنني تركت يومئذ أمك ، وأعلنت لها أنني تاركها • يجب أن تعلم هذا • قلت لها انني راحل الى الأبد ، وانها لن تراني بعدئذ قط • وأسوأ من ذلك أنني نسيت حتى أن أترك لها شيئاً من مال • وأنت أيضا لم تخطر ببالي لحظة واحدة • رحلت منتوياً أن أبقى في أوروبا يا عزيزي ، وألا أعود الى البيت أبداً • هاجرت •

هتفت أقول عاجزاً عن ضبط نفسي :

ـ ذهبت الى هرتسن ؟ ذهبت لتكون داعيـة في الخارج ؟ لابد أنك ساهمت طيلة حياتك في مؤامرة من المؤامرات !

ـ لا ياصديقي ، لم أشارك في أية مؤامرة • أرى عينيك تلتمعان • أحب صيحاتك يا عزيزي • لا ، لقد سـافرت سأماً لا أكثر • سافرت في أعقاب ضجر تملكني فجأة • هو ضجر سيدٍ روسي • لا أجد في تعريف هذا الضجر تعبيراً أنسب • ضجر سيد روسي لا أكثر •

جمجمت أقول لاهثاً :

ـ القناة ... تحرير الأقنان ؟

ـ لا ، لا يا صـديقى ! أتظن أننى آسف على نظام القناة ؟ أتظن أننى لم أحتمل تحرير الاقنان ؟ لا ، لا يا صـديقى . ثم اننا نحن الذين حررناهم . لقد هاجرت بدون أى حقد . كنت قبـل قليل وسيط صلح ، وقد بذلت جميع جهودى . اندفعت أعمل باخلاص وتفانٍ . ولئن كوفئت على لبراليتى مكافأة سيئة ، فان هذا نفسه لم يكن سبب رحيلى . لا أحد منا كوفىء حينذاك ، أقصد لا أحد من أمثالى . كانت العزة هى التى تدفعنى الى الرحيل ، لا الندامة . هاجرت بـلا غضب ، بلا حقد ، بلا حسرة . صدّق أننى لا أعتقد بأنه آن لى أن أختم حياتى حذاءً . « أنا سيد قبل كل شىء ، وسوف أموت سيداً . لكن هذا لا ينفى أننى كنت حزيناً . لعل روسيا لا تزال تضم ألف رجل من نوعى . ألف رجل لا أكثر . ولكن هذا العدد يكفى حتى لا تموت الفكرة . نحن حملة الفكرة يا عزيزى . يا صديقى ، اننى أكلمك وفى نفسى أمل غريب هو أنك ستفهم هذا الهراء المشوش الملتبس . لقد جئت بك الى هنا لا انقياداً لنزوة فى قلبى ... اننى منذ مدة طويلة أحلم بأن أقول لك .. نعم لك .. لك أنت ! .. على كل حال ، على كل حال ...

هتفت أقول :

ـ بل تكلم ، تكلم ، اننى أقرأ فى وجهـك الصـدق .. ماذا عن أوروبا ؟ هل بعثتك أوروبا بعثاً جديداً ! ... وماذا كان ذلك الضجر ، « ضجر السيد » ؟ سامحنى ... اننى لمّا أفهم بعد .

ـ تسألنى هل بعثتنى أوروبا بعثـاً جديداً ؟ فاعلم اننى انما سافرت لأدفنها !

قلت مدهوشاً :

ـ لتدفنها ؟

فابتسم ، وقال :

ـ آركادي ، صـديقي ، الآن نفسي رقّت وفكري اضطرب ، لن أنسى أبداً لحظاتي الأولى بأوروبا ، كنت قد عشت في أوروبا من قبـل ، ولكن ذلك كان في عهد خاص ، ولم أكن قد دخلت أوروبا قبلئذ بمثل ذلك الحزن .. ولا بمثل ذلك الحب ، سأصف لك واحداً من مشاعرى الأولى حينذاك ، هو حلم رأيته ، حلم حقيقى .

« حدث ذلك وأنا لا أزال بألمانيـا ، كنت قد غادرت درســدن ، ثم تجاوزت المحطة التى كان ينبغى أن أغيرّ فيها القطار ، تجاوزتها سهواً وغفلة فسرت في غير الاتجاه الذى كنت أريد أن أسير فيه ، فما ان وصلت الى أول محطة تالية ، حتى نزلت ، كان الجو صـحواً ، هى مدينة ألمانية صغيرة ، دلونى على فندق ، كان يجب علىّ أن أنتظر : ان القطار التالى يمر في الساعة الحادية عشرة من المساء ، ولقد سررت بهذه المغامرة سروراً كبيراً ، فلا شيء كان يستعجلنى ، الفندق صـغير ردىء ، لكنه غارق فى الخضرة وشرائط الأزهار ، على عادة القوم هنـاك ، أعطيت غرفة صغيرة ، ولما كنت قد قضيت الليلة كلهـا في القطار ، فسرعان ما نمت بعد الغداء ، فى نحو الساعة الرابعة من الأصيل .

« فحلمت حلماً غير مألوف البتة ، ما رأيت مثله من قبل أبداً ، ان في متحف درسدن لوحة للرسام كلود لوران جعل عنوانها فى الكاتالوج « آسيس و جالاتى » ، أما أنا فقد سميت هذه اللوحـــة دائمـاً « العصر الذهبى » ، لا أدرى لماذا ! لقد ســبق أن رأيت هذه اللوحـة ، وقبـل ثلاثة أيام لاحظتها مرةً أخرى عابراً .

« فهذه اللوحة هي ما رأيته في الحلم . لكنني لم ارها صورة ، بل رأيتها واقعاً . انني لا أتذكر على وجه الدقة ما الذي رأيته في الحلم هذه الرؤية . ولكنني رأيت ، كما في اللوحة ، ركناً من الأرخبيل اليوناني منذ ثلاثة آلاف سنة : أمواجاً زرقاء هادئة ، جزراً وصخوراً ، شاطئاً مزهراً ؛ وفي بعيد ، منظراً كأنه السحر ، شمساً غاربة تفتن النظر . يستحيل على المرء أن يصف هذا بألفاظ . انها الانسانية الأوربية تتذكر مهدها : ملأت هذه الفكرة شعاب نفسي بحب كحب الابن أبويه . هذا هو الفردوس الأرضي للانسانية : الآلهة تهبط من السماء لتؤاخي البشر .. اه .. ما كان أجملهم ، أولئك البشر ! كانوا يفيقون وينامون سعداء أبرياء . المروج والحراج الصغيرة تمتلىء بأغانيهم وصيحاتهم الجذلى . فيض من الطاقات البكر ينتشر حباً وفرحاً ساذجاً . الشمس تغمرهم بدفئها وضيائها ، معجبةً بهؤلاء الأطفال الرائعين .. انه حلم أخاذ ، طالما فتنت روعته الانسانية عن نفسها وأزاغت بصرها ! ان العصر الذهبي هو الحلم المستحيل الذي حلمه كل من وجدوا على هذه الأرض ، ولكنه على استحالته رأينا بشراً يهبون له حياتهم كلها ، وقواهم كلها ، وفي سبيله مات أنبياء وُقتل أنبياء ، وبدونه لا تريد الشعوب أن تعيش ، ولا تريد حتى أن تموت ! هذا الاحساس كله ، قد عشته في ذلك الحلم . والصخور والبحر ، وأشعة الشمس المائلة عند الغروب ، ذلك كله بدا لي انني لا أزال أراه حين أفقت من نومي وفتحت عينيّ المغرورقتين بالدموع . كنت سعيداً . أتذكر هذا . ان احساساً بسعادة لم أشعر بمثلها من قبل ، قد اختلج في قلبي حتى كاد أن يكون ألماً . كان ذلك حباً للانسانية كلها .

« وكان المساء قد حل . ومن خلال خضرة الأزهار الموضوعة على النافذة ، كانت حزمة من أشعة مائلة تلطم زجاج غرفتي الصغيرة فتغمرني بضيائها . ثم ماذا يا صديقي ؟ ان تلك الشمس الغاربة في أول أيام الانسانية الغربية ، التي كنت أراها في الحلم قد استحالت في نظري فجأة

منذ أن استيقظت شمسا غاربة فى اخـر ايام الانسـانية الاوروبية ! فوق أوروبا كلها كانت تسمع حينئذ أصوات نواقيس جنازة • لست أعنى الحرب وحريق التويلرى فحسب • لقد كنت أعلم ، بدون الحرب وبدون حريق التويلرى ، أن كل شىء سينقضى ، عاجـلاً أو آجلاً ، وأن كل وجـه العالم الأوروبى القديم سيندرس • ولكننى ، أنا الأوروبى الروسى ، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا • نعم ، كانوا قد حرقوا التويلرى ! لا ، مهلاً ، أنا أعرف أن هذا كان « منطقياً » • وأنا أدرك تماماً ما كان للفكرة التى راجت آنئذ من قوة لا تقاوم • ولـكننى ، كممثل للفكر الروسى الرفيع، كنت لا أستطيع أن أقبل هذا ، لأن الفكر الروسى الرفيع يصالح بين جميع الأفكار المتعارضة مصالحة عامة شاملة • ومن ذا الذى كان يمكنه حينذاك ، فى العالم بأسره ، أن يفهم هذا الفكر ؟ لقد كنت أطوف وحيداً • لست أتكلم عن نفسى ، بل عن الفكر الروسى • هنـاك ، كان الاقتتال والمنطق العنيد • هنـاك ، كان الفرنسى ليس الا فرنسـياً ، وكان الألمانى ليس الا ألمانياً ، وذلك بعنف لم يشهد تاريخهـم كله عنفاً أقوى منه ؟ أى ان الفرنسى ما أساء الى فرنسا يوماً كما أساء اليها فى هذه الفترة ، ولا الألمانى أساء الى ألمانيا يوماً كما أساء اليها فى هذه الفترة ! لم يكن فى أوروبا كلها عندئذ أوروبى واحد ! أنا وحدى بين جميع مشعلى الحرائق كنت أستطيع أن أقول لهم وجهاً لوجه ان اقدامهم على احراق التويلرى خطأ ؛ وأنا وحدى بين جميع المحافظين المنتقمين كنت أسـتطيع أن أقول لهـم ان احـراق التويلرى ان كان خطأ فهو منطقى • وذلك ، يا عزيزى ، لأننى ، كروسى ، كنت عندئذ ، فى أوروبا ، « الأوروبى الوحيد » • لست أتكلم عن نفسى ، بل عن الفكر الروسى كله • كنت أضرب فى الأرض يا صـديقى ، كنت أضرب فى الأرض ، ولا أعرف أننى لم يبق لى الا أن أسكت وأن أضرب فى الأرض ••• ولكننى كنت حزيناً رغم كل شىء • ذلك لأننى ، يا ابنى ، لا أملك الا أن أحترم نبالتى • تضحك ، أليس كذلك ؟

قلت بصوت متأثر :

ـ لا ، لا أضـحك . لا أضـحك البتة . انك برؤياك « العصر الذهبى » قد بثثت الاضطراب فى قلبى ؛ ثق كل الثقة أننى بدأت أفهمك . غير أن ما يسعدنى أكثر من أى شىء آخـر هو أنك تحترم نفسك هذا الاحترام كله . أسارع فأصارحك بذلك . ما كنت لأتوقع منك هذا أبداً !

ـ سبق أن قلت لك اننى أحب صيحات تعجبك يا عزيزى !

قال ذلك وابتسـم لملاحظتى الساذجة مرةً أخرى ، ثم نهض عن مقعده ؛ وبدون أن يعى ما يفعل ، أخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً . فنهضت أنا أيضـاً . وتابع هو كلامه بلغته العجيبـة الغريبـة ، الزاخرة بالفكر مع ذلك .

٣

ــ نعم يابنى ، أعود فأكرر لك أننى لا أملك الا أن أحترم نبالتى • لقد نشأ عندنا ، خلال القرون ، نموذج حضارى أعلى لم يشاهد فى أى مكان آخر فى الكون ، هو نموذج التألم للبشر كافة • هذا نموذج روسى • ولكن لما كان هذا النموذج انما خلقه الجزء الأعلى ثقافة بين مجموع الشعب الروسى ، فاننى أحمل شرف الانتماء اليه • انه يحتوى مستقبل روسيا • ان عددنا لا يربو على ألف رجل ، قد نكون أكثر من ذلك قليلاً وقد نكون أقل من ذلك قليلاً ولكن روسيا كلها انما عاشت حتى الآن لتنجبنا • رب قائل يقول ان هذا العدد ضئيل جداً ، وانها لفضيحة أن تنفق روسيا قروناً طويلة وأن تضحى بملايين كثيرة من أبنائها فى سبيل أن تنجب هذه الصفوة • أما أنا فأرى أن ذلك ليس قليلاً •

كنت أصغى الى كلامه بجهد شاق ، فأرى تعبيراً عن اقتناع تكوّن خلال حياة بأسرها • ان كلامه هذا عن « الألف رجل » يكشف النقاب عن نفسه كلها • وقدّرت أن انطلاقه هذا فى مكاشفتى انما مردّه الى صدمة خارجية ، وأنه يقول لى هذا الكلام الحار كله حباً بى • ولكن السبب الذى من أجله أخذ يتكلم فجأة ، والذى من أجله كان يريد أن يتحدث الىّ ، الىّ أنا خاصةً ، ظل مجهولاً عندى •

وتابع كلامه يقول :

ـ هاجرت غير آسف على شيء مما خلفت ورائي • كنت قد خدمت روسيا على أرضها بكل ما املك من قوى • وحين سافرت ظللت أخدمها ، لكنني وسعت فكرني • هل كان يجب على أن ابقى روسيا ضيقاً ، مثلما كان كل فرنسي فرنسيا ، وكل ألماني ألمانيـا ؟ في اوروبا لن يفهموا هذا الكلام • ان أوروبا قد خلقت النماذج النبيلة للفرنسي والانجليزي والالماني • أما انسانها في المستقبل فانهـا لاتزال تجهل عنه كل شيء تقريباً • وأظن أنها لا تريد ان تعرف عنه شيئاً حتى الآن • وذلك أمر يمكن فهمه : انهم ليسوا أحراراً ، أما نحن فأحرار • أنا وحـدي في أوروبا ، مع ضجري الروسي ، كنت حراً •

لاحظ يا صـديقي هذا الشيء الغريب : ان كل فرنسي يستطيع أن يخدم الانسانية مع بلده فرنسا ، ولكن بشرط أن يبقى فرنسياً خاصة • ويصـدق هذا على الانجليزي وعلى الألماني • والروسي وحده ، حتى في عصرنا هـذا ، أي قبـل أن تتحقق له صـــورته النهائية ، قد وهب له أن يكون روسـياً أكثر لأنه أوتي القدرة على أن يـكون أوروبياً أكثر • هذا هو الفارق القومي الأسـاسي الذي يميزنا عن سائر الناس ، فنحن من هذه الناحية لا يشبهنا أحد • أنا في فرنسا فرنسي ، ومع الألماني ألماني ، ويوناني مع يوناني العصر القديم ، وأنا بهذا نفسـه روسي دائمـاً الى الحد الأقصى • أنا بهذا نفسه روسي حقاً ، أقدم لروسيا أكبر قدر من الخدمات ، لأنني أجسِّد فكرها الأساسي • أنا رائد هذا الفكر • لقد هاجرت ، ولكن هل تركت روسـيا ؟ لا ، لم أتركها • ظللت أخدمهـا • وهبني لم أعمل شيئاً في أوروبا ، هبني لم أذهب اليها الا لأتجول وأترحل وأضرب في الأرض (ولقد كنت أعرف أنني لا أرحل اليها الا لهذا الغرض) فحسبي هذا لأذهب اليهـا مع فكري وضـميري • لقد نقلت الى أوروبا سـأمي

الروسي . لا ، ليس الدم الذي كان يســـيل حينئذ هو الذي روّعني ، حتي ولا احراق التويلري ، بل ما كان لابد ان يتبع ذلك . بأن محكوماً عليهم أن يظلوا يقتتلون زمناً طويلاً أيضاً ، لأنهم لا يزالون ألمانا وفرنسيين أكثر مما يجب ، ولانهـم لم ينتهوا من عملهم في تمثيل هذا الدور . كنت حتى ذلك الحين أشعر بحسرة لما يقع من دمار . ان أوروبا عزيزة على الروسي كروسـيا سواء بسواء ، كل حجر في أوروبا حبيب الى قلب الروسي غالٍ فيه . كانت أوروبا للروسي وطناً كروسيا ، بل كانت له وطناً أكثر من روسيا . يستحيل أن يحب أحد روسيا كما أحبها ، ولكنني لم ألم نفسي في يوم من الأيام على أنني وجدت البندقية وباريس وروما وما فيها من كنوز العلم والفن وما لها من تاريخ ، أحبّ الىّ من روسيا . آه ... ان قلوب الروس تحمل حباً كبيراً لتلك الحجارة الأجنبية ، لتلك الروائع التي تنتمي الى العالم القديم ، تلك البقايا من المعجزات المقدسة . بل ان هذا كله أعزّ على نفوســـنا منه على نفوسهم ! ان لهم الآن أفكاراً أخرى وعواطف أخرى ، لقد كفوا عن تقدير تلك الحجارة القديمة ! ... هناك لا يكافح المحافظ الا في سبيل البقاء . ومشعل الحرائق لا يعمل الا ليطالب بحقه في قطعة خبز . روسـيا وحدها لا تحيا من أجـل نفسها ، بل من أجل الفكر . اعترفْ يا صـديقي بهذه الحقيقة الواضحة : أن روسيا منذ قرابة قرن لا تحيـا من أجـل نفسها بل من أجل أوروبا فقط ! أما هم ، فقد نُذروا لآلام رهيبة قبل أن يصلوا الى ملكوت الرب .

كنت أصغي اليه مضطرباً أشد الاضطراب . أعترف بذلك . حتى لهجة كلامه كانت تروّعني ، رغم أنني لم أملك الا أن أفاجـأ بأفكاره . وكان يخيفني اخافةً رهيبة أن يكون فيما يقول كاذباً . فرأيتني ألقي عليه هذا السؤال فجأة بلهجة قاسية :

ـ قلت « ملكوت الرب » . وقد علمت أنك عملت هنالك داعية ومبشراً ، وأنك كنت تثقل جسمك بأصفاد . هل هذا صحيح ؟

فابتسم وقال :

ـ دعك من أصفادى . تلك مسألة أخرى . فى ذلك العهد لم أكن أبشر بشىء بعد . ولكننى كنت أتوق الى الههم . هذا صحيح . كانوا قد نادوا بالالحاد .. نادى به نفر منهم ، نادت به طليعة منهم ، ولكن ذلك كان الخطوة الأولى نحو « التنفيذ » ، وهذا هو الأمر الخطير . كان سلاحهم المنطق دائماً . وحيث يكون المنطق يكون الضجر . كنت أنا أنتمى الى حضارة أخرى ، فكان قلبى يرفض هذا . كان ذلك العقوق فى انفصالهم عن فكرة ، وكانت تلك الأصوات التى تنطلق من الصفارات ، وكان ذلك التلويث والتلطيخ بالوحل ، كان ذلك كله أموراً لا أطيق احتمالها . كانت أساليب الاسكافيين هذه ترعبنى . صحيح أن الواقع تفوح منه دائماً رائحة النعال ، حتى حين يصبو المرء الى المثل الأعلى صبوة لألاءة . ولقد كان علىّ أن أعرف ذلك . لكننى كنت طرازاً آخر من البشر : كنت حراً فى اختيارى ، ولم يكونوا هم أحراراً . فكنت أبكى ، أبكى عليهم ، أبكى على الفكرة القديمة . ولعلنى بدموع صادقة انما كنت أبكى ، من غير كلام مزوّق .

سألته غير مصدق :

ـ هل كنت تؤمن بالله هذا الايمان القوى حقاً ؟

ـ يا صديقى ، هذا سؤال لعله نافل . هب أنى لم أكن أومن هذا الايمان القوى . ذلك لا ينفى أننى كنت لا أملك الا أن أتحسر على فكرة وأن أحنّ اليها . كنت فى بعض اللحظات لا أفلح فى أن أتصور كيف يستطيع الانسان أن يحيا بدون اله ، ولا أن أتصور هل يصبح هذا

ممكنا فى يوم من الايام . كان قلبى يجيب دائما بأن هذا مستحيل . قد يحدث هذا فى عهد من العهود الى حين . وانى لأشـك فى أن يأتى هذا العهد . ولكننى كنت أتخيل عندئذ لوحة أخرى مختلفة كل الاختلاف ...

ـ ما هى ؟

لقد سبق أن صرّح لى طبعاً بأنه كان سعيداً . وواضح أن أقواله كانت تشتمل على حماسة كثيرة . ولقد أخذت أنا أكثر كلامه هذا المأخذ ، ونظرت اليه بهذا المنظار . وانى لما أحمله لهذا الرجل من احترام ، لن أضع على الورق كل ما تبادلناه من حديث حينذاك . غير أن خطوطاً معينة من اللوحة الغريبة التى حملته على أن يرسمها لى ينبغى أن تذكر هنا . ولقد كانت مسألة « الأصفاد » خاصةً هى التى تشغل بالى وتعذبنى ، فكنت أريد أن تتضح لى ، فلذلك ألححت . ان أفكاراً تبلغ غاية الغرابة والعجب مما قاله فى ذلك اليوم قد بقيت منقوشة فى قلبى الى الأبد .

بدأ يتكلم وهو يبتسم ابتسامةً يمازجها تفكير ، فقال :

ـ اليك اللوحة التى أتخيلها يا عزيزى . أتخيل أن القتال انتهى ، وأن الصراع هدأ . فبعد التلاعن والتقاذف بالوحل وتبادل التصفير ، عمّ الهدوء ، وبقى البشر « وحيدين » كما كانوا يريدون : هجرتهم الفكرة الكبيرة التى كانت تعيش معهم ، وغاب ينبوع الطاقة الذى كان الى ذلك الحين يغذيهم ويمدهم بالحرارة ، كتلك الشمس الرائعة الآسرة التى نراها فى لوحة كلود لوران . ولكن هذا يكون الآن آخر أيام الانسانية . فاذا بالبشر يدركون أنهم أصبحوا وحيدين تماماً ، ويحسون فجأة أنهم مهجورون هجر اليتامى . يا صغيرى العزيز ، اننى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أتخيل البشر عقوقين أغبياء . فلما صاروا يتامى أسرعوا يتقاربون

ويتلاصقون بمزيد من القوة ومزيد من العاطفة والمحبة • وأمسك بعضهم بأيدى بعض ، لأنهم أدركوا أنهم بعد الآن ليس لبعضهم أحد غير بعضهم الآخر • ان فكرة الخلود العظيمة تكون قد زالت ، فلابد أن يعتاضوا عنها بغيرها • فاذا بذلك الفيض من الحب الذى كانوا يحملونه لمن هو الخلود ، يتحول الآن الى الطبيعة ، الى العالم ، الى البشر ، الى كل عشبة • سوف يؤخذون عندئذ بالأرض وبالحياة ، وسوف يحبونها حباً لا سبيل الى مقاومته ، على قدر شعورهم شيئاً فشيئاً بأن حياتهم عرض زائل ، وبأن زمنها محدود ، وسوف يكون حبهم حباً خاصاً ليس هو الحب الذى كانوا يحسونه من قبل • سوف يلاحظون فى الحياة ويكتشفون فيها ظاهرات وأسرارا لم تخطر لهم الى ذلك الحين على بال ، لأنهم سينظرون اليها بعين جديدة ، سينظرون اليها نظرة الحبيب الى حبيبته • سوف يستيقظون فيسارع بعضهم الى بعض يتعانقون ، ويتحابون ، لعلمهم بأن أيامهم زائلة ، وأن ذلك هو كل ما بقى لهم • سيعمل بعضهم فى سبيل بعض ، وسيعطى كلٌ منهم شىء لكل الناس ، فيكون بذلك سعيداً • سيعلم كل طفل وسيحس أن كل انسان على هذه الأرض هو له أب وأم• سيقول كل واحد لنفسه حين ينظر الى غروب الشمس : « ليكن الغد آخر أيامى • سأموت • ولكن لا أضير : لأنهم سيبقون هم جميعاً ، وبعدهم سيبقى أولادهم » • وهذه الفكرة ، فكرة أنهم سيبقون وسيظلون متحابين متعاطفين يخاف بعضهم على بعض ، ستحل محل فكرة اللقاء بعد الموت • لشد ما سيسارعون الى التحاب ، من أجل أن يخنقوا الحزن الكبير الذى فى قلوبهم • سيكونون متكبرين جريئين على أنفسهم ، ولكنهم سيكونون خجلين وجلين أمام الآخرين • سيخاف كل واحد على سعادة وحياة كل واحد آخر • سيحن بعضهم على بعض • ولن يشعروا بما يشعرون به اليوم من خجل وخزى • سيداعب بعضهم بعضاً كأطفال • وحين يلتقون

سيتبادلون نظرات عميقـة زاخرة بالذكاء ، وسـيكون في نظراتهم حب وأسى .

وقطع كلامه مبتسماً على حين فجأة ثم أضاف :

– يا عزيزى ، ليس هذا كله الا خيالاً ، بل هو خيـال لا يمكن أن يتحقق فى الواقع . لكننى كثيراً ما تخيلت هـذه الصـور ، لاننى لم أستطع في يوم من الأيام أن أحيا بدونهـا ، ولا أن أمتنع عن التفـكير فيها . ولست أتكلم عن ايمانى ، فايمانى ليس كبيراً . أنا رجل يؤمن بوجود الله ، ولـكنه لا يؤمن بالدين ؟ رجل يؤمن بوجود الله ايمـان فلاسفة ، كسائر أولئك الألف من الرجال ، أو هذا ما افترضه . ولكن ... ولكن الشيء الذى يلفت النظر هو أننى كنت أنهى لوحتى دائمـاً برؤيا « المسيح على بحر البلطيق » ، كما نرى ذلك عند الشاعر هاينى. اننى لم أستطع الا أن أراه أخيرا بين البشر الذين أصبحوا يتامى . يجيء اليهم ، ويمد لهم ذراعيه ، ويقول : « كيف نسيتمونى ؟ » . فاذا بنوع من حجاب يسقط عن جميع الأبصار ، واذا بنشـيد حمـاسى هو نشـيد الانبعاث الجديد الأخير ، يأخذ يترجع مدويا .

« دعنا من هذا يا صديقى ؟ أما عن « أصفادى » ، فتلك سـخافة . لا يشغلن أمرها بالك . هناك شيء آخر : أنت تعرف أن لسانى خجول ومقتضب . فلئن استرسلت اليوم فى الكلام ، فذلك ... بسبب عواطف مختلفة ، وبسبب أننى معك . لغيرك لن أقول شيئاً أبداً . أضيف هذا لأطمئنك .

كنت متأثراً منفعلاً . ان الكذب الذى كنت أخشاه لا وجود له . ولقد أسعدنى خاصةً أن أرى رؤية واضحةً بعد الآن أنه كان يعـانى من ضجر حقاً ، وأنه كان يتألم ويتعذب ، وأنه قد أحب كثيراً بدون شك:

وهـذا ما أثر في نفسي أكثر من أى شيء آخـر • وقد أعلنت له ذلك بحماسة • ثم أضفت أسأله فجأة :

ـ ولكن يبدو لى أنك ، رغم كل ضـجرك ، كنت سعيداً أقصى السعادة في ذلك الأوان ، أليس هذا صحيحاً ؟

فقـال :

ـ انك اليوم مصيب في ملاحظاتك • نعـم • كنت سـعيداً • وهل كان يمكن أن أكون شـقياً وأنا في مثـل ذلك الضجر ؟ ليس أحد أكثر حرية ولا أعظم سعادة من المترحل الروسى الأوروبى الذى ينتمى الى أولئك الألف من الأفراد • أقول لك هذا بدون أن أضحك ، وفي كلامي كثير من الجد • نعم ، ما كنت لأبيع ضجرى بأية سعادة • يا عزيزى • ومن السعادة أننى أحببت حينئذ أمك أول حب في حياتى • نعم ، فيما كنت أضرب في الأرض وأعانى الضجر ، أحببتها فجأة كما لم أحب من قبل ، وسرعان ما أرسلت أستدعيها •

قال :

ـ آ ••• اقصص على هذا ••• كلمنى عن ماما •

ثم أضاف يقول وهو يبتسم فرحاً :

ـ وقد خشيت أن تعفينى من هذا الحديث مستعيضاً عنه بالكلام عن هرتسن أو عن مؤامرة ما •••

ـ ما جئت بك الى هنا الا لأحدثك عن هذا •

الفصل الثامن

١

قضينا في الحديث كل المساء وسطراً من الليل ، فلن أروى كل ما قيل ، بل اكتفى بما أوضح لى فى النهاية نقطة من حياته كانت عندى لغزاً .

وأبدأ بما يلى : ليس يخامرنى أى شك فى أنه أحب ماما ، فاذا هجرها وانفصل عنها حين سافر الى الخارج ، فلأنه كان مرهقاً بالضجر ، أو لسبب آخر من هذا القبيل ، وذلك أمر يحدث لجميع الناس فى هذه الحياة الدنيا ويصعب دائماً تعليله . ثم انه فى الخارج ، بعد انقضاء زمن غير قصير ، قد عاوده حب ماما فجأةً ، من بعيد ، بالفكر ، فأرسل يستدعيها . رب قائل يقول : « هذه نزوة » . ولكننى أقول غير ذلك ، ففى رأيى أن ما فعله كان فيه أكبر الجد رغم ما تتصف به طبيعته من تناقضات أسلم بوجودها . ولكننى أحلف أن ضجره الأوروبى أمر لاشك فيه ، وأنه يساوى بل يفوق كثيراً أى شكل من أشكال النشاط العملى فى هذا الزمان ، كانشاء سكك حديدية مثلاً . وأنا أرى فى حبه للانسانية عاطفة صادقة كل الصدق ، عميقة كل العمق ، بريئة من كل كذب أو تزييف . وأرى فى حبه لماما أمراً لا يمكن الجدال فيه اطلاقاً ، وان كان جائزاً أنه يشتمل على شىء من غرابة . انه فى الخارج ، بينما هو فى « ضجر وسعادة » ، وبينما هو فى عزلة كعزلة النسّاك (أضيف

هذه الواقعة الخاصة التى أمدتنى بها تانيانا بافلوفنا فيما بعد) ، تذكر ماما على حين فجأة ، وتذكر خديها الخاسفتين خاصة ، فأسرع يستدعيها فوراً .

قال لى (وقد أفلتت منه هذه الجملة كما أفلت غيرها) :

ـ يا صديقى ، لقد أحسست فجأة أن خدمة الفكرة لا تعفينى أبداً ، كانسان أخلاقى وعاقل ، من أن أسعد فى أثناء حياتى انساناً واحداً على الأقل ، اسعاداً عملياً .

فسألته متحيراً :

ـ أتكون فكرة مستمدة من الكتب ، كهذه الفكرة ، هى التى جعلتك تعزم أمرك ؟

ـ ليست هذه فكرة مستمدة من الكتب . وقد تكون كذلك فعلاً . ان الأشياء يختلط بعضها ببعض . ولكننى كنت أحب أمك فعلاً ، كنت أحبها حباً صادقاً ، حباً لا شأن له بالكتب البتة . ولولا أننى كنت أحبها هذا الحب لما استدعيتها ، بل عمدت الى اسعاد أول ألمانى أو أول ألمانية ألقاها بعد اهتدائى الى تلك الفكرة . أما عن ضرورة اسعاد انسان واحد على الأقل أثناء الحياة اسعاداً عملياً ، أى اسعاداً فعلياً ، فهذه فكرة أنصبها قاعدة يؤمر بالتزامها كل انسان مثقف ، تماماً كما يمكن أن يوضع قانون يأمر كل فلاح بأن يغرس شجرة واحدة على الأقل أثناء حياته ، لأن الأشجار يقل عددها فى روسيا الآن . بل ان شجرة واحدة لا تكفى . فيمكن أن يؤمر الفلاح بأن يغرس شجرة فى كل سنة . ان الانسان المتفوق المثقف الذى يسعى وراء فكرة عليا يدير ظهره للحياة اليومية أحيانا ، فيصبح سخيفاً مضحكا ، ويصبح صاحب نزوات ، ويصبح بارداً ، بل أقول بصراحة انه يصبح غبياً ، فى الحياة العملية طبعاً ، بل يصبح آخر الأمر غبياً حتى فى

نظرياته • وهكذا يكون من شأن الاهتمام بالحياة العملية ، واسعاد انسان واقعي واحد على الأقل اسعاداً واقعياً ، أن يشفي وأن يجدد نضارة الشخص الذي يحسن هذا الاحسان • قد يكون هذا الرأى سخيفاً من حيث هو نظرية ، لكنه متى طُبِّق وأصبح عادة مستحكمة ، لا يكون رأياً غبياً الى الحد الذي قد يتوهمه المرء •• لقد جربت هذا بنفسي : فانني منذ أخذت أتصور نتائج هذا الرأى ـ على سبيل التسلية فى أول الأمر ، طبعا ـ بدأت أدرك مدى الحب الذي يحمله قلبى لأمك •• ولم أكن قد أدركت أبداً ، حتى ذلك الحين ، أننى كنت أحبها • حين كنت أعيش معها ، كنت أتمتع بها فى ابان جمالها ، ثم تستبد بى النزوات • ولم أدرك أننى أحبها الا فى ألمانيا • بدأ ذلك بخديها الخاسفين اللذين كنت لا أستطيع أبداً أن اتصورها الا واراهما ، حتى لأشعر بألم يهصر قلبى ، ألم حقيقى ، ألم جسمى • هناك يا عزيزى ذكريات أليمة تحدث وجعاً واقعياً • ان جميع الناس أو أكثر الناس يحملون ذكريات كهذه الذكريات ، ولكنهم ينسونها، ثم يتفق للمرء أن يتذكر بعد ذلك قسمة من قسمات الوجه أحياناً ، فاذا هو ينشد اليها ولا يستطيع منها فكاكاً • أخذت أتذكر ألف أمر من تفاصيل حياتى مع صونيا • وأصبحت هذه التفاصيل توافينى أخيراً من تلقاء نفسها ، وتحاصرنى جمهرة غفيرة • وكادت هذه الذكريات أن تقتلنى عذاباً بينما كنت أنتظر وصولها • غير أن الشيء الذى كان يعذبنى خاصة انما هو ذكرى مذلتها الأبدية لى ، واعتقادها بأنها أدنى منى كثيراً فى كل أمر من الأمور ، وأننى أفوقها كثيراً حتى فى الجسم ! تصور ! كانت تشعر بخجل شديد ويتخضب وجهها بحمرة قانية حين كنت أنظر أحياناً الى يديها وأصابعها التى لم يكن فيها شيء من ارستقراطية • بل انها لم تكن تخجل

من أصابعها وحدها بل من جسمها كله ، رغم أنني أحببت جماله . كانت تشعر معي بحياء دائم يبلغ حد التوحش . وأسوأ ما في الأمر أن هذا الحياء كان يمازجه نوع من ذعر لا ينقطع . الخلاصة أنها كانت تعدّ نفسها بالقياس اليّ شيئاً لا وجود له ، أو شيئاً يكاد يكون غير لائق . وكنت في البداية أظن أنها لا تزال ترى فيّ سيدها ، وأنها كانت تهابني وتخشاني . ولكن الأمر لم يكن كذلك . واني لأحلف لك مع ذلك أنها كانت أقدر من أي انسان على معرفة عيوبي ونقائصي ، وأنني ما رأيت في حياتي امرأةً لها مثل قلبها رهافة ونفاذ ادراك . لشدما كانت تشعر بالشقاء حين كنت اضطرها في البداية ، أيام كانت لاتزال جميلة جمالا فاتنا ، أن تتزين . كان ذلك منها يشتمل على عزة وعلى شعور آخر سريع التأذي : كانت تدرك أنها لن تصبح بالتزين سيدة ، وأنها لن تكون بلباس أجنبي الا مضحكة . وهي لا تريد أن يكون لباسها مضحكاً ، وتدرك أن لكل امرأة ثياباً تناسبها ، وذلك أمر ستظل تعجز عن فهمه ألوف بل مئات الألوف من النساء اللواتي يرضيهن أن تكون ثيابهن على الموضة وكفى ! كانت تخاف من نظرة ساخرة قد ألقيها عليها . وما أشد الألم الذي كنت أشعر به حين أتذكر عينيها المدهوشتين اللتين كثيراً ما فاجأتهما محدقتين اليّ أثناء حياتنا المشتركة : لقد كنت أحس أنها تدرك مصيرها ادراكاً كاملاً ، وتعرف المستقبل الذي ينتظرها ، حتى لقد كان ذلك يحزنني ، وان لم أكلمها في هذا الأمر ، وانما ظللت أترفع عن الخوض في حديث عنه . ولكن هل تعلم ؟ انها لم تكن في جميع الأحيان خائفة متوحشة كما هي الآن . وهي حتى هذا اليوم لا يزال يتفق لها أن تفرح فجأةً وأن تتزين كما تفعل امرأة في العشرين من عمرها . لكنها في ذلك الوقت ،

ابان صباها ، كانت تعشق الثرثرة والضحك أحياناً ، في بيئتها طبعاً ، مع الخادمات مثلا . ولشدما كانت ترتجف اذا أنا باغتها ضاحكة على حين فجأة ، وسرعان ما كانت تحمر عندئذ وتشخص الي ببصرها خائفة ! في ذات يوم لا يسبق رحيلي الى الخارج بمدة طويلة ، بل هو تقريباً عشية انفصالي عنها ، دخلت الى غرفتها فوجدتها وحيدة بلا شغل ، قد وضعت كوعيها على المائدة واسترسلت في تأمل عميق . لم يسبق لها أن بقيت من قبل عاطلة عن العمل في أي يوم من الأيام تقريباً . وكنت في ذلك الأوان قد انقطعت عن ملاطفتها منذ مدة طويلة . فاستطعت أن أقترب منها برفق ماشياً على رءوس الأصابع ، فامسكتها فجأة وقبّلتها . انتفضت : لن أنسى في حياتي ما ارتسم على وجهها عندئذ من آيات الافتتان والسعادة . ولكن ذلك لم يلبث أن حل محله احمرار سريع ، وقدحت عيناها شرراً . هل تعلم ماذا قرأت في ذلك الشرر ؟ « انك تعطيني صدقة ! » وانفجرت تبكي كمن أصابتها نوبة هستريا ، زاعمة أنني روّعتها . ووقفت أنا واجماً أفكر . ان هذه الذكريات شاقة على النفس يا صديقي . هذا ما نجده لدى كبار الفنانين : ان قصائدهم تصور في بعض الأحيان مشاهد « أليمة » تظل تقبض صدرك طول حياتك كلما تذكرتها . من ذلك مناجاة « عطيل » الأخيرة ، ومشهد « أوجين » على قدمي تاتيانا ، ولقاء السجين الهارب والطفلة الصغيرة في « بؤساء » فكتور هوجو . ان هذه المشاهد تطعن قلبك مرة ، ثم يبقى الجرح نازفاً الى الأبد . آه ... ما كان أشد نفاد صبري وأنا انتظر وصول صونيا ، ولم كنت أود أن أقبّلها في أقرب وقت ؟ لقد أخذت أضع برنامجاً كاملاً لحياة جديدة . أخذت أفكر في الوسائل التي سأعمد اليها لأزيل من نفسها ، شيئاً بعد شيء ، بجهد متصل منظم ، خوفها الدائم مني ، ولأفهمها قيمتها الكبيرة ، ولأجعلها تدرك أنها تفوقني كثيراً . آه ... لقد كنت أعلم ، حتى منذ ذلك الحين ، أنني أحب أمك متى

انفصلت عنها ، فاذا اجتمعنا من جديد ، فتر حبى وبرد . ولكن شيئاً آخر حدث حينذاك .

كنت مدهوشـاً . وهذا سؤال يبرق فى ذهنى : ماذا عنها « هى » ؟ وسألته فى حذر .

ـ وكيف تم اللقاء ؟

ـ فى ذلك الوقت ؟ لم يتم لقاء . وصلتُ الى مدينة كونجسبرج بعد عناء شديد ، وبقيت بهـا ، وكنت أنا على نهر الراين . لم أذهب اليها ، بل أرسلت آمرها بأن تبقى حيث هى . التقينا بعد ذلك بمدة طويلة ... مدة طويلة جداً ... حين ذهبت استأذنها فى أن أتزوج .

٢

لن أذكر هنـا الا الأشياء الأسـاسية ، أى ما استطعت أن أحفظه . زد على ذلك أنه قد أخذ يتكلم بدون تسلسـل ولا ترابط ، وتضـاعف تفكك أقواله وتشوشـها واضطرابهـا عشر مرات منـذ بلغ من حديثـه هذا الموضع .

لقد لقى كاترين نيقولايفنا مصـادفةً ، حينما كان ينتظر ماما ، بل حينما كان نفاد صبره أثنـاء هذا الانتظار قد بلغ قمته . كانوا يومئذ جميعاً على نهر الراين ، يقضون موسم المياه المعدنية . وكان زوج كاترين ايفانوفنا يحتضر تقريبـاً ، أو قل على الأقل ان الأطباء كانوا يائسين منه فهو بحكم المحتضر .

خطفت كاترين ايفانوفنـا بصر أبى منذ أول لقاء ، حتى لكأنها رمته بسحر . كان ذلك قدراً محتوماً . لاحظوا أننى ، وأنا أسـجل وأتذكر الآن هذا كله ، لا أذكر أن فرسيلوف استعمل فى حديثه كلمة « الحب » مرة واحـدة ، ولا قال انه « شغف » ، وانما استعمل كلمة « القدر » ، فحفظت هذه الكلمة .

ولقد كان الأمـر قدراً بالفعل . انه « لم يرد » ذلك ، لم يـرد أن يحب . لا أدرى هل أقدر أن أعبر عن هذا تعبيراً واضحاً . المهم أنه كان مستاءً بكل نفسه من أن هذا الأمر قد أمكن أن يقع له . ان كل

ما كان يملكه من حرية قد زال دفعه واحدة حين كان ذلك اللقاء ، ووجد الرجل نفسه مشدودا حتى الأبد الى امرأة ليس بينه وبينها شيء مشترك • انه لم يرغب فى ان يستعبده الهوى هـذا الاستعباد • يجب ان اقول اليوم بصراحة : ان كاترين نيقولايفنـا نموذج نادر فى نساء المجتمع الراقى ، نموذج لعل المرء لا يقع عليه فى تلك البيئات • هى نموذج امرأة بسيطة صريحة الى أقصى حدود البساطة والصراحة • ولقد سمعت ، بل علمت من مصـــدر موثوق به ، أن هذا بعينــه هو ما يجعلها كاسحة لا سبيل الى مقاومتها حين تظهـر فى المجتمع (وكانت فى كثير من الأحيـان تبتعد عن المجتمع ابتعاداً تاماً) • وكان فرسيلوف ، أثناء ذلك اللقاء الأول ، لا يظن أن لها هذه المزايا ، حتى لقد ظن نقيض ذلك ، أى اعتقد انها امرأة متصنعة منافقة • وسأسـتبق الأمور فأذكر هنا ما كان من رأيها هى فيه • لقد قالت ان رجلاً مثاليـاً لا يمكن أن يحكم عليها غير هذا الحكم ، لأن المثالى حين يصطدم بالواقع يكون محمولاً أكثر من سـائر الناس على افتراض جميع أنواع العيوب » • لا أدرى هل يصدق هذا الرأى على المثاليين عامةً ، ولكننى أعرف أنه يصدق عليه • وأحب أن أضيف هنا رأيى أنا ، وهو رأى تكوّن فى ذهنى بينما كنت أصغى اليه : لقد قلت لنفسى انه كان يحب ماما حبـــاً انسانياً شـاملاً ان صـح التعبير ، لا ذلك الحب العادى الذى يشتعل فى نفس المرء حين يحب نساءً ، وانه منذ أول اتصال له بامرأة أحبها ذلك الحب العادى ، قد أسرع ينبذ ذلك الحب ويرفضــه ، بسبب عدم التعود فى أغلب الظن • على أن هذه الفكرة ربما كانت خطأ • وأنا لم أعبّر له عنها على كل حال • ولو فعلت ذلك لما كنت لبقاً • لا سيما وأنه كان فى حالة توجب على المرء أن يداريه • لقد كان مضطرباً اضـطراباً رهيبـاً • حتى انه فى بعض المواضـع من حديثـه كان ينقطع عن الكلام على حين فجأة أحيـــاناً ، ويبقى صامتـــاً عدة دقائق وهو يذرع أرض الغرفة منقلب السحنة •••

ولم تلبث كاترين نيقولايفنـا ان نفذت الى سره ، ولعلها تغنجت له ان الأنثى لا تتنازل عن القيـام بدورها ، حتى اطهر النساء ٠ هذه عندهم غريزة لا يستطعن مقاومتهـا ٠ ثم انتهى كل شيء بقطيعة عنيفة ، بل أظ أنه أراد أن يقتلها ٠ لقد اخافها ، ولعله كان يمكن أن يقتلها ٠ « لكن ذلك كله استحال فجأة الى كره » ٠ ثم جاءت مرحلة أخـرى عجيبة ٠ لقد تملكته فكرة غريبة على حين فجأة : ان يعذِّب نفسه باتبـاع رياضة نفس قاسـية هي « تلك الرياضة نفسها التي يستعملها الرهبان ٠ فباتباع هذ الرياضة اتباعاً تدريجياً منظماً مطرداً تتوصل الى التغلب على ارادتك ، باد بأتفه الأشياء وأيسرها ، منتهياً بتحقيق انتصـار كامل على ارادتك ، فتصبح حراً » ٠ وأضاف أن هذه الرياضة التي يتبعها الرهبان بالتقشف وتعذيب النفس ليست لعباً ، بل هي علم نشأ من تجربة دامت ألف سنة ٠ على أ أهم ما في الأمر هو أن فكرة « ترويض » النفس هذه لم تنشأ في ذهنه عن رغبة في التحرر من كاترين نيقولايفنا ، بل عن اقتناع كامل بأنه لا يحب كاترين نيقولايفنا وانما هو يكرهها ٠ وقد بلغ من قوة الاعتقاد بهذا الكر أنه زُيِّن له فجأة أن يحب ابنة زوجها ، التي أغواها الأمير وتركها ، وأن يتزوجها ، وأنه آمن هو نفسه بهذا الحب الجديد ، واجتذب اليـ حبٌّ تلك البلهـاء المسـكينة التي هيأ لها هذا الحب في الأشهر الأخير من حياتهـا سـعادة كاملة ٠ لماذا لم يتذكر ماما التي كانت لاتزال تنتظر بمدينة كونجسبرج ، بدلا من تلك الفتاة البلهاء؟ ذلك سؤال يظل عندي بلا جواب ! ٠٠٠ لقد نسي ماما نسـياناً مباغتـاً تاماً ، حتى لقد انقطع عن ارسال شيء من المال اليها لتعيش ، فاضطرت أن تستنجد بتاتيانا بافلوفنا التي أغاثتها وكفلت لهـا الخلاص ٠ ولكنه ذهب الى ماما فجأة ليطلب منها « اذ بتزوج تلك الفتاة » ، متعللاً بأن « خطيبةً كهذه ليست امرأة » ٠ قد تكون هذه الصورة كلهـا صورة رجل « مستمد من الكتب » كما وصفته بذلك كاترين نيقولايفنا فيما بعد ، ولكن لماذا يكون هؤلاء « الرجال المستمدون

من الكتب » (اذا صح أنهم كذلك) قادرين على ان يعذبوا أنفسهم حقاً رغم كل شيء ، وأن يصلوا الى مآسي كهذه المآسي ؟ على أنني في ذلك المساء قد فكرت في الأمر تفكيرا يختلف عن هذا قليلاً ، وبرقت في ذهني فكرة أخرى :

ـ ان ثقافتك ونفسك كلها قد كلفتاك عذاباً ومعارك ظللت تخوضها طول حياتك ، أما هي فقد تلقت الكمال مجاناً . وهذا ليس من المساواة في شيء . ذلك ما يثير الحنق في المرأة .

قلت له هذا لا لأرضيه ، وانما قلته بحرارة وحتى باستياء . فقال مدهوشاً من كلماتي :

ـ الكمال ؟ كمالها ؟ ألا انها محرومة من أي كمال ! انها امرأة عادية جداً . امرأة لاقيمة لها بتاتاً ... ولكنها مضطرة أن تحصّل كل أنواع الكمال .

قلت :

ـ لماذا مضطرة ؟

فصاح غاضباً :

ـ لأنها تملك قوة كهذه القوة ، فهي مضطرة أن تحصل كل أنواع الكمال .

ـ الأمر المحزن أنك معذّب حتى الآن .

أفلتت مني هذه الجملة بغير ارادة . فوقف أمامي متحيراً ، وقال مردداً :

ـ حتى الآن ؟ معذّب ؟

وأضاءت وجهه على حين فجأة ابتسامة هادئة طويلة واجمة ، ورفع

أصبعه كمن قرر أمراً . حتى اذا ثاب الى نفسه تماماً تناول من على المائ
رسالة مفضوضة ورماها أمامى قائلاً :

ـ خذ ! اقرأ ! يجب أن تعرف كل شيء على الاطلاق ... لم
تركتنى انبش هذه الحماقات كلها طول هذه المدة ؟ ان هذا لا يزيد ع
أن يحنق قلبى ! ...

لن استطيع أن أعبر عما اعترانى من دهشة ! لقد وصلته ه
الرساله منها « هى » ، فى هذا اليوم نفسه ، الساعة الخامسة من المساء
قرأت الرسالة وأنا أرتعش من الانفعال تقريباً . لم تكن الرسالة طويلة
لكنها تبلغ من الصراحة والصدق أننى كنت ، وأنا أقرؤها ، أتمثل كاتبت
أمامى وأسمع صوتها متكلمة . ان كاترين نيقولايفنا تعبر له فى ه
الرسالة تعبيراً مخلصاً كل الاخلاص (أى تعبيراً مؤثراً) عن خوفها منه
ثم تتوسل اليه أن « يدعها وشأنها تعيش فى سلام » ، وتبلغه فى خ
الرسالة أنها ستتزوج بيورنج فعلاً . ولم تكن قد كتبت اليه قبـ
اليوم أبداً .

واليكم ما فهمته من أقواله :

ماكاد يفرغ من قراءة هذه الرسالة حتى أحس فى نفسه فجـ
بأمر لم يكن يتوقعه قط : لقد شعر ، لأول مرة خلال هاتين السنتي
المشئومتين ، بأنه لا يحمل لها أى كره ، ولا تهتز لها نفسه أى اهتزاز
هو الذى « فقد صوابه » منذ مدة قصيرة حين سمع اسم بيورنج . حتى ا
قال لى بعاطفة عميقة : « بالعكس : باركتها من كل قلبى » . سمعت م
هذه الكلمات معجباً . هكذا زايله كل ما كان يضطرم فى قلبه من هو
ومن عذاب ، زايله دفعةً واحدة ، من تلقاء نفسه ، كأنه كان حلماً ، كأ
كان مساً ثم مضى ! وقد دهش هو من نفسه ، فأسرع يذهب الى أمى
فدخل عليها لحظة أصبحت « حرة » ، أى لحظة مات الشيخ الذى أوص

بالأمس أن يتزوجها . ولقد هزته هاتان المصادفتان هزاً قوياً . وبعد قليل ، خرج يبحث عنى . لن انسى ابدا اننى سرعان ما خطرت بباله .

لا ولن انسى نهاية تلك السهرة . ان هذا الرجل قد تبدل مرةً أخرى تبدلاً كبيراً مباغتاً . بقينا معاً الى ساعة متأخرة من الليل . سأتحدث فيما بعد عن الاثر الذى أحدثه فينا « النبأ » ، سأتحدث عنه فى حينه . أما الآن فسوف أقتصر على بضع كلمات أختم بها كلامى عنه هو . اننى لأدرك ، حين أفكر الآن ، أن ما فتننى فيه حينذاك هو ذلك النوع من الانقياد لى ، ذلك الاخلاص الصادق فى مخاطبة فتى مثلى ! لقد هتف يقول : « كان ذلك ضلالاً . ولكن بورك ذلك الضلال ! فلولاه لكان يمكن ألا أهتدى فى قلبى ، اهتداءً كاملاً أبدياً ، الى ملكتى الوحيدة ، الى شهيدتى ، أمك » . هذه الكلمات الحارة التى أفلتت منه بقوة لاتقاوم ، انما أسجلها هنا من أجل تتمة القصة . ولكنه كان قد غزا قلبى وأسر نفسى .

أذكر أننا صرنا فى النهاية الى مرح جنونى . أمر بشمبانيا ، فشربنا « نخب » ماما ، و « نخب » المستقبل . وكان يزخر حياة ، ويفيض تأهباً وتهيؤاً للحياة ! ولكن مرحنا الجنونى لم يكن سببه الخمر : فلم يشرب كل منا الا كأسين اثنين . لا أدرى لماذا أصبحنا فى النهاية نضحك عاجزين عن كبح ضحكنا . أخذنا نتكلم فى أمور لا قيمة لها . روى نكات . ورويت نكات . وكانت الضحكات والنكات بريئة كل البراءة ، خالية من أية سخرية ، ولكنها كانت تزيدنا مرحاً . وكان لا يريد أن يخلى سبيلى فهو ما ينفك يقول : « ابق ، ابق » ؛ وبقيت . حتى اذا خرجت صحبنى .

كان الليل رائعاً ، وكان جليد خفيف .

سألته فجأة بدون سابق تفكير ، وأنا أصافحه مرة أخيرة عند منعطف :

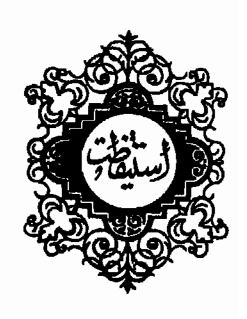
ـ قل لى : هل أجبتها ؟

ـ لا، لم أجبها بعد، ولكن لاقيمة لهذا . تعال غدا، تعال فى وقت أبكر . آ ... شيء آخر : اترك لامير نهائياً ، ومزّق « الوثيقة » بأقصى سرعة . استودعك الله .

قال ذلك ومضى فجاة . فبقيت مسمّرا فى مكانى وقد بلغت من الاضطراب اننى لم أجرؤ أن أناديه . هزّتنى كلمة « الوثيقة » خاصة : من عسى يحدثه عنها بهذه الألفاظ الدقيقة غير لامير ؟ وعدت الى البيت قلقاً أشد القلق . وبرق فى ذهنى سؤال : كيف يمكن أن يزايله فى مثل لمح البصر « مس دام سنتين » ، ثم اذا هو يختفى كحلم ، يتبدد كدخان ، يغيب كرؤيا ؟

الفصل التاسع

١



فى الغداة أنضرَ همةً وأحسن حالاً . حتى لقد رأيتنى آخذ على نفسى ، بغير غضب، شيئا من الخفة ونوعاً من التعالى ظهرا علىَّ أمس حين كنت أصغى الى بعض الفقرات من « اعترافه » .

لقد كان اعترافه مفككاً فى بعض الأحيان ، وكان عدد من أقواله غامضاً مبهماً بل مضطرباً مشوشاً لا ترابط فيه ولا اتساق بين أجزائه . ولكن هل كان قد أعدَّ خطابَ خطيبٍ حين دعانى الى بيته ؟ حسبى أنه شرفنى باللجوء الىَّ كما يلجأ صديقٌ الى صديقه الوحيد فى مثل اللحظة التى كان فيها . لن أنسى له هذا ما حييت . بل لقد كان اعترافه « مؤثراً فى القلب » ، أقول هذا ولو سخر من هذا التعبير ساخرون . ولئن اشتمل هذا الاعتراف على عناصر مستهترة ، أو حتى مضحكة قليلاً ، فلقد كنت أرحب صدراً وأوسع أفقاً من ألا أفهم أو ألا أقبل الواقعية ــ دون أن ألطخ المثالية على كل حال . أخيراً فهمت هذا الرجل ؟ ولقد ساءنى وأحزننى قليلاً أن أرى أمره بسيطاً كل تلك البساطة : هذا الانسان ، كنت فى قرارة قلبى أنزله أعلى منزلة ، وأضعه فوق السحب . فكان لابد لى حتماً أن ألفع مصيره برداء من السر ، وكنت أتمنى طبعاً ألا ينكشف ذلك السر بمثل هذه السهولة . ثم لقد كان هناك ، فى لقائه « معها » ، وخلال هاتين السنتين من العذاب ، أشياء أخرى كثيرة معقدة :

« لم يرد ذلك القدر • كان فى حاجـة الى الحرية لا الى عبودية القدر • عبوديه القدر هـذه هى التى اضطرته ان يجـرح شعور ماما التى كانت تنتظره فى لونجسبرج ••• » • وعدا ذلك ، كان هذا الانسان فى نظرى داعية ومبشرا على كل حال : كان يحمل فى قلبه العصر الذهبى ، ويعرف مستقبل الالحاد • ثم اذا بلقائه معها قد حطم كل شىء ، وشوّه كل شىء • أنا لم أخنها طبعاً ، ولكننى مع ذلك قد انحزت اليه • كنت أقول لنفسى : ما كان لماما مثـلاً أن تحرفه عن طريقه ولو تزوجتـه • وكنت أحس أن لقاءه مع « الأخرى » أمر مختلف كل الاختلاف • صحيح أن ماما ما كانت لتجيئه بالهدوء والسكينة • ولكن هذا أفضـل • ان أمثال هؤلاء الرجال ما ينبغى أن يُحـكم عليهم بالمقاييس التى يُحـكم بها على غيرهم • ان لهم شأناً خاصاً • ان حياتهـم ستنقضى دائمـاً على هذا النحو • وليس فى ذلك شذوذ • بالعكس : فانما الشذوذ أن يجدوا الهدوء ، أو أن يصبحوا كسـائر الناس المتوسـطين • ان افتخاره بالنبالة وقوله « سأموت سـيداً » لم يقلقانى • لقد أدركت ما السيد الذى كان يعنيـه : انه السـيد الذى يهب كل شىء ، ويبشر بمواطن الكون ، ويشـيع الفكرة الروسية الداعية الى « لقاء الأفكار لقاءً شـاملاً » • لعل هذا كله كان سخافات وحماقات ، أعنى « لقاء الأفكار لقاء شاملاً » (مع أنه لا غنى عنه طبعاً) ، ولكن ألم يكن حسناً أنه نذر حياته للفكرة ولم يقفها على عجل الذهب ؟ ولكن أنا ••• رباه ••• هى أنا انحنيت لعجل الذهب حين تصـورت فكرتى ؟ هل المال هو ما كنت فى حاجـة اليه ؟ يميناً لم أكن فى حاجـة الا الى الفكرة ! يميناً لو ملكت المال لما تجدّدت كرسـياً واحـداً ولا ديواناً واحـداً بالقطيفة ، ولما أكلت غير صحن الحساء الذى آكله اليوم مع مائة مليون !

لبست ثيابى ، وشعرت بقوة تدفعنى اليه ولا أستطيع مغالبتها • يجب أن أضيف هنـا أننى فيما يتعلق باشارته الى الوثيقة أمس ، قد وجدتنى

اهدأ بالا • قلت لنفسى أننى قد أبحث هذا الموضــوع معــه • واى ضير فى أن يكون لامير قد تسلل اليه وحدثه عن شىء ؟ وكانت فرحتى الكبرى هى احســاسى الغريب بأنه أصبح لا « يحبها » • كنت مقتنعاً بهذا اقتناعاً مطلقاً • وكنت أحس أن ثقلاً رهيباً قد نزل عن قلبى • حتى اننى أتذكر افتراضاً مرّ بخاطــرى : ان ما اشتملت عليه غضبته المسعورة من شذوذ عجيب رهيب حين جاءه نبأ بيورنبج ، وما لجا اليه عندئذ من ارسال رسالته تلك التى احتوت على سب وشــتم ، أقول ان ذلك العنف كله ربمــا كان ايذاناً بتغير جذرى فى عواطفــه وعودة سريعــة الى الحس السليم والعقل الراجح • قلت لنفسى : ان هذا لابد أن يكون شبيهاً بالنوبة التى تحدث فى مرض ثم يقعبها نقيضها ! فما ذلك الا مرحلة طيبــة ! وقد أســعدتنى هذه الفكرة •

وهتفت أقول : « الآن فلتتصرف فى مصــيرها كما تشاء ، ولتتزوج بيورنبج ما حلا لهــا ذلك ، فانمــا المهم أنه هو ، أبى ، صــديقى ، قد زال حبه لهــا • » • على أن عواطفى أنا قد كان فيها سر • ولست أريد فى مذكراتى هنا أن ألحّ عليه أو اكشف عنه •

ولكن كفى ! الآن سأروى جميع الأهوال التى تعاقبت ، بدون أى مداراة فى هذه المرة •

٢

في الساعة العاشرة ، فيما كنت أتهيأ للخروج (لأذهب اليه طبعاً) جاءت داريا أونيسيموفنا . فسألتها مرحاً هل هو أرسلها الىّ ، فأحزنني أن أعلم أنه ليس هو الذى أرسلها ، وانما أرسلتها آنا آندريفنا ، وأنها - هى داريا أونيسيموفنا - « قد خرجت من البيت عند طلوع الصباح » .

- أى بيت ؟

- البيت نفسه ، بيت الأمس . ان البيت الذى كنت فيه أمس ، أعنى بيت الطفل ، مستأجر الآن باسمى أنا ، ولكن تاتيانا بافلوفنا هى التى تدفع ...

قاطعتها غاضباً أقول :

- ما شأنى أنا وهذا ! ولكن هو ، هل هو فى البيت ؟ هل أجده اذا ذهبت اليه ؟

فما كان أشد دهشتى حين علمت أنه خرج قبل أن تخرج هى ، فاذا كانت قد خرجت هى عند طلوع النهار ، فقد خرج هو قبل طلوع النهار .

- لعله يكون قد رجع الى البيت الآن ؟

- لا ، انه لم يرجع حتماً ، وربما لا يرجع أبداً .

قالت ذلك وهى تحدّق الىّ بنظرتها الحادة الماكرة التى سبق أن ضقت بها وانزعجت منها حين زارتنى مريضاً فى السرير • ان ما أحنقنى بخاصة هو هذه الأسرار وهذه السخافات التى تعود الى الظهور : ان هؤلاء الناس يصرون على ألا يستغنوا عن السر والمكر •

ـ لماذا قلت « ربما لا يرجع أبداً » ؟ ماذا تعنين بهذا ؟ لقد ذهب الى ماما وهذا كل شىء !

ـ لا أدرى •

ـ ولكن ما جاء بك أنت ؟

فقالت لى انها الآن آتية من عند آنا آندريفنا ، وان آنا آندريفنا تدعونى أن أجىء اليها حالاً ، والا « فات الأوان » • فأحنقنى هذا الكلام الملغز مرة أخرى وأخرجنى عن طورى :

ـ لماذا يفوت الأوان ؟ لا أريد أن أذهب اليها ولن أذهب ! لن أنقاد للتضليل مرة جديدة ! اننى لا أعبأ بلامبير ! قولى لها هذا • فاذا أرسلت لى لامبير ، فلأطردنّه ركلاً بقدمى •

ارتاعت داريا ارتياعاً رهيباً •

قالت وهى تتقدم منى خطوةً وتضم يديها احداهما الى الأخرى ضارعة متوسلة :

ـ لا ، انتظر • لا تسرع الى الغضب هذا الاسراع • ان الأمر خطير ، بل خطير جداً بالنسبة اليك ، واليهم أيضاً ، الى آندره بتروفتش ، والى أمك ، والى الجميع • فاذهب الى آنا آندريفنا حالاً ، لأنها لا تستطيع أن تنتظرك مدة أطول •• أحلف لك بشرفى • وبعد ذلك تتخذ قراراً •

نظرت اليها مدهوشاً مشمئزاً • وهتفت أقول بعناد وعداوة :

ـ سخافات • لن يحدث شيء • لن اذهب • تغير الآن كل شيء • هل أنت قادرة على أن تفهمي ؟ مع السلامة يا داريا أونيسيموفنا • لن أذهب • عمداً لن أذهب • وعمداً لن أسألك عن شيء • والا أفقدتني صوابي • لا أريد أن أحشر أنفي في أسراركم •

ولكنها لم تنصرف ، بل ظلت متسمرة في مكانها ، فلم يسعني الا أن أتناول معطفي وطاقيتي ، وأن أخرج تاركاً اياها في وسط الغرفة • لم يكن في غرفتي رسائل ولا أوراق ، ولا كنت أقفلها بالمفتاح في أي يوم من الأيام تقريباً حين أخرج • ولكن ما كدت أصل الى الباب المفضي الى الشارع حتى رأيت مؤجر غرفتي بطرس هيبوليتوفتش يركض ورائي بدون قبعة وبدون سترة •

ـ آركادي ماكاروفتش ! آركادي ماكاروفتش !

ـ ما بك أنت أيضاً ؟

ـ ألا تأمر بشيء قبل أن تخرج ؟

ـ لا •

فنظر الي نظرة نافذة فيها قلق واضح ، وقال يسأل :

ـ فيما يتعلق بالبيت مثلاً ؟

ـ فيما يتعلق بالبيت ؟ ألم تستلم الأجرة ؟

ـ ليس الأمر أمر الأجرة •••

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة طويلة على حين فجأة ، ويظل يتفحصني بنظرته • فصحت أقول غاضباً :

ـ ولكن ماذا حدث لكم جميعاً ؟ ماذا تريد أنت ؟

فانتظر بضع ثوان ، كأنه لا يزال يأمل مني شيئاً • ثم دمدم يقول وهو يبتسم ابتسامة أطول :

ـ اذن تأمرنى فيما بعد ، مادمت الآن معتكر المزاج • طيب • مع السلامة • أنا أيضاً يجب أن أذهب الى المكتب •

وعاد يصعد السلم راكضـاً • ان هذا كله يبعث على التفكير طبعاً • وأنا أتعمد ألا أغفل أى تفصيل من تفاصيل هذه السخافات الصغيرة ، لأن كل واحد منها قد وجد مكانه من بعد فى مجموعها المتشابك • هذه حقيقة • ولئن ضقت ذلك الضيق كله ، وحنقت ذلك الحنق كله ، فلأننى عدت أجد فى أقوالهم لهجة المكر واللغز تلك التى كنت أتقزز منهـا وكانت تذكرنى بالماضى •

ولكن فلأتابع حديثى •

لم أجد فرسيلوف فى البيت : كان قد خرج فعلاً مع طلوع النهار • وقفت أقول لنفسى : «سأجده عند ماما حتما» • ولم أسأل الخادمة عن شىء • انها امرأة غبية • ولم يكن فى البيت أحد غيرها • ركضت متجهاً الى بيت ماما • أعترف بأننى كنت قلقاً غاية القلق • حتى لقد ركبت عربة بعد أن قطعت نصف الطريق • فعرفت هنـاك « أنه لم يجىء الى بيت ماما منذ مساء الأمس » • لم يكن مع ماما الا تاتيانا بافلوفنا و ليزا • وما ان دخلت حتى تأهبت ليزا للخروج •

لاتزالان تقيمان فوق، فى «تابوتى» • وتحت، فى الصالون، كان جثمان ماكار ايفانوفتش مسجى على المائدة ، وكان شيخ مجهول يقرأ عليه المزامير • لن أصف بعد الآن شيئاً مما لا يتصل بالقضية اتصالاً مباشراً • لكننى أحب أن أسجل أن النعش الذى صنع له و وضع فى الغرفة لم يكن نعشاً مبتذلاً : صحيح أنه أسود ، ولكنه مفروش بقطيفة ؛ والكفن ثمين : ترف لا يناسب الشيخ ولا يناسب اعتقاداته • ولكن تلك كانت رغبة ماما و تاتيانا بافلوفنا ، حرصنا عليها أشد الحرص •

لم أكن أنتظر طبعاً أن أراهنّ في مرح ، لكنني ما ان رأيت الحزن الساحق والقلق الشديد والهم الثقيل في أعينهن حتى قدّرت أن « هناك شيئاً آخر غير المتوفى قطعاً » ، اعود فأكرر أنني أتذكر هذا تذكراً واضحاً .

ومع ذلك قبلت ماما بحنان ، ثم لم ألبث أن سألتها « عنه » . فسرعان ما اشتعل في نظرتها استطلاع قلق . فبادرت أضيف أننا قضينا السهرة معاً الى ساعة متأخرة من الليل ، ولكنني لم أجده اليوم في البيت ، فقد خرج مع طلوع النهار ، رغم أنه طلب مني في الليلة البارحة ، حين افترقنا ، أن أجيء اليه في أبكر وقت . لم تجب ماما بشيء ، ولكن تاتيانا بافلوفنا انتهزت فرصةً فلوحت لي بأصبعها مهدّدة .

وقالت ليزا فجأة بلهجة قاطعة وهي تخرج من الغرفة مسرعة :

ـ استودعك الله ، أخي .

وبادرت ألحق بها طبعاً ، فوجدتها واقفةً تنتظرني عند الباب . قالت لي بهمس سريع :

ـ قدّرت أنك ستنزل .

ـ ماذا حدث يا ليزا ؟

ـ أنا نفسي لا أعلم . ولكن لابد أن أشياء كثيرة قد حدثت . لابد أنها خاتمة هذه « القصة الأبدية » . لم يجيء . ولكن وصلتهم أخبار عنه . لن يحكوا لك شيئاً . فكن هادئاً ، ولا تسألهم أي سؤال اذا كنت تملك بعض الذكاء . أنا أيضاً لم أسأل . ماما مرهقة . الى اللقاء !

وفتحت الباب . قلت :

ـ ليزا ! وأنت ، أليس بك شيء ؟

ووثبت أدركها في الدهليز . ان هيئتها المهدودة المكروبة اليائسة قد

طعنت قلبي • فنظرت الى نظرة لم تكن غاضبة فحسب ، بل كانت كاسرة أيضاً • ثم ابتسمت ابتسامة مرة ، وحركت يدها باشارة يأس •

وفيما كانت تهبط السلم منصرفة ، هتفت تقول :

ـ اذا مات فيجب أن نحمد الله •

كانت تعني الأمير سرجي بتروفتش الذى كان راقداً مع حمى وغيبوبة • حدثت نفسي محنقاً : « القصة الأبدية ؟ أية قصة أبدية ؟ » وسرعان ما ساورتني رغبة قوية في أن أحدثهم عن جزء ـ على الأقل ـ مما أحسست به بعد سماع « اعترافه » في الليلة البارحة ، وأن أذكر لهم ذلك الاعتراف ذاته • « انهم يحملون آراء سيئة فيه • ألا فليعلموا اذن كل شيء ! » • تلك هي الفكرة التي لمعت في خاطرى •

أذكر انني بدأت الكلام بغير خراقة ، فسرعان ما أثرت اهتمامهما واجتذبت انتباههما • حتى ان تاتيانا بافلوفنا كانت تشرب أقوالى شرباً ، وذلك شيء لم يسبق أن حدث من قبل • وكانت أمي أكثر تحفظاً • كانت رصينة جداً ، ولكن ابتسامة خفيفة رائعة ، وان تكن يائسة كل اليأس ، قد أضاءت وجهها ولازمته الى نهاية الحديث • واسترسلت في الكلام ، رغم علمي بأنهما لا تكادان تفهمان ما أقول • وقد أدهشني كل الادهاش أن تاتيانا بافلوفنا لم تحاول أن تناكدني ، فلا سألتني توضيحات ولا نصبت لى فخاخاً ، كما كان من عادتها أن تفعل حين أتكلم • وكانت تقتصر على أن تزم شفتيها وتغمض عينيها نصف اغماض من حين الى حين كأنما هي تجهد أن تفهم • حتى لقد بدا لى في بعض اللحظات أنهما كانتا تدركان كل شيء • غير أن ذلك كان مستحيلاً في الواقع • تحدثت مثلاً عن اعتقاداته وآرائه ، وعن حماسته أمس ، عن حماسته لماما خاصة ، عن حبه لماما ، ورويت كيف قبّل صورتها ••• فكانتا ، وهما تصغيان الى كلامي ، تتبادلان نظرات سريعة صامتتين • واحمرت ماما

احمـــراراً شـــديداً • وظلتـــا كلتاهما لا تقولان شيئاً • ثم ••• ثم •• كنت لا أستطيع طبعاً ، بحضور ماما ، أن ألمس النقطة الأساسية ، أعنى لقاءه مع الأخرى ، و « انبعاثه » الروحى بعد تلقيه تلك الرسالة • وكان ذلك هو الأمر الجوهرى فى الواقع • وهكذا فان جميع عواطفه التى عبر عنها فى الليلة البارحة والتى كنت آمل أن أبهج بهـــا ماما كثيراً ، بقيت غامضة غير مفهومة بطبيعة الحال ، ولم يكن الذنب فى ذلك ذنبى ، لأن كل ما كان يمكنني أن أقوله ، قد قلته بل أحسنت قوله جداً • فلما انتهيت كنت مرتبكاً أشد الارتباك • واستمر صمتهما • فوجدت نفسى معهما فى ضيق شديد • فقلت وأنا أنهض لأنصرف :

ــ لابد أنه رجع الى البيت الآن • أو لعــله ذهب الى بيتى فهـــو ينتظرنى هناك •

فقالت تاتيانا بافلوفنا مؤيدة بلهجة قاطعة :

ــ طيب • اذهب اليه ، اذهب اليه !

وسألتنى ماما بهمس :

ــ هل ذهبت الى تحت ؟

ــ نعم ، حييت جثمانه ، وصلّيت له • ما أجمله من وجه هادىء يا ماما ! شكراً لأنك لم تقصّرى فى أمر النعش أىّ تقصـــير • لقـــد استغربت ذلك فى أول الأمر ، ولكننى سرعان ما أدركت أننى لو كنت فى مكانك لفعلت ما فعلته أنت •

سألتنى أمى مختلجة الشفتين :

ــ هل تأتى غداً الى الكنيسة للجنازة ؟

فقلت مدهوشاً :

ــ كيف لا يا ماما ؟ سأحضر قداس اليوم ، وآتى غداً أيضـــاً • وغداً عيد ميلادك يا ماما ، يا صديقتى الغالية ! لم ينقصه الا ثلاثة أيام !

وانصرفت مدهوشاً دهشة أليمة : يا له من سؤال سخيف ! كيف تسألني هل آتي الى الكنيسة أم لا ؟

واذا كانتا تخشيان ألا آتي أنا ، فما عسى تكون خشيتهما من ألا يأتي « هو » ؟

وكنت أعلم أن تاتيانا بافلوفنا قد تلحق بي ، فتعمدت أن أقف عند العتبة . وأدركتني فعلاً ، لكنها دفعتني بيدها الى السلم ، وخرجت بعدي وأغلقت الباب .

ـ تاتيانا بافلوفنا ! هل تتوقعان اذن ألا يجيء آندره بتروفتش لا اليوم ولا غداً ؟ انني خائف ...

ـ اسكت . يا له من أمر عظيم أن تكون خائفاً !!... قل : انك لم تذكر كلّ شيء حين رويت ما رويته عن الليلة البارحة ، أليس كذلك؟

لم أجد داعياً الى الكتمان ، فحكيت لها ـ وأنا شبه غاضب على فرسيلوف ـ حكاية الرسالة التي وصلته من كاترين نيقولايفنا ، والأثر الذي أحدثته تلك الرسالة في نفسه اذ بعثته بعثاً جديداً . فما كان أشد استغرابي حين لاحظت أن واقعة الرسالة لم تدهشها ، فأدركت أنها على علم بأمرها .

ـ ألا تكذب فيما تقول ؟

ـ لا ، لا أكذب .

فابتسمت ابتسامة ساخرة وكأنها تفكر ، ثم قالت :

ـ هه ! بُعث بعثاً جديداً ! لا ينقص الا هذا ! هل صحيح أنه قبّل الصورة ؟

ـ صحيح يا تاتيانا بافلوفنا .

ـ قبّلها بعاطفة ، أم تظاهراً ؟

ـ تظاهر تظاهراً ؟ هل يتظاهر أحياناً ؟ عيب يا تاتيانا بافلوفنا ! ان لك نفساً قاسية ، نفس امرأة !

قلت ذلك بحرارة ، ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمعني • كانت قد عادت تغرق في أفكارها رغم شدة البرد على السلم • كنت أنا مرتديا معطفي ، أما هي فكانت بفستانها فقط •

قالت باحتقار وتململ :

ـ كان يمكن أن أعهد اليك بمهمة ، ولكن المؤسف أنك غبي غباء شديداً • اسمع : اذهب الى آنا آندريفنا ، وانظر ماذا يحدث عندها • لا بل لا تذهب ! فلن تكون هناك الا غبياً • امش • ما بقاؤك هنا متسمراً كنصب ؟

ـ لا ، لن أذهب الى آنا آندريفنا ! ومع ذلك فان آنا آندريفنا هي التي أرسلت تستدعيني اليها اليوم •

ـ هي نفسها ؟ أرسلت داريا أونيسيموفنا ؟

كانت تاتيانا بافلوفنا قد أدارت ظهرها وأخذت تفتح الباب لتنصرف، لكنها ما أن سمعت كلامي حتى التفتت الى ثانية وألقت علي ذلك السؤال وهي تغلق الباب من جديد •

كررت أقول متلذذاً :

ـ لن أذهب الى آنا آندريفنا بحال من الأحوال • لن أذهب اليها ، لأنني وُصفت منذ هنيهة بأنني غبي ، مع أنني لم أكن في حياتي ذكياً نافذ البصيرة كما كنت اليوم • ان قضاياكم كلها موضوعة على راحة كفي ، أراها رؤية واضحة أكبر الوضوح ! على كل حال ، لن أذهب الى آنا آندريفنا •

فهتفت تقول وهي لا تزال تفكر :

ـ كنت أعرف هذا ! لسوف يوثقونها الآن ويضعونها فى الكيس .

ـ آنا آندريفنا ؟

ـ غبى !

ـ من تعنين اذن ؟ كاترين نيقولايفنا ؟ أى كيس ؟

جزعت جزعاً رهيباً . ان فكرة غامضة ، لكنها فظيعة ، قد برقت فى نفسى كلها . وألقت علىّ تاتيانا بافلوفنا نظرة ثاقبة ، وسألتنى فجأة :

ـ وأنت ما شأنك وهذا كله ؟ ما دورك فى هذا الأمر ؟ لقد سمعت شيئا عنك أنت أيضا . حذار.

ـ اسمعى يا تاتيانا بافلوفنا . سوف أكشف لك سرا رهيبا . ولكن لا الآن . الآن لا يتسع الوقت . غداً سأكشف لك عن ذلك السر ، على انفراد . ولكن قولى لى الحقيقة كلها فوراً : ما هذا الكيس الذى تتحدثين عنه ؟ ذلك أن جسمى كله يرتعد ارتعاداً شديداً ...

صاحت تقول :

ـ لا يهمنى أن يرتعد جسمك أو ألا يرتعد . ما هذا السر الذى تريد أن تبوح لى به فى الغد أيضاً ؟ هل تعرف شيئاً بالفعل ؟ قل ما تعرفه بصراحة ...

وعادت تلقى علىّ نظرتها الفاحصة . ثم قالت تسألنى :

ـ ألم تحلف لها أنك قد حرقت رسالة كرافت ؟

وتابعت أنا أيضاً كلامى دون أن أجيب عن سؤالها لأننى كنت خارجاً عن طورى :

ـ تاتيانا بافلوفنا ، أكرر لك .. لا تعذبينى .. انتبهى يا تاتيانا

بافلوفنا .. فبسبب ما تخفينه عنى قد تقع مصيبة أكبر . لقد كان أمس فى حالة انبعاث كامل .

ـ امش يا مهرّج ! أنت أيضاً هائم حباً .. الأب والابن مولّهان بحب امرأة واحدة ! تفو ! انكما لمقززان !

واختفت . وصفقت الباب وراءها استياءً وامتعاضاً وشعرت أنا بغضب شديد من هذه الوقاحة وهذا الاستهتار الذى لا يمكن أن تصل اليه الا امرأة ، فخرجت راكضاً وقد جُرح شعورى جرحاً عميقاً . ولكننى لن أحدثكم عن مشاعرى المضطربة : فقد عاهدتكم على ذلك . لن أحكى الا الوقائع التى ستضع فى أيديكم الآن مفتاح كل شىء .

وقد انطلقت اليه طبعا ، فأخبرتنى الخادمة مرة أخرى بأنه لم يرجع . سألتها :

ـ ولن يرجع ؟

ـ الله أعلم !

٣

الوقائع ، الوقائع ! ولـكن ما الذى سيستطيع أن يفهمه القـارىء ؟ أتذكر أننى ، أنا نفسى ، وقد سحقتنى تلك الوقائع ذاتها ، كنت لا أستطيع أن أفهمها ، فما انتهى النهار الا كان عقلى قد انقلب رأساً على عقب فعلاً ! لذلك سأسبق الأحداث ببضع كلمات .

اليكم ما كان يدور عليه قلقى وعذابى : اذا كان قد 'بعث بالأمس بعثاً جـديداً فكفَّ عن « حبها » فأين يجب أن يـكون اليوم ؟ الجواب : أولاً ، عندى ، أنا الذى قبَّلنى البارحـة ، ثم فوراً عند أمى ، التى قبَّل صـورتها . ولكنه بدلاً من أن يقوم بهـاتين الخطوتين ، غادر البيت عند « طلوع النهار » ، واختفى لا يدرى أحـد أين ، وتقول داريا أونيسيموفنا انه فى أغلب الظن لن يعود . أكثر من ذلك : ان ليزا تتحدث عن خاتمة « القصة الأبدية » ، وتؤكد أن ماما وصلتها أخبار عنه ، أحدثُ من هذه الأخبار أيضاً . وهم عدا ذلك يعرفون أمر الرسالة التى بعثتها اليه كاترين نيقولايفنا (لاحظت أنا هذا) ، ولكنهم رغم كل شىء لا يصـدّقون أنه « بعث بعثاً جديداً » ، وان كانوا قد أصغوا الىّ بانتباه شديد . كانت ماما مهدّمة تهديماً ، وكانت تاتيانا بافلوفنـا تبتسم ابتسامة ساخرة حين أنطق بكلمة « الانبعاث » هذه . معنى ذلك اذن أنه قد وقعت له فى الليل ثورة أخرى ، وقعت له نوبة أخرى ، بعد كل حماسته وحنانه وتأثره بالأمس ! ومعنى ذلك اذن أن هذا « الانبعاث » كله قد تبدد كفقاعة صابون ! ولعله

الآن يعانى ذلك الاهتياج المسعور نفسه الذى أصابه حين جاءه نبأ بيورنيج ! فاذا صحَّ هذا فما عسى يحدث لماما ؟ وما عسى يحدث لى أنا ، ولنا جميعاً .. وما عسى يحدث لها « هى » خاصة ؟ ما الكيس الذى كانت تعنيه تاتيانا حين أمرتنى أن أذهب الى آنا آندريفنا ؟ لابد أن « الكيس » اذن عند آنا آندريفنا ؟ ولماذا عند آنا آندريفنا ؟

وهُرعت الى آنا آندريفنا طبعاً . كنت تعمدت عن غضبٍ أن أقول اننى لن أذهب اليها . ثم هُرعت الآن . ولكن ما الذى قالته تاتيانا بافلوفنا عن الوثيقة ؟ أليس هو الذى قال لى أمس : « احرق الوثيقة » ؟

تلكم كانت خواطرى . ذلكم ما كان يخنقنى . ولكننى كنت فى حاجة اليه « هو » خاصة . معه يمكن أن أحل كل شىء فى طرفة عين ، يمكن أن أتفاهم ببضع كلمات : آخذ يديه ، وأشد عليهما ، وأجد فى قلبى الأقوال الحارة المناسبة . كذلك كنت أحلم . ان فى وسعى أن أنتصر على جنونه ! .. ولكن أين هو ؟ أين هو ؟ وما كان ينقصنى فى مثل تلك اللحظة الا أن ألقى لامبير ، بينما أنا فى مثل ذلك الفوران ! وكدت أصل الى البيت ، فاذا أنا أقع على لامبير فجأة . فأخذ يطلق صيحات فرح اذ رآنى . وتناول يدى .

ـ هذه هى المرة الثالثة التى أجىء اليك فيها . « أخيراً » ! هلمَّ بنا نتغدى .

ـ انتظر . أنت آت من بيتى ؟ هل آندره بتروفتش هناك ؟

ـ لا ، ليس أحد هناك . دعهم جميعاً ! أنت زعلت أمس يا أحمق ! كنت سكران . هناك حديث جرى بينى وبينك . علمتُ اليوم أنباء رائعة عمّا كنا نتكلم فيه أمس ...

قاطعته أقول لاهثاً متعجلاً ، صائحاً بعض الصياح برغم ارادتى :

ـ لامبير ، لئن وقفت فانني لم أقف الا لأقطع صلتي بك قطعاً نهائياً .
وقد قلت لك هذا بالأمس ، غير أنك تصر على أن لا تفهم . لامبير ، أنت صبي وغبي في أن واحـد ، كفرنسي . تتخيل دائمـا انك لا تزال عند توشـار وانني لا أزال أحمق كما كنت عند توشار .. ولكنني الآن غير ما كنت عند توشـار . كنت امس سـكران ، ولكن سبب سكري لم يكن الخمـر بل أني كنت مهتاجاً من قبـل أن أشرب . ولئن أيدت ما كنت تقوله ،فقد كنت أتظاهر تظاهراً لأعرف تفكيرك . لقد خدعتك ، فسررت أنت وصدقتني واستمررت في الثرثرة . اعلم أن زواجي بهـا حماقة لن يصدقها تلميذ من تلاميذ الصف الاعدادي في يوم من الأيام . هل يمكن أن يتخيل أحد أن أصدّق هذا الكلام ؟ لكنك تخيلته أنت ! مرد ذلك الى أنك لا تُستقبل في المجتمع الراقي ، ولا تعـرف ما يجـري فيـه . ان الأمور لا تجـري عندهم بمثل هذه السهولة . ليست الأمـور بسيطة هذه البساطة في المجتمع العالي . ليس أمراً هيناً أن تقرر فجأة أن تتزوجني . سـأقول لك بوضـوح ماذا تريد أنت : تريد أن تجتذبني فتسقيني الى أن أسكر فأسلمك الوثيقة وأشاركك في مؤامرة حقيرة على كاترين نيقولايفنا ! اعلم اذن أنك مخطيء . لن أجيء اليك أبداً . واعلم أيضاً أن الورقة ستكون بين يديها غداً أو بعد غد ، لأن تلك الورقة ملك لها ، لأنها هي التي كتبتها ، وسأسلّمها اليها بنفسي ، فاذا أردت أن تعرف أين سأسلّمها اياها فاعلم أن ذلك سيكون في مسكن تاتيانا بافلوفنا ، وبحضور تاتيانا بافلوفنا ، صديقتها ، وأنني لن أطالب بشيء ثمناً . والآن : الى الأمام ، سر ! والا ، والا يا لامبير ، فسأكون أقل أدباً ...

قلت ذلك وأخذت أرتجف . ان أسوأ عادة لدى كل انسان وأضر عادة بكل انسان ، في كل ظرف ، هي أن يصطنع وضع التعاظم . ما كان أغناني عن هذا الاندفاع الحار أمامه ! ما كان أغناني عن هذا الخطاب الذي

كنت أوقّع كلماته مترنماً وأرفع صوتى فيه أكثر فأكثر ، ثم أنهيه بذكر تلك النقطه التفصلية النافله ، فاقول أنى ساسلمها الوثيقه بنفسى فى مسكن تاتيانا بافلوفنا ؟ لقد احسست فجأة برغبة قويه فى ادهاشه واذهاله ! فحين تكلمت عن الوثيقة بتلك الفظاظة فرأيت جزعاً غبياً يعتريه بغتة ، أردت أن أسحقه مزيداً من السحق بذكر مزيد من التفاصيل ! فكانت هذه الثرثرة المغرورة التى تلاحظ فى النساء سبباً فى وقوع كوارث رهيبة ، لأن هذه النقطة التفصيلية ، المتعلقة بتاتيانا بافلوفنا ومسكنها سرعان ما نقشت فى ذهنه الذى هو ذهن انسان حقير ورجل عملى فى الأمور الصغيرة . انه فى الأمور الكبيرة الجدية تافه لا يفهم شيئاً ، أما فى هذه التفاصيل الجزئية فانه حاضر البديهة دائماً . فلو أننى لم أذكر اسم تاتيانا بافلوفنا ، لتجنبت وقوع مصائب كثيرة . ومع ذلك فانه بعد أن أصغى الىّ بدا كمن فقد صوابه . قال مجمجماً :

ـ اسمع . آلفونسين ستغنى .. آلفونسين ذهبت « اليها » .. اسمع . عندى رسالة ، أو رسالة تقريباً ، تتحدث فيها آخماكوفا عنك . المجدور هو الذى زوّدنى بهذه الرسالة . هل تتذكر المجدور ؟ سترى ، سترى ! هلمّ بنا !

ـ كذاب ! أرنى الرسالة !

ـ هى فى البيت ، عند آلفونسين . هيّا بنا الى البيت !

كان يكذب طبعاً ، كان يهذى ، مخافة أن أفلت منه . لكننى تركته فجأة فى وسط الشارع ، وحين همّ أن يتبعنى ، وقفت أهدّده بأصبعى . فتردد لحظةً فأتيح لى أن أختفى : لعل خطةً أخرى كانت قد نبتت فى رأسه منذ ذلك الحين . لكن المفاجآت واللقاءات لم تكن قد انتهت بالنسبة الىّ . اننى حين أتذكر ذلك اليوم الحافل بالشقاء ، يبدو لى دائماً أن تلك المفاجآت واللقاءات انما كانت على موعد لتنهلّ علىّ غزيرة رهيبة . اننى

ما ان فتحت باب مسكني حتى اصطدمت في حجرة المدخل بشاب طويل القامة له وجه بيضوى شاحب ، ومشية مهيبة « راقية » ، يرتدى معطفاً رائعاً ، ويزين وجهه بنظارة أنف . كانت له نظارة أنف . ولكنه حين رآني خلعها (من قبيل المجاملة الأنيقة) ، وقال لى وهو يبتسم ابتسامة رقيقة ويُنهض قبعته الطويلة بأدب وتهذيب ، ولكن دون أن يقف : « آ ... مساء الخير !) (بالفرنسية) ثم مضى يدرك السلم . لقد عرف كل منا الآخر على الفور ، رغم أنني لم أره الا مرة واحدة سريعة بموسكو . انه أخو آنا آندريفنا ، الحاجب بالبلاط ، الشاب فرسيلوف ، ابن فرسيلوف، أى أخي تقريبا، وكانت المؤجرة تصحبه مشيعة (لم يكن زوجها قد عاد من المكتب بعد) . فلما انصرف هجمت أسألها :

ـ ماذا يعمل هنا ؟ هل كان في غرفتي ؟

ـ لا ، لم يكن في غرفتك . جاء يزورني أنا ...

كذلك أجابتني بلهجة قاطعة خشنة وهي تدير ظهرها . فهتفت أقول صارخاً :

ـ لا ، لن يمر الأمر هكذا . أجيبي من فضلك ماذا جاء يعمل هنا ؟

ـ أوه ! هل من واجبي أن أحكي لك لماذا يجيء الناس ؟ أظن أن من حقنا ، نحن أيضاً ، أن تكون لنا شئون خاصة . لعل هذا الشاب جاء يقترض مالاً ، أو جاء يسألني عن عنوان ، أو لعلني وعدته في المرة السابقة أن ...

ـ في المرة السابقة ؟

ـ آ ... طبعاً ! في المرة السابقة . انه لم يجيء اليوم أول مرة ! وانصرفت . أدركت أن اللهجة في البيت تغيرت : أخذوا يغلظون لى

القول ! هذا سر جديد ! الاسرار تتراكم عند كل خطوة ، في كل ساعة ! في المرة الاولى جاء الشاب فرسيلوف مع أخته ، آنا اندريفنا ، حينما كنت مريضاً . تذكرت هذا تذكراً واضحاً . وتذكرت كذلك جملةً قصيرة مدهشة أفلتت أمس من آنا آندريفنا : وهي أن الأمير العجوز سيقف عندي . ولكن هذا كله كان يبلغ من الغرابة أنني لم أستطع أن أفهم شيئاً . فرأيتني ألطم جبيني ، وأهرع الى بيت آنا آندريفنا حتى دون أن أجلس لأستريح . ولم أجد آنا آندريفنا في بيتها ، لكن البواب السويسري أجابني بأنها « سافرت الى تسارسكويا ، وأنها لن ترجع الا غداً في مثل هذه الساعة تقريباً » .

ـ سافرت الى تسارسكويا ! ذهبت الى الأمير العجوز حتماً ، وذهب أخوها الى مسكني يفتشه ! لا ، هذا مستحيل !

وصررت بأسناني قائلاً : « اذا كان هناك تهديد حقاً ، فسوف أدافع عن « المرأة المسكينة » ! .

ومن بيت آنا آندريفنا لم أرجع الى بيتي ، لأن رأسي الملتهب قد انبجست فيه ، على حين فجأة ، ذكرى المطعم الذي يقع تحت مستوى الأرض ، والذي اعتاد آندره بتروفتش أن يذهب اليه في ساعات حزنه . فابتهجت لهذه الفكرة ابتهاجاً عظيماً ، وهرعت الى المطعم فوراً . كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة ، وكان المساء يهبط . قيل لي في المطعم انه جاء ، « فلبث لحظةً ثم انصرف ، وقد يعود » . فقررت فجأة ، بكل ما أملك من طاقة ، أن أنتظره ، فأمرت لنفسي بغداء . هناك أمل على الأقل !

وتغديت بل ظللت آكل طبقاً بعد طبق حتى يحق لي البقاء أطول مدة . أظن أنني مكثت زهاء أربع ساعات . لا أصف حزني ، وتلهفي

المحمـــوم . لقد كان كل شيء في يهتز ويرتعش . ان هـذا الأرغن البرباري ، وهؤلاء الشاربين ، وهذا الضجر ، ان هذا كله قد نُقش في نفسي ، ولعله نُقش فيها الى الأبد ! لا ولا أصف الأفكار التي كانت تعلو في رأسي كغمامة من أوراق أشجار يابسة في فصل الخريف بعد اعصار . كان في رأسي شيء من هـذا القبيل حقـــاً ، وكنت في بعض اللحظـات أحس بأن عقلي قد بارحني فعلاً . أعترف بهذا .

غير أن ما كان يعذبني خاصـــة (عدا عذابي الرئيسي طبعاً) انما هو ذكرى حادث لم أكلم عنه أحداً في يوم من الأيام .. كانت هذه الذكرى كذبابة سـامة من ذباب الخريف تدور ، وتئز ، وتصمت ، وتحـاصر ، ثم تلسع لسعاً موجعاً على حين فجأة . فاليكم حكاية هذه الذكرى ، لأنها ، هي أيضاً ، يجب أن تُروى في موضع ما من هذه القصة .

٤

حينما كنت بموسكو فتقرر أن أسافر الى بطرسبرج ، أبلغنى نيقولا سيمونوفتش أن هناك مالاً سيصلنى من بطرسبرج نفقات للسفر لم أسال من الذى سيرسل الىّ المال ، اذ كنت أعلم أن فرسيلوف هو الذى سيرسله . وكنت فى ذلك الحين أحلم بلقائى مع فرسيلوف ليلاً ونهاراً ، خافقَ القلب طموحَ المشاريع ، وانقطعت انقطاعاً تاماً عن التحدث فى هذا الأمر حتى الى ماريا ايفانوفنا . يجب أن أذكّر من جهة أخرى أننى كنت أملك مالاً أنفقه على الرحلة . ولكننى قررت رغم كل شىء أن أنتظر ! وكنت أقدر أن المال سيصلنى بالبريد .

ولكن ها هو ذا نيقولا سيمونوفتش يعود الى البيت ذات يوم فيبلغنى (باختصار ، على عادته ، وبدون الحاح) أن علىّ أن أذهب غداً الى بيت الأمير ف ... سكى بشارع مياسنتسكايا ، فى الساعة الحادية عشرة من الصباح ، فهناك سيسلمنى حاجب البلاط ، فرسيلوف ، ابن آندره بتروفتش ، الذى وصل من بطرسبرج ونزل عند رفيقه فى المدرسة الثانوية ، الأمير ف ... سكى ، هناك سيسلمنى المبلغ المرسل الىّ نفقاتٍ للرحلة . بدت لى المسألة بسيطة غاية البساطة : فمن الجائز جداً أن يكون آندره بتروفتش قد عهد بهذه المهمة الى ابنه ، بدلاً من ارسال المبلغ بالبريد . ومع ذلك فان هذا النبأ قد أمسك بخناقى وأخافنى اخافة غير طبيعية . لاشك فى أن

فرسيلوف قد أراد أن يعرفني بابنه ، الذى هو أخي . كذلك تصورت نيات الرجل الذى كنت أحلم به ، وتصورت عواطفه . ولكن سؤالاً ضخما قد انتصب أمامي : كيف أتصرف وكيف يجب أن أتصرف في هذا اللقاء الذى لم أتوقعه البتة ، وهلاّ يجرح هذا اللقاء كرامتي ؟

وفي الساعة الحادية عشرة تماماً من صباح الغد ، دخلت بيت الأمير فـ ... سكي . هو شقة عازب . ولكنه بدا لى فاخر الأثاث . وكان فيه خدم بالملابس الرسمية . وقفت في حجرة المدخل . فكانت تصل الىّ من الداخل اصوات حديث حار وضحكات . ان لدى الامير فـ ... سكي ضيوفا آخرين غير حاجب البلاط . ذكرت للخادم اسمي وطلبت منه أن يبلغ عن وصولى . وأغلب الظن أنى فعلت ذلك بشيء من الخيلاء . المهم أنني لاحظت أن الخادم حين انصرف عنى قد نظر الىّ نظرة غريبة ، بل انه لم يولني حقى من الاحترام فيما بدا لى . وما كان أشد دهشتي حين رأيته يغيب مدة طويلة ، زهاء خمس دقائق ، كنت أسمع خلالها رنين تلك الضحكات نفسها وأصداء تلك الأحاديث ذاتها !

وقد انتظرت واقفاً بطبيعة الحال ، لأنني ، وأنا « سيد مثله » ، لا يليق بى بل يستحيل علىّ أن أجلس في حجرة المدخل التى يرابط فيها الخدم . وجهة أخرى لم أشأ بحال من الأحوال أن أبادر من تلقاء نفسى ، بدون دعوة خاصة ، فأدخل الصالون ، فذلك لا يتفق وكبريائى . لعلها كانت كبرياء مغالية ، ولكن هذا ما كان ! وقد أدهشني أن أرى الخدم الذين بقوا (وعددهم اثنان) يسمحون لأنفسهم أن يجلسوا بحضورى . فأشحت عنهم متظاهراً بأننى لم أر ذلك منهم ، ولكن أخذ جسمي كله يرتجف . ثم التفت فجأة ، ودنوت من أحد الخادمين « فأمرته » بأن يمضى يبلغ عنى مرةً أخرى على الفور . ولكن الخادم ، رغم قسوة نظرتى وشدة اهتياجى ، نظر الىّ في كسل دون أن ينهض ، وأجابنى الآخر نيابة عنه :

ـ تم الابلاغ عن وصولك . اطمئن !

فقررت أن أنتظر دقيقة واحدة ، واحدة فقط ، أو أقلّ من ذلك ، ثم « أنصرف » . لقد كانت ثيابي حسنة : فبدلتي جديدة ، ومعطفي جديد ، وقميصي نضر كل النضارة عنيت به ماريا ايفانوفنا عنايةً خاصة لهذا اللقاء . ولكن الخدم ، كما علمت بعد مدة طويلة ، ببطرسبرج ، من « مصدر موثوق به » ، كان قد أبلغهم أمس خادم جاء مع فرسيلوف ، أنه سيجيء الى البيت شاب اسمه فلان هو أخو فرسيلوف سفاحاً . الآن أعرف هذا معرفة اليقين .

انقضت الدقيقة . ان ذلك الاحساس الذي يحسه المرء حين يريد أن يعزم أمره ثم لا يستطيع ذلك : « أأمضي أم لا ؟ أأنصرف أم لا ؟ » ، كنت أحسه في كل ثانية من الثواني وأنا أكاد أرتعش . وفجأة رجع الخادم الذي ذهب يبلغ عن وصولي . كان يحمل بيده أربع ورقات نقدية حمراء ، أي أربعين روبلاً . فقال لي :

ـ خذ . اليك هذه الأربعين روبلاً !

غلى دمي وفار . يالها من اهانة ! لقد لبثت أحلم بهذا اللقاء الذي هيأه فرسيلوف للأخوين ، لبثت أحلم به طوال الليل . وطوال الليل ظللت أتساءل محموماً : كيف يجب أن يكون سلوكي حتى لا أخفض قدر نفسي ، وحتى لا أسيء الى ذلك الصرح كله من الأفكار الذي بنيته في عزلتي وأستطيع أن أعتز وأن أفخر به في أية بيئة . كنت أقول لنفسي : سأظهر نبلاً ، وكبرياء ، وقد أظهر شيئاً من الحزن والأسى أيضاً ، بل قد أظهر قدراً من الخشونة والجفوة حتى في صحبة الأمير ف ..سكي ، فبذلك أدخل هذا المجتمع دخولاً مهيباً . آه ... لا أحب أن أداري نفسي ، فعلى هذا النحو انما يجب أن تُسجَّل هذه التفاصيل الأليمة كلها ! وفجأة : أربعون روبلاً ، تُرسل اليّ مع خادم ، الى حجرة المدخل ، بعد

انتظار دام عشر دقائق ، ويقدّمها الىّ الخادم رأساً ، بيده ، بأصابعه ، لا موضوعة على صحن ، ولا مودعة فى ظرف ! ...

صرخت فى وجه الخادم صراخاً بلغ من الشدة أنه ارتجف وتراجع القهقرى ، وأمرته بأن يعيد المال الى سيده حالاً « ليحمله سيده الىّ بنفسه ! » أى اننى طلبت طلباً لاشك أنه كان فى نظر الخادم غير معقول ولا مفهوم . ولكن صراخى قد بلغ من القوة أن الخادم أطاع الأمر . هذا عدا أن صرخاتي سُمعت فى الصالون ، فسرعان ما توقفت أصوات الأحاديث والضحك فوراً .

ولم ألبث أن سمعت وقع أقدام رصينة موزونة هادئة ، ثم اذا أنا أرى قامة فارعة لفتى جميل المحيا متكبر الهيئة (وقد بدا لى يومئذ أشد شحوباً ونحولاً منه فى هذا اللقاء الثانى) تظهر فى العتبة أو قل تقف على مسافة بضعة سنتمترات من العتبة . كان يرتدى ثوباً للمنزل رائعاً مصنوعاً من حرير أحمر ، وينتعل بابوجين ويضع على عينيه نظارة أنف . وها هو ذا يتفرس فىّ من خلال نظارته بدون أن يقول كلمة واحدة ، فتقدمت منه خطوةً ، كوحش كاسر ، ووقفت أمامه متحدياً ، أحدّق اليه بنظرة ثابتة . ولكنه لم يتأملنى هذا التأمل الا برهة قصيرة لا تزيد على عشر ثوان ، ثم اذا بسخرية خفيفة لا تكاد تُرى تظهر على شفتيه ، ولكنها مع ذلك سخرية جارحة جداً ، جارحة لأنها لاتكاد تُرى . ثم ها هو ذا يدور على كعبيه ، ثم يرجع الى حيث كان ، دون تعجل ، بل بهدوء ورفق وخطى موزونة كما جاء . آه من هؤلاء الوقحين الذين يتعلمون اهانة الناس منذ طفولتهم ، فى أسرتهم ، من أمهاتهم ! وقد فقدت حضور بديهتى طبعاً . آه ... لماذا فقدتها ؟

وفى تلك اللحظة نفسها تقريباً رجع ذلك الخادم نفسه حاملاً بيديه تلك الورقات نفسها ، وقال :

ـ تفضل بقبولها • انها مرسلة من بطرسبرج • لا يمكن استقبالك • « ربما استقبلك • السيد » في مرة أخـرى ، حين يـكون لديه متسع من الوقت أكبر » •

أحسست أن الكلمـات الأخيرة قد أضافهـا هو • ولكن اضطرابي استمر في اضعاف نفسي • فتناولت المال بدون تفكير واتجهت نحو الباب • فبسبب ذلك الاضـطراب انما أخـذت المـال ، وكان ينبغي في الواقع أن أرفضه • ولم يفت الخادم ، من أجل اهانتي طبعاً ، أن يغضب غضبة جديرة بخادم حقـاً فأسرع يفتح البـاب أمامي واسعاً ، حتى اذا مررت قال بوقار ولهجة خاصة :

ـ تفضل !

فزأرت أقول وأنا أرفع يدي ولكن دون أن أهوي بها :

ـ أنت وغد • وسيدك وغد آخر ، فقل له هذا فوراً •

أضفت هذه الجملة الأخيرة وأنا أدرك السلم مسرعاً •

ـ لا يحق لك ! ولو نقلت كلامك الى « السـيد » فوراً ، لاستطاع « السيد » أن يرسلك الى مخفر الشرطة حالاً مع بطاقة منه • أما تهديدي أنا ، فلا يحق لك •••

هبطت السلم • انه سلم مترف عريض مكشوف • فيمكن أن أرى من أعلى نازلاً على السـجادة الحمراء • فكان الخدم الثـلاثة قد خرجوا واتكئوا بأكواعهم على قمة الدربزين ينظرون الى انسحابي • وقد قررت أن ألزم الصمت طبعاً : كيف أشاجر خدماً ؟ ووصلت الى تحت ، دون أن أتعجل الخطى ، وانما أتعمد البطء فيما أظن •

رب حكماء (شيطان يأخذهم !) يقولون ان هذا كله حساسية لا داعي

اليها ، وتأذ في غير محله ، وحنق لا يصدر الا عن أغرار ! قد يكون هذا الكلام صحيحا • غير أن الأمـر كان بالنسبة الى جرحاً عميقاً ، جرحـاً لم يمكن ان يندمـل حتى الآن ، حتى في هذه اللحظة التى أكتب فيها بعد أن انتهى كل شيء ، بل انتقـم لكل شيء • يمينـاً يمينـاً ما أنا بالحقود ولا بمن يتحرق الى الانتقام • صحيح أننى أشتهى دائماً ، الى حد التألم ، أن أنتقم ممن ينالنى باهانة • ولكننى أحلف لكم أننى بالسـماحه أنتقم • اننى أرد على الاهانة رداً فيه سماحة ، فيكفينى أن يشعر المسيء وأن يدرك أننى كنت سمحاً كريماً ، حتى أحس أننى انتقمت منه • يجب أن أضيف فى هذه المناسـبة أننى لا أتحـرق الى الانتقام ، ولكننى حقود وان أكن سـمحاً كريماً : هل يشبهنى فى هـذا جميع الناس ؟ لقد وصلت الى بيت الأمير فـ •• سكى فيّاض النفس بعواطف كريمـة •• قد تكون عواطف مضحكة •• لا مانع •• ولكن لأن يكون المرء مضحكاً ولكن على شهامة ، خير من ألا يكون مضحكاً ولكن على دناءة ووضاعة !

لم أحدث أحـداً عن هذا اللقاء الذى تمّ بينى وبين « أخى » ، ولم أكاشف به حتى ماريا ايفانوفنا ، ولم أبح بسرّه حتى لليزا حين جئت الى بطرسبرج • كان ذلك اللقاء بمثابة صفعة أليمة جللتنى بالخزى والعار • ثم هأنذا أقع فجأة على هذا السيد في ظروف يا لها من ظروف عجيبة ! وها هو ذا يبتسم لى ، ويرفع قبعته احتراماً ، وينزع حتى نظارته تودداً ، ويقول لى فجأة بلهجة فيها صداقة : « مساء الخير » (بالفرنسية) • ان هذا يبعث على التفكير والتأمل طبعاً ••• ولكن الجرح انتكأ ونزف !

٥

بعد الانتظار فى المطعم مدةً تزيد على أربع ساعات وجدتنى كمن أصابته نوبة على حين فجـأة ، فاذا أنا أخـرج واتجه مسرعاً الى بيت فرسيلوف . انه لم يرجع الى البيت . وكانت الخادمة سأمانة ، فرجتنى أن أرسل اليها داريا أونيسيموفنا بسرعة. هه! هذا ماكان يشغل بالى! وذهبت الى بيت ماما أيضـاً ، ولكننى لم أدخـل ، وانما استدعيت لوكيريا الى الدهليز ، فعلمت منهـا أنه لم يجىء ، وأن ليزا غابت . ولاحظت أن لوكيريا كانت تود لو تسألنى أيضاً ، بل لعلها ودّت لو تعهد الىّ بمهمة ، ولكن هل كان يمكننى أن أصغى اليها ؟ هنـــاك أمـل أخير : لعله ذهب الى بيتى . ولكننى لم أصدّق أن يكون قد ذهب الى بيتى !

سبق أن قلت ان عقلى كان اضطرب واختل تقريباً . وهأنذا أجد فى غرفتى : آلفونسين والمؤجر . بل قل اننى وجدتهما يخرجان من غرفتى . وكان بطرس هيبوليتوفتش يحمل شمعة .

صرخت أقول له :

ـ ما هذا ؟ كيف تجاسرت أن تُدخل الى غرفتى هذه التافهة ؟

فهتفت آلفونسين تقول بالفرنسية :

ـ « غريب ... والأصدقاء ؟ » .

فزأرت قائلاً :

ـ اخرجى من هنا •

ـ « دب حقاً » •

وفرت الى الممـر متظاهرةً بالخوف ، واختفت فى غـرفة صاحبـه البيت • واقترب منى بطـرس هيبوليتوفتش بهيئة قاسـية وهو يحمل شمعدانه :

ـ اسمح لى أن ألفت نظـرك يا آركادى ماكاروفتش الى أنك قد أسرفت فى الاندفاع • ومهما يـكن احترامنا لك ، فاننـا لا يسعنا الا أن نذكّـرك بأن مدموازيل آلفونسين لا توصف بالتافهة • بالعكس ! انها لم تجىء لتزورك أنت بل لتزور زوجتى • لقد تعارفتا منذ بعض الوقت •

فكررت سـؤالى وأنا أمسـك رأسى الذى أصـابه ما يشبه الصداع فجـأة :

ـ ولكن كيف تجاسرت أن تدخلها غرفتى ؟

ـ مصادفة ! •• دخلت أنا لأغلق كوة النافذة التى كنت قد فتحتها لتهوية الغرفة ، واذ كنا مستمرين فى الحديث الذى بدأناه أنا وآلفونسين كارلوفنا ، فقد دخلت الغرفة معى متابعةً كلامها ، دون أن تشعر •

ـ هذا كذب • آلفونسين جاسوسة • ولامبير جاسوس • وربما كنت أنت أيضاً جاسوساً • لقد جاءت لتسرق شيئاً •

ـ قل ما شئت • اليوم تقول شـيئاً ، وغدا تقول شيئاً آخر • أريد أن أبلغك أننى أجرت مسـكنى الشخصى ، أجـرته الى حين ، وسنقيم أنا وامرأتى فى حجـرة المكتب • ويترتب على هذا أن آلفونسين كارلوفنا هى الآن من سكان البيت تقريباً ، مثلك •

هتفت أسأله مرتاعاً :

ـ أجرت مسكنك للامير ؟

فابتسم تلك الابتسامة الطويلة التى لاحت فى وجهه عند الصباح ولكن فيها الآن ثباتاً لم يكن لها حينذاك ، وقال :

ـ لا ، لم أؤجره للامير . أظن أنك تعرف لمن أجرته ، وانما أنت تتظاهر بالجهل تفكهاً وتسلية ! واذا غضبت فمن باب التقيد بالشكل . ليلتك سعيدة .

ـ نعم ، نعم ، دعنى هادئاً .

وحركت يدى متململاً ، وكدت أبكى من شدة ضيقى ، فلم يسعه الا أن يدهش وهو ينظر الى . ولكنه خرج . فدفعت المزلاج ، وتهالكت على سريرى ، ودفنت وجهى فى الوسادة . كذلك انقضى ذلك اليوم الأول الرهيب من الأيام الثلاثة المشئومة التى تختم مذكراتى .

الفصل العاشر

١

ولكن سأستبق الأحداث مرة أخرى . انى أرى أن من الواجب منذ الآن أن أزود القارىء ببعض المعلومات ، لأن المجرى الأساسى لهذه القصة قد دخلت فيه أحداث عارضة تبلغ من الوفرة أن القارىء يمكن ان يتوه ما لم يُزوَّد ببعض الايضاحات سلفاً . ما ذلك « الكيس » الذى أشارت اليه تاتيانا بافلوفنا ؟ ان آنا آندريفنا قد رأت أخيراً أن تقدم على خطوة هى أجرأ خطوة يمكن تصورها فى هذا الوضع . امرأة جسور حقاً ! لقد نقل الأمير العجوز ، بحجة المرض ، الى تسارسكويا سيلو ؛ وترتب على ذلك أن نبأ اعتزامه الزواج بآنا آندريفنا لم يتح له أن يذيع فى المجتمع وانما اختنق فى مهده ان صح التعبير . ولكن الشيخ الضعيف الذى يمكن للمرء أن يفعل به كل شىء ، ما كان له ، رغم ذلك ، أن يوافق بحال من الأحوال على أن يتخلى عن فكرته وأن يخون آنا آندريفنا التى طلبت أن يتزوجها . لقد كان من هذه الناحية فارساً . وفى وسعه ، عاجلاً أو آجلاً ، أن ينهض فجأة ، فيضع نيته موضع التنفيذ بقوة جبارة لا سبيل الى السيطرة عليها ، كما يحدث ذلك للطباع الضعيفة فى أحيان كثيرة ، لأن ثمة حدوداً لا يجوز أن ندفعهم الى ما وراءها . ولقد كان الشيخ يدرك عدا ذلك تماما الادراك أن وضع آنا آندريفنا التى يحترمها احتراماً عظيماً وضع حرج ، كما يدرك أيضاً أن هناك نمائم يمكن أن تذاع ، وسخريات يمكن أن تنطلق ، وشائعات أن تروج . والشىء

الذى كان يهدئه ويوقفه الآن هو أن كاترين نيقولايفنا لم تسمح لنفسها أبداً ، لا تصريحاً ولا تلميحاً ، أن تقول أمامه أى رأى سيء فى آنا آندريفنا ، ولا أن تبدى أى اعتراض على اعتزامه الزواج بها . بالعكس : كانت تبدى فرحاً كبيراً ، وكانت تحيط خطيبة أبيها باكبر الرعاية وأعظم الاهتمام . وهكذا كانت آنا آندريفنا فى موقف دقيق غاية الدقة ، فهى بما تملكه من رهافة الحس ، تدرك أنها اذا قامت بأى هجوم على كاترين نيقولايفنا التى يحبها الأمير أعظم الحب أيضاً ، ويحبها اليوم أكثر مما أحبها فى أى يوم ، لاسيما وأنها سمحت له بالزواج مبرهنةً على ذلك القدر كله من الكرم والاحترام ، فانها ستجرح أرق مشاعرها ، وستجعلها تشك فيها بل تستاء منها . على هذا الميدان اذن انما كان يقوم القتال الآن : فالخصمان - أى آنا ندريفنا و كاترين نيقولايفنا - انما يحاربان بسلاح المجاملة والصبر . والأمير ، من جهته ، لا يدرى أى المرأتين أروع من الأخرى وأدعى الى الاعجاب ! وعلى عادة جميع الرجال الضعاف ، الذين لهم مع ذلك قلوب رقيقة ، انتهى به الأمر الى التألم واتهام نفسه بكل شيء . ويقال ان كآبته قد وصلت الى حد المرض ، وان أعصابه تهدمت ، فبدلاً من أن يجد فى تسارسكويا الشفاء ، أوشك أن يلزم فيها الفراش فيما قيل .

أحب أن أشير هنا ، مستطرداً ، الى شيء لم أعلم به الا بعد مدة طويلة ، هو أن بيورنج ، فيما يقال ، قد اقترح على كاترين نيقولايفنا أن يقتادا العجوز الى الخارج ، بعد أن يهيئاه لذلك بحيلة من الحيل ، ثم يكون من السهل عليهما هناك ، فى الخارج ، أن يحصلا على شهادة من أطباء . ولكن هذا ما لا تقبله كاترين نيقولايفنا بحال من الأحوال . أو ذلك ما قيل فيما بعد ، حتى ليقال انها رفضت الاقتراح مستاءة . وتلك شائعة بعيد عهدها ، لكننى أصدقها .

فلما صارت القضية الى هذا الطريق المسدود ، علمت آنا آندريفنا من لامير ان هناك رسالة تسأل فيها البنت أحد رجال القانون عن وسيلة يمكن أن تعمد اليها لاعلان أن أباها مجنون • فاذا بروحهـا المتكبرة الانتقاميـة تهتاج أشد الاهتياج على حين فجأة • وتذكرت ما سبق أن دار بيني وبينها من أحاديث ، وقرّبت بين تلك الأحاديث وبين طائفة كبيرة من الأحاديث الصغيرة فلم يخامرك شـك فى أن هذا النبـأ صحيح •فاذا بخطة للهجوم تنضج فى قلبها ، قلب المرأة الصـلبة التى لا تلين ، واذا هى تجـد نفسها مدفوعة الى تنفيذ هذه الخطة دفعاً لا سبيل الى مقاومته • وكانت الخطة هى أن تكشف للأمير فجأة، بدون مداراة ومراءاة ، وبدون لف ودوران عن القصة كلها ، فترعبه وتهزه هزاً قوياً ، وتبيّن له أن مستشفى المجانين ينتظره حتماً • فاذا عند واستاء ورفض أن يصدّق ، كشفت له عن قصـة رسـالة ابنته قائلةً له : « ان نيـة اعلان أنك مجنون قد سبق أن وُجدت فى الماضى ، فكيف لا توجـد الآن من بابٍ أولى لمنعك من الزواج ! » • وبعد ذلك تنقل الشـيخ العجوز الى بطرسـبرج مروّعاً مهدّما مقتولاً ، وتجىء به الى « بيتى أنا رأساً » •

هذه مجازفة رهيبة • ولكن آنا آندريفنا كانت تعتمد على قوتها اعتماداً ثابتاً لا يتزعزع • ويجب أن أقول هنـا ، مبتعداً عن الموضـوع لحظةً ، ومستبقاً الأحداث اسـتباقاً كبيراً ، ان ظنها لم يخطىء كثيراً فيما يتعلق بقوة هـذه الضربة • فان هـذا النبـأ كان له من التأثير فى الأمير الشيخ أكثر مما تصورت هى وتصـورنا نحن أن يكون له من تأثير • ولم أكن علمت أبداً الى ذلك الحين أن الأمير كان قد ترامى الى سمعه شىء عن تلك الوثيقة ، ولكنه ، على ما هو معهود فى جميع الرجال الضعاف الهيابين ، لم يصدّق تلك الشـائعة بل دفعها عنه بكل ما يملك من قوة ، حفاظاً على هدوئه وطمأنينته • ويجب أن أضيف أيضاً أن وجود الرسالة قد أثر فى

كاترين نيقولايفنا تأثيراً رهيباً يفوق كثيراً ما كنت أتوقع أن يكون له من تأثير حينذاك ! ••• الخلاصة أن تلك الورقة قد ظهر أنها أخطر شأناً مما كنت أظن أنا الذى كنت أحملها مخيطةً فى جيبى • ولكننى أرى أننى أسرف فى استباق الأحداث •

رب سائل يسأل : ولكن لماذا تجىء به الى بيتى رأساً ؟ لماذا تنقل الأمير الى غرفنا البائسة فترعبه فى هذا الجو التعيس ؟ اذا كان نقله الى منزله مستحيلاً (لأن من الجائز أن يُحبط المشروع كله هناك) ، فلماذا لا تهيىء له مسكناً « ثرياً » كما كان يقترح لامبير ؟ هنا تكمن كل مجازفة الخطوة الخارقة التى قامت بها آنا آندريفنا !

كان الأمر الأساسى هو أن تطلع الأمير على الوثيقة منذ يصل • وكنت أنا لا أسلّم الوثيقة بحال من الأحوال • ولأن على آنا آندريفنا ألا تضيع شيئاً من الوقت ، ولأنها تعتمد على سلطانها اعتماداً كبيراً ، فقد قررت أن تشرع فى تنفيذ الخطة قبل أن تملك الوثيقة ، على أن تجىء بالأمير الى بيتى رأساً • لماذا ؟ لكى تنقض علىّ أنا أيضاً ، فتقتل بحجر واحد عصفورين كما يقول المثل • كانت تريد أن تعمد الى أسلوب الصدمة والهزة والمباغتة معى أنا أيضاً • كانت تقدّر أننى متى رأيت الشيخ فى بيتى ، ورأيت ارتياعه وحزنه ، وسمعت رجاءه ورجاءها ، فقد أستسلم فأظهر الوثيقة • يجب أن أعترف بأن حسابها كان حاذقا وذكياً ، وكان يقوم على معرفة بالنفس الانسانية ، واذا لم يكن قد نجح فقد أوشك • أما الشيخ فقد استطاعت أن تحمله على تصديقها بالأيمان تحلفها ، وأعلنت له أنها ستمضى به الى « بيتى أنا » • ذلك كله قد عرفته فيما بعد • ان مجرد ابلاغه أن الوثيقة عندى قد أزال من قلبه الوجل آخر شكوكه فى صحة الواقعة : فالى هذا الحد كان يحبنى ويحترمنى !

يجب أن أذكر أيضاً أن آنا آندريفنا نفسها لم تشك لحظة واحدة

في أن الوثيقة لا تزال عندي ، وأنني لم أتخلص منها بعد . والحق أنها قد أساءت فهم طبعي ، فكانت تعول بكثير من الاستهتار على سذاجتي وبراءتي وبساطتي، وحتى على فرط حساسيتي، وقد قدرت من جهة أخرى أنني اذا قررت أن أسلم الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا مثلاً ، فلابد أن يكون هذا التسليم في ظروف خاصة ، فكانت تريد أن تستبق هذه الظروف وأن تمنعها ، وذلك بالمفاجأة والهجوم المباغت والصدمة .

ثم أن لامبير قد طمأنها عن هذا كله . سبق أن قلت ان وضع لامبير كان في ذلك الحين حرجاً غاية الحرج ، دقيقاً أشد الدقة : لقد كان ، هو الخائن ، يريد أن يصرفني عن آنا آندريفنا ، ويحملني على بيع الوثيقة لآخماكوفا بالاتفاق معه ، لأن ذلك يعود عليه بربح أكبر . لكنه وقد لاحظ أنني ظللت أرفض الى آخر لحظة أن أسلم شيئاً بحال من الأحوال ، قرر أن يساعد حتى آنا آندريفنا من أجل ألا يفقد أي ربح . لذلك أخذ يستميت في تقديم خدماته لها ، حتى لقد عرفت أنه عرض عليها أن يجيئها بكاهن عند اللزوم ... ولكن آنا آندريفنا ابتسمت له ابتسامة احتقار ، ورجته أن يخفف من قوة حماسته ونشاطه . كان لامبير يبدو لها رجلاً كريهاً مقيتاً ، ولا يوقظ في نفسها الا اشمئزازاً وتقززاً . لكنها قبلت خدماته على سبيل الحكمة والروية والحذر . وكانت هذه الخدمات هي أن يتجسس لها مثلاً ! يجب أن أقول في هذه المناسبة انني لا أدري حتى هذه اللحظة هل كانوا قد اشتروا بطرس هيبوليتوفتش أم لا ، وهل قبض منهم أي شيء ثمناً لخدماته أم هو دخل شركتهم ببساطة من باب حب المغامرة . ولكنه كان يتجسس عليّ . أما امرأته فأنا أعلم علم اليقين أنها كانت تقوم بهذا التجسس .

سيدرك القارىء الآن أنني ، رغم تحسبي قليلاً ، لم يكن في وسعي أن أحزر أني سأجد الأمير العجوز في بيتي غداً أو بعد غد . انني ما كان

لى أن افترض لدى آنا آندريفنا جسارة كهذه الجسارة ! ان المرء يستطيع أن يقول بالكلام ما يريد ، وأن يشير بالكلام الى أى شيء . أما أن يقرر ، ويشرع ، وينفذ ... فهذا يحتاج الى طبع خاص وشكيمة قوية !

٢

أتابع :

استيقظت فى الغداة ضحى • لقد نمت نوماً عميقاً بلا أحلام • فلما أفقت أحسست براحة كبيرة فى جسمى ونفسى على السواء ، حتى لكأن الأمس لم يوجد • قررت ألا أذهب الى بيت ماما ، وانما أمضى الى كنيسة المقبرة رأساً • حتى اذا انتهت الجنازة رجعت الى أمى فلم أتركها النهار كله • وكنت واثقاً ثقة تامة بأننى سألقاه عند ماما على كل حال ، فى ساعة متقدمة أو فى ساعة متأخرة من النهار ، ولكننى سألقاه •

لم يكن فى البيت لا آلفونسين ولا المؤجر • لقد خرجا منذ وقت غير قصير • ولم أشأ أن أسأل امرأة المؤجر ، وكنت قد قررت على كل حال أن أقطع جميع صلاتى بهم ، وأن أترك هذا البيت فى أقرب وقت • لذلك ما ان أُتيت بالقهوة حتى عدت أغلق على نفسى الباب • ولكن الباب لم يلبث أن قُرع • فدهشت • وكان القارع تريشاروف •

فتحت له فوراً ، ودعوته أن يدخل وسرنى أن أراه • ولكنه رفض أن يدخل وقال :

ـ كلمتان فقط أريد أن أقولهما لك على العتبة ••• أم الأفضل أن أدخل ؟ أظن أن الكلام يجب أن يقال هنا همساً • ولكننى لن أجلس • أراك تنظر الى معطفى الردىء • لقد استرد لامبير منى المعطف •

كان يرتدى معطفاً عتيقاً بالياً طويلاً على قامته فعلاً . وقد وقف أمامى متسمراً ، متجهم الوجه مهموماً ، واضعاً يديه فى جيبه ، دون أن يخلع قبعته :

ـ لن أجلس ! لن أجلس ! اسمع يا دولجوروكى ! لا أعرف تفاصيل . لكنى أعرف أن لامبير يدبر لك مكيدة ، وهذه المكيدة قريبة توشك أن تتم حتماً . أعلم هذا علم اليقين . فكن يقظاً . ان المجدور هو الذى زلّ لسانه فألمع الى هذا الأمر . هل تتذكر المجدور ؟ انه لم يذكر لى نوع المكيدة ، فلا أستطيع أن أقول لك أكثر مما قلت . أنا لم أجىء اليك الا لأنبهك . الى اللقاء !

ـ ولكن هلاّ جلست يا عزيزى تريشاتوف ؟ صحيح أننى على عجلة من أمرى ، ولكن يسعدنى أن أراك ...

ـ لا ، لا ، لن أجلس . ولكننى سأتذكر طول حياتى أنك أحسنت استقبالى . آه يا دولجوروكى ؟ لماذا خداع الناس ؟ انى قد ارتضيت لنفسى عامداً أن أرتكب أنواعاً من القذارات ، وأن أقوم بأعمال تبلغ من الدناءة أننى أستحى أن أسميها لك . نحن الآن نعمل مع المجدور ... استودعك الله ... اننى لا أستحق أن أجلس عندك .

ـ كفى يا تريشاتوف ، يا عزيزى ..

ـ لا يا دولجوروكى ... أنا الآن ذاهب للقيام بأعمال وسخة ، وسألهو بعد ذلك وأقصف . وقريباً سأحظى بمعطف أجمل من معطفى السابق أيضاً ... وسأمضى أتنزه راكباً عربة . ولكنى سأظل أعرف بينى وبين نفسى أننى خجلت أن أجلس عندك لاعتقادى بأننى لا أستحق ذلك ، وبأننى أمامك دنىء سافل . سوف أحظى بلذة هذه الذكرى على الأقل ، حين أمضى أتبذل فى القصف واللهو بحقارة ونذالة . استودعك الله .

هيّا • استودعك الله • لن أناولك يدى أيضاً • ان آلفونسين لا ترضى أن تصافحنى • وأرجوك ألا تسعى الى ، وألا تحـاول رؤيتى • هذا شرط بيننا •

واسـتدار الفتى العجيب على كعبيه ومضى • ليس يتسع وقتى الآن للبحث عنـه ، ولكننى قطعت على نفسى عهداً لأكتشفن مكانه بأقصى سرعة مهما كلف الأمر ، متى فرغت من تدبير أمورى وحل مشاكلى •

لن أصف وقائع ذلك الصباح تفصيلاً ، رغم أن هناك ذكريات كثيرة ينبغى حفظها • لم يجىء فرسيلوف الى الكنيسـة • حتى لقد كان يمكن للمرء أن يستنتج من النظـر الى وجوههـم أنهم كانوا ، حتى قبل حمل الجثمان ، لا يتوقعون أن يجىء الى الكنيسة • وقد صـلّت أمى بحرارة ، بل كانت غارقة فى صلاتها غرقاً كاملاً • ولم يكن أحـد بجانب الجثمان الا تاتيانا بافلوفنـا وليزا • لكننى لا أصف ، لا أصف شيئاً • بعد الدفن ، عاد الجميع الى البيت ، وجلسـوا الى المائدة • فاستنتجت مرة أخـرى من النظر الى وجوههن أنهن كن لا ينتظرنه على المائدة أيضاً • حتى اذا نهضنا ، اقتربت من ماما ، وقبّلتها بحرارة ، وتمنيت لها عيداً سعيداً ؟ واقتدت بى ليزا ، ففعلت مثلى •

وهمست تقول خفيةً :

ـ اسمع يا أخى ، انهن ينتظرنه •

ـ أدركت هذا يا ليزا ، رأيته •

ـ سيأتى حتماً •

قلت لنفسى : لابد أن لديهن معلومات دقيقـة • لكننى لم أسأل • رغم اننى لا أصف عواطفى ، يجب أن أذكر أن هذا اللغز قد جثم ثقيلاً على قلبى ، رغم كل ما كنت فيـه من حسن المزاج • جلسـنا جميعاً فى

الصالون ، الى المائدة المستديرة ، حول ماما ، آه .. ما كان أعظم سعادتى بوجودى معها ونظرى اليها ! وطلبت منى ماما فجأة أن أقرأ لها صفحة من الانجيل ، فقرأت لها اصحاحاً من انجيل القديس لوقا ، لم تكن تبكى ، حتى أنها لم تكن شديدة الحزن ، ولكن وجهها لم يكن روحانياً فى يوم من الأيام بمقدار ما هو روحانى فى هذا اليوم ، وكانت تسطع فى نظرتها اللطيفة فكرة ، ولكن لم يكن فى هذه النظرة أى شىء من نفاد الصبر فى انتظار أمر من الأمور ، وجرت الأحاديث ثرةً لاينضب لها معين ، قيلت ذكريات كثيرة عن المتوفى ، وذكرت عنه تاتيانا بافلوفنا طائفة كبيرة من الأمور كنت أجهلها الى ذلك الحين كل الجهل ، فلو سجلت مادار فى ذلك الحديث لجمعت محصولاً وافراً شائقاً ، حتى تاتيانا بافلوفنا تغيرّت حالها : فهى الآن رقيقة جداً ، ملاطفة جداً ، بل هى هادئة جداً ، رغم أنها تكلمت كثيراً لتسلّى ماما ، لكن هناك أمراً تفصيلياً أتذكره تذكراً واضحاً : كانت ماما جالسةً على الديوان ، وكان فوق منضدة صغيرة على يسارها صورةٌ يبدو أنها وُضعت هنالك عمداً ، وهى أيقونة قديمة بدون مسند من معدن ، تمثل قديسين فوق رأسيهما هالتان ، ان هذه الأيقونة كانت لماكار ايفانوفتش : كنت أعلم ذلك ، وكنت أعلم أيضاً أن المتوفى كان لايفارقها أبداً وكان يعدها ذات معجزات .

نظرت تاتيانا بافلوفنا الى الأيقونة عدة مرات ثم قالت فجأةً وهى تغيرّ موضوع الحديث :

ـ اسمعى يا صونيا ، أليس الأفضل أن نضع هذه الأيقونة قائمة على المائدة مستندةً الى الحائط وأن نشعل أمامها شمعة ؟

قالت :

ـ بل هى على هذا الوضع أحسن .

ـ حقاً . والا كنا نسرف فى الاحتفال ...

لم أفهم حينئذ شيئاً ، ولكن واقع الأمر أن ماكار ايفانوفتش قد أعلن جهاراً منذ مدة طويلة أنه يورث آندره بتروفتش هذه الصورة ، فكانت ماما تستعد لتسليمها اليه .

كانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف من الأصيل . وطال الحديث . فاذا أنا ألاحظ في وجه ماما نوعاً من الارتعاش ، واذا هي تنصب جذعها بسرعة وتصيخ بسمعها على حين كانت تاتيانا بافلوفنا مستمرةً في كلامها لم تلاحظ شيئاً . فأسرعتُ التفتُ الى جهة الباب ، فما انقضت لحظة حتى رأيت آندره بتروفتش في العتبة . انه لم يسلك طريق درج المدخل ، وانما جاء من جهة سلم الخدم ، فمرّ بالمطبخ فالدهليز ، وكانت أمي وحدها هي التي سمعت وقع خطاه . سأصف الآن كل مشهد الجنون الذي أعقب ذلك ، حركةً حركة ، وكلمةً كلمة .

في البداية ، لم ألاحظ على وجهه ، من أول نظرة على الأقل ، أيّ تغير . كان هندامه هو هندامه المألوف ، أي هنداماً اقرب الى الأناقة . وكان يمسك بيده باقة أزهار غضة ، باقةً صغيرة لكنها ثمينة . وقد اقترب من ماما ومدّ اليها الباقة مبتسماً فنظرت اليه ماما بدهشة وجلة ، لكنها قبلت الباقة ، ثم اذا بحمرة تنعش خديها الشاحبين فجأة ، واذا بفرح يسطع في عينيها .

قال :

ـ كنت أعرف أنك ستستقبلينني هذا الاستقبال يا صونيا .

واذ كنا قد نهضنا جميعاً عند دخوله فقد دنا من المائدة ، فجلس على المقعد الذي كانت تجلس عليه ليزا ، والذي يقع على يسار ماما ، دون أن ينتبه الى أنه يأخذ مكان شخص آخر . وهكذا كان موقعه بجانب المنضدة التي كانت عليها الأيقونة .

ـ سلام على الجميع • يا صونيا ، لقد أصررت اصراراً مطلقاً على أن أحمل اليك هذه الباقة احتفالاً بعيد ميلادك • ولئن لم أجيء الى الجنازة ، فلكي لا أظهر أمام ميت بباقة أزهار • لكنني أعلم أنك كنت لا تنتظـرين مجيئي الى الجنازة • ولن يحقد عليّ الشيخ لأنني جئت بأزهار ، ألم يأمرنا هو نفسه بالفرح ؟ أعتقد أنه الآن في مكان ما بهذه الغرفة •

نظرت اليه ماما مستغربة • وكانت تاتيانا بافلوفنا كمن طار صوابها • فسألته :

ـ من بهذه الغرفة ؟

ـ المتوفى • ولكن فلندع هذا الأمـر • تعرفون ان الانسـان الذي لا يؤمن بالمعجزات يكون أميل من غيره الى الايمان بالأوهام والخرافات • ولكن فلنجعل كلامنـا يدور على باقة الأزهار : كيف حملتهـا الى هنا ؟ لا أدري • لقد اشتهيت عدة مرات أن أرميهـا على الثلج وأن أدوسـها بقدمي •

ارتعدت ماما • وتابع هو كلامه يقول :

ـ اشتهيتُ ذلك بقوة جنونيـة • رحمـةً بي يا صونيا ، ورحمةً برأسي المسكين • لقد اشتهيت ذلك لأن الباقة جميلة مسرفة في الجمال • هل في العالم أجمل من زهرة ؟ حملتها والثلج والجليد في كل مكان • جليدنا والأزهار : تعارض ! ولكن ليس هذا ما يهمني : فانما أنا اشتهيت أن أدوسها بقدميّ لأنها جميلة • يا صونيا ، سأغيب من جديد ، ولكنني سـأعود بسرعة ، لأنني سـأخاف ، فيما يخيَّل اليّ • سـأخاف : ومن يشفيني من الخوف الا صونيا ؟ أين أجد ملاكاً مثل صونيا ؟ ولكن ما تلك الصورة هناك ؟ آ ••• أيقونة المتوفى ! تذكرت • ورثهـا عن أسرته ، عن جده • لم ينفصل عنها طول حياته • أنا أعلم هذا • وأتذكر أنه أورثني

اياها • نعم ، أتذكر هذا تذكراً واضحاً •• وأظن أنها أيقونة من أيقونات « قدامى المؤمنين » •• أرني !

وتناول الأيقونة بيديه ، وقرّبها من الشمعة ، وأخذ يتأملها • ولكنه بعد أن أمسكها بضع ثوان فقط ، وضعها على المائدة ، أمامه في هذه المرة • كنت مدهوشاً مذهولاً • لقد أطلق هذه الجمل كلها على نحو ما كان لأحد أن يتوقعه ، فكنت لا أستطيع أن أجمع شتات فكرى • ولكننى أتذكر أن هلعاً يشبه المرض قد نفذ فى قلبى • وانقلب ذعر أمى الى حيرة وارتباك ، والى شفقة وعطف • كانت ترى فيه انساناً بائسا قبل أى شيء آخر • لقد سبق له أن كان حديثه غريباً هذه الغرابة قبل الآن • وشحب لون ليزا شحوباً هائلاً على حين فجأة ، وأومأت لى برأسها اليه • ولكن تاتيانا بافلوفنا هى التى كانت أكثرهن جزعاً • قالت تسأله بحذر :

ـ ولكن ماذا بك يا عزيزى آندره بتروفتش ؟

ـ حقاً لا أدرى ماذا بى يا تاتيانا بافلوفنا العزيزة • هدئى روعك • لا أزال أتذكر أنك تاتيانا بافلوفنا ، وأنك طيبة رائعة • ولكننى لم أجيء الا لأمكث دقيقة واحدة • اننى أود أن أقول لليزا شيئاً حسناً ، وأبحث عن كلمة أقولها فلا أفلح ، مع أن قلبى مترع بكلمات لا أستطيع أن أقولها وهى كلمات غريبة فى الواقع • يخيّل الىّ أننى إزدوج فأصبح اثنين ، أصبح مثلين •

قال ذلك وهو ينظر الينا جميعاً بوجه جاد الى أقصى حدود الجد ، وبرغبة صادقة فى الافصاح عما فى نفسه • وتابع كلامه يقول :

ـ الحقيقة أن فكرى يزدوج فيصبح فكرين اثنين ، وهذا ما أخشاه كثيراً • لكأن لى مثْلاً يجلس الى جانبى • فأنا رجل عاقل معتدل ، ولكن الآخر الذى بجانبى يصرّ على أن يقوم بعمل مستحيل ، أو عمل سخيف

جداً ، ثم اذا بى أشـعر فجأةً أننى أنا الذى أريد أن أقوم بهذا العمل ، لا يدرى الا الله لماذا ! اريد ! اريد أن أقوم به رغم أنفى ، واريد أن أقوم به وأنا أعارضه بكل ما أملك من قوة . عرفت ذات مرة طبيبا أخذ يصفر فى الكنيسة فجأة أثناء الاحتفال بجنازة أبنه . حقاً لقد خفت أن أجيء اليوم الى الجنازة ، لأننى قد رسخ فى عقلى اعتقاد جازم ويقين مطلق بأننى سأنطلق صافراً أو ضاحكاً أثنـاء الجنـازة على حين فجأة ، كما فعل ذلك الطبيب المسكين الذى كانت نهايته سيئة . وحقاً لا أدرى لماذا لازمتنى ذكرى ذلك الطبيب طوال هذا اليوم ، لازمتنى ملازمة لم أستطيع منها فكاكاً . اسمعى يا صونيا ، هأنذا أعود فأمسك الصورة (كان قد أمسك بالصورة ثانيةً وأخذ يقلّبها بين يديه) ، فهل تعلمين أننى ، فى هذه اللحظـة بعينها ، تستبد بى رغبة جنونية فى أن أقذفها الى زاوية المدفأة ، فاذا هى تنكسر على الفور نصفين ، نصفين لا أكثر ولا أقل ؟

قال هذا بدون أى تصنع ، بدون أية رغبـة فى الظهور . بل كان يتكلم ببساطة ، فكان ذلك يزيد الأمر هولاً . لكأنه خائف فعلاً من شيء . ولاحظت فجأة أن يديه ترتجفان قليلاً .

هتفت ماما ضامةً يديها ضارعة :

ـ آندره بتروفتش !

وقالت تاتيانا بافلوفنا وهى تنتفض :

ـ اترك ، اترك الصـورة يا آندره بتروفتش ! اتركهـا ! ضعها فى مكانهـا ! واخلع ثيـابك ، وارقـد فى سريرك . يا آركادى ، اذهب فاستدع الطبيب !

قال برفق وهو يشملنا جميعاً بنظرة واحدة :

ـ مع ذلك ... مع ذلك ، ما أشد اضطرابكم !

ثم وضع كوعيه على المائدة ، وتناول رأسه بيديه ، وقال :

ـ انني أخيفكم . ولكن اسمعوا يا أصدقائي . هلاّ سررتموني قليلاً ، فعدتم تجلسون ، وهدأتم جميعاً ، دقيقةً واحدة ! صونيا ، ليس هذا ما جئت من أجل أن أقوله لك . أنا جئت لأبلغك شيئاً ، لكنه شيء مختلف عن هذا كل الاختلاف . استودعك الله يا صونيا . أنا راحل من جديد ، كما سبق أن رحلت مراراً . لاشك في أنني سأعود اليك في يوم من الأيام . بهذا أنت لابد منك ، ولا غنى عنك . لمن عسى أرجع ، حين يكون كل شيء قد انتهى ؟ صدّقي يا صونيا أنني جئت اليك اليوم كما يجيء المرء الى ملاك لا الى عدو : هل يمكن أن تكوني عدوتي ؟ كيف يمكن أن تكوني عدوتي ؟ لا تصدقي انني أريد أن أحطم هذه الصورة ، لأنني في الواقع ، يا صونيا ، تستبد بي ، رغم كل شيء ، رغبة قوية في تحطيمها ...

حين هتفت تاتيانا بافلوفنا قائلةً له منذ قليل : « اترك الصورة » ، فانها كانت قد انتزعت الصورة من يديه ، وظلت تمسكها بيدها . فهاهو ذا آندره بتروفتش ، بعد أن نطق بآخر كلمة ، يثب من مكانه فجأةً ، ويخطف الصورة من يدي تاتيانا بافلوفنا فوراً ، ويشهرها بوحشية ، ثم يهوي بها على زاوية المدفأة بكل ما أوتي من قوة ، فاذا بالأيقونة تنكسر نصفين تماماً . وعاد يلتفت الينا بغتةً ، فكان وجهه الشاحب قد احمر احمراراً شديداً ، وكانت كل قسمة من قسمات وجهه تختلج :

ـ لا تنظري الى عملي نظرتك الى رمز يا صونيا . ليس ميراث ماكار هو ما حطمته ، وانما حطمت بدون هدف غير التحطيم ... ولكنني سأعود اليك رغم كل شيء ، سأرجع الى ملاكي الأخير . على كل حال ، عُدّي عملي رمزاً اذا شئت ، فانه رمز أيضاً ! ...

وخرج من الغرفة بخطى متعجلة ، ومضى عن طريق المطبخ في

هذه المرة أيضاً (وكان قد ترك بالمطبخ معطفه وطاقيته) . لن أقص عليكم ما حدث لماما تفصيلاً . لقد هبّت واقفةً وقد اعتراها رعب قاتل ، ورفعت يديها فعقدتهما على رأسها ، وصرخت تقول له فجأة :

ـ آندره بتروفتش ، تعال ودّع على الأقل يا عزيزى !

فصاحت تاتيانا بافلوفنا تقول لها وقد أخذت ترتعش ارتعاشاً شديداً ، واعترتها نوبة حنق رهيب ، حنق حيوانى :

ـ سيرجع يا صونيا ، سيرجع . أما سمعت ما قاله ؟ لقد وعد بأن يرجع . دعى للمجنون المسكين أن يتجول مرةً أخيرة ! حين يدب اليه الهرم ، وحين يصبح كسيحاً ، فمن ذا الذى سيدلله غيرك يا خادمته القديمة ؟ انه يعلن هذا جهاراً ، لا يساوره خجل ...

أما عنا نحن ، فان ليزا قد أغمى عليها ؛ وأنا أردت أن أركض وراءه ، لكننى ارتميت على ماما أضمها بذراعىّ . وهرعت لوكيريا لتأتى الى ليزا بكأس ماء . ولكن ماما لم تلبث أن أفاقت من اغمائها ، فتهاوت على الديوان ، وغطت وجهها بيديها ، وطفقت تبكى .

وصاحت تاتيانا بافلوفنا تقول بأعلى صوتها :

ـ أدركه ، أدركه على كل حال . هيّا .. أدركه ، لا تتركه خطوة واحدة ، هلمّ ... ماذا تنتظر ؟ هل أنا التى يجب أن أركض وراءه اذن ؟

وكانت تبذل كل ما تملك من جهد لانتزاعى من ماما .

وصرخت أمى تقول هى أيضاً على حين فجأة :

ـ بنىّ آركادى ، هلمّ اركض وراءه ، أسرع !

فخرجت مسرعاً ، عن طريق المطبخ والفناء أيضاً . لكننى لم أجده

في أي مكان • كان قد اختفى • وعلى الرصيف في بعيد ، كانت تتراءى في الظلام بقع سوداء هي قامات المارة ، فاندفعت أدركها ، وأخذت أتفرس في وجه كل واحـد متى وصلت اليه ، ثم أمضى أتفرس في وجه آخر ، وهكذا دواليك ، الى أن بلغت منعطفاً •

« لا يغضب أحـد من مجنون • واذا كانت تاتيانا بافلوفنـا مستعرة الغضب منه ، فمعنى ذلك أنه ليس بمجنون البتة ••• » تلكم هي الفكرة التي برقت في ذهني • بدا لي أن ذلك كله كان « رمزاً » ، وأنه انما أراد أن ينتهي من شيء ما ، كمـا انتهى من تلك الأيقونة • ولكن لاشك أن « مثْله » كان بجانبه أيضاً •••

٣

لم أقع عليه في أي مكان . ولا يُعقل أن أركض الى بيته ، فمن الصعب على المرء أن يتصور أنه رجع الى بيته وكفى ! وعرضت لى فكرة على حين بغتة ، فهرعت الى بيت آنا آندريفنا .

كانت آنا آندريفنـا قد عادت الى البيت ، فأدخلت عليها فوراً . وقد دخلت عليها محـاولاً أن أسيطر على نفسى ما أمكننى ذلك . وبدون أن أجلس ، قصصت عليها المشهد الذى رأيته كله ، أى حكاية « المثْل » تلك . فلن أنسى ما حييت ، ولن أغفر لهـا ما حييت أنها كانت تصغى الى كلامى بشراهة شديدة ، ولكن بهدوء لا رحمـة فيه ، وطمأنينة لا تعكر صفوها عاطفة . ولقد أصغت الى حديثى واقفةً هى أيضاً .

ختمت حديثى أسألها ملحاً :

ـ أين هو ؟ لعلك تعلمين ؟ لقد أرادت تاتيانا بافلوفنـا أن ترسلنى اليك أمس ...

ـ ذلك أننى كنت أريد أمس أن أراك . أمس ذهب الى تسارسكويا، وجاء الىّ أيضاً . أما الآن ...

قالت ذلك ونظرت الى ساعتها وأردفت :

ـ الساعة الآن هى السابعة . فلابد أنه فى بيته حتماً .

ـ أرى أنك تعلمين كل شيء . فتكلمى ، تكلمى !

ـ أعرف أشياء كثيرة ، لكنني لا أعرف كل شيء . ليس هناك ما أخفيه عنك طبعاً ...

وشغلتني بنظرة غريبة وهي تبتسم وتتظاهر بالتفكير . وأردفت :

ـ رداً على رسالة كاترين نيقولايفنا ، كتب اليها بالأمس يخطبها رسمياً .

فحملقت عيني قائلاً :

ـ لا يمكن !

ـ عن طريقي وصلتها الرسالة . أنا التي سلّمتها اليها مختومةً . في هذه المرة تصرف كما يتصرف « فارس » ولم يكتم عني شيئاً .

ـ أنا آندريفنا ! لا أفهم !

طبعاً . أمر يصعب فهمه . ولكن مثله في هذا كمثل مقامر يرمى على المائدة آخر قرش ، ويمسك في جيبه مسدساً مهيأً . ذلك هو معنى العرض الذي تقدم اليها به . احتمال الرفض تسعة حظوظ من عشرة . ولكنه يعتمد على الحظ العاشر . ولا أكتمك أنني استغربت ... لعله كان خارجاً عن طوره : لعل « المثْل » الذي وصفته أحسن وصف كان بقربه !

ـ وتضحكين أيضاً ؟ كيف يمكن أن أصدّق أنك أنت التي أوصلت الرسالة ؟ ألست خطيبة أبيها ؟ رحماك آنا آندريفنا !

ـ رجاني ان أضحي لسعادته بسعادتي . بل قل انه لم يرجني رجاء صريحا ، فانما تمّ الامر بصمت ، لكنني قرأت في عينيه كل شيء . وما استغرابك ؟ ألم يذهب الى أمك بمدينة كونجسبرج يطلب منها أن تأذن له بتزوج ابنة زوج مدام أخماكوفا ؟ ذلك شبيه بما عمد اليه أمس ، اذ اختارني مندوبة عنه ونجية له .

كانت شاحبة بعض الشحوب • ولكن هدوءها كان يعزز سخريتها • وقد غفرت لها كثيراً في تلك اللحظة ، حين أخذت أفهم الأمور شيئاً فشيئاً، واسترسلت في التفكير دقيقة ، فكانت صامتة تنتظر •

قلت ضاحكاً على حين فجأة :

ـ اسمعي ، لقد أوصلت أنت الرسالة لأنك لاتجازفين بشيء ، فالزواج لن يتم مهما يكن من أمر ولكن هو ؟ وهي ؟ لاشك أنها لن تلتفت الى طلبه ، وحينئذ •• حينئذ ، ماذا يمكن أن يحدث ؟ أين هو الآن يا آنا آندريفنا ؟ ان كل دقيقة لثمينة ، وفي كل لحظة يمكن أن تقع مصيبة !

ـ قلت لك انه في بيته • ففي رسالته التي سلّمتها أمس الى كاترين نيقولايفنا ، رجاها « على كل حال » أن تمن عليه بلقاء في بيته ، الساعة السابعة من هذا المساء • وقد وعدته بأن تجيء اليه في الموعد المضروب •

ـ هي ، في بيته ؟

ـ لمَ لا ؟ البيت بيت داريا أونيسيموفنا • ففي امكانهما أن يلتقيا فيه زائرين لها •

ـ لكنها تخاف منه ••• قد يقتلها !

ـ ان كاترين نيقولايفنا رغم كل خوفها الذي لاحظته بنفسي قد أضمرت دائماً ، حتى في الماضي ، شيئاً من الاعجاب بنبل المبادىء وسمو الفكر لدى آندره بتروفتش • وقد وثقت به هذه المرة لتنتهي منه الى الأبد • كما أنه ، من جهته ، قد حلف لها يمين الفروسية أنه لن ينالها بسوء فما يجب أن تخشى شيئاً • لا أتذكر نص التعابير التي استعملها • وانما المهم أنها وثقت به واطمأنت اليه ••• لأول مرة ان صح القول • ولأول مرة ردت على مشاعره بمثلها ، فكأن اندفاعة بطولية قد تحققت لهما كليهما •

هتفت أقول :

ـ والمثْـل ، والمثْـل ! ذلك أنه فقد عقله !

ـ لاشك أن كاترين نيقولايفنـا ، حين وعـدته أمس بالمجىء الى الموعد ، لم تقدر أن حادثاً كهذا يمكن أن يقع .

أدرت ظهرى فجأة ، ووليّت هارباً .. اليه .. اليهما طبعاً ! ولكننى لم ألبث أن رجعت من حجـرة المدخـل ثانيـةً ، وتفرست فى وجـه آنا آندريفنا ، أختى ، وقلت صارخاً :

ـ أم تراك تريدين أن يقتلها ؟

أطلقت هذه الصرخة ، وخرجت من البيت راكضاً .

ورغم أننى كنت أرتعش ارتعاشاً شديداً كمن هو فى نوبة حمى ، فقد دخلت الشقة بغير ضجة ، من المطبخ ، وطلبت من الخادمة أن تأتينى داريا أونيسيموفنا بصوت خافت . ولكن سرعان ما جاءت داريا من تلقاء نفسها ، فرشقتنى صامتةً بنظرة مستفهمة رهيبة ، وقالت :

ـ ليس مولاى فى البيت .

لكننى ذكرت لها بوضوح ودقة ، هامساً همساً سريعاً ، أننى أعرف كل شىء من آنا آندريفنا ، وأننى آتٍ من عندها .

ـ أين هما يا داريا أونيسيموفنا ؟

ـ فى الصالون ، حيث كنتما بالأمسِ جالسين الى المائدة ...

ـ داريا أونيسيموفنا ، دعينى أذهب الى هناك ...

ـ كيف يمكننى هذا ؟

ـ لا أذهب الى هناك ، بل الى الغرفة المجاورة يا داريا أونيسيموفنا .

ان آنا آندريفنـا تريد هذا أيضـاً • فلو كانت لا تريده لما قالت لى انهما هنا • لن يسمعانى • هى نفسها تريد هذا •••

قالت داريا أونيسيموفنا دون أن تحول عنى بصرها :

ـ واذا كانت لا تريده ؟

فقلت مستعطفاً :

ـ داريا أونيسيموفنا ، اننى أتذكر ابنتك أوليا ••• دعينى أدخل •

فاذا بذقنها وشفتيها تأخذ بالاختلاج فجأة ، وقالت لى :

ـ يا عزيزى •• اكـراماً لذكرى أوليـا •• تقديراً لعواطفك •• ولكن لا تتخلَّ عن آنا آندريفنـا يا عزيزى ! لن تتخلى عنهـا ، أليس كذلك ؟ لن تتخلى عنها ؟

ـ لا ، لن أتخلى عنها •

ـ عاهدنى عهد الشرف أنك لن تدخـل الصالون ، ولن تصرخ ، اذا أنا خبأتك هناك •

ـ أحلف لك بشرفى يا داريا أونيسيموفنا !

فأمسـكت ردنجوتى ، وقادتنى الى حجـرة مظلمة ، مجاورة للغرفة التى كانا فيها ، وسارت بى على سـجادة طرية بدون ضـجة الى ان بلغنا الستارة ، فأجلستنى هنـاك ، وأزاحت ركنـاً من السـتارة ، فكنت أراهما كليهما •

انصرفت هى وبقيت أنا • طبعا بقيت • لقد أدركت اننى أتصنت بغير حق ، وأننى أتجسس على أسرار غيرى ، ولكننى بقيت • كيف لا أبقى وأنا أعرف أن المثْل موجود ؟ ألم يسـبق لهذا المثْل أن حطـم الأيقونة على مرأى منى ؟

٤

كانا جالسين الى تلك المائدة نفسـها التى شربنا عليها بالأمس نخب « انبعاثه » معاً . وكانا متقابلين . اننى أميز وجهيهما تمييزاً واضحاً . كانت ترتدى فستاناً أسـود ، وكانت جميلة هادئة المظهر على عادتها . وكان يتكلم ، فكانت تصغى اليه بانتباه شديد بشوش . حتى ليمكن أن يكتشف المرء فى وجهها شيئاً من خجل . ولا كذلك هو . فقد كان مهتاجاً اهتياجاً شديداً . لقد وصلت وهما من الحديث فى قلبه ، لذلك لبثت برهةً لا أفهم شيئاً . أتذكر أنها سألته فجأة :

ـ وهل أنا السبب فى ذلك ؟

فأجابها :

ـ بل أنا . أنت مذنبة بدون أن تكونى مذنبة . هذه أمور تحدث . وتلك هى الأخطاء التى لا تغتفر ، ومرتكبـوها يعاقبـون فى جميع الأحيان تقريباً .

أضافت ذلك وهو يضحك ضحكة غريبة . وتابع كلامه يقول :

ـ لقد اعتقدت فى لحظة من اللحظات أننى نسيتك نسياناً تاماً ، فكنت أضحك فعلاً من هواى الأحمق ... ولكنك تعرفين هذا ! على كل حال ، فلم يعنينى أن تتزوجى فلاناً أو فلاناً من الناس . لقد بعثت اليك بالأمس رسالةً أطلب منك فيها أن تتزوج . فلا تؤاخذينى . كانت تلك غباوة .

ولكن لم يـكن لها عندى بديل • ما الذى كان يمكننى أن أفعله غير تلك الغباوة ؟ لا أدرى •

قال ذلك وانفجر يضحك ضحكاً شاذاً ملتبساً وهو يرفع عينيه اليها فجأة بعد أن كان يكلمها ناظـراً الى جانب • لو كنت فى مكانها لأخافتنى تلك الضحكة • أحسست بهذا • ونهض عن كرسـيه فجأة وقال يسألها بغتةً كأنما هو تذكر الأمر الجوهرى :

ـ قولى : كيف أمكنك أن توافقى على المجىء الى هنا ؟ ان دعوتى ورسالتى كلهـا ما كانتا الا حماقة ••• انتظرى : أظن أننى أستطيع أن أحزر كيف وافقت على المجىء • ولكن لماذا جئت ؟ ذلك هو السـؤال • أتراك جئت عن خوف فحسب ؟

فقالت وهى تنظر اليه بحذر :

ـ جئت لأراك •

وصمت الاثنـان كلاهما نصف دقيقة • وعاد فرسيلوف يجلس ، ثم أخذ يتكلم بصوت رقيق ، لكنه مؤثر ، يكاد يكون متهدجاً ، فقال :

ـ منذ مدة طويلة لم أرك يا كاترين نيقولايفنـا ••• منـذ مدة بلغت من الطول أننى أصبحت أتصور أنه يكاد يستحيل أن أجدنى فى ذات يوم ، كما أجدنى الآن ، جالساً بقربك أنظر الى وجهك وأسمع صوتك •• منذ سنتين لم ير أحدنا الآخر ، منذ سنتين لم يكلم أحدنا الآخر • كنت لا أقدّر أن أكلمك فى يوم من الأيام • على كل حال ، ما مضى فقد مضى ، وما بقى اليوم سيزول غداً كدخان • ليكن ! اننى أقبل هذا ، اذ ليس عندى له بديل •

ثم أضاف يقول لها فجأة كمن يضرع ضراعة :

ـ ولكن لا تنصرفى الآن بدون أن تقولى لى شـيئاً • لقد نفحتنى

صدفة حين قبلت أن تجيئي ، فلا تنصرفي قبل أن تجيبيني عن سؤال سألقيه عليك !

ـ ما السؤال ؟

ـ لن يرى أحدنا الآخر بعد اليوم أبداً . فماذا تخسرين اذا قلت لي الحقيقة كلها مرةً واحدة الى الأبد ؟ أجيبيني عن سؤال لا يلقيه العقلاء أبدا : هل أحببتني في لحظة واحدة على الأقل ... أم أراني أخطأت الظن ؟

احمرت كاترين نيقولايفنا احمراراً شديداً . وقالت تجيبه :

ـ بل أحببتك .

توقعت أن تقول هذا : يا للصادقة ، يا للصريحة ، يا للمستقيمة التي تقول الحقيقة !

وتابع يسألها :

ـ والآن ؟

ـ الآن لا أحبك .

ـ وتضحكين ؟

ـ لا . لئن ضحكت فوراً فقد كان ذلك برغم ارادتي ، لأنني كنت أتوقع أن تسألني « والآن ؟ » ، فلما صدق توقعي ابتسمت ، لأن المرء يبتسم دائماً حين يصدق توقعه ...

شيء غريب . ما رأيتها قبل اليوم في مثل هذه الحصافة وهذا الاحتراس ، ولا رأيتها قبل اليوم شبه خجلى وشبه مستحية الى هذا الحد ! وكان هو يلتهمها بعينيه التهاماً .

ـ أعلم أنك لا تحبينني ... ولكنِ ألا تحبينني البتة !

ـ ربما البتة ؟

ثم أضافت تقول بلهجة قاطعة ، دون أن تبتسم ودون أن تحمر :

ـ لا أحبك . صحيح أننى أحببتك ، ولكن حبى لم يطل . فما لبثت أن كففت عن حبك ..

ـ أعرف ، أعرف . رأيت أن هذا ليس ما كنت فى حاجة اليه .. قولى : ما الذى أنت فى حاجة اليه ؟ اشرحى لى مرةً أخرى ...

ـ هل شرحت لك هذا من قبل ؟ ما أنا فى حاجة اليه ؟ اننى امرأة عادية جداً . اننى امرأة هادئة .. أحب .. أحب الناس المرحين .

ـ المرحين ؟

ـ هأنت ذا ترى أننى عاجزة حتى عن التحدث معك . يخيَّل الىَّ أنك لو أحببتنى حباً أقل ، لأحببتك .

وابتسمت خجلى مرة أخرى . كان يلتمع فى جوابها أكبر الصدق . كيف لم تدرك أن هذا الجواب هو الصيغة التى تحـدد علاقاتهما تحديداً حاسماً ، وتفسر كل شىء ، وتقطع بكل شىء ؟ وكم كان يجدر به ، هو ، أن يفهم ذلك . ولكنه نظر وابتسم ابتسامة غريبة وأضاف يسأل :

ـ هل بيورنج مرح ؟

فأسرعت تجيبه :

ـ اطمئن . ما هو بالمرح البتة ! وانما أنا أتزوجه لأننى سأكون معه أهدأ مما أكون مع آخر . ثم تبقى نفسى كلها لى أنا .

ـ يقال انك عدت تحبين حياة المجتمع وتشغفين بها ؟

ـ لا حياة المجتمع . فأنا أعرف أن مجتمعنا تسوده الفوضى كما تسود كل ما عداه . ولكن المظاهر الخارجية تظل فيه أحلى ، فاذا كان المرء يحب أن يعيش وكفى ، فالمعيشة فى المجتمع أمتع من المعيشة فى غيره .

ـ سمعت كلمة « الفوضى » هذه كثيرا ، فلا شك أنك خفت كثيرا من الفوضى التى كانت تسود حياتى ••• أصفاد ، وأفكار ، وسخافات •••

ـ لا ، ليس الأمر ذاك أبدا •••

ـ ما هو اذن ؟ قوليه بصراحة ، ناشدتك الله !

ـ طيب ، سأقوله بصراحـة ، لأننى أعـدك ذا فكر عظيم • اليك الحقيقة : اننى لم أستطع أن لا أرى فيك شيئاً مضحكا بغير انقطاع •

قالت ذلك واحمرت فجأة ، كأنما هى أحست أنها تورطت فى قلة الاحتراس تورطا كبيرا •

قال آندره بتروفتش :

ـ لهذه الكلمة التى قلتها ، أستطيع أن أغفر لك أشياء كثيرة •

فأسرعت تضيف وهى تزداد احمرارا :

ـ لم أكمل كلامى • أنا المضحكة فى الواقع ••• لا شىء الا لأننى أكلمك كحمقاء •

ـ لا ، ما أنت بمضـحكة ، وانما أنت امرأة من نســـاء المجتمع فاســـدة •

قال ذلك واصفر اصفرارا رهيبا • وتابع كلامه فقال :

ـ أنا أيضا لم أكمل كلامى حين سألتك لماذا جئت • فهل تريدين أن أنهيه ؟ ان ثمة رسالة ، ان ثمة وثيقة تخلع قلبك هلعا ؛ لأن أباك اذا وقعت هذه الرسالة بين يديه ، يمكن أن يلعنك أثناء حياته ، وان يحرمك من ميراثه شرعا فى وصيته • أنت خائفة من هذه الرسالة ••• وقد جئتنى بحثا عنها وسعيا اليها •••

نطق بهذه الكلمات وهو يرتجف من رأسه الى قدميه ، حتى لتكاد تصطك أسنانه •

فكانت تصغى اليه معبرة بوجهها عن سأم وألم • وقالت مدافعة عن نفسها :

ـ أعلم أنك تستطيع أن تحدث لى أكدارا كثيرة ، ولكننى لم أجىء لأقنعك بالكف عن اضطهادى وتعذيبى بقدر ما جئت لأراك • بل لقد كانت نفسى تضطرم رغبة فى لقائك منذ مدة طويلة •••

وأضافت تقول فجـأة ، كأنما تجرفها فكرة قاطعة بل عاطفة غريبة مباغتة :

ـ غير أننى رأيتك على عهدى بك •••

ـ هل كنت تتوقعين أن تجدينى انسانا آخر بعد الرسالة التى تكلمت فيها عن فساد خلقك ؟ هل جئت الى هنا بغير خوف البتة ؟

ـ جئت لاننى أحببتك فى الماضى • ولكن لا تهـددنى ، أرجوك • ما بقينا معا ، فلا تذكرنى بأفكارى السيئة وعواطفى الرديئة • اذا أمكنك أن تكلمنى فى غير هذا فسأكون سـعيدة جدا • قد يأتى دور التهديد ، أما الآن فقل لى شيئا آخر ، أرجوك ! حقا لقد جئت لأراك وأنصت لك دقيقة • فاذا كنت عاجزا عن هذا فاقتلنى فورا ولكن لا تهددنى ولا تعذب نفسك أمامى •••

بهذا ختمت كلامها وهى تنظر اليه مترقبة ترقبا غريبا ، كأنما هى تفترض حقا أنه قد يقتلها •

ونهض آندره بتروفتش من جديد ، وراح يتأملها بنظرات حارة ، ثم قال بلهجة قاطعة :

ـ سوف تخرجين من هنا بغير أية اساءة •

فابتسمت وقالت :

ـ نعم ، هذا عهد قطعته على نفسك •

ـ لا لأني قطعت على نفسى عهدا فى الرسالة ، بل لأننى أريد أن أفكر فيك طول الليل •••

ـ تعذيبا لنفسك ؟

ـ اننى استحضر صورتك دائما حين أخلو الى نفسى • وأظل أتحدث معك • وأذهب الى حانات ومواخير فاذا أنت تظهرين لى أيضا • ولكنك تضحكين منى دائما ، كما تفعلين الآن •

قال ذلك وكأنه خرج عن طوره • فصاحت تقول بصوت مؤثر وقد ارتسم على وجهها عطف قوى :

ـ أبدا ، أبدا ما ضحكت منك • واذا كنت قد جئت فلأننى حاولت بكل الوسائل ألا أجرح شعورك فى أمر من الأمور •

وأضافت تقول فجأة :

ـ لقد جئت الى هنا لأقول لك انى أحبك تقريبا •

ثم أسرعت تتدارك :

ـ معذرة ••• لعلنى لم أحسن التعبير عما أردت عنه •

فضحك وقال :

ـ لماذا لا تجيدين التظاهر ؟ لماذا أنت بسيطة كل هذه البساطة ؟ لماذا لست كسائر الناس ؟ ••• كيف يمكن أن يطرد أحد أحدا ثم يقول له : « أحبك تقريبا » ؟ •••

ـ ذلك أننى لم أحسن التعبير عما أردت التعبير عنه • ذلك أننى

ما وجدت يوما أمامك الا شعرت بخجل ولم أحسن الكلام ، ولئن لم أحسن التعبير حين قلت لك : « أحبك تقريبا » ، فذلك لأن الأمر كان غامضا في ذهنى أيضا • هذا هو السبب فى انى قلت تلك الجملة ، رغم اننى فى الواقع أحبك ••• أحبك ذلك الحب « المشترك » الذى يحمله المرء لجميع الناس ولا يخجل من الاعتراف به أبدا •••

كان يصيخ بسمعه اليها صامتا ولا يحول عنها نظرته الحارة ، ثم استأنف كلامه فقال :

ـ لا شك أننى أسىء اليك • هذا هو عيب الهوى الشديد • انى لأعرف شيئا واحدا هو اننى اذا كنت معك فقد انتهيت ، واذا غبت عنك فقد انتهيت أيضا • سيان أن أكون معك وأن أكون بدونك ، فأنت معى دائما حيثما تكونى • وأعلم كذلك أننى أستطيع أن أكرهك أكثر مما أستطيع أن أحبك ••• ثم انى منذ مدة طويلة أصبحت لا أفكر فى شىء • وأصبحت تستوى عندى جميع الأمور • كل ما آسف له هو أننى أحببت امرأة مثلك •••

كان قد وهن صوته ، وتابع كلامه يقول كالمختنق وهو يبتسم ابتسامة صفراء :

ـ ماذا تريدين ؟ انه لجنون منى أن أقول لك هذا الكلام • أظن أننى مستعد أن أقف مسمرا على ساق واحدة مدة ثلاثين سنة اذا كان هذا يرضيك • أرى أنك تشعرين نحوى بشفقة • وجهك يقول : « لو استطعت لأحببتك ، لكننى لا أستطيع ••• » • أليس هذا صحيحا ؟ لا ضير • لست بذى كبرياء • اننى مستعد لأن أقبل منك أية صدقة ، كشحاذ ، هل تسمعين ؟ أية صدقة ••• أنى لشحاذ أن يكون ذا كبرياء ؟ •••

فنهضت كاترين نيقولايفنا واقتربت منه ، ثم قالت وهى تلامس بيدها كتفه وقد لاحت فى وجهها عاطفة لا يمكن التعبير عنها :

ـ صديقى ! اننى لا أستطيع أن أسمع مثل هذه الأقوال ! سأظل أفكر فيك طول حياتى تفكيرى فى أغلى انسان وأنبل قلب وأقدس شىء يمكن أن أحبه وأحترمه . آندره بتروفتش ! افهمنى ... اننى لم أجىء الى هنا عبثا يا عزيزى ، يا من كنت وما تزال عزيزا على قلبى . لن أنسى أبدا ما أثرته فى نفسى من مشاعر أثناء لقاءاتنا الأولى . فلننفصل صديقين ، ولسوف تظل فى حياتى أجلّ خواطرى شأنا وأحلاها مذاقا !

قال آندره بتروفتش :

ـ « فلننفصل ثم أحبك » . سوف أحبك ولكن فلننفصل ...

ثم قال وقد شحب لونه شحوبا شديدا :

ـ اسمعى . هبى لى صدقة أخرى : لا تحبينى ، ولا تعيشى معى ، ولننقطع عن أن يرى أحدنا الآخر الى الأبد . سوف أختفى متى أصبحت لا تريدين أن ترينى ، ولا أن تسمعينى .. ولكن .. ولكن .. « لا تتزوجى » .

انقبض صدرى الى حد الألم حين سمعت كلامه . ان هذا الرجاء الساذج الذليل يوقظ الشفقة فى النفس ويطعن القلب طعنا قويا بمقدار ما فيه من صراحة وما يشتمل عليه من استحالة . نعم ، انه يطلب صدقة حقا ! هل كان يستطيع أن يظن حقا أن رجاءه يمكن أن يلبى ؟ مع ذلك . نزل بنفسه الى حيث يرجو هذا الرجاء ، وحرص على طلب هذه الصدقة . ان هذا الدرك الأدنى من السقوط يشق على المرء أن يراه ! أما هى فان جميع قسمات وجهها قد تشوهت ألما . ولكنه قبل أن تنطق هى بكلمة واحدة ، استدرك يقول بصوت غريب تبدل فجأة فكأنه ليس صوته :

ـ سوف أدمرك تدميراً !

ولكنها اجابته بكلام لا يقل عن كلامه غرابة ، وبصوت كصوته تبدل تبديلا غير متوقع حتى لكأنه ليس صوتها ، فقالت :

ـ اذا وهبت لك هذه الصدقة فسوف تنتقم فى المستقبل انتقاما أقسى من الانتقام الذى تهددنى به الآن لأنك لن تنسى أبدا أنك استجديتنى صدقة وكنت أمامى شحاذا ...

وختمت كلامها وهى تقذفه بنظرة تحد :

ـ لا أستطيع أن أسمع هذه التهديدات من فمك !

فأجابها برفق مبتسماً :

ـ « تهديدات من فمك » ، أى من فم شحاذ مثلك ! لقد كنت أمزح . لن أصنع بك شيئاً . لا تخافى . انصرفى . أما تلك الوثيقة فسأبذل جميع جهودى لأرسلها اليك . ولكن اذهبى ... اذهبى ! ... لقد بعثت اليك رسالة حمقاء ، واستجبت أنت لتلك الرسالة الحمقاء ، فجئت : فها نحن سواء : لا دائن ولا مدين !

وأضاف يقول لها ليدلها على الباب حين أرادت أن تخرج عن طريق الغرفة التى كنت مختبئاً فيها وراء الستارة :

ـ من هنا !

قالت وهى تقف على العتبة :

ـ اغفر لى اذا استطعت .

فقال فجأة :

ـ اذا كتب لنا أن نلتقى صديقين فى يوم من الأيام ، فسنتذكر هذا المشهد ضاحكين .

ولكن قسمات وجهها كلها كانت تختلج كمن اعترته نوبة .

هتفت تقول ضارعة الى الله وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى ، ولكنها تنظر الى وجهه وجلة كأنما هى تحزر ماذا أراد أن يقول :

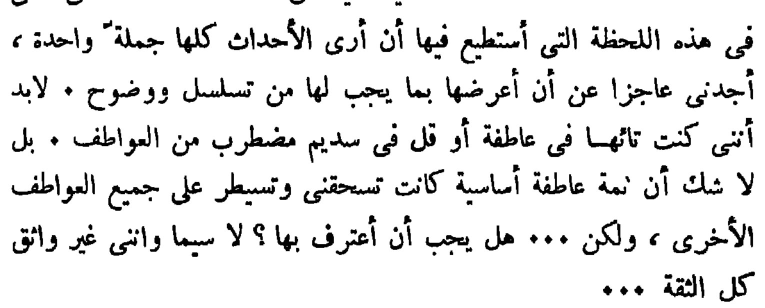
ـ أسأل الله أن يحدث هذا .

ـ انصرفى ! كلانا مفرط فى الذكاء . ولكنك ... آه ... أنت من طينتى ! بعثت اليك رسالة مجنونة ، فارتضيت أن تجيئى لتقولى انك « تحبيننى تقريبا » . لا ، لا ، ان بنا جنونا واحدا ! كلانا شاذ . ابقى مجنونة دائما ، لا تتغيرى ، وسنعود نلتقى صديقين . اننى أتنبأ بهذا . يميناً !

خرجت كاترين نيقولايفنا . فأسرعت الى المطبخ دون ضجة . ومن غير أن أنظر تقريبا الى داريا أو نيسموفنا التى كانت تنتظرنى ، وثبت الى الشارع نازلاً على سلم الخدم ماراً بالفناء . ولكن حين وصلت أنا الشارع كانت هى قد ركبت العربة التى كانت تنتظرها أمام الباب . فأخذت أركض .

الفصل الحادي عشر

١



إلى أين ؟ الى بيت لامبير !

مهما أشأ أن أسبغ طابعا منطقيا على سلوكي في ذلك المساء وفي تلك الليلة ، ومهما أشأ أن اكتشف فيه شيئا من سلامة العقل ، فانني حتى في هذه اللحظة التي أستطيع فيها أن أرى الأحداث كلها جملةً واحدة ، أجدني عاجزا عن أن أعرضها بما يجب لها من تسلسل ووضوح • لابد أنني كنت تائهــا في عاطفة أو قل في سديم مضطرب من العواطف • بل لا شك أن ثمة عاطفة أساسية كانت تسحقني وتسيطر على جميع العواطف الأخرى ، ولكن ••• هل يجب أن أعترف بها ؟ لا سيما وانني غير واثق كل الثقة •••

اقتحمت بيت لامبير ، خارجاً عن طوري طبعاً ، حتى لقد أخفته هو وصاحبته آلفونسين • لطالما لاحظت لدى الفرنسيين ، حتى لدى أشدهم طيشاً وأكثرهم فجوراً ، أنهم في داخل بيوتهم حريصون أشدّ الحرص على نوع من النظام البورجوازي ، وعلى طراز من الحياة مطرد رتيب تافه يجري على وتيرة واحدة ولا يحبون أن يخرجوا عنه مرة • ولكن لامبير سرعان ما أدرك أن شيئاً قد حدث ، فسره أن يراني في بيته وأن « يقبض على ناصيتي » أخيراً • لقد كان لا يحلم الا بهذا طوال هذه الأيام ليل نهار • ألا ما كان أحوجه الي ! ثم هأنذا ، بعد أن فقد هو كل أمل ،

أجيئه فجاةً ، من تلقاء نفسى ، بل اجيئه وأنا على هذه الحالة من الجنون ، اى على الحالة التى يريدها !

صرخت أقول :

ـ خمـــراً يا لامبير ! اسقنى ! دعنى أعربد ! آلفونســـين ، أين قيثارتك ؟

لن أصف المشهد ، فلا داعى الى ذلك . المهم أننا شربنا ، وقصصت عليه كل شيء ، كل شيء . فكان يصغى الى كلامى بشراهة . وقمت أنا بالخطوة الأولى فاقترحت عليه تدبير مؤامرة ، اشعال حريق : نستدعى أولاً كاترين نيقولايفنا برسالة ...

قال لامبير مؤيداً وهو يختطف كل كلمة أقولها :

ـ هذا ممكن ...

قلت :

ـ وزيادةً فى ضمان نجاح المؤامرة ، يجب أن نبعث اليها فى تلك الرسالة صورة عن « وثيقتها » لتستطيع أن تدرك أننا لا نغشها .

فقال لامبير مؤيداً وهو لا ينفك يتبادل النظرات مع آلفونسين :

ـ تماما ! هذا ما يجب أن نفعله .

قلت :

ـ وثالثاً ، يجب أن يكون لامبير هو الذى يدعوها ، لشأن يخصه ، منتحلاً صـــفة رجل مجهول آت من موسكو . وأجيء أنا بفرسيلوف .

فقال لامبير :

ـ ربما نحضر فرسيلوف أيضا ، نعم !

فصحت أقول معترضاً على قوله « ربما »

ـ لا ، لا « ربما » ، بل حتماً . هذا لا غنى عنه .

وأضفت موضحاً وأنا أجرع جرعة (لقد شربنا نحن الثلاثة ، لكنني أعتقد انني شربت زجاجة الشمبانيا كلها وحدي ، أما هما فكانا يتظاهران) :

ـ هذا كله من أجله هو . نجلس أنا وفرسيلوف في الغرفة الأخرى . يجب الحصول على غرفة ثانية يا لامبير ! حتى اذا جاءت اللحظة التي توافق فيها على كل شيء ، أي على الفدية المالية والفدية « الأخرى » ، لأنهن جميعاً حقيرات ، خرجنا أنا وفرسيلوف من مخبئنا وداهمناها فأقنعناها بحقارتها . وحينئذ يُشفى فرسيلوف ويطردها ركلا بقدميه . ولكننا في حاجة الى بيورنج ، ليراها هو أيضاً !

أضفت هذه الجملة الأخيرة متحمساً . فقال لامبير :

ـ لا ، بيورنج لا داعي اليه !

فصرخت أقول :

ـ بلى بلى ! أنت لا تفهم من الأمر شيئا لأنك غبي يا لامبير ! بالعكس : يجب أن تحدث فضيحة في المجتمع الراقي : بذلك ننتقم من المجتمع الراقي ، ومنها . يجب أن تعاقب ! لامبير ، سوف تمطيك كمبيالة ... أنا لا حاجة لي الى المال ، أنا أبصق على المال ! أما أنت فسوف تنزل فتدس المال في جيبك مخلوطا ببصاقي . وأكون أنا قد وضعت أنفها في التراب !

كان لامبير لا ينفك يقول مؤيداً :

ـ نعم ، نعم .

ويتبادل النظرات مع آلفونسين •

قلت متمتماً :

ـ لامبير ، انها تعبد فرسيلوف • رأيت هـذا بنفسي منذ هنيهة ، وأيقنت به •

ـ من حسن الحظ أنك رأيت كل شيء : ما كنت لأتصور أن لك كل هـذه الموهبة في التجسس ، ولا أنك تملك كل هـذا القـدر من الذكـاء •

ـ أنت كاذب يا فرنسي • أنا لست جاسوساً ولكنني ذكي جدا •

ثم تابعت كلامي جاهداً أن أعبر عن فكرتي بمشقة وعناء :

ـ هل تعلم يا لامبير ؟ انهـا لن تتزوجـه ، لأن بيورنج ضابط في الحـرس ، أما فرسيلوف فليس الا رجلاً كريماً سمحاً محباً للانسانية ، أي هو في نظرهم انسان مضحك لا أكثر ! آه ••• انها تفهم هذا الوله وتفتتن به سروراً ، وتغنج لفرسيلوف وتجتـذبه وتغـريه ، لكنهـا لن تتزوجه ! انها امرأة ، انها أفعى ! كل امرأة أفعى ، وكل أفعى امرأة ! يجب أن نشفيه • يجب أن نسقط عن عينيه الغشاوة فيراها على حقيقتها فيشفى • سأجيء به الى عندك يا لامبير •

فكان لامبير لا يزال يؤمن على كلامي ويملأ كأسي في كل لحظة :

ـ حسن ، حسن !

كان يخشى أن أستاء منه أي استياء ، كان يخاف أن يعارضني ، وكان يحرص على أن يسقيني مزيدا من الخمر ! وكان ذلك منه واضحاً أشدّ الوضـوح ، فلم أملك أنا نفسي الا أن ألاحظه • لكنني ما كـان لي أن أنصرف بحال من الأحوال • وظللت أشرب وظللت أتكلم • كنت أحترق رغبة في الافصاح مرةً عما يعتمل في نفسي ! وحين خرج لامبير ليجيء

برجاجة ثانية ، عزفت آلفونسين على قيثارتها لحناً اسبانياً . فكادت تنهمر دموعي ، وقلت مخاطباً لاميير بعاطفة عميقة :

ـ يجب انقاذ هذا الرجـل حتماً يا لاميير ، لأنه ... مسـحور ! لو تزوجها ، فلسـوف يطردها ركلاً بالقـدمين منذ الصباح ، بعد الليلة الأولى . فهذا ما يحـدث دائما . ان هذا الحب الوحشي المسعور يوافي المرء كما توافيه نوبة ، ويفعل فيه كما يفعل فيه المرض ، فما ان يتهيأ له الارتواء ، حتى تسقط الغشـاوة وتنبجس العاطفـة المناقضة : الاشمئزاز والكره والرغبة في الابادة والسحق . هل تعرف قصة آبيساج يا لاميير ؟ هل قرأتها ؟

ـ لا ، لا أتذكر . أهذه رواية ؟

ـ ذلك أنك لاتعرف شـيئا يا لاميير . أنت جاهل جهـلاً رهيباً ، جهلاً فظيعا ! ولكن لا يهمني أن تكون جاهلاً أو أن تكون عالماً ! أوه ! انه يحب ماما ؛ لقد قبّل صورتها . ولكن سيكون الأوان قد فات . لذلك يجب انقاذه منذ الآن ...

وأخيراً طفقت أبكي بكاءً مراً . لكنني ظللت أهذر وأشرب . ما أكثر ما شربت ! الشيء الأساسي الذي يجب أن أذكره هو أن لاميير لم يسألني عن الوثيقة مرةً واحدة ، طوال السهرة ، أقصد لم يسألني : أين هي ؟ لم يطلب مني أن أريه اياها ، أن أبسطها له على المائدة . ألم يكن طبيعياً مع ذلك أن يلقي عليّ هذا السؤال ونحن نتفق على القيام بعمل مشترك ؟ شيء آخر : لقد اتفقنا على أن نعمل كيت وكيت ، وقلنا اننا سنقوم بالعمل حتماً ، ولكن أين ، ومتى ، وكيف ؟ ذلك ما لم نقل عنه كلمة واحدة ! كان لاميير لا يزيد على أن يؤيد كلامي ويتبادل النظرات مع آلفونسين . لا شيء عدا هذا ! صحيح أنني كنت في ذلك الحين عاجزاً عن ادراك ذلك ، ولكنني أتذكره تذكراً واضحاً .

وفي النهايه تمت على الديوان ، بدون أن أخلع ثيابى • نمت مدة طويله جدا، واستيقظت في وقت متاخر جدا • اذكر أننى حين استيقظت، ظللت متمـــددا على الديوان زمناً كالمشـــدوه ، أحاول أن أجمع أفكارى وذكرياتى ، وأتظاهر بأننى ما زلت نائما • ولكن لامبير كان قد خـــرج من البيت • كانت الساعة قد تجاوزت التاسعه • النار فى المدفأة تسمع طقطقتها ، تماماً كالمرة الماضية ، حين فتحت عينىّ فى بيت لامبير بعد تلك الليلة المشئومة ! ولكن آلفونسين كانت ترصدنى وراء الحاجز : لاحظت ذلك فوراً ، لأنها نظرت الىّ وتفرست فىّ مرتين ، غير أننى كنت أغمض عينى وأتظاهر بالنوم • كنت أفعل ذلك لأننى أحس باكتئاب وأريد أن أعرف أين أنا من الأمر ؟ فما كان أشد عذابى حين تذكرت ، فأدركت فظاعة وحقـــارة ما أقدمت عليه فى الليل من اعتراف للامبير ، واتفـــاق معه ••• وأدركت مدى خطئى وضلالى اذ جئت اليه أصـــلا • ولكننى حمدت الله على أن الوثيقة لا تزال معى ، لا تزال مخيطة فى جيبى • لقد جسستها بيدى ، فأحسست بها ! فليس علىّ اذن الا أن أثب وثبة واحدة ، فأولى هارباً • ولا داعى الى الخجل بعد ذلك من لامبير ؟ فليس لامبير بمن يستحق ذلك !

ولكننى كنت خجلان من نفسى ! لقد نصبت نفسى قاضياً أحاكم نفسى! ما أشـــد الألم الذى كان يعصر قلبى ! على أننى لن أصف ذلك الشعور الجهنمى ، الذى لا يطاق ، لن أصف ذلك الاحساس بالخزى والتلطخ والدناءة • ومع ذلك يجب علىّ أن أعترف • فقد آن أوان الاعتراف فيما أعتقد • ويجب أن أســـجل هـــذا الاعتراف فى مذكراتى • ألا فاعلموا أننى اذا كنت قد أردت أن ألوث شرفها بالعار ، واذا كنت قد هيأت نفسى لرؤية المشهد الذى ستدفع فيه الفدية للامبير (آه ••• يا للسفالة !) ، فان هذا لم يكن فى سبيل انقاذ ذلك المجنون فرسيلوف ، ولا فى سبيل

أن أردّه الى ماما ، وانمـا ••• لأنني ••• ربما كنت أنا نفسي مولهـاً بحبها ، غيوراً عليها ! ممن كنت غيوراً ؟ ••• من بيورنيج ؟ من فرسيلوف ؟ من جميع أولئك الذين ستراهم وستحدثهم فى حفلة الرقص ، على حين أكون أنا قابعاً فى ركنى ، شاعراً بالخزى من نفسى ؟ آه ••• يا للقذارة !

الخلاصة أننى لا أعرف ممن كنت غيوراً • لكننى كنت أشعر ، بل كنت قد أيقنت منذ مساء أمس ، كيقينى بأن اثنين واثنين أربعة ، أننى فقدتها الى الأبد ، وأن هذه المرأة سوف تنبذنى وسوف تسخر من زيفى ومن سخافتى • فهى امرأة صادقة ومستقيمة ، وأنا امرؤ متجسس ومخبىء وثائق !

تلك حقيقة كتمتها مدة طويلة ، وقد آن لى أن أعترف بها الآن ••• هأنذا أعترف بها • لكننى أكرر مرةً أخرى ، ومرةً أخيرة ، أن نصف هذا الاعتراف ، وربمـا ثلاثة أرباعه ، قد يكون تجنياً على نفسى ! اننى فى تلك الليلة قد كرهتها كما يكره رجل مجنون غير مسئول عن أعماله ، ثم كرهتها بعد ذلك كما يكره رجل أخذ به السكر كل مأخذ فانطلق يتكلم كمن أصابه مس • وقد سبق أن ذكرت أن سديماً مضطرباً مشوشاً من العواطف والاحسـاسات كان قد أغرقنى اغراقاً ، فلا أستطيع أن أعى ما بقلبى ولا أن أدرك ما يعصف بنفسى عصفاً • ولكن لا بد لى مع ذلك من هذا الاعتراف ، لأن جزءاً من هذه العواطف السيئة الفاسدة قد ملأ نفسى حتماً •

وثبت عن الديوان مشمئزاً اشـمئزازاً لا يغالب ، عازماً عزماً قوياً على أن أمحو كل شىء • ولكن ما ان وثبت عن ديوانى ذلك الوثوب حتى هرعت الىّ آلفونسين • تناولت معطفى وقبعتى ، وقلت لها أن تبلغ لامبير أننى كنت بالأمس أهذى ، وأننى تجنيت على تلك المـرأة ، واننى كنت

أمزح ، فحذار أن يبيح لنفسه أن تطأ قدماه بيتي في يوم من الايام .
قلت لها ذلك كله بالفرنسية متعجلاً كيفما أتفق ، وأغلب الظن انني قلته غامضاً مشوشاً ، فما كان أشد دهشتي حين رأيت آلفونسين تفهم عني فهماً كاملاً ؛ وأغرب من هذا أنها كانت تبدو مغتبطة بكلامي ، مهللة له .
قالت مؤيدة :

ـ « نعم نعم . ذلك عيب . سيدة محترمة . أنت رجل كريم ! اطمئن . سأوضح الأمر للامير ! » .

ولقد كان خليقاً بهذا التبدل الغريب المفاجيء في عواطف آلفونسين، وربما في عواطف لامبير تبعاً لذلك ، أن يثير في نفسي الشبهات . لكنني خرجت صامتاً . لقد كنت مضطرب النفس ، وكنت لا أحسن التفكير . ولقد أعدت النظر في الأمر كله بعد ذلك ، ولكن كان قد فات الأوان ! يا للمكيدة الجهنمية التي حيكت لي ! انني أتلبث هنا قليلاً لأشرح ما حدث ، والا عجز القاريء عن الفهم !

الواقع هو انني منذ أن لقيت لامبير أول مرة ، في تلك الليلة التي تدفأت عنده بعد تجلدي من البرد ، قد حكيت له (يا لغباوتي !) أن الوثيقة مخيطة في جيبي . ولقد نمت على ديوانه في تلك الليلة بعض الوقت فجأة ، فلم يلبث لامبير أن جس جيبي ، فأيقن أن الورقة مخيطة فيها فعلاً . واستطاع بعد ذلك مرراً أن يتأكد من أن الورقة لا تزال في مكانها . فأثناء عشائنا في مطعم التتر مثلاً ، أتذكر أنه حضنني عدة مرات؟ فلما أدرك أخيراً ما لهذه الورقة من شأن خطير رسم خطة خاصة لم تخطر ببالي قط . لقد كنت أتخيل دائماً (كما يفعل غبي أحمق) أنه ان كان يدعوني الى بيته دائماً بحماسة شديدة واصرار كبير ، فهو انما يفعل ذلك ليستدرجني الى الدخول في عصابته والمشاركة في عملها . ولكن الحقيقة المؤسفة هي انه كان يدعوني الى بيته لغرض آخر ! كان يدعوني ليسكرني

سكراً شديداً ، حتى اذا رقدت غائباً عن شعورى وأخذت أشخر ، قص جيبي واستولى على الوثيقة . وذلك ما فعلاه في تلك الليلة هو وآلفونسين . قامت الفونسين بقص جيبي . فلما صارت الرسالة في حوزتها ، أعنى « رسالتها » ، أعنى وثيقتى التى جئت بها من موسكو ، تناولا ورقة عادية من ورق الرسائل بحجمها نفسه ، فوضعاها في مكان الرسالة ، ثم أعادا خياطة الجيب في مكانه فكأن شيأ لم يحدث ، فلم ألاحظ أنا شيئاً . ان آلفونسين هى التى أعادت خياطة الجيب . وظللت أنا ، انا الأحمق ، ظللت الى النهاية ، خلال يوم ونصف يوم ، أظن أننى ما زلت أملك السر ، وظلت أعتقد بأن مصير كاترين لا يزال بين يدىّ .

كلمة أخيرة : ان سرقة الوثيقة كان سبب كل شىء ، كان سبب جميع المصائب الأخرى !

٢

اليكم الآن آخر أيام مذكراتى • انى أصل الى نهاية النهاية •

أظن أن الساعة كانت العاشرة والنصف حين وصلت الى مسكنى مهتاج الأعصاب ، ذاهلاً أكبر الذهول ، عاقداً عزمى على قرار حاسم • ولم أتعجل الخطى ، فقد كنت أعرف ماذا سأفعل • ولكن ما ان وطئت قدماى الدهليز حتى رأيت أن الأمر قد دخل مرحلة جديدة : كان العجوز قد نُقل من تسارسكوريا سيلو منذ قليل ، فهو الآن فى بيتنا ، وبقربه آنا آندريفنا !

لم يسكنوه غرفتى ، بل الغرفتين المجاورتين لها ، أعنى غرفتى المؤجر • وقد أحدثت بالأمس فى هاتين الغرفتين تغييرات وتجميلات ، وان تكن طفيفة • وكان المؤجر قد نقل امرأته الى حجرة المستأجر المجدور المتذمر الذى سبق أن تكلمت عنه ، كما نُقل هذا لا أدرى الى أى مكان •

لم يلبث المؤجر أن تسلل الى غرفتى ليستقبلنى • ان هيئته لا تنم عمّا كانت تنم عنه بالأمس من حزم ، ولكنه كان فى اهتياج شديد ، اهتياج من مستوى الأحداث ان صح التعبير • لم أكلمه ، بل انسحبت الى زاوية الغرفة ، ووضعت رأسى بين يدى ، ولبثت على هذه الحال دقيقة • فقدّر فى أول الأمر أننى أصطنع « وضعاً » ، ولكنه فى النهاية لم يطق صبراً ، واعتراه الفزع ، فتمتم يسألنى :

ـ هل هناك شيء ؟

واذ لم أجبه أردف يقول :

ـ كنت أنتظرك لأسألك هل تريد أن نفتح هذا الباب فيكون اتصال غرفتك بغرفتي الأمير مباشرا ••• بدلا من المرور بالدهليز •

قال ذلك وهو يريني بابا جانبيا مغلقا ، يصل غرفتي بغرفته ، أي بما هو الآن مسكن الأمير •

فقلت له برصانة ووقار :

ـ بطرس هيبوليتوفتش ، أرجو أن تتفضل فتمضى الى آنا آندريفنا فورا ، فتدعوها ان تجيء الى هنا لتتحدث معي قليلاً • هل وصلا منذ مدة طويلة ؟

ـ منذ زهاء ساعة

ـ طيب • اذهب الى آنا آندريفنا وقل لها ما أوصيتك به •

فذهب ثم عاد يحمل الىّ هذا الجواب الغريب ، وهو أن آنا آندريفنا والأمير ينتظران أن أجيء اليهما بصبر فارغ • اذن لم تشأ آنا آندريفنا أن تأتي • فعدلت ردنجوتي الذي تجعّد في الليل ، ونظفته بالفرشاة • وغسلت وجهي ، ومشطت شعري • فعلت ذلك كله بغير تعجل • ثم مضيت الى الشيخ مدركاً مدى ما يجب التزامه من حذر وروية •

كان الأمير جالساً على ديوان أمام مائدة مستديرة ، أما آنا آندريفنا فكانت في ركن آخر ، أمام مائدة أخرى عليها غطاء وفوقها سماور البيت مجلوا كما لم يسبق أن جلي في يوم من الأيام ، وكان ماء السماور يغلي ، وكانت آنا آندريفنا تهييء الشاي •

دخلت بتلك الهيئة القاسية نفسها ، فلاحظ العجوز المسكين ذلك

فورا ، فارتجف • وسرعان ما حل محل ابتسامته فزع حقا • لكنني لم ألح ، بل أخذت أضحك ، ومددت له يدي ، فارتمى المسكين في أحضاني •

وقد أدركت فوراً ما صار الرجل اليه ، دون ريب • كان من الواضح أولاً أن الشيخ الذي كان قبل الآن يتمتع بقدر من القوة وينعم بشيء من سلامه العقل رغم كل شيء ، ولا يخلو من بعض الارادة والصلابة ، قد أحالوه بعد آخر لقاء بيني وبينه الى نوع من مومياء ، وجعلوا منه طفلاً شديد الخوف ، كثير الحذر والشك • يجب أن أضيف الى هذا أنه كان يعلم لماذا جيء به الى هنا ، وقد جرى كل شيء على النحو الذي ذكرته من قبل حين استبقت الأحداث • لقد فاجأوه بخيانة ابنته وبحديث مستشفى المجانين ، فصعقوه وحطموه وسحقوه سحقاً ، فانقاد وهو لا يكاد من شدة ذعره أن يعي ماذا يفعل • قالوا له ان الوثيقة في حوزتي وهي « مفتاح الموقف » ، فاذا رآها كان في وسعه أن يتخذ قراره النهائي • يجب أن أبادر فأقول سلفاً ان رؤية الوثيقة واتخاذ القرار هما ما كان يرعبه تصورهما أكثر مما يرعبه أي شيء في هذا العالم ••• لقد كان يتوقع أن يراني داخلاً عليه بالقرار في جيبي والورقة في يدي • فما كان أعظم فرحه حين رآني ، بانتظار ذلك ، مستعداً لأن أضحك وأن أثرثر في موضوع آخر • وقد انسكبت دموعه غزيرةً حين تعانقنا • ولا أكتمكم أنني ذرفت أنا أيضاً بعض العبرات • لقد شعرت فجأة بشفقة كبيرة عليه • وكان كلب آلفونسين الصغير ينبح نباحا نحيلاً كرنين جرس صغير ، ويندفع من الديوان نحوي • ان هذا الكلب الصغير أصبح لا يفارق الشيخ منذ صار عنده ، حتى لقد كان ينام معه •

هتف يقول وهو يومىء لأنا آندريفنا الي :

ــ « قلت انه صاحب قلب نبيل » (بالفرنسية) •

فقلت له :

ــ لقد تحسنت صحتك كثيراً يا أمير ! هيئتك الآن مزهرة نضرة !

ولكن نقيض قولى كان هو الصحيح وا أســـفاه ! لقد كان الشيخ أشبه بمومياء • وما قلت له ذلك الا لأشجعه •

فأخذ يردد بفرح :

ــ « أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ » (بالفرنسية) •

ــ ولكن هلاّ شربت شايك • اذا قدمت لى فنجاناً فسوف يسعدنى أن أحسوه فى صحبتك •

ــ فكرة عظيمة • « فلنشرب ولنفرح » • هناك قصيدة بهذا المعنى • أليس كذلك ؟ آنا آندريفنا ، أعطيه شاياً • « انه يفتن دائماً بالعواطف » (بالفرنسية) • أعطينا شاياً يا عزيزتى •

سكبت لى آنا آندريفنا شاياً • ولكنها التفتت نحوى فجأة ، وأخذت تتكلم بلهجة فيها كثير من الوقار ، فقالت :

ــ آركادى ماكاروفتش ، انا ــ أنا والمحسن الىّ الأمــير نيقــولا ايفانوفتش ، قد جئنا الى بيتك لاجئين • جئنا اليك أنت ، لا الى غيرك ، جئنا ضيفين عليك نلتمس عندك المأوى والملاذ • تذكر أن كل مصير هذا الانسان القديس ، النبيل ، المحزون ، هو بين يديك ••• اننا ننتظر القرار الذى يمليه عليك قلبك بالحق والعدل !

لكنها لم تستطع أن تكمل كلامها • فقد اعترى الأمير رعب شديد ، حتى كاد يرتعش من فرط الذعر ، وأخذ يقول مكرراً وهو يرفع يديه نحوها :

ــ « فيما بعد ، فيما بعد ، أليس كذلك يا صديقتى العزيزة ؟ » (بالفرنسية) •

لن أستطيع أن أصف الأثر الأليم الذى أحدثتـه فى نفسى مقاطعته هذه لحديثها • ولم أجب بشىء ، وانما اكتفيت بتحيـة فاترة رصينة • ثم جلست الى المائدة عامداً ، وطفقت أتحدث فى مواضيـع أخـرى تافهة ، وأخذت أضحك وأمزح ••• فكان واضحاً أن الشيخ شكر لى ذلك ، وأنه اغتبط اغتباطا شديداً • ولكن فرحه كان رغم شدته مهيأ لأن يتبدد سريعا وان يحـل محله اكتئـاب ويأس • كان هـذا واضـحا من أول نظرة •

ـ « بنى العزيز » (بالفرنسية) • بلغنى أنك كنت مريضاً • • آ ••• معذرة ••• قيل لى انك كنت طول هذه المدة منشغلاً بتحضير الأرواح ، أهذا صحيح ؟

أجبته مبتسماً :

ـ ما خطر لى مثل هذا على بال •

ـ لا ؟ من كلمنى اذن عن تحضير ••• الأر••واح ؟

انبرت آنا آندريفنا تشرح فقالت :

ـ ان الموظف ، صاحبَ البيت ، بطرس هيبوليتوفتش ، هو الذى كان يحدثه عن هذه الأمور منذ قليل • انه رجل مرح ، يعرف نكاتٍ كثيرة • هل تريد أن أناديه ؟

ـ « نعم ، نعم ، رجل طيب » (بالفرنسية) • يعرف نكات كثيرة • ولكن الأفضل أن ندعوه فيما بعد • سوف ندعوه • وسوف يحكى لنا كل شىء • « ولكن فيما بعد » (بالفرنسية) • تصور أنه منذ قليل ، حين اعداد المائدة ، قال لى : اطمئن ، فهى لن تطير ! نحن لا نحضر الأرواح ! هل الموائد تطير عند الذين يحضرون الأرواح ؟

ـ لا أدرى • يُقال انها ترتفع بجميع أرجلها •

فقال وهو يرشقني بنظرة مرتاعة :

ـ ولكن هذا الذى تقوله رهيب ! » (بالفرنسية) .

ـ اطمئن . هذه سخافات !

ـ ذلك ما أقوله أنا أيضاً . ان ناستاسيا ستيبانوفنا سالوميافا ... أنت تعرفها طبعاً .. لا .. لا لاتعرفها .. الخلاصة .. تصور أنها هى أيضاً تؤمن بتحضير الأرواح ...

والتفت الأمير الى آنا آندريفنا وقال مكملاً كلامه :

ـ تخيلى هـذا « يا ابنتى » (بالفرنسية) ! قلت لها يوماً : ان فى الوزارات موائد أيضاً ، وعلى كل مائدة ثمانى أيدٍ من أيدى الموظفين تكتب و لاتنقطع عن الكتابة ، فلماذا لا تتراقص تلك الموائد ؟ تخيليها وقد أخذت ترقص فجأة ! شغب تقوم به الموائد فى وزارة المالية ، أو وزارة التعليم العام ... لم يكن ينقص الا هذا ! ...

هتفت أقول محاولاً أن أضحك بصدق :

ـ ما ألطف الأشياء التى تقولها دائماً يا أمير !

ـ « أليس كذلك ؟ أنا لا أكثر من الكلام ولكننى أحسن القول » (بالفرنسية) .

قالت آنا آندريفنا وهى تنهض :

ـ سأجىء ببطرس هيبوليتوفتش .

وكانت الغبطة تتلألأ فى وجهها، فقد أبهجها كثيراً أن رأتنى ألاطف الأمير هذه الملاطفة كلها . ولكن ما ان خرجت حتى تبدل وجه الشيخ فجأة . ونظر بسرعة الى الباب ، وأجال بصره فيما حوله ، ثم مال من ديوانه علىّ ، وهمس يقول لى بصوت مروّع :

ـ « يا صديقي العزيز » ، ليتني أستطيع أن أراهما كلتيهما هنـا ! « آه بنيّ الغالي ! » •

ـ هدىء نفسك يا أمير !

ـ نعم نعم ، لكننا سنصلح بينهما ، أليس كذلك ؟ انه لشجار صغير محزن بين امرأتين تفيضـان كرماً وشـهامة ، أليس كذلك ؟ ليس لى من أمل الا فيك ••• سنسوّى هذا كله هنا •••

ثم أضاف يقول وهو يلقى نظرة يكاد يكون فيها خوف :

ـ ولكن يا له من مسكن غريب ! وهذا المؤجر ! ان له عقـلا عجيباً • قل لى : أليس خطراً ؟

ـ المؤجر ؟ لا ! فيم يمكنه أن يكون خطراً ؟

ـ حسن ! عظيم ! « يبدو غبياً ، هذا السيد » ! ابنى ! أستحلفك بيسـوع المسيح لا تقل لأنا آندريفنا انى خائف من كل شى هنا • لقد أجزلتَ المديح لكل شيء منـذ أن وطئت هذا المكان ، حتى لقد مدحت المؤجر نفسه • اسمع ، أنت تعرف قصة فون سون ، هل تتذكر ؟

ـ نعم أتذكر ، فماذا ؟

ـ « لا شيء ••• لا شيء البتة ••• ولكننى حـــر هنا ، أليس كذلك ؟ » • ما رأيك ؟ لا يمـكن أن يحدث هنـــا شيء ••• من ذلك النوع ؟

ـ لا ، لا ، يا عزيزى ، اطمئن ، أحلف لك •••

هتف فجأة يقول وهو يصم يديه أمامى ولا يخفى عنى شيئاً من جـزعه :

ـ « صديقى ، ابنى » ••• اذا كان فى حوزتك شيء حقاً •••

وثائق مثلاً .. اذا كان ثمة ما يمكن أن تقوله لى .. فلا تقله .. لا تقله . لا تقل شيئاً ، ناشدتك الله ... لا تتكلم ... الزم الصمت أطول مدة ممكنة ، لا تتكلم ...

وأراد أن يحضنني بذراعيه . وسالت الدموع على خديه . لن أستطيع أن أصف لكم مدى انقباض قلبي : كان الشيخ المسكين أشبه بطفل بائس ضعيف مرتاع اختطفته غجريات من عشه عند أبويه، وأخذنه الى أجانب . ولكن لم يُسمح لنا بأن نتعانق : فقد فُتح الباب ودخلت آنا آندريفنا ، ولكن الشخص الذى يصحبها ليس المؤجر بل هو أخوها ، حاجب البلاط . فصعقنى هذا الشيء الجديد صعقاً ، فسرعان ما نهضت واتجهت نحو الباب .

قالت آنا آندريفنا بصوت عال :

ـ آركادي ماكاروفتش ، اسمح لى أن أعرِّف كلاً منكما بالآخر ...

فلم يسعنى الا أن أتوقف . وقلت مقطعاً كلماتى مبرزاً منها كلمة « أحسن » :

ـ أعرف أخاك « أحسن » المعرفة !

فجمجم الشاب وهو يقترب منى طلق الهيئة ، ويتناول يدى بحرية فلا أملك أن أسحبها :

ـ أوه ! ما كان أكبرها غلطة ... وانى لمذنب يا عزيزى آند .. آندره ماكاروفتش . ولكن خادمى ستيفان هو سبب كل شيء . لقد أساء الابلاغ عنك فحسبتك شخصاً آخر .

وأردف يشرح لأخته :

ـ حدث هذا بموسكو •••

ثم عاد يكمل كلامه لى :

ـ وقد بذلت بعد ذلك جميع جهـــودى لأعثر عليك وأشرح لك الأمر • ولكننى مرضت ••• اساله ! « يا أمير يجب أن نكون صديقين حتى بحكم النسب •• » •

وتجرأ الفتى الوقح الى حيث وضع يده على كتفى، فكان ذلك ذروة رفع الكلفة • فأسرعت أخلـّص كتفى من يده بوثبة الى جانب ، ولكننى خجلت أن أزيد على ذلك شـيئاً ، فاكتفيت بأن خرجت صـامتاً ، ومضيت الى غرفتى ، فجلست على سريرى مفكراً قلقاً مضـطرباً • كانت هـذه المكيدة تخنقنى خنقاً ، ولكننى لا أستطيع أن أطيش صواب آنا آندريفنا وأن أسحقها سحقاً • لقد شعرت فجأة أنها هى أيضاً عزيزة على نفسى ، وأحسست أنها فى وضع رهيب •

٣

كما كنت أتوقع ، جاءت الى غرفتى ، تاركةً الأمير مع أخيها الذى أخذ يردد على مسامع الأمير أنواعاً شتى من نمائم المجتمع الراقى الجديدة، فسرعان ما استطاع بذلك أن يأسر وأن يفرح الأمير المسكين الذى يسهل التأثير فيه •

نهضت عن سريرى صامتاً مستفهماً • فبادرتنى آنا آندريفنا قائلة بلهجة جازمة :

ـ قلت لك كل شيء يا آركادى ماكاروفتش • ان مصيرنا بين يديك •

ـ لكننى نبّهتك أيضاً الى أننى لا أستطيع ••• ان واجباتى المقدسة تمنعنى من الاقدام على ما تعتمدين علىّ فيه •••

ـ حقاً ؟ أهذا جوابك ؟ أنا لا يهمنى أن أهلك • ولكن الشيخ ؟ أعلمْ أنه سيُجنُّ منذ هذا المساء !

هتفت أجيبها بحرارة :

ـ بل سيجنُّ اذا أنا أطلعته على رسالة من ابنته تسأل فيها محامياً كيف يمكن أن يُعلن جنون أبيها • ذلك ما لن يستطيع أن يتحمله • هو قال لى هذا •

الحق اننى كذبت اذ ادعيت أنه قال لى ذلك • ولكن الكذب كان فى محله •

ـ قال لك هـذا ؟ قدّرت أن يقوله لك . فانا الهـالكة اذن . حتى لقد بكى منذ قليل ، وطلب ان يرجع الى البيت .

سألتها بالحاح :

ـ قولى لى : ما خطتك على وجه الدقة ؟

فاحمر وجهها من جرح كبريائها ان صح التعبير ، ولكنها كابرت وتجلدت ، فقالت :

ـ ان هذه الرسالة التى بين أيدينا تبرئنا فى نظر الناس . سوف أبادر فورا فأنبىء الأمير « ف ... » و بوريس ميخائيلوفتش بلنشيف ، صديقى طفولته . هما شخصيتان من أصحاب الشأن والنفوذ ، وأنا أعلم أنهما أبديا استياءهما من بعض أعمال هذه الابنة الجشعة التى لا ترحم . ولاشك أنهما سيصلحان ما بين الأب وابنته تلبيةً لطلبى ، وسـألح أنا نفسى على طلب هذه المصالحة . ولكن الوضع يكون قد تغير تغيراً تاماً . وعدا ذلك سيدعمنى أقربائى من جهة أمى ، آل فاناريوتوف ؛ غير أن الشيء الذى يهمنى خاصةً انما هو سعادته . يجب أن يعرف أخيراً من ذا الذى كان مخلصاً له حق الاخلاص ، فيقدره قدره الذى يستحقه . وانى لأعتمد على ما لك لديه من حظوة وما لك فيـه من تأثير يا آركادى ماكاروفتش . انك تحبه كثيراً ... ولكن هل يحبه أحد غيرى وغيرك ؟ انه لم ينقطع عن ذكرك فى هذه الأيام الأخيرة . وكان يحنُّ اليك حنيناً شديداً ، ويشعر من بعدك عنه بضجر قوى . وكان يسميك « صديقه الشاب » . وطبيعى أن شكرى لك وامتنانى منك لن يكون لهما حدود ما حييت ...

ها ... ها هى ذى الآن تعدنى بمكافأة ... لعلها مكافأة مالية ! فقاطعتها قائلاً بلهجة خشنة ونبرة جازمة لا تنثنى ولا تلين :

ـ مهما تقولى ... فلن أتزحزح عن رفضى قيد شعرة ! لكننى أستطيع أن أعاملك بمثل ما تعاملينني به من صراحـة ، فأصارحك بآخـر ما عقدت العزم عليه : بعد مدة قصيرة سأسلّم الرسالة المشئومة الى كاترين نيقولايفنـا يداً بيـد ، ولكننى سأشترط عليهـا بسبب كل ما حدث الآن ألا تقوم بفضيحـة ، وأن تقطع لى على نفسها عهـداً بألا تحول بينك وبين تحقيق سعادتك . هذا كل ما أستطيع أن أفعله .

قالت وقد احمرت احمراراً شديداً :

ـ مستحيل !

لقد أثار استياءها أن تتصور أن كاترين نيقولايفنا سوف « تداريها » وتحميها .

قلت :

ـ لن أغيرّ قرارى يا آنا آندريفنا .

ـ قد تغيرّه .

ـ الجئى الى لامبير !

ـ آركادى ماكاروفتش ، انك لا تعرف المصائب التى يمكن أن تنتج عن عنادك .

قالت ذلك بقسوة وغضب شديد . فأجبتها :

ـ جائز جداً أن تنتج مصائب ... اننى أشعر بدوار ! كفى الآن : لقد قررت وانتهى الأمـر . ولكننى أرجـوك ، بـل أستحلفك بالله ، ألا تأتينى بأخيك .

ـ ولكنه يريد أن يمحو ما ...

ـ ليس هناك شيء يجب محوه ! ••• ما أنا في حاجة الى أن يمحو شيئاً • لا أريد ، لا أريد !

كذلك صحت وأنا أمسك رأسى بيدى • ولعلنى قد عاملتها باستعلاء •

وأردفت أسألها :

ـ قولى لى : أين سبيبت الأمير ؟ هنا ؟

ـ سبيبت هنا ، عندك ومعك •

ـ انى تارك هذا البيت منذ الليلة •

وما ان نطقت بهذه الكلمات التى لا رحمة فيها ، حتى تناولت قبعتى وأخذت ألبس معطفى • فكانت آنا آندريفنا ترقبنى صامتة مكفهرة الوجه • وقد رثيت لحال الفتاة المتكبرة ، وشعرت نحوها بالشفقة حقاً • ومع ذلك خرجت دون أن أترك لها كلمة أمل واحدة •

٤

سأحاول أن أوجز • بعد أن اتخذت قرارى قاطعاً لا رجعة عنه ، اتجهت قُدُماً الى بيت تاتيانا بافلوفنا • وا أسفاه ! لقد كان يمكن اتقاء مصيبة كبيرة لو أننى وجدتها • ولكن سوء الحظ كان يلاحقنى فى ذلك اليوم • فلم أجد تاتيانا بافلوفنا • فذهبت الى ماما ، أولاً لأزور أمى المريضة ، وثانياً لأننى قدرت أننى سوف أجد عندها تاتيانا بافلوفنا فى أغلب الظن • ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت قد تركت أمى منذ برهة وجيزة • وكانت أمى راقدة فى سريرها ، وقد بقيت ليزا وحدها معها • رجتنى ليزا ألا أدخل وألا أوقظ ماما من نومها قائلةً لى : « انها لم تنم الليل كله ، وظلت تتألم وتتعذب • فمن حسن الحظ أنها غفت الآن • • » • قبّلت ليزا ، وقلت لها بكلمتين اننى اتخذت قراراً ضخماً حاسماً ، واننى مقدم على تنفيذه حالاً • فأصغت ليزا الى كلامى بدون دهشة كما يصغى المرء الى كلام عادى جدا ، ذلك أنهم جميعا قد ألفوا كثيرا أن يسمعوا منى كلمات لا أنفك أكررها ثم أكررها ، كقولى « قرارات أخيرة » ، ثم رأونى أرتخى فأتركها • ولكننى الآن •• الآن •• لن يكون شأنى كما كان • ومن أجل أن أترك لتاتيانا مهلةً تعود أثناءها الى بيتها ، ذهبت الى المطعم الذى يقع تحت مستوى الشارع ، والذى تروج فيه أغنية « لوسيا » رواجاً كبيراً • وسأشرح السبب الذى جعلنى فى حاجة شديدة الى تاتيانا بافلوفنا فجأة • لقد كنت أنوى أن أرسلها الى كاترين نيقولايفنا فوراً ، فتأتى بها الى بيتها ، فأردّ الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا بحضور تلك

المرأة نفسها بعد أن أشرح لها كل شيء مرة واحدة الى الأبد • الخلاصة انني كنت أريد أن أفعل الخير : أريد أولاً ان أبرىء نفسي تبرئة حاسمة ، وأحرص على هذه التبرئة وأعدّها حقاً لي • حتى اذا فرغت من ذلك أخذت أدافع عن آنا آندريفنا وأقول فيها قولا حسناً ، ثم اصطحبت كاترين نيقولايفنا وتاتيانا بافلوفنا (شاهدا) الى بيتي ، أي الى الامير ، فأصلحت ما بين المرأتين المتعاديتين هناك ، وأردّ الحياة الى الأمير •• و •• و •• في نطاق هذه الطائفة الصغيرة ، أجعل الجميع سعداء ، منذ هذا اليوم ، ثم لا يبقى بعد ذلك الا فرسيلوف وماما • ولم يخالجني شك في نجاح مسعاي : فان كاترين نيقولايفنا ستكون ممتنةً من ردّ الرسالة اليها رداً لا أطالب أن أكافأ عليه بشيء ، فلن تستطيع أن ترفض تلبية رجائي • وا أسفاه ! كنت لا أزال أتصور أن الوثيقة في حوزتي • آه ما كان أغبى وأحقر الوضع الذي كنت فيه بدون أن أشعر ! •••

كان الظلام قد هبط ، ولعل الساعة كانت قد بلغت الرابعة حين قرعت باب تاتيانا بافلوفنا مرة أخرى • فقالت لي ماري بفظاظة « انها لم ترجع » • اني لأتذكر الآن نظرتها الغريبة المواربة تذكرا واضحاً • ولكنني في تلك اللحظة لم تراودني أية شبهة • حتى لقد خطرت لي هذه الفكرة الأخرى : ففيما كنت أهبط درجات السلم منزعجاً مثبّط العزيمة، تذكرت الأمير المسكين الذي مدّ اليّ ذراعيه منذ قليل ، فلمت نفسي لوماً لاذعاً لأنني تركته من غضب ؟ وأخذت أتصور ، قلقاً أشد القلق ، ما لعله حدث عندهم أثناء غيابي من أمور قد تكون سيئة غاية السوء ، فأسرعت أعود الى البيت • فعلمت أن ما وقع هو الحوادث التالية :

ان آنا آندريفنا التي أغلظت لها القول وأغضبتها ، لم تفقد شجاعتها • يجب أن أذكر أنها كانت منذ الصباح قد أرسلت الى لامير مرةً أولى فمرة ثانية ، فلما لم يعثر عليه في بيته ، بعثت أخاها يبحث عنه • كانت المسكينة

بعد أن رأت صمودى وعنادى تعقد أملها كله على لامير وتأثيره فىّ • فكانت تنتظره نافدة الصبر • ولكن كان يدهشها أن تراه يهجرها فجأة ويختفى ، وهو الذى كان الى هذا اليوم لا يتركها أبداً ويظل يحوم حولها • مسكينة ! كان لا يمكن أن يخطر لها على بال أن لامير الذى يستولى الآن على الوثيقة ، قد اتخذ قرارات أخرى ، وأن من الطبيعى أن يتوارى عن الأنظار ، وأن يتوارى عن نظرها هى خاصة •

كان القلق والشعور بالخطر يتزايدان فى نفس آنا آندريفنا ، فكان طبيعياً أن تصبح عاجزة عن تسلية الأمير الشيخ ، وكان قلق الشيخ من جهته يشتد اشتداداً يدعو الى الخوف والفزع • كان يلقى أسئلة غريبة وجلة ، وكان ينظر الى آنا آندريفنا مشتبهاً مرتاباً ، حتى لقد أجهش باكياً عدة مرات • ولم يمكث الشاب فرسيلوف مدة طويلة • فاستدعت آنا آندريفنا ، بعد انصرافه ، بطرس هيبوليتوفتش الذى كانت تعوّل عليه كثيراً • ولكن بطرس هيبوليتوفتش لم يحدث فى نفس الأمير الا الاشمئزاز بدلاً من أن يسليه ويسرّى عنه • وكان الأمير ، على كل حال ، ينظر الى بطرس هيبوليتوفتش نظرة فيها حذر وشك وارتياب ما ينفك يزداد • وقد شاءت المصادفة أن يستأنف بطرس هيبوليتوفتش ثرثرته عن تحضير الأرواح ، وعن ألاعيب أخرى قال انه شهدها بنفسه : منها أن مشعوذا مرّ بالمدينة يوماً ، فكان يقطع رءوساً على مرأى من الناس ، فتسيل الدماء من الأعناق ، ويشهد الجمهور ذلك كله بأعينه ، ثم يعود الرجل فيتناول الرءوس المقطوعة ويردُّها الى مكانها فوق الرقاب فتلتصق على مرأى من جميع الناس أيضاً ، وقد حدث هذا كله سنة ١٨٥٩ ؛ فحين سمع الأمير هذا الكلام بلغ من شدة الهلع ومن شدة الاستياء فى الوقت نفسه أن آنا آندريفنا اضطرت أن تطرد القصاص • ومن حسن الحظ أن وصل الغداء فى ذلك الوقت ، وهو غداء عُنى به لامير و آلفونسين أوصيا باعداده طباخاً فرنسياً حاذقاً يسكن فى بيت قريب ، ولكنه لا يعمل الآن فى مكان وانما

هو يبحث عن عمل فى منزل أسرة ارستقراطيـة أو فى أحد النوادى ٠ فكان من شأن هذا الغداء مع الشمبانيـا أن أفرح العجوز جداً ، فأكل كثيراً وفرح كثيراً ؛ وكان طبيعياً بعد الغداء أن شعر بثقل وأحس برغبة فى النوم ٠ واذ كان من عادته أن ينام بعد الغداء دائماً ، فان آنا آندريفنا كانت قد أعـدّت له سريراً ٠ فكان وهو يرقد على السرير يقبّل يديها ويقول لهـا انها جنته ، وانهـا أمله ، وانهـا حوريتـه ، وانها « زهرته الذهبيـة » ، الى ما هنالك من تعابير شرقيـة ٠ ونام أخيراً ٠ وعندئذ انما وصلت أنا ٠

أسرعت آنا آندريفنـا تدخـل علىّ ، فضمّت يديها أمامى ضارعةً مبتهلة ، وقالت انهـا تتوسـل الىّ (لا من أجلهـا بل من أجل الأمير) ألا أخرج ، وأن أذهب اليه متى استيقظ من نومه ٠ « اذا لم تكن أنت معه فقد هلك ٠ لسوف يصاب بنوبة ٠ أخشى ألا يقاوم الى آخر اليوم ٠٠ » ٠ وأضافت تقول انهـا مضطرة أن تغيب عن البيت اضـطراراً لا سـبيل الى دفعـه ، « وان غيابهـا قد يطول سـاعتين ، فهى اذن تترك الأمير تحت حراستى » ٠ فقطعت لها على نفسى عهداً حاراً بأن أبقى الى المساء ، فاذا استيقظ بذلت كل ما أستطيع بذله من جهود لأسلّيه وأسرّى عنه ٠

فقالت تختم كلامها بقوة :

ــ وأنا سأقوم بواجبى ٠

وانصرفت ٠ يجب أن أذكر مستبقاً الوقائع أنها انما مضت تبحث عن لامبير ٠ انه آخـر أمـل لهـا ٠ وعـدا ذلك زارت أخـاها وأقرباءها آل فاناريوتوف ٠ فتستطيعون الآن أن تتخيلوا كيف كانت حالتها النفسـية حين رجعت !

استقيظ الأمير بعد انصرافهـا بنحو ساعة ٠ وسمعت صوت أنينه من وراء الجدار ، فأسرعتُ اليه فوراً ٠ فوجدته جالسـاً على سريره بثوب

المنزل ، ولكنه كان قد بلغ من شـدة الفزع من الوحدة وضوء المصباح الوحيـد الخافت وهـذه الغرفة الغريبـة أنه حين دخلت عليـه ارتعش وانتفض وصرخ . فهرعت اليه ، فلما عرف أن القادم عليه هو أنا ، أخذ يقبّلني ودموع الفرح تنهمر من عينيه .

ـ قيل لى انك تركت هذا البيت ، قيل لى انك خفت ففررت !

ـ من قال لك هذا ؟

ـ من ؟ دعنا ! لعلني أنا الذى تخيلته . ولعل أحداً قاله لى أيضاً . لقد حلمت منذ قليل حلماً : رأيت شيخاً ملتحياً يدخل علىّ فجأة وفى يده أيقونة محطومة نصفين ، ويقول لى : « هكذا ستتحطم حياتك ! » .

ـ لابد أن أحداً أعلمك أن فرسيلوف قد كسر أمس أيقونة !

ـ « أليس كذلك ؟ » ، نعم ، نعم ، علمت هـذا . علمته فى هـذا الصباح من داريا أونيسيموفنا . لقد نقلت الى هنا حقيبتى وكلبى .

ـ يا له من حلم غريب !

ـ وتصور أن هذا الشيخ كان لا ينفك يهـددنى بأصبعه . ولكن أين آنا آندريفنا ؟

ـ ستأتى حالاً .

هتف يسأله بألم :

ـ من أين ؟ الى أين ذهبت ؟

ـ لا ، لا ، ستكون هنـا حالاً . لقد طلبت منى أن أبقى معك لحظة .

ـ « نعم » ، ستجىء . اذن جُنّ صاحبنـا آندره بتروفتش ، « وبهذه المباغتة ، وبهذه السرعة ! » . لطالما تنبأت له بأنه سينتهى هـذه النهاية . اسمع يا صديقى ...

قال ذلك وأمسك ردنجوتى وشدنى اليه ، وهمس :

ـ جاءنى المؤجـر منذ قليل بصور فوتوغرافية ، صور فوتوغرافية قذرة ، صور نساء .. نساء عاريات .. بأوضاع شرقية مختلفة .. وأخذ يرينى الصور فى الضوء . فأخذت أنا أمدح له الصور طبعاً ، على مضض وكره . ولكن تلك هى الطريقة التى استعملوها مع ذلك المسكين ليجيئوه بنساء سيئات ، فيسكروه بسهولة أكبر ...

ـ تقصد فون سون أيضاً ! دعنا من هذا يا أمير ! ان المؤجر رجل غبى لا أكثر .

ـ غبى لا أكثر ! « هذا رأيى » . يا صـديقى ، انقذنى من هـذا المكان ان استطعت !

قال ذلك وهو يضم يديه أمامى ضارعاً على حين فجأة . قلت :

ـ سأفعـل كل ما أسـتطيع يا أمير ! أنا لك ... عزيزى الأمير ، انتظر ، قد أدبر جميع الأمور .

ـ « أليس كذلك ؟ » ، سوف نهرب ، تاركين الحقيبة هنا ، حتى يتخيلوا أننا سنعود .

ـ الى أين نهرب ؟ وآنا آندريفنا ؟

ـ لا ، لا ، سنهرب مع آنا آندريفنـــا .. « آه .. عزيزى » .. أحس بغليان فى رأسى . اسمع : ان هناك ، فى الكيس الذى على اليمين ، صورة لكاتيا . لقد دسست الصورة فى الكيس خفية منذ قليل ، حتى لا تراها آنا آندريفنا ، وحتى لا تراها هذه المرأة داريا أونيسيموفنـــا خاصة ! .. أخـرج الصـورة بسرعة ، ناشـدتك الله ، وأحرص على ألا يفاجئنا أحد .. ألا يمكن شد المزلاج فلا ينفتح الباب ؟

نبشت الكيس فوجدت فيه صـــورة فوتوغرافية لكاترين نيقولايفنا

فعلاً ، صورةً ذات اطار بيضــوى ، أخذها الشيخ منى ، وحملهـا الى الضوء ، فأخذت تسيل دمــوع غزيرة على خديه الهزيلتين الشـاحبتين ، وهتف يقول :

ــ « ملاك ، ملاك من الســماء ! » • أذنبت فى حقها طــول حياتى • والآن أيضاً ! « ابنتى العزيزة » أنا لا أصدّق شيئاً ، لا أصدق شيئاً ! قل لى يا صــديقى : هل صحيح أنه يراد ايداعى فى ملجـأ للمجانين ؟ « أقول أشياء حلوة ، فيضحك النـاس كافة » •• ثم يؤخذ هذا الرجـل فجأة الى ملجأ للمجانين •

صحت أقول :

ــ مستحيل • هذا الكلام خطأ • أنا أعرف عواطفها •

ــ أنت أيضاً تعرف عواطفها ؟ رائع ! ••• أحببتنى يا صديقى ! ما أكثر الكلام الذى قالوه لى عنك ! استدع كاتيا الى هنا ، ولتتعانقا كلتاهما أمامى ، فآخذهما الى البيت ، ونطرد المؤجر •

قال ذلك ونهض وضمّ يديه ضارعاً ، ثم ركع أمامى على الأرض فجأة ، وأضاف يهمس بجزع مسعور ، مرتعشاً كورقة فى مهب الريح :

ــ « عزيزى » ، أين سيحشروننى الآن ؟

فهتفت أقول وأنا أُنهضه وأُجلسه على السرير :

ــ ألا تصدقنى أنا أيضـاً ؟ هل تظن أننى أنا أيضاً مشـــارك فى المؤامرة ؟ ألا اننى لن أسمح لأحد هنا أن يلمسك بأصبعه •

فتمتم يقول وهو يشــدُ على كوعىّ بيديه شــداً قوياً وما يزال يرتعش :

ــ « نعم » ، لا تسمح لأحــد ! لا تسلمنى الى أحــد ! وأنت أيضاً

لا تكذب عليّ .. لأنه .. هل يمكن أن يقتادونى من هنا ؟ اسمع : هذا المؤجر هيبوليت ... أو ما اسمه ؟ هل هو ... طبيب ؟

ـ دكتور ؟

ـ وهنا ... أليس هنا ملجأ مجانين ، هنا ، فى هذه الغرفة ؟

ولكن البـاب فُتح فى تلك اللحظة و دخلت آنا آندريفنا . لاشك أنهـا كانت تتصنت وراء الباب ، ثم نفد صبرها ففتحت فجأة ، فاذا بالأمير الذى كان يرتجف من أيسر صرير ، اذا به يصرخ فجأة ويغطس رأسه فى وسـادته ، ثم اذا هو يعانى ما يشـبه أن يكون نوبة عصبية انتهت ببكاء يصحبه نشيج . قلت لها وأنا أشير الى الشيخ :

ـ انظرى الى ثمرة عملك الجميل !

فقالت رافعةً صوتها :

ـ بل هذه ثمرة عملك أنت . انى أتوجه اليك آخر مرة يا آركادى ماكاروفتش : هل تريد أن تكشف عن المؤامرة الجهنمية التى دُبِّرت لهذا الشيخ الذى لا يملك ما يدافع به عن نفســه ، وأن تضحى « باحلام حب جنونى صبيانى » فى سبيل أن تنقذ « أختك أنت » ؟

ـ سأنقذكم جميعاً ، ولكن على الوجه الذى ذكرته لك من قبل ! اخـرج الآن بسرعة ، فقد أستطيع أن أجيء بكاترين نيقولايفنا الى هنـا بعد ساعة ، فأصلح ما بينكم جميعاً ، وتسعدون جميعاً !

كذلك هتفت كالملهم .

قال الأمير وقد ثاب الى نفسه أخيراً :

ـ جيء بهـا ، جيء بها الى هنـا . خذنى الى بيتها ! أريد كاتيا ، أريد أن أرى كاتيا وأن أباركها .

أضاف ذلك هاتفاً وهو يرفع ذراعيـــه ، وينهض عن سرير
فقلت لآنا آندريفنا وأنا أشير اليه :

ـ هل ترين ؟ هل تسمعين ما يقول ؟ الآن لن تنقذك أية وثيقة ،
يكن من أمر !

ـ أرى . ولكن الوثيقة لا تزال تستطيع أن تسوّغ سلوكي في
المجتمع ، أما الآن فأنا مجللة بالخزي والعار ! على أن ضميري نقي .
تركني الجميع ، حتى أخي الذي خشي الاخفـاق ... لكنني ســأ
بواجبي ، وسأبقى بقرب هذا المسكين خادمةً وممرضة .

ولكن لم يكن ثمة وقت يمكن اضاعته . فخرجت من الغرفة مسرع
وصرخت من العتبة قائلاً :

ـ سأرجع بعد ساعة ، ولن أرجع وحيداً .

الفصل الثاني عشر

١

أخيراً

وجدت تاتيانا بافلوفنا! فاندفعت أروى كل شيء دفعة واحدة ، فحكيت لها قصة الوثيقة من أولها الى آخرها ، وحدثتها عما يجرى عندنا تفصيلا . وقد استغرق هذا العرض زهاء عشر دقائق رغم أنها فهمت من تلقاء نفسها فهما كاملا، وأنها كانت قادرة على أن تدرك القضية بكلمتين. كنت وحدى أتكلم ، فقلت الحقيقة كلهاولم أخجل . وكانت هى صامتة ساكنة منتصبة الجذع كوتد ، وبقيت جالسة على كرسيها مزمومة الشفتين لا تحول عنى عينيها ، وتصغى الى كلامى بكل ما تملك من قوة الاصغاء . ولكن ما أن أنهيت حديثى حتى وثبت عن مكانها فجأة ، وبلغت من سرعة الوثوب أننى وثبت أنا أيضا ، وانطلقت تقول :

ـ آ ... يا وغد ! ... اذن كانت تلك الرسالة مخيطة فى جيبك .. خاطتها تلك البنية الحمقاء ماريا ايفانوفنا ! آه يا نذل ، يا سافل ! اذن جئت الى هنا لتسيطر على القلوب ، ولتغزو المجتمع الراقى ، ولتلحق الأذى بأى انسان انتقاما لكونك ابن زنا .

صحت أقول لها :

ـ تاتيانا بافلوفنا، اننى أمنعك من شتمى، ولعلك أنت، بشتائمك، منذ البداية ، كنت سبب استعار نفسى هنا. نعم، أنا ابن زنا ، ولعلنى أردت فعلا أن انتقم لنفسى من ذلك بايذاء أى انسان ، مادام الشيطان

نفسه عاجزاً عن معرفة المذنب فى هذا ! ولكن تذكرى أننى نبذت تحالفى مع الأوغاد ، وأننى انتصرت على أهوائى الجامحة ! سوف أضع الوثيقة أمامها دون أن أقول كلمة ، وسوف أنصرف حتى دون أن أنتظر منها هى كلمة ، وستكونين على ذلك شاهدة .

أعطنيها ، أعطنى الرسالة ، واعطنيها حالا ، ضعها هنا على المائدة ! من يدرى ؟ لعلك تكذب !

ـ هى مخيطة فى جيبى . ماريا ايفانوفنا خاطتها بيدها . فلما صُنع لى هنا ردنجوت جديد ، سللتها من الردنجوت القديم وأعدت خياطتها بنفسى فى هذا الردنجوت . هى ذى ، هنا ، أمسكيها ، جسّيها ، لست أكذب !

فأجابت تاتيانا بافلوفنا تقول بحماسة :

ـ أعطنيها اذن ! اسحبها !

ـ مستحيل . سأضعها أمامها بحضورك ، وسأنصرف بدون أن انتظر منها كلمة واحدة . ولكن يجب أن تعرف وأن ترى بعينيها أننى أنا ، أنا نفسى ، الذى أردُّها اليها ، بارادتى ، من غير اكراه ، وبدون جزاء .

ـ افتخاراً بنفسك ! انك لاتزال مولّها بالحب أيها الغر !

ـ صفينى بما تشائين من نعوت سيئة . اننى استحق ذلك كله . ولن أزعل . لتحسبنى صبياً ترقبها وتخيل مؤامرة عليها . لتحسبنى ما تشاء . ولكن فلتعترف بأننى سيطرت على نفسى ، وفضّلت سعادتها « هى » على كل شىء فى هذا العالم ! سيان يا تاتيانا بافلوفنا ، سيان ! اننى أهيب بنفسى قائلاً : عليك بالشجاعة وعليك بالأمل ! لعل هذه خطوتى الأولى فى الحياة ، ولكنها خطوة انتهت نهاية حسنة ، نهاية نبيلة !

وتابعت أقول كالملهم وقد سطعت عيناى :

ـ ثم ... هبى أننى أحبها . لست أشعر من هـذا بخجل : ان ماما ملاك من السماء ، و « هى » ملكة فى الأرض ! وسيمود فرسيلوف الى ماما ... فلست فى حاجـة الى الخجل . لقد سمعت ما قالاه هناك ـ « هى » وفرسيلوف ـ فقد كنت وراء الستارة . آه .. نعم .. اننا نحن الثلاثة « مصابون بجنون واحـد » . هل تعلمين من قال هـذه الجملة ؟ انه هو ، آندره بتروفتش ! وهل تعلمين أننـا قد نكون هنـا أكثر من ثلاثة ، نحن معشر المصابين بهذا الجنون نفسه ؟ نعـم ، أراهن أنك الرابعة ! هل تريدين أن أقول لك ما أعتقد به : أراهن أنك أنت أيضاً قد تولهت طـوال حيـاتك بحب آندره بتروفتش ، وأنك ما تزالين مولّهة بحبه الى اليوم ...

أعود فأقول اننى كنت أتكلم كالملهم تدفقاً ، وكنت سعيداً ، ولكننى لم أستطع أن أتمّ كلامى ، فهاهى ذى تاتيانا بافلوفنـا تمسك شعرى بحركة سريعـة سرعة خـارقة ، فتحنى رأسى الى الأرض مرتين ، بكل ما تملك من قوة ... ثم تتركنى حيث أنا ، وتنسـحب الى ركن ، فتضع وجهها على الجدار مغطى بمنديلها ، وتقول لى باكية :

ـ سافل ! لا تقل لى مثل هذه الأشياء بعد الآن .

كان ذلك أمراً لا يمكن توقعه ، فشدهت أشد الشده . وبقيت متسمراً فى مكانى أنظر اليها ولا أدرى ماذا يجب أن أعمل .

واستأنفت كلامها فقالت ضاحكة باكيةً فى آن واحد :

ـ غبى ! تعال ! تعال قبّل صديقتك العجوز البلهاء ! ولا تكرر هذه الأشـياء بعد اليوم أبداً . انى أحبك أنت ، ولقد أحببتك طول حياتى .. يا أبله !

قبّلتها • وأحب أن أقول مستطرداً اننا ـ أنا وتاتيانا بافلوفنا ـ قد أصبحنا منذ تلك اللحظة صديقين حميمين •

وهتفت تقول فجأة وهى تلطم جبينها :

ـ ولكن ما بقائى هنا ؟ قلت لى ان الأمير العجوز فى بيتك ؟ هذا صحيح ؟

ـ أؤكد لك •

فجمجمت تقول وهى تركض فى الغرفة كفأرة :

ـ آه ••• رباه ! لشدما يوجع قلبى ! هكذا يعاملونه اذن منذ الصباح ! ان البلهاء لا يعاقبون اذن قط ! هل ارتاحت الآن آنا آندريفنا ؟ يا لها من راهبة ! والأخرى ، الـ « ميليتريا » ، لا تعرف شيئاً !

ـ ما ميليتريا ؟

ـ الملكة فى الأرض ، المثل الأعلى ! ما العمل الآن ؟

هتفت أقول وقد ثبت الى رشدى :

ـ تاتيانا بافلوفنا • لقد استرسلنا فى سخافات ، ونسينا الشىء الأساسى : لقد جئت باحثاً عن كاترين نيقولايفنا ، وهم ينتظروننى هناك !

وشرحت لها أننى سأسلّم الوثيقة الى كاترين نيقولايفنا مشترطاً عليها أن تعدنى بمصالحة آنا آندريفنا فوراً ، بل بالموافقة لها على زواجها •••

فقاطعتنى تاتيانا بافلوفنا قائلة :

ـ هذا حسن جداً • أنا أيضاً كررت عليها هذا مائة مرة • ذلك أنه سيموت قبل أن يتم الزواج ؛ انه لن يتزوجها ، واذا أورثها فى وصيته بعض المال ، فلاشك أن هذا كتب فى الوصية منذ الآن •••

ـ هل المال وحده هو ما تأسف عليه كاترين نيقولايفنا ؟

ـ لا ، وانما هي كانت تخشى دائماً أن تكون الوثيقة عندها ، عند آنا ، وكنت أخشى ذلك أنا أيضاً . فكنا نراقبها هي . كانت البنت لا تريد أن تصدم أباها الشيخ . أما فيما يتعلق بالألماني بيورنج ، فان المال هو ما كانت تأسف عليه حقاً .

ـ وبعد هذا ، هل يمكن أن تتزوج بيورنج ؟

ـ ما حيلتنا مع غبية ؟ الغبي يبقى غبياً طول حياته . على كل حال ، سيهيء لها نوعاً من الهدوء والطمأنينة . « لابد أن أتزوج أحداً ، فأي فرق بينه وبين غيره ؟ » . هذا ما تقوله . وسوف نرى ما يحدث . لسوف تعض على أصابعها ندماً ، ولكن بعد فوات الأوان .

ـ فلماذا تسمحين لها بهذا ؟ انك تحبينها ، حتى لقد أعلنت لها أنك مغرمة بها .

ـ مغرمة ، نعم ... انني أحبها أكثر مما أحبكم مجتمعين ... ولكن هذا لا ينفي أنها بلهاء جداً !

ـ هلمي اليها حالاً . سنتخذ قراراً ونقودها الى أبيها .

ـ ولكن هذا مستحيل ، مستحيل يا غبي ! هذا بعينه ما هو مستحيل ! آه ... ما العمل ؟ انني أشعر بدوار .

وطفقت تتحرك في الغرفة مضطربة ، ولكنها تناولت معطفها .

قالت :

ـ آه ... لو أنك أتيت قبل أربع ساعات ... الساعة الآن هي السابعة وتزيد قليلاً . لقد ذهبت الى آل بلتشيف تتغدى عندهم ، ثم تصحبهم الى الأوبرا .

ـ فماذا لو ركضنا الى الأوبرا ؟ .. لا .. هذا مستحيل . ولكن ما عسى يحدث للعجوز ؟ انه قد يموت في هذه الليلة .

ـ اسمع . لاتذهب الى هناك ، بل اذهب الى ماما ، وغداً ، فى ساعة مبكرة من الصباح ...

ـ لا ، مستحيل ، لن أترك الأمير بحال من الأحوال مهما يحدث !

ـ انك على حق . لا تتركه . ولكننى أنا ... سأجرى اليها رغم كل شىء ، فأترك لها كلمة ... سأكتب برموزنا الخاصة (وستفهم هى) أن الوثيقة موجودة ، وأن عليها أن تجىء الىَّ حتماً فى الساعة العاشرة تماماً من صباح الغد . اطمئن . ستجىء . ستسمع لى . وعندئذ سنسوِّى كل شىء . اذهب أنت الآن الى هناك ، ودبِّر أمرك مع العجوز ... أرقده ... فقد يقاوم الموت الى الغد . ولا ترعب آنا آندريفنا . ذلك أننى أحبها هى أيضاً . أنت تظلمها لأنك لا تستطيع أن تفهم : لقد أوذيت وأهينت ، أوذيت وأهينت منذ طفولتها . آه .. ما أكثر ما رأيت منكم جميعاً ! ولكن لا تنس أن تقول لها على لسانى انى سأتولى الأمر بنفسى ، فأمسكه بيدى سعيدة بذلك ، ولتطمئن بالاً فلن تصاب كبرياؤها بسوء . ذلك أننا تشاجرنا فى الأيام الأخيرة ، وتشاتمنا ! فاركض اليها .. بل انتظر .. أرنى جيبك .. هل ما قلته صحيح ؟ صحيح حقاً ؟ هه ؟ هل هو صحيح حقاً ؟ أعطنى الرسالة اذن ، أبقيها معى هذه الليلة فحسب . هل فى هذا ما يضرك ؟ اتركها عندى . لن آكلها . من الجائز أن تضيِّعها فى هذه الليلة .. أو أن تغيِّر رأيك !

ـ مستحيل ! أمسكى ، جسِّى ، شوفى ! لكننى لن أتركها لك بحال من الأحوال .

جسَّت تاتيانا بافلوفنا جيبى بأصابعها ، فقالت :

ـ ثمة ورقة حقاً . طيب . اذهب . هيَّا . وسأذهب أنا الى المسرح. فكرتك تلك حسنة . ولكن اركض ، ما بالك لا تركض .

ـ تاتيانا بافلوفنا ، لحظة ! كيف حال أمى ؟

ـ حسنة .

ـ وآندره بتروفتش ؟

فحركت يدها باشارة تهرّب ثم قالت :

ـ سيسترد عقله .

فانصرفت مسرعاً وقد تشجعت وامتلأت نفسى رجاءً وأملاً ، رغم أن النتيجة كانت غير ما توقعت .

ولكن القدر كان قد شاء أن تجرى الأمور مجرى آخر ، وكنت أجهل ما هيأه لى . حقاً ان على هذه الأرض قدراً .

٢

سمعت فى بيتنا جلبة ، وأنا على السلم • كان باب البيت مفتوح
وفى الدهليز كان يقف خادم بملابس رسمية • وكان بطرس هيبوليتوف
وامرأته واقفين كذلك فى الدهليز ينظران مذعورين • ان باب غـ
الأمير مفتوح : وفى داخل الغرفة يجلجل صوت راعد سرعان ما عرفت
انه صوت بيورنيج • وما ان خطوت خطوتين حتى رأيت بيورنيج يج
الأمير الى الدهليز ، هو ورفيقه البارون « ر ••• » الذى سبق أن
يفاوض فرسيلوف • كان الأمير غارقاً بدموعه ، يرتجف ويشهق ويع
بيورنيج ويقبّله • وكان بيورنيج يزعق صارخاً فى وجه آنا آندريفنا ا
خرجت هى أيضاً الى الدهليز تتبع الأمير • وكان بيورنيج يهدد
ويتوعدها ، وأظن أنه كان يضرب الأرض بقدمه • الخلاصة أنه
يتصرف تصرف جندى ألمانى فظ ، رغم كل « المجتمع الراقى الذ
ينتمى اليه » • وقد عُرف فيما بعد أنه اعتقد أن آنا آندريفنا قد ارتك
جريمة من جرائم الحق العام ، وأنها يجب أن تحاسب الآن على هـ
الجريمة أمام القضاء • كان من جهله بالقضية يضخمها ويبالغ فيها ، ك
يحدث هذا لكثير من الناس ، لذلك كان يرى أن من حقه أن يتصر
دون اكتراث بأى شىء ، ودون مراعاة لأى اعتبار • لا سيما وأنه
يتح له الوقت الكافى لتعمق المسألة : لقد وصلته رسالة غير مذيلة بتوق
صاحبها ، تبلغه كل شىء ، كما ظهر ذلك من بعد (وكما سأذكر ب
قليل) ، فهرع وهو على هذه الحالة من الغضب المسعور التى يمك
أن ينحدر اليها وينقاد لها أرقى الناس فكراً من أبناء هذا الشعب الألمانى

فاذا هم لا يفوقون فى سلوكهم اسكافياً من الاسكافيين • وقد استقبلت آنا آندريفنا هذه الهجمة بوقار كبير ، لكننى لم أشهد هذا • وانما رأيت بيورنج ، بعد أن جر العجوز الى الدهليز ، يسلمه فجأة الى البارون « ر ••• » ، ثم يرجع مسرعاً نحو آنا آندريفنا فيرشقها بالجملة التالية (ربما جواباً على ملاحظة منها) :

ـ أنت محتالة متآمرة • ان ما تريدينه هو ماله ! فاعلمى أنك منذ هذه اللحظة قد تلطخ شرفك فى المجتمع ، وأنك ستحاسَبين أمام القضاء ! •••

ـ أنت الذى تستغل مريضاً مسكيناً بعد أن دفعتموه الى الجنون دفعاً ••• ثم تجىء تنتقم منى لأننى امرأة ليس لها من يدافع عنها •••

فقال بيورنج ساخراً غاضباً ، بلهجة سيئة :

ـ آ •• نعم •• أنت خطيبته ، خطيبته ! ••

قال الأمير دامع العينين :

ـ بارون ••• بارون •••

ثم أضاف وهو يمد يديه نحو آنا آندريفنا :

ـ « أحبك يا ابنتى العزيزة » !

فصرخ بيورنج قائلاً :

ـ دعك يا أمير ، ان هناك مؤامرة عليك ، وربما على حياتك !

ـ « نعم ، نعم ، أفهم ، فهمت منذ البداية » •••

قالت آنا آندريفنا رافعة صوتها :

ـ أمير ، انك تهيننى ، وتسمح لغيرك بأن يهيننى !

فصرخ بيورنج قائلا لها فجأة :

ـ اخرجي من هنا !

فلم أستطع صبراً . فزأرت أقول له :

ـ وغد .

وأضفت أخاطبها :

ـ أنا آندريفنا ، أنا أدافع عنك .

ليس في نيتي ولا في وسعي أن أسجل جميع التفاصيل . لقد كان مشهداً رهيباً دنيئاً . فقدت صوابي فجأة . أظن انني هجمت عليه فضربته ، أو صدمته صدمة قوية على الأقل . فضربني على رأسي بكل ما أوتي من قوة ، فاذا أنا أسقط على الأرض . فلما ثبت الى نفسي ، اندفعت اطاردهم على السلم . أذكر أن الدم كان يسيل من أنفي . وكانت تنتظرهم عند الباب عربة ففيما كانوا يركبون الأمير ، وثبت الى العربة ، وهجمت مرة أخرى على بيورنج رغم أن الخادم كان يبعدني وينحيني . لا أتذكر الآن كيف وصلت الشرطة . ولكن بيورنج أمسك ياقتي وأصدر الى الشرطي أمراً صارماً بأن يقتادني الى المخفر . فصرخت أقول ان من الواجب أن يجيء هو أيضاً الى المخفر لتسجيل محضر ، وانه ليس من الحق أن أعتقل وأنا في بيتي تقريباً . ولكن لما كان المشهد قد حدث في الشارع لا في البيت ، ولما كنت أصرخ وأشتم وأتخبط كسكران ، ولما كان بيورنج مرتدياً بزته العسكرية ، فقد قبض عليَّ الشرطي ، فاذا أنا يجن جنوني فعلاً ، فأقاوم الشرطي بكل ما أملك من قوة ، حتى لقد ضربته فيما أظن . وأتذكر أن اثنين وصلا بعد ذلك ، فاقتاداني . ولكنني لا أكاد أتذكر كيف أدخلت الى غرفة يملؤها الدخان ، وتفسد جوَّها رائحة التبغ ، ويحتشد فيها أنواع من الأشخاص بعضهم قاعد وبعضهم واقف ، بعضهم ينتظر وبعضهم يكتب . وهناك أيضاً ظللت أزعق مطالباً بكتابة محضر ، فبذلك تعقدت القضية اذ دخلها

عنصر مقاومة السلطة والتمرد عليهـا . وكان هندامي قد سـاء كثيراً . ونهرني أحدهم نهراً عنيفاً . وأخذ شرطي يتهمني بمشاجرة استعملت فيها الضرب ، وطفق يحكي القصة فقال : كان كولونيل ... الخ ...

صرخ أحدهم يسألني :

ـ ما اسمك ؟

فزعقت أقول :

ـ دولجوروكي .

ـ الأمير دولجوروكي ؟

فأخرجني هذا السـؤال عن طوري وأفقدني رشـدي ، فأجبت بشتائم فاحشـة .. ثم .. ثم .. أتذكر أنني جُررت الى حجرة مظلمة « لأفيق من سـكري » . لا ، لست أحتج . لقد قرأ جميع النـاس في الصحف في الآونة الأخيرة شـكوى سـيد قضى ليلة كاملة في المخفر ، وكبِّل بالسلاسل في غرفة « الصحو من السكر » ، وكان ذلك الرجل بريئاً براءة تامة ، أما أنا فقد كنت مذنباً . تهالكت على مرقد الى جانب شخصين كانا نائمين كجثتين هامدتين من فرط السـكر . كنت مصـاباً بصداع ، وكان صدغاي ينبضـان ، وكان قلبي يدق دقاً قوياً . وأغلب الظن أنني قد أغمي عليّ ، وأخذت أهذي . لكنني أتذكر انني استيقظت في وسط الليل ، فجلست على المرقد ، فتذكرت فجأة كل شيء ، وأدركت كل شيء ، فجعلت كوعيّ على ركبتيّ ، ووضعت رأسي بين يـدي ، وغرقت في تفكير عميق .

لا ، لن أصف هنا عواطفي ، فليس في الوقت متسع لذلك . ولكنني أريد أن أسجل ما يلي : لعلني لم أعش في حياتي كلهـا لحظات أحفـل بالفرح من تلك الدقائق التي قضيتها مفكراً ، في الليـل العميق ، عـلى المرقد الحجري ، بمخفر الشرطة . قد يبـدو هذا للقـارىء أمراً غريبا

شاذاً ، وقد يحسبه تبجحا وتفاخـراً ، وقد يعده رغبـــة فى الاغـراب والتفرد .ولكن ما أقوله هو الحقيقة . تلك لحظة من اللحظات التى قد يمر بها كل انسان ، ولكن مرةً واحدة فى حياته . ففى تلك اللحظة يقرر مصيره ، ويحدد آراءه ، ويقول لنفسه الى الأبد : « انظر أين هى الحقيقة ، وانظر أين يجب أن تنشدها » . نعم ، لقد أضاءت تلك اللحظة نفسى . كنت أعلم حق العلم ، بعد أن أهاننى ذلك الرجل الوقح بيورنج، وبعد أن أيقنت أن تلك المرأة التى تنتمى الى المجتمع الراقى ستهيننى أيضاً فى الغد ، كنت أعلم حق العلم أننى أستطيع أن أنتقم انتقاماً رهيباً ، ولكننى قررت ألا أنتقم . وقررت ، رغم الاغراء ، ألا أكشف عن الوثيقـة ، وألا أطلع عليهـا الناس (كمـا كانت تدور هـذه الفكرة فى رأسى) ، وأخذت أكرر على نفسى أننى سأضع الوثيقـة أمامهـا منذ الغد ، وأننى قد لا أحظى منها بكلمة شـكر بل بابتسـامة سخر ، غير أننى ، رغم كل شىء ، لن أقول كلمة واحدة ، وسأتركها الى الأبد ... ولكن لا داعى الى الالحاح . أما ما سيحدث غداً حين أساق الى السلطات ، وما سيصنع بى ، فذلك أمر نسيت تقريبـاً أن أفكر فيه . ورسمت على نفسى اشارة الصليب بارتياح ومحبة ، واضطجعت على المرقد ، ونمت نوماً مضيئاً كنوم الأطفال .

ولم أستيقظ فى الغد الا ضـحى . أنا الآن فى الحجـرة وحيد . جلست . وأخذت أنتظر صامتـاً . انتظرت مدة طويلة . قرابة ساعة . وأغلب الظن أن الساعة كانت قد بلغت التاسعة حين نوديت . فى وسعى أن أذكر تفاصـيل كثيرة . ولكن لا داعى الى ذلك ، مادامت هذه القصة كلها قد انتهت الآن . وحسبى أن أشير الى الشىء الأساسى . ما كان أشد دهشتى حين رأيتهـم يعاملوننى بدماثة غير معهـودة : ألقوا علىَّ بضـعة أسـئلة ، أجبت عنهـا بما لا أتذكره الآن ، ثم أطلقوا سراحى فوراً . خرجت صامتاً . وقد ارتحت أشد الارتياح حين قرأت فى أعينهم دهشتهم من رجـل عرف كيف لا يفقد شيئاً من وقاره فى مثل الظرف الذى هو

فيه • لقد رأيت هذه الدهشة ، ولولا أنني رأيتها لما سجلتها • وكانت تاتيانا بافلوفنا تنتظرني أمام الباب • وسأشرح الآن كيف أمكن اخلاء سبيلي بمثل هذه السهولة •

في ساعة مبكرة من الصباح ، في نحو الساعة الثامنة ، هرعت تاتيانا بافلوفنا الى بيتي ، أعني الى بيت بطرس هيبوليتوفتش ، آملةً أن تجد الأمير هناك ، فاذا هي تعلم بكل ما وقع في الليلة البارحة من أهوال ، واذا هي تعلم خاصةً بأنني اعتقلت • فما هي الا طرفة عين حتى كانت عند كاترين نيقولايفنا (التي التقت بأبيها منذ الليلة البارحة عند عودتها من المسرح ، اذ جيء به الى بيتها) ، فأيقظتها من نومها ، وأخافتها ، وطالبت بالافراج عني فوراً • فزوّدتها كاترين نيقولايفنا ببطاقة طارت بها فوراً الى بيورنيج تطلب منه بطاقة أخرى في الحال ، موجهةً الى « من يهمه الأمر » ، مشتملةً على « رجاء الافراج عني بغير ابطاء لأنني اعتقلتُ خطأ » • وبهذه البطاقة وصلت الى مخفر الشرطة ، فتمت تلبية الرجاء •

٣

الآن أعود الى النقطة الأساسية •

أمسكت تاتيانا بافلوفنا ذراعي ، وأركبتني عربة ، وقادتني الى بيتها • وهنـاك أمرت بسـماور الشـاي حالاً ، ورتبت هندامي ، ونظفتني في المطبخ • وفي ذلك المطبخ نفسه قالت لي بصوت عال ان كاترين نيقولايفنا ستصل اليها بنفسها في الساعة الحادية عشرة والنصف لتراني (اتفقتا على ذلك منذ قليل) • وقد سمعت ماري هذه الكلمـات • فجاءتنـا بالسـماور بعد دقيقـة ، ولكن حين نادتهـا تاتيانا بافلوفنـا بعـد دقيقتين ، لم تجب ، اذ كانت قد خرجت من البيت • أرجـو القارىء أن يُبقي هـذا الأمر ماثلاً في ذهنه • أظن أن الساعة كانت في نحو العاشرة الا ربعاً • وقد غضبت تاتيانا بافلوفنـا من غيـاب ماري بدون اذنٍ منها • ولكنهـا قالت لنفسها انها ذهبت الى المتجر ، ثم لم تخطر لها على بال • كان لدينا أشياء أخرى نفكر فيها • كنا نتكلم بدون توقف ، لأن هناك ما نتكلم فيه ، حتى انني لم أنتبه الى اختفاء ماري • ولكنني أرجو القارىء أن يُبقي هذا الأمر ماثلا في ذهنه •

كنت كالمخبول طبعاً • وكنت أتحـدث عن عواطفي • وكنا ننتظر كاترين نيقولايفنا خاصة • وكنت أرتعش حين أتصور أنني سألقاها بعد ساعة ، وأنني سألقاها في مثل هذه اللحظة الحاسمة من حياتي • وأخيراً ، بعد أن حسوت فنجانين من الشاي نهضت تاتيانا بافلوفنا فجأة ، وتناولت المقص من على الطاولة وقالت لي :

ـ هات جيبك • يجب سحب الرسالة الآن • فليس يمكننا أن نقص الجيب بحضورها !

فهتفت أقول وأنا أحل أزرار ردنجوتي :

ـ نعم •

ـ ما هذه الخياطة المشربكة ؟ من خاط هذه الخياطة ؟

ـ أنا يا تاتيانا بافلوفنا ، أنا نفسي !

ـ واضح أنك الذى خطت !

وسحبت الرسالة • كان الظرف هو الظرف نفسه • ولكن لم يكن في الظرف الا ورقة بيضاء •

هتفت تاتيانا بافلوفنا قائلةً وهي تقلب الورقة على جميع الوجوه :

ـ ما معنى هذا ؟ ما هذا الذى معك ؟

كنت واقفاً مشلول اللسان ، أصفر الوجه ••• وتهالكت على الكرسي خائر القوى فجأةً وكاد يُغمى عليَّ :

أعولت تاتيانا بافلوفنا تقول :

ـ وما معنى هذا أيضاً ؟ أين الرسالة ؟

فصرخت أقول بغتةً وأنا انتفض :

ـ لامبير !

لقد حزرتُ أخيراً ، ولطمت جبيني بيدى • وأخذت أشرح لها بسرعة كلَّ شيء ، وأنا متقطع الأنفاس ، فحدثتها عن الليلة التى بت فيها عند لامبير ، وعن المؤامرة التى حكناها حينذاك • وكنت على كل حال قد اعترفت لها بهذه المؤامرة أمس •

صرخت أقول وأنا أقرع الأرض بقدميَّ وأشد شعر رأسى بيدى :

ـ سرقوها منى ! سرقوها منى !

فقالت تاتيانا بافلوفنا وقد أدركت الأمر:

ـ يا للمصيبة ! كم الساعة الآن ؟

ـ الحادية عشرة تقريباً •

ـ ومارى التى ليست هنا ! يا مارى ! مارى !

فأجابت مارى فجأة من قرارة المطبخ :

ـ ماذا تريد مولاتى ؟

ـ أنت هنـا ؟ ولكن ما العمل الآن ؟ سأثب الى عندها •• وأنت يا من لا تصلح لشىء !

ـ انا أذهب الى لامبير • لأذبحنَّه اذا لزم الأمر •

ولكن مارى صاحت تقول من المطبخ :

ـ مولاتى ، ان « واحدة » تسأل عنك •

وما كادت مارى تنهى جملتها حتى دهمتنا تلك « الواحدة » من تلقاء نفسها صارخةً معولة • انها آلفونسين • لن أصف المشهد بجميع تفاصيله • كانت تلك خدعة وأكذوبة ، ولكن يجب أن نعرف لآلفونسين بأنها أجادت التمثيل اجادة هائلة • ردت آلفونسين ، وهى تذرف دموع الندم وتحـرك يديها باشـارات محمومة ، ردت (بالفرنسية طبعاً) أنها هى التى سرقت الرسـالة ، وان الرسـالة الآن عند لامبير ، وأن لامبير ، بالتواطؤ مع ذلك « الرجل الأسود » ، « قاطع الطرق » ، يريد استدراج « السيدة الجنرالة » الى بيته ، ليقتلها فوراً ، بعد ساعة ••• وأنها سمعت هذا كله من فميهما ، فاعتراها ذعر رهيب حين رأت بين يديهما المسدس ، فهرعت الى هنـا ، الينا ، لنذهب معها ، لننقذ كاترين نيقولايفنـا ، لنوقيها القتل ••• « ذلك الرجل الأسود » •••

الخلاصة أن ذلك كله بدا لنا جائزاً جداً ، حتى ان السخافة والحماقة فى بعض شروح آلفونسين كانت تقوّى جوازه •

صاحت تاتيانا بافلوفنا تسألها :

ـ أى « رجل أسود » ؟

ـ « نسيت اسمه •• رجل فظيع •• نعم •• اسمه فرسيلوف » •

فهنفت :

ـ فرسيلوف ؟ مستحيل !

فصرخت تاتيانا بافلوفنا :

ـ بل يمكن أن يفعلها ! ولكن قولى لى يا « سيدة » ، بدون وثب ونط ، وبدون تحريك الذراعين والرجلين ، ماذا يريدان أن يفعلا ؟ اشرحى شرحاً معقولاً : اننى لا أستطيع أن أصدّق أنهما يريدان أن يطلقا عليها الرصاص •••

فأخذت « السيدة » تشرح فقالت (تذكروا أن ذلك كله كان كذباً كما سبق أن نبّهت) ، قالت ان فرسيلوف سيبقى وراء الباب ، وان لامبير سيريها هذه الرسالة ، متى دخلت ، وعندئذ يثب فرسيلوف فـ ••• « فينتقمان منها » • وانها ، هى آلفونسين ، تخشى أن تحل بها كارثة ، لأنها كانت شريكة متواطئة ، ولأن تلك « السيدة الجنرالة » ستأتى حتماً ، « على الفور ، على الفور » ، لأنهما أرسلا اليها نسخة من الرسالة ، فسوف ترى حالاً أن الأصل فى حوزتهما فعلاً ، فلا بد أن تأتى • ولامبير وحده هو الذى كتب لها الرسالة ، فهى لا تعرف شيئاً عن فرسيليف • وقد عرّف لامبير نفسه بأنه رجل أوفدته من موسكو ، سيدة بموسكو (لاحظوا : ماريا ايفانوفنا !) •

صاحت تاتيانا بافلوفنا تقول :

ـ آه •• أشعر بألم فى قلبى •• أحسن بتدهور فى صحتى ! ••

وصرخت آلفونسين :

ـ « أنقذوها ! أنقذوها ! » •

لاشك أن هذا النبأ المجنون يشتمل على كثير من التفكك يدركه المرء حتى من أول نظرة ، ولكن وقتنا لم يتسع للتفكير فيه ، لأنه كان يبدو جائزاً كل الجواز حقاً • وكان فى وسعنا أن نفترض أيضاً أن من المحتمل جداً أن تمر كاترين نيقولايفنا بنا أولاً ، أى أن تجىء أولاً الى بيت تاتيانا بافلوفنا بعد تلقيها دعوة لامبير ، لتستجلى الأمر • ولكن هذا أيضاً يمكن جداً ألا يحدث ، فقد تذهب اليها رأساً ، فتهلك ! •• وكان يصعب على المرء مع ذلك أن يصدّق أن ترتمى هذا الارتماء على رجل مجهول مثل لامبير ، استجابةً لأول نداء منه • ولكن هذا يمكن أن يحدث أيضاً ، بعد أن ترى نسخة الرسالة ، فتقتنع بأن الأصل موجود عنده فعلاً ، فتذهب اليه فتقع الكارثة • وكان الوقت شديد الضيق خاصةً ، فما ينبغى أن نضيع منه دقيقة واحدة فى التفكير •

وهتفت أقول :

ـ لسوف يقتلها فرسيلوف ! اذا كان قد هبط الى حيث يتصل بلامبير ، فلسوف يقتلها حتماً ! انه المثْل !

قالت تاتيانا بافلوفنا وهى تعقف يديها :

ـ آه ! ••• هو « المثْل » • هلمّ بنا • لابد ! خذ قبعتك ومعطفك ، ولنذهب الى هناك معاً • قودينا يا سيدة • آه •• ما أبعد المكان ! يا مارى ، مارى ! اذا جاءت كاترين نيقولايفنا فقولى لها اننى راجعة حالاً ، فلتجلس ولتنتظرنى ، واذا أبت أن تنتظر فأقفلى الباب بالمفتاح ، واحبسيها عن الخروج عنوةً • قولى لها اننى أنا التى أمرت بهذا • سأعطيك مائة روبل يامارى اذا أنت صنعت لى هذا المعروف •

واندفعنا الى السلم • لاشك أن هذا خير ما يمكن عمله ، لأن البلاء الأكبر عند لامبير ، فاذا اتفق أن جاءت كاترين نيقولايفنا الى تاتيانا بافلوفنا أولاً ، فسيكون في وسع مارى أن تحتجزها • ومع ذلك فان بافلوفنا غيرت رأيها فجأة ، رغم أنها كانت قد نادت حوذياً • قالت وهى تتركنى مع آلفونسين :

ـ اذهب أنت معها • ومت هناك اذا لزم الأمر ، هل تفهم ؟ وسألحق أنا بك • أما الآن فانني سأثب الى بيتها ، فقد أجدها هناك ، لأن الشكوك لا تزال تساورنى ، مهما تقل !

وطارت الى بيت كاترين نيقولايفنا • وركضنا أنا وآلفونسين الى بيت لامبير • كنت أستحث الحوذى على الاسراع ، وأستمر في القاء الأسئلة على آلفونسين في الوقت نفسه ، ولكن آلفونسين أصبحت لا تجيب الا بصيحات وتأوهات ، وطفقت تبكى آخر الأمر • ولكن القدر كان يحرسنا ، فحمانا جميعاً حين كان كل شيء معلقاً بخيط واهن • فما ان قطعنا ربع الطريق حتى سمعت صرخة ورائى تنادينى باسمى على حين فجأة ، فالتفت ، فاذا أنا أرى دتريشاتوف يلحقنا بعربة • صاح مرتاعاً :

ـ الى أين ؟ ومعها ، مع آلفونسين ؟

فصحت أقول له :

ـ لقد صدقت فيما قلت يا تريشاتوف : ان كارثة ستقع ! انني ذاهب الى ذلك الوغد السافل لامبير ! فتعال معى ، فيكون عددنا أكبر !

فصرخ تريشاتوف قائلاً :

ـ بل ارجع ، ارجع حالاً • لامبير يكذب ، وآلفونسين تكذب أيضاً • المجدور هو الذى أرسلنى • ليسا في البيت : لقد لقيت لامبير وفرسيلوف منذ هنيهة • لقد ذهبا الى بيت تاتيانا بافلوفنا ••• وهما الآن هناك •••

أوقفت العربة ، وقفزت الى عربة تريشاتوف • مازلت لا أدرى كيف اتخذت ذلك القرار فجأة ، ولكننى صدّقت تريشاوف ، فسرعان ما عزمت أمرى • أخذت آلفونسين تطلق صرخات رهيبة ، ولكننا تركناها فلا أدرى هل تبعتنا أم هى رجعت الى بيتها • ولكننى لم أرها بعد ذلك على كل حال •

وفى العربة ، أفضى الىّ تريشاتوف ، كيفما اتفق ، وهو يلهث ، بأن مكيدة قد دُبِّرت ، وأن لامبير اتفق مع المجدور ، ولكن المجدور خان لامبير فى آخر دقيقة ، فأرسله ، هو تريشاتوف ، الى تاتيانا بافلوفنا ليبلغها أن عليها ألا تصدّق لامبير وآلفونسين • وأضاف تريشاتوف أنه لا يعرف غير هذا ، لأن المجدور لم يزد على ذلك شيئاً ، لأن وقته لم يتسع لمزيد من الايضاح ، ولأنه كان على عجلة من أمره هو أيضاً ، لأن القضية كلها توجب الاسراع • وتابع تريشاتوف كلامه فقال : « رأيت أنك ذهبت فجريت أتبعك » • كان واضحاً اذن أن المجدور يعرف كل شىء هو أيضاً ، مادام قد أرسل تريشاتوف الى بيت تاتيانا بافلوفنا رأساً • ولكن هذا كان لغزاً آخر •

ومن أجل ألا تختلط الأفكار ، سوف أعمد الآن ، قبل وصف الكارثة ، الى شرح الحقيقة الصادقة كلها ، مستبقاً الأحداث آخر مرة •

٤

بعد أن سرق لامبير الرسالة أسرع يتصل بفرسيلوف • أما كيف أمكن لفرسيلوف أن يتفق مع لامبير ، فهذا ما لا أقوله الآن ، وانما أرجئه الى حينه • انه « المثل » على كل حال ! ولكن كان على لامبير ، بعد أن تحالف مع فرسيلوف ، أن يستدرج كاترين نيقولايفنا بأسلوب حاذق بارع •• لقد كان فرسيلوف يؤكد له أنها لن تأتى • ولكن لامبير ، منذ أن لقيته فى الشارع امس الأول ، وأعلنت له متباهيا متفاخراً أننى سأرد الرسالة الى كاترين نيقولايفنا فى بيت تاتيانا بافلوفنا وبحضور تاتيانا بافلوفنا ، قد أقام نوعاً من الرقابة على شقة تاتيانا فافلوفنا : اذ اشترى مارى بعشرين روبلا • وغداة غد ، بعد ان تمت سرقة الرسالة ، زار مارى مرة أخرى ، وتفاهم معها تفاهما كاملا ، اذ وعدها بمائتى روبل ثمنا لما ستقدمه له من خدمات •

ذلكم هو السبب فى أن مارى ما ان سمعت أن كاترين نيقولايفنا ستكون عند تاتيانا بافلوفنا فى الساعة الحادية عشرة والنصف وأننى سأكون أنا أيضاً عندها ، حتى وثبت خارجة من البيت وركبت عربة وأسرعت تحمل النبأ الى لامبير •• هذا بعينه هو ما كان عليها أن تخبر به لامبير ، هذه هى الخدمات التى كان يجب عليها أن تقدمها له • واتفق أن كان فرسيلوف فى تلك اللحظة ذاتها عند لامبير • فما هى الا طرفة عين حتى تخيل تلك الخطة الجهنمية • يقال ان المجانين يكونون فى بعض اللحظات من أوسع الناس حيلة وأعظمهم مكراً •

وكانت الخطة هي أن نستدرج ، أنا وتاتيانا ، الى خارج المسكن بأية وسيلة من الوسائل ، ولو ربعَ ساعة فقط ، ولكن قبل وصول كاترين نيقولايفنا ؛ وأن ينتظراهما في الشارع ، فمتى خرجنا أنا وتاتيانا بافلوفنا دخلا الى البيت الذى ستفتحه لهما مارى ، وانتظرا وصول كاترين نيقولايفنا . وفي أثناء ذلك يكون على آلفونسين أن تحتجزنا بكل ما أوتيت من قوة في أي مكان تشاء ، وبأية وسيلة تراها . واذ أن كاترين نيقولايفنا ستصل في الساعة الحادية عشرة والنصف ، كما وعدت بذلك ، فانها ستصل اذن قبل أن نستطيع نحن أن نعود (طبعاً لم تتلق كاترين نيقولايفنا أية دعوة من لامبير ، لقد كذبت آلفونسين : ان هذه القصة كلها انما كانت من اختراع فرسيلوف بجميع تفاصيلها . ولم تزد آلفونسين على أن مثّلت دور الخائن الذى يخون من شدة فزعه) . ومن الواضح أنهما كانا يتعرضان للاخفاق ، ولكن تفكيرهما كان سليماً : « اذا نجحت الخطة كان بها ، واذا لم تنجح فلا نفقد شيئاً لأن الوثيقة تبقى معنا » . ولكن الخطة نجحت ، وكان لايمكن الا أن تنجح ، لأننا كنا لا نستطيع الا أن نركض وراء آلفونسين مدفوعين بهذا الافتراض : « ماذا لو صحّ ما تقوله ؟ » . أعود فأقول : ان وقتنا لم يتسع للتفكير .

٥

داهمنا المطبخ أنا وتريشاتوف ، فوجدنا مارى شبه ميتة من الخوف .
لقد أرعبها ، حين أدخلت لامبير وفرسيلوف ، أن رأت بين يدى لامبير
مسدسا على حين فجأة . لئن قبلت من لامبير مالا ، فان المسدس لم يدخل
فى حسابها قط . فكانت مضطربة أشد الاضطراب ، فما ان رأتنى حتى
ارتمت علىّ وقالت :

ـ الجنرالة جاءت ، ومعهما مسدس !

قلت آمر تريشاتوف :

ـ تريشاتوف ، ابق أنت هنا فى المطبخ . فمتى صرخْتُ أناديك
هرعتَ الى نجدتى بكل ما أوتيت من قوة .

وفتحت لى مارى باب الدهليز ، فتسللت الى غرفة تاتيانا بافلوفنا ،
الى تلك الغرفة الصغيرة التى ليس فيها مكان الا لسرير تاتيانا بافلوفنا ،
والتى سبق لى ذات مرة أن تنصتُّ منها على حديث . جلست على السرير ،
وأسرعت أزيح الستارة قليلا .

وكان فى الغرفة جلبة منذ ذلك الوقت ، وكان الحديث يجرى
بصوت عال . يجب أن أذكر أن كاترين نيقولايفنا قد وصلت بعدهما
بدقيقة واحدة . وكنت قد سمعت هذه الجلبة وذلك الحديث منذ أن
دخلت المطبخ .

كان الصياح يصدر عن لامبير . كانت هى جالسة على الديوان
وكان هو متسمرا أمامها يصرخ كأبله . اننى أعلم الآن لماذا فقد هدوءه

بهذا الغباء : لقد كان على عجلة من أمره ، كان يخشى ان يفاجأ . وكانت الرسالة فى يده . لكن فرسيلوف لم يكن بالغرفة . وقد تأهبت للوثوب عند أول خطر . وهأنذا أروى معنى الأحاديث التى جرت بينهما ، معناها فحسب . ربما كان هناك أشياء كثيرة لا أتذكرها تذكراً واضحاً . ولكننى كنت عندئذ أشد انفعالا واضطراباً من أن أستطيع حفظها بدقة .

ـ هذه الرسالة تساوى ثلاثين ألف روبل . هل تدهشين ؟ الحق أنها تساوى مائة ألف ، لكننى لا أطلب الا ثلاثين ألفاً .

كذلك قال لامبير بصوت عال ، مندفعاً اندفاعاً رهيباً . فكانت كاترين نيقولايفنا ، رغم ذعرها الواضح ، تنظر اليه بازدراء واحتقار . قالت :

ـ واضح أن ههنا فخاً ، فلست أفهم شيئاً . ولكن اذا كانت تلك الرسالة معك حقاً ..

فقاطعها لامبير قائلا :

ـ خذى ! هى ذى ! انظرى اليها ! انظرى اليها ! ألست هى نفسها ؟ ثلاثون ألف روبل لا تنقص كوبكاً واحداً ..

ـ لست أحمل مالا .

ـ اكتبى سنداً . اليك ورقة . وبعد ذلك تجيئننى بالمال ، وسوف أنتظر أسبوعاً لا أكثر . فمتى جئتنى بالمال رددت اليك السند والرسالة .

ـ انك تكلمنى بلهجة سخيفة . وانك لمخطىء . سوف تؤخذ منك هذه الوثيقة متى شكوتك ..

ـ لمن ؟ هأ هأ هأ ! والفضيحة ؟ والرسالة التى سنطلع عليها الأمير ؟ وكيف يمكن أن تؤخذ منى ؟ اننى لا أحتفظ بوثائق فى بيتى . وسأطلع عليها الأمير بواسطة شخص ثالث . لا تعندى يا سيدتى ، اشكرى

لى اننى لا أطلب الا مبلغاً زهيداً • لو كان فى مكانى رجل آخر لطلب منك خدمات أخــرى تعرفين ما هى ! انهــا الخدمات التى لا ترفض أية امرأة جميلة أن تقدمها فى حالة صعبة وظرف حرج • أعرفت ما هى تلك الخدمات ؟ هأ هأ هأ ! • « أنت امرأة جميلة ! » •

لم تزد كاترين نيقولايفنــا على أن وثبت وثبة واحدة وقد احمرت احمراراً شديداً ، فبصقت فى وجهه • ثم اتجهت بسرعة نحو الباب • فاذا بالأحمق يشهر مسدسه • انه ، وهو الأبله المحدود العقل ، كان مؤمنــا ايمانا أعمى بما سـيكون للوثيقة من أثر ، فلم يدخل فى حســابه نوع المرأة التى يخاطبها ، وذلك لأنه ، كما سبق أن قلت ، يتصور لدى جميع الناس وجود تلك العواطف الدنيئة نفســها التى تملأ قلبه • لقد أثار بفظاظتــه حنق كاترين نيقولايفنــا منذ أول كلمة ، ولعلها ما كانت لترفض تسوية مالية •

أعول يقول وقد ثارت ثائرته من البصقة :

ــ لا تتحركى !

وأمسكها من كتفها وأراها المسدس ، ليخيفها طبعاً • فصرخت وتهالكت على الديوان • فاندفعت أنا الى الغرفة • ولكن ، فى تلك اللحظة نفسها ، دخل فرسيلوف من الباب المتصل بالدهليز (كان ينتظر هناك) ، فلم أكد ألقى نظرة واحـدة حتى كان قد انتزع المســـدس من لامبير ، وأخذ يضربه على رأســه بكل ما أوتى من قوة • فترنح لامبير ، وســقط مغشياً عليه • وكان الدم يسيل غزيراً من جمجمته على السجادة •

أما هى فانها حين أبصرت فرسيلوف ، قد اصفر وجهها اصفراراً شــديداً ، وشخصت اليه ببصرها بضع لحظات مرتاعة أشد الارتياع ، ثم لم تلبث أن أغمى عليها • فارتمى عليها • هذا كله يبدو لى أننى لا أزال

أراه . أتذكر أنني ذعـرت حين رأيت وجهه الأحمـر الذي يشبه أن يكون بلون القرمز ، وحين رأيت عينيه المحتقنتين . واني لأظن أنه ، وقد رآني في الغرفة ، لم يعرفني . ارتمى عليها ، فتناول جسمها الهامد ، وأنهضه بقوة خارقة ، فحملها على ذراعيه بسهولة كأنه يحمل ريشة ، وأخذ يجول بها في الغرفة ، وقد لاح في وجهه الجنون . كانت الغرفة صغيرة ، ولكنه كان يطوف من ركن الى آخـر ، دون أن يدرك لماذا يفعل ذلك . لقد فقد عقله في لحظة . وكان لا ينقطع عن النظر اليها ، عن النظر الى وجهها . وكنت أنا أركض وراءه . كنت خائفـاً من المسـدس خاصة : لقد نسيه في يده اليمنى مصوباً الى رأسها .

ولكنه دفعني مرة بكوعه ، وركلني مـرة أخـرى برجله . وقد أردت أن أنادي تريشـاتوف ، ولكنني خفت أيضا أن أحنق المجنون . واخيرا أزحت الستارة ازاحة تامة على حين فجأة ، وتوسـلت اليه أن يرقدها على السرير . فاقترب ووضعها على السرير ، لكنه تسمر أمامها وحدق الى عينها تحديقا ثابتا مدة دقيقة ، ثم اذا هو يميل عليها فجأة فيقبل شـفتيها الشـاحبتين مرتين . فأدركت أنه قد فقد عقله فقـدا تاما ثم اذا هو يرفع مسدسه ويهم أن يضربها به ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه ، فصوب المسدس الى وجهها ليطلق النار . فأمسكت ذراعه فورا بكل ما أملك من قوة ، وناديت تريشاتوف . أتذكر أننا صارعناه كلانا ، ولكنه استطاع أن يخلص ذراعه وأن يطلق النار على نفسه . لقد كان يريد أن يقتلها ، ثم يقتل نفسه . لكنه ، وقد منعناه من قتلها هي ، صوّب المسدس الى قلبه هو . ولقد استطعت مع ذلك أن أرفع ذراعه الى أعلى ، فاستقرت الرصاصـة في كتفه . وفي تلك اللحظة علت صرخـة . انها تاتيانا بافلوفنـا تدهم الغرفة . ولكن فرسـيلوف كان قد رقد على الأرض مغمى عليه الى جانب لامبير .

الفصل الثالث عشر

١

خاتمة

انقضت على ذلك المشهد قرابة ستة اشهر . ان مياها كثيرة قد جرت تحت الجسور ، وأن أشياء كثيرة قد أثيرت . وبدأت أنا حياة جديدة . وسوف أخلص القارىء من حديثي أنا أيضا .

ان سؤالا قد شغل فكرى حينذاك وظل يشغله مدة طويلة : كيف أمكن لفرسيلوف أن يرتبط بشخص مثل لامبير ؟ وما الهدف الذى كان يرمى اليه ؟ وقد انتهيت الى تفسير الأمور على النحو التالى : انه أثناء تلك الفترة الفاجعة القصيرة ، أعنى اليوم الأخير واليوم الذى سبقه ، كان لا يرمى الى أى هدف محدد ، وانما كان يعصف به ويستولى على عقله اعصار من العواطف المتناقضة . لا أعتقد أنه أصيب بجنون حقيقى ، لا سيما وأنه اليوم ليس مجنونا قط . ولكننى أومن بالمثْل دون تردد . فما « المثْل » ؟ لقد قرأت فى الآونة الأخيرة كتابا لطبيب اختصاصى ، فعرفت أن « المثل » درجة أولى من درجات اختلال عقلى خطير يمكن أن يؤدى الى نهاية محزنة . ولقد أوضح فرسيلوف ، يوم حطم الأيقونة عند ماما ، أوضح بصدق هائل ، آلية « ازدواج » ارادته وعواطفه . اننى ألح على ذلك المشهد . بالمشهد الذى حدث فى بيت ماما ، وتحطيم الأيقونة ، ذلك كله انما حدث بتأثير « المثل » حتما . ومع ذلك أظل أتساءل : ألا يمتزج بفعل التحطيم ذاك ، رمز شرير ما ؟ وأرانى أجيب على هذا السؤال بنعم ، وأعتقد أن

ثمة رمزا الى كره ما كان يساور تلك النسوة من آمال ، وما كن يؤمن به من حقوق ، وما كان يقوم في أذهانهن من رأى • فبالاتفاق مع « المثل » انما حطم الأيقونة • فكأنه كان يقول : « هكذا سيتحطم توقعكن » • نعم ، كان هناك « المثل » ، ولكن كانت هنالك نزوة أيضا • على كل حال ، ذلك تخمين منى •

انه رغم عبادته لكاترين نيقولايفنا كان قد ترسخ في قرارة نفسه شك صادق وعميق فى مزاياها الأخلاقية • فحين رابط وراء الباب كان يتوقع أن يراها تذل نفسها أمام لامبير • ولكن اذا كان يتوقع ذلك ، فهـل كان يريده ؟ أعود فأقول : اننى أومن ايمانا جازما بأنه كان لا يريد شيئا ، بل كان لا يفكر البتة • كانت رغبته كلها هى أن يوجد هناك ، وأن يثبت بعد ذلك ، وأن يقول لها شيئا ما •• وربما •• ربما أن يهينها ، وربما أيضا أن يقتلها ! ••• لقد كان كل شيء فى تلك اللحظة جائزا وممكنا • ولكنه حين وصل مع لامبير كان لايعرف شيئا مما قد يحدث • يجب أن أضيف أن المسدس كان للامبير ، وأن فرسيلوف جاء بغير سـلاح • فلما راى ما رأى من كبرياء كاترين وشممها ، ولما لم يستطع خاصـة أن يحتمل حقارة لامبير الذى كان يهددها ، اندفع الى الغرفة ، وعندئذ انما فقـد عقله • هل كان يريد أن يطلق عليهـا الرصاص فى تلك اللحظة ؟ أنا أعتقد أنه كان لا يعرف من ذلك شيئا هو نفسه ، ولكن لا شك فى أنه كان سيطلق النار لولا أننا أمسكنا ذراعه •

ولم يكن الجرح الذى أصيب به قاتلا • • فقد شفى ، ولكن بعد أن بقى فى السرير مدة طويلة ، عند ماما طبعا • نحن الآن ، أثناء كتابة هذه الكلمات ، فى فصل الربيع ، فى منتصف شـهر أيار (مايو) • النهار رائع • ونوافذنا مفتوحة • ماما جالسة الى جانبه • وهو يلاعب خديهـا وشعرها وينظر الى عينيها بحنان • ليس هو الآن الا نصف ما كان فرسيلوف من قبل • أصبح لا يترك ماما ، ولن يتركها أبدا • حتى لقد أوتى « موهبة

ذرف الدموع » ، على حــد تعبير ماكار ايفانوفتش الذى لا يُنسى ، فى قصته عن التاجر • ويخيل الىَّ من جهة أخرى أن فرسيلوف سيعمر طويلا• هو الآن معنا بسيط كل البساطة ، صادق كل الصــدق ، كطفل ، ولكن بدون أن يفقد الاعتدال والرصانة ، وبدون أن يفرط فى الكلام • لقد احتفظ بذكائه كاملا ، واحتفظ بكل ما يتصف به طبعه الأخلاقى ، غير أن كل ما كان لديه من مثل أعلى قد ازداد بروزا • يجب أن أقول جازما اننى ما أحببته يوما كمـا أحبه الآن ، واننى يؤسفنى ألا أملك من فسحة الوقت والمكان ما يمكننى من الاسهاب فى الكلام عنه • ومع ذلك سـوف أروى قصة حديثة (وهناك قصص أخرى من هذا النوع) : فى أثنـــاء الصوم الكبير كان قد شـفى من جرحه ، فاذا هو يعلن فى الأســبوع السادس أنه سيتناول القربان المقدس • لم يسبق له أن تناول القربان منذ ثلاثين سنة أو أكثر فيما أظن • سعدت ماما بهذا سعادة كبيرة • وأصبحوا فى البيت لا يحضرون من الطعام الا أطباقا بغير دسم ، ولكنها أطباق غالية الثمن فاخرة الصنف • وقد سمعته فى الغرفة المجـاورة ، يومى الاثنين والأحد ، يغنى أغنية « هاهو ذا العريس يأتى » ، متحمسا للحن والكلمات جميعا • وقد اتفق له فى ذينـك اليومين أن انطلق يتكلم فى الدين فقال كلاما رائعا • غير أن كل شىء انقطع يوم الأربعاء • اذ انتابه حنق مفاجىء أو « تناقض مضحك » كمــا قال ضاحكا • ان شيئا ما فى أفعال الكاهن وحركاته واشاراته قد بدا له غليظا • فلما عاد فى ذات يوم من الكنيسة قال وهو يبتسم ابتسامة لطيفة : « يا أصدقائى ، اننى أحب الله كثيرا ، لكن هناك أشياء تضايقنى ، لذلك لست مستعدا •• » وفى مساء ذلك اليوم كان طعـام العشاء يضم شرائح لحم مقلى • ولكننى أعرف أن ماما تجلس الى جانبـه فى كثير من الأحيـان حتى اليوم ، فتحادثه بصوت عذب وابتسامة حلوة فى موضوعات مجردة جدا • انها الآن جريئة معه • لا أدرى كيف حدث هذا • تجلس الى جانبه وتكلمه ، ويجرى الحديث فى أكثر الأحيان

بصوت خافت • انه يصغى اليها مبتسما ، ويلاعب شعرها ، ويقبل يديها ، وتسطع على وجهه أكبر سعادة • وقد تعتريه فى بعض الأحيـــان نوبات تكاد تكون هسترية ، فيتناول صورتها الفوتوغرافية ، تلك التى قبلها فى ذلك المساء المشهود ، فينظر اليها دامع العينين ، ويقبلها ، ويتذكر ، ويدعونا اليه جميعا • ولكنه فى مثل هذه اللحظات لا يتكلم الا قليلا ! •• ويبدو أنه نسى نيقولايفنا نسيانا تاما ، فهو لم يذكر اسمها مرة واحدة • أما عن زواجه بماما ، فذلك أمر لم يكن حتى الآن محل بحث • وكانوا يريدون أن يسافروا به فى الصيف الى الخارج ، ولكن تاتيـانا بافلوفنا ألحت على ألا يفعلوا ، وهو نفسه لم يشأ على كل حال • فسوف يقضون الصيف فى الريف بمكان ما من مقاطعة بطرسبرج • يجب أن أذكر فى هذه المناسبة أن تاتيانا بافلوفنا هى التى تنفق الآن على معيشتنا جميعا • ويجب أن أضيف شيئا آخر هو أننى حزين أشد الحزن من أننى ، طوال هذه المذكرات ، قد أبحت لنفسى أن أعامل هذه الانسانة بغير احترام ، وأن أنظر اليها من عل • ولكننى كتبت ما كتبته وأنا أتصــور تصــورا مسرفا فى الدقة كيف كانت حالتى فى كل لحظة من اللحظات التى وصفتها • وبعد أن فرغت من كتابة آخر سطر أحسست فجأة أننى بفضل هذا التذكر وهذا التسجيل لذكرياتى قد ربيت نفسى تربية جديدة • صحيح أننى أنكر كثيرا ممـــا كتبت ، ولا سيما لهجة بعض الجمل أو الصفحات ، ولكننى لا أريد أن أمحو ولا أن أصحح كلمة واحدة •

قلت انه أصبح لايتكلم عن كاترين نيقولايفنا البتة • بل انى لأعتقد أنه شفى شفاء تاما • عن كاترين نيقولايفنا أصبحنا وحدنا ، أنا وتاتيانا بافلوفنا ، نتكلم فى بعض الأحيان ، ونتكلم خفية • ان كاترين نيقولايفنا هى الآن فى الخارج • رأيتها قبل سفرها ، وزرتها فى بيتها عدة مرات ، ومن الخارج بعثت لى حتى الآن رسالتين أجبت عنهما • لن أقول شيئا عن مضمون الرسالتين ولا عن الموضوعات التى عالجناها حين تركتنا قبل سفرها : فهذه

قصة أخرى ، قصة « جديدة » كل الجدة ، لعلها لا تزال قائمة كلها فى المستقبل . حتى مع تاتيانا بافلوفنا هناك موضوعات معينة لا أقاربها . ولكن كفى هذا . أريد أن أضيف فقط أن كاترين نيقولايفنا لم تتزوج ، وهى مسافرة الآن مع بلشتشيف . لقد مات أبوها ، فهى أغنى الأرامل . انها الآن بباريس . لقد تمت القطيعة بينها وبين بيورنج بسرعة ، وكأنما تمت من تلقاء نفسها ، على نحو طبيعى جدا وسأحكى هذا على كل حال .

ففى الصباح من يوم ذلك الحادث الرهيب ، استطاع المجدور ، أعنى ذلك الذى انتقل تريشاتوف وصديقه الى خدمته ، أن يبلغ بيورنج بالمؤامرة التى تحاك . اليكم كيف حدث ذلك : كان لامبير قد جعل المجدور يقرر الاشتراك فى المؤامرة ، وأطلعه بعد أن صارت الوثيقة فى حوزته ، على جميع تفاصيل المشروع وجميع ظروفه ، وأطلعه أخيرا على الخطة الأخيرة ، أى الخطة التى تخيلها فرسيلوف لخداع تاتيانا بافلوفنا . ولكن المجدور آثر فى اللحظة الحاسمة أن يخون لامبير ، لأن المجدور كان أعقل هؤلاء الناس جميعا ، اذ تخيل فى هذه المشروعات كلها امكان حدوث جريمة ، ورأى خاصة أن الحظوة بعرفان بيورنج وشكره وامتنانه أضمن من خطة خيالية يضعها رجل أهوج أخرق مثل لامبير ورجل جعله الهوى شبه مجنون مثل فرسيلوف . ذلك كله علمته بعدئذ من تريشاتوف . يجب أن أذكر فى هذه المناسبة أننى أجهل ولا أفهم العلاقات التى كانت قائمة بين لامبير والمجدور ، ولماذا كان لامبير لا يستطيع الاستغناء عن المجدور . ولكن المسألة التى كانت تثير عجبى أكثر من سائر ما عداها هى التالية : ما كانت حاجة لامبير الى فرسيلوف ، مع أنه بعد حصوله على الوثيقة كان يستطيع الاستغناء عن مساعدة فرسيلوف استغناء تاما ؟ ولقد أصبح الجواب واضحا الآن : كان لامبير فى حاجة الى فرسيلوف أولا لأن فرسيلوف عالم بالظروف ، وثانيا لأنه يستطيع فى حالة الخطر أو فى حالة

وقوع مصيبة أن يلقى على فرسيلوف جميع التبعات • ولما كان فرسيلوف في غير حاجة الى المال ، فقد رأى لامبير أن مشاركته مفيدة الى أقصى حد •

ولكن بيورنج لم يصل في اللحظة المطلوبة • وانما وصل بعد اطلاق النار بساعة ، وكان بيت تاتيانا بافلوفنا قد تغير وجهه تغيراً كاملاً • فبعد خمس دقائق من سقوط فرسيلوف على السجادة مضرجاً بدمائه ، نهض لامبير ، وكنا نظنه ميتاً ، فأجال بصره فيما حوله ، فأدرك في الحال كل شيء ، ومضى الى المطبخ بدون أن يقول كلمة ، فارتدى معطفه واختفى الى الأبد • وبقيت « الوثيقة » على المائدة • وقد سمعت أنه لم يصب حتى بمرض ، ولم يعان الا شيئاً من أوجاع طفيفة • لقد جندلته الضربة ، وأنزفت دمه ، ولكنها لم تنله بأذى •

وفي أثناء ذلك ركض تريشاتوف يستدعي الطبيب • ولكن فرسيلوف أفاق من غيبوبته قبل وصول الطبيب ، وقبل أن يصحو فرسيلوف كانت تاتيانا بافلوفنا قد استطاعت أن ترد كاترين نيقولايفنا الى الحياة وأن تعيدها الى منزلها • وهكذا ••• حين دهم بيورنج بيت تاتيانا بافلوفنا لم يكن هناك أحد الا أنا والطبيب وفرسيلوف الجريح وماما التي كانت لا تزال مريضة ولكنها هرعت الى فرسيلوف كالمجنونة اذ أنبأها تريشاتوف ذاك نفسه • نظر بيورنج مدهوشاً ؟ وما ان عرف أن كاترين نيقولايفنا قد مضت حتى ذهب الى بيتها دون أن ينطق عندنا بكلمة واحدة •

كان مضطرباً ، اذ رأى رؤية واضحة أن الفضيحة وذيوع النبأ أصبحا أمرين لا يمكن تجنبهما • ومع ذلك لم تقع فضيحة كبرى ، وكل ما حدث أن شائعات قد سرت بين الناس وتناقلتها الألسن • صحيح أن طلقة المسدس قد استحال اخفاء أمرها ، ولكن الجزء الأساسي من القصة كلها ظل شبه مجهول • ولم يقرر التحقيق الا أن رجلاً عاشقاً اسمه « ف ••• » ، وهو متزوج ويكاد يبلغ الخمسين من العمر ، قد أطلق

النار على نفسه من مسدس فى نوبة جنون ، بينما كان يعلن غرامه لسيدة جديرة بأعظم الاحترام ، لكنها لا تبادله عواطفه . لم يُعلم شىء أكثر من هذا . وفى هذه الصورة انما انتقل الخبر الى الجرائد غامضاً ، بدون ذكر الأسماء ، الا أحرفها الأولى . أعلم مثلاً أن لامبير لم يقلق أبداً . ولكن بيورنيج الذى كان يعرف الحقيقة خاف خوفاً شديداً . ولقد علم فجأة ، بما يشبه المصادفة ، أن لقاء تم قبل الكارثة بيومين بين كاترين نيقولايفنا وفرسيلوف الذى يحبها . فأحنقه ذلك حنقاً قوياً ، فأباح لنفسه بغير تروٍ ولا حذر أن يقول لكاترين نيقولايفنا انه لا يدهشه أن تقع لها أحداث فظيعة كهذه . فلم تلبث كاترين نيقولايفنا أن صرفته فوراً ، بدون غضب ، ولكن بدون تردد ؛ ان ما كانت تقدره من أن زواجها بمثل هذا الرجل زواج يشتمل على حكمة وتعقل قد تبدد كما يتبدد البخار . ولعلها كانت قد كشفته وعرفت حقيقته قبل ذلك بمدة طويلة . ولعلها أيضاً ، بعد الهزة القوية التى أصابتها ، قد تغيرت بعض آرائها وبعض عواطفها بغتة . يجب أن أضيف أن لامبير فرّ الى موسكو ، وقد علمت أنه قبض عليه هنالك فى قضية أخرى . أما تريشاتوف فاننى منذ مدة طويلة ، بل منذ وقوع تلك الأحداث تقريباً ، قد غاب عن بصرى فلم أره رغم جميع الجهود التى لا أزال أبذلها لأقع على آثاره . لقد اختفى بعد موت صديقه « الأبله الطويل » الذى أطلق على رأسه الرصاص .

٢

ذكرت موت الأمير العجوز نيقولا ايفانوفتش • ان هذا الشيخ الطيب اللطيف قد مات بعد الحادث بمدة قصيرة ، بعد نحو شهر ، في الليل ، على سريره ، من سكتة قلبية • ولم أكن قد رأيته منذ اليوم الذي قضاه في بيتي • وقد رُوي عنه في أثناء ذلك الشهر أن عقله صحا صحواً كبيراً ، وأنه صار امرأ جاداً كثير الجد ، فهو لا يخاف ، ولا يبكي ، حتى انه لم يقل كلمة واحدة عن آنا آندريفنا طوال تلك المدة • وقد انصب حبه كله على ابنته • وقبل وفاته بأسبوع ، اقترحت عليه كاترين نيقولايفنا أن يستدعيني لأسليه وأسرّي عنه ، ولكنه قطب حاجبيه • انني أذكر هذه الواقعة بدون أن أحاول تفسيرها وتعليلها • وكانت أطيانه مزدهرة ، وكان يملك عدا ذلك مبلغاً ضخماً من المال • وقد أمر في وصيته بأن يوزّع ثلث هذا المال تقريباً على أولاده بالمعمودية وما أكثرهم ! ولكن الأمر الذي أدهش جميع الناس أشد الدهشة أن هذه الوصية لم تشر الى آنا آندريفنا ، وخلت حتى من ذكر اسمها خلواً تاماً • اليكم مع ذلك ما أعلمه علم اليقين : ان الشيخ ، قبل وفاته ببضعة أيام فقط ، استدعى ابنته وصديقيه بلشتشيف والأمير « ف ••• » ، فأمر كاترين نيقولايفنا بأن تقتطع من هذا المال عند وفاته القريبة مبلغ ستين ألف روبل تخص بها آنا آندريفنا • لقد عبّر الشيخ عن ارادته هذه تعبيراً واضحاً مقتضباً دقيقاً ، دون أن يبيح لنفسه أي تعليق أو تعقيب • وبعد وفاته ، حين أضحى كل شيء واضحاً ، عهدت كاترين نيقولايفنا الى مصرّف أعمالها بابلاغ آنا آندريفنا أن في وسعها أن تقبض هذه الستين ألف روبل متى شاءت • ولكن

آنا آندريفنــا رفضت العرض بجفاء وبغير كلام زائد : رفضت قبض المبلغ رغم كل ما ُأكدِّ لها من أن هذه هي ارادة الأمير فعلاً • ولا يزال المبلغ موقوفا ينتظر أن تقضبه آنا آندريفنا، ولا تزال كاترين نيقولايفنا تأمل أن تغيرّ آنا آندريفنا رأيها • ولكن آنا آندريفنا لن تغير رأيها • فهذا ما أعلمه يقيناً ، لأنني اليوم من أقرب أصــدقاء آنا آندريفنا اليها • وقد أثار رفضها ضجة ، وتحدث عنه الناس • وكان من شأن هذا أن خالتها فاناریاتوفا التى ساءتها منها فضيحتها مع الأمير في البداية ، قد غيرّت رأيها فيها بعد رفضها المال ، فأعربت لها عن احترامها جهاراً • ولا كذلك أخوها ، فقد شاجرها بسبب هذا الرفض شــجاراً شديداً • على أنني لا أستطيع أن أقول ، رغم كثرة ترددى على آنا آندريفنــا ، هل العلاقة التى بيني وبينها علاقة حميمة وثيقة • عن الماضي نحن لا نتحدث اليوم أبداً • انها ُتسر ُ باستقبالى ، ولكن حديثها معى حديث مجــرد • ولقد قالت لى فيما قالت انهــا مصممة على دخول الدير حتماً • قالت لي هذا منذ مدة غير طويلة • ولكنني لا أصدّق أن تفعل ، ولا أرى فى قولها هذا الا تعبيراً عن مرارة •

على أن المرارة الكبرى انما هى فى حــديثى الآن عن أختى ليزا • ذلكم هو الشقاء الحقيقي ! ما أهون أنواع الاخفاق التى منيت ُ بها اذا هى قيست بمصيرها الحزين ! أولاً : لم يشف الأمير سرجى بتروفتش ، ومات في المستشفى قبــل صدور الحكم • مات قبــل الأمير نيقولا ايفانوفتش • وبقيت ليزا وحيدة مع جنينها • كانت لا تبــكى • حتى لقد كانت تبــدو هادئة • وصارت لينة دمثة عذبة طيعة • غير أن ما كان يزخر به قلبها فى الماضى من حــرارة كان كأنه ُدفن فى أعماق نفسها • كانت تســاعد ماما بمذلة ، وتعنى بآندره بتروفتش المريض • ولكنها أصبحت صموتاً صمتاً رهيباً ، وأصبحت منطوية على ذاتها لا تريد أن تنظر الى شيء ولا أن ترى أحداً ، فكأن جميع الأمــور عندها ســواء ، وكأنها لا تكترث بشيء من الأشياء • وقد هزلت هزالاً مخيفاً • كنت لا أجرؤ أن أواسيها ، رغم أنى

كثيراً ما جئت اليها عاقداً نيتى على ذلك • فما ان ألقها حتى أجدنى عاجزاً عن مقاربتها ، وحتى تعوزنى الكلمات اللازمة لمواجهة هذا الموضوع • وامتد ذلك الى أن وقع حادث رهيب : زلت قدمها على السلم فسقطت ، لا من أعلى السلم ، بل من ثلاث درجات فقط ، لكنها أجهضت واستمر مرضها الشتاء كله تقريباً • وقد نهضت الآن ، ولكنها فى أعقاب ضربة كهذه الضربة لن تسترد صحتها الا بعد مدة طويلة • ولا تزال معنا شديدة الصمت كثيرة الوجوم والتفكير ، ولكنها مع ماما عادت تتكلم قليلاً • وقد طلعت علينا فى هذه الأيام الأخيرة شمس ربيعية رائعة ، عالية رائقة ؛ ولا أزال أتذكر بينى وبين نفسى تلك الصبيحة المشمسة من أيام الخريف الماضى حين تنزهنا معاً وقد امتلأ قلبانا كلانا بالفرح والأمل ، وأحب كل منا الآخر حباً كثيراً ! يا حسرتاه ! ماذا وقع من بعد ؟ لست أتشكى • فأنا قد بدأت حياة جديدة • ولكن هى ؟ ان مستقبلها لغز • ولا أستطيع أن أراها الا ويعصر قلبى الألم •

استطعت مع ذلك منذ ثلاثة أسابيع أن أثير اهتمامها اذ حدثتها عن فاسين • لقد أطلق سراحه أخيراً ، وأفرج عنه افراجاً نهائياً • و'روى أن هذا الرجل الزاخر برجاحة العقل وحصافة الرأى قد استطاع أن يقدم أدق الايضاحات وأهم المعلومات ، فبرأ نفسه أمام أولئك الذين كان مصيره رهناً برأيهم فيه • وقد تبين على كل حال أن المخطوطة التى أثارت ذلك اللغط كله لم تكن الا ترجمة عن الفرنسية لمواد كان يجمعها لنفسه وحده ، على نية أن يعتمد عليها فى كتابة مقالة مفيدة لمجلة من المجلات فى المستقبل• وقد سافر الآن الى اقليم « ••• » ؛ أما زوج أمه ستيبلكوف فلا يزال فى السجن بسبب قضيته الخاصة التى علمت أنها ما تنفك تكبر وتتسع • لقد أصغت ليزا الى حديثى هذا عن فاسين وهى تبتسم ابتسامة غريبة، وقالت ان ذلك هو ما كان لابد أن يقع له • ولكن كان واضحاً أنها 'سرت بما رويته لها ، وأغلب الظن أن مرد سرورها الى أن المرحوم الأمير سرجى بتروفتش لم 'يلحق تدخله ضرراً بفاسين ، ولم يصبه

بأذى • أما درجاتشيف والآخرون ، فليس عندي ما أقوله عنهم هنا •

انتهيت • لعل بعض القراء يريدون أن أحدثهم مزيداً من الحديث فأقول لهم ماذا صارت اليه « فكرتي » ، وما هي تلك الحياة الجديدة التي بدأتها والتي أشرت اليها اشارة ملفعة بالسر ؟ فأقول ان هذه الحياة الجديدة التي تنفتح أمامي هي بعينها « فكرتي » ، هي « فكرتي » السابقة نفسها ، ولكن في صورة مختلفة كل الاختلاف حتى لينكرها المرء ولا يعرفها • ذلك كله لا يدخل في نطاق هذه المذكرات لأنه شيء آخر • انتهت الحياة القديمة ، والحياة الجديدة لم تزد على أن بدأت • ومع ذلك سأضيف ما لا غنى عن اضافته • ان صديقتي المخلصة الحبيبة تاتيانا بافلوفنا تحضني كل يوم تقريباً على دخول الجامعة بأقصى سرعة حتماً ، وتقول : « فمتى أتممت دراستك رايت ماذا يجب أن تفعل • أما الآن فأتمم دراستك • » • أعترف بأن هذا العرض يحملني على التفكير ، لكنني أجهل القرار الذي سأتخذه كل الجهل • وقد اعترضت عليها مع ذلك قائلاً انى الآن لا يجوز لى أن أتابع دراستي ، اذ يجب عليّ أن أعمل لأعول ماما وليزا • ولكنها تعرض عليّ ثروتها مؤكدةً أنها تكفي لمدة دراستي كلها • وقد قررت أخيراً أن ألتمس نصيحة أحد الناس • فبعد أن استعرضت مَنْ حولي وقع اختياري على هذا الرجل ، نيقولا سيمنوفتش ، معلمي السابق بموسكو ، زوج ماريا ايفانوفنا ؟ لا لأني في حاجة شديدة الى نصائح ، الا أن رغبة قوية لا سبيل الى مغالبتها قد دفعتني الى معرفة رأى هذا الرجل الأناني ، الغريب كل الغرابة عن الأحداث التي وصفتها ، ذي القلب الذي يتصف بالبرود ، ولكنه ذكي ذكاء لا يمكن جحوده • فأرسلت اليه مخطوطتي ، طالباً منه أن يبقيَ أمرها سراً مكتوماً ، لأنني لم أطلع عليها أحداً بعد ، ولم أطلع عليها تاتيانا بافلوفنا خاصة • وقد عادت اليّ المخطوطة بعد خمسة عشر يوماً ، مصحوبة برسالة طويلة • وهأناذا أسرد فيما يلي مقتطفات من تلك الرسالة ، لأنني أجد فيها رأياً عاماً له قيمة تعليلية • اليكم هذه المقتطفات :

٣

« عزيزى آركادى ماكاروفتش الذى لا ُينسى ، انك لم تستطع فى يوم من الأيام أن تستعمل أوقات فراغك العارضة استعمالاً أنفع مما فعلت حين كتبت هذه المذكرات ! لقد حصلت لنفسك على ادراك واعٍ لخطاك الأولى العاصفة المحفوفة بالمخاطر فى درب الحياة . وانى لأعتقد جازماً بأن هذا الاستعراض قد أتاح لك فعلاً ، فى كثير من النقاط ، أن « تربى نفسك تربية جديدة » كما تقول أنت نفسك . لن أسمح لنفسى بأى نقد حقيقى ، رغم أن كل صفحة من هذه الصفحات تستدعى ملاحظات . من ذلك أن حرصك الشديد العنيد المصر على الاحتفاظ « بالوثيقة » طول تلك المدة شىء بارز الى أبعد حد . على أن هذه الملاحظة التى أبحتها لنفسى ليست الا واحدة من ألف . وانى لأقدر قدراً عظيماً كذلك أنك قررت أن تبوح لى ـ أنا وحدى فى أغلب الظن ـ بسرِّ « فكرتك » ، على حد تعبيرك . ولكن حين تسألنى أن أعرب لك عن رأيى فى هذه الفكرة ، فاننى أكون مضطراً الى الامتناع عن ذلك قطعاً . أولاً لأن الاعراب عن هذا الرأى يحتل مكاناً أكبر من أن تضمه رسالة . وثانياً لأننى غير متأهب للاجابة فما زلت فى حاجة الى هضم هذا كله . ولكننى أقول ان « فكرتك » تتميز بأصالتها ، على حين أن كثيراً من شباب الجيل الحالى ينقادون فى أغلب الأحيان لأفكار جاهزة لا تنبع من أنفسهم ، وعددها محدود جداً ، وكثيراً ما تكون خطرة . ان « فكرتك » قد حمتك مثلاً ، خلال زمنٍ على الأقل ، من أفكار السادة درجاتشيف وشركاه ، التى هى أقل أصالةً ولا شك . وأخيراً فاننى موافق كل الموافقة على رأى المحترمة

تاتيانا بافلوفنا التى عرفتها شخصياً ، ولكن لم يتح لى حتى الآن أن اقدرها القدر الذى تستحقه • ان رأيهـا فى ادخالك الجامعـة سيعود عليك بخير كثير • فلا شك أن العلم والحياة ، خـلال ثلاث سنين أو أربع ، سـوف يوسّعان مزيداً من التوسيع أفق فكرك وآمالك ، فاذا أردت بعد الجامعه أن تعود الى « فكرتك » فلن يمنعك عن ذلك شيء •

« واسـمح لى الآن ، رغم أنك لم تطلب منى هذا ، أن أعرض لك بصراحـة بعض آرائى أو انطباعاتى التى كوّنتهـا فى نفس قراءة هذه المذكرات الصادقة جداً • نعم ، اننى أوافق آندره بتروفتش على أن هناك ما يدعو حقاً الى الخوف عليك وعلى شبابك « المعتزل » • ما أكثر أمثالك من الشـبان الذين تتعرض مواهبهم فعـلاً لأن تنمو فى الاتجـاه السيء : فاما عبودية على طريقة مولتشالين ، واما رغبـة خبيثة فى الفوضى • وهذه الرغبة فى الفوضى انما تنشأ ـ ربما فى أكثر الأحيان ـ عن ظمأ خفى الى النظام ، « الجمال » (اننى أستعمل كلمتك) • ان الشباب طاهر نقى لمجرد أنه شباب • ولعل تلك الاندفاعات المبكّرة الى الجنون انما تشتمل على ذلك الظمأ الى النظـام وعلى ذلك البحث عـن الحقيقة • فمن المذنب اذا كان بعض الشباب فى عصرنا يرون هذه الحقيقة وهذا النظام فى نظريات تبلغ من الحماقة والسخافة أن المرء يستغرب فعلاً أن يؤمنوا بها ! أحب أن أقول فى هذه المناسبة ان المرء كان يمكن فى الماضى ـ فى عصر ليس بعيداً ، فى عهد لا يبعد عنـا أكثر من جيل واحـد ـ ألا يأخذه بأمثال هؤلاء الشبان ما يأخذه بهم الآن من شفقة ورحمة ، لأن أمثالهم فى ذلك كانوا ينتهون فى جميع الأحيان تقريباً الى الانضمام الى الطبقة العليا من مجتمعنا المثقف انضماماً ناجحاً ، وأن يصبحوا جزءاً من تلك الطبقة • فاذا شعروا مثلاً ، فى بداية الطريق ، بما فى بيئتهم العائلية من فوضى وعبث وافتقاد النبالة وغياب التقاليد والأشكال الجميلة ، كان فى هذا خير لهم ، لأنهم بعد ذلك يتوقون الى هذه الأمور كلها توقاً واعياً ، ويألفون بهذا نفسه أن يقدروها •

أما الآن فان الأمور تجرى مجرى مختلفاً بعض الاختلاف ، لأنهم أصبحوا لا يعرفون الى من ينضمون !

« سأوضح رأيي بمقارنة أو قل بمشابهة ٠ لو كنت روائياً روسياً وكانت لى موهبة ، لما اخترت أبطال رواياتى الا من بين أفراد النبالة الروسية القديمة ، لأن هذه البيئة التى تضم أفراداً مثقفين هى البيئة الوحيدة التى يستطيع الكاتب أن يجد فيها النظام الجميل والاحساس الجميل اللذين لاغنى عنهما لرواية تريد أن تحدث فى القارىء شعوراً بالروعة ٠ لا أقول هذا الكلام مازحاً ، رغم اننى لا أنتمى الى الطبقة النبيلة كما تعلم ٠ لقد سبق أن أشار فى « تقاليد أسرة روسية » الى موضوعات الروايات التى حال الموت بينه وبين كتابتها ٠ فهناك انما نقع فعلاً على كل ما بلغناه حتى الآن من جمال ٠ هناك على الأقل نجد كل ما وصلنا اليه من توازن وكمال ٠ واذا قلت هذا فليس معناه اننى أرى ذلك الجمال خالياً من العيوب ، أو أرى ذلك التوازن مستقراً استقراراً تاماً ٠ غير أن ثمة أشكالاً ثابتة من الشرف والواجب لا تجدها مكتملة بل لا تجدها البتة فى أى مكان بروسيا خارج النبالة ٠ اننى أتكلم كما يتكلم انسان هادىء يبحث عن الهدوء ٠

فاذا سألتنى عن ذلك الشرف هل هو أصيل ، وعن ذلك الواجب هل هو حق ، قلت لك ان هذه مسألة أخرى يمكن أن تدور حولها مساجلات لا نهاية لها ٠ ولكن الشىء الهام فى نظرى هو أن تلك الأشكال مكتملة ، وأن ثمة نظاماً لم يُفرض فرضاً وانما هو نابع من حياة تلك النبالة ٠ ألا وان ما يهمنا أكثر من أى شىء آخر هو أن يكون لنا أخيراً نظام ، أياً كان هذا النظام ، على شرط أن يكون نظاماً لنا نحن ! ذلك هو الأمل ، وتلك هى الراحة ان صح التعبير : شىء مكتمل البناء أخيراً ، لا هذا التقويض الأبدى ، وهذه النشارات التى تتطاير فى كل مكان ، وهذه

النفايات وهذه القاذورات التى لا يخـرج منهـا شيء منـذ ما يقرب من مائتى سنة •

« لا تتهمنى بالتعصب السلافى ، فانما أنا أتكلم الآن كلام رجل استبد به كره البشر ، وأصبح مثقل القلب حزنا ؛ اننا منذ بعض الوقت نشهد حركة تعارض ما أتيت على وصـفه الآن كل المعارضـة • فالآن أصبحت القذارة لا تصعد الى الطبقة العليا من المجتمع ، وانما يحدث نقيض هذا ، فنرى أجزاء بل كتلاً تنفصل عن نموذج الجمال بتعجل فرح لتندمج فى أناس الفوضى والكره • ليست حالاتٍ فريدة معزولة تلك الحالات التى ترى فيها الآباء وأرباب الأسر العريقة المثقفة تسخر الآن من أشياء ربما كان ابناؤهم لا يزالون يرغبـون فى الايمان بهـا • أكثر من ذلك أنهـم لا يحرصون على أن يخفوا عن أولادهم فرحتهم الشرهة بأنهم ملكوا الحق فى التخلى عن الشرف فجأة ، وهو حق يشعرون أنهم حصلوا عليه دفعة واحدة لا أدرى كيف ! لست أتكلم عن التقدميين الحقيقيين ، يا صديقى العزيز جداً آركادى ماكاروفتش ، وانما أتكلم عن تلك الجمهرة الكبيرة التى لا يُحصى اليوم عددها ، والتى قيل فى حقها : « اقشر الروسى فترى التترى » • صدّق أن اللبراليين الحقيقيين ، أن الأصدقاء الكرماء المخلصين للانسانية ليس عددهم بيننا كبيراً الى الحد الذى توهمناه فجأة •

« ولكن هذا كله لا يزال تفلسفاً • فلنعد الى الروائى الذى تخيلناه • ان موقف صاحبنا الروائى هذا سيكون فى هذه الحالة موقفاً محدداً : انه لن يستطيع أن يكتب الا روايات من نوع الروايات التاريخية ، لأن الجمال النموذج لم يعد له وجود فى عصرنا هـذا ، واذا كان لا يزال منـه بقايا كما يغلب على اعتقاد الناس اليوم ، فان هذه البقايا لم تحتفظ بجمالها • ولاشك أن الكاتب سيستطيع فى الروايات التاريخيـة أيضـاً أن يتصـور طائفة من التفاصيل لا تزال تمتع النفس وتعزى القلب • حتى ليمكنه أن يأسر لبّ القارىء أسراً يبلغ من القوة أن يحسب القارىء اللوحة التاريخية

واقعاً لا يزال قادراً على الحياة اليوم . ومثل هذه الرواية ، اذا كانت موهبة الكاتب عظيمة ، سوف تنتمي الى الأدب الروسي اقلّ مما تنتمي الى التاريخ . سوف تكون لوحة مكتملة الجمال الفني تمثل السراب الروسي الذي وجد فعلاً الى اليوم الذي رئي فيه أنه كان سراباً . ان حفيد أبطال اللوحة التي تمثل أسرة روسية متوسطة الثقافة خلال ثلاثة أجيال وترتبط بالتاريخ الروسي ، ان حفيد هؤلاء الأجداد لا يمكن تصويره في نموذجه المعاصر الا انساناً مبغضاً للبشر ، معتزلاً الناس ، صموتاً حزيناً . بل لابد كذلك أن يكون رجلاً متفرداً يستطيع القارىء أن يحكم عليه منذ النظرة الأولى بأنه قد ابتعد عن الطريق الممهدة وأن ليس تحت قدميه أرض . وما هي الا فترة حتى يختفي هذا الحفيد المبغض للبشر هو أيضاً . وتأتي شخصيات جديدة ، لا تزال مجهولة ، ويأتي سراب جديد . ولكن أية شخصيات ؟ اذا لم تكن شخصيات جميلة ، لم يبق ثمة أدب روسي ممكن . ولكن واحسرتاه ! هل الرواية وحدها ستكون مستحيلة حينذاك ؟

« لا أريد أن أوغل مزيداً من الايغال . ولنعد الى مخطوطتك . انظر مثلاً الى أسرتي السيد فرسيلوف (اسمح لي هذه المرة أن أكون صريحاً كل الصراحة) . لن أسهب في الكلام عن آندره بتروفتش نفسه . انه رب أسرة على كل حال ، رغم كل شيء . هو نبيل من أسرة عريقة جداً وهو في الوقت نفسه من أنصار كومون باريس . هو شاعر حق يحب روسيا ولكنه من جهة أخرى يجحدها . هو امرؤ لا دين له ، مستعد مع ذلك لأن يموت تقريباً في سبيل شيء غير محدد يعجز عن تسميته ولكنه يؤمن به ايماناً مشبوباً على غرار طائفة من دعاة المدنية الأوروبية في العهد البطرسبرجي من التاريخ الروسي . ولكن كفى هذا عنه . لننظر الى أسرته الحقيقية : عن ابنه لن أتكلم فما هو بمستحق هذا الشرف . ان الذين لهم أعين يعرفون سلفاً كيف ستكون نهاية هؤلاء الطائشين والى أين يقودون غيرهم . ولكن لننظر الى ابنته آنا آندريفنا . هذه فتاة ذات

شكيمة ، أليس كذلك ؟ هذه شخصية لها أبعاد الأم ميتروفانيا ، دون أن أتنبأ لها بشيء من الاجرام طبعا ، والا كنت ظالما . قل لى الآن يا آركادى ماكاروفتش ان هذه الأسرة استثناء وشذوذ ، فأبتهج اعظم الابتهاج . ولكن الأمر ليس كذلك . الأصح أن نقول ان هناك كثرة من هذه الاسر الروسية التى لا يجحد المرء نبالتها والتى تتحول بقوة لا تقاوم الى اسر مصادفة وتختلط بأسر المصادفة هذه في السديم الشامل والفوضى العامة . انك في مخطوطتك ترسم نموذج أسرة من أسر المصادفة هذه . نعم يا آركادى ماكاروفتش ، انك « فرد من أفراد أسرة مصادفة » ، في مقابل نماذج لا تزال حديثة لأبناء نبلاء عاشوا طفولة ومراهقة مختلفتين عن طفولتك ومراهقتك كل الاختلاف .

« أعترف لك بأننى لا أتمنى أن أكون روائيا يصور بطلا هو فرد في أسرة مصادفة !

« جهد لا ثمرة له ولا جمال فيه . ان تلك النماذج لا تزال من الحياة الجارية على كل حال ، فهى لذلك لا يمكن أن تكون مكتملة من الناحية الجمالية . كيف يستطيع الكاتب أن يتجنب هنا الأخطاء والمبالغات والاغفالات ؟ وسوف يكون على الكاتب أو القارىء ان يخمن ويسرف في التخمين . ماذا يبقى لكاتب لا يريد أن يقتصر على الروايات التاريخية ... وانما تستبد به الرغبة في الكتابة عما هو واقع حالى ؟ أن يخمن و ... أن يخطىء .

« غير أن « مذكرات » كالتى كتبتها أنت يمكن في رأيى أن تكون مواد لعمل فنى يخلق في المستقبل ، مواد للوحة ترسم في المستقبل وتكون فوضى لكنها تصور عهداً مضى . نعم ، فبفضل التقهقر في الزمان الى وراء ربما استطاع الفنان أن يجد أشكالاً جميلة لتمثيل السديم الماضى

والفوضى الذي انقضى عهدها . في ذلك الوقت ستكون الحاجة الى مذكرات كمذكراتك . حسبها أنها صادقة : فهي رغم ما تتصف به من فوضى ، تشتمل على عدد من عناصر الحقيقة سيتمكن المرء في ضوئها أن يدرك ما كان لابد أن يختبىء في نفس مراهق ينتمي الى ذلك العصر المضطرب ، وهذا بحث لا تغمط قيمته ، ما دام المراهقون هم الذين تتألف منهم الأجيال ... » .

بولاق

١٨٧٣

فى هذه المرة سانشر «مذكرات احــد الناس» . ماهى مذكراتى انا . بل مذكرات شخص آخر . ولا حاجة الى اى تمهيد .

مذكرات أحد الناس



يومين سألني سيميون آرداليونوفتش في وقت مناسب جدا :

ـ رحماك ايفان ايفانوفتش ، متى سيتفق لك مرةً ألا تكون سكران ؟

سؤال غريب ! لن أغتاظ بلا داع ، لأنني امرؤ خجول ، ولكن هاهم أولاء يعدونني مجنوناً . في ذات مرة ، رسم أحد الرسامين صورة لوجهي عرضاً . ثم اذا هو يقول « انك لأديب مع ذلك » . ووافقت على أن يعرض الصورة على الجمهور . فاليكم ما قرأته : « اذهبوا فانظروا الى ذلك الشخص المريض الذي يوشك أن يهوي الى قاع الجنون » .

هبني مجنوناً . ولكن لماذا نشر هذا الكلام في الجرائد ؟ ان الجرائد في حاجة الى موضوعات نبيلة ، في حاجة الى المثل الأعلى ، أما هنا ...

ثمة طريقة للتلميح : فلهذا انما وجد الأسلوب ولكن لا ... ليس يُسمح لك بالتلميح . اختفت اليوم روح النكتة واختفى الأسلوب الجميل ، وأصبحت الشتائم تُعدُّ رهافة فكر ولطافة ذوق . ولكنني لن أستاء ، فما أنا أديب كأي أديب حتى أصدّع رأسي . كتبت قصة ،

فلم ينشروها . وكتبت مقالة فرفضوها . وأرسلت مقالات الى جرائد مختلفة فلم يقبلوها ، وقالوا لى : « يعوزك الظرف » . سألتهم ساخراً :

ـ أى ظرف تعنون ؟ الظرف الأثيني ؟

لم يفهموني . وأنا أترجم خاصةً عن اللغة الفرنسية لأصحاب المكتبات . وأحرر اعلانات للتجار : « فرصة نادرة ! ... اشربوا الشاى الذي تنتجه مزارعنا الخاصة ... » . وان تأبيني لصاحب المعالى بطرس ماتفئتش لم يمرّ بغير صدى فى الأوساط العليا من المجتمع . وقد ألّفت ، تلبيةً لطلب أصحاب المكتبات ، كتاباً بعنوان : « كيف تحظى باعجاب النساء » . واتفق لى أثناء حياتى أن ألقيت الى السوق ستة كتيبات من هذا النوع . وفى نيتى أن أجمع باقة من أقوال فولتير يضمها كتاب . لكنني أخشى أن يبدو هذا غير ذى مذاق لأهل زمانى . ان هذا العصر هو للهراوة لا لفولتير ، فليكسّر الناس بعضهم أفواه بعض ! تلكم هى مهنتي الأدبية كلها . هل عن عبثٍ ترانى أغرق ادارات تحرير الجرائد برسائل لا أنسى أن أمهرها بتوقيعى ؟ اننى أقضى وقتى فى اغداق التنبيهات والنصائح . أنقد ، وأدل على الطريق الواجب اتباعها . فى الأسبوع الماضي دبّجت الرسالة الأربعين من رسائلى التى أبعثها الى صحيفة من الصحف منذ سنتين . ان طوابع البريد التى استعملتها قد كلفتنى حتى الآن أربعة روبلات . طبعى سيء . هذا هو الأمر .

أعتقد أن الرسام لم يرسم وجهى اهتماماً منه بالأدب ، ولكن بسبب ثؤلولين متناظرين يزدان بهما جبينى . هذا حدث ، أليس كذلك ؟ ان الناس يتهافتون اليوم على الأحداث ، لعدم وجود فكرة يهتمون بها . لشدما أحسن هذان الثؤلولان الى الصورة ! لكأنهما يحيان ! ذلكم ما يسمى بالواقعية .

أما عن الجنون فان عدداً كبيراً من الكتاب عندنا قد وصموا فى

السنة الماضية بالاختلال العقلى •• قيل عنهم : « موهبة أصيلة جداً ••• فانظروا ماذا كانت النتيجة ! ولقد كان ينبغى التنبؤ بهذا منذ مدة طويلة على كل حال ••• » • ليس يخلو هذا الكلام من مكر ، حتى ليمكننا أن نصفق له من وجهة نظر الفن المحض • فبه يصبح الآخرون أذكى مرتين • ولكن لئن كان سهلاً عندنا افقاد أحد الناس عقله ، فليس هناك مثال قيس العقل عليه •

أذكى الناس فى رأيى هو ذلك الذى يصف نفسه بالغباء مرةً كل شهر • وما من أحد يقدر أن يفعل ذلك فى هذه الأيام ! فى الماضى كان الغبى يدرك عند اللزوم مرة فى السنة على الأقل أنه ليس الا غبياً • أما الآن ، فلا ، لا ، كلا ، كلا ! لقد اختلط الحابل بالنابل حتى صار الانسان الذكى لا يتميز عن الانسان الغبى • وكان هذا مقصوداً •

تحضرنى نكتة أصلها أسبانى • حين بنى الفرنسيون فى بلادهم أول ملجأ للمجانين منذ نصف قرن ، قيل يومئذ : « لقد حبسوا جميع مجانينهم فى منزل خاص حتى يصفوا أنفسهم بأنهم هم عقلاء » • القول صادق • لست تبرهن على أنك عاقل اذا أنت حبست قرينك فى بيمارستان • « فلانٌ أصبح مجنوناً ••• معنى هذا أننا نتمتع بجميع قوانا العقلية » • لا ، أبداً ، ذلك لا يعنى هذا بعد •

على كل حال ، ليذهب هذا الكلام كله الى الشيطان ! ما بالى أحدث هذه الجلبة كلها • ما لى ولهذا التذمر ! ما لى ولهذه البرطمة ! لقد أضجرت حتى طباختى • فى مساء أمس جاءنى صديق • قال لى : « أسلوبك يفسد • صار مفروماً • أنت تفرم أسلوبك ، تهرسه هرسا •• جمل عارضة ، ثم فى الجمل العارضة جملة أخرى عارضة ، ثم جملة طارئة تضعها بين قوسين ، وتستأنف الفرم ••• » •

صديقى على حق • فى نفسى يحدث شىء غير عادى • طبعى أيضاً يطرأ عليه تغير ، ورأسى يصيبه صداع • أخذت أرى وأسمع أشياء

غريبة ... ما هى أصـوات تماماً ... كأن أحدا يدندن على مقربة منى : « بوبوك ، بوبوك ، بوبوك ! » .

ما « بوبوك » هذه ؟ يجب أن أحاول تسلية نفسى .

خرجت لأسلى نفسى . فوقعت على جنازة . جنازة شخص يمت الىّ بقرابة بعيدة . موظف في الدرجـة السـابعة . مات تاركاً زوجته وخمس بنات يجب تزويجهن . يا للنحس ! كان المتوفى يستطيع أن يجنى رزقاً . أما الآن فيجب الاكتفاء بمعاش هزيل . يجب شد الحزام على البطون . كان أفراد هذه الأسرة يستقبلوننى دائماً على مضض . على كل حال ، ماكنت لأشهد الجنازة فى ذلك اليوم لولا المناسبة الطارئة . صحبت الموكب الى المقبرة . بعجرفة نحُونى . كان ردنجوتى مفرطاً فى الاهتراء حقاً . أظن أننى لم أذهب الى المقبرة منذ خمس وعشرين سنة . المكان غير جذاب كثيراً .

الرائحة أولاً . لقد جىء الى المكان بنحو خمسة عشر ميتاً . أكفان من درجات متفاوتة . بل ثمة نعشان أحدهما نعش جنرال والآخر نعش سيدة . عدد من الوجوه الحزينة ، غير قليل من الأسى المتصنع ، كثير من فرح صريح . أضيف أنه لا داعى الى التشكى من هذا : يجب علينا أن نحسب حساب الأرباح الصغيرة . ولكن الرائحة ! الرائحة ! ألا اننى لا أحب أن أكون شحاذاً فى مقبرة .

تفرست فى وجوه الأموات متأنيـاً ، غير منقاد لطبيعتى الشـديدة التأثر . ثمة وجوه لطيفة ، وثمة وجوه لا يحلو النظر اليها . الابتسامات عامةّ ليست جميلة ، ولا سـيما لدى بعضهم . لا أحب هـذا . يحدث للمرء أن يراه فى منامه .

أثناء القداس خرجت من الكنيسـة لأتنشـق الهواء . كان النهار أشهب ، لكنه جاف ، وهو بارد بعض البرودة طبعاً ، فنحن فى شـهر

أكتوبر . قمت بجولة بين القبور . القبور طبقات . الطبقة الثالثة تكلف ثلاثين روبلاً : لائقة وغير باهظة الثمن . الطبقتان الأوليان لهما حق في الكنيسة وحوشها . ولكن ما أبهظ الثمن ! كان في ذلك اليوم ست جنازات من الطبقة الثالثة ، بينهم جنازة الجنرال وجنازة السيدة المذكورة !

ألقيت نظرة على القبور : شيء مقزز . ماء . وأي ماء ! ماء آسن أخضر . نعم . وفي كل لحظة يمتح الحفار الماء لفرغ القبر . خرجت . واذ لم يكن القداس قد انتهى ، جعلت أتجول خارج السور المصنوع من حديد مشبك . غير بعيد عن السور كانت هناك مضيفة . وبعدها بقليل كان هناك مطعم . ليس سيئاً كل السوء ، ذلك المطعم . أكلت قطعة ولوازمها ! ... ولم يلبث المطعم أن امتلأ بالناس الذين شهدوا المأتم . لاحظت كثيراً من الانتعاش والنشاط . أكلت وشربت .

ثم ساعدت بيدي في جرجرة التابوت من الكنيسة الى القبر . لماذا يصبح الميت ثقيلاً هذا الثقل كله في التابوت ؟ يقال ان سبب ذلك هو قوة العطل ، وأن الجسم يفقد القدرة على التحكم بنفسه .. أو يقال سخف آخر من هذا القبيل . هذا الكلام يناقض الميكانيكا والعقل في آن واحد . أنا لا أحب لامرىء حصل ثقافة عامة في أكثر تقدير أن يقحم نفسه فيما لا علم له به ، وأن ينصب نفسه اخصائياً . وما أكثر أمثال هذه الحالة في بلادنا ! المدنيون يعشقون الاهتمام بالشئون العسكرية ، حتى ما تعلق منها بالاستراتيجية العليا ؟ والمهندسون يعشقون أن يهتموا بالفلسفة والاقتصاد السياسي .

لم أحضر « الصلاة » . وأنا امرؤ ذو كبرياء ، فاذا كانوا لا يطيقونني الا في حالات الضرورة القصوى ، فعلام أجر نفسي الى ولائمهم ، حتى تلك التي يقيمونها بعد الجنازات ؟ لا أدري لماذا بقيت في المقبرة على كل حال . جلست على قبر ، وغرقت في أحلام شتى .

فكرت أولاً فى معرض موسكو • ثم انتقلت الى مشكلة « الاندهاش » التى كانت موضوع تأملى • فاليكم ما خلصت اليه فى أمر « الاندهاش » :

« لا شك أن الاندهاش من كل شىء غباء وحماقة ، ولا شك أن عدم الاندهاش من أى شىء أعظم أناقةً ، بل هو علامة رقى • ولكن ليس من الجائز كثيراً أن يكون الأمر كذلك فى التحليل الأخير • وعندى أن عدم الاندهاش من أى شىء أغبى كثيراً من الاندهاش لكل شىء • بل أكثر من ذلك أن عدم الاندهاش من أى شىء يكاد يساوى عدم تقدير شىء • والغبى لا يستطيع أن يقدر شيئاً » •

منذ بضعة أيام قال لى شخص أعرفه :

ـ نعم ، اننى أحرص على التقدير أكثر من حرصى على أى شىء •

الحاجة الى التقدير ! قلت بينى وبين نفسى : هه ! لسوف تعرف هذه الحاجة الى التقدير اذا خطر ببالك أن تطبع شيئاً فى يوم من الأيام !

عندئذ انقطعت سلسلة أفكارى • اننى لا أحب قراءة ما يُكتب على شاهدات القبور • هذه الكتابات كلها متشابهة • رأيت على بلاطة قبر غير بعيدة عنى سندويشة أُكل نصفها • قلت لنفسى : « هذا غباء • ليست السندويشة فى مكانها • » • كنستها الى الأرض ، لأنها ليست خبزاً وانما هى سندويشة لا أكثر • ثم ان تفتيت خبز على التراب ليس بالاثم فيما أظن ، وانما الاثم تفتيته على أرض غرفة • يُستحسن أن أسأل عن هذا الأمر •

لابد أننى مكثت زمناً طويلاً ، بل زمناً طويلاً جداً • أعنى أننى اضطجعت على حجر كبير له شكل تابوت من مرمر • كيف حدث أنى سمعت أشياء كثيرة على حين فجأة ؟ لم أنتبه الى ذلك فى أول الأمر كان موقفى موقف الاستخفاف الكامل • سمعت أصواتاً جشاء ، كأنها صادرة

عن أفواه مكمومة بوسائد ، لكنها مع ذلك متميزة وقريبة جداً . فتحت عينيّ ، وجلست ، وأخذت أصغى بانتباه .

ـ صاحب المعالى ، حقاً ليس هذا بالممكن . أعلنت كباً ، فألّفت الهويست ، فاذا أنت تلعب بالسبعة الديناري . كان ينبغى لك أن تقول من قبل ان معك الديناري .

ـ ولكن الاعتماد على الذاكرة فى اللعب ليس بالشىء المسّلى أيضا .

ـ صاحب المعالى ، لا يمكن اللعب بغير ضمانات . لابد لنا من لاعب لا يلعب ؛ يجب منح توزيعة بغير مقابل .

ـ ولكن أنّى لنا هنا لاعب لا يلعب !

يا لها من أحاديث فى غير محلها ! لا أقل من أن يوصف هذا بأنه غريب وغير متوقع فى آن واحد . الصوت رصين رزين . والصوت الثانى أميل الى التعاذب . ما كنت لأصدّق لولا أن سمعت بأذنى . ما معنى القمار فى مثل هذا المكان ، ومن هو ذلك الجنرال ؟ أما أن الجلبة كانت صادرة عن القبور فذلك أمر لا مجال للشك فيه . ملت على شاهدة القبر لأقرأ : « هنا يرقد جثمان الجنرال ميجر برفويادوف ، حامل أوسمة كذا وكذا » . همْ ! ... « توفى فى شهر أغسطس (آب) .. فى السابعة والخمسين من العمر . ارقد فى سلام ، أيها الرماد الغالى ، الى طلوع الفجر الفرح ! » .

عجباً ! هو اذن جنرال حقاً ! أما القبر الآخر الذى كان يصدر عنه الصوت المتعاذب ، فليس له بعد ضريح . لا شىء الا بلاطة موضوعة عليه ، فلابد أن نزيله قادم جديد . ان الصوت يدل على أن صاحبه موظف فى الدرجة السابعة .

قال صوت لم أسمعه من قبل ، على مسافة بضعة أمتار من مكان الجنرال ، تحت قبر يبدو جديداً :

ـ أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

هو صوت رجل من عامة الشعب ، يحاول صاحبه أن يخفف حدته أدباً .

ـ أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

فزعق صوت عصبي فيه احتقار ، هو صوت سيدة من المجتمع الراقي فيما يبدو ، زعق يقول :

ـ آ ... ها هو ذا تأخذه الحازوقة مرةً أخرى ! ألا انه لقصاص شديد أن أكون بجانب هذا الدكاني !

ـ ليس بي حازوقة ، ولم آكل شيئاً . ذلك كله يأتي من تلقاء نفسه طبيعةً . ماذا يا سيدتي الجميلة ؟ ألا سبيل اذن الى تخليك عن نزواتك ؟

ـ ما اضطجاعك هنا ؟

ـ دسوني في هذا المكان دساً . أولادي وامرأتي هم الذين حشروني هنا . لم أجيء بارادتي . ذلك هو سر الموت ! لولا الموت ما كنت لأرضى أن أرقد الى جانبك ولو أعطيت ذهب الأرض كله . وقد جئت الى هذا المكان بعد دفع آخرما كنت أملك من نقود . نحن أيضاً نملك ما ندفعه نفقاتٍ لجنازة من الطبقة الثالثة .

ـ جمعت ذلك من سرقة أموال الناس ؟

ـ كيف أسرق وأنت لم تدفعي لي قرشاً واحداً منذ شهر كانون الثاني ، مع أن لدكاني عليك ديناً !

ـ هه ! ما أشدّها بلاهة في نظري أن يطالب المرء هنا بديون له ! اذهب الى فوق ، وطالب بدينك بنت أخي التي ورثتني .

ـ كيف أطالب الآن ، وأين لى أن أذهب ؟ لقد اجتزنا الحفرة كلانا ، ونحن أمام محكمة الرب متساويان فى خطايانا .

ـ يالها من لهجة عامية ! لا تسمح لنفسك بأن تكلمنى بعد الآن !

كذلك أجابته المتوفاة باستعلاء وتكبر . فانبرى يصيت من جديد :

ـ أوه ! أوه ! أوه ! أوه !

ـ انظر ، انظر ! أطاع الدكانى السيدة يا صاحب المعالى .

ـ لم لا يطيعها ؟

ـ ولكنك تعلم يا صاحب المعالى أن نظاماً جديداً يسود هنا .

ـ ما هو هذا النظام الجديد ؟

ـ نحن يا صاحب المعالى أموات ان صح التعبير .

ألا انه لعزاء ! اذا كان هذا هو ما يحدث فى متل هذا المكان ، فلا داعى أن يتساءل المرء عما ذا يحدث فى الطابق الأعلى ! يالها من أحاديث سخيفة ! ومع ذلك ظللت أصغى ، رغم أن غضبى بلغ ذروته .

هذا صوت ينبعث من مكان آخر فى المسافة بين الجنرال والسيدة الثائرة أعصابها :

ـ أوه ! وددت لو أعيش زمناً أطول ! لا ، لا ، اننى أود كثيراً لو أحيا ...

ـ هل تسمع يا صاحب المعالى ؟ ها هو ذا يستأنف ! ... يظل مصراً على الصمت بعناد شديد ثلاثة أيام ، ثم يعود يهتف فجأة : « وددت لو أعيش ، أود لو أحيا » . وهو فوق ذلك يلح الحاحاً شديداً . هأ هأ هأ هأ !

ـ خفة عقل !

ـ يعتريه هذا فجأة يا صاحب المعالى ، ويستولى عليه استيلاءً تاماً . انه هنا منذ شهر نيسان (أبريل) ، ثم اذا هو يصيح بغتة : « أود أن أحيا ! » .

قال صاحب المعالى :

ـ هذا مضجر أخيراً !

ـ مضجر يا صاحب المعالى . ما رأيك فى أن نستأنف اغاظة آفدوتيا اجناتيفنا ؟ هأ هأ هأ !

ـ لا ، اعفنا من هذا ! لا أستطيع احتمال هذه المرأة السليطة اللسان ، الفظيعة !

قالت المرأة السليطة باشمئزاز :

ـ أنا أيضاً لا أستطيع احتمال أحد منكما ! انكما تنضحان ضجراً ، وتعجزان عن اجراء أى حديث رفيع . اياك أخاطب يا صاحب المعالى ، أؤكد لك أنك لا تملك ما يجيز لك اصطناع الكبرياء . أعرف عنك قصة صغيرة ، أعرف كيف أن خادماً لوّث وجهك بمقشته ذات صباح ، حين كنت مختبئاً تحت سرير عشيقتك ...

دمدم الجنرال يقول من بين أسنانه :

ـ امرأة قذرة ...

وعاد الدكانى يعول فقال :

ـ عزيزتى الشهمة آفدوتيا اجناتيفنا ، قولى لى : أأنا أبتلى الآن بالمحن الأولى من عذاب الآخرة ، أم هذا شىء آخر ...

ـ آ ... عاد الى هوسه ! أوجست ذلك من الرائحة التى تخرج منه . هو ذا يستدير .

ـ لست أستدير يا عزيزتي ، وليس في رائحتي أي شيء خاص ، لأن جسمي لا يزال محفوظاً ، أما أنت ياجميلة فقد نتن لحمك نتنا حلواً • لذلك تفوح منك رائحـة لا تطاق ، بصرف النظـر عن المكان • واذا كنت لا أقول شيئاً ، فذلك أدب مني •

ـ آ ••• الوقح ! هو الذي تفوح منه رائحة كريهة ، ثم يدعي أنني أنا الذي تفوح مني هذه الرائحة •

ـ أوه ! أوه ! أوه ! أوه ! ليت اليوم الأربعين يسرع مجيئه ، فأسمع فوقي أصـواتاً محزونة : أسمع انتحاب زوجتي وتساقط عبرات أولادي •

ـ تتكلم عن البكاء ؟ هه ••• لسوف يأكلون ثم ينصرفون •

ـ آه ••• ليت أحداً على الأقل يصحو !

قال الصوت المتعاذب :

آفدوتيا اجناتيفنا ، انتظري لحظة ، سوف يتكلم الجدد •

ـ هل بينهم شبان ؟

ـ نعم ، بينهم شبان يا آفدوتيا اجناتيفنا ؛ بل بينهم فتية •

ـ ها ••• هذا في أوانه •

سأل صاحب المعالي :

ـ لماذا لم يبدأوا حتى الآن ؟

ـ ••• لم يميقوا يا صاحب المعالي • أنت نفسك تعلم أنهم قد يصمتون في بعض الأحيـان أسـبوعاً كاملا • من حسن الحظ أننا قد أُتينا بأموات جدد ، أمس الأول ، وأمس ، واليوم • ولولا ذلك لبقيت الدائرة حولنا ، الى مسافة عشرين متراً ، أمواتاً من السنة الماضية •

ـ شيء شائق حقاً •

ـ فاليوم يا صاحب المعالى دفن تاراسفتش ، الموظف فى الدرجة الثالثة • أدركت ذلك من أصواتهم • وأنا أعرف ابن أخيه • لقد أنزل تابوت تاراسفتش منذ قليل •

ـ اين هو ؟

ـ على مسافة خمس خطوات منك يا صاحب المعالى ، يسرةً • يكاد يكون عند قدميك • هذه فرصة لتتعرف اليه يا صاحب المعالى •

ـ ماذا ؟ ليس علىّ أنا أن أخطو الخطوة الأولى •

ـ بل هو الذى سيبدأ • سيشرفه هذا كثيراً يا صاحب المعالى ؛ ثق أننى •••

حشرج صوت آخر مرتاع على حين فجأة قائلاً :

ـ آه ! آه ••• آه ! ••• ماذا جرى لى ؟

ـ هذا قادم جديد ياصاحب المعالى ، قادم جديد • الحمد لله • سرعان ما أفاق ! الصمت يدوم فى بعض الأحيان أسبوعاً •

هتفت آفدوتيا اجناتيفنا تقول :

ـ آه ••• يبدو لى أنه شاب !

فتمتم الشاب يقول :

ـ حدث •• حدثت الوفاة فى أعقاب اختلاط ، بغتةً • قال لى الدكتور شولتس أمس : عندك اختلاط ، وفجأة مت فى الصباح • آه ! آه !

قال الجنرال باشا مرحباً ، وقد سرّه هذا الحادث الجديد :

ـ لا يملك الانسان أن يفعل شيئاً أيها الشاب • يجب علينا أن نسيطر

على أنفسنا ، وأن نغلب العقل فى سلوكنا • أهلاً وسهلاً بك عندنا ، فى وادى جوزافات • نحن ناس طيبون ، وسترى ذلك بنفسك ، فتعرف كيف تقدرنا • الجنرال ميجر فاسيلى فاسيلفتش برفويادوف ، فى خدمتك •

ـ آه ••• لا ، لا ، لن آلف ما حدث أبداً ! ذهبت الى الدكتور شولتس ، أصابنى اختلاط : أصيب الصدر أولاً فصرت أسعل ، ثم أصابنى برد : الصدر وأنفلونزة ••• وفجأة ••• وقع ما لم يكن بالمتوقع أبداً •• أسوأ ما فى الأمر أنه لم يكن فى الحسبان اطلاقاً •

عاد الموظف الصغير يقول بصوت مشفق كأنما هو يريد أن يشجع الشاب المسكين :

ـ تقول ان الصدر هو الذى أصيب أولاً •••

ـ نعم ، الصدر • ونشأ بلغم • ثم انقطع البلغم فجأة ! •• آه •• الصدر •• أصبحت لا أستطيع التنفس ! •• ولعلك تعلم ••

ـ أعلم ، أعلم ؛ ولكن اذا كان المرض فى الصدر ، فقد كان ينبغى أن تستشير الدكتور ايك ، بدلاً من الدكتور شولتس •

ـ لكننى كنت أتأهب للذهاب الى الدكتور بوتكين ، وفجأة •••

قال الجنرال :

ـ عجيب ! ان بوتكين يسلخ سلخاً •••

ـ لا ، انه لا يسلخ البتة • سمعت أنه يحسن التشخيص بعناية كبيرة ، ويتنبأ دائماً بما سيقع •

قال الموظف الصغير مصححاً :

ـ ملاحظة صاحب المعالى تتناول مسألة السعر •

ـ ما هذا الكلام ؟ ثلاثة روبلات فى أكثر تقدير ••• وهو يحسن

الفحص ويعنى به أشد العناية ... ناهيك عن وصفاته ... لقد حرصت عليه حرصاً مطلقاً لأننى حدثت عنه ... قولوا لى اذن ياسادة : أأذهب الى ايك أم الى بوتكين ؟

ـ ماذا ؟ الى من تريد أن تذهب ؟

سأله الجنرال هذا السؤال ، وانفجر ضاحكاً ، فكان جثمانه يهتز من الضحك متلذذاً ، واقتدى به الموظف الصغير .

وهتفت آفدوتيا اجناتيفنا تقول :

ـ عزيزى الشاب ، عزيزى الشاب الطيب ، كم أحبك ! ليتهم ، على الأقل ، يضعون بجانبى واحداً مثله !

عندئذ نفد صبرى ! ماذا ؟ أهذا ما يسمى بالميت العصرى ؟ ولكن كان يجب على أن أصغى ، وألا أتسرع كثيراً فى استخلاص النتائج واصدار الآراء . تذكرت اننى قد رأيت هذا الغبى فى تابوته منذ قليل . كانت هيئته هيئة صوص مرتاع ، وكان تعبير وجهه أبشع ما يمكن أن يكون التعبير فى وجه ! ومع ذلك انتظرت التتمة .

غير أن الفوضى التى قامت قد بلغت من الشدة أننى لا أتذكر الآن شيئاً . استيقظ عدد كبير من الأموات فى آن واحد : منهم موظف الدرجة السابعة الذى أسرع يشرح للجنرال مشروعاً يتعلق بلجنة جديدة فى الوزارة ، ويحدثه عن ترقية مرتقبة لكبار الموظفين ترتبط بذلك المشروع ، فأثار هذا اهتمام الجنرال كثيراً . أعترف أننى بهذا الاصغاء اطلعت على أمور كثيرة ، فعجبت أشد العجب لتلك الطرق العجيبة التى يسلكها أبناء الادارات الحكومية لتذيع فى العاصمة . ثم صحا مهندس نصف صحو ، وأخذ يجتر خلال مدة طويلة سخافات تبلغ من الحماقة أن أحداً لم يشأ أن يصغى اليه ، فاضطر أن يبقى مهملاً فى ركنه . ثم جاء دور السيدة

المعروفة التى كانت ترقد فى الصباح على النعش ، فأخذت تتحرك فى رمسها وتضطرب . وقد استغرب لبزياتنيكوف (اتضح ان اسم موظف الدرجة السابعة ذى الصوت المتعاذب ، المسجّى بجانب الجنرال برفويادوف ، كان اسمه لبزياتنيكوف) أن يستيقظ الجميع فى هذه المرة بهذه السرعة . وانى لأعترف بأننى استغربت ذلك أنا نفسى . على أن بعضهم كان قد دُفن أمس الأول ، فكذلك شأن تلك الفتاة الشابة التى تبلغ من العمر ستة عشر ربيعاً ، والتى كانت لا تنفك تضحك ... بل قل لاتنى تقهقه قهقهة ساخرة ضارية غير لائقة .

رفع لبزياتنيكوف صوته يقول معلناً على حين فجأة بلهجة فيها تعجل شديد :

ـ صاحب المعالى ، صحا تاراسفتش ، موظف الدرجة الثالثة .

فقال تاراسفتش باحتقار :

ـ فماذا ؟

كان فى لهجته شىء من نزوة وتسلط فى آن واحد . أصخت بسمعى منتبهاً ، لأننى قد سمعت فى الآونة الأخيرة عن تاراسفتش هذا حكايات مشهية مذهلة معاً .

ـ هذا أنا يا صاحب المعالى ، أو قل ...

ـ ماذا تريد ؟

ـ لا شىء الا الاستفسار عن صحة معاليك . ان الجميع يشعرون هنا فى البداية بشىء من التضايق لعدم التعود . ان الجنرال برفويادوف يود أن يتشرف بالتعرف الى معاليك ، ويأمل أن ...

ـ لم أسمع بهذا الاسم .

ـ أرجوك أن تتذكر يا صاحب المعالى ، انه الجنرال برفويادوف ، فاسيلى فاسيلفتش برفويادوف .

ـ أنت الجنرال برفويادوف ؟

ـ لا يا صاحب المعالى ، ما أنا الا لبزياتنيكوف ، موظف فى الدرجة السابعة ، فى خدمتك ؛ أما الجنرال برفويادوف ...

ـ كفى سخافات ! أرجوك أن تدعنى وشأنى !

قال الجنرال برفويادوف مقاطعاً من أجل أن يضع حداً لشراسة هذا النزيل الجديد المتكبر :

ـ دعه !

ـ انهم لم يفيقوا افاقة تامة يا صاحب المعـــالى . يجب ألا نغفل عن هذا الأمر . انهم لم يتعودوا بعد . سوف يفيقون ، فينظرون الى الأمور عندئذ بأعين أخرى .

فكرر الجنرال قوله :

ـ دعه !

وفجأة هتف صوت بقرب آفدوتيا اجناتيفنا ، صوت حانق لم يُسمع من قبـل ـ صـوت فتى من أسرة كريمة ، متهدج اللهجة مرتخى النبرة كثير التقطع ، هتف يقول مخاطباً الجنرال :

ـ فاسـيلى فاسيلفتش ! صاحب المعالى ! اننى أرقبك منذ ساعتين . وقد أودعتُ هذا المكان قبل ثلاثة أيام . هل تتذكرنى يا فاسيلى فاسيلفتش ؟ أنا كلنيافتش ، التقينا عند آل فولوكونسكى الذين كانوا يستقبلونك أنت أيضاً ، لا أدرى لماذا .

ـ كيف ؟ الكونت بطرس بتروفتش ... هل يعقل أن تكون أنت .. فى مقتبل العمر .. ما أشد أسفى ! ..

ـ أنا أيضاً آسف .. وان كان يستوى عندى الأمران . اننى أريد

أن أستفيد أكبر استفادة من كل ما يعرض لى • ثم اننى لست كونتاً بل بارونا ، لست الا بارونا • نحن بارونات صغار لا أكثر ، أحفاد خدم • وهذا كله لا يهمني في قليل ولا كثير على كل حال • ما أنا الا نجس من أنجاس المجتمع الراقي المزيف ، يعد نفسه « خليعاً لطيفاً محبياً » • كان أبي جنرالا ، وكانت أمي تستقبل في « أعلى مجتمع » • وقد قمت في السنة الماضية ، أنا واليهودي زيفل ، بطرح خمسين ألف ورقة من الأوراق المالية المزوّرة في التداول ، ثم وشيت بزميلي اليهودي ، ولكن جولييت شاربانتييه دو لوزجنان هي التي مضت بالمال الى بوردو • وتصور أنني كنت قد تعاهدت على الزواج ••• مع شتيفالفسكايا ••• فتاة عمرها ستة عشر عاماً الا ثلاثة أشهر ، ومهرها تسعون ألف روبل ! ••• يا آفدوتيا اجناتفنا هل تذكرين كيف أفسقتني منذ خمسة عشر عاماً حين كنت غلاماً في السنة الرابعة عشرة من العمر ؟

ـ ها ! ••• هذا أنت اذن يا شيطان ! لقد أحسن الرب بارسالك الى هنا •

ـ ظلمت جارك التاجر حين ظننت أنه أخرج رائحة كريهة ••• لقد سكت أنا وأخذت أضحك • الرائحة صادرة عني • وضعوني في تابوت مسمّر •

ـ آه ! ••• يا للخبيث ! لكنني مسرورة مع ذلك • لن تصدقني اذا وصفت شدة افتقارنا الى الحياة والنشاط يا كلينافتش !

ـ بلى ! بلى ! أصدّقك • وفي نيتي أن أهيء هنا شيئاً طريفاً • صاحب المعالى ! لست أخاطبك أنت يا برفويادوف ، بل أخاطبك أنت الآخر يا صاحب المعالى تاراسفتش ! ما بالك لا تجيب ؟ أنا كلينافتش الذى قدتك في الصوم الكبير الى عند الآنسة فورى ، هل تسمع ؟

ـ أسمع يا كلينافتش • واني لسعت بك ، صدقني •••

ـ لا أصدق من كلامك شيئاً . كل ما أريده أيها الشيخ اللطيف هو أن أقبّلك . ولكنني لا أستطيع ذلك ولله الحمد . هل تعرفون ، يا سادة ، ما فعله هذا « الجد » ؟ لقد مات منذ يومين أو ثلاثة ، مديناً بأربعمائة ألف روبل . وكان هذا المبلغ لأرامل ويتيمات ، وكان يتولى وحده ـ لا أدرى لماذا ـ تصريف شئون هذه الثروة ، فلم يُسأل أن يؤدى أى حساب خلال ثمانى سنين . اننى لأتصور كيف تستطيل وجوه أولئك الذين يدركون الآن حقيقة الرجل الذين وثقوا به . أليس صاحب خيال ثرى ؟ كنت منذ سنة أدهش وأتساءل كيف يتاح لهذا الشيخ الذى يبلغ من العمر سبعين عاماً ، ويعانى من داء النقرس فى القدمين واليدين ، أن يملك من القوة ما يؤهله للاسترسال فى الدعارة والفسق ... فهل عرفتم الآن السر ؟ تلكم الأرامل واليتيمات . كان ذلك الخيال وحده يكفيه لشحذ قوته وانعاش حماسته ! ... علمت بذلك منذ مدة ، فما ان علمته ـ والآنسة شاربانتيه هى التى أعلمتنى به ـ حتى هرعت اليه وأسديت له نصيحة صديق لصديقه ، قلت له : « تدفع خمسة وعشرين ألف روبل فى الحال ، والا تؤدى حساباً فى الغد » . ولكن لم يكن معه الا ثلاثة عشر ألف روبل . فلعل الموت قد وافاه اذن فى الوقت المناسب . هل تسمع ، يا جد ، يا جد ؟

ـ عزيزى كلينافتش ، أنا موافق على رأيك كل الموافقة ، ولم تكن بك حاجة الى الدخول فى هذه التفاصيل . ان الحياة زاخرة بآلام وتمزقات كثيرة ، وليس فيها الا قليل من التسليات ... كنت أود لو أهدأ فى النهاية ، وانى لآمل ، فيما أرى ، أن أستمد من هذا المكان كلّ ...

ـ أراهن أنه شمّ وجود كاتيش بيروستوفا !

ـ وجود من ؟ كاتيش ماذا ؟

كذلك هتف الشيخ سائلاً بصوت يرعشه الهوى .

ـ آ ... آ ... كاتيش ماذا ؟ انها هنا ، على مسافة خمس خطوات

منى الى اليسار ، وعلى مسافة عشر خطوات منك . هى هنا منذ أربعة أيام . وليتك تعلم ، يا جد ، أية شيطانة صغيرة هى ! انهـا من أسرة كريمة ، حسنة التهذيب ... هى على الجملة شـيطانة ، شيطانة الى أقصى حـد ! لم أتح لأحد هناك أن يراها . أنا وحدى أعرفها . كاتيش ، أجيبينى !

فأجاب صوت صارخ رنان فيه شيء حاد كأنه ابرة ، هو صوت فتاة صغيرة :

ـ هىء هىء هىء !

تمتم الشيخ يسأل بصوت لاهث :

ـ هل هى شقـ...ـرا....ء ؟

ـ هىء هىء هىء !

وتمتم الشيخ يقول أيضاً مختنق الأنفاس :

ـ أحلم منذ مدة طويلة بشقراء صغيرة ... فى الخامسة عشرة من عمرها ... وفى هذا الاطار بعينه ...

صاحت آفدوتيا اجناتفنا تقول :

ـ يا للشذوذ !

قال كلينافتش بصوت حازم :

ـ يكفى هذا . أرى أن جملة الأمـر حسنة . سـندبر شئوننا هنا على أحسن وجه ، وبغير ابطاء . فانما الشيء الأساسى أن نقضى بقية الوقت فى متعة ومسرة . ولكن كم بقى لنا من وقت ؟ قل أنت يا لبزياتنيكوف ، مادام هذا اسمك فيما سمعت ...

ـ اسمى لبزياتنيكوف ، سيميون افزئتش لبزياتنيكوف ، موظف فى الدرجة السابعة ، سعيد جداً بأن أنفذ أوامرك ...

ـ لا يهمني أن تكون سعيداً أو ألا تكون ، ولكن يبدو أنك هنا الشخص الوحيد الذي يعرف كل شيء • قل لي أولاً (كنت لا أزال دهشاً من الأمر منذ أمس) : كيف يمكن أن نتكلم ونحن في هذا المكان ؟ ذلك أننا أموات ، ومع ذلك نتكلم ، ويبدو كأننا نتحرك ، لكننا لا نتكلم ولا نتحرك ، فما هذه المهزلة ؟

ـ هذا أمر ، اذا شئت يا بارون ، يستطيع أن يشرحه لك أفلاطون نيقولايفتش خيراً مني •

ـ من أفلاطون نيقولاييتش هذا ؟ لننتقل الى الوقائع ، بغير بهرج ولا زخرف !

ـ أفلاطون نيقولايفتش هو فيلسوفنا الرسمي ، يؤمن بالمذهب الطبيعي ، أستاذ كبير • نشر عدة كتب فلسفية ، ولكنه نائم منذ ثلاثة أشهر ، فلا سبيل الى هزّه • ينطق مرةً واحدة في الأسبوع ببضع كلمات لا تمت الى الأمر بصلة من الصلات •

ـ الى الوقائع ! الى الوقائع !

ـ هو يشرح ذلك بأننا ، فوق الأرض ، حين كنا أحياء ، كنا نرتكب خطأ ، فنظن الموت ، تحت الأرض ، موتاً ، والحقيقة خلاف ذلك • فالجسم هنا يحيا مرة أخرى ان صح التعبير ، لأن نتفاً من الحياة تتجمع وتتركز ، ولكنها تتجمع وتتركز في الشعور فحسب • لا أدري كيف أعبرّ لك • قل ان شئت ان الحياة تستمر هنا بحكم ما يشبه أن يكون قانون العطالة • وفي رأي فيلسوفنا أن كل شيء متجمع ومتركز في الشعور ، وهو يظل على هذه الحال شهرين أو ثلاثة أشهر ••• وربما ستة أشهر في بعض الأحيان • على سبيل المثال ، هنا شخص كاد يتحلل جسمه تحللاً كاملاً ، ومع ذلك نسمعه ، في كل ستة أسابيع ، يدمدم فجأة بكلمة ، كلمة واحدة

صغيرة ، لا معنى لها طبعاً « بوبوك ، بوبوك ، بوبوك » . هذا دليل على أنه لا يزال فيه قبس خفى من حياة .

ـ سخف ! غباء ! ولكن قل لى : كيف أشم رائحة النتن وقد فقدت حاسة الشم ؟

ـ مرد ذلك ... هيء هيء ... هنا يسبح فيلسوفنا فى ضباب كثيف . فيما يتعلق بالشم خاصة ، يرى فيلسوفنا أن النتن الذى نشمه هنا نتن روحى بمعنى من المعانى ... هيء هيء ! ... نتن يصدر عن الروح ، من أجل أن يتسع وقت المرء ، خلال هذين الشهرين أو هذه الأشهر الثلاثة ، أن يثوب الى نفسه ... وفى رأى فيلسوفنا أن هذه آخر نعمة . ولكننى أرى مع ذلك يا بارون أن هذا الكلام هذيان صوفى غيبى يجب أن نغفره لمن كان فى مثل وضعه ...

ـ كفى .. الباقى معروف .. سخافات ! .. ان الشيء الثابت المحقق أن الحياة ستستمر شهرين أو ثلاثة ، ثم « بوبوك » . اقترح عليكم جميعاً أن تقضوا هذين الشهرين على نحو ممتع ما أمكن ذلك ، وأن تنظموا من أجل هذا على أسس جديدة . سيداتى سادتى ! أقترح عليكم أن تتخلوا منذ الآن عن كل حياء أو حشمة .

فرددت أصوات تقول مؤيدة :

ـ نعم ، نعم ، يجب أن نتخلى عن كل حياء أو حشمة !

والغريب أن أصواتاً جديدة قد اشتركت فى ترديد هذا الكلام ، فهى أصوات أشخاص أفاقوا اذن فى تلك اللحظة نفسها .

وهتفت آفدوتيا اجناتفنا تقول بحماسة :

ـ آه ... لشدما أحب أن أتخلص من الخفر !

ـ هل تسمعون ؟ ... ان آفدوتيا اجناتفنا نفسها تريد أن تتخلص من الحفر !

ـ لا يا كليناففتش ، لا ، لا ، لقد كنت استحى هناك ، فى الماضى ، أما هنا فان رغبة رهيبة فى التخلص من هذا الحياء تضطرم فى نفسى وتتلظى .

قال المهندس :

ـ أفهم من كلامك أنك تقترح أن ننظم لأنفسنا هنا حياة قائمة على أسس جديدة ، أسس عقلية فى هذه المرة .

ـ لا يهمنى هذا ! بالمناسبة ، يجب أن ننتظر كودايااروف الذى جىء به أمس . فمتى صحا شرح لكم كل شىء.. وفى الغد سيجيؤننا بعالم من علماء الطبيعة ، وربما جاءونا بضابط ، واذا لم يخطىء تقديرى فسوف يجيئوننا بكاتب ينشر مقالات فى احدى الجرائد وسوف يجيئوننا معه بمدير الجريدة فيما أعتقد . على كل حال ، لا يهمنا أمر هؤلاء جميعاً ، فليأخذهم الشيطان ، وحسبنا أن نكوّن جماعتنا ، فينتظم كل شىء من تلقاء نفسه بيننا . ولكننى أطالب قبل كل شىء بأن لا نكذب . على الأرض تستحيل الحياة بدون كذب ، فالحياة والكذب مترادفان : أما هنا فلن نكذب ، وذلك من أجل أن نضحك قليلاً . لا أقلّ من أن ينفعنا القبر فى شىء ! سوف يقص كل منا قصة حياته جهاراً بدون أقل تحفظ ! وسأكون أنا أول من يروى قصة حياته . اننى كما تعلمون من صنف الضوارى . فوق الأرض ، كان كل شىء تحركه أسلاك عفنة . أفٍ من الأسلاك . لنقض هذين الشهرين فى رحاب الحقيقة المكشوفة بغير حياء ولا خجل ! لنخلع الأقنعة ، ولنظهر عراةً عرياً تاماً .

صاح الجميع يقولون بصوت واحد :

ـ عرياً تاماً ، عرياً تاماً !

ـ آه ... لشدما أحب أن أتعرى تماماً !

كذلك قالت آفدوتيا اجناتفنا بصوت مزمجر .

ـ آ ... أرى أن الجو سيكون مرحاً هنا . فلا أريد أن أذهب الى الدكتور ايك !

ـ أما أنا فأريد أن أحيا أيضاً ، أود لو أعيش مدةً أطول .

وضحكت كاتيش ساخرة :

ـ هيء هيء هيء !

ـ الشيء الأساسي هو أن أحداً لا يستطيع أن يمنعنا من أن نفعل ما عقدنا العزم عليه ؟ ان برفويادوف ، رغم أنه غاضب فيما أرى ، لن يستطيع أن يبلغني . هل أنت موافق يا جد ؟

ـ كل الموافقة ، وبأعظم سرور ، ولكن على شرط أن تكون كاتيش هي البادئة بقص قصة حياتها .

قال الجنرال برفويادوف :

ـ أحتج ! أحتج أشد الاحتجاج .

فأسرع ذلك الوغد لبزياتنيكوف يحاول اقناع الجنرال متعجلاً تعجلاً محموماً ، فقال له همساً وهو يخفض صوته :

ـ صاحب المعالى ، سيكون فى هذا نفع كبير لنا اذا نحن وافقنا . هناك هذه الفتاة الصغيرة كما تعلم ... ثم هناك تلك القصص الصغيرة كلها ...

ـ لنسلم بأن هناك الفتاة الصغيرة ... ولكن ...

ـ سيكون لنا نفع كبير ، يا صاحب المعالى ، نفع كبير ، أؤكد لك ! ... فليبدأوا على الأقل ، من باب التجربة ...

ـ حتى فى القبر لا أُترك مرتاحاً ...

قال كليناقتش :

ـ يا جنرال ، أنت أولاً تلعب هنا بالورق ، ثم اننا لا يهمنا أمرك ، ولا نكترث بك .

ـ أيها السيد العزيز ، أرجوك على الأقل ألا تنسى نفسك فتقول ما ليس ينبغى أن يقال ...

ـ هه ؟ ماذا ؟ انك لن تستطيع أن تنالنى على كل حال ... ففى وسعى أن أغيظك ما شاء لى هواى أن أغيظك . ثم ماذا يجديه هنا أن يكون له لقب جنرال ؟ هناك كان جنرالاً أما هنا فليس الا جيفة !

ـ لا ، لست جيفة ... أنا هنا ...

ـ أنت هنا تتفسخ فى تابوتك ، ولن يبقى منك الا ستة أزرار نحاسية .

أعولت الأصوات تصيح :

ـ مرحى كليناقتش ! هأ هأ هأ ! ...

ـ لقد خدمت قيصرى ... ولى سيف ...

ـ سيفك لا ينفع الا فى تسفيد فئران ، ثم انك لم تستله فى يوم من الأيام .

ـ لا قيمة لهذا ، فلقد كنت جزءاً من كل .

ـ كثيرون هنا كانوا جزءاً من كل .

ـ مرحى كليناقتش ، مرحى ! هأ هأ هأ ! ...

قال المهندس :

ـ أنا لا أعرف ما السيف •

وصاح من بعيد صوت لا أعرفه لكنه بدا لى فى ذروة الحماسة :

ـ سنهرب كالفئران أمام البروسيين ، وسيجعلوننا نطير فى الهواء غباراً •

قال الجنرال بصوت خافت متلعثم لا يكاد يُسمع ولا يُفهم :

ـ السيف شرف يا سيد •

ولكننى سمعته وفهمته •

وتعالت جلبة طويلة • كان الجميع يصخبون ويصيحون ، فلا يستطيع المرء أن يسمع الا عويل التململ الهسترى الذى يصدر عن آفدوتيا اجناتفنا معبراً عن نفاد صبرها :

ـ آه •• أسرعوا •• أسرعوا •• متى نبدأ أخيراً فى التخلص من الحياء ! •••

وقال الدكانى فجأة :

ـ أوه ! أوه ! أوه ! أوه الحق أن نفسى أخذت تواجه البراهين •••

وفجأة عطست • عطست على حين بغتة دون أن أريد ذلك • ولكن الأثر كان مذهلاً : أصبح كل شىء هادئاً ساكناً كما يكون فى مقبرة • تبدد كل شىء • أصبح الصمت صمت قبور حقاً • لا أظن أنهم تحرجوا من حضورى : فلقد قرروا ألا يشعروا من شىء بحياء • لا ولا يمكن أن أفترض أنهم خافوا أن أشى بهم الى الشرطة • فما مجىء الشرطة الى هذا المكان وما عساها تفعل هنا ؟ لذلك ترانى أستنتج ، على غير ارادة منى ، أنه لابد أن لهم سراً يجهله الأحياء ، وأنهم يحرصون أشد الحرص على ألا يذيع هذا السر •

قلت لنفسى : « هيا يا أصدقائى ، سأجىء أزوركم مرة أخرى » •
وغادرت المقبرة •

لا ، لا أستطيع أن أسلم بهذا فى الواقع ، لا أستطيع أن أقبله !
ان بوبوك لا يخيفنى ولا يبث الاضطراب والقلق فى نفسى (ذلك اذن ما كان يريد أن يصل اليه « بوبوك ») •

دعارة فى مثل هذا المكان ! دعارة يسترسل فيها من تعقد عليهم أقصى الآمال ! دعارة تقوم بها جثث متحللة متفسخة نتنة ! دعارة لا تعف حتى فى أواخر لحظات الشعور والضمير ! لقد أتيحت لهم ، أتيحت لهم تلك اللحظات الأخيرة ، و ••• و ••• لكن كيف يفعلون هذا فى مثل هذا المكان خاصة ؟ لا ، لا ، اننى لا أستطيع أن أقبل ذلك وأن أسلم به •••

وطفت على الصفوف الأخرى ، وأصغيت الى جهة من الجهات ، ذلك أنه كان يجب علىّ أن أصغى الى كل جهة من الجهات ، لا الى جهة واحدة ، حتى أستطيع أن أقطع برأى وأن أقضى بحكم • أترانى ألقى فى آخر المطاف ما يبعث على عزاء ؟

لكننى سأعود حتماً الى هؤلاء • لقد تعاهدوا على أن يرووا قصص حياتهم ونوادر شتى • أف • لكننى سأعود ، سأعود حتماً ، فتلك أزمة ضمير •

وسأحمل مقالتى الى جريدة « المواطن » • لقد نشرت فيها صورة محرر • فمن الجائز أن ينشروا لى أنا أيضاً •

الطفل عند يسوع

في عيد الميلاد

١٨٧٦

« الطفل عند المسيح فى عيد الميلاد » ، ظهرت أول مرة فى كراسة كانون الثانى (يناير) ١٨٧٦ من «يوميات كاتب» (الفصل الثانى ، ٢) ٠

... أحلم دائماً أن هذا حدث بمكان ما ، فى زمن غير محدّد ، عشية عيد الميلاد تماماً ، فى مدينة كبيرة من المدن ، أثناء جو جليدى فظيع .

أحلم أن طفلاً لا يزال صغيراً جداً ، طفلاً عمره ست سنين ، وربما أقل من ذلك ، قد استيقظ ذات صباح فى قبوٍ ينضح رطوبة . انه يرتدى نوعاً من قميص أو مئزر ، ويرتجف من شدة البرد ، وأنفاسه تنتشر بخاراً أبيض ، وقد قبع هو فى ركن جالساً على صندوق ، وأخذ يرسل هذ البخار عامداً يخادع به ضجره ، ويتسلى عن سأمه بالنظر اليه كيف يطير . ولكنه جائع يتمنى لو يصيب شيئاً من طعام . لقد دنا فى هذا اليوم عدة مرات من السرير الحقير الذى ترقد عليه أمه المريضة فوق فراش من قش ، متوسدةً صرّة . ما الذى جاء بها الى هذا المكان ؟ أغلب الظن أنها وافدة من مدينة أخرى مع ابنها الصغير ، وأنها قد وافاها المرض بغتةً . وقد اقتادت الشرطةُ أمس صاحبة القبو التى تؤجر غرفه ، وجلا السكان عن جميع أركان القبو متفرقين هنا وهناك ، فاليوم عيد ، ولم يبق فى القبو الا لمّام خرقٍ أخذ السكر منه كل مأخذ ، لأنه ظل يشرب منذ أربع وعشرين ساعة غير منتظر أن يحلّ يومُ العيد .

وفى الطرف الآخر من الغرفة تئنُّ عجوز صغيرة أقعدها مرض الروماتزم ، ولابد أن عمرها ثمانون سنة . لقد كانت فى أزمنة غير هذه الأزمنة وأمكنة غير هذه الأمكنة « مربية أطفال » ، ولكنها تموت الآن وحيدةً ، تئن وتتنهد وتنهر الصبى الصغير . لذلك يخاف الصبى الآن أن يدنو كثيراً من ذلك الركن .

ولقد استطاع أن يجد فى الدهليز ما يشربه ، ولكنه لم يتمكن من العثور على أية كسرة خبز يأكلها ؟ وهذه هى المرة العاشرة ، على الأقل ، التى يقترب فيها من أمه ليوقظها . وقد اعتراه أخيراً شىء من الخوف فى هذا الظلام . لقد هبط الليل منذ مدة طويلة . ولكن لم يُشعل أحد ضوءاً

حتى الآن . وحين جسّ الصبى وجه أمه أدهشه أن الوجه ظل ساكناً لا يتحرك ، وأنه بارد كبرودة الجدار . قال يحدث نفسه : « البرد شديد حقاً هنا » . وارتاحت يده على كتف المريضة من تلقاء نفسها ، ثم أخذ ينفخ على أصابعه ليدفئها . ثم اذا هو ينبش السرير فجأة ليعثر على كسكيتته ، ويخرج من القبو متلمساً طريقه فى الظلمة الحالكة بغير ضجة . ولقد كان يمكن أن ينصرف قبل ذلك بمدة طويلة لولا خوفه من أن يلتقى فى أعلى السلم بكلب ضخم ظل ينبح أمام باب المنزل المجاور طوال اليوم . ولكن الكلب كان قد بارح مكانه ، ورأى الصبى نفسه فى الشارع فجأة .

رباه ! يا لهـا من مدينة ! انه لم يشهد فى حياته شيئاً كالذى يشهده الآن . هناك ، فى البلد الذى جاء منه ، يكون الظلام شديداً فى الليل ، فالشارع لا ينيره الا مصباح واحد . والمنازل الخشبية الصغيرة مختفية وراء مصاريعها . ومتى هبط الليل لا يُرى أحد فى الشوارع . فالناس جميعاً يأوون الى بيوتهم . ولا يبقى فى الشوارع الا كلاب ، مئات من الكلاب ، ألوف من الكلاب ، أسراب كبيرة من الكلاب تظل تعوى وتنبح طوال الليل . ولكن الجو دافىء جداً هناك ، وهناك كان يعطى طعاماً يأكله ... أما هنا ... يارب ! ليته يستطيع أن يأكل فقط ... ثم ما أشد الجلبة والضجة هنا ! وما أسطع الضياء ! ما أكثر الناس ! وما أوفر الخيل والعربات ! ... وهذا الجليد ! هذا الجليد !

وخرج بخار متجلد من خياشيم الأفراس المسرعة . ورنّت حدوات حوافرها على بلاط الشارع تحت الثلج الهش . وهؤلاء الناس كلهم ما أكثر ما يتصادمون ، و .. رباه .. ما أشد جوعه .. ما أشد رغبته فى أن يأكل ولو لقمة من أى شىء . وما أشد الألم الذى يشعر به فى أصابعه فجأة ! ومرّ بقرب الصبى رجل من شرطة المدينة ، فسرعان ما أشاح وجهه عنه متظاهرا بأنه لم يلمحه .

هذا شارع آخر . أوه ! ما أعرضه ! هنا سُيداس حتماً . ما أكثر

ما يصيح هؤلاء الناس كلهم ، وما أشد ما يسرعون في سيرهم ! وما أكثر الضياء ! ما أسطع النور ! ثم ما هذا ؟ آ ... زجاج نافذة واسعة . ووراء الزجاج غرفة ، وفي الغرفة شجرة عالية تبلغ السقف . انها شجرة صنوبر ، شجرة عيد الميلاد . ما أكثر ما تحمل من أنوار ، وأشرطة مذهبة ، وتفاحات . وقد أحيطت بلعب صغيرة ، وأفراس صغيرة . وفي الغرفة أولاد يركضون : انهم يرتدون ثياب العيد . ما أنظفهم ! وهم يضحكون . هذه بنت أخذت تراقص صبياً صغيراً . ما ألطفها ! ما أحلاها ! حتى ان موسيقى تسمع من خلال الزجاج .

ينظر الصبي الصغير ويعجب ويدهش . ثم هاهو ذا يضحك ، بينا هو يشعر بألم في أصابع رجليه الصغيرة ، وبينا تحمر أصابع يديه احمراراً شديداً وتأبى أن تنثني وتوجعه اذا هو حركها . عندئذ تذكر الصبي فجأة أن أصابعه تؤلمه ، فأخذ يبكي ، وركض مبتعداً . ولكن ها هو ذا يرى زجاج نافذة أخرى ، ويرى غرفة أخرى فيها شجرة أيضاً . غير أنه يلمح في هذه المرة موائد ، ويرى على الموائد أصنافاً من الحلوى ، أصنافاً كثيرة من الحلوى : أقراصاً باللوز ، أقراصاً حمراء وأقراصاً صفراء ؟ ويرى أربع سيدات غنيات قد جلسن يوزعن الحلوى . ويدخل ناس كثير في أجمل الحلل ، آتين من الشارع .

اقترب الصبي خلسة ، وفتح الباب ، ودخل فجأة . آه ... لكم أخذوا يسبونه شاهرين أيديهم ! وأسرعت سيدة تدنو منه فتدس في يده قرشاً ثم تفتح له باب الشارع بنفسها . لشدما خاف ! وسرعان ما تدحرج القرش على الدرجات فرن رنيناً واضحاً . لم يستطع الطفل أن يثني أصابعه الصغيرة المحمرة ليقبض على القرش ! وأسرع يركض ماضياً في سبيله قدماً دون أن يعرف الى أين يذهب . ان به حاجة الى البكاء من جديد ، ولكنه في هذه المرة خائف . وأخذ يركض وهو ينفخ

على يديه • واستولى عليه قلق وفزع ، اذ أحس فجأة بأنه وحيد جداً •
وفيما كان يشتد رعبه ، اذا هو ••• ما هذا أيضاً يا رب ؟ ••• هؤلاء
جماعة من الناس قد وقفوا مدهوشين • ان وراء زجاج نافذة من النوافذ
ثلاث دمى • ليست الدمى كبيرة • وقد ألبست فساتين حمراء وخضراء •
ولكنها تشبه أن تكون حية ، تشبه أن تكون حية تماماً ! هذا شيخ جالس
كأنه يعزف على كمان ، على كمان كبير • وهذان شيخان آخران يعزفان على
كمانين صغيرين ، صغيرين جداً ، ويرجحان رأسيهما الدقيقين على ايقاع
العزف • وتنظر الدمى بعضها الى بعض ، بينما تتحرك شفاهها وتتكلم •••
نعم ••• لكأنها تتكلم حقاً ••• أليست كمن يتكلم فعلاً ؟ ولكن الزجاج
يحجب صوتها فلا يُسمع كلامها •

ظن الصبي في أول الأمر أنها أشخاص أحياء • لكنه حين أدرك أنها
دمى انفجر يضحك فجأة • لم يسبق له أن رأى مثل هذه الدمى
في يوم من الأيام ، بل لم يكن يتصور أن في الامكان أن توجد أمثال
هذه الدمى • صحيح أنه كانت به حاجة الى البكاء • ولكن منظر هذه
الدمى يبعث على الضحك ، يبعث على الضحك جداً •

وبدا له بغتة أن أحداً أمسك قفاه • ان صبياً طويلاً شريراً كان
واقفاً الى جانبه ، فاذا به يضربه على رأسه ، ويخطف كسكيتته ، ثم يشبك
ساقه بساقه فيسقطه على الأرض • تدحرج الصبي الصغير • وأخذ الناس
يصيحون • واعترى الصبي رعب شديد ، فقام وولى هارباً بخطى عريضة
وهو لا يدري ماذا يفعل ، ودخل بوابة أحد المنازل فصار في فنائه ، ووجد
كومة من خشب فأقعى وراءها وهو يقول لنفسه : « هنا ••• على الأقل •••
لن يكتشفوا مخبئي •• فالظلام في هذا المخبأ شديد » •

أقعى وطوى بعض جسمه على بعضه وهو لا يستطيع أن يتنفس من
شدة خوفه • ولكنه لم يلبث أن شعر براحة على حين فجأة • نعم على
حين فجأة • أصبحت يداه وقدماه لا توجعه ، وأحس بدفء ، بدفء

شـديد ، كأنه قريب من مدفأة • وارتعش بغتـة • آه ••• لقد حرم من النوم مدة طويلة • ما أحلى أن ينام هنا !

قال الصبي الصغير يحدث نفسه : « سوف أمكث هنا لحظة ، ثم أمضي أرى الدمى مرةً أخرى » ، وابتسم حين تصـوّرها من جديد • لكأنها كانت حيـة !

وبدا له فجـأة أنه يسمع صـوت أمه تغني له أغنية صغيرة وهي مائلة عليه •

ـ ماما ! انني أنام ! آه ••• ما أحلى النوم هنا !

وفجأة سمع الصبي صوتاً رقيقاً يقول له فوقه :

ـ تعال انظر الى شجرة عيد الميلاد عندي يا بني •

فتصـوّر الصبي في أول الأمر أن أمه هي التي تكلمه ، ولكن لا •• ما هي أمه • فمن ذا الذي ناداه اذن ذلك النداء ؟ لم يبصر الصبي شيئاً ، لكن أحـداً قد مال عليه مع ذلك ، وضمّه بذراعيه في الظلام • وقد مدّ هو ذراعيه •• وها هو ذا يرى نفسه فجأة في مكان آخر ••• يا للضياء الساطع ! أوه ••• ما أروعها شجرةً من أشجار عيد الميلاد ! لكنها ليست شجرة صنوبر • ومع ذلك لم ير في حياته شجرات كهذه الشجرة • أين هو الآن ؟ كل شيء يشع ، كل شيء يتلألأ • وما أكثر الدمى الصغيرة التي تحيط به من كل جهة • ولكن لا ! ما هذه دمى ، بل صبية صغار ، وصبايا صغيرات • ولكنهم يشعون ويتألقون • وهم يرقصون من حوله وقد تشابكت أيديهم ، وهم يطيرون ، وهم يقبّلونه ، وهم يحملونه ويأخـذونه معهم فيطير هو أيضـاً • واليكم ما يراه عندئذ : يرى أمه تنظـر اليه ، وتبتسم له فرحة • فيصيح الصبي الصغير قائلاً لأمه :

ـ ماما ! ماما ! آه ••• ما أحلى هذا المكان وما أشهاه !

وعاد يقبّل الأطفال ، واشتهى أن يروى لهم قصة الدمى التى رآها وراء زجاج النافذة ، أن يروى لهم هذه القصة بأقصى سرعة .

قال يسألهم وهو يضحك ويلاطفهم :

ـ من أنتم أيها الصبية الصغار ؟ من أنتن أيتها الصبايا الصغيرات ؟

فأجابوه :

ـ هذه شجرة عيد الميلاد عند يسوع المسيح . ان المسيح ينصب شجرة فى مثل هذا اليوم من كل سنة للأطفال الصغار الذين لم يكن لهم شجرة على الأرض ...

هكذا علم أن جميع هؤلاء الصبية الصغار والبنات الصغيرات كانوا أطفالاً مثله ، ولكن بعضهم ماتوا من البرد فى سلال تُركوا فيها على أبواب قصور سان بطرسبرج ، وبعضهم ماتوا رُضّعاً فى دار حضانة بفنلندة ، وبعضهم ماتوا على أثداء أمهاتهم الناضبة ابان المجاعة التى عمت بلاد سمارا ، وبعضهم ماتوا مختنقين بالهواء المسموم فى حافلات الدرجة الثالثة من القطار . ولكنهم كلهم مجتمعون الآن هنا كالملائكة . انهم عند يسوع المسيح . وان يسوع المسيح هو الآن معهم يمد يديه ليباركهم وليبارك أمهاتهم أيضاً ... ان الأمهات قد انتحين جانباً ، وأخذن يبكين . وكل واحدة منهن تتعرف ابنها الصغير أو ابنتها الصغرى فتطير الى جانبه أو الى جانبها . والأولاد يقبّلون أمهاتهم ، ويمسحون دموعهن ، ويضرعون اليهن ألا يبكين ، لأنهن الآن سعداء .

فى فناء ذلك المنزل ، عثر البوابون فى الصباح على جثة طفل دخل الفناء مسرعاً وتجلّد وراء كومة من خشب . وأمكن العثور على أمه فى النهاية . كانت قد ماتت قبله .

والتقى الاثنان فى السماء عند الرب .

الفلاح ماراي

١٨٧٦

« الفلاح ماراى » : ظهرت اول مرة فى كراسة شــهر شباط (فبراير) ١٨٧٦ « يوميات كاتب » (الفصل الثالث ، ٣) .

ولكنني أعتقد أن جميع أنواع هذا « الجهر بالرأى » تبعث قراءتها على الملل والضجر • لذلك سوف أكتفي برواية حكاية ، بل ما هي بحكاية أيضاً ، وانما هي ذكرى لا أكثر ، ذكرى تحرقني الرغبة في بسطها هنا ، هذه اللحظة ، ختاماً لحديثنا عن الشعب • كنت في التاسعة من عمري ••• ولكن لا ••• ان من الأفضل أن أبدأ بالعهد الذي كنت أدخل فيه التاسعة والعشرين •

في يوم الاثنين من عيد الفصح كان الهواء مشبعاً بالرطوبة ، وكانت السماء صافية زرقاء ، وكانت الشمس قوية دافئة ، ولكن نفسي ظلت غارقة في الظلمات • كنت أطوّف وراء الثكنات ، أعدُّ أوتاد السياج الضخم الذي كان سوراً للسجن • ولكن لم تكن بي أية رغبة في عدّ الأوتاد ، رغم أن هذا كان لي شاغلاً معتاداً مألوفاً • كان السجناء « في راحة » بمناسبة اليوم الثاني من العيد • وكان كثير منهم قد سكروا سكراً شديداً ، ففي كل لحظة من اللحظات تُتبادل شتائم ولكلمات في جميع الأركان • وكان آخرون يدندنون أغنيات بذيئة ، أو يلعبون بالورق تحت الحواجز • وكان السجناء الذين صرعهم رفاقهم بضربهم على رءوسهم لفرط ما أحدثوا من جلبة ، راقدين على سُررهم تغطيهم فرواتهم بانتظار أن يفيقوا من غيبوبتهم • وقد لمعت نصال السكاكين مراراً حتى الآن • وكان ذلك كله ، خلال هذا اليومين من العيد ، يعذّبني تعذيباً شديداً الى حدّ المرض • ثم انني لم أحتمل في حياتي أن أرى منظر افراط الشعب في الشراب والطعام دون أن أشعر من ذلك باشمئزاز ، ولا سيما في هذا المكان • وكانت المراقبة قد قلّت أثناء تلك الأيام • كان المراقبون يمتنعون عن التنبيش بحثاً عن خمرة يكون السجناء قد أخفوها، لادراكهم أن من الخير أن يرخوا الحبل على غاربه مرة في السنة حتى لهؤلاء الأشرار ، والا ازداد الأمر سوءا• وشعرت بالكره والبغض يشتعلان في قلبي آخر الأمر • لقد صادفت سجينا سياسيا بولنديا اسمه م ••• سكي ، فرشقني بنظرة شزراء ،

ملتمع العينين مرتجف الشفتين ، وقال لى بصوت خافت صارفاً بأسنانه : « اننى أكره هؤلاء اللصوص » ، ثم مضى • رجعت الى الثكنة التى بارحتها منذ ربع ساعة فى أكثر تقدير ، كالمجنون ، حين رأيت ستة فلاحين ضخاما يهجمون دفعة واحدة على تترى سكران اسمه جازين ، ليردوه الى الصواب ، وينهالون عليه بضرب وحشى لو أصاب جملا لقتله • ولكنهم كانوا يعلمون أنه يصعب أن يموت هذا الهرقل ، فكانوا يضربونه ضربا لا رحمة فيه • فلما عدت الآن الى الثكنة رأيت جازين مسجى على الحاجز فى ركن بآخر الغرفة وكأنه جثة هامدة لا حياة فيها ، وقد غُطى بفروة ، ورأيت جميع السجناء يمرون بقربه صامتين • انهم يأملون أن يستيقظ فى الغد ، ولكنهم يقولون : « من الجائز مع ذلك أن يفطس » • عدت الى مكانى ، ورقدت على ظهرى ، واضعاً يدىّ وراء رأسى ، مغمضاً عينىّ • لقد كنت أحب أن أستلقى هذا الاستلقاء • فلا أحد يضايق من ينام ، فأستطيع بذلك أن استرسل فى أحلام اليقظة على ما أحب وأهوى • ولكننى لم أسترسل هذه المرة فى الأحلام ؛ لقد كان قلبى يخفق خفقاناً قوياً ، وكنت أشعر بغمٍ شديد ، وكانت لا تفارق سمعى كلمات م•••كى : « اننى أكره هؤلاء اللصوص ! » • ولكن علام وصفُ تلك المشاعر التى انتابتنى فى تلك اللحظة • انها ما زالت توافينى فى الحلم ليلا ، فلا أعرف أن هناك كوابيس أشدّ منها هولاً • لعلكم لاحظتم أننى حتى هذا اليوم لم أكد أتكلم عن حياتى فى السجن • أما كتابى « ذكريات من منزل الأموات » ، فقد نشرته منذ خمسة عشر عاماً على أنه ذكريات شخص خيالى هو رجل قتل زوجته • وأضيف الى ذلك أن كثيراً من الناس يعتقدون ويؤكدون حتى الآن أننى نُفيت الى سيبريا لأننى قتلت زوجتى •

هبطت شيئاً فشيئاً الى نوع من الخدر ، وانقدت لسلسلة ذكرياتى • اننى خلال السنين الأربع التى قضيتها فى السجن ، كنت أتذكر الأيام

الماضية بغير انقطاع ، حتى لكأننى عشت حياتى بهذه الذكريات مرتين •
قلما استحضرت هذه الذكريات عامداً • وانما كان يبدأ التذكر فى
أكثر الأحيان بأمر تافه من الأمور ، وربما بدأ بأمر لم أكن قد انتبهت
اليه ولا تلبثت عليه ، ثم اذا هو يتسع شيئاً فشيئاً فيصبح صورة واضحة ،
أو يغدو احساساً قوياً كاملاً • فكنت أحلل تلك الاحساسات ، ثم أضيف
لمسات جديدة الى تلك المادة التى عشهتا منذ زمن طويل ، بل كنت
كذلك أصحح فيها ، وأبدل منها بغير انقطاع • وكانت تلك هى لذتى
ومتعتى فى الأمر كله •

ففى تلك المرة تذكرت ، على حين فجأة ، ساعة من طفولتى
الصغيرة لا يقف عليها الادراك ، أيام كنت فى السنة التاسعة من عمرى •
كنت أظن أننى قد نسيت تلك الساعة نسياناً تاماً • ولكن كان يسرنى
ويبهجنى ويمتعنى فى ذلك الحين أن أستعيد ذكريات طفولتى الأولى •
تذكرت شهر آب (أغسطس) الذى قضيته فى الريف • كان الجو فى
ذلك الشهر جافاً مضيئاً ، ولكنه كان بارداً بسبب الريح • كان الصيف
يشارف على نهايته • وسوف ينبغى أن أعود الى موسكو قريباً ، فأقضى
شتاءً كاملاً مضجراً فى تعلم اللغة الفرنسية • لذلك أحسست بانقباض
فى صدرى حين تصورت أننى سأغادر الريف • اجتزت البيدر الذى
تتكدس عنده مساحق القمح • ثم اجتزت وادياً وصعدت صوب حرجة
كثيفة اسمها لوسك تمتد وراء الوادى وتبلغ الغابة • وفيما كنت أوغل
فى الحرجة ، سمعت غير بعيد منى ، على مسافة ثلاثين خطوة من حافة
الحرجة ، فلاحاً يحرث وحيداً • وكنت أعلم أنه يحرث أرضاً وعرة
يلقى الحصان عناء شديداً فى جرّ المحراث عليها ، لأننى كنت أسمع
الفلاح من حين الى حين يصرخ مهيباً بالحصان أن يبذل مزيداً من الجهد :
هوه ! هوه ! وكنت أعرف جميع فلاحينا تقريباً ، ولكننى لم أتبيَّن مَنْ
هذا الذى يحرث الآن • وكان لا يهمنى أن أعرف ذلك على كل حال ،
لأن العمل الذى كنت عاكفاً عليه كان يشغلنى عن سائر ما عداه • لقد

كنت مشغولاً أنا أيضاً : كنت أقطع لنفسى قضباناً من شجر البندق لأجلد بها الضفادع • ان قضبان شجر البندق جميلة جداً ، وهى أصلب وأمتن من قضبان شجر السندر • وكانت الخنافس والجعلان تشد انتباهى أيضا ، لأننى كنت مولعاً بجمعها لكثرة أنواعها وألوانها • وكنت الى ذلك أحب الجراذين الصغيرة النشطة التى تضرب سمرتها الى حمرة وتزينها بقع صغيرة سود • ولكننى كنت أخاف الثعابين • وكان ما ألقاه من ثعابين أقل كثيراً مما ألقاه من جراذين على كل حال • ولا تقع عين المرء على كثير من الفطر هناك • فمن أجل أن تجنى فطراً يجب عليك أن تمضى الى جهة أشجار السندر • ولقد كنت أتهيأ للذهاب الى تلك الجهة • ما أحببت فى حياتى شيئاً كما أحببت الغابة بأنواع فطورها وثمارها البرية وحشراتها وطيورها ، وقنافذها وسناجبها ، والرائحة الرطبة التى تفوح من أوراق أشجارها الساقطة المتعفنة • اننى وأنا أكتب هذه الأسطر الآن أشمُّ كل شذى غابتنا هناك فى القرية • ان هذه الاحساسات ستبقى حية ما حييت •

فى وسط ذلك الصمت الشامل سمعت على حين فجأة هذا النداء واضحاً كل الوضوح : « الذئب ! » • فاذا أنا أصرخ وقد جُننت رعباً ، وأهرول متجهاً الى حافة الغابة ، وأمضى قُدُماً الى الفلاح الذى كان يحرث •

انه فلاحنا ماراى • لا أدرى هل يسمى أحد بهذا الاسم • ولكن جميع الناس كانوا يدعونه ماراى • هو فلاح فى نحو الخمسين من عمره ، قوى البنية فارع الطول له لحية حمراء كثيفة وخطها الشيب • كنت أعرفه ، وان لم أكن قد كلمته تقريباً حتى ذلك اليوم • كان حين سمع صراخى قد أوقف حصانه • فلما وصلت اليه فتشبثت باحدى يدىّ بالمحراث ، وأمسكت بيدى الأخرى كمَّه ، أدرك مدى ما أنا فيه من

ذعر . وصحت أقول له لاهثاً :

ـ ذئب !

فرفع رأسه ونظر فيما حوله على غير ارادة منه ، وخيّل اليه خلال لحظة أننى أوشك أن أكون ...

قال يسألنى :

ـ أين الذئب ؟

فتمتمت أجيبه :

ـ صاح أحد ... صاح أحد قائلاً : « الذئب ! » .

فدمدم يقول ليطمئننى :

ـ هيّا هيّا ! لا ذئب هنـــا . لقد خيــل لك . ما مجىء الذئب الى هذا المكان ؟

ولكننى ظللت أرتعد ارتعاداً شديداً ، وتمسكت بقميصه مزيداً من التمسك . وأظن أن شـحوبى كان شـديداً جداً . نظر الىّ ماراى وهو يبتسم ابتسامة قلقة . كان خائفا علىّ . وكان واضحاً أنه قلق أشد القلق من الحالة التى كنت فيها .

قال وهو يهز رأسه :

ـ ما أشد ما انتابك من خوف ! هيّا . كفى يا صغيرى ! لا ، لا ، انك جسور حقاً .

ومدّ يده يلاطف خدى فجأة . وكرر قوله :

ـ هيّا ! كفى ! كان يسوع المسيح معك . ارسم اشارة الصليب .

لكننى لم أرسم اشـــارة الصليب . كانت شـفتاى متقلصتين فى طرفيهما . وأظن أن هذا هو ما شدهه أكثر من أى شىء سواه . فقرب اصبعه الضخمة ذات الظفر الأسـود ، المتسخة بالتراب ، ومسّ شفتىّ

المتشنجتين مساً رفيقاً هادئاً . وقال لى وهو يبتسم ابتسامة طويلة تشبه أن تكون ابتسامة أم لابنها :

ـ ما بالك ؟ ما هذا ؟ ماذا جرى لك ؟ هأنت ذا ترى أن ليس ههنا ذئب ! آه ... آه ...

أدركت أخيراً أن ليس ثمة ذئب ، وأن الصرخة التى سمعتها تنادى « الذئب ! » انما كانت وهماً . وكانت الصرخة قد دوّت مع ذلك واضحة أشد الوضوح . غير أن هذه الصرخات (التى لا تتصل بالذئاب وحدها) قد سبق أن سمعت مثلها مرةً أو مرتين ، فكنت أعلم أنها نوع من أوهام الحواس (وقد زالت عنى هذه الظاهرة بعد ذلك حين كبرت) .

قلت وأنا ألقى عليه نظرة استفهام خجلى :

ـ أنا ذاهب .

فأجابنى وهو لا يزال يبتسم تلك الابتسامة التى تشبه أن تكون ابتسامة أم لابنها :

ـ هيّا ، اذهب ، سأتابعك بنظرى . لن أدع للذئب أن يهاجمك . كان يسوع المسيح معك . اذهب .

ورسم علىّ اشارة الصليب ، ثم رسمها على نفسه .

وانصرفت فكنت ألقى نظرةً الى الخلف كلما سرت عشر خطوات . وفيما كنت ابتعد بقى ماراى واقفاً هو وحصانه ، متجهاً ببصره الى ناحيتى ، يهزّ لى رأسه كلما التفت نحوه . يجب أن أعترف أننى كنت أشعر بخجل من اظهارى ذلك الرعب كله ، ولكن هذا لا ينفى اننى ظللت خائفاً خوفاً شديدا من الذئب الى أن صعدت الجانب الآخر من الوادى ، وصرت قريباً من أول بيدر . وهناك زال خوفى ولم يبق منه أى أثر ؛ ورأيت كلبى لوبيو يندفع الىّ فجأة . فأحسست من حضور لوبيو بطمأنينة كاملة وثقة تامة . والتفت نحو ماراى مرةً أخيرة ، فلم أستطع عندئذ أن

أميز وجهه ، ولكنني أحسست أنه لا يزال الى تلك النظرة الرقيقة نفسها ، وأنه يهزُّ لي رأسه مشجعاً . ولوحت له بيدي ، فرأيت يده ترتفع في الهواء ملوِّحة لي ، ورأيته يستأنف عمله في حرث الأرض . وسمعته من بعيد يصيح مستحثاً حصانه :

ـ هوه ! هوه !

ورأيت الحصان يجرُّ العربة على الأرض الوعرة في غير قليل من العناء .

ذلك كله عاد الى ذاكرتي ، لا أدري لماذا ، ولكنه عاد بأدق التفاصيل وأوضح الصور . ورأيتني أفتح عينيَّ فجأةً وأجلس على الحاجز . فألاحظ ان الابتسامة الهادئة الوادعة التي أنبتتها هذه الذكريات على شفتي لا تزال مرتسمة عليهما . ولبثت دقيقة كاملة أستعرض صور تلك الذكريات .

بعد أن تركت ماراي ورجعت الى الدار لم أحدِّث أحداً بشيء عن « المغامرة » التي وقعت لي . وهل كانت تلك مغامرة حقاً ؟ ثم لم ألبث أن نسيت ماراي . وحين لقيته بعد ذلك في مناسبات نادرة ، كنت لا أذكره بحكاية الذئب ، بل كنت لا أخاطبه بشيء البتة ، ثم هأناذا بعد انقضاء عشرين سنة على ذلك اللقاء ، أتذكره وأنا في سيبريا بأدق التفاصيل واوضح الصور . فلابد أن ذلك اللقاء قد نُقش في نفسي من تلقاء نفسه دون أن أدرك أنا ذلك ، ودون أن أريده ، ثم اذا هو تستيقظ ذكراه في خيالي حين احتجت اليها . تذكرت الابتسامة الرقيقة الحنون يغمرني بحنانها الفلاح المسكين الذي كان قناً من أقناننا . وتذكرت اشارات الصليب التي رسمها في ورع وتقوى ، وتذكرت كيف كان يهزُّ لي رأسه مشجعاً ، وتذكرت ما قاله لي : « ما أشد الخوف الذي انتابك يا صغيري ! » . وتذكرت خاصةً تلك الاصبع الضخمة المتسخة بالتراب التي لامس بها طرف فمي ملامسة رقيقة تكاد تشتمل على خجل . صحيح أن أي انسان ما كان ليفوته

أن يطمئن طفلاً • ولكن ذلك اللقاء في الخلاء قد اكتسى في نظرى معنى خاصاً • لا أظن أنه كان سينظر الىّ نظرةً تعبرّ عن حب يبلغ هذا المبلغ كله من النقاء ، لو أننى كنت ابنه وفلذة كبده ؟ ما الذى أجبره على هذا الحب كله ؟ لقد كان قناً لنا ، وكنت أنا ابن مولاه • لا أحد كان سيعلم بأنه لاطفنى ولامس خدى ، ولا أحد كان سيكافئه على ذلك أبداً • فهل كان اذن يحب الأطفال الصغار هذا الحب كله ؟ ان لبعض الناس طبيعة كهذه • لقد حدث اللقاء في مكان منعزل ، في البرية ؛ والله وحده رأى من علياء سمائه ما يزخر به قلب فلاح روسى بسيط جاهل متوحش لا يزال مستعبداً للأرض ولا يزال لا يلمح في الأفق فجر تحرره ، ما يزخر به قلبه من عاطفة انسانية عميقة متألقة ومن حنان يشبه أن يكون حنان امرأة •

قولوا لى : أليس هذا ما كان يعنيه كونستانتان آكساكوف حين تحدث عن التربية الرفيعة في شعبنا ؟

وأحسست فجأة ، وأنا أغادر سريرى الحقير وألقى نظرةً على ما حولى ، أن في وسعى بعد الآن أن أرى هؤلاء الأشقياء رؤية جديدة كل الجدة ، ثم اذا بكل كره وكل غضب يزايلان نفسى ويمّحيان منها بغتةً بما يشبه السحر • ورحت أتفرس في نظرات رفاق السجن • فأسأل نفسى : هذا الفلاح المحلوق شعر رأسه ، الساقط خلقه ، الممتلىء وجهه بالندبات ، الذى كان في سكره يعول بأغانٍ بذيئة ، ألا يمكن أن يكون ماراى ثانياً ؟ أين لى أن أعرف في الواقع ما بنفسه ؟ أعود فأقول اننى في ذلك المساء صادفت البولندى ....كى ! مسكين هذا الرجل ! انه لم يتذكر فلاحاً اسمه ماراى ، فكان كل ما يستطيع أن يقوله عن هؤلاء الناس : « اننى أكره هؤلاء اللصوص ! » • نعم ، لابد أن البولنديين يقاسون أكثر مما نقاسى •

عجوز يتجاوز عمرها مائة سنة

١٨٧٦

« في السنة المائة والرابعة من العمر » ، نشرت أول مرة في عدد شهر آذار (مارس) ١٨٧٦ من « يوميات كاتب » (الفصل الأول ، ٢) .

١

حدثتنى سيدة فقالت :

« خرجت من منزلى فى نحو الظهـر . كان علىّ أن أنجز أعمالاً كثيرة ، وكنت متأخـرة تأخرا كبيرا . فاذا أنا ألقى على باب أحد المنازل امرأة عجوزاً ، طاعنةً فى السن كثيراً ، هرمةً هرماً شديداً ، متوكئة على عصا . يستحيل على المرء أن يحزر ما سِنّها . كانت جالسةً بقرب بوابة فناء المنزل ، على الدكة التى يجلس عليها البواب . كانت تستريح من عناء السير . وكنت أنا ذاهبة الى منزل آخر يبعد عن ذلك المكان بضع خطوات. ودخلت المنزل الذى كنت ذاهبة اليه ، فلمّا خرجت منه رأيت العجوز جالسةً الآن على دكة بواب هذا المنزل الآخر . ونظرت الىّ ، فابتسمت لهـا ، ودخلتُ متجراً كان علىّ أن أشترى منه حذاءين لابنتى صونيا . وبعد أربع دقائق أو خمسٍ رأيت العجوز مرةً أخرى فى شارع نفسكى ، جالسةً هذه المرة لا على دكة ، اذ لا دكة هنـــاك ، بل على حجر بقرب الباب . فرأيتنى أقف أمامها رغم ارادتى ، قائلةً لنفسى : « لماذا تجلس هذا الجلوس أمام جميع المنازل ؟ » .

وسألتها :

ــ أأنت متعبة يا جدة ؟

ــ نعم يا ابنتى ، متعبة ، متعبة دائماً . قلت لنفسى : « الجو دافىء ، والشمس ساطعة ، فسأمضى أتغدى عند أحفادى » .

ـ أنت ذاهبة للغداء اذن يا جدة ؟

ـ للغداء يا ابنتى ، للغداء .

ـ ولكنك لن تقطعى بهذا السير مسافة طويلة !

ـ بلى ! استريح ، ثم انهض ، فأمشى بضع خطوات ، ثم استريح مرة أخرى ، وهكذا دواليك .

نظرت اليها . بدا لى أمرها عجيباً . انها عجوز قصـيرة ، نظيفة المظهر ، بالية الثياب . لعلهـا من البورجوازية الصغيرة . وجهها ذابـل ، أصفر ، معروق ؟ شفتاها باهتتان ، لا لون لهما . تشبه أن تكون مومياء . ولكن هذه المومياء تبتسم ، والشمس تسطع لها كما تسطع لسائر الأحياء .

قلت لها مبتسمة :

ـ لابد أنك مسنة جداً يا جدة !

ـ مائة وأربع سنين يا ابنتى ، مائة وأربع سنين ، لا أكثر . وأنت ، الى أين تُراك ذاهبة ؟

ألقت علىّ هذا السؤال وهى تنظر الىّ ضاحكةً ، ربما من فرحها بانها تحدث أحداً . ولكننى استغربت من عجوز تجاوزت المائة أن تسأل الى أين أنا ذاهبة ، حتى لكأن الأمر يهمها .

قلت وأنا أضحك أيضاً :

ـ اشتريت لابنتى حذاءين يا جدة ، وأنا الآن عائدة بهما الى الدار .

ـ ما أصغرهما ! أرأيت ما أصغرهما ؟ لابد أن ابنتك صغيرة جداً . هل لك أولاد أخر ؟

وعادت تضحك وهى تسائلنى بنظرها . ان عينيها كابيتان ، باهتتان ، ولكن نوعاً من حرارة داخلية تنعشهما أحياناً .

قلت لها :

ـ هل تأخذين منى هذه الكوبكات الخمسة يا جدة ؟ سوف تشترين بها رغيفاً صغيراً •

ـ ماذا ؟ خمسة كوبكات ؟ شكراً • آخذها •

ـ خذيها بدون أن تستائى ياجدة •

أخذتها • كان واضحاً أنها ليست متسولة • هيهات أن تكون متسولة • لقد أخذت الكوبكات الخمسة بكثير من اللباقة والكياسة ، لا كما تؤخذ صدقة ، بل كما تؤخذ هدية يقبلها من تهدى اليه لطفاً وطيبة • ولعلها كانت الى ذلك مسرورة مغتبطة : من ذا الذى يكلم العجوز المسكينة يوماً ؟ وهى الآن لا تُكلَّم فحسب ، وانما يُهتم بها ، ويُحدب عليها ، ويشعر أحد نحوها بعاطفة مودة •

قلت لها :

ـ استودعك الله يا جدة • أتمنى لك أن تصلى بصحة جيدة وعافية تامة •

ـ سأصل يا ابنتى ، سأصل ••• سأصل • واذهبى أنت الى حفيدتك •

كذلك قالت لى العجوز ناسيةً أننى لمَّا أصبح بعد جدةً ، متخيلةً فى أغلب الظن أن جميع النساء جدَّات •

وانصرفت عنها • فلما التفتُّ لأراها مرة أخرى ، كانت تنهض عن مكانها ببطء ومشقة ، ثم تسير بضع خطوات جارَّةً نفسها جراً ، ضاربة بعصاها الصغيرة الأرض • لعلها ستحتاج الى أن تستريح عشر مرات أخرى قبل أن تصل الى مسكن ذويها الذين ستتغدى عندهم • الى أين عساها ذاهبة ؟ يا لها من عجوز صغيرة غريبة ! » •

ذلكم ما روته لى السيدة •

٢

روت لى السيدة هذه القصة فى ذات صباح . والحق أنها ليست قصة بل هى انطباع لا أكثر . وفى ساعة متأخرة من الليل ، بعد أن قرأت مقالة فى احدى المجلات ، وكنت قد نسيت ما روته لى السيدة ، تذكّرت تلك العجوز الهرمة ، فاذا أنا أكمل القصـة فى خيالى ، فأرى المرأة التى تبلغ من العمر مائة وأربع سنين ، تصل الى ذويها للغداء ، واذا بما أتخيله يرتسم أمامى لوحةً صغيرة تبدو لى مستمدةً من الواقع فعلاً .

ان أحفاد العجوز ، وربما أولاد أحفـادها ـ لكنها تسـميهم جميعـاً أحفادها ـ هم صُنّاع يعيشـون أسرةً واحـدة فى قبو تحت الأرض ، أو يديرون دكان حلاقة . هم أناس فقراء ولكنهم توصلوا الى أن يعيشوا حياةً لائقة . وصلت العجوز اليهـم فى نحو السـاعة الثانيـة . وكانوا لا يتوقعون مجيئها ، لكنهم استقبلوها مسرورين بقدومها .

ـ آ ... هأنت ذى أيضـاً ، ماريا مكسيموفنا ! ادخلى ، ادخلى ، أهلاً وسهلاً بخادمة الرب !

دخلت العجوز مبتسمة ، بعد أن رنّ جرس البـاب مدةً طـويلة بصوت حاد طنّان . ان حفيدتها امرأة الحلاق ، لا تزال فى شرخ الشباب كزوجها الذى لم يتجاوز الخامسـة والثلاثين ، وهو رجل رصين المظهر ، رغم خفة المهنة التى يعمل فيها . انه يرتدى ردنجوتاً يلتمع دسمه كالتماع

الدسم فی قرص من الحوی ، ربما بسبب ما يستعمله فی مهنته من دهن .
ما عسای أقول ؟ اننی لم أر فی حياتی حلاقاً نظيفاً . وكانت ياقة ردنجوته كالمغطوسة فی طحين .

وسرعان ماهرع الى جدة أمهم ثلاثة أطفال صغار ، صبی وبنتان .
ان العجائز اللواتی بلغن مثل هذا السن يتعاطفن والأطفال : فهن وهم يتشابهون نفساً ، ويتشابهون فی كل شیء .

جلست العجوز . وكان عند رب البيت ضيف جاء لعمل من الأعمال . انه فی نحو الأربعين من عمره . وهو يهم الآن ان ينصرف .
وكان عند الحلاق أيضاً ابن أخته : فتی فی السابعة عشرة يعمل فی مطبعة .
رسمت العجوز اشارة الصليب ، ونظرت الى الغريب . قالت :

ـ آه ... ما أشد ما أحس به من تعب ! وهذا ، من هذا ؟

فانبری الغريب يقول مبتسماً :

ـ هذا أنا ، كيف يا ماريا مكسيموفنا ؟ أأصبحت لا تعرفيننی ؟ منذ سنتين كان علينا أن نذهب الى الغابة معاً لقطاف الفطر .

ـ آ ... أعرفك يا عفريت ! اننی أتذكر . ولكننی نسيت اسمك .
آه ... ما أشد ما أشعر به من اعياء !

قال الغريب مازحاً :

ـ ماذا يا ماريا مكسيموفنا ، أيتها الجدة المحترمة ؟ ... أری أنك أصبحت لا تكبرين .

فأجابته العجوز وهی تضحك :

ـ دعك من هذا الكلام ، دعك ! ...

كان سرورها بمزاحه واضحاً .

وأردف الرجل يقول :

ـ أنا يا ماريا مكسيموفنا رجل طيب .

ـ يحلو الحديث مع رجل طيب ! آه ... انني لا أكاد أستطيع التنفس ! أرى أنكم اشتريتم لسيريوجنكا معطفاً جديداً .

قالت ذلك وهي تومىء الى ابن الأخت .

فابتسم ابن الأخت كاشفاً عن كل أسنانه ، وأقبل على العجوز . انه فتى قوى الجسم يفيض نشاطاً وهو يرتدى معطفاً رمادياً جديداً لا يزال يزهو به ولا يرتديه بغير اكتراث : لابد من أسبوع آخر ، فاذا هو يعتاده فيلبسه بعد ذلك دون أن يحفل به . أما الآن فهو لا يكف عن الاعجاب بنفسه ، ولا يمل من النظر الى صورته فى المرآة ؟ وكل حركة من حركاته تدل على أنه يقدر ذاته قدراً كبيراً .

قالت له زوجة الحلاق مدمدمة :

ـ تقدم . استدر !

وأردفت تقول مخاطبةً العجوز :

ـ انظرى ما صنعنا له يا مكسيموفنا ! لقد كلّفنا المعطف خمسة روبلات دفعناها كأنها كوبك واحد . قالوا لنا عند بروخوروتش : الرخيص أغلى ، ذلك أن الرخيص ما تكاد تنقضى ثمانية أيام حتى يهترىء فتأسفوا على ما دفعتم ثمناً له . أما هذا ، فلا يبلى ! انظرى الى قماشه ما أجوده ! استدر قليلاً . وما أحسن بطانته ! ما أمتنها ! هلاَّ استدرت ! فانظرى كيف يذهب المال يا مكسيموفنا . أصبحت جيوبنا خاوية . لا بأس !

ـ آه يا عزيزتى . صار كل شىء باهظ الثمن فى هذه الأيام . جنّت الأسعار جنوناً . الأفضل ألا تحدثينى عن هذا بشىء . فان الحديث عنه يؤلمنى كثيراً .

كذلك عقَّبت مكسيموفنا على كلام زوجة الحلاق ، وكان في كلامها عاطفة صادقة وتأثر واضح ، وكانت لا تزال تلهث لهاثاً شديداً حتى لكأنها تختنق .

قال رب الدار :

ـ دعونا من هذا ! كفى ! آن لنا أن نأكل . أرى انك متعبة جداً يا ماريا مكسيموفنا !

ـ اه ... نعم يا عزيزى الشهم ، متعبة ... رأيت الجو دافئاً ، والشمس ساطعةً .. فقلت لنفسى : « هلمى زوريهم ! علام تبقين راقدة فى السرير ؟ » . آه ... وفى الطريق صادفت سيدة شابة كانت تشترى لأولادها أحذية ، فقالت لى : « ما بك يا جدة ! أراك متعبة ! خذى هذه الكوبكات الخمسة ، فتشترى بها رغيفاً صغيراً ... » . فأخذت الكوبكات الخمسة فعلاً ...

قال رب الدار وقد اعتراه قلق واضح :

ـ ارتاحى قليلاً يا جدة . ما بالك تلهثين اليوم هذا اللهاث الشديد ؟

ـ أخذتها حقاً ... اشتروا حلوى للأولاد ... بالكوبكات الخمسة ...

وتوقفت عن الكلام مرةً أخرى . وحاولت من جديد أن تتنفس . وصمت الجميع خلال خمس ثوان .

وقال رب الدار وهو يميل عليها :

ـ ماذا يا جدة ؟

ولكن الجدة لم تجب . وخيمً الصمت خمس ثوان أخرى . شحب

لون العجوز ، وانقلبت سحنتها أكثر فأكثر ، ثبتت عيناها ، وتجمدت ابتسامتها على شفتيها • انها تنظر ، ولكن المرء يحس أنها أصبحت لا ترى •

انبرى الغريب يقول فجأة :

ـ يجب استدعاء الكاهن •

فدمدم رب الدار يقول :

ـ ولكن ••• هل ••• ألم يفت الأوان ؟

وهتفت امرأة الحلاق تنادى وقد اضطربت اضطراباً شديداً :

ـ يا جدة ! يا جدة !

ولكن الجدة ظلت جامدة وقد مال رأسها الى جانب • وكانت يدها اليمنى الموضوعة على المائدة ممسكة بقطعة النقد ، الكوبكات الخمسة ، وكانت اليد اليسرى لا تزال على كتف ميشا ، ابن حفيدتها ، وهو طفل فى السادسة من عمره • كان الطفل واقفاً لا يتحرك ، ينظر الى جدة أمه بعينين واسعتين مدهوشتين •

قال رب البيت وهو ينحنى لها ويرسم اشارة الصليب ، قال بصوت رصين مهيب :

ـ فارقت •

وعقّب الرجل الغريب مذهولاً وهو يطوف ببصره على الحضور :

ـ أمر عجيب • لاحظت فعلاً أنها كانت ما تنفك تميل ثم تميل •

ودمدمت ربة البيت مضطربة مرتاعة تقول :

ـ آه ••• رباه ! ما العمل يا ماكاريتش ؟ هل يجب أن نحملها الى هناك ؟

فسألها رب البيت :

ــ هناك ؟ أين ؟ لا بل سوف تدبِّر أمرنا هنا ! أليست جدتك ؟ يجب أن نبلغ عن وفاتها ٠

قال الرجل الغريب وهو يراوح فى مكانه وتزداد عاطفته رقةً وحناناً ، ويشتد احمرار وجهه :

ــ مائة وأربع سنين !

وعقّب رب البيت برصانة وهو يتناول كسكيتته ومعطفه :

ــ لقد أخذت تنسى الحياة فى الآونة الأخيرة !

ــ منذ لحظة لا أكثر ، كانت لا تزال تضحك ! انظر ! انها لا تزال قابضة على قطعة الخمسة كوبكات ٠ قالت « اشتروا للأولاد حلوى » ٠ واحسرتاه على حياتنا !

وقاطعه رب الدار قائلاً :

ــ هيا بنا يا بطرس ستيبانوفتش ٠

وخرج مع الرجل الغريب ٠

ليس يُبكى على متوفاة كهذه ٠ مائة وأربع سنين ! « ماتت امنةً مطمئنةً بغير مرض » ٠

وأرسلت ربة الدار تدعو جاراتها ليساعدنها ٠ فسرعان ما هرعن اليها وقد أحدث النبأ فى نفوسهن من المسرة أكثر مما أحدث فيها من الألم ٠ وطفقن يطلقن من صدروهن آهات وأوهات ! وكان طبيعياً أن يُبدأ بغلى الماء فى السماور قبل أن يُفعل أى شيء آخر ٠ واختبأ الأطفال فى ركن مدهوشين ، وجعلوا ينظرون الى الميتة من بعيد ٠ ان ميشا لن ينسى ــ ما ظل حياً ــ أن العجوز ماتت وهى واضعة يدها على كتفه ؟ وحين

سيموت لن يكون أحد متذكراً أن الجدة العجوز عاشت مائة وأربع سنين : لماذا وكيف ؟ لا أحـد يعرف • ولا قيمة لهذا على كل حال • ان ملايين من الناس يموتون هكذا : يعيشون دون أن يفطن اليهم أحد ويموتون على هذا النحو أيضاً • ثمة شيء واضـح : هو أن الانسان ، حين يموت شخص بلغ من العمر مائة سـنة أو تزيد ، يشعر بنوع من الحنان والهدوء والوقار والعزاء • مائة سنة ان هذا الرقم لا يزال يحدث فى نفس الانسان أثراً غريباً عجيباً •

بارك الله حياة وممات الناس الطيبين السطاء !

العذبة

١٨٧٦

« العذبة » نشرت لأول مرة كراسة كاملة من « يوميات كاتب » (تشرين الثانى – نوفمبر ١٨٧٦ الفصل الأول والثانى

حكاية خيالية

مقدمة المؤلف

أعتذر الى قرائى عن أننى لا أقدم اليهم « اليوميات » فى صورتها المعتادة المألوفة هذه المرة ، وانما أقدم اليهم حكاية خيالية . صحيح أن هذه القصة قد شغلت شطراً كبيراً من الشهر ، ومع ذلك استميحهم عذراً وألتمس منهم العفو والتسامح .

وقد وصفت القصة بأنها خيالية رغم أننى أعدها واقعية قبل كل شيء . ولكن الخيال قائم فيها حقاً بحكم أننى أقدمها فى صورة قصة . فرأيت أن من المفيد أن أشير الى هذا منذ البداية .

الواقع أن ما أرويه الآن ليس حكاية ولا هو ذكريات . تخيلوا زوجاً ترقد على مائدته جثة امرأته التى انتحرت منذ بضع ساعات بالقاء نفسها من النافذة . انه يعانى انفعالاً عنيفاً شديداً ، ولمّا يستطع أن يثوب الى رشده وأن يسترد صوابه . فهو ينتقل من غرفة الى غرفة ، محاولاً أن يتصور ما حدث ، وأن يتخيل ما جرى ، وأن « يركّز أفكاره فى نقطة » . ثم ان هذا الرجل سوداوى المزاج فى أعماق نفسه ، لا ينفك يجتر أفكاراً ثابتة ، ولا يفتأ يناجى نفسه فى السر ، ويكلمها بغير انقطاع . انه اذن يتحدث الى نفسه ، فيقص عليها القصة ويحكى لها الحكاية ، ويحاول أن « يفسر الأمر لنفسه » جاهداً . ورغم ما يلوح فى قصته من

اتصال ظاهرى وتسلسل طبيعى ، فانه يرتكب مخالفات منطقية ، ويقع فى تناقضات عاطفية . انه يبرىء نفسه ويدينها فى آن واحد ، كما أنه ينزلق الى تأويلات خاطئـة ، والى ذلك يضاف شيء من غلظة فى الفكر والقلب تمازجها مع هذا عاطفة عميقة . وقد استطاع شيئاً فشيئاً أن « يفسر الأمر لنفسه » ، وتوصـّل الى « تركيز أفكاره على نقطة » ، اذ ساقته سلسلة من الذكريات الى الحقيقة سوقاً لا سبيل الى مقاومته : فبثت هذه الحقيقة حماسة وحمية فى فكره وقلبه . فاذا لهجته نفسها تتغير فى نهاية القصة اذا قيست بما اشتملت عليه البداية من فوضى وبلبلة . لقد انكشفت الحقيقة واضحةً جليةً لهذا الشقى البائس ، انكشفت له هو على الأقل ...

ذلكم هو الموضوع . والقصة تتتابع عدة ساعات ، وتتخللها انقطاعات ووقفات ، وتعتورها صـدمات : فالرجـل تارةً يتحدث الى نفسه ، وتارةً يخاطب شخصاً لا يُرى هو بمثابة قاض .

ولو استطاع مختزل أن يسمع ويسجل كل ما يقوله ، لجاءت القصة أشد وعورةً وخشونةً مما أرويه أنا . ولكن الحياة النفسية تبقى فيها على حالها فيما يغلب على ظنى . ان هذا الافتراض الذى افترضته عن المختزل (على أساس أن المؤلف لا يتدخل الا بعد ذلك) هو ما جعلنى أصف هذه القصة بأنها خيالية . على أن هذا الأسلوب لا يظهر فى الفن هنا لأول مرة تماماً : لقد استعمله فكتور هوجو ، مثـلاً ، فى رائعته « اليوم الأخير من أيام رجل محكوم عليه بالموت » . ولئن لم يعتمد على مختزل ، فقد أجاز لنفسه أمراً أشد ايغالاً فى البعد عن الواقع والنأى عن الاحتمال ، وذلك حين افترض أن رجلاً محكوماً عليه بالموت يمكن أن يسجل ما جرى لا فى آخر يوم من أيامه فحسب ، بل فى آخر ساعة ، بل فى آخر دقيقة . فلو لم يسمح فكتور هوجو لنفسه بهذه البدعة الغريبة ، لما أتيح لهذا الأثر من آثاره أن يوجد ، وهو أقرب آثاره الى الواقع ، وأدناها من احتمال الحدوث .

الفصل الأول

من كنت ومن كانت

... هي ذي هنا الآن ـ فما زال الأمر حسناً . انني أجيء فأنظر اليها في كل لحظة . ولكنها ستُحمل غداً ، فأبقى وحيداً ، فما عسى أفعل ؟ هي الآن في الصالون ، مسجّاة على مائدة صُنعت من ضمّ طاولتين احداهما الى الأخرى . ولكن تابوتها سيكون في الغد أبيض بياضاً تاماً ، وسيكون كفنها أبيض . على أن الأمر ليس هو هذا ... انني ما أنفك أذهب وأجيء محاولاً أن أفسر المسألة لنفسي : ها قد انقضت ساعات ست وأنا أحاول أن أفسر المسألة لنفسي ، فلا أفلح في تركيز شتات أفكاري . الحق أنني لا أزيد على أن أذهب وأجيء ، أن أذهب وأجيء ... اليكم كيف جرى الأمر ... سأسرد لكم الحوادث متسلسلةً منظمة (لابد من النظام !) آه .. رباه .. ما أنا بكاتب .. انكم تلاحظون ذلك .. ولكن لاضير . سأقص الأمر على نحو ما أفهمه . ذلك أن أفظع ما في القضية في نظري هو أنني فهمت كل شيء .

اذا كنتم تحرصون على أن تعرفوا ، أي اذا كنتم تحرصون على أن أبدأ بالبداية ، فاعلموا أنها انما جاءت اليّ لتقترض مني بعض المال برهن بعض الأشياء . كانت تريد أن تدفع أجر اعلان في جريدة « الصوت » تذكر فيه أنها معلمة وأنها مستعدة للسفر معلمةً ، أو للمجيء الى البيوت تعطي دروساً ، الخ ، الخ . ذلك في بداية الأمر . فلم أميّزها عن كثيرات

مثلها . كانت تأتي كما يأتي سائر الناس ، بل كانت تأتي ببساطة أكبر من بساطة سائر الناس . وقد لفتت انتباهي فيما بعد . كانت نحيفة القامة ، شقراء ، ربعة الطول . وكانت شديدة البطء والتهيب في مخاطبتي ، كما تكون امرأة خائفة . (أظن أن حالها هذه كانت حالها مع جميع الرجال الغرباء عنها ، وطبيعي أنني لم أكن في نظرها الا رجلاً كسائر الرجال ، أي لم أكن في نظرها مرابياً يُقرض برهون ، بل رجلاً كأي رجل آخر) . كانت ما ان تأخذ المال حتى تدير ظهرها وتنصرف ، دون أن تقول شيئاً في أية مرة ان بين المقترضات من يناقشن ويلححن ويساومن للحصول على مبلغ أكبر . أما هذه فلا . لقد كانت تقبل ما تُعطاه . يخيَّل الىَّ أنني أهذر هذراً مضطرباً لا يُفهم . الخلاصة ... هناك تفاصيل لفتت انتباهي اليها في أول الأمر : القرطان الصغيران اللذان يزينان أذنيها وهما من فضة مطلية بذهب ، حليتها الصغيرة التافهة التي لا تساوي قرشاً ، وما الى ذلك . كانت هي نفسها تعرف أن جواهرها هذه لا تساوي قروشاً . ولكنني كنت ألاحظ من النظر الى وجهها أنها تعدُّها أشياء ثمينة . ذلك أن هذه الجواهر هي كل ما بقي لها من أبيها وأمها ، كما عرفت هذا فيما بعد . مرةً واحدة أبحت لنفسي أن أبتسم استهزاءً بهذه الأشياء . والحق أنني في العادة لا أبيح هذا لنفسي أبداً . انني أعامل الزبائن معاملة رجل مهذب ، ولا أعبِّر عما أريد التعبير عنه الا بكلمات قليلة ، أقولها بلهجة مؤدبة جافة ، « جافة ، جافة جافة » . غير أنها جاءتني ذات مرة ببقايا (نعم بقايا) معطف قديم من فراء الأرنب — فلم أستطع أن أكظم ما قام في نفسي ، فقلت لها كلاماً فيه شيء من التندر . فما أسرع ما تخضب وجهها بحمرة شديدة ! وكانت عيناها زرقاوين نجلاوين حالمتين ، فما أسرع ما اتقدتا فكأن شرراً يخرج منهما !

ولم تقل كلمة واحدة بل لمت « خرقها » وخرجت . وعندئذ انما لاحظتها لأول مرة « ملاحظة خاصة » ، وفكرت فيها . نعم ، فكرت فيها تفكيراً

خاصاً أيضاً • أجل ، هذا ما حدث • اننى لا أزال أتذكر الاحساس الذى قام فى نفسى ، أو قولوا الاحساس الرئيسى الذى هو مركّب جميع الاحساسات الأخرى : انها فى ميعة الصبا فلا يقدّر المرء أن تكون سنُّها أكثر من أربعة عشر عاماً • ومع ذلك كانت سنها ستة عشر عاماً الا ثلاثة أشهر • على أن هذا ليس ما كنت أريد أن أقوله ، ليس هذا مركّبَ الاحساسات الذى قام فى نفسى • ولقد عادت فى الغد • وعلمت بعد ذلك أنها ذهبت الى دوبرونرانوف ، والى موزير ، حاملةً معطفها الخلق البالى ، ولكن هذين المرابيين لا يقبلان الا الذهب رهناً ، فلم يحمّلا نفسهما حتى عناء اجابتها • وكنت قبلت منها قبل ذلك حجراً قد يُعدُّ من الأحجار الثمينة (وهو حجر لا قيمة له فى الواقع) ، فلما فكرت فيما فعلت دُهشت من نفسى وتساءلت : كيف قبلت منها ذلك الحجر رهناً ، أنا الذى لا يقبل الا الذهب والفضة أيضاً ؟ تلكم ، فيما أذكر ، هى الفكرة الثانية التى قامت فى ذهنى تجاهها •

وفى هذه المرة ، أى يوم عودتها من عند موزير ، جاءت تحمل الىّ « مشرب سيجارة » من خشب العنبر ، وهو شىء قد يحبه هواة ، ولكن ما عسانا نصنع به نحن الذين لا نقبل الا ذهباً ! ولما كان مجيئها الىّ تلك المرة غداة « العصيان » ، فقد استقبلتها استقبالاً شرساً • والشراسة عندى هى أن أكون خشناً • ومع ذلك لم يسعنى حين نقدتها روبلين الا أن أقول هذه العبارة بشىء من الحنق والغيظ : « انما فعلت هذا اكراماً لك •• ولو عرضت المشرب على موزير لرفضه » • وقد خاطبتها فى هذه الجملة بصيغة الجمع مبرزاً ذلك ابرازاً خاصاً ، قاصداً منه الى غرض معين « أتتويه » • كنت شريراً • فما أسرع ما تخضب وجهها بحمرة شديدة ! أدركت أننى آلمتها • فقلت لنفسى حين خرجت : « هل كان يجوز أن أذلّها من أجل روبلين ؟ » • ولم ألبث أن أجبت عن سؤالى بأننى أحسنت صنعاً ، فأخذت أضحك ، وأفرحنى الأمر كثيراً فى ذلك الحين • ولكن

ذلك لم يصدر عن عاطفة سيئة مني : فقد كنت أخفي في رأسي نية . ذلكم كان موقفي الثالث منها .

... ومنذ تلك اللحظة انما بدأ الأمر .. طبيعي أنني سرعان ما جهدت أن أعرف تفاصيل حياتها الخاصة . وأخذت انتظر مجيئها نافد الصبر . فلما جاءت كلمتها بأدب لم تألفه مني . انني لا تعوزني الثقافه ، ولا أجهل آداب السلوك الراقي . لاحظت عندئذ أنها طيبة ، متواضعة ، عذبة . ومن كان طيباً عذباً لم يملك قدرة كبيرة على المقاومة ، واذا كان لا يستسلم بسهوله ، فانه لا يعرف كيف يتهرب من المحادثة أو يتملص منها . صحيح أنه يجيب بكلمات مفردة ، ولكنه يجيب ، وكلما ازددت عليه الحاحاً ، ازداد لك اذعاناً . وعليك أنت انما يقع عبء منعه من الافلات اذا أنت أحببت ذلك . على أنها لم تشرح لي شيئاً حينذاك . ومن قراءة جريدة « الصوت » انما عرفت بعد ذلك كل شيء . ان الاعلانات الأخيرة تدل على أن مواردها نضبت نضوباً تاماً . كانت الاعلانات الأولى أكثر طلاقة . كانت تقول مثلاً : « معلمة ، مستعدة للسفر ، لتقديم عروض » ؛ ثم صارت تقول بعد برهة : « تعمل كل شيء ، تعلّم ، تصحب الأولاد ، تراقب أعمال المنزل ، تعني بمريض ، تحسن الخياطة » ، الى آخر ما هنالك مما هو معروف جداً . ولقد نشرت هذه الاعلانات مراراً الى أن ساءت حالها كثيراً ، فكان الاعلان الأخير يقول : « لا تطلب راتباً ، تكتفي بطعامها أجراً » . ومع ذلك لم تعثر على عمل ! قررت أن أمتحنها مرة أخيرة . فأخذت عدد اليوم من جريدة « الصوت » ، وأريتها اعلانا جاء فيه : « فتاة يتيمة ، تبحث عن وظيفة معلمة أو مربية لأولاد صغار ، تفضّل العمل عند أرملة مسنة قليلاً . وتعنى بأعمال المنزل » . وقلت لها :

ـ انظري . هذه نشرت الاعلان في هذا الصباح وقد تجد عملاً في المساء . في هذه الصورة انما يجب على المرء أن يقدم نفسه .

فتخضب وجهها بالحمرة من جديد ، واشتعلت عيناها ، واستدارت ،

وخرجت فوراً . سر نى ذلك كثيراً . وكان رأيى فى تلك اللحظة قد استقر وترسخ على كل حال ، وكنت مطمئناً هادىء البال غير خائف : لا أحد سيقبل أن يرهن « مشرب السيجاورة » ، حتى أن « مشرب السيجارة » نفسه لم يبق لها . ولم يخطىء ظنى . فهاهى ذى تأتى غداة غد وقد لاح فى وجهها شقاء كبير ، واضطراب شديد . فقدّرت أن شيئاً ما قد حدث لها فى البيت . ولم يخطىء تقديرى . سأحكى لكم بعد قليل ما حدث . أما الآن فان همى منصرف الى تجميع ذكرياتى . لقد بلغت فى معاملتها غاية اللطف والكياسة ، فسرعان ما كبرت فى نظرها . تلكم هى الخطة التى رسمتها . وكان ذلك بسبب الأيقونة . (لقد عزمت أمرها أخيراً على أن تجىء بها لترهنها) .. آه .. اسمعوا ! اسمعوا ! الآن يبدأ الأمر . أما قبل ذلك فكنت أخلط بين الأشياء وأرتبك ارتباكاً شديداً . الآن أريد أن أتذكر كل شىء ، أريد أن أتذكر أيسر التفاصيل وأدقّ الجزيئات . اننى أحاول أن أجمع شتات أفكارى فى نقطة ، ثم .. ثم لا أفلح فى ذلك ولا أظفر بطائل . هناك تلك الأمور الدقيقة اليسيرة ! آه ... انها أمور دقيقة جداً ، يسيرة جداً ...

كانت الأيقونة صورة للعذراء ، العذراء مع ابنها يسوع . هى أيقونة قديمة يغطيها غطاء من فضة مطلية بذهب . لاحظت أن هذه الأيقونة عزيزة على نفسها . وهى مع ذلك تجىء بالأيقونة لترهنها كاملةً دون أن تنزع عنها المعدن الذى يغطيها . قلت لها : « الأفضل أن تنزعى المعدن ، وأن تأخذى الأيقونة . ان الأيقونة شىء لطيف سريع العطب » . قالت :

ـ هل يحظر عليك أن تفعل هذا ؟

ـ لا ، ليس الأمر أمر حظر . ولكن لعلك تدركين أنت نفسك أن ...

ـ فانزع اذن •••

قلت بعد تفكير :

ـ لا • اعلمى اننى لن انزع المعدن • بل أضع الأيقونة كلها هناك ، في المشكاة ، مع سائر الأيقونات الموضوعة تحت السراج (كنت فى كل صباح أشعل أحسن سراج عندى منذ أن أفتح المكتب) ، وخذى هذه العشرة روبلات بلا حرج ولا كلفة •

ـ لست فى حاجة الى عشرة روبلات • أعطنى خمسة • وسوف أسترد الأيقونة حتماً •

أضفت أقول بعد أن لاحظت أن عينيها أخذتا ترسلان شرراً من جديد :

ـ لا تريدين العشرة روبلات ؟ ان الأيقونة تساوى هذا المبلغ •

فلزمت الصمت • ومددت اليها خمسة روبلات • وقلت :

ـ لا تحتقرى أحداً ••• أنا أيضاً كنت فى عسر وضيق ، بل كنت أسوأ حالاً • واذا رأيتنى أزاول الآن هذه المهنة ، فذلك لكثرة ما عانيت فى حياتى من ألم وعذاب •••

فقاطعتنى تقول وهى تبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ فأنت تثأر لنفسك اذن من المجتمع ، أليس كذلك ؟

كانت ابتسامتها ساخرة ، ولكن هذه الابتسامة كانت تشتمل فى الحق على غير قليل من حسن السريرة وسلامة الطوية ، وهى لا تزيد على أن تشبهنى بسائر زملائى ، فلا يكاد يكون فى كلامها شىء يسوؤنى أو يجرح شعورى أو يهين كرامتى • ولكننى قلت محدثاً نفسى : « ها ••• هأنت ذى أنت ! لقد انكشف طبعك انكشافاً جديداً ! » •

وقلت لها فجأة ، بلهجة نصفها مزاح ونصفها تعمية وسر :

ـ أنا جزء من ذلك الجزء من الكل ، الذى يريد أن يصنع شراً فيصنع خيراً !

فما ان سمعت هذا الكلام حتى نظرت الىّ مستطلعة مدهوشة ، بكثير من روح الطفولة مع ذلك ، وقالت تسألنى :

ـ اسمع ... ما هذه الفكرة ؟ من أين أُخذتها ؟ يخيَّل الىّ أننى سمعتها قبل الآن فى مكان ما ...

ـ لا تجهدى نفسك فى التذكر . بهذه الكلمات انما زكىّ مفستوفيليس نفسه لفاوست . هل قرأت قصة « فاوست » ؟

ـ لم أقرأها ... بانتباه كبير .

ـ أى أنك لم تقرئيها البتة . يجب الاعتراف بهذا .

ثم اننى مازلت ألمح فى طرفى شفتيك تلك البسمة الساخرة . فأرجوك ألا تحكمى علىّ بأننى من فساد الذوق بحيث أردت أن أقدّم اليك نفسى فى صورة مفستوفيليس . ان مرابياً يقرض برهن ، يظل مرابياً يقرض برهن . ذلك أمر نعرفه .

ـ ما أغرب أمرك ... اننى ما أردت أن أقول لك هذا البتة ...

كانت تريد أن تقول : ما كنت أتوقع أن أجدك رجلاً مثقفاً ، ثم لم تقله ، ولكن هذا لم يمنعنى من أن أحزر أنها أرادت أن تقوله . وسررت منها أعظم السرور . وقلت :

ـ فى جميع الميادين يستطيع المرء أن يصنع خيراً . لا أقول هذا لأمدح نفسى . فمن الواضح أننى لا أصنع شيئاً من خير ، وربما كنت أصنع شراً ... ومع ذلك ...

قالت وهي ترمقني بنظرة سريعة عميقة :

ـ لا شك أن المرء يستطيع أن يصنع خيراً في أي ظرف ومن أي موقع •

ثم أسرعت تردف قولها :

ـ هذا كلام حق : في أي ظرف ومن أي موقع •

آه ••• انني أتذكر كل تلك اللحظات ، أتذكر كل تلك اللحظات !. ويهمني أن أضيف الى ذلك أن هذا الشباب ، هذا الشباب الغالي ، اذا أراد أن يقول شيئاً فيه ذكاء وفيه اقتناع ، لا يعوزه أن يتخذ على الفور هيئة صريحة جداً ، ساذجة جداً ، وأن تقول لك قسمات وجهه : « انظر الى قوة الذكاء وشدة العمق فيما أستطيع أن أقوله لك أنا ! » ، وذلك لا من باب الغرور وحب الظهور كما يفعل اقراننا ، فان المرء يلاحظ أن هذا الشباب متعلق بما يقوله أشد التعلق ، وأنه يحبه أكبر الحب ، وأنه يؤمن به أعظم الايمان ، وأنه يحترمه ويعتقد أنه مستعد لأن تحترمه كما يحترمه • يالها من صراحة ! وبذلك انما يحقق النصر • ما كان أجمل هذا كله فيها !

انني أتذكر تذكراً واضحاً • لم أنس أي شيء ! وحين خرجت كنت قد عزمت أمري واتخذت قراري • ففي ذلك اليوم نفسه مضيت أتقصى أخبارها ، فعرفت عنها كل ما لم أكن قد عرفته حتى ذلك الوقت ، وعرفت خفايا قصتها الراهنة • كنت علمت خفايا حياتها الماضية قبل ذلك من لوكيريا التي كانت خادماً عندهم وكنت قد رشوتها قبل بضعة أيام • انها خفايا تبلغ من الهول أنني لا أفهم كيف أمكنها أن تظل تضحك كما ضحكت أمس ، وأن تهتم بأقوال مفستوفيليس ، بينما هي تحيا فريسة أهوال رهيبة • ولكنه سن الشباب أيضاً ! وقد فكّرت فيها عندئذ مزهواً فرحاً ، لأنني رأيت في ذلك علامة على عظمة نفسها وسمو روحها • حتى

على حافة الهاوية ، تتألق كلمة الشـاعر جوته ! ان الشـباب سمح كريم دائماً ، حتى في أخطائه . والحق أنني أقصدها هي ، أقصدها وحدها . والعجيب فى الأمر أننى كنت أكلم نفسى عنها منـذ ذلك الوقت وكأنهـا صارت « لى » ، وأننى أصبحت لا يراودنى شك فى قدرتى وسلطانى . انكم تعرفون مدى المتعة التى يذوقها المرء حين لا يشك .

ولكن ما هذا الذى أفعله ؟ اذا سرت هذا السير ، فمتى أجمع شتات أفكارى ؟ ألا فلأسرع ، فلأسرع . ليس هذا هو الأمر !

٢

طلب الزواج

الخفايا التى عرفتها عنها سأوجزها فى كلمات قليلة : لقد مات أبواها منذ مدة طويلة ــ منذ ثلاث سنين ــ فبقيت وحيدةً عند عمتين لها شريرتين، بل ان وصفهما بأنهما « شريرتان » ، لا يفيهما حقهما من الذم • ان احدى هاتين العمتين أرملة مثقلة بأسرة فلهـا ستة أولاد ؛ والثانية ــ وهى أقصر من الأولى قليلاً ــ عانس شرسـة الطبع مشاكسـة • هما امرأتان سيئتان خبيثتان كلتاهما • ولقد كان أبو الفتاة موظفاً • كان كاتباً فى دائرة من دوائر الدولة ، لا مـورد الا راتبـه • ان مستواى أنا أعلى من مسـتواه على كل حـال : فأنا كابتن متقاعـد ، خدمت فى فوج مرموق من أفواج الجيش ، وأنتمى الى أسرة نبيلة المحتـد ، وأعيش حيـاة ليس فيهـا عوز • أما أنى أقرض بالربا ، فان العمتين لن تعدما أن تنظرا الى هذا الأمر نظرة استحسان واعجاب • عاشت الفتاه خلال ثلاث سنين عبدةً لعمتيها ، ومع ذلك نجحت فى امتحاناتها بفضل ما بذلت من جهد فى الدراسة رغم ضيق الوقت • نجحت فى امتحاناتهـا ، رغم قيامها بأعمال يومية قاسـية قسـوةً لا ترحم ، وهذا يدل على أنها تتصف بسـمو عقلى وتفوق روحى لا سـبيل الى الشـك فيهما • ولماذا رغبت أنا فى أن أتزوج ؟ دعونا مما حدث لى أنا • سوف نرى ذلك فيما بعد ••• ولكن الأمر هو هذا • كانت الفتاة تعلم أولاد عمتها القراءة ، وكانت ترّقع الملابس ، وصارت فى المدة الأخيرة لا تغسـل الغسيل فحسب ، بل تغسل أرض الغرف أيضاً ، رغم

ضعف صدرها . وشيئاً فشيئاً أخذت العجوزان تضربانها وتقرعانها بسبب أية لقمة تأكلها . ثم قررتا أن تبيعاها . آه ... لن أدخل في تفاصيل هذا الحمأ . وهي لم تقصص عليّ كل شيء تفصيلاً الا فيما بعد . لقد كان رجل سمين بقّال ينظر اليها ويطمع فيها منذ سنة . وكان قد « قبر » امرأتين حتى ذلك الحين ، فهو يبحث الآن عن ثالثة . لذلك وضعها نصب عينيه ، واتخذها هدفاً يريد الوصول اليه . كان يقول لنفسه : « انها مناسبة مريحة ، فقد وُلدت فقيرة ؛ واذا كنت أريد أن أتزوج ، فذلك من أجل الأولاد » . ذلك أنه كان له أولاد . وأخذ يستعجل الأمر . فباحث العمتين . وكان في نحو الخمسين من العمر . وكرهته الفتاة ونفرت منه نفوراً رهيباً . فأخذت تنشر اعلانات في جريدة « الصوت » . ثم ابتهلت الى عمتيها أن تمهلاها مدة قصيرة يتاح لها فيها أن تفكر . فأمهلتاها مدة قصيرة ، مدةً قصيرةً لا يجوز أن تطول . كانتا تقولان : « نحن نفسنا لا نعرف ماذا نعمل من أجل أن نأكل ، فلسنا نطيق أن يشاركنا لقمتنا فمٌ آخر . » جاء البقّال الى دار العجوزين حاملاً رطل حلوى ثمنه خمسون كوبكاً . وكانت الفتاة معه . ناديت لوكيريا من المطبخ ، ورجوتها أن تذهب الى الفتاة فتهمس في أذنها انني أنتظرها أمام الباب لأبلغها أمراً مستعجلاً جداً . كنت راضياً عن نفسي كل الرضى مسروراً بها كل السرور . وكنت مسروراً طوال النهار على كل حال .

وهناك ، عند الباب ، بحضور لوكيريا ، بينما كانت مدهوشةً من أنني استدعيتها ، ذكرتُ لها ما كنت أعده سعادةً وشرفاً ... ولابد أنها لم تدهش عندئذ من الطريقة التي عمدت اليها ، ولا من قولي لها : « انني رجل مستقيم ، وقد فكّرت في جميع ظروف القضية ، وقلّبت الأمر على كل وجوهه » . والحق أنني لم أكذب حين وصفت لها نفسي بأنني رجل مستقيم . ولكن لا قيمة لهذا . وانما يجب أن أذكر أن كلامي في مخاطبتها لم يكن مهذباً فحسب ، لم يكن كلام رجل مؤدب فحسب ، وانما كان

يشتمل على أصالة أيضاً • وهذا هو الأمر الأساسي • أهي جريمة أن أعترف ؟ انني حريص على أن أحكم على نفسي ، واني لأحكم عليها • فعليّ اذن أن أقول ما لي وما عليّ • وهذا ما فعلته • ولقد أعدت تذكر ذلك فيما بعد ، فتلذذت كثيراً ، رغم أنه غباء • كاشفتها صراحةً حينذاك ، دون أن تحرج ، بأنني أولاً لست صاحب مواهب ، وانني امرؤ أناني سيء (أتذكر هذا اللفظ ، فلقد أعددته وأنا في طريقي الى بيتها ورضيت عنه) ، وان لي في أغلب الظن جوانب سيئة كثيرة • قلت ذلك كله بنوع من الزهو • ولعلكم تتصورون اللهجة التي قلته بها • لكنني بعد أن ذكرت سيئاتي بصدق ونبل ، لم أغفل طبعاً عن الانتقال الى تعداد حسناتي ، فقلت لها : « انني أمتاز بكيت وكيت وكيت ••• » • رأيت أنها مرتاعة جداً • ولكنني لم أحاول أن أخفف أو أطفف شيئاً • بالعكس : فانني حين رأيت خوفها أخذت أقوّي النغمة عامداً • قلت لها بغير تحرج انني لن أبخل عليها بالطعام ، فستأكل عندي ما تشتهي ، أما الفساتين الجميلة وأما المسارح وأما حفلات الرقص ، فلا شيء منها البتة ، الآن على الأقل ، وانما قد أسمح بها في المستقبل ، حين أكون قد بلغت هدفي • كانت هذه اللهجة القاسية تفتنني فتنة كبيرة • وأضفت أقول بغير الحاح كثير انني اذا كنت قد اخترت هذه المهنة ، اذا كنت قد فتحت هذا المكتب ، فان ذلك يرجع الى ظرف معين • والحق أنني كان من حقي جداً أن أقول هذا الكلام : فالهدف الذي أشرت اليه قائم في ذهني ، والظرف الذي ذكرته قد وقع فعلاً • اسمعوا يا سادتي : ثقوا أنني كنت طوال حياتي أبغض صندوق الاقراض بالربا أكثر مما يبغضه سائر الناس • لكنني وان يكن مضحكاً وسخيفاً أن يستعمل المرء تعابير معمّاة أؤكد لكم أنني « أثأر لنفسي من المجتمع » • هذا صحيح • هذا هو الحق • وبذلك يكون تندرها عليّ في ذلك الصباح يعوزه الانصاف • حتى أنها كانت ستنفجر ضاحكةً كما ضحكت في المرة الأولى لو عبّرت عما يعتمل في نفسي بتلك الألفاظ ذاتها فقلت لها : « نعم انني أنتقم لنفسي من المجتمع » • ولكن

بدا لى فجأة أننى أستطيع أن أكسب خيالها اذا أنا أشرت اشارة متخفية ، وقلت جملة سرية معمَّاة • ثم اننى كنت قد أصبحت فى تلك اللحظـــة غير خائف من شىء : كنت أعلم أن البقال الضخم ينفِّرها أكثر مما أنفِّرها أنا على كل حال ، وأن وجودى على بابها مادام الأمر كذلك أشبه بوجود منقذ أو محرِّر • كنت أدرك ذلك ادراكاً تاماً • آه ••• ان الرجل يدرك كل ما هو خسة ودناءة أكثر من ادراكه أى شىء آخر • ولكن هل كان ذلك خسة ودناءة ؟ كيف يجرؤ المرء أن يحكم على انسان ؟

ألم أكن أحبها حتى منذ ذلك الحين ؟

انتظروا يا سادة ، اننى لم أشر بطبيعة الحال أية اشارة الى اننى أحسن اليها • اننى لم أمنَّ عليهـا • أبداً • بالعكس ، بالعكس : قلت لهـا : « أنا الذى سأكون مديناً لك بالشكر لا أنت • وأنت التى تطوقين عنقى بجميلك لا أنا » • بل لقد قلت لها هذا كلمةً كلمة • لم أستطع أن أمسك عن قوله • ولعل ذلك كان منى حماقة ، لأن شيئاً من الانقباض قد ألمَّ عندئذ بوجهها • ولكننى حققت ظفـراً حاسـماً وانتصـاراً قاطعاً على كل حال •

انتظروا • ما دمت قد حرَّكت هذا الحمأ كله ، فاسمحوا لى أن أذكر لكم آخر حقارة صدرت عنى • فحينما كنت واقفاً هناك على العتبة ، كنت أجتر هذا الكلام محدثاً نفسى : « انك فارع الطول مونق القامة ، مثقف ؛ ثم انك لست دميم الوجه على كل حال ، وليس فى هذا أى ادعاء أو تبجح أو مباهاة » • ذلك ما كان يدور فى رأسى ويجول فى خاطرى • ولقد وافقت على طلبى فى ذلك الوقت عنـد البـاب فقالت : « نعـم » • وافقت طبعاً • ولكن ••• يجب أن أضيف هذه الحقيقة : انهـا فكرت طويـلاً ومليّاً ، هناك عند الباب ، قبل أن تنطق بكلمة « نعم » تلك • حتى لقد بلغتْ من طول التفكير أننى أخذت أتساءل : « فماذا ؟ » ، لم أستطع أن أمسك عن القاء هذا السؤال عليها بلهجة خاصة مصطنعة •

وقد بلغ وجهها من التعبير عن شدة الجد أننى كان يمكن أن أقرأ فيه ما كان يدل عليه وينم عنه ! ولكننى شعرت مع ذلك بخيبة الأمل . قلت أحدث نفسى : « هل يمكن أن تتردد فى التخير بينى وبين صاحب الدكان ؟ » آه .. عندئذ لم أفهم . لم أفهم شيئاً البتة . وأنا حتى الآن ما فهمت من الأمر شيئاً . أتذكر أن لوكيريا ركضت ورائى حين انصرفت ، واستوقفتنى فى الطريق وقالت لى : « جزاك الله خيراً يا سيدى على أنك أخذت آنستنا الطيبة . ولكن لا تجرح شعورها فانها ذات شمم وكبرياء » .

ذات شمم وكبرياء ؟ اننى أحب أولئك اللواتى يتصفن بالشمم والكبرياء . ان اللواتى يتصفن بالشمم والكبرياء يكنّ طيبات عامةً حين .. نعم حين لا يبقى لدى الرجل شك فيما صار له عليهن من نفوذ وسلطان . أهذا حق ؟ أوه ! يا للرجل ما أكبر دناءته ، وما أشد خراقته ! هل كنت راضيا رضا كافيا ؟ هل كنت مغتبطا اغتباطا كافيا؟ وحين أخذت تفكر أمام الباب طويلاً و ملياً لتقول لى « نعم » ، وكنت أنا مدهوشاً من ذلك ، ألا يجوز أن يكون تفكيرها وقتئذ هو ما يلى : « شقاء فوق شقاء ، أفلا يحسن أن أختار الرجل الأسوأ ، أى صاحب الدكان ، فعسى أن يسكر ذات يوم فيبلغ من فرط السكر أن يأخذ يكيل لى الضربات تلو الضربات الى أن أموت ؟ » . آه .. ما رأيكم ؟ هل يجوز أن تكون هذه الفكرة هى التى دارت فى خلدها حينذاك ؟

نعم ، واننى الى هذا اليوم لا أفهم ، لا أفهم من الأمر شيئاً . قلت منذ لحظة ان من الجائز أن تكون قد راودتها هذه الفكرة : أن تختار الأسوأ ، أى أن تختار البقال .. ولكن أينا كان فى نظرها هو الأسوأ ، أنا أم البقّال ؟ البقّال أم المرابى الذى يستطيع أن يستشهد بالشاعر

جوته ؟ ذلكم سـؤال آخر • أى سؤال ؟ هيه ، ماذا ؟ أما زلت لا تفهم ؟ انك لتتكلم عن السؤال بينما الجواب على مائدتك أمامك ! ولست أهتم بأمرى أنا على كل حال • ولكن ماذا حقاً ؟ هل اهتمامى منصرف الى نفسى أم هو منصرف الى آخر ؟ ذلكم ما يستحيل علىّ أن أقطع فيه برأى جازم • ان الأفضل أن أضطجع وأنام • اننى أحس بصداع •

٣

ابنة الرجال وهو نفسه الاصدق من الاسرشيئا

لم أستطع أن أنام . وأين لى أن أنام ! كنت أشعر بمطرقة تسقط على جمجمتى ضرباً . أود لو أستطيع أن أتعود هذا كله ، أن آلف هذا الوحل كله . آه ... الوحل ! يا للوحل الذى أخرجتها منه ! كان ينبغى لها أن تفهم ذلك ، وأن تعرف كيف تقدر عملى حق قدره ! وكان يحلو لى أن استرسل فى بعض الأفكار ، منها هذه الفكرة مثلاً : ان سنى واحد وثلاثون عاماً ، ولا تتجاوز سنها هى ستّ عشرة سنة . ما كان أعظم افتتانى بذلك ! ان هذا الاحساس بعدم التوازن والتكافؤ شىء لذيذ ، لذيذ جداً .

وقد تمنيت مثلاً أن نحتفل بزفافنا « على الطريقة الانجليزية » ، أى ألا يكون فى حفلة القران الا نحن والشاهدان اللذان لابد منهما ، واللذان يمكن أن نجعل لوكيرنا أحدهما . ثم نركب القطار فوراً ، فنسافر ولو الى موسكو (وكان لى بموسكو عمل يجب أن أنجزه) ، وننزل أحد الفنادق فنمكث فيه أسبوعاً أو أسبوعين ولكنها اعترضت على هذه الفكرة ، ورفضتها ، واضطررت أن أذهب الى العمتين أحييهما وأعبر لهما عن احترامى بحجة أنهما الأسرة التى أخذت الفتاة من بين أحضانها . أذعنتُ لمشيئتها ، وأدّيتُ للعمتين واجب الاجلال والتبجيل . حتى لقد وهبت لهاتين المخلوقتين مائة روبل ، وأضفت الى ذلك وعوداً بذلتها لهما .

وقد فعلت ذلك بدون أن أطلعها عليه طبعاً ، حتى لا يتأذى شعورها من هوان بيئتها . وسرعان ما أبدت العمتان كثيراً من المودة والملاطفة . ونشب خلاف على جهاز العرس : لم يكن عندها ثياب ، ولكنها رفضت أن تشترى ثياباً . ثم أفلحتُ فى أن أفهمها أنها لا يمكن أن تكتفى بالثياب البالية التى عندها ، وقلت لها اننى أنا الذى أتولى أمر جهازها ، والا فمن عسى يتولاه غيرى ! على أن الشيء المهم هو أمرى أنا ! لقد أسرعت أفضى اليها بافكار شتى كانت قد دارت فى خاطرى ، على الأقل لتنظر اليها بعين الاعتبار بعض النظر ، ولعلنى نجحت فى هذا وبلغت ما أردت . بل أكثر من ذلك أنها فى البداية ، رغم مقاومتها ، أصبحت تقبل على اقبالا فيه حب ، وتستقبلنى حين عودتى فى المساء استقبالاً زاخراً بالحماسة ، وتأخذ تهذر هذرها البرىء ، فتقص علىّ حكاية طفولتها كاملةً ، وسنى صباها التى قضتها فى دار أبيها ، وما كانت تعرفه عن أبيها وأمها . لكننى كنت أعرف كيف أصب ماءً بارداً على هذه النشوة وهذا السكر . وتلك كانت فكرتى . كنت أرد على حماستها بصمت ، بصمت متسامح طبعاً .. فما أسرع ما لاحظت هذا التعارض ، وما أسرع ما نظرت الىّ نظرتها الى لغز مستغلق . وعلى هذه الالغاز انما كنت أبنى أنا حساباتى وأعقد آمالى ! بل لعلنى من أجل أن تحلّ هى هذا اللغز المستغلق انما اندفعت الى فعل ما هو سخف واستحالة . عمدت فى أول الأمر الى القسوة . أدخلت القسوة الى بيتى نظاماً ثابتاً . وتمّ هذا من تلقاء نفسه بدون أى جهد . لم يكن ثمة سبيل غير هذا السبيل . ولقد تخيلت هذا النظام فى ظرف مستقل عن ارادتى ، فلا يد لى فيه . دعونا ! لماذا أقدح فى نفسى ؟ لقد كان ثمة نظام حقاً . ولكن اسمعونى : مادام الأمر أمر حكم على انسان ، فيجب ألا يتم الحكم عليه الا مبنياً على معرفة كاملة بالأمر ... اصغوا الىّ .

من أين أبدأ ؟ ذلك أن البدء صعب جداً . متى أراد المرء أن يبرىء نفسه ، اصطدم بعقبات ولقى صعاباً . اليكم هذا المثال : ان الشباب يحتقر

المال • فسرعان ما ألححت على المال ، وجعلت كل شيء رهناً به ، مبنياً عليه • وبلغت من شدة الالحاح أنها غدت تصمت مزيداً من الصمت شيئاً بعد شيء • كانت تحملق وتصغي وتنظر وتسكت • وهذا مثال آخر : ان الشباب يحب المروءة والنخوة ، وكانت هي صاحبة مروءة ونخوة ، كانت متقدة الحماسة شديدة الحمية ، ولكنها كانت ضئيلة الحظ من الصبر ، فما ان تعارضها حتى يستبد بها شعور الاحتقار • وكنت أنا أحب رحابة الصدر وسعة الفكر ، وكنت أحب أن أعلـّمها هذه الرحابة وهذه السعة ، أليس هذا حقاً ؟ سأختار لكم مثالاً مبتذلاً : ما عساني أفعل من أجل أن أشرح لطبع كطبعها مسألة الاقراض بالربا على رهن ؟ لم أواجه المسألة رأساً بطبيعة الحال ، والا كنت كمن يستغفرها عن هذا العمل ، وانما أنا عمدت الى الزهو ، فتكلمت بما يشبه الصمت • انني أستاذ بارع في فن الكلام بغير كلام ، فن الكلام بالصمت • كنت طول حياتي أتكلم صامتاً ، وعشت في داخل نفسي كل مأساة صمتي • آه ••• ما كان أشقاني ! انفضّ عني الجميع ، انفضوا عني وهجروني ، دون أن يعلم بذلك أحد في يوم من الأيام • وها هي ذي الصبية التي تبلغ من العمر ستة عشر عاماً تتخيل فجأة ، بعد أن سمعت عني كلاماً من أشخاص ليسوا شرفاء ، ها هي ذي تتخيل أنها تعرف كل شيء ، انها على علم بكل شيء ، في حين أن سرّي ظل محبوساً في قرارة نفسي ، نفس الرجل ! وظللت صامتاً ، صامتاً معها خاصة ، الى أن كان الأمس • فاذا سألتموني لماذا صمت ، قلت لأنني متكبر صلف • لقد أردت منها أن تعرف كل شيء بنفسها ، دون أن أقوله أنا لها ، ولكن دون أن تعتمد أيضاً على نمائم دنيئة ووشايات خسيسة ، أردت أن تحزر من أنا ، وما أنا ، وان تدرك ذلك حق ادراكه • حين استقبلتها في بيتي أردت أن أحظى باعتبارها كاملاً • أردت أن تقف مني موقف الضارع المبتهل بسبب ما قاسيت من آلام ، وكنت أستحق منها هذا الموقف فعلاً • آه ••• لقد كنت شديد الكبرياء دائماً ، فاما أن أنال كل شيء واما

ألا أنال شيئاً . ولأنني كرهت دائماً أنصاف الحلول في أمور السعادة ، ولأنني أردت دائماً أن أبدو صلب العود قوى الارادة ، انما اضطررت في ذلك الأوان أن أعمد الى تلك الطريقة : « عليك أنت أن تحزرى وأن تقدرى ! » . ذلك أنني - ويجب أن نسلّم بهذا - لو أخذت أشرح لها الأمر وأقص عليها الحكاية ، وأخذت أتحايل وألتمس منها الاحترام ، لكنت كمن يسألها صدقة .. ولكن .. ولكن .. ما لى ولهذا الكلام كله ؟

هذا سخف ! سخف وألف سخف ! المهم أنني شرحت لها فجأةً ، بكلمتين ، من غير رحمة ، نعم من غير رحمة ، (يجب أن الحّ على ذكر هذا الخلو من الرحمة) ان المروءة عند الشباب شيء خليق بالاعجاب ، ولكنه لا يساوى قرشاً صغيراً . لماذا ؟ لأن اكتساب المروءة سهل أشد السهولة ، لأن المروءة لا تنشأ عن أن المرء عاش ، لأن هذه الأمور هي « أولى انطباعات الحياة » ان صح التعبير . وانما ينبغى أن تنظر الى الانسان وهو يضطرب في جنبات الحياة ويعمل . ان هذه المروءة لا تكلف كثيراً . وهي ان كلّفت المرء شيئاً فانما تكلفه أن يهب حياته ، وهو لا يحتاج من أجل هذا الا الى شيء من فرط حرارة الدم وفيض القوة ، وهو ظامىء الى الجمال أشد الظمأ دائماً ! لا ، ما هذه هي الشجاعة . حاول أن تختار لنفسك مأثرة صعبة ، مأثرة لا تحدث جلبة كثيرة ، ولا يكون لها بريق وتألق ؛ مأثرة ترافقها النميمة والشتيمة ، وتتطلب تضحية كبيرة ، ولا تؤدى الى أى مجد ؛ مأثرة تظهر فيها - أنت الرجل اللامع - بمظهر الجبان الحقير في نظر جميع الناس ، مع أنك أشجع أهل الأرض طراً ، حاول أن تحقق هذه المأثرة فترى ألا تعدل عنها وتنكص على عقبيك ؟ أما أنا فانني لم أزد طوال حياتي على أن أحمل ثقل أعمال كهذه الأعمال .

كانت في أول الأمر تناقش ، بل تناقش كثيراً ! ثم قررت أن تصمت ، وأن تصمت صمتاً تاماً . أصبحت تكتفى بأن تحملق حين تسمع

كلامى ، تحملق حملقة شديدة وهى تنصت الى أقوالى انصاتاً فيه انتباه رهيب ! ••• و ••• مع ذلك ، لمحت فى وجهها ، على حين فجـأة ، ابتسامة تنم عن أنها لا تصدق ، ابتسامة صامتة ، ساخرة • وكانت تبتسم هذه الابتسامة حين أدخلتها بيتى •

صحيح أنها لم يكن لها أى مكان تذهب اليه •••

٤

خطط وخطط أخرى

أينا نحن الاثنين بدأ حينذاك ؟

لا أحد ٠ لا أنا ولا هي ٠ لقد بدأ الأمر منذ الخطوة الأولى ٠ قلت قبل الآن انني أدخلتها بيتي على نيـة القسـوة ٠ ومع ذلك لم ألبث أن رفقت ٠ كنت قد شرحت لها حين كنا خطيبين لا أكثر ، أنها سيكون عليها أن تتولى تلقي الأشياء المرهونة وأن تؤدي مبالغ الاقراض ، ولم تعترض في ذلك الحين (لاحظوا هذا) ٠ وأكثر من ذلك أنها أكبّت على العمل بهمة ونشاط ٠ يجب أن أذكر أن البيت والأثاث وكل شيء قد بقي كما كان في الماضي ٠ هو بيت يتـألف من حجرتين : احداهما صـالة كبـيرة جعلت هي المكتب ؛ والثانية صالة واسعة هي الأخرى جعلناها غرفة نومنا المشتركة ٠ وكان أثاث بيتي ليس فيه شيء من بريق ، حتى ان أثاث مسكن العمتين كان أحسن منـه ٠ وفي صـالة المكتب انما توجد الايقونات مع السراج ، أي في الصالة التي فيها صندوق الاقراض ٠ وفي غرفة النوم توجد خزانتي ، وهي تضم عدداً من الكتب ، وحقيبةٌ كنت أحمل مفاتيحها دائماً ؛ ويوجد سرير وموائد وكراس ٠ وكنت قد أبلغت خطيبتي أننا سنقف على طعامنـا ، أي على طعامي وطعامها وطعام لوكيريا التي استخدمتها ، روبلاً واحداً في اليوم ، لا أكثر من ذلك ٠ فلم تعترض بشيء ٠ ولكنني زدت المبلغ من تلقاء نفسي ثلاثين كوبكاً للانفاق على حاجات البيت ٠ وكان هناك المسرح أيضـاً ٠ وكنت قد قلت لخطيبتي اننـا لن نذهب الى المسرح

أبداً . لكنني مع ذلك سمحت بأن نذهب الى المسرح مرةً كلَّ شهر ، وتمَّ ذلك على نحو لائق ، فكنا نحجز مقاعد في مكان حسن من الصالة . وكنا نذهب الى المسرح معاً . ذهبنا ثلاث مرات ، فشاهدنا مسرحية « سباق السعادة » ومسرحية « الطيور المغردة » فيما أظن . (ولكن ما قيمة هذا ؟ لست أهتم بهذا الأمر أى اهتمام !) . كنا نذهب الى المسرح صامتين ، ونعود منه صامتين . لماذا ؟ لماذا التزمنا جانب الصمت منذ أول يوم ؟ على أننا لم ينشب بيننا أى شجار فى البداية .

لم نتشاجر فى الآونة الأولى ، ومع ذلك خيَّم بيننا الصمت . وانى لأذكر كيف كانت تختلس النظر الىَّ من تحت ، فلما لاحظت ذلك اشتد صمتى . حقاً اننى أنا الذى ألححت على الصمت . لقد انفجرت هى مرةً أو مرتين ، فاندفعت الىَّ تريد أن تعانقنى وتقبّلنى ، ولكننى استقبلت اندفاعها ببرودة وجفاف لأن هذه المظاهر أعراض مرضية هسترية ، ولأننى كنت فى حاجة الى سعادة مضمونة مؤكدة يشفعها احترام من جانبها وتبجيل . نعم ، وكنت على حق . وكان يعقب الانفجار يوم ملىء بالشجار .

أقصد ... لم يكن ثمة تشاجر بمعنى التشاجر ، وانما كنا نصمت ، وكان كل واحد منا يقف من الآخر موقفاً فيه وقاحة ما تنفك تزداد . « تمرد وعصيان » ، ذلك ما كان يحدث . ولكنها لم تكن تحسن التصرف فى الأمر والاحتيال عليه . نعم ، كان ذلك الوجه العذب يتخذ هيئة تزداد تجهماً وشراسةً شيئاً بعد شىء . حتى لقد أصبحت تنفر منى وتكرهنى . هل تصدقون ؟ لقد أتيح لى أن ألاحظ هذا . وكانت تلك النوبات تخرجها عن طورها ، لا شك فى ذلك . ولكن حين تخرج فتاة من وحل كالوحل الذى كانت فيه ، وحين تتخلص من بؤس كالذى الذى كانت تعانيه اذ كانت تغسل بلاط الأرض ، فهل يجوز لها أن تتشكى من فقرنا ؟ ولاحظوا أن الأمر لم يكن فقراً بل كان اقتصاداً ، حتى لقد كنا

لا نضنُّ على نفسنا بشيء من الترف اذا وجب الترف : مثال ذلك أنني كنت حريصاً على نظافة الملابس الداخلية • وحتى قبل الزواج كنت أعتقد دائماً أن نظافة الرجل ترضى المرأة • على أنها لم تكن تغضب من الفقر في الواقع ، وانما كانت تغضب من هذا الذي تراه فيَّ من الحرص على التوفير والاقتصاد في أعقاب الشموع مثلاً • وكانت تقول لنفسها : لابد أن لهذا أسبابه وعلله • انه رجل سيء الطبع » • وامتنعت فجأة عن الذهاب الى المسرح • وازدادت شدة اللذع في ابتسامتها الساخرة ••• وضاعفتُ الصمت من جهتي •

ألا يجب عليَّ أن أبرىء نفسي ؟ ان صندوق الاقراض ذاك هو الذي كان أخطر ما في الأمر • اسمحوا لي : لقد كنت أعلم أن المرأة ، ولا سيما اذا كانت سنُّها ستة عشر عاماً ، لا تملك الا أن تطيع زوجها • ان النساء ليس لهن شخصية • تلك بديهية • ومازلت الى اليوم وحتى في هذه اللحظة أعدها بديهية !

لا قيمة ولا شأن لما هو الآن في الصالة • ان الحقيقة هي الحقيقة ، وليس يستطيع حتى ستوارت مل أن يكون له في الأمر حيلة ! فالمرأة التي تحب ، نعم ، المرأة التي تحب ، تعشق فيمن تحبه حتى عيوبه وسيئاته • وهو مع ذلك لا يطلب كل هذا التسامح من جانبها في حق نقائصه • ذلك منها كرم وسماحة • ولكنه يدل على أنها ليست بذات شخصية • انافتقاد الشخصية هو ما ضيَّع النساء • أعود فأكرر أنه لا قيمة ولا شأن لما هو الآن في الصالة ، أعني الجثة المسجَّاة على المائدة • هل وجود هذه الجثة دليل على قوة الشخصية ؟ لا ، دعوكم من هذا الكلام !

اسمعوا • لقد كنت واثقاً بحبها حينذاك • ألم تكن ترتمي عليَّ لتعانقني ؟ اذن كانت تحبني ، أو قولوا كانت تريد أن تحبني • نعم ، هذا هو التعبير الصحيح : كانت تريد أن تحب ، كانت تسعى الى أن تحب • والشيء الأساسي هو أنه لم يكن ثمة عيوب من تلك العيوب التي يجب

عليها ان تحاول تبريرها وتسويغها • لعلكم تقولون انى مراب اقرض برهن • والناس جميعاً يكررون هذا • ولكن ما شأن أن أكون مرابياً يقرض برهن ؟ لا شك فى أن هنـاك أسباباً قد تدفع أكرم انسان الى أن يصبح مرابياً يقرض على رهون • اسمعوا أيها القراء الأصدقاء : هناك أفكار بل هناك فكرة تبدو غبية غباءً رهيباً حين يُنطق بها ، أى حين يعبرَّ عنها بألفاظ ، حتى ليستحى صاحبها نفسه منها ، فهى تقع من النفس موقعاً سيئاً ، ويكون لها رنين ردىء يؤذى السمع • ومع ذلك تكون هى الحقيقة ، الحقيقة بعينها ! نعـم ، لقد « كان من حقى » أن أخـرج من المأزق بفتح مكتب اقـراض • « لقد نبذتمـونى يا معشر البشر ، أى طردتمـونى بصمتكم الذى يفيض ازدراءً ، ورددتم على اندفاعاتى التى كانت تحملنى اليكم باساءة لن أنساها فى يوم من الأيام أبداً • فكان من حقى اذن أن أحمى نفسى منكم بجدار ، أن أجمع ثلاثين ألف روبل ، ثم أمضى الى مكان بالقرم على الشاطىء الجنوبى أقضى فيه حياتى على تلال مزروعة بأشجار الكرمة أكون قد اشتريتها بالثلاثين ألف روبل ، فأحيا بعيداً عنكم ، ولكن دون أن أبغضكم ، واحتفظ بمثلى الأعلى فى نفسى ، تصحبنى زوجتى مع أولادى اذا رزقنى الله أولاداً ، وأحـاول أن أسـاعد الفلاحين الذين يجاوروننى » • الحق أن من الأفضـل أن اعترف لنفسى بكل هذا فى هذه اللحظة • والا فهل يتخيل المرء شيئاً أشد غباوة وحماقة من قصة كهذه القصة أرويها لهـا بصوت عال ؟ هذا هو السبب فى ذلك الصمت المتكبر الصلف • هذا هو السبب فى أننا كنا نجلس صامتين بغير كلام • ثم ما الذى كان يمكن أن تفهمه من الأمـر ؟ ان سنّها ستة عشر عاماً ، فهى فى مطلع الصبا ••• نعم ، ما الذى كان يمكن أن تفهمه من تبريراتى ومن تباريحى وعذاباتى ؟ ان طبعها بسيط ساذج ، وانها جاهلة بالحياة ، وان رأسها فوق ذلك كله مترع بالآراء السهلة التى هى من خصـائص الشـباب ، وهى تتصف بما تتصف به « النفوس الجميلة » من عمـاوة •

ثم هي ترى صندوق الاقراض بالربا ولا ترى سواه ! فأنَّى لها أن تدرك ! (ولكن هل كنت مرابياً جشعاً لا يرحم ؟ ألم تر بنفسها أنني لا أغتني كثيراً ؟) . آه ... يا للحقيقة ما أشدها هولاً في هذا العالم ! الحقيقة شيء رهيب ! ان تلك اللؤلؤة ، تلك الطفلة العذبة ، كانت طاغية مستبدة ، كانت طاغية تسوم نفسي عذاباً لا يطاق . كانت لي جلاداً لا يرحم ! أتظنون أنني كنت لا أحبها ؟ من يستطيع أن يزعم أنني كنت لا أحبها ؟ يا لسخرية القدر والطبيعة ! ان اللعنة تطارد حياة البشر ، حياة البشر عامةً ، وحياتي أنا خاصة . انني أدرك الآن أن هناك أمراً أخطأت فيه التقدير ! ان هناك شيئاً لم يحدث كما كان ينبغي أن يحدث . لقد كان كل شيء واضحاً أشد الوضوح ، كانت خطتي صافية صفاء النهار : « هو قاس ، صلف ، لا تواسيه تعزيات غيره ، فيتألم ويتعذب صامتاً » . كذلك كان الأمر . أنا لم أكذب ! لم أكذب ! كنت أقول لنفسي : « لسوف ترى بنفسها أنني أصدر عن سمو في النفس ، وأنها لم تلاحظ ذلك . حتى اذا أدركت ، قدرتني عشرة أضعاف قدرها لي الآن ، وارتمت على التراب ضامةً ذراعيها ضراعةً وابتهالاً » . تلكم كانت خطتي . ولكنني نسيت شيئاً ، أو غاب عن بصري شيء . هناك أمر غفلت عن تلبيته .

كفى ! كفى ! من أستغفر ، وممن أطلب العفو ؟ لقد انتهى كل شيء . انتهى كل شيء . أيها الرجل الجسور ، كن متكبراً صلفاً ! لست أنت المذنب !

لسوف أقول الحقيقة ؛ لست أخشى أن أقابل الحقيقة وجهاً لوجه : انها « هي » المذنبة ... « هي » !

٥

العزبة تتمرد

بدأت المشاجرات لأنها ارتأت فجأةً أن تدفع للمقترضين ما تشاء هي ، وأن تقدر الأشياء المرهونة بمبالغ تفوق قيمتها كثيراً ، حتى لتعطي المقترض ضعفي قيمة الرهن ، وقررت أن تعاندني في هذا . ولقد خالفتها في الرأى . وعندئذ انما تدخلت حكاية امرأة الكابتن ...

في ذات يوم جاءت امرأة عجوز هي زوجة كابتن ، جاءت ترهن حلية هي ميدية أهداها اليها المرحوم زوجها ... فهي كما ترون ذكرى . فقدمت اليها قرضاً قدره ثلاثون روبلاً . وقد أخذت المرأة تئن بصوت شاك طالبةً الينا أن نحافظ على الحلية . وكنا سنحافظ عليها طبعاً ! ثم انقضت خمسة أيام فاذا بالمرأة العجوز تعود الينا لتستبدل الحلية المرهونة بسوار لا تساوى قيمته ثمانية روبلات . فرفضت ذلك طبعاً . ولابد أنها لاحظت في نظرة زوجتي شيئاً حينذاك ، فجاءت ذات يوم أثناء غيابي فقبلت زوجتي أن ترد اليها الحلية وأن تأخذ منها السوار .

فلما علمت بالأمر في ذلك اليوم نفسه ، قلت بضع كلمات مقتضبة ، ولكنني قلت تلك الكلمات بلهجة حازمة من أجل أن أردّها الى الصواب . كانت جالسةً على السرير تنظر الى الأرض وتلامس السجادة بطرف حذاء قدمها اليمنى (وتلك حركة مألوفة فيها) ، وكانت شفتاها تتقلصان بابتسامة ساخرة سيئة . لم أرفع صوتي صائحاً في تلك المناسبة ، وانما

نبّهتها بهدوء الى أن المال « مالى أنا » ، وأن من حقى أن أنظر الى الحياة نظرتى الخاصة ، وأننى حين دعوتها الى بيتى لم أخف عنها شيئاً • فما ان سمعت هذا الكلام حتى وثبت واقفةً على حين فجأة ، وأخذت ترتجف وترتعد ، بل أخذت ـ مارأيكم ؟ ـ تضرب الأرض بقدميها غضباً وحنقاً • وحش كاسر • نوبة عصبية ! وحش كاسر اعترته نوبة عصبية ! ذُهلت • لم أكن أتوقع غضبة كهذه الغضبة أبداً • ولكننى لم أفقد سيطرتى على نفسى ، ولم أقم بأية حركة ، وانما أعلنت لها بذلك الصوت الهادىء نفسه اننى أحظر عليها أن تشارك فى عملى منذ اليوم • فانفجرت تضحك ، وخرجت من المسكن •

الواقع أنها لم يكن من حقها أن تترك بيت الزوجية • ولقد اتفق رأينا منذ الخطوبة على ألا تذهب الى أى مكان الا بصحبتى •

وعادت فى المساء • ولم أنطق بكلمة •

وخرجت فى الغد ، وخرجت فى غداة الغد • فأغلقت مكتبى ، ومضيت الى بيت عمّتيها • كنت قد قطعت جميع علاقاتى بهما منذ يوم زواجنا : فلا هما تأتيان الىّ ، ولا أنا أذهب اليهما فعلمت هناك أنها لم تجىء الى عمّتيها • وقد أصغت العمتان الىّ مستطلعتين ، بل لم يفتهما أن تضحكا علىّ ، وقالتا لى : « تستحق ! » • ولم أكن أتوقع أن تستهزئا بى وتتهكما علىّ • ولكننى رشوت احداهما ـ وهى العانس ـ بمائة روبل دفعت لها منها خمسة وعشرين روبلاً على الحساب • فما انقضى يومان حتى جاءتنى العمة العانس تقول لى : « ان لضابط من الضباط هو الليوتنان يافيموفتش الذى كان أحد رفاقك فى الجيش ضلعاً فى الأمر » • صعقنى هذا الكلام صعقاً • ان يافيموف هذا هو الرجل الذى ألحق بى الأذى والضرر فى الجيش أكثر من أى شخص آخر • وقد تجاسر منذ شهر فجاء الى مكتبى مرتين بحجة أنه يريد ايداع رهن واقتراض مال • وانى لأتذكر أيضاً أنه أخذ يمازح زوجتى • فاقتربت منه وأمرته بألا تطأ

قدماء بيتي بعد الآن بحكم طبيعة العلاقات التي بيننا • ولكن لم تساورني أية شبهة ولم يخامرني أي ظن ؟ وكل ما انصرف اليه ذهني أن الرجل سيىء الخلق قليل الحياء • ولكن هاهي ذي العمة تنبئني الآن أنهما قد تواعدا ، وأن مدبرة هذه المكيدة امرأة كانت في الماضي من صاحبات العمتين ، وهي أرملة اسمها جوليا سامسونوفنا كان زوجها كولونيلاً • وقالت لى العمة العانس : « اليها انما تذهب الآن زوجتك » •

لا داعي الى سرد التفاصيل • حسبي أن أذكر أنني ضيَّعت ثلاثمائة روبل ، ولكنني توصلت بعد يومين الى تدبير كل شيء على النحو الذي يكفل لى أن أكون في الغرفة المجاورة للغرفة التي سيختلي فيها يافيموف بامرأتي لأول مرة ، فأتنصت عليهما • وقبل أن يحين الموعد بيوم ، حدث بيني وبين زوجتي شجار قصير كان لابد أن يبدو لى بليغ الدلالة •

لقد رجعت الى البيت في نحو المساء ، فجلست على حافة السرير ، ونظرت الىَّ ساخرةً بينما هي تضرب السجادة بنعل حذائها • فاذا أنا يخطر ببالي على حين فجأة وقد وقع بصري عليها أنها قد أصبحت في هذا الشهر غير ما كانت ، حتى لقد اصبحت نقيض ذاتها • فهي الآن شديدة الحنق ، وشرسة الخلق كثيرة التعدي ، ولا أقول وقحة ، وانما أقول مضطربة زاخرة بروح التمرد • وكانت هي تحاول أن تستثير في نفسها روح التمرد هذه • ومع ذلك كانت عذوبتها ورقتها ودماثتها تمنعها من الانقياد للتمرد • ان المرأة العذبة الرقيقة الدمثة مهما تتجاوز الحدود في انتقالها من الدماثة الى التمرد ، يظل يحس المرء أن طبيعتها ليست هي هذه الطبيعة ، وانما هي تكره نفسها على العصيان اكراهاً ، ولا تفلح أبداً في التغلب على كل خفر وكل تحفظ • وهذا النوع من المزايا هو الذي يحيِّر الخصم ويفل سلاحه أكثر من سائر المزايا ، لأنه يجعله هو نفسه متردداً في تصديق ما تراه عيناه • ولا كذلك النفس الداعرة الفاجرة ، فانها تستطيع دائماً أن

تكون أكثر قصداً واعتدالاً ، وتعرف كيف توغل فى الدناءة متسترةً بمظهر الأدب والحشمة ، فتُضلُّك بذلك عن نفسها وتخدعك .

كسرت امرأتى الجليد فجأةً فقالت تسألنى ملتمعة العينين :

ــ هل صحيح أنك طُردت من الجيش لأنك خفت من الاقتتال فى مبارزة ؟

ــ صحيح . رُجيت أن أترك الجيش بطلب من الضباط ، رغم أننى قدمت طلب تسريحى قبل ذلك .

ــ أطردوك اذن بسبب جبنك ؟

ــ نعم ، عدُّوا ذلك منى جبناً . والواقع اننى لم أرفض المبارزة جبناً ، وانما رفضتها لأننى لم أشأ أن أخضع لحكمهم الباغى المستبد ، فأدعو الى المبارزة على اعتقادى بأننى لم تنلنى اهانة .

ولم أستطع أن أكظم غيظى فأردفت أقول لها :

ــ هل تعلمين أن مقاومة هذا الاستبداد الباغى ورفض ما يترتب عليه من نتائج دليل على شجاعة أكبر كثيراً من شجاعة الاقتتال فى أية مبارزة ؟

لم أستطع أن أسيطر على نفسى فأمسك عن اطلاق هذه الجملة ، فكأننى أردت بذلك أن أبرر سلوكى . وهذا بعينه هو كل ما كانت تريده : أعنى هذه المذلة الجديدة من جانبى . فاذا هى تضحك ضحكة كاسرة . وأردفت تسأل :

ــ وهل صحيح أنك كنت بعد ثلاث سنين تتشرد فى شوارع بطرسبرج ، وتستعطى الصدقات ، وتنام ليلك على موائد البلياردو .

ــ وكنت أنام أيضاً فى « سوق العلف » بمنزل فيازمسكى . هذا

صحيح : فبعد خروجي من الجيش عشت فترة طويلة من الخزى والعار ، والفاقة والبؤس ، ولكن أخلاقى لم تسقط ، لأننى كنت أول من يأسف لما يصدر عنى من أعمال . لقد كان بؤسى بؤس ارادة وعقل ، ولم يكن لهذا البؤس من مصدر الا ما كنت فيه من حالة اليأس الشديد . ولكن هذا أمر مضى وانقضى ...

ـ آ ... طبعاً ! أنت الآن شخص مرموق ، أنت الآن من رجال المال !

وكان ذلك اشارةً منها الى أننى مراب طبعاً . ولكننى استطعت أن أسيطر على نفسى وأن أتحكم بسلوكى . لقد رأيت أنها شديدة الرغبة فى أن تحصل منى على ايضاحات يمكن أن تخفض قدرى وتهبط بقيمتى . لذلك حاذرت أن أقول لها شيئاً . وواتانى الحظ فدقَّ الجرس زبون فمضيت الى الصالة للقائه . وبعد ساعة ، بينما أخذت ترتدى ثيابها فجأة لتخرج ، تسمرت أمامى وقالت لى :

ـ ذلك لا ينفى أنك لم تحدثنى بشىء من هذا كله قبل زواجنا .

فلم أجبها . وخرجتْ .

وفى الغد كنت لاطياً فى تلك الغرفة أتنصَّت عليهما وأنتظر مصيرى واضعاً مسدسى فى جيبى . كانت هى جالسة بقرب الطاولة ، وكان يافيموف يتغنج أمامها . فماذا حدث ؟ (ان ما أقوله هنا يشرِّفنى الى أقصى حد) . لقد حدث ما كنت توقعته وافترضته دون أن أكون واعياً ذلك التوقع وذلك الافتراض . لا أدرى هل أحسن التعبير ، فأجعلكم تفهمون ما أريد أن أقول .

اليكم ما حدث . لقد ظللت أنصت ساعة كاملة ، فشهدت خلال هذه الساعة مبارزة بين أنبل وأشرف امرأة وبين مخلوق حقير متصنع فاسق خسيس النفس نذل . قلت أسائل نفسى مدهوشاً مذهولاً ! « كيف تعلمت

هذه المرأة الساذجة ، هذه المرأة العذبة ، هذه المرأة التى لا تتكلم الا قليلاً جداً ، كيف تعلمت هذا كله ؟ ان أبرع كاتب من كتاب المسرحيات الهزلية لا يستطيع أن يتفتق خياله عن مشهد فيه مثل هذه السخريات وهذا الضحك ، عن مشهد تعبث فيه الفضيلة أبدع العبث بالرذيلة ، وتحتقرها أحسن الاحتقار . ما كان أحذقها فى حديثها ، وحتى فى أيسر ألفاظها ، وما كان أرهف ذكاءها فى أجوبتها السريعة ، وما كان أصوب أحكامها فى آرائها السديدة ! . وكانت فى الوقت تدل على براءة بكر وسذاجة عذراء . كانت تضحك أشد الضحك من تصريحه بحبه ، ومن حركاته واشاراته ، ومما يقدمه لها من عروض . لقد جاء الى هذا المكان وهو ينتوى أن يعمد الى هجوم مباغت ، وكان لا يتصور أن يصطدم بمقاومة ، فاذا بظنونه كلها تذهب بدداً . كان يمكن أن أفترض فى أول الأمر أن ذلك لم يكن منها الا دلالاً هو دلال امرأة لا يعوزها الذكاء فى فجورها ولا تنقصها الفكاهة فى خلاعتها ، فهى تحب أن تبديهما وتظهرهما معتزةً بهما . ولكن لا . لقد كانت الحقيقة تسطع سطوع الشمس . فلا سبيل الى الشك فيها . كل ما فى الأمر أنها من بغضها لى ، وهو بغض متصنع مردُّه الى الحنق والغيظ ، قد أمكنها لقلة خبرتها أن تدبر أمر هذا اللقاء . ولكن ما ان حان حين الانتقال الى الفعل حتى انفتحت عيناها على الفور . كانت تريد أن تهيننى بجميع الوسائل ، ولكنها رغم أنها قررت أن تتدحرج فى الوحل لم تحتمل رؤية مثل هذا الفساد . ثم هل يستطيع رجل مثل يافيموف أو أى شخص سخيف تافه من نوعه أن يفتنها هى البريئة الطاهرة التى تسعى الى مثل أعلى ؟ بالعكس : ما كان لرجل مثله الا أن يثير فيها الضحك . كانت الحقيقة كلها تعصى وتتمرد فى نفسها ، وكان الغضب يجعلها ساخرة متهكمة . أعود فأقول ان هذا الشخص السخيف المضحك قد شُدِه من ذلك شدهاً شديداً ، وجلس فى آخر الأمر كالح الهيئة متجهم الوجه لا يكاد يجيب عن أسئلتها ، حتى لقد بدأت أخشى أن يأخذ

بشتمها ارضاءً لحقده الدنيء • وأعود فأكرر مرةً أخرى أن رؤيتي هذا المشهد بغير دهشة أمر يشرّفني ، لقد كنت كمن التقى بوجه يعرفه بعد أن غاب عنه زمناً ، وتعمّد أن يجيء الآن ليلقاه • لقد جئت وأنا لا أعرف شيئاً ، ولا أحمل في نفسي أي اتهام ، رغم تسلحي بمسدس في جيبي • تلكم هي الحقيقة • وهل كان يمكن أن أتخيل أن يكون الأمر غير ذلك ؟ لماذا كنت قد أحببتها ؟ لماذا كنت قد قدرت قيمتها ؟ لماذا كنت قد تزوجتها ؟ صحيح أنني كنت مقتنعاً أشد الاقتناع بكرهها لي ، ولكنني كنت مقتنعاً كذلك ببراءتها وطهارتها •

هأنذا أنهي المشهد ، فأفتح الباب فجأة ، وأدخل عليهما • انتفض يافيموف • وأمسكت يدها ودعوتها أن تخرج معي • وثاب الى يافيموف رشده ، فانفجر يضحك على حين فجأة ضحكاً مجلجلاً متدفقاً ، وقال :

ـ آ ••• خذها ، خذها ، لا اعتراض لي على قداسة الواجبات الزوجية •

وصاح يقول ورائي :

ـ واعلم أنني رهن اشارتك ، رغم أنه لا يسع رجلاً شريفاً أن يبارزك دون أن يخفض قدره ، ويفقد حشمته ••• هذا اذا كان لك من الشجاعة ما يدفعك الى طلب المبارزة •••

قلت لزوجتي وأنا أجبرها على التوقف لحظةً في العتبة :

ـ سمعت ؟

ثم لم أقل لها كلمة واحدة طوال الطريق الى أن بلغنا بيتنا • وكنت قد قبضت على ذراعها ، فلم تبد أية مقاومة • حتى لقد كانت مشدوهة مذهولة • غير أن ذلك لم يطل كثيراً ، فما ان وصلنا الى البيت ودخلنا حتى

جلست على كرسى ، وأخذت تحدجنى بنظرة ملحة • كانت شاحبة اللون شحوباً رهيباً • ورغم أن شفتيها قد عادت اليهما ابتسامتهما الساخرة فوراً ، فان نظرتها كانت تتحدانى تحدياً يحمل معنى الانتصار ؟ وأظن أنها لبثت عدة دقائق موقنة بأننى سأقتلها برصاصة مسدس • ولكننى أخرجت سلاحى من جيبى بهدوء ، ووضعته على المائدة • (لاحظوا أن هذا المسدس مألوف لها ، وأننى لقمته منذ فتحت مكتبى ، اذ كنت قد قررت حين فتحت هذا المكتب أن أستغنى عن كلب حراسة وعن خادم قوى الجسم شديد البأس كما يفعل موزير • وكانت الطباخة عندى هى التى تفتح الباب للزبائن • ولكن يستحيل على من يتعاطون مهنتنا ألا يتخذوا احتياطاتهم ، فمن باب الاحتياط لكل طارىء انما اقتنيت هذا المسدس وجعلته ملقوماً على الدوام • وقد اهتمت هى نفسها اهتماماً كبيراً بهذا المسدس فى الآونة الأولى من دخولها بيتى ، وسألتنى عن أجزائه واستعماله ، حتى لقد أقنعتها ذات يوم بأن تسدد الى الهدف وتطلق رصاصة • لاحظوا هذا كله) • واستلقيت على سريرى دون أن أخلع الا نصف ثيابى ، ودون ان أنتبه الى ما كانت تعبر عنه هيئتها من دهشة • كانت الساعة هى الحادية عشرة تقريباً • وظلت فى مكانها ساكنة جامدة زهاء ساعة • ثم أطفأت الشمعة ، واضطجعت على الديوان بدون أن تخلع ثيابها هى أيضاً ، متجهة بوجهها الى الحائط • تلك أول مرة لا نرقد فيها على سرير واحد • لاحظوا هذا أيضاً •

٦

ذكرى فظيعة

هنا مكان ذكرى فظيعة ...

استيقظت صباحاً في نحو الساعة الثامنة فيما أظن ، وكانت الغرفة قد غمرها الضوء تقريباً . استيقظت دفعة واحدة ، واعياً كل الوعي صاحياً كل الصحو ، وفتحت عينيّ فجأة ، فرأيتها واقفة بقرب المائدة ، ممسكةً المسدس بين يديها . لم ترَ أنني استيقظت وأنني كنت أنظر اليها . ورأيتها تقبل عليّ بغتةً والمسدس بيدها . فأغمضت عينيّ فوراً ، وتظاهرت بأنني نائم نوماً عميقاً .

وصلت الى سريري ، ومالت عليّ . وكنت أسمع كل شيء . ورغم أن صمتاً كصمت الموت خيمّ ، فقد كنت أسمع هذا الصمت . وحدثت عندئذ حركة متشنجة جعلتني أفتح عينيّ مرةً ثانية على حين فجأة . فنظرت محدقةً الى عينيّ بنظرة ثابتة ، بينما استقرت فوهة المسدس على صدغي . التقى بصرانا . ولكننا لم ينظر أحدنا الى الآخر الا لحظة واحدة . وأجبرت نفسي على أن أعود الى الاغماض ، واستجمعت شتات فكري ، فعملت جاهداً على ألا أتحرك البتة ، وعلى ألا أعود الى فتح عينيّ مهما يحدث من أمر .

انه ليحدث فعلاً أن يكون امرؤ نائماً نوماً عميقاً ، فاذا هو يفتح عينيه فجأةً ، أو حتى ينهض رأسه لحظةً وينظر حواليه ، ثم اذا هو

يهوي برأسه على المخدة بعد لحظة واحدة بدون شعور وينام من غير أن يتذكر شيئاً .

انني بعد أن التقى بصري ببصرها وأحسست بفوهة المسدس على صدغي ، قد أغمضت عينيّ فجأة ، ولم أتحرك بعد ذلك البته ، فكأنني كنت نائماً نوماً عميقاً ، وكان في امكانها أن تفترض أنني كنت نائماً بالفعل وأنني لم أبصر شيئاً ، ولا سيما أن اغماضي عينيّ بعد أن رأيت الأمر يكون شيئاً لا يعقل ان يحدث ، أو لا يحتمل أن يقع ...

نعم ، لا يُعقل أن يحدث ، لا يحتمل ان يقع . ولكنها مع ذلك استطاعت أن تحزر الحقيقة . خطرت هذه الفكرة في ذهني كالبرق . آه ... يا لزوبعة الأفكار والاحساسات التي عصفت في نفسي ابان لحظة واحدة ! ان علينا أن نعجب أشد الاعجاب بهذه الكهرباء في فكر الانسان . وأحسست في تلك اللحظة أنها اذا حزرت الحقيقة وعرفت أنني غير نائم ، فلابد أن يكون رضاي بالموت قد سحقها سحقا ، ولعل يدها قد أخذت ترتجف . ولعل صدمة هذا الشعور الجديد الخارق قد حطمت ما كانت قد اتخذت من قرار . يقال ان الذين يقفون على ذروة عالية يحسون من تلقاء أنفسهم بانجذاب الى الهاوية . وأحسب أن كثيراً من حوادث الانتحار وجرائم القتل لم تقع الا لأن المسدس كان في اليد . ثمة هوة هنا أيضاً ، ثمة انحدار مقداره خمس وأربعون درجة لا يملك المرء حين يحاذيه الا أن ينزلق الى تحت . ان نداءً لا يقاوم ولا يغالب يهيب بنا أن نضغط على الزناد . ولكن شعورها بأنني رأيت كل شيء ، وأنني أعلم كل شيء ، وانني أنتظر صامتاً أن تأتيني منها الضربة القاتلة ، كان يمكن أن تعصمها من الانزلاق .

وطال الصمت . وأحسست على صدغي وعلى شعري ببرودة ملمس الحديد . قد تسألونني هل كنت آمل أملاً جازماً قاطعاً في أن أنجو مرةً أخرى . فاعلموا ــ والله على ما أقول شهيد ــ أنني كنت قد فقدت

كل أمـل ، أو لو يكن أملى يزيد على واحـد من مائة . فلماذا ارتضيت ان أموت ؟ انى لأسألكم : ما عسى تكون قيمة الحياة فى نظرى بعد المسدس الذى صوّبه الىّ انسان أعبده عبادة ؟ ثم اننى كنت أعرف معرفةً لا يتسرب اليها الشك ان صراعاً قد نشب بيننا فى تلك اللحظة ، صراعاً هو مبارزة ضارية تنتهى بالحياة أو بالموت ، مبارزة من نوع المبارزة التى حضّنى عليها رفاقى فى الماضى ، ثم طردونى لاعراضى عنها جبنـاً . كنت أعلم ذلك ، وكانت هى تعلمه . هذا اذا صحّ أنها حزرت أننى لم أكن نائماً .

ومن الجائز ألا يكون شىء من هذا قد جرى ، من الجائز ألا أكون قد فكرت حينـذاك فى ذلك كله ، ولكن أغلب الظن أن يـكون هـذا هو ما جرى ، لاننى منذ ذلك الحين لم أنقطع عن التفكير فيه لحظةً فى ساعة من حياتى .

ولكن قد تسـألوننى أيضـاً : « لماذا لم تمنعها من اقتراف جـرم فظيع ؟ » . فاعلموا أن هذا هو السؤال الذى ألقيته على نفسى ألف مرة فيما بعد حين كنت أتذكر تلك اللحظة فتسرى فى ظهرى رعدة . لقد كانت نفسى ممتلئة حينـذاك بيأس مظـلم : كنت أنا نفسى هالكاً ، فمن ذا الذى كان فى وسعى أن أنقذه ؟ ثم ما أدراكم ! هل كنت أحرص فعلاً على أن أنقذ أحداً فى تلك اللحظة ؟ من ذا يعلم ما الذى كنت أحسه ؟

ولكن شعورى كان مع ذلك يقظاً . ومرّت الثوانى ، وران صمت كصمت الموت . ولا تزال هى مائلة علىّ . ثم اذا أنا أرتعش أمـلاً . فأفتح عينىّ . فأرى أنها كانت قد غادرت الغرفة . نهضت عن سريرى . وخرجت منتصراً غالباً ، بينما أصبحت هى منهزمة مغلوبة الى الأبد .

مضيت أجلس بقرب السماور . كان الشاى يشرب عندنا دائماً فى الغرفة الأولى ، وكانت زوجتى هى التى تصبّه . جلست صامتاً ، وتناولت من يديها كأس الشاى . وألقيت عليها نظرة بعد خمس دقائق . كانت

شاحبة شحوباً رهيباً مخيفاً ، كان شحوبها الآن أشد من شحوبها بالأمس . وكانت تنظر الىّ . فلما لاحظت نظرتى اليها اذا بشفتيها اللتين زال عنهما لونهما تلمُ بهما ابتسامة باهتة ، واذا بعينيها تعبرّان عن سؤال . قلت لنفسى : « معنى هذا أنها لا تزال تشك وتتساءل : أيعلم أم لا يعلم . أرأى أم أنه ما رأى ؟ » . أشحت نظرى مصطنعاً قلة الاهتمام . حتى اذا فرغنا من الشاى ، أغلقت المكتب ، ومضيت الى السوق فاشتريت سريراً من حديد ، وحاجزاً . ورجعت الى البيت ، فوضعت السرير فى الصالة وراء الحاجز . انه سرير لها ، ولكننى لم أقل لها عن ذلك كلمة واحدة . فأدركت هى من وجود هذا السرير « أننى رأيت كل شىء ، وعلمت كل شىء » ، ما فى ذلك ريب . وفى تلك الليلة تركت المسدس على المائدة كعادتى فى كل ليلة . ورقدت هى صامتةً على سريرها الجديد : لقد انحل الزواج . « وغلبت هى لكنها لم يُغفر لها » . وانتابها فى تلك الليلة هذيان . وظهر فى الصباح أنها أُصيبت بحمى حارة . فبقيت راقدة ستة أسابيع .

الفصل الثاني

١

حلم خيلاء وصلف

أبلغتني لوكيريا منذ قليل أنها لن تبقى عندي ، وأنها ستمضي متى تمّ دفن مولاتها . فركعت على ركبتيّ وصلّيت خمس دقائق . كنت أريد أن أصلي ساعة ، ولكنني لم أزد على أن أفكّر ثم أفكر مريض العقل مريض الرأس ؛ وما فائدة الصلاة والنفس غارقة كلها في الاثم ؟ والشيء العجيب أنني لم أشعر برغبة في النوم أيضاً . ان المرء حين يعاني حزناً كبيراً ، حين يكابد كرباً هائلاً بعد العنف الشديد في الانفجارات الأولى ، لا يشتهي الا أن ينام . يقال ان المحكوم عليهم بالاعدام ينامون نوماً عميقاً أشد العمق في ليلتهم الأخيرة . ولابد أن يكون الأمر كذلك ، فهذا يوافق الطبيعة ، والا لما استطاعت قوى الانسان أن تصمد ...

اضطجعت على الديوان ، ولكنني لم أستطع أن أغمض عيني .

... أثناء مرضها الذي دام ستة أسابيع كنا نتناوب القيام عليها نهاراً وليلاً أنا ولوكيريا وممرّضة محترفة جئت بها من المستشفى . لم أحفل بالنفقات . حتى لقد كنت لا أنشد الا أن أنفق من أجلها . واستدعيت الدكتور شرودر ، ودفعت له أجراً قدره عشرة روبلات . وحين عاد اليها وعيها ، أصبحت لا أظهر لها الا من حين الى حين . ولكن ما حاجتي الى ذكر هذا كله ؟ وظلت خلال مدة النقاهة جالسةً في غرفتي قربَ مائدة صغيرة كنت قد اشتريتها لها مع السرير في تلك المرة ، وكانت تبقى جالسةً

بهدوء لا تنطق بكلمة ... نعم ، كنا نصمت . هذا صحيح . بل قل اننا قد بدأنا نتبادل بعض الكلام ، ولكن أحاديثنا لا تتناول الا أموراً تافهة مبتذلة . وكنت أتعمد طبعاً ألا أبتعد في كلامي عن هذه الأمور المبتذلة . وكنت ألاحظ أنها راضية عن هذا التحفظ . كنت أقول لنفسي : « انها مهتزة أشد الاهتزاز ، مهدَّمة أكبر التهدم ، فيحسن أن أتيح لها الوقت اللازم للنسيان واسترداد قوتها » . فعلى هذا النحو كنا نلتزم الصمت . ولكنني كنت في كل لحظة متأهباً لكل ما قد يطرأ . وكنت أقدِّر أن حالها كحالي ، وكان يعصف بي شغف شديد رهيب بأن أتساءل : « تُرى في أي شيء تفكر الآن ؟ » .

سأقول لكم شيئاً آخر . لا يتصور أحد طبعاً مدى ما عانيت من ألم حين كنت أئنُّ وأنتحب أثناء مرضها . ولكنني كنت أنتحب بيني وبين نفسي ، وأكظم أنيني في صدري ، وأخفي شكاتي حتى عن لوكيريا . وكنت لا أستطيع أن أتصور ، لا أستطيع أن افترض أنها قد تموت دون أن تعلم شيئاً . واني لأتذكر أنني حين زال عنها الخطر وارتدت اليها العافية ، قد هدأت نفسي هدوءاً كاملاً بسرعة . وأكثر من ذلك أنني قررت « أن أرجيء مسألة مستقبلنا » ما استطعت ارجاءها ، وأن أدع الأمور على حالتها الراهنة بانتظار أن تنجلي في المستقبل الذي أرجو أن يبقى بعيداً . نعم ، ان ما يحدث لي في ذلك الحين كان شيئاً عجيباً غريباً لا أجد كلمةً تصفه الا أن أقول انني كنت « أنتصر » ، وكان شعوري بهذا الانتصار يبدو لي كافياً كل الكفاية . هكذا انقضى الشتاء كله . آ ... كنت راضياً مسروراً كما لم أكن راضياً ولا مسروراً في أي يوم من أيام حياتي حتى ذلك الحين ... ودام رضاي وسروري الشتاء كله .

اسمعوا . لقد مررت في حياتي بظرف أليم كان الى ذلك اليوم ، أي الى يوم تلك المصيبة التي نزلت بزوجتي ، جاثماً على صدري يخنقني خنقاً في جميع الأيام ، وفي كل ساعة من ساعات اليوم ، ألا وهو —

باختصار ـ فقداني سمعتي وطردي من الجيش • وكان ذلك الأمر ظلماً لي ، ظلماً مليئاً بالطغيان والاستبداد ، وخالياً من الرأفة والرحمة • هناك حقيقة يجب أن أذكرها ، هي أن رفاقي كانوا لا يحبونني بسبب طبعي الذي كان صعب المراس ، وربما كان باعثا على الضحك ، وان كان يحدث في كثير من الأحيان أن ما يبدو لامرىء من الناس رائعاً سامياً ثميناً مجيداً داعياً الى الفخر مشرّفاً يمكن أن يحمل على الضحك والقهقهة عصبة بأسرها من الرفاق ، لا تدري لماذا ولا كيف !

المهم أنني أنا لم أكن محبوباً في يوم من الأيام ، حتى في المدرسة • ما أحبني أحد في أي مكان ولا أي زمان • لوكيريا أيضاً لا تستطيع أن تحبني • ولكن ما وقع لي في الجيش ، على أنه يرتبط بما يحمله لي رفاقي من عواطف الكره ، انما كان مردّه الى مصادفة صرف • ويهمني كثيراً أن أكرر أنه لا شيء يسيء الى المرء ولا شيء يفوق طاقة المرء على الاحتمال كأن يضيع ويهلك بمصادفة كان يمكن ألا تحدث ، أو بتضافر عدد من الظروف تضافراً مشئوماً ، وهي ظروف كان يمكن أن تتبدد كالدخان • ذلك في نظر الانسان الذكي اذلال لا يضارعه اذلال • واليكم تلك المصادفة :

أثناء حضوري مسرحية من المسرحيات ، وفي فترة الاستراحة بين فصلين من فصول المسرحية ، مضيت الى البوفيه لأصيب شيئاً من شراب • فاذا بالضابط « آ ••• وف » ، وهو ضابط في سلاح الفرسان ، يدخل الى البوفيه بسرعة كسرعة الريح ، ويقول لرفيقين من رفاقه بصوت عالٍ على مرأى ومسمع من الجمهور وأمام ضباط آخرين ، ان قائد فوجنا بيزومتسيف قد أثار فضيحة في دهاليز المسرح ، وأنه ربما كان ثملاً قد « أخذ السكر منه كل مأخذ » • ولم يتصل الحديث • وكان عدا ذلك خطأً • لأن الكابتن بيزومتسيف لم يكن سكراناً ، ولا كان الأمر الذي حدث خليقاً بأن يُعدّ فضيحة • وجرى الحديث بين ضباط سلاح الفرسان على شيء آخر ،

ووقف الأمر عند هذا الحد . ولكن فوجنا كان في الغد على علم بالقصة ، وسرعان ما راج أنه لم يكن في البوفيه أحد من ضباط الفوج غيري ، وانني لم أحتجً على « آ ... وف » حين قال ذلك الكلام الوقح عن الكابتن بيزومنسيف ، ولا اتجهتُ اليه بأي تقريع لأسكته . وفيم كان ينفع الاحتجاج أو التقريع ؟ اذا كان ضابط سلاح الفرسان حاقداً على بيزومتسيف لسبب من الأسباب ، فالقضية تكون قضية شخصية بين الرجلين فلا شأن لي بها ، ولا داعي الى تدخلي فيها . ولكن ضباط فوجي لم يعدُّوا الأمر أمراً شخصياً ، واعتقدوا أن الاهانة قد لحقت بالفوج كله ؟ واذ لم يكن في البوفيه أحد من ضباط الفوج غيري حينذاك ، فانني بسكوتي قد برهنت للجمهور والضباط الذين كانوا في البوفيه أنه يمكن أن يضمً فوجنا ضباطاً لا تثيرهم اهانة تلحق بشرفهم وتلحق بشرف فوجهم . وكان لا يمكن أن أسلّم بهذا الرأي . وأبلغوني أنني مازلت أستطيع اصلاح الأمر ، اذا أنا ارتضيت ، رغم تأخري ، أن أدعو الضابط « آ ... وف » الى المبارزة غسلاً للعار ، فلم أحبب ذلك ، وكنت محتداً فرفضت العرض بتكبر واستعلاء ، وسرعان ما قدمت استقالتي . تلكم هي القصة . لقد خرجت متغطرساً ، ولكنْ محطماً . وشاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يكون زوج أختي ، الذي يقيم بموسكو ، قد بدَّد ارثنا المتواضع وحصتي من هذا الارث ، فاذا أنا أجد نفسي في الشارع لا أملك قرشاً .

ولقد كان يمكن أن ألتمس وظيفة مدنية وأن أحصل عليها ، لكنني لم أرتض لنفسي هذا : فكيف يمكن أن أقبل وظيفة من الوظائف في السكة الحديدية ، بعد أن كنت أرتدي بزة عسكرية لألاءة متألقة . وأخذت أتدهور : فمن دناءة الى دناءة ، ومن خزي الى خزي ، ومن اسفاف الى اسفاف ، اذ اخترت أن يكون شعاري هو : كلما ازددت سوءاً وشراً ، كان ذلك أفضل وأحسن . قضيت على هذه الحال ثلاث سنين

ما أبشع ذكراها ! ثلاث سنين انجرفت فيها حتى الى منزل فيازمسكى • ومنذ سنة ونصف سنة ، ماتت بموسكو امرأة عجوز غنية هى عرّابتى ، فاذا هى تورثنى فى وصيتها مبلغ ثلاثة الاف روبل • ففكرت فى أمرى ، واتخذت قرارى فيما يجب علىّ أن أسلك من سبيل وأن أحترف من مهنة • عزمت على أن أفتح مكتب اقراض برهون ، لا أستغفر احداً ولا أطلب من أحد عفواً أو صفحاً • قلت لنفسى : بذلك أجنى مالاً ، وأبنى أسرة ، فأبدأ حياة جديدة بعيدة عن ذكريات الماضى • تلكم كانت مشاريعى • ولكن ذلك الماضى المشئوم وتلك السمعة التى ثلمت شرفى الى الأبد كانا لا ينفكان يعذبانى فى كل لحظة وفى كل دقيقة • وفى أثناء ذلك تزوجت • فان سألتمونى هل كان ذلك مصادفة أم لا ، قلت اننى لا أعرف • ولكننى كنت أعتقد حين أدخلتها الى بيتى أننى أدخل صديقة ، فما كان أشد حاجتى الى صديقة ! وكان لا يفوت بصرى مع ذلك أن هذه الصديقة كان ينبغى لى أن أهيئها وأن أعمل فيها بل أن أنتصر عليها أيضاً • فهل كان يمكننى أن أشرح الأمور دفعة واحدة ، لهذه المرأة الشابة التى لا تتجاوز سنّها ستة عشر عاماً ، والتى تزخر نفسها بأفكار مستقرة راسخة ؟ كيف كان يمكننى مثلاً ، لولا أن أسعفتنى المصادفة التى أدّت الى الكارثة الرهيبة ، أعنى مصادفة المسدس ، أن أقنعها بأننى لست جباناً رعديداً ، وأن اتهامى فى الجيش بالجبن كان ظلماً • ولكن الكارثة قد أوضحت كل شىء • فحين تحملت ملامسة المسدس لصدغى ، ثأرتُ لكل ماضىّ المشئوم • واذا لم يكن أحد قد عرف بذلك فقد عرفته « هى » ، وكان هذا حسبى ، فقد كانت عندى كلّ شىء ، وكانت كلّ أمل مستقبلى على نحو ما كنت أراه فى أحلامى ! ولو أردت أن أختار لهذا أحداً ، لما اخترت غيرها ، فلم أكن فى حاجة الى أحد سواها ، وها هى ذى قد عرفت كل شىء ، أو عرفت على الأقل أنها أفرطت فى التسرع والتعجل حين انضمت الى أعدائى • فلا يمكن أن أكون بعد الآن فى نظرها جباناً ، بل انسان غريب الأطوار فى أكثر تقدير ، وهذه فكرة لا يمكن أن تسوءنى

كثيراً بعد كل ما حدث : فليس عيباً أن يكون الرجل غريب الأطوار ، حتى ان هذه الصفة تعجب مزاج النساء فى بعض الأحيان . الخلاصة أننى تعمدت أن أرجىء انتهاء الأمر الى أية خاتمة : فما حدث كان يكفينى ، كان يكفينى فى ذلك الأوان من أجل أن يهدأ خاطرى وتطمئن نفسى ، وكان الى ذلك يغذى أحلام يقظتى بصور كثيرة . ان أسوأ صفة مشئومة من صفات طبعى هى أننى امرؤ حالم ، فكانت لا تعوزنى موضوعات تدور عليها أحلامى فى اليقظة . أما هى فأظن أنها « كانت تنتظر » .

على هذه الحال انما انقضى الشتاء كله انتظاراً . وكنت أحب أن أتأملها خلسة حين تجلس بقرب المائدة . كانت تعمل فى تطريز بعض الأغطية . وكانت فى بعض الأحيان تقرأ كتباً تأخذها من مكتبتى . فكان اختيارها كتباً من مكتبتى خليقاً هو أيضاً بأن يشهد لى بالفضل والتميز . وكانت لا تكاد تخرج أبداً . فكنت أصطحبها كل يوم عند الغسق بعد العشاء فى نزهة ، فنتروض قليلاً ، ولكننا لا نبقى صامتين كل الصمت كما كنا فى الماضى . كنت أحاول أن أتصرف تصرف من ليس يصمت ، فكأن تفاهماً تاماً قد قام بيننا . ولكننا ، كما سبق أن قلت ، كنا نحرص كلانا على ألا يطول بيننا الحديث . وكنت أفعل ذلك عامداً ، لاعتقادى بأن على أن أترك لها « فسحة من الوقت » . ولا شك أنه أمر غريب أننى لم يخطر ببالى مرة واحدة حتى نهاية الشتاء ، أننى ان كنت أحب أن أتأملها خلسة من حين الى حين ، لم أفاجئها تلقى على نظرة طوال تلك المدة ! وقد عزوت غضها الطرف الى خجلها وحيائها . هذا الى أن هيئتها كانت زاخرة بمعانى المذلة والدماثة والعذوبة ، وكانت تبدو ضعيفة أشد الضعف واهنة أكبر الوهن منذ مرضها ! فكان الأفضل أن أنتظر ، وكنت أقول لنفسى : « لسوف ترجع اليك من تلقاء ذاتها يوماً » ..

وقد اتفق لى فى ذلك الشتاء أن قمت ببعض الحسنات متعمداً . فألغيت دينين ، وأقرضت امرأة فقيرة بعض المال بدون رهن ؟ ولم أذكر

ذلك لزوجتى ، ولا فعلته لتعلم به ، ولكن المرأة جاءت تشكر لى صنيعى وهى تكاد تجثو على ركبتيها تعبيراً عن امتنانها . فشاع الأمر . وبدا لى أن امرأتى شعرت بسرور صادق حين علمت به .

ولكن الربيع كان يقبل ، وشارفنا على منتصف شهر نيسان (أبريل)، ونزعنا عن النوافذ مصاريعها المزدوجة ، وأخذت الشمس ترسل الى داخل غرفتينا الصامتتين أشعة دافئة قوية . ولكن غشاوة كانت لا تزال تثقل على فكرى وتبث فيه الاضطراب . غشاوة قاتلة رهيبة ! فكيف حدث أن زالت تلك الغشاوة فجأة ، فاذا أنا أرى كل شىء وأفهم كل شىء ؟ أكان ذلك بمصادفة محضة ؟ أكان ذلك هو اليوم الذى حدّده القدر ؟ هل جاء شعاع من شمس فأشعل فى فكرى المخبول تلك الفكرة ، وأنبت ذلك الاكتشاف ؟ لا ، لم يكن ذلك لا فكرة ولا اكتشافاً ، ولابد أن شرياناً كان ساكناً فتحرك ، أو أن وتراً كان جامداً فاهتز ، فاذا هو يضىء نفسى كلها على حين فجأة ، واذا هو يستثير كل خيلائى الشيطانية . لقد انتفضت عندئذ انتفاضة مباغتة ، مفاجئة ، لم تكن فى الحسبان أبداً . وقع الحادث فى المساء ، الساعة الخامسة ، بعد العشاء ...

٢

الغشاوة التي سقطت

اليكم أولاً هاتين الكلمتين • كنت قد لاحظت لديها منذ شــهر اكتئاباً غريباً • لم يبق الأمر صمتاً بل صار اكتئاباً • ذلك أيضاً قد انكشف لي فجأة • كانت جالسة تطرز مائلة على شغلها برأسـها ، فلا ترى أنني أنظر اليها • فما كان أشـد استغرابي ، على حين غرة ، حين رأيتها مهزولة ذلك الهزال كله ، نحيلة ذلك النحول كله ! كان وجهها شاحباً ، وكانت شفتاها باهتتين لالون لهما • ذلك كله شـدهني بغتة الى أقصى حـد ، وكذلك ما يعبر عنه وجهها من أسى وحزن وكآبة • وكنت قد سـمعت ذلك السعال القصير الجاف يخـرج من صـدرها قبل الآن ، ولا سـيما في الليل • فما ان رأيتهـا هذه المرة على هذه الحال حتى مضيت الى الدكتور شرودر فوراً دون أن أقول لها كلمة واحدة •

وجاء الدكتور شرودر في الغد • فدهشت هي من مجيئـه دهشـة كبيرة ، فكانت نظراتها تتجه اليه تارة ، وتتجه الي تارة أخرى • وقالت وهي تبتسم ابتسامة لا يمكن تحديد معناها :

— ولكنني بخير •

لم يفحصها الدكتور شرودر طويلاً (ان لهؤلاء الأطباء أسلوباً في التعالي عليك أحياناً) ، واكتفى بأن قال لي في الغرفة الأخرى ان هذا من بقايا مرضها ، وانها لن يضرها أن تسـافر في الربيع الى البحر تستنشق

هواه ، أو أن تمضى الى الريف فى أقل تقدير . أى انه لم يقل شيئاً ، سوى أنها تعانى من فقر فى الدم ، أو شىء من هذا القبيل .

وحين انصرف شرودر عادت تقول لى وقد لاح فى وجهها جد شديد صارم :

ـ أنا بخير وعافية ، لست مريضة .

ولكنها حين قالت هذا الكلام اصطبغ وجهها بحمرة شديدة لعل مردّها الى الخجل ، بل ان مردّها الى الخجل قطعاً ، فقد كان ذلك واضحا . آه .. اننى أدرك هذا الآن : كانت تشعر بخجل من أننى لاأزال « زوجها » ، وأننى ما زلت أهتم بها اهتمام زوج حقيقى . ولكننى لم أفهم من ذلك شيئاً حينذاك ، ونسبت احمرار وجهها الى شعورها بالمذلة (آه من الغشاوة !) .

وهأنذا ، بعد انقضاء شهر على ذلك ، فى نحو الساعة الخامسة من الأصيل ، فى يوم ساطعة شمسه من أيام شهر نيسان (أبريل) ، كنت جالساً فى مكتبى أجرى بعض الحسابات ، فاذا أنا أسمعها تدندن فى الغرفة المجاورة ، أثناء عكوفها على تطريزها ، أغنيةً من الأغنيات بصوت رقيق خافت . فكان من شأن هذا الشىء الجديد الذى لا عهد لى به منها أن هزنى هزاً قوياً . نعم ، واننى لم أفلح فى فهم هذا الأمر حتى هذا اليوم . لم أكن قد سمعتها تغنى قبل ذلك ، اللهم الا فى الأيام الأولى من دخولها بيتى حين كنا لا نزال تتسلى بتصويب المسدس واطلاق النار على هدف . وكان صوتها فى ذلك الحين قوياً رخيماً ، وكان سليما ومطرباً رغم ما يدل عليه من ضعف الثقة بالنفس . أما الآن فان غناءها ضعيف أشدّ الضعف ! لن أقول انه غناءُ حداد (ولقد كانت الأغنية احدى الرومانسات) ، غير أن من يسمعه يحس أن صوتها مهشم ، وكأنه لا يستطيع أن يخرج من صدرها ، وكأن الأغنية نفسها مريضة . كانت تغنى بصوت

خافت ، فما ان يرتفع صوتها فجأة حتى يتحطم ، وكان من شدة النحول والفقر أنه يتحطم تحطماً يعبرّ عن الانتحاب ويثير الاشفاق • واعترتها نوبة سعال قصيرة ، ثم عادت تترنم بأغنيتها بصوت لا تكاد الأذن أن تسمعه من فرط خفوته •••

لسوف تضحكون تهكماً على اهتياجي • ولكن لن يفهم أحد في يوم من الأيام لماذا استبد بي انفعال شديد ! ان ما شعرت به لم يكن شفقة بعد • وانما كان ، في اللحظات الأولى على الأقل ، حيرة مفاجئة ، ودهشة رهيبة ، دهشة رهيبة عجيبة ، فيها ألم ، وفيها ما يشبه أن يكون حقداً ورغبة في الانتقام : « ماذا ؟ أتغنى بحضوري ؟ أنسيت اذن أنني هنا ؟ » •

بقيت في مكاني جامداً مضطرباً متحيراً ، ثم نهضت فجأة ، وخرجت كأنني ثبت الى رشدي • والحق أنني لا أعرف لماذا قمت ولا ماذا أنوى أن أعمل • ومدّت الىّ لوكيريا معطفي •

قلت أسأل لوكيريا بغير ارادة :

ـ أهي تغنى ؟

فلم تفهم لوكيريا ونظرت الىّ مرتبكة • وكان من حقها ألا تفهم ، فالواقع أنه ما كان لأحدٍ أن يفهم ما بي • وأردفت أسأل لوكيريا :

ـ أهي تغنى أول مرة ؟

فأجابت لوكيريا بقولها :

ـ بل يتفق لها أن تغنى أثناء غيابك عن البيت •

لا يزال الباقي كله ماثلاً في ذاكرتي • نزلت السلم ، وخرجت الى الشارع لأمضى الى أي مكان • سرت حتى زاوية الشارع ، وسرّحت طرفي • كان يمر ناس فيصدمونني ، فلا أحس بشيء • وناديت حوذياً ، وأردت أن يقودني الى « جسر الشرطة » لا أدرى لماذا • لكنني سرعان

ما عدلت عن هـذه الفكرة ، فنقدت الحوذى عشرين كوبكاً وأنا أقول له مبتسماً ابتسامة بلهاء :

ـ جزاء ازعاجك بغير فائدة .

ولكن قلبى ارتعش فى تلك اللحظة بنوع من الحماسة .

رجعت الى البيت وأنا أغذ الخطى . ان النغمات الحزينـة من الأغنية المحطمة قد ترجَّعت فى نفسى على حين غرة . شـعرت بأنفاسى تتقطع . الغشـاوة سقطت أخيراً عن عينىَّ ، سقطت الغشاوة ! ما دامت قد غنَّت بحضـورى ، فمعنى ذلك أنها نسيت ـ الأمر واضح بقدر ما هو مريع . أحس قلبى ذلك . ولكن الحماسة التى أشرقت فى نفسى غلبت الروع . يا لسخرية القدر ! هل كان فى نفسى طوال ذلك الشـتاء شىء غير تلك الحماسة ، بل هل كان يمكن أن يوجد فى نفسى طوال ذلك الشتاء شىء غير تلك الحماسة ؟ فأين كنت أنا فى ذلك الشتاء ؟ هل كنت مع نفسى ؟ صعدت السلم مسرعاً ، فلا أدرى هل كان دخولى رزينا . كل ما أتذكره هو أن الأرض كانت ترقص تحت قدمىَّ ، وأننى كنت أحس بنفسى عائماً فى نهر . دخلت الغرفة . كانت جالسة فى مكانهـا وكانت تطرز مائلة برأسها على شغلها . ولكنها قد انقطعت عن الغناء . ألقت علىَّ نظرة سريعـة خالية ، نظـرة ليست نظرة ، وانما هى تلك الحركة الآلية التى ليس فيها اكتراث ، الحركة التى تجريها حين يدخل أحد الغرفة .

مضيت اليها قُدُماً ، وجلست بقربهـا على كرسى كالمجنـون . فاذا هى تنظر الىَّ فجـأة مذعورة مرتاعة . تناولت يدها . ولا أتذكر الآن ماذا قلت لها ، أو قولوا ماذا أردت أن أقول لها ، لأننى لم أفلح فى أن أرسل كلامى سليماً صحيحاً . وانحبس صـوتى ، وعُقل لسانى ، فلم أعد أنطق بحرف . ثم اننى كنت لا أدرى ما عنسـانى أقول لهـا . كنت أختنق اختناقاً .

وفجأة تمتمت أقول لها ببلاهة :

ـ هلا تكلمنا .. قليلاً .. قولى لى شيئاً ..

نعم ، بهذه البلاهة خاطبتها ، ولكن هل كان يمكن أن أكون فى تلك اللحظة ذكياً ؟ فما ان نظرت الىّ وجهاً لوجه حتى ارتعشت وترنحت من جديد ، واعتراها هلع شديد . ولكن « اندهاشاً قاسياً » لم يلبث أن ارتسم على وجهها . نعم ، كان ذلك اندهاشاً ، وكان قاسياً . نظرت الىّ وقد اتسعت حدقتاها . فسرعان ما صعقتنى تلك القسوة ، سرعان ما صعقنى ذلك الاندهاش القاسى . كان ذلك الاندهاش كأنه يسألنى رغم صمتها : « أما زلت اذن تطلب حباً ؟ حباً ؟ » ، قرأت ذلك فى وجهها رغم أنها لم تقل شيئاً . فاذا كل شىء فى نفسى يهتز ، واذا أنا أهوى على قدميها . نعم ، تهالكت على قدميها . فنهضت بوثبة واحدة ، ولكننى بقوة خارقة أمسكتها من ذراعيها .

ذلك أننى كنت أدرك ما أنا فيه من كرب ويأس ادراكاً كاملاً . آه ... نعم ، كنت أدركه ! ومع ذلك ـ هل تصدقون ؟ ـ كانت الحماسة تغلى فى قلبى غلياناً يبلغ من القوة والصرامة التى لا سبيل الى قمعها أننى اعتقدت بأن حينى قد حان ، وأنى أموت . طفقت ألثم قدميها سكراً ونشوة وسعادة . نعم ، سعادة طافحة ، لا نهاية لها ، على علمى بأننى صرت الى يأس لا مخرج منه . وكنت أبكى ، وأتكلم دون أن أجد الى الكلام سبيلاً . فاذا بالارتياع والدهشة يحل محلهما عندها قلق وتساؤل ، فتنظر الىّ وقد لاح فى وجهها استغراب ، وحتى توحش . كانت تريد أن تفهم شيئاً بأقصى سرعة ، وكانت تبتسم . ولقد أشعرها بخزى رهيب أن رأتنى أقبّل قدميها ، فسحبتهما ، ولكننى قبّلت عندئذ الموضع الذى كانت فيه قدماها من الأرض . فلما رأت هذا ضحكت شعوراً منها بالخجل والخزى (هل رأيتم أحداً يضحك شعوراً منه بالخجل والخزى ؟) . وأوشكت أن تعتريها نوبة عصبية . رأيت ذلك . كانت

يداها ترتجفان . ولم أحترس ، فظللت أتمتم قائلاً انني أحبها ، وانني لن أكف عن حبها ؟ وأضفت أقول : « دعيني أقبل ثوبك ... هكذا ... سأقضي حياتي كلها مصلياً لك ، ضارعاً اليك ... » نسيت الآن ما قلته لها أيضاً . واني لكذلك ، اذا هي تنفجر ناشجة منتحبة ، وتأخذ ترتعش . هذه نوبة عصبية تعتريها . لقد روّعتها .

نقلتها الى السرير . فلما انتهت النوبة ، جلست على سريرها وقد بان في وجهها ارهاق شديد واعياء قوي ، وأمسكت يدي ، وأخذت تتوسل الي أن أهدأ ، وتقول لي : « لا تعذّب نفسك ، هدىء بالك » ، ثم استأنفت بكاءها . لم أتركها طوال المساء . وظللت أقول لها اني سأخذها الى بولوني لتستحم في مياه البحر ، واني سأفعل هذا الآن ، على الفور ، بعد خمسة عشر يوماً ؛ واني قد سمعت في صوتها بالأمس من النحول والتكسر والتحطم ما يجعلني أقرر أن أغلق المكتب ، وأبيعه الى دوبرونرافوف ؛ واننا سنبدأ كل شيء بدءاً جديداً ، واننا سنسافر خاصةً الى بولوني ، الى بولوني ! فكانت تصغي الى كلامي ولا تكف عن الارتياع ، وكان الجزع يجتاحها أكثر فأكثر . على أن أهمّ شيء في نظري لم يكن هو هذا ، وانما كانت تستبد بي من جديد رغبة عارمة قوية ما تنفك تشتد وتعنف فلا سبيل الى مقاومتها ومغالبتها ، وهي أن أرتمي على قدمي زوجتي مرةً أخرى ، وأن آخذ بتقبيلهما من جديد ، وأن ألثم الأرض التي وطئتها قدماها ، وأن أرجوها مردداً في كل لحظة « لا ألتمس منك الا شيئاً واحداً .. لا تحبيني ، لا تلقي بالاً اليّ ، لاتكترثي بي .. ولكن دعي لي أن أنظر اليك من الركن الذي أقبع فيه ، اجعليني متاعاً لك ، عدّيني شيئاً من أشيائك ، احسبيني كلبك الصغير ! » وكانت تبكي . وأفلت منها قولها بغير أن تريد ذلك :

ـ « كنت أقدر أن تتركني على هذه الحال ... » .

قالت ذلك على غير ارادة منها ، ولعلها لم تسمع ما قالته . ولكن

هذا الذى قالته كان أخطر كلامها شأناً ، وأشده شؤماً ، وأكثره استغلاقاً على الفهم طوال السهرة ، وكان أشبه بطعنة نفذت فى قلبى حين سمعته ! لقد أوضحت لى تلك الجملة كل شىء ، كل شىء ولكننى أثناء وجودها بقربى أمام عينىّ ، لم يكن فى وسعى أن أفقد الأمل ، حتى لقد كنت أستنشق عبير سعادة لا حدود لها . آه ... كنت فى ذلك المساء أرهقها تعباً ، وكنت أدرك ذلك ، ولكننى لا أنفك أحلم بأن أصلح كل شىء على الفور ! وحين هبط الليل أخيراً ، خارت قواها وانهارت انهياراً . فأقنعتها بأن تنام ، فسرعان ما نامت نوماً عميقاً . وكنت أتوقع أن تهذى ، فهذت فعلاً ، ولكن هذيانها كان خفيفاً . ولبثت الليل كله أقوم فى كل لحظة ، فاقترب منها بِبابوجين دون أية ضجة ، لأنظر اليها ، وأتأمل وجهها . فكنت حين أرى هذا الكائن الصغير المريض ، الراقد على ذلك المضجع هناك ، على ذلك السرير المصنوع من حديد الذى اشتريته لها بثلاثة روبلات ، لا يسعنى الا أن أعقف يدىّ أسفاً وحسرة . وكنت أجثو على ركبتى ، دون أن أجرؤ مع ذلك على أن أقبل قدمى النائمة (ولو فعلت لكان ذلك يخالف ارادتها ويسوؤها) . وكنت أحاول أن أصلّى لله ، ولكننى لا ألبث أن أنهض بوثبة . وكانت لوكيريا تنظر الىّ ، ولا تنفك تخرج من المطبخ . فمضيت اليها ذات مرة وطلبت منها أن تنام ، وقلت لها ان كل شىء « سيُتدارك فى غد وسيتغير » .

وذلك ما كنت أومن بها ايماناً أعمى ، ايماناً مجنوناً . آه ... كانت الحماسة تغمر قلبى ، تغرق قلبى ! كنت لا أنتظر الا أن يجىء الغد . والأنكى من ذلك أننى كنت لا أتصور أن تنزل بنا مصيبة ، لأننى كنت لا أرى شيئاً ينذر بذلك . لم أكن قد استرددت رشدى كاملاً ، رغم أن الغشاوة تمزقت . ومضى وقت طويل قبل أن أسترد رشدى كاملاً ، وقت طويل امتد الى هذا اليوم ، بل اننى حتى فى هذا اليوم لم أصحُ صحواً تاماً . وأين لى أن أصحو صحواً تاماً فى ذلك الحين ؟ ألم تكن

لا تزال حيـة ، هى أمامى وأنا أمامها ؟ « غداً تستيقظ ، فاحكى لها كل شىء ، وتكتشف كل شىء » . تلكم كانت خواطـــرى فى ذلك الوقت ، واضـحةً كل الوضـوح ، بسيطة أشـد البساطة ، ومن ثمَّ كانت تتبع حماستى الغامرة الفيَّاضة ، وكانت فكرة السفر الى بولونى خاصة تؤجج تلك الحماسـة تأججا شـديداً ، اذ كنت أتصور ـ لا أدرى لماذا ـ أن بولونى كل شىء ، وأن فى بولونى مستقراً لـكل شىء . « الى بولونى ، الى بولونى ! ... » .

وعلى هذه الحـال من الخرف والهذيان ، انما كنت أنتظـر طلوع الفجر .

٣

فهمت كل الفهم

ما رأيكم في أن هذا انما وقع منذ بضعة أيام فحسب ، منذ خمسة أيام ليس غير ، في يوم الثلاثاء الماضي ؟ نعم نعم ، لو أنها انتظرت بعض الانتظار على الأقل ، لو أنها تريثت قليلاً ، لو أنها تمهلت شيئاً من التمهل ، اذن لاستطعت أن أبدد جميع الظلمات . ألم تكن قد هدأت ؟ بلى . لقد أصبحت منذ الغد تصغي الى مبتسمة رغم حيرتها وارتباكها . ان ما كنت ألاحظه فيها طوال ذلك الوقت ، طوال تلك الأيام الخمسة ، انما هو الحيرة والارتباك خاصة ، أو هو الخجل والحياء . وكانت خائفة أيضاً ، كانت خائفة خوفاً كبيراً . لا أنكر هذا . لست مجنوناً فأزعم النقيض . كان ذلك خوفاً . ولكن كيف كان يمكن ألا تخاف ؟ كنا قد عشنا غريبين أحدنا عن الآخر ، بعيدين أحدنا عن الآخر ، مدة طويلة ، وحدث كل ما حدث مباغتاً أشد المباغتة ... ولكنني لم أكترث بمخاوفها : ان فجراً جديداً يطلع ! والحق أنني ارتكبت خطأ فاحشاً . ذلك حق لا يمكن أن أماري فيه . لقد ارتكبت خطأ منذ استيقظنا في الغد ، ذلك الصباح نفسه (يوم الثلاثاء) : أسرعت أعاملها كما تعامل صديقة . تعجلت . أسرفت في التعجل . ولكن كان لابد لي من أن أعترف لها ، كان لا غنى لي عن هذا الاعتراف . لا أقل من الاعتراف ! وهكذا بحت لها بما أخفيته حتى عن نفسي ، بما أخفيته عن نفسي طول حياتي . قلت لها فجأة انني خلال هذا الشتاء كله كنت واثقاً بحبها ؟ وكشفت لها عن

أن مكتب الاقراض هذا ليس لوجوده من سبب الا ضعف ارادتي وقلة ذكائي ، وانه اسلوب ابتكرته لمعاقبة نفسي والمباهاة بها في الوقت نفسه . وذكرت لها أن ما وُصفتُ به من جبن لم يكن تجنيا عليَّ بل كان حقاً ، اذ لقد جبنت فعلاً في بوفيه المسرح ، لأنني رجل خائر العزيمة سيء الظن شديد المحاذرة ؛ وكان الجو الذي يحيط بي ، والبوفيه ، وكل ذلك ، قد ملأني دهشة . ثم هذا الأمر أيضاً : كيف كان يمكن أن أخرج من هذه الورطة دون أن أبدو للناس سخيفاً مضحكاً ؟ ان خوفي لم يكن من المبارزة ، بل من أن أظهر للملأ سخيفاً مضحكاً . ثم انني لم أشأ أن أوافق على المبارزة ، فأخذت أعذب جميع الناس ، فعذبتها هي أيضاً بسبب ذلك ، وتزوجتها بعدئذ من أجل أن أعذّبها . الخلاصة أن أكثر كلامي لها كان كالهذيان . فأمسكت يدي ، وضرعت اليَّ أن أسكت ، قائلة : « انك تبالغ ، انك تعذب نفسك » . وطفقت تبكي من جديد ، وأوشكت أن تعتريها نوبة عصبية أخرى ! وكانت لا تنفك ترجوني أن أسكت وألا أثير هذه الذكريات .

ولكنني أغضيت عن ضراعاتها ولم أحفل بها ، وظللت أحدثها عن الربيع وبولوني قائلاً : هناك ستشرق الشمس ... هناك ستتلألأ شمسنا الجديدة . وكنت لا أقول لها شيئاً غير هذا ! وأغلقت المكتب ، وعهدت بالعمل الى دوبرنرافوف . واقترحت عليها فجأة أن نوزّع كل شيء على الفقراء ، الا الثلاثة آلاف روبل التي ورثتها من عرّابتي ، فبهذا المبلغ نسافر الى بولوني ، ثم نرجع من بولوني لنبدأ حياة عمل جديدة . على هذا اتفقنا ، لأنها لم تعترض بشيء ، لم تقل شيئاً ، واكتفت بالتبسم . وأظن أنها كانت تتبسم كياسةً ولباقةً حتى لا تؤلمني . وكنت أرى رؤية واضحة أنني أتعبها . لا تظنوا أنني بلغت من الأنانية والحماقة حداً يجعلني لا ألاحظ ذلك . لقد رأيت هذا كله ، رأيته بأدق التفاصيل . كنت

أرى وأعلم أكثر من أى انسان فى العالم . وكان يأسى كله ماثلاً أمامى تحت بصرى .

طفقت لا أحدثها الا عنها وعنى . وعن لوكيريا . قلت لها اننى بكيت . وعرفت كيف أحرف الحديث عن مجراه . حرصت على أن لا أثير ذكرى بعض الأمور . حتى ان هيئتها قد انتعشت مرةً أو مرتين . أذكر هذا ، أذكر هذا ! ما بالكم تزعمون أننى كنت أنظـــر فلا أرى شيئاً ؟ ولو أن « ذلك » على الأقل لم يحـــدث ، لكان هــذا انبعاثاً . ألم تقصص علىّ فى غداة الغد ، حين جرى الحديث على القراءة وعلى ما قرأته أثناء هذا الشتاء ، ألم تقصص علىّ ، وهى تضحك لهذه الذكرى ، مشهد « جيل بلاس » مع رئيس أساقفة غرناطة ؟ وما كان أروع ضحكها ! كان كضحك طفلة صـغيرة ، ذكرنى بضحكهـا أيامَ الخطوبة (مدة لحظة ، لحظة واحـدة) . آه ما كان أسـعدنى ! ومع ذلك لم تدهشنى قصتها عن رئيس الأساقفة . وقلت لنفسى : معنى هذا أنها استطاعت فى خلال هذا الشتاء أن تسترد كثيراً من هدوء البال والطمأنينة والسعادة ، حتى أخذت تتسلى بقراءة أثر من عيون آثار الأدب . معنى ذلك أنهـا أخذت تألف الوضع وتتلاءم مع الظرف ، وأنها أخذت تؤمن حتماً بأننى سوف أتركها « على تلك الحال » . لقد قالت لى فى يوم الثلاثاء ذاك : « كنت أظن أنك ستتركنى علىَّ هذه الحال » . تلك فكرة تراود خاطـر صـبية صغيرة فى العاشرة من العمر ! كانت تعتقد فعلاً ـ كانت تعتقد بذلك ـ بأن كل شىء سـيبقى على تلك الحال ... أجلس أنا الى مائدتى ، وتجلس هى الى مائدتها ، ونبقى على هذه الحال الى سن الستين . ثم هأنذا أتدخل تدخـل زوج . والزوج يطلب أن تحبه زوجته . فذلكم كان سوء فهمى . وتلكم كانت عماوتى !...

وكان خطأ آخـر هو أننى كنت أتأملها فى حماسة . كان ينبغى لى أن أكبح زمام نفسى ، لأن حماسـتى أخافتها . ولكن ألم أكبح زمام نفسى

حين كنت أمتنع عن لثم قدميهـا ؟ وما من مرة هممت ... هيًّا ...
قلها ... نعم ... ما من مرة هممت أن أفعل ما يفعله زوج . حتى ان
ذلك لم يخطـرلى على بال ؟ وكانت شـفتاى لا تتحركان الا بالضراعة
والرجاء .

على أننى ما كنت لأستطيع أن أسكت سكوتاً تاماً فما أنطق بكلمة !
لذلك رأيتنى أعترف لها فجأة بكل المسرة التى أجنيها من حديثها ، وأعبر
عن مدى ما أكنه من احترام لها وأصفها بأنها تفوقنى أدباً وثقافة فلا وجه
للمقارنة بينى وبينها فى مضمار الأدب والثقافة . فاصطبغ وجهها بحمرة
شديدة ، وخجلت خجلاً قوياً ، وقالت انى أبالغ . وفقدت عندئذ سيطرتى
على نفسى ، فاذا أنا أرتكب حماقة كبرى ، فأصف لها ما شعرت به من
سورات الحماسة حين كنت واقفاً وراء الباب أتنصَّت على الهجوم الذى
شنَّه طهرها على ذلك الرجل السخيف المضحك ، وأصف لها ما ذقته من
لذة عاطفية حين كنت أسمع عباراتها اللاذعة ، وأشهد براءتها الساذجة .
فاذا هى يسرى فى جسـمها كله ما يشبه أن يكون رعدة ، واذا هى تهم
أن تقول اننى أبالغ ، ولكن وجهها لم يلبث أن اكفهر واربد ، ثم أسرعت
تدفن رأسها فى يديها وتنفجر باكية ... فلم أستطع عندئذ أن أكبح
جماح نفسى ، فاذا أنا أركع من جديد ، وأهوى على قدميها ألثمهما ، واذا
بهذا كله ينتهى بنوبة عصبية أخرى تعتريها كما اعترتها نوبة عصبية فى
المرة الأولى . حدث ذلك فى العشية ، حتى اذا طلع الصباح ...

الصباح ؟ يا لى من مجنون ! ... ان ذلك الصباح هو هذا اليوم ،
هو اليوم الذى نحن فيه ، هو منذ برهة ، منذ برهة ...

اصغوا الىّ ، وتابعوا ما أقوله . منذ مدة وجيزة ، حين افترقنا عقب
تناول الشـاى (حدث هذا بعد النوبة العصبية التى اعترتهـا أمس) ،
أدهشنى ما رأيته فيها من هدوء . تلكم كانت حالنا . وكنت من جهتى قد
قضيت الليل كله أرتعش وأرتجف تحت وطأة مشهد الأمس . ولكنها

اقتربت منى على حين فجأة ، وضمت ذراعيها احداهما الى الأخرى ابتهالاً (منذ قليل ، منذ قليل !) وأخذت تقول لى انها مجرمة وانها لا تجهل ذلك ، وان جريمتها قد عذبتها طوال الشتاء ولا تزال تعذبها الى الآن ••• وانها تقدر شهامتى ومروءتى قدراً عظيماً ••• وأضافت تقول : « لسوف أكون خليلتك الوفية ، ولسوف أقدسك تقديساً » • فما ان سمعت هذا الكلام حتى انتفضت ، وهجمت أعانقها بذراعىَّ كالمجنون ! وقبَّلتها ، قبَّلت وجهها وشفتيها ، تقبيلَ زوجٍ زوجته ، لأول مرة منذ انفصالنا الطويل •

لماذا خرجت بعد قليل لأغيب عن البيت ساعتين ؟ خرجت لأنجز اجراءات جوازىْ سفرنا الى الخارج • آه ••• يا رب ! لو أننى رجعت قبل خمس دقائق لا أكثر ••• اذن لكان يمكن ألا يحدث ما حدث ! ولكن هأنذا أرجع الى البيت ، فأرى أمام بابنا حشداً كبيراً من الناس ، وأرى الأبصار كلها تشخص الىَّ ••• آه ••• رباه !

وتقول لى لوكيريا (الآن لن أدع لوكيريا تنصرف بحال من الأحوال • انها تعرف كل شىء • بقيت عندنا الشتاء كله ، فسوف تقص علىَّ ما تعرف) ، تقول لى لوكيريا انها ، بعد خروجى من البيت بعشرين دقيقة فى أكثر تقدير ، دخلت على مولاتها فى غرفتنا فجأة لتسألها عن أمر من الأمور ، فلاحظت أن الأيقونة (أيقونة العذراء تلك نفسها) لم تكن فى مكانها ، وأن مولاتها كانت قد وضعت الأيقونة أمامها على المائدة ، وأن مولاتها كان يبدو عليها أنها صلت للأيقونة فى تلك اللحظة نفسها • قالت لى لوكيريا : سألتها : « ما بك يا سيدتى ؟ » ، فأجابتنى : « لا شىء يا لوكيريا ، اذهبى لشأنك ، بل انتظرى يا لوكيريا » • وتقدمت منى وقبَّلتنى • سألتها : « هل أنت سعيدة يا سيدتى ؟ » فاجابتنى : « نعم يا لوكيريا » • قلت : « كان ينبغى لمولاى أن يطلب منك العفو منذ مدة طويلة ••• الحمد لله على أنكما تصالحتما » • قالت : « طيب يا لوكيريا ،

اذهبي الآن لشأنك يا لوكيريا » • وابتسمت مرة أخرى ، ولكن ابتسامتها كانت غريبة • كانت من الغرابة بحيث ان لوكيريا رجعت بعد عشر دقائق لترى ماذا كانت تفعل • « كانت مكبة على الحائط بقرب النافذة ، قد أسندت اليه احدى ذراعيها وأسندت الى الذراع رأسها • وبقيت على هذه الحال مستغرقة فى أفكارها ، حتى لقد بلغت من شدة الاستغراق أنها لم تلاحظ أننى لبثت فى الغرفة أنظر اليها • ورأيت فى وجهها ما يشبه الابتسام ، ورأيتها تفكر ثم تبتسم • نظرت اليها ملياً ، ثم استدرت فى رفق وهدوء ، وخرجت واجمة مفكرة ، فاذا أنا أسمعها تفتح النافذة فجأة • فرجعت لأقول لها : « الهواء بارد يا سيدتى ، فحذار أن يصيبك برد » ، لكننى رأيتها ترتقى حافة النافذة المفتوحة ، وتقف عليها منتصبة القامة ، مديرة ظهرها الى ، محتضنة الأيقونة بيديها • فهبط قلبى فزعاً وصرخت : « سيدتى ! سيدتى ! » ، فسمعت صوتى ، وتحركت لتلتفت نحوى ، ولكنها لم تلتفت ، بل ترجحت ، وشدت الأيقونة الى قلبها ، ملقية بنفسها من النافذة ! » •

أذكر أننى حين اجتزت بوابة الفناء كان جسمها لا يزال حاراً • وأهول ما فى الأمر أن جميع الناس كانوا ينظرون الى • سمعت أول ما سمعت صرخات وصيحات ، ثم صمت المحتشدون كافة وتنحوا عن طريقى ليفسحوا لى ممراً • كانت راقدة هناك ، قابضة على الأيقونة • أذكر ، كما يذكر المرء رؤية فى ظلمات ، أننى تقدمت صامتاً ، وتأملتها ملياً • كان الجمهور قد ابتعد ، وكان يقال لى شىء ما • وكانت لوكيريا هناك ، لكننى لم أبصرها • يقال لى انها كلمتنى • اننى لا أتذكر الا ذلك البائع الذى كان لا ينفك يصيح قائلاً لى : « خرج من فمها خيط نحيل

من دم ، خيط ، خيط من دم ! » ، وكان يشير لى الى الدم هناك على الحجر . وقد لمست الدم فطليت به أصبعى (أذكر هذا) ، بينما كان البائع لا يزال يصيح « خيط نحيل من دم ! » . فما كان منى الا أن زأرت زئيراً شديداً فى أغلب الظن ، وشهرت قبضتى يدى ، وهويت عليه ...

آه ... يا للحادث القاسى ، الأليم ! سوء فهم ! غلطة ! شىء لا يُعقل حدوثه ! شىء مستحيل !

٤

بسبب خمس دقائق من التأخر

أأكون واهماً ؟ هل هذا كله يُعقل حدوثه ؟ هل يمكن أن يقول أحد ان مثل هذا الأمر ممكن ؟ لماذا ماتت هذه المرأة ؟

صدقوا اننى أفهم الأمر . ولكن سبب موتها ... يظل سؤالاً قائماً . لقد خافت من حبى . تساءلت جادةً : « أيجب أن أقبله أم لا ؟ » . فلما لم تطق احتمال هذا السؤال ، آثرت أن تموت . أنا أعرف ذلك ، أعرفه ، فلا حاجة الى أن أصدّع رأسى . لقد تورطتْ فى وعود مسرفة ، وخشيت ألا تستطيع الوفاء بها ... الأمر واضح . تضافرت ظروف رهيبة . هذا كل شىء .

ذلك أننى أتساءل حقاً لماذا ماتت ؟ لا يملك المرء الا أن يعود الى هذا السؤال . والسؤال قائم تحت جمجمتها ينبض ويخفق . لقد كان يمكننى أن أدعها على « تلك الحال » ، ما دامت هذه هى رغبتها . ولكنها لم تصدقنى . وتلك هى حقيقة الأمر كله . لا ، لا ، اننى أكذب : ما هذه هى حقيقة الأمر . بل حقيقة الأمر أنها كان سيجب عليها فى المستقبل أن تحبنى حباً صادقاً ، حباً كاملاً تاماً ، لا كالحب الذى كانت ستهبه للبقال . ولكنها كما كانت أعف وأطهر من أن ترتضى هذا النوع من العاطفة التى تلائم بقالاً ، قد رفضت أن تغشنى وتخدعنى . لم تشأ أن تغشنى وتخدعنى بأن تهب لى نصف حب أو ربع حب فى حلة حب

كامل . كانت شريفة مسرفة في الشرف ، وكانت مستقيمة مغالية في الاستقامة . ذلك هو الأمر كله ! ألا ما كان أغباني حين أردت أن أعلمها رحابة الفكر ، هل تتذكرون ؟ فكرة غريبة عجيبة !

وهناك نقطة يهمني كثيراً أن تتضح لي : تُرى هل كانت تعتبرني ؟ لا أدرى أكانت تحتقرني أم لا . ولكنني لا أعتقد مع ذلك أنها كانت تحتقرني . شيء غريب ! لماذا لم يخطر على بالي في يوم من الأيام طوال الشتاء أنها ربما كانت تحتقرني ؟ لقد بقيتُ الى آخر لحظة ، الى اللحظة التي نظرت اليّ فيها « بدهشة قاسية » ، بقيت على يقين تام بنقيض ذلك . وحينذاك انما أدركت فجأةً أنها تحتقرني . فهمت ذلك مرةً الى الأبد . آه ! أي ضير ، أي ضير في أن تظل تحتقرني طوال حياتها شريطة أن تبقى حية ، أن تبقى حية ؟ انني لا أفهم أن تكون قد ألقت نفسها من النافذة ! منذ قليل كانت تمشي ، وكانت تتكلم ! وكيف كان يمكنني أن يخطر ببالي ما عقدت نيتها عليه ، ولو قبل خمس دقائق ؟ لقد ناديت لوكيريا . لن أدع لوكيريا ترحل ، لا ، لن أدعها ترحل بحال من الأحوال .

أواه ! كان لا يزال في امكاننا أن نتفاهم . صحيح أننا كنا في أثناء هذا الشتاء قد فقدنا كثيراً تعود أحدنا على الآخر وألفته له ، ولكن ألم يكن في وسعنا أن نسترد ذلك التعود وتلك الألفة ؟ ان نفسي نبيلة سامية ـ وكذلك نفسها ـ فكان يمكن أن يكون هذا نفسه نقطة الاتصال والالتقاء ! لو تبادلنا بضع كلمات أخرى ، لو تريثت يومين آخرين ، يومين لا أكثر ، لكان يمكن أن تفهم كلّ شيء..

أنكى ما في الأمر أن هذا كله ثمرة المصادفة ، ثمرة مصادفة عمياء ، قاسية ، وحشية ، غادرة . ياله من ظلم وجور ! خمس دقائق ، لا أكثر من ذلك ، خمس دقائق من تأخر ! لو أنني رجعت قبل خمس دقائق ، لانقضت اللحظة المشئومة كما ينقضي حلم ، ولما خطر الأمر ببالها بعد ذلك في يوم من الأيام . كانت ستفهم في النهاية . وبدلاً من ذلك ، هاهي

ذي الغرف تقفر من جديد ، وهأنذا أبقى وحيداً مرة ثانية ؟ هل تسمعون دقات الساعة ؟ ان الساعة لا يهمها الأمر انها لا تأسف لشيء ولا تتحسر على شيء • آه ••• ألا يـكون للانسـان أحـد في هذا العالم ••• يا له من حزن !

انني أسير ذاهبـاً آيبـاً ، ولا أزيد على أن أذهب وأؤوب • أعلم ما يدور في أذهانكم ، أعلمه ، فلا حاجـة بكم الى أن تقولوه : انه يبدو لكم أمراً سخيفاً مضحكاً أن تروني آسفا لمصادفة هذه الدقائق الخمس ؟ ولكن أسفي شيء يدركه الانسان بداهة • تذكروا أنها لم تترك حتى ورقة تعلن فيها أنه لا ينبغي اتهام أحـد بأنه سبب موتها ، كما يفعل ذلك جميع من ينتحرون • ألم يكن في وسعها أن تقدر أن من الممكن اقلاق لوكيريا وازعاجها ، كأن يقال لها : « كنت وحيدة معها ، فلابد أنك أنت التي دفعتها » • على كل حال ، كان يمكن اعتقال بريئة لولا أن كان في فناء المنزل أربعة أشـخاص رأوا من الخارج ومن نوافذ البيت كيف كانت واقفة على النافذة محتضنة الأيقونة ، وكيف ألقت نفسها بنفسها الى تحت • وانها لمصـادفة على كل حال أن كان في الفناء أشخاص رأوها • لا ، لا ، ان ذلك كله هو ثمرة لحظة ، ثمرة لحظة من عدم الشعور بالمسئولية • نزوة مباغتة ! لماذا كانت تصلي أمام الأيقونة ؟ ليس معنى هذا أنها كانت تنوي الموت • لعل المدة التي قضـتها مكبـة على الحائط ، مسـندة رأسها الى يديها ، مبتسمة ، لم تطل أكثر من خمس عشرة دقيقـة ، فاذا هي تتخذ قرارها • انها فكرة برقت في رأسها ، فاعتراها دوار ، ولم تستطع أن تقاوم نداء الانتحار •

هو سوء فهم لا أكثر • كان لا يزال في وسعها أن تعيش معي • ولكن ماذا اذا كانت مصابة بفقر الدم ؟ ماذا اذا كان مرد الأمر الى الأنيميا وحدها ، الى نضوب قوة الحياة ليس غير ؟ يكون الشتاء قد أتعبها وأضناها ، فاذا هي •••

لقد تأخرتُ !!!

ما أشد ما يبدو جسمها ناحلا في التابوت ! ما أشد ما يبدو أنفها رفيقاً ! وان أهدابها تبدو أشبه بسهام • حين سقطت على الأرض لم تصب بجرح ولا كسر ! لم يظهر الا ذلك « الخيط النحيل من الدم » • ان الدم الذى نزف منها يملأ ملعقة قهوة فى أكثر تقدير • كانت الاصابة داخليه • فكرة غريبة تخطر ببالى : لو أمكن ألا تدفن ؟ ذلك أنها اذا أخذت منى •• فسوف •• لا ، لا •• انه يستحيل تقريباً أن تؤخذ منى • آه •• اننى أعلم حق العلم مع ذلك أنها لابد أن تؤخذ • ما أنا بمجنون ، ولست أهذى • بالعكس : ما كان فكرى فى يوم من الأيام صاحياً كصحوه الآن • ولكن ما معنى أن البيت عاد مقفراً ليس فيه أحد ، ما معنى أنه لم يبق الا غرفتان ، وأننى قد عدت وحيداً مع الأشياء المرهونة ؟ كابوس ! كابوس ! هذا هو الكابوس !

ما قيمة قوانينكم عندى بعد الآن ؟ بل فى أى شىء تنفعنى عاداتكم وتقاليدكم وآدابكم وأخلاقكم وحياتكم ودولتكم ودينكم ؟ ما قيمة أن تحكم علىَّ محاكمكم ؟ ألا فلأجرّ للمثول أمام القضاة ، ولأستجوب ، فأقول اننى لا أقر شيئاً من ذلك كله • ولسوف يزأر القاضى عندئذ قائلاً لى : « اسكت ، أيها الضابط » ، فأصرخ أنا قائلاً له : « من أين لك هذه السلطة التى تجبرنى على طاعتك ؟ لماذا قتلت مصادفة عمياء أعزّ انسان على قلبى ؟ ما فائدة قوانينكم كلها • اننى أنسحب » • نعم ، لا يهمنى • سأعتزل •

عماوة ! عماوة ! انها ميتة • انها لا تسمع ! ألا تدرين بأية جنة كان يمكن أن أحيطك ؟ كانت الجنة فى قلبى ، وكان يمكن أن أنقلها اليك فتحف بك • ولكن كان يمكن ألا تحبينى ؟ فلتفرض هذا • كان يمكن أن تبقى الأمور على « تلك الحال » • ولكن كنت ستحكين لى ، كما يحكى صديق لصديقه ، شئونك الصغيرة ، وكنا سنبتهج ، وكنا سنبتسم

بينما ينظر كل منا فى عينى صاحبه فرحاً مرحاً . هكذا كان يمكن أن نعيش . واذا أحببت رجلاً آخر ، ما كنت سأهتم أو أكترث . كنت ستذهبين معه ،وكنت ستبتسمين ، وكنت أنا سأحوّل بصرى الى جهة أخرى من الشارع ... آه ... ما قيمة هذا كله ، بشرط أن تفتح عينيها من جديد مرةً واحدة ! لحظة واحدة ، لحظة وحيدة ! وتنظر الىَّ ، كما كانت تنظر الىَّ منذ قليل واقفةً تحلف لتكوننَّ لى خليلة وفية . آه ... ان فعلت أدركتُ كل شىء بنظرة واحدة !

يا للقدر ! يا للطبيعة ! ان المرء وحيد على هذه الأرض . ذلكم هو الشقاء . ان المجذوم الروسى الذى تحدثت عنه الأسطورة يهتف سائلاً : « هل هنا أحد حى ؟ » . وانى لأهتف أنا أيضاً ، أنا الذى لست مجذوماً ، فلا يجيبنى أحد . يقال ان الشمس تحيى الطبيعة . ان الشمس تطلع ، انظروا اليها ... أليست كأنها ميتة ؟ كل شىء ميت . ليس فى كل مكان الا أموات . الانسان وحيد . كل ما حوله صمت . تلكم هى الأرض ! « أيها البشر ، أحبوا بعضكم بعضاً » . من الذى نطق بهذه الكلمات ؟ من أين يأتى هذا النداء ؟ من حمل هذه الرسالة ؟

ساعة الحائط تدق بغير احساس ، دقاً رتيباً منفّراً . هى الساعة الثانية من الفجر . حذاءاها الصغيران تحت السرير . كأنهما ينتظران . أواه ! ما عسانى أصير حين يأخذونها غداً . قولوا : ما عسانى أصير !

حلم رجل مضحك

١٨٧٧

«حلم رجل مضحك» نشرت هذه القصة أول مرة في كراسة شهر نيسان (ابريل) ۱۸۷۷ من «يوميات كاتب» (الفصل الثاني)

١

حكاية عجيبة

أنا رجل مضحك • يقولون الآن انى مجنون • يكون هذا لقباً أعلى لو أننى مازلت فى نظرهم مضحكاً • لكننى لن أزعل بعد الآن • فجميع الناس لطاف فى معاملتى ، حتى حين يستهزئون بى ويتهكمون علىّ ، بل هم ، حين يستهزئون بى ويتهكمون علىّ ، كأنهم ألطف وأرق • لولا أننى أشعر بحزن شديد حين أتأملهم ، لسرّنى أن أشاركهم الضحك ، لا على نفسى ، بل حرصاً على أن أسرّهم • اننى أحزن حين أرى أنهم لا يعرفون الحقيقة ، الحقيقة التى أعرفها أنا • ما أشق أن يكون المرء هو الوحيد الذى يعرف • ولكنهم لن يفهموا • لا ، لن يفهموا •

فى الماضى كان يؤلمنى كثيراً أن أبدو مضحكاً • وأنا لم أكن أبدو مضحكاً ، بل كنت مضحكاً • لقد كنت طول حياتى مُضحكاً ، وأنا أعلم أننى ُولدت مضحكاً فى أكبر الظن • لعل سِّنى كانت سبع سنين حين علمت أننى مضحك • ثم درست بعد ذلك فى المدرسة الثانوية ، وفى الجامعة ، فكنت كلما أوغلت فى الدراسة مزيداً من الايغال علمت مزيداً من العلم أننى مضحك • حتى لكأن علمى الجامعى كله لم يوجد الا ليبرهن لى ويشرح لى أننى مضحك كلما ازددت تعمقاً له ، وتوغلاً فيه • وكان شأن الحياة كشأن العلم فى هذا • فكنت ، سنةً بعد سنة ، أزداد يقيناً بأننى أبدو شخصاً مضحكاً من جميع النواحى • لقد ضحك منى

واستهزأ بي جميع الناس في كل مكان وكل زمان . ولكن ما من أحد منهم خطر بباله أنه اذا وجد في هذا العالم انسان يعرف أكثر من سائر الناس أنني مضحك ، فهذا الانسان هو أنا . لذلك كنت أشعر بنوع من الأسف والحسرة حين أرى أن أحداً لا يخطر له هذا على بال . والذنب في هذا ذنبي ، لأن خيلائي منعتني دائماً من الاعتراف بسرّي . وكانت هذه الخيلاء تزداد مع تقدمي في السن ، فلو اتفق ان انسقت في يوم من الأيام فاعترفت لأحد من الناس ايا كان ، انني رجل مضحك لهشمت رأسي بطلقة من مسدس في مساء ذلك اليوم نفسه . لطالما تعذبت أثناء المراهقة حين كنت أتصور أنني لن أستطيع أن أقاوم ، وانني سأنساق مرةً على حين فجأة ، فأعترف بالأمر لرفاقي . ولكنني حين صرت شاباً هدأ بالي واطمأنت نفسي لسبب أو لآخر ، رغم أني كنت أزداد اقتناعاً بشذوذي الرهيب سنةً بعد سنة ، وما ذلك الا لأنني مازلت الى هذا اليوم أجهل لماذا وكيف ! لعل مردّ ذلك الى تلك الكآبة الواسعة التي استولت على نفسي في أعقاب ظرف يفوقني كثيراً ، ألا وهو اقتناعي ، الذي أصبح راسخاً مستقراً ، بأن كل شيء في هذه الحياة الدنيا « ليس له شأن » . كنت أشتبه في ذلك منذ مدة طويلة جداً ، ولكنني اقتنعت به اقتناعاً كاملاً ، وأيقنت منه يقيناً تاماً على حين فجأة . أحسست بغتةً أنني لن يهمني ألا يوجد العالم أو ألا يوجد شيء في أي مكان ، فلو حدث هذا لما اكترثت له ولا حفلت به . وأخذت أدرك وأحس أن لا شيء في نظري موجود في حقيقة الأمر . كان قد لاح لي دائماً حتى ذلك الحين أن أشياء كثيرة قد وجدت قبلي . فأدركت في تلك اللحظة أن لا شيء كان له وجود من قبل ، أو قل انه لم يكن ثمة الا مظاهر . واقتنعت شيئاً فشيئاً بأنه لن يوجد شيء أبداً . فأصبحت عندئذ لا أغتاظ من الناس ولا أحنق عليهم ، وصرت آخر الأمر لا أكاد ألحظهم . وقد تجلت هذه الحالة النفسية في ظروف من الحياة هي أتفه الظروف : فكان يتفق لي مثلاً وأنا سائر في الشارع أن أصطدم بالناس ؟ ليس معنى هذا أنني أكون مستغرقاً في فكرة

من الأفكار ، فقد أصبحت فى ذلك الحين لا أفكر فى الأشياء التى ينبغى أن أفكّر فيها ، لأن الأمور جميعاً قد استوت فى نظرى ، فلست أحفل بشىء ، وتركت حتى الاهتمام بحل المشكلات التى تعرض لفكر المرء ، ولم أحلّ منها مشكلة واحدة ، بل لا يعلم الا الله هل عرضت لفكرى مشكلات أصلاً . فمن « قلة اكتراثى » ، ذهبت المشكلات أدراج الرياح .

ولكن هأنذا أعلم الحقيقة . لقد انكشفت لى هذه الحقيقة فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) الماضى ، فى اليوم الثالث من ذلك الشهر على وجه الدقة ، فأصبحت ماثلة فى ذاكرتى منذ ذلك الحين كلّ لحظة . حدث ذلك فى ليلة مظلمة ، فى ليلة كانت أحلك الليالى ظلاماً . كنت عائداً الى بيتى فى نحو الساعة الحادية عشرة . أذكر ذلك . وكنت أفكّر فى أنه يستحيل على المرء أن يرى ليلةً أحلك ظلاماً من هذه الليلة . وكان المطر قد انهمر طوال النهار ، وكان مطراً من أشد الأمطار برداً وكآبة ، بل كان مطراً فيه نوع من التهديد للبشر والعداء لهم ... أذكر ذلك ... ثم اذا هو ينقطع عن الانهمار فجأة ، فى نحو الساعة الحادية عشرة ، واذا برطوبة شديدة ترتفع من الأرض ، رطوبة أشد وأبرد من الرطوبة التى كانت منتشرة أثناء انهمار المطر . كان نوع من بخار يفوح من جميع بلاط الشارع ، ومن كل زقاق ، حين تسرّح طرفك فى بعيد فترى الحارة من أولها الى آخرها . وبدا لى فجأة أن المرء يقل احساسه بالحزن والأسى اذا انطفأت مصابيح الغاز فى كل جهة من الجهات ، فالى هذا الحدّ كانت أضواء مصابيح الغاز تحزن القلب بالقائها الضوء على هذا كله . لم أكن قد تعشيت فى ذلك اليوم . وقد قضيت السهرة عند مهندس بصحبة رفيقين له . فكنت أثناء السهرة صامتاً لا أتكلم ، فلابد أننى أضجرتهم . وقد تحدثوا فى أمور مثيرة ثم اذا بالغضب يستولى عليهم . ولكنهم كانوا فى الحقيقة غير مكترثين ـ رأيت ذلك رؤية واضحة ـ وكانوا لا يتحمسون ذلك التحمس الا شكلاً بغير

مضمون • فاذا أنا أقول لهم فجـأة : « يا سـادة ، حقيقة الأمر أنكم غير مكترثين » ، فلم يغضبوا ، ولم يزيدوا على أن ضـحكوا لسـماع هذه الكلمات • وقد قلت لهم ذلك بلهجة لا تحمل أي معنى من معانى اللوم ، وما قلته لهم الا لأن الأمر كان يبدو لى غير مثير للاهتمام أو الاكتراث ، وقد لاحظوا قلة اكتراثى ، فاعترتهم نوبة مرح ، وطفقوا يضحكون •

حين دارت فى رأسى تلك الفكرة عن ضوء مصابيح الغاز وأنا فى الشارع ، رفعت عينىّ نحو السماء • كانت قبة السماء كلها تمتد مظلمةً ظلاماً رهيباً • ولـكن المرء يستطيع أن يميِّز فيها مزق السحائب تمييزاً واضـحاً ، وأن يرى فى هذه السـحائب بقعاً سـوداً عميقة • وبينا كنت أنظر فى هذه السحائب اذ لمحت فى احدى تلك البقع نجمة صـغيرة ، فأخذت أتأملها محدقاً • ذلك أن تلك النجمة قد أيقظت فى نفسى فكرة • قررت أن أنتحر فى تلك الليلة نفسها • كنت قد عزمت على الانتحار منذ شهرين ، فاشتريت ، رغم شدة فقرى ، مسدساً رائعاً لقمته فى ذلك اليوم نفسه • وانقضى شهران والمسدس لا يزال نائماً فى الدرج • ولكننى بلغت من قلة الاكتراث بأى شىء أننى أصبحت أشتهى أخيراً أن تأتى الدقيقـة التى يبدو لى فيها الانتحار جديراً بالاكتراث • لماذا ؟ لا أدرى • وصرت كلما سرت عائداً الى بيتى فى الليل ، يخطر ببالى أن أطلق الرصاص على رأسى • وأخذت انتظر أن تجىء اللحظة الملائمة المناسبة • وها هى النجمة التى أراها فى السماء توحى الىّ بفكرة : أن أنفذ الليلة ما عزمت عليه ، « حتماً » • فاذا سألتنى لماذا أيقظت تلك النجمة الصغيرة هذه الفكرة فى نفسك ، لأجبتك بأننى لا أعرف ذلك معرفة تامة •

وفى تلك الأثناء ، بينا كنت أنظر فى السماء ، انما أمسكت تلك البنت الصغيرة كوعى • كان الشارع مقفراً فى تلك الساعة ، أو قل انه قد أخذ يقفر فلا يكاد يمر فيه أحد • كان هناك حوذى يغفو على مقعده •

ان البنت الصغيرة هي في نحو الثامنة من العمر • كان رأسها مغطى بمنديل ، وكانت ترتدي ثوباً رثاً ، وكان الماء يسيل عليها • ولكن بصري وقع خاصة على حذاءيها المثقوبين اللذين يتسرب منهما الماء الى قدميها • مازلت أتذكر هذه الواقعة الى الآن • لقد خطف هذان الحذاءان انتباهي أكثر من أي شيء آخر • وأخذت البنت الصغيرة تشدني من كوعي منادية مستنجدة • كانت لا تبكي • وكانت تناديني متقطعة الصوت ، موعوعةً بكلمات تعجز عن النطق بها بسبب البرد الذي كان يجعلها ترتجف ارتجافاً شديداً • كانت تبدو مذعورة من شيء ما ، وتصيح يائسة : « أمي ، أمي العزيزة ! » • التفت اليها ، ولكنني لم أقل لها كلمة واحدة ، وتابعت سيري • ركضت ورائي ، وشدتني من ذراعي ، بينما كان يخرج من حلقها صوت أجش أبح هو ذلك الصوت الذي تسمعه من الأطفال المذعورين واشياً بما اعتراهم من كرب ويأس • انني أعرف هذه اللهجة • وفهمت من وعوعتها ، رغم عدم اشتمالها على كلمات ملفوظة ، أن أمها تحتضر في مكان ما ، أو أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث لها اللحظة ، فركضت تبحث عن انسان أو شيء يغيث أمها • ولكنني لم أتبعها • وأكثر من ذلك أنني خطر ببالي فجأة أن أنهرها وأطردها • قلت لها في أول الأمر ان عليها أن تستنجد بشرطي • ولكنها سرعان ما ضمت يديها الصغيرتين احداهما الى الأخرى ضارعة مبتهلة ، وانفجرت تبكي لاهثة ، وظلت تسير الى جانبي لا تتركني • فلم يسعني الا أن أشتمها قارعاً الأرض بقدمي • فلم تزد على أن تصيح قائلة : « سيدي ، سيدي ••• » ، ثم تركتني فجأة لتقطع الشارع مسرعة كالسهم ، ذلك أن رجلاً آخر ظهر على الرصيف المقابل ، فلا شك أنها تركتني لتركض اليه •

صعدت السلم حتى بلغت مسكني الذي يقع في الطابق الرابع • ان المسكن شقة مفروشة يقيم فيها مستأجرون مختلفون • وغرفتي في

هذه الشقة صغيرة فقيرة ، ليس لها من نافذة الا نصف كوة • أثاثي ديوان مغطى بقماش مشمّع ، ومائدة عليها كتبي ، وكرسيان ، ومقعد قديم متقوض ، لكنه من طراز فولتير • جلست وأشعلت الشمعة واسترسلت في التفكير • وكان فجور يملأ الغرفة المجاورة في الجهة الأخرى من الحاجز • ان هذا الفجور قائم منذ يومين • فالشخص الذى يعيش في تلك الغرفة كابتن محال على التقاعد جاءه زوار أوغاد أوباش يبلغ عددهم زهاء عشرة ، وطفقوا يشربون مفرطين ، ويلعبون « الفرعون » بمجموعة قديمة عتيقة من ورق اللعب • وقد نشبت بينهم مشاجرة في الليلة الماضية ، وعرفتُ أن اثنين منهم ظلا يتضاربان مدة طويلة • وكان يمكن أن تشكوهم المؤجرة ، ولكن الكابتن كان يرعبها • ولم يكن في البيت مستأجرون آخرون ، الا سيدة هزيلة نحيلة ضامرة هي أرملة ضابط من الضباط لها ثلاثة أطفال صغار ، فما ان ساقتهم المقادير الى هذا المسكن حتى مرضوا جميعاً • وكان الأولاد وأمهم يخافون الكابتن خوفاً يبلغ من الشدة أنهم يظلون يرتجفون ويصلون طوال الليل • حتى ان أصغر الأولاد قد اعتراه من ذلك ما يشبه أن يكون نوبة عصبية • وكنت أعلم أن هذا الكابتن يتحرش بالمارة على طول شارع نفسكى مستعطياً اياهم صدقة • وما كان لأحد أن يعهد اليه بأى عمل لو سعى هو الى الحصول على العمل • ومع ذلك فان هذا الكابتن (ومن أجل أن أسوق هذه الواقعة انما أجيء على ذكره) لم يثر في نفسى أى شعور بالنفور منه والكره له ، وقد انقضى على سكناه في هذا البيت شهر كامل • صحيح أننى منذ اليوم الأول قد تحاشيت أن تقوم بينى وبينه صلة ، ولو قد جالسته لسئم صحبتى على كل حال • وانما أحب أن أذكر أننى كنت لا أكترث ولا أبالى ، مهما تكن الجلبة التى يحدثها هو وصحبه صاخبة ، ومهما يكن عددهم كبيراً • وقد تعودت ألا أرقد طوال الليل ، وكنت في حقيقة الأمر لا أسمعهم ، حتى لقد نسيت في النهاية وجودهم • اننى

لا أستطيع أن أغمض عينيّ قبل بزوغ الفجر ، وذلك منذ سنة . لذلك أقضي الليل جالساً في الكرسي أمام المائدة لا أفعل شيئاً ، (فأنا لا أقرأ الا في النهار) حتى انني لا أفكر في شيء ، وانما أدع لأفكاري أن تطوّف متشردةً على ما يشاء لها هواها . وتذوب الشمعة الى آخرها . وقد جلست في هذه المرة الى المائدة صامتاً ، وتناولت المسدس ، ووضعته قريباً من يدي . وتساءلت حين وضعته قريباً من يدي (أتذكر ذلك واضحاً) : « أهـذا مؤكد محقق ؟ » وسرعان ما أجبت نفسي بأنه مؤكـد محقق طبعاً ، أي بأنني سأنتحر لا محالة . كنت أعلم في تلك الليلة أنني سأقتل نفسي يقيناً ، ولكنني كنت أتساءل عن المدة التي يجب أن أبقاها جالساً الى مائدتي أنتظر اللحظة الأخيرة . ذلك أنني كنت لا أعرف تلك اللحظة على وجه اليقين . وما من شك عندي في أنني كنت سأنتحر تلك الليلة لولا أن لقيت في الشارع تلك البنت الصغيرة .

٢

رغم اننى صرت لا أكترث بشىء ، فقد بقيت امرأ حساساً ، ولو حساساً بالألم مثلاً . فلو ضربنى أحد لتألمت . وقولوا مثل هذا عن الألم النفسى . فاذا حدث لى شىء محزن جداً شعرت بحزن كالذى كنت أشعر به من قبل ، كما أننى لمّا أفقد بعد كل اكتراثى بكل ما فى الحياة . فكذلك أحسست منذ قليل بشفقة : لقد كان فى وسعى أن أغيث تلك البنت الصغيرة طبعاً . فما هو السبب فى أننى لم أغثها ؟ السبب هو تلك الفكرة التى انبثقت فى ذهنى بينما كانت البنت تشدنى من كمى منادية مستنجدة ؛ وهناك سبب آخر هو سؤال ألقى نفسه علىّ فجأة ولم أستطع أن أجد له جواباً . هو سؤال لا نفع فيه ولا فائدة منه ولا طائل تحته ، ولكنه أحنقنى وأثار فى نفسى غيظاً شديداً . ولقد جاء الغيظ من هذا التفكير المنطقى : اذا كنت قد قررت أن أبارح الحياة فى هذه الليلة نفسها ، فان كل شىء فى هذه الحياة يجب أن يمسى غير مثير لاكتراثى فى هذه الساعة أكثر من أى ساعة مضت . فلماذا أحسست فجأة بأننى لست غير مكترث بشىء ، واننى أرثى لحال تلك البنت الصغيرة وأشفق عليها ؟ أذكر أننى رثيت لحالها وأشفقت عليها اشفاقاً شديداً ، حتى أننى أسيت لها أسىً لا يليق البتة بحالى . اعترف لكم بأننى لا أفلح فى تصوير الاحساس الذى اجتاح نفسى حينذاك . ولكن ذلك الاحساس قد بقى فى نفسى لايغادرها . فلما جلست الى مائدتى فى غرفتى كنت

فى حالة من الغيظ والحنق أشدّ من سابقتها . وأخذت الاستدلالات المنطقية تتعاقب فى فكرى ويتصل بعضها ببعض ؟ فكنت أقول لنفسى : « من الواضح أننى انسان ، وأننى لست صفراً ، وما ظللت انساناً ، وما لم استحل صفراً ، فاننى أحيا ، ويمكن اذن أن أتألم وأن أغتاظ وأن أشعر بخزى من أفعالى . طيب . ولكن اذا انتحرت ، اذا انتحرت بعد ساعتين مثلاً ، ففيم يهمنى شأن تلك البنت الصغيرة ، وما فائدة ذلك الشعور بالخزى ، وسائر ما عداه ؟ سأكون قد استحلت الى صفر ، الى صفر مطلق . فهل يُعقل ألا يكون لمعرفتى بأننى بعد قليل سأبارح الحياة مبارحة « تامة » ، وأن كل شىء مثلاً لن يكون له وجود فى هذا العالم ، هل يُعقل ألا يكون لهذا أى تأثير لا فى شعورى بالشفقة على البنت الصغيرة ولا على شعورى بالخزى من الحقارة التى ارتكبتها ؟ ذلك أننى حين قرعت الأرض بقدمى ناهراً زاجراً انما أهنت البنت التعيسة . وهذه الحقارة الخالية من الشعور الانسانى قد ارتكبتها ، لا لأبرهن على أننى أمسيت لا أحس بالشفقة فحسب ، بل أيضاً لأن كل شىء سينتهى بعد ساعتين » . قولوا لى بصراحة : هل تصدقون أننى لهذا السبب انما صرخت زاجراً ؟ اننى من جهتى أميل الى الاعتقاد بهذا . لقد كنت أتصور تصوراً واضحاً أشد الوضوح أن الحياة والعالم متوقفان علىّ وحدى ؟ حتى ليمكن أن أقول اننى كنت أتصور فى تلك اللحظة ان العالم لم يُخلق الا لى وحدى : فيكفى أن أهشم رأسى برصاصة حتى لا يبقى للعالم وجود ، بالنسبة الىّ على الأقل . ناهيك عن أن من الممكن حقاً ألا يبقى للعالم وجود بالنسبة الى أى أحد بعدى ، وأن يزول العالم كله كزوال شبح متى زال ادراكى أنا ، لأنه ليس الا ادراكى له ، فمن الممكن أن يزول مادام العالم كله وجميع الناس قد لا يكونون الا أنا . أذكر اننى حين كنت جالساً الى مائدتى كنت استعرض هذه المسائل كلها واحدة بعد واحدة وأرى فيها آراء جديدة ، واكتشف لها وجوهاً جديدة وجوانب

جديدة • من ذلك مثلاً أن تصوراً غريباً قد عرض لفكرى فجأة • قلت لنفسى : « هبنى عشت فى الماضى فى القمر أو فى المريخ ، وهبنى ارتكبت هنالك عملاً من تلك الأعمال الشائنـة البشعة الى أبعـد حدود البشاعة ، هبنى ارتكبت أحقر دناءة يتمثلها الخيال ، فصرت مجللاً بخزى وعار رهيبين لا يتصور المرء مثلهما الا حين يصيبه فى نومه جاثوم ثقيل ؛ وهبنى استيقظت فجـأة فاذا أنا أجـد نفسى على الأرض لا فى القمر ، ولا أزال شاعراً بما ارتكبته من أعمال مشينة بشعة حين كنت فى الكوكب الآخر ، ولكننى موقن يقيناً قاطعاً باننى لن أعود الى ذلك الكوكب الآخر فى يوم من الأيام مهما يحـدث ، أفلا تستوى فى نظرى « جميع » الأمـور فى القمر حين آخذ أتأمله من على ظهر الأرض ؟ أأشعر عندئذ بالخزى من ذكرى الجريمة التى اقترفتها ؟ أسئلة لا طائل تحتها وليست فى محلها ، لا سيما وأن المسـدس موضـوع على المائدة أمامى ، وأننى أعـرف بكل جوانحى أن « الأمر » سيتم انفاذه ؛ ولكنها أسئلة تثير فى جسمى حمّى ، وتبعث فى نفسى أقصى الاضطـراب • فكان يستحيـل علىّ نوعاً من الاستحالة أن أمـوت الآن ، اللهـم الا أن أهتدى قبل ذلك الى حـل للمسألة • الخلاصة أن تلك البنت الصغيرة قد أنقذتنى من الانتحار • لأننى بالانتقال من سؤال الى سؤال قد تجنبت طلقة المسدس • وفى أثناء ذلك كان كل شىء فى غرفة الكابتن يسكن ويهدأ • فقد انقطعوا عن اللعب بالورق ، وتهيئوا للنوم ، فلا يسمع المرء الا بضع دمدمات من حين الى حين ، والا بعض الشتائم يتثاءب بها صوت وسنان • وحينذاك انما أخذنى النوم فجأة ، وذلك أمر لم يسبق أن حدث لى فى يوم من الأيام قبل الآن ، أمام المائدة فى المقعد • نمت دون أن أحس باننى نمت • والأحلام ، كما لا يجهل أحـد ذلك ، أمرها غريب كل الغرابة : فبعضها يعرض لك بكل ما فيه من حدة رهيبة ، واضـحاً مفصلاً دقيقاً كدقة المصوغات حين تخرج من بين يدى الصائغ ؛ وفى بعضها تجتاز الفضاء ، وتخترق الزمان دون أن يخطر لك ذلك على بال • فمن الواضح أن ما يثير الحلم ليس هو

العقل بل الرغبة ، ليس هو الرأس بل القلب • ومع ذلك ما كان أبرع عقلى في الأحلام أحياناً ! حتى انه ليقوم فيها بأعمال عجيبة يستعصى تفسيرها • من ذلك مثلاً أن أخي ، وقد مات منذ خمس سنين ، يظهر لى فى الأحلام ، ويشاركنى أعمالى ، فنعكف عليها مهتمين بهـا أكبر الاهتمام مشغوفين بها أشد الشغف ، ومع ذلك لا يغيب عن بالى مرة واحدة أثناء الحلم أن أخي ميت وأنه مدفون • فكيف لا أحس بدهشـة حين أراه جالساً بجانبى يشاركنى عملى ، مع علمى بأنه ميت ؟ كيف يسهل على عقلى أن يقبل هذا كله ؟ ولكن كفى ! فلأحدثكم الآن عن الحلم الذى رأيته • نعم ، في تلك الليلة انما رأيت ذلك الحلم ، حلم اليوم الثالث من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) •

بعض الناس يسخرون منى الآن قائلين ان ذلك ليس الا حلماً • ولكن ألا يستوى أن يـكون حلماً وألا يكون حلماً ، اذا كان هو الذى بلّغنى « الحقيقة » • فما دمت قد رأيت الحقيقة الى الأبد ، فان معنى ذلك أننى رأيتها فعلاً ، فلا حقيقة سواها ، سواء أجاءتنى فى الحلم أم انكشفت لى فى الحياة الواقعيـة • فليس يضـيرنى ألا يكون ذلك الا حلماً • ان هذه الحياة التى تضعونهـا فى أعلى منزلة كنت أنا فى تلك الليلة مستعداً لانهائهـا بطلقة مسـدس • أما حلمى ، أما حلمى ، فقد بلّغنى رسالة حياة جديدة ، رحبة ، منبعثة ، قوية •

اسمعوا •

٣

قلت اننى نمت دون أن أحس بأننى نمت ، وكأننى كنت لا أزال أفكر فى تلك الأمور نفسها . وفجأة حلمت بأننى تناولت المسدس ، وسددته الى قلبى مع بقائى جالساً ؟ سددته الى قلبى لا الى رأسى ، وكنت رغم ذلك قد قررت أن أطلق رصاصة فى صدغى الأيسر . فبعد أن وضعت فوهة المسدس على صدرى ، انتظرت ثانية أو ثانيتين ، ثم اذا بالشمعة والمائدة والجدار تهتز وتترنح جميعاً فى آن واحد ، فأسرعت أطلق الرصاصة فى قلبى .

يحدث أحياناً فى الحلم أن ترى نفسك ساقطاً من مكان عال شديد العلو ، أو أن ترى أنك تُطعن أو تضرب . ولكنك لا تحس بألم أبداً ، اللهم الا أن تكون قد لكمت بيدك حديد السرير مثلاً ، فتحس عندئذ بألم فتستيقظ . وكذلك حدث لى فى هذا الحلم ؟ لم أشعر بأى ألم من اطلاق الرصاصة فى قلبى ، ولكن خيّل الىّ اننى أحس بنوع من صدمة ، ثم زال كل شىء فجأة ، ولبثت غارقاً فى ظلمات رهيبة ؟ وكأنى قد صرت أعمى وأخرس ثم هأنذا مسجّى تحت شىء صلب ، قد امتددت مقلوباً ، لا أرى شيئاً ولا أستطيع أن آتى بأيسر حركة ، والناس من حولى تسير وتصرخ ، والكابتن يُرعد ، والمؤجرة تُعول . وهؤلاء نفر يداهمون غرفتى من جديد ، وينقلوننى مكشوفا فى تابوت ، فأحس بالتابوت يترجح

تحتي ويهتز ، فأفكر في هذه الواقعة ، ويدهشني لأول مرة أن أتصور أنني مت ، أنني مت حقا • وصرت عالما بموتي كل العلم ، لا يساورني فيه شك ولا ريب • انني لا أبصر ولا أتحرك • وان كنت أحس وأفكر • على أنني سرعان ما ألفت هذه الحال وفقاً لمنطق الاحلام ، وقبلت الواقع بغير مناقشة ولا جدال •

وهاهم أولاء ينزلونني في الأرض ثم ينصرفون ، فأبقى وحيداً ، وحيداً كل الوحدة ؛ ولا أستطيع أن أحرّك من أعضائي عضواً • انني قبل ذلك ، أثناء سهري الليل ، حين كنت أطلق لخيالي العنان فأتصور كيف ستكون حالي في القبر ، كنت لا أربط بهذا التصور على وجه الاجمال الا الاحساس بالرطوبة والبرد • لذلك أشعر الآن ببرد شديد جداً ، ولا سيما في أقصى أصابع رجليّ ، ولكنني لا أحس بشيء عدا هذا •

كنت مضجعاً • ومن غريب الأمر أنني كنت لا أنتظر شيئاً ، فأنا مسلم دون اعتراض بأن على الميت ألا يتوقع حدوث شيء • ولكن الرطوبة شديدة • لا أدري كم انقضى من الوقت • لعل ما انقضى من الوقت ساعة ، أو لعله عدة أيام ، أو لعله أيام كثيرة • ثم اذا بقطرة كبيرة من الماء تسقط فجأة من خلال غطاء التابوت على عيني اليسرى التي كانت مغمضة ، ثم اذا بقطرة أخرى تسقط ، وهكذا دواليك ؛ في كل دقيقة تسقط قطرة • فأحس بغيظ عميق يكوي قلبي ، ثم لا ألبث أن أشعر فجأة بألم جسمي في قلبي • قلت لنفسي : « هذا جرحي ، هذه هي الرصاصة التي أطلقتها في صدري ••• انها ثاوية في قلبي ••• » وكانت قطرات الماء لا تزال تسقط دقيقة بعد دقيقة ، وتقع على عيني المغمضة رأساً • فلم يسعني عندئذ الا أن أنادي ، ولكن ندائي لم يكن بصوت ، لأنني جامد لا أتحرك ، وانما كان ندائي بكياني كله ، ناديت الحكم الذي يتصرف في كل ما كنتُ ألعوبة بيده • قلت له أياً كنت أنت ــ هذا اذا سلمنا بأنك كائن ، وبأنه يوجد أي شيء يمكن أن يُعقل وجوده سوى

ما أنا ألعوبة بيده ـ ألا فلتسمح بألا يحدث هذا هنا ! اذا كنت تريد أن تنتقم منى بسبب انتحارى الاحمق ، فتوقع فيَّ هذه السخرية وهذا البقاء السخيف بعد الموت ، فان التعذيب الذى تنزله بى ، كائناً ما كان وبالغاً ما بلغ ، لن يساوى أبداً الاحتقار الصامت الذى سأحسه ، ولو استمر هذا التعذيب آلاف السنين ! » .

كذلك قلتُ ثم سكت . وانقضت قرابة دقيقة فى صمت عميق ، حتى ان قطرة ماء قد سقطت ، ولكننى كنت أعلم ، كنت أعلم وأوقن يقيناً قوياً راسخاً لا يتزعزع أن كل شىء لابد ان يتغير فى هذه اللحظة نفسها ولا ريب . وها هو ذا قبرى ينفتح فجأة ، أو قل لا أدرى اهو قد فتح ام هو قد ذاب ، ولكننى أعلم أن كائناً غامضا لا اعرفه قد أمسكنى ، ثم اذا نحن كلانا نطير فى الفضاء . وُردَّ الىَّ بصرى على حين غرة ، وكان الليل عميقاً ما رأيت ظلاماً كظلامه الحالك قبل ذلك ابدا ، أبداً . لم أسأل ذلك الذى كان ينقلنى . وانما انتظرت لائذاً بكبريائى منطوياً على خيلائى . كنت مقتنعاً بأننى غير خائف ، وكنت فى نشوة من حماستى لعدم خوفى . لا أذكر الآن كم طال طيراننا ، ولا أستطيع ان أتصوره : حدث ذلك كله كما يحدث دائماً فى الحلم حين يجتاز الحالم تخوم الزمان والمكان ، مخترقاً كل قوانين الوجود والعقل ، وحين لا يتلبث الا على النقاط التى يرنو اليها قلبه . أذكر أننى أبصرت فى الظلام نجمة صغيرة على حين فجأة . فلم أستطع أن أمسك عن سؤال صاحبى الذى كان يطير بى : « أهذا كوكب سيريوس » ، مع اننى كنت أتمنى كثيراً أن أمتنع عن القاء السؤال عليه ، فأجابنى بقوله : « بل هذا هو الكوكب نفسه الذى لمحته بين السحائب حين كنت عائداً الى بيتك . » . كنت أعلم أن هذا الكائن الذى يطير بى له مظهر انسان . ومن غريب الأمر أننى لم أحبَّ هذا الكائن ، حتى لقد كان يوقظ فى نفسى كرهاً عميقاً له . لقد كنت أنتظر العدم المطلق ، ومن أجل أن أصل الى العدم

المطلق انما أنفذت رصاصة فى قلبى ، فما بالى أجد نفسى بين ذراعى كائن ليس هو بالانسان حتماً ، ولكنه « موجود » قطعاً . قلت لنفسى : « فلا بد أن هناك حياة اخرة تلى القبر ! » ، قلت لنفسى ذلك مدفوعا بما فى الحلم من خفة غريبة وطيش عجيب ، ولكن هذا لا ينفى أننى احتفظت فى قرارة قلبى بميزتى الأساسية ، فقلت لنفسى : « اذا كان المقصود هو أن « أوجد » من جديد ، وأن تحيينى ارادة لا مفرّ منها حياةً أخرى ، فاننى لا أريد أن أكون مغلوباً ولا أريد أن أُذلّ » . فقلت لصاحبى فجأة أسأله دون أن أستطيع كظم هذا السؤال الذى يشتمل على اعتراف كامل ، حتى لقد شعرت من هذا الجبن بابرة تثقب قلبى ثقباً : « أنت تعلم أننى أخشاك وأهابك ، وهذا هو السبب فى أنك تحتقرنى . » فلم يجب ، ولكننى أحسست على الفور أنه لا يحتقرنى ، وأنه لا يسخر منى ، وحتى أنه لا يشفق علىّ ، وأن رحلتنا تمتد الى غاية مجهولة سرية لا شأن لأحد بها غيرى ، ولا تتعلق الا بى . فازداد الرعب فى قلبى . وانتقل سكوت صاحبى الىّ ، ونفذ فىّ حضوره الصامت مؤلماً بعض الألم . كنا قد توغلنا فى ظلمات لا قرار لها ، وكانت الكواكب التى ألفتها عيناى قد غابت عنى منذ مدة طويلة . وكنت أعلم أن فى آخر السماء نجوماً لن تصل أشعتها الى الأرض الا بعد ألوف السنين وملايين السنين . فلعلنا قد قطعنا تلك الفضاوات كلها . كنت أنتظر شيئاً ما ، وكانت نفسى زاخرة بحنين أليم يطعن القلب . وانى لكذلك اذا بعاطفة أعرفها كل المعرفة ، عاطفة توقظ الماضى ايقاظاً قوياً عميقاً ، تهز كيانى كله على حين فجأة . لقد عدت أرى الشمس ! كنت أعرف أن هذه الشمس التى أراها لا يمكن أن تكون شمسنا « نحن » التى ولدت أرضنا ، وكنت أعرف أننا قد بعدنا عن شمسنا بعداً لا نهاية له ، ولكننى كنت أدرك بينى وبين نفسى أنها شمس تماثل شمسنا مماثلة مطلقة ، فهى منها بمثابة الصدى أو هى لها نظير . فغمر نفسى حنان كبير بثّ فيها الحماسة : ان قوة الضياء

الذى خلقنى قد ترجّعت فى قلبى وأحيته ، وأحسست بعودة الحياة ، الحياة القديمة ، لأول مرة منذ أن نزلت الى القبر .

وهتفت أقول لصاحبى سائلاً :

ـ ولكن اذا كانت هذه هى الشمس ، اذا كانت هذه شمسنا نفسها ، فاين هى الأرض ؟

فأرانى صاحبى كوكباً يشبه زمردة براقة فى ظلام الليل . وكنا نتجه فى طيراننا الى ذلك الكوكب .

ـ ماذا ؟ هل أمثال هذه العودات ممكنة اذن فى هذا الكون ، وهل يمكن أن يكون هذا هو قانون الطبيعة ؟ واذا كانت هذه أرضاً ، فهل يمكن أن تكون هى أرضنا نفسها ... أو أن تكون مثلها تماماً فى الشقاء والفقر ، وفيما نضمره فى أنفسنا مع ذلك من حب لها وشغف بها الى الأبد ، هل يمكن أن تكون أرضاً تعرف كيف تحبّب بها أبناءها ، حتى أجحدهم وأشدّهم عقوقاً ؟

كذلك هتفت أسأل صاحبى وأنا ارتعش بحب لا يقاوم ، متحمساً لهذه الأرض التى ولدت فيها ثم هجرتها . ومرت فى خاطرى بسرعة كسرعة البرق صورة البنت الصغيرة المهانة المعذبة . قال لى صاحبى :

ـ ستعرف كل شيء .

وكان فى كلماته ما يشبه أن يكون نبرة أسى .

ولكننا كنا ندنو من الأرض دنواً سريعاً ، فكان حجمها يكبر فى نظرى ؛ فلما أخذت أميّز المحيط وحواشى أوروبا ، اذا بغيرة غريبة تشتعل فى قلبى ، غيرةٍ نبيلة مقدسة . قلت لنفسى : « كيف يمكن أن يحدث هذا التكرار ؟ وما جدواه ؟ اننى أحب هذه الأرض التى غادرتها ، ولا يمكن أن أحب سواها ، هذه الأرض التى بقيتْ عليها لطخات من

دمي حين عمدت ، أنا الابن العقوق ، الى انهاء حياتي برصاصة أطلقتها في قلبي • وما كففت في يوم من الأيام عن حب هذه الأرض قط ، حتى في تلك الليله التي ودعتها فيها ، بل لعلني كنت أحبها عندئذ حباً أقوى استثاراً بالنفس وأشد تقطيعاً للقلب من حبي لها في أي وقت مضى • هل الالم موجود على هذه الأرض الجديدة ؟ لقد كنا هناك في أرضنا لا نستطيع أن نحب الا بألم ، ولا نستطيع أن نحب الا من خلال الألم • فنحن لا نحسن أن نحب الا هذا الحب ، ولا نعرف حباً آخر • فأنا أطلب الألم لأستطيع أن أحب • ما أقوى شهوتي وما أشد ظمئي الى أن أعانق تلك الأرض وحدها باكياً ، تلك الأرض التي أحببتها وهجرتها ، ولا أريد أن أعيش في أي أرض أخرى غيرها ، بل أرفض أن أعيش في أي أرض أخرى غيرها ! ••• » •

ولكن صاحبي كان قد تركني • واذا أنا أجدني فجأةً على تلك الأرض الأخرى قبل أن يخطر ببالي ذلك ، غارقاً في الضياء الساطع من يوم مشمس جميل كجمال الجنة • فخيّل الىّ أنني هبطت الى واحدة من تلك الجزر الصغيرة التي يتألف منها على أرضنا أرخبيل اليونان ، أو هبطت في مكان آخر على خرائب قارة بجوار الأرخبيل • كان كل شيء في تلك الأمكنة شبيهاً بما عندنا شبهاً تاماً • ومع ذلك كان كل شيء يشع منه نوع من الحبور والجذل والرصانة والأبهة ، يقارب الروعة • وكانت مياه بحر كالزمرد تتكسر تكسراً خفيفاً على الشاطيء ، فتلاعبه ملاعبة فيها حب ظاهر واضح يشبه أن يكون واعياً • وكانت تنتصب في الفضاء أشجار باسقة فارعة الأغصان تتألق بغزارة نسغها ووفرة أوراقها الصغيرة الكثيفة ؛ ولا شك أنها كانت تحييني بحفيفها الرفيق اللطيف ، وكأنها تتمتم لي بكلمات حب • وكان المرج يزدهي بنبت دافيء عذب لذيذ • وكانت الطيور تشق الهواء أسراباً ، وتأتي الىّ بلا خوف فتحط على كتفيّ ويديّ وهي تصفق بأجنحتها الراعشة صفقاً فرحاً • وأخيراً رأيت سكان تلك

الأرض السعيدة جاءوا الىّ من تلقاء أنفسهم ، وأحاطوا بى ، وعانقونى وقبّلونى • أبنـاء الشمس ، أبنـاء شمسهم ••• ألا ما كان أجملهم ! ما رأيت في يوم من الأيام مثل هذا الجمال فى الانسان على أرضنا ! قد تستطيع أن تلمح لدى الأطفال عندنا ، فى السـنين الأولى من حياتهـم ، شيئاً يشبه أن يكون صـــورة باهتــةً ضعيفة لهذا الجمال الذى رأيته فى سكان ذلك الكوكب من البشر • ان أعين هؤلاء السعداء تشع ببريق صاف وضّاء • وان وجوههم تشرق بالحكمة والوعى ، الوعى الذى بلغ كمـال هدوئه وتمام رصانته • ولكن هذه الوجوه تظل فرحة ، فان فرحاً كفرح الأطفال يرنّ فى أقوال هؤلاء البشر وفى أصواتهم ! آ ••• فهمت كل شىء ، كل شىء ، من أول نظرة • هنـــا كانت الأرض قبل أن تدنّسها الخطيئة الأصلية : ان سكانهـا الذين لا يعرفون الشر يعيشـون فى هذه الجنة نفسها التى تتناقل الانسانية كلها أن أجدادنا الجناة قد عاشوا فيها ، مع فرق واحد هو أن الأرض هنا جنة واحدة بعينها فى كل ركن من أركانها وكل جهة من جهاتها • ازدحم حولى هؤلاء البشر الذين يضحكون ضحكة جذلى ، وغمرونى بملاطفاتهـم ، ومضوا بى الى منازلهم ، فكانوا جميعاً يريدون أن يغدقوا علىّ الراحة اغداقاً ، وأن يسبكبوها لى سكباً • ولم يلقوا علىّ أسئلة فكأنهم كانوا يعرفون كل شىء ، وكأن نفوســهم لا تجيش فيها الا رغبــة واحــدة : هى أن يمحوا بأقصى سرعة ما كان منقوشاً على وجهى من علائم العذاب والألم •

٤

هأنتم أولاء ترون مرةً أخرى : أى ضير فى أن يكون الأمر حلماً ؟
ان حب هؤلاء الناس الأبرياء الرائعين قد أحدث فى نفسى أثراً باقياً لا يفنى ، وانى لأحس أن حبهم لا يزال يغسل روحى بمياهه النقية من هناك الى الأبد . ذلك أننى أنا قد عرفتهم ، وأحببتهم ، وتعذبت وتألمت لهم بعد ذلك ! سرعان ما أدركت منذ اللحظة الأولى أننى فى كثير من الأمور لا أفهمهم : لم أفلح مثلاً فى أن أفهم ، أنا التقدمى الروسى الحديث ، أنا البطرسبرجى العفن ، ان من الممكن أن يكونوا ، هم العالمين بكل ما يعلمون من أمور كثيرة ، جاهلين بعلمنا نحن . ولكننى لم ألبث أن أيقنت أن علمهم علم كامل ، وأنه يستند وينطبق على ادراكات تختلف عن ادراكاتنا كل الاختلاف ، وأن تطلعاتهم تختلف عن تطلعاتنا كل الاختلاف أيضاً . انهم بلا رغبة ، وهم فى هدوء نفوسهم وسكينتها ، لا يتطلعون الى معرفة الحياة كتطلعنا نحن الى معرفتها ، ما داموا قد بلغوا حالة الكمال . ولكن معرفتهم أعمق من علمنا وأسمى من علمنا ، لأن علمنا نحن يحاول أن يشرح الحياة ، ويجهد أن يعرف الحياة ليعلم الناس كيف يحيون . أما هم فليسوا فى حاجة الى علمٍ ليعرفوا كيف يجب عليهم أن يحيوا . ذلكم ما أدركته بدون أن أفلح فى فهم معرفتهم . لقد أرونى أشجارهم فلم أستطع أن أفهم لماذا ينظرون اليها بحب يبلغ هذا المبلغ كله من القوة ، وكيف يكلمونها كأنهم يخاطبون أشخاصاً مثلهم .

كانوا يكلمون الأشجار فعلاً : اعلموا اننى لا أعتقد أن الأمر مشتبه على حين أقول انهم كانوا يكلمونها • نعم ، لقد اكتشفوا لغة الأشجار • وانى لواثق أن الأشجار كانت تفهم عنهم ما يقولون • تلك كانت نظرتهم الى الطبيعة • ومع الحيوانات كانوا يعيشون فى سلام فلا يلحقون بالحيوان أى أذى ، ولا يصيبونه بأى ضر ؟ كانت الوحوش عزيزة على قلوبهم ، وبالحب انما روّضوها وأنسّوها • وقد أرونى النجوم وحدثونى عنها ، فقالوا لى أشياء لم أستطع أن أفهمها ، ولكننى مقتنع بأنهم كان بينهم وبين نجوم السماء تواصل وتفاهم ، لا بالفكر والخيال ، بل بواسطة حية • نعم ، لم يفلح أولئك الناس فى أن يجعلونى أفهمهم • وكانوا يحبوننى بدون أن أفهمهم • ولكننى كنت أعلم فى مقابل ذلك أنهم هم أيضاً لم يفهمونى ، ولذلك لم أكد أحدثهم عن أرضنا • كنت أكتفى فى حضورهم بأن أقبّل الأرض التى يعيشون عليها ، وكنت أنا نفسى أعشقهم عشقاً دون أن أنطق بكلمة • وقد أدركوا ذلك ، فتركوا لى أن أعشقهم ذلك العشق ، لا يشعرون من هيامى بهم واخلاصى لهم بحرج أو عار ، لأنهم كانوا هم أنفسهم يزخرون حباً • وكانوا لا يتألمون لى ، حتى حين أقبّل أقدامهم بأنهم يستجيبون لحبى بحب قوى عميق يملأ عليهم قلوبهم • وكنت أتساءل فى بعض الأحيان مدهوشاً كيف أمكن طوال ذلك الوقت أن لا يسيئوا مرةً واحدة الى انسان مثلى ، ولا أن يوقظوا فى نفسى شيئاً من عواطف الغيرة والحسد مرةً واحدة أيضاً ؟ ساءلت نفسى مراراً كيف استطعت ، أنا الرجل المباهى الكذاب ، ألا أحدثهم فى يوم من الأيام عن معارف وعلوم كانت تخلو أذهانهم من أية فكرة عنها حتماً ؟ كيف لم تساورنى رغبة فى ادهاشهم ولو حباً بهم وعطفاً عليهم ؟ كانوا فرحين يمرحون ويطربون كالأطفال ، مطوّفين فى أرجاء أحراجهم الرائعة وغاباتهم ، صادحين بأغانيهم الجميلة • وكانوا يكتفون بطعام خفيف هو ثمار أشجارهم وعسل

غاباتهم ولبن نعاجهم الوديعة . كانوا لا يحتاجون الا الى قليل من العمل لتأمين طعامهم وكسائهم . وكانوا يتبادلون الحب ، وكان يولد لهم أولاد ، ولكني لم أر عندهم في يوم من الأيام سورات تلك اللذة « القاسية » التي يتصف بها جميع سكان أرضنا تقريباً ، جميعهم وكل واحد منهم ، والتي هي ينبوع جميع خطايا انسانيتنا تقريباً . كانوا يبتهجون لميلاد الأطفال ابتهاجهم بضيوف جُدُد وفدوا يشاركون في عيد المسرات هذا . لم تنشب بينهم مشاجرات قط ، ولا رأيت فيهم الغيرة أبداً ، حتى انهم لا يعرفون معنى هذه الكلمة . كان الأولاد فيهم أولاداً للجميع ، لأنهم كانوا أسرة واحدة . وكانوا لا يكادون يعرفون المرض ، رغم أنهم يموتون ، ولكن الشيخ منهم يموت موتاً هادئاً فكأنه يغفو وينام وقد أحاط به ذووه يباركونه ويبسمون له ، وهم أنفسهم يبسمون هذه البسمة المضيئة حين يُحتضرون . لم يتفق لي مرة واحدة أن رأيت لديهم عند الموت لا حزناً ولا دموعاً ؛ وانما رأيت ازدياداً في الحب يبلغ به حدَّ الوجد ، وهو وجد هادىء رصين فيه كمال وفيه تأمل . حتى ليقدِّر المرء أنهم يظلون على صلة بموتاهم بعد رحيل هؤلاء الموتى ، وأن الموت لم يقطع ما كان بينهم وبينهم من رابطة على الأرض . انهم لم يكادوا يفهمون عني حين سألتهم عن الحياة الأبدية . ولكن كان واضحاً أنهم ــ على غير شعور منهم ــ كانوا يبلغون من الثقة بالحياة الأبدية والاطمئنان لها أنهم لا يلقون على أنفسهم هذا السؤال . ولم يكن لهم معابد ، وانما هم يحيون في تواصل دائم مع « الكل » العظيم . ولم تكن لهم ديانة ، ولكنهم كانوا يعلمون أنهم حين يرتوون من أفراح الأرض ، ويشرفون على اجتياز حدود الطبيعة الأرضية ، فان الاتصال بين البشر ــ الأحياء منهم والأموات ــ وبين « الكل » العظيم سيكون أوسع وأرحب ، فهم ينتظرون تلك اللحظة مبتهجين ، بغير تعجل ولا حنين ، أو قل انهم كمن بلغوا تلك اللحظة منذ الآن بنبوءات قلوبهم ، فلا يفوتهم أن يتناقلوا هذه النبوءات .

وهم في المساء ، قبل أن يخلدوا الى النوم ، يحبون أن يستمعوا الى غناء جوقات كاملة ؛ والأغنيات التي يسمعونها تعبر عن جميع الاحساسات التي عمرت قلوبهم في النهار الذي انقضى ، فهم بذلك يباركون ذلك النهار حين يودعونه . وانهم يحتفلون بالطبيعة ، بالأرض والبحر والغابات . ويحلو لكل منهم أن يؤلف لغيره أغنيات ، وأن يتغنى كل منهم بالآخر كالأطفال ؛ وأغانيهم بسيطة كل البساطة ، ولكنها لصدورها عن القلب تؤثر في القلوب . ثم انهم لا يحبون أن يلاطف بعضهم بعضاً في أغانيهم فحسب ، بل في جميع ظروف الحياة فيما يبدو . ان نوعاً من حماسة ولهي شاملة متبادلة تجعل كلاً منهم ممتلئاً بالآخر معجباً به محباً له . لقد عجزت تقريباً عن فهم تلك الأناشيد التي تشيع فيها الأبهة ، وتترقرق فيها معاني الانتصار . كنت أدرك ألفاظها ، ولكنني لا أستطيع أن أنفذ الى كل معناها . كان فكري لا يستطيع أن يرقى الى هذا المعنى ان صح التعبير . ولكن قلبي كان يتشبع به شيئاً بعد شيء دون أن ينتبه الى ذلك . كنت أقول لهم في كثير من الأحيان انني قد سبق لي أن أحسست بهذا كله احساس تنبؤ ؛ وأن هذا الحبور وهذا الفرح قد انكشفا لي منذ أن كنت أعيش على أرضنا ، وذلك في صورة حزن مترع بالحنين ، حزن يبلغ أحياناً حد الألم ؛ وانني قد تصورتهم جميعاً ، هم وما هم فيه من مجد ، في أحلام قلبي وأحلام فكري ؛ وانني كثيراً ما عجزت أثناء حياتي على أرضنا عن أن أتأمل غروب الشمس بدون أن أبكي ... وان كرهي لسكان أرضنا كان يخالطه دائماً ألم خبيء . لماذا لم أستطع أن أبغضهم رغم أنني لم أحبهم ؟ لماذا لم أستطع أن أمتنع عن أن أسامحهم وأعفو عنهم ؟ لماذا ذلك الحزن في حبي لهم ؟ لماذا كنت لا أحبهم بدون أن أكرههم ؟ فكانوا يصغون الي ، فأرى أنهم لا يستطيعون أن ينفذوا الى معنى كلماتي . ولكنني كنت لا آسف لقول ما أقول ، لأنني كنت أعلم أنهم يفهمون حزني الذي يوقظه في نفسي فراق من فارقتهم ! لا ، لا ،

حين كانوا يرمقونني بنظرتهم الرقيقة المفعمة حباً ، وحين كنت أحس في صحبتهم بأن قلبي يصبح بريئاً نقياً كبراءة ونقاوة قلوبهم ، كنت لا آسف على أنني لا أفهمهم • وكنت اذا بلغت هذا الاحساس بالامتلاء والكمال ، تنقطع أنفاسي ، وآخذ أصلي لهم في صمت •

آه ••• لا شـــك في أن جميع النـاس سيضحكون الآن مني ، وسيقولون انه يستحيل على المرء أن يرى في الحلم تفاصيل تبلغ من الدقة ما تبلغه التفاصيل التي أسجلها الآن ، وانني أثناء نومي ما رأيت ولا أحسست الا ما كان يبعثه في قلبي هذياني • أما التفاصـــيل فانما تخيلتها أنا تخيلاً بعد أن استيقظت • وحين كنت أعترف أن كل شيء لعله جرى على هذا النحو أيضاً ، فيالله ما كان أشدّ الضحك الذي كنت أثيره فيهم ، وما كان أشد المرح الذي كنت ألقيهم اليه ! ••• اذا صدق رأيهم ، فان الأمر لا يعدو أنني كنت متأثراً باحساسات ذلك الحلم ، وأن هذا التأثر هو الذي بقي في قلبي الجريح الدامي ؛ أما الصور والأشكال التي رأيتها فيه فقد كانت تبلغ من اتســاق الكمال ، وقوة السحر ، وبراعة الجمال ، وصدق الحقيقة أنني حين استيقظت لم أملك القدرة على تجسيدها في أقوالي الضعيفة الهزيلة ، فلم يسعها الا أن تمّحي من فكري ، فمن الجائز جداً والحالة هذه أنني اضطررت على غير شعور مني الى أن أعيد بناء تفاصيلها بعد ذلك ، مشوهاً لها بطبيعة الحال ، ولا سيما بسبب تلك الرغبة القوية المشبوبة في أن أنقلها الى الآخرين بأقصى سرعة كيفما اتفق • ولكن لماذا لا أُصدّق أن ذلك كله قد وقع فعـلاً ؟ نعم ، لعل ما رأيته كان أكثر سطوعاً وتألقاً وفرحاً مما وصفت ، ألف مرة • واعلموا أنني سأبوح لكم الآن بسر • لعل ما رأيته لم يكن حلماً • ذلك أنه قد حـدث شيء ، شيء فيه حقيقة تبلغ من الهول والفظاعة أن الأمر لا يمكن أن يكون قد رئي في حلم • لنسلّم أن هذا الحلم منشؤه قلبي ، فهل كان في امكان قلبي أن يلقي الضوء على حقيقة ما حدث لي بعد ذلك ، وهي حقيقة مريعة رهيبة • كيف كان يمكنني أن أتخيل

وحدى هذا الذى حدث ، أو أن أحلم به فى قلبى ؟ هل يُعقل أن يستطيع قلبى الذى يشبه قلب طفل ، وأن يستطيع فكرى الباطل الذى تحركه النزوة ، أن يرتفعا الى اكتشــاف الحقيقة ؟ احكموا فى الأمر بأنفسكم . لقد كتمت عنكم الأمر حتى الآن . ولكننى سأبوح لكم بالحقيقة كلها فى هذه اللحظة : اننى ... قد أفسدتهم جميعاً .

٥

نعم ، نعم ، انتهيت الى افسادهم جميعاً ! كيف حدث ذلك ؟ لا أدرى . ولكننى أحفظ ذكراه واضحة أشد الوضوح . ان حلمى الذى قطع ألوف السنين يترك فى نفسى احساساً بشىء متصل غير منقطع . ولكنى أعلم أنى أنا كنت سبب الخطيئة الأصلية . ومثل دودة خنزير معدية ، أو مثل ذرة طاعون سارية تستطيع أن تنشر الوباء فى مملكة بأسرها ، كذلك أفسد حضورى بالعدوى أرضاً للمسرات والمباهج كانت قبلى بريئة طاهرة . تعلموا أن يكذبوا ، واستطابوا الكذب ، وعرفوا جمال الكذب . لعل ذلك كله قد بدأ « بريئاً » كل البراءة ، لعله بدأ مزاحاً أو غنجاً لا أكثر ، فكان نوعاً من لعب هدفه التسلية ، ولعله قد حدث بفعل ذرة من الذرات حقاً ، ولكن ذرة الكذب هذه قد نفذت الى أعماق قلوبهم فبدت لهم محببة . وبعد ذلك بقليل ظهرت اللذة ، وولّدت اللذة الغيرة ، وبعثت الغيرة على القسوة . آه ... لا أعلم ! لم أعد أتذكر ! ولكنى أعرف أن الدم لم يلبث أن انبجس لطخة أولى ، فدهشوا ، وارتاعوا ، وأخذوا ينأون بعضهم عن بعض ، وأخذوا ينفصلون بعضهم عن بعض ، وقامت فيهم أحلاف ، ولكن أحلافهم الآن تعادى أحلافاً أخرى . وأخذت الملامات والمآخذ والتقريعات تُسمع . وعرفوا الخجل . وصار الخجل لهم فضيلة . ونشأ لديهم الشعور بالشرف ، ورفع كل حلف رايته فوق رءوس

أفراده • وأخذوا يسيئون معاملة الحيوانات • فصارت الحيوانات تهرب منهم الى أعماق الغابة ، وتناصبهم العداء • وبدأ عهد جديد يمجد في الانسان « الخصوصية » و « الفردية » و « الشخصية » ويعلّم الناس أن يفرّقوا بين ما هو لى وما هو لك • وتنوعت اللغات • وتعلموا الألم ، وأحبوا الألم ، وتاقوا الى الألم ، وقالوا ان الحقيقة لا تُكتسب الا بالألم • وظهر فيهم العلم • وغدوا أشراراً ، فأخذوا عندئذ يتكلمون عن الأخوة والانسانية ، وأدركوا تلك المعانى • وأمسوا مجرمين ، فابتدعوا عندئذ العدالة ، وفرضوا على أنفسهم قوانين كاملة تصون العدالة • ومن أجل أن يكفلوا لهذه القوانين أن تُحترم ، أوجدوا المقصلة • ولم يبق لهم مما فقدوه الا ذكرى غامضة ، حتى انهم لم يشاءوا أن يصدقوا أنهم كانوا في الماضي بريئين سعداء • وصاروا يستهزئون بأن تكون سعادتهم الماضية ممكنة ، وسموا تلك السعادة حلماً ، بل غدوا لا يستطيعون أن يتمثلوها في أشكال محسوسة ، ولا أن يتصوروها بأخيلة • ومن أغرب الأمور وأعجبها ، أنهم مع ذلك ، رغم فقدانهم ايمانهم بسعادتهم القديمة ، ورغم أنهم سمّوْها حكاية مربية ، ظل توقهم الى استعادة البراءة والسعادة يبلغ من القوة أنهم سجدوا أمام رغبات قلبهم ، وألّهوا ذلك التوق ، وشادوا معابد ، ووجّهوا الصلوات الى فكرتهم ، الى « رغبتهم » ، وهم يعلمون أنها لا يمكن أن تتحقق أبداً ، ولكنهم لا يكفون عن عبادتها بالصلوات والدموع • ومع ذلك لو كان في الامكان أن يعودوا الى حالة البراءة والسعادة تلك التى فقدوها ، وأتيح لهم أن يستشفوها فجأةً ، وسُئلوا هل يريدون حقاً أن يعودوا اليها ، فأغلب الظن أنهم كانوا سيرفضون • وقد أجابوا عن هذا بقولهم : « نحن كذابون ، أشرار ، ظالمون • ليكن • نحن نعرف ذلك • ونحن بسبب هذا نبكي ونتألم وننزل في أنفسنا أنواعاً من التعذيب والعقاب لعلها أسوأ من أنواع التعذيب والعقاب التى سينزلها فينا الديان الرحيم الذى سيحاسبنا والذى لا نعرف حتى اسمه • ولكننا نملك العلم ، وبالعلم

سنهتدى الى الحقيقة ، فنقبلها فى هذه المرة واعين • ان المعرفة شيء يفوق العقل ، وان وعى الحياة يفوق الحياة • العلم سيهب لنا الحكمة ، والحكمة ستكشف لنا عن القوانين ، ومعرفة قوانين السعادة هى فوق السعادة • » •

ذلكم ما صاروا يقولونه • وبعد أقوال من هذا النوع كان كل واحد منهم يعود الى حب نفسه حباً أشد أنانية لأنهم يستحيل عليهم أن يفعلوا غير ذلك • هكذا بلغ كل فرد من الحرص على شخصيته أنه حاول آن يذل شخصية الآخرين وأن يخفضها بجميع الوسائل • أصبحت المسألة فى نظره مسألة وجود وبقاء • وظهرت العبودية • حتى لقد وجدت عبودية متطوعة تطوعاً • فالضعفاء خضعوا للأقوياء عن طواعية ورضى ، بشرط أن يساعدهم الأقوياء في سحق من هم أضعف منهم • وجاء الى هؤلاء الناس رجال عادلون صالحون ، فكلموهم عن صلفهم وكبريائهم ذارفين الدموع ، وعابوا عليهم أنهم فقدوا القصد والاعتدال والاتساق ، وأنهم ضيعوا الخجل والخفر والحياء • فسخر الناس منهم ، ورجموهم بالحجارة • وانسكب دم القديسين على رحبات المعابد • وظهر فى مقابل ذلك رجال آخرون تخيلوا أن يعيدوا الانسجام الى البشر ، فلا يكف الفرد عن أن يحب نفسه أكثر مما يحب غيره ، ولكنه في الوقت ذاته لا يكون أمام غيره عقبة وحاجزاً ، وبذلك يشترك الأفراد جميعاً في تأليف مجتمع يعيش فيه الناس كافةً في وفاق • وأوقدت نيران حروب كثيرة لفرض هذا المبدأ • ولكن هذا لا ينفى أن المقاتلين يؤمنون ايماناً قاطعاً بأن العلم والحكمة والشعور بالأمن الشخصى ستجبر البشر أخيراً على أن ينعقد اتفاقهم على ارساء قواعد مجتمع يسوده العقل ، وهم لذلك ـ أعنى « الحكماء » ـ يحاولون بانتظار أن تتحقق اقامة ذلك المجتمع الكامل أن يتخلصوا من جميع أولئك الذين ليسوا علماء ولا يفهمون فكرتهم ، حتى لا يكون هؤلاء عقبةً تقف فى طريق انتصارهم • ولكن عاطفة البقاء الشخصى ضعفت بسرعة ، فقام عهد المعتزين بأنفسهم ، المزهوين بصفاتهم ، الحريصين على لذاتهم ، الذين يطلبون بوضوح كامل

أن يكون لهم كل شيء أو ألا يكون لهم أي شيء • ومن أجل أن يحصلوا
على كل شيء ، وجب عليهم أن يلجئوا الى الوحشية ، فاذا لم تفلح الوحشية
لجئوا الى الانتحار • ووجدت ديانات تدعو الى عبادة اللاوجود ، وتنادى
بتدمير الانسان نفسه نشداناً للراحة الأبدية فى أحضان العدم • وتعب
هؤلاء البشر أخيراً من عمل محموم وجهد مسعور ، فحملت وجوههم
آثار الألم ، ولذلك أخذوا ينادون بأن الألم جمال ، لأن الفكر لا يولد
الا من الألم ، أو لأن الألم ثمن الفكر ؟ وأخذوا يمجدون الألم فى
أغانيهم • وصرت أتجول بينهم وأنا أعقف يدىّ حسرة عليهم وأذرف
العبرات حزناً لهم ، ولكن لعلنى صرت أحبهم أكثر مما كنت أحبهم قبل
ذلك ، أيام كانت وجوههم خالية من الألم ، وكانوا بريئين وكانوا على ذلك
الجانب كله من الجمال • وعدت أحب الأرض التى دنّسوها أكثر مما كنت
أحبها أيام كانت جنة ، لا لشيء الا لأن الألم ظهر فيها ! وا أسفاه ! كنت
قد أحببت العذاب والحزن دائماً ، ولكننى أحببتهما لنفسى ، لنفسى وحدها ،
فكنت أبكى عليهم وأرثى لحالهم • وصرت أمدُّ اليهم ذراعىّ مكروباً
يائساً ، أتهم نفسى وأدينها وألعنها وأحتقرها • قلت لهم اننى أنا الذى
صنعت هذا الشر كله ، أنا وحدى ، واننى أنا الذى جلبت لهم الفساد
والعدوى والكذب ! وتضرعت اليهم أن يصلبونى ، وعلمتهم كيف يُصنع
صليب • كنت لا أستطيع ، كنت لا أقوى على أن أقتل نفسى ، ولكننى
أردت أن أحمل عنهم جميع آلامهم • كنت أتوق الى الألم • كنت أتطلع
الى أن أسكب فى هذا الألم حتى آخر قطرة من دمى • ولكنهم كانوا
لا يزيدون على أن يضحكوا مقهقهين ، ولم يفتهم فى النهاية أن يعدونى
مجنوناً مجذوباً الى عالم الغيب ، مجنوناً صوفياً • وأعلنوا لى أخيراً أننى
أخذت أبدو خطراً ، وأنهم سيحبسوننى فى ملجأ للمجانين اذا أنا لم
أسكت • فاجتاح نفسى عندئذ حزن بلغ من القوة أن قلبى انقبض انقباضاً
شديداً وأحسست أننى أموت ••• وحينذاك ، استيقظت من نومى •

كان الفجر قد بدأ يتنفس ، ولمّا يطلع النهار بعد ، ولكن الساعة تقارب السادسة . فتحت عينيّ فوجدتني جالساً على ذلك المقعد نفسه ، وكانت شمعتي قد ذابت الى آخرها ، وكان كل شيء نائماً في غرفة جاري الكابتن . وكان الصمت مخيماً حولي رغم ندرة الصمت في بيتنا .

ان أول شيء بدر مني هو أنني وثبت من مكاني وقد اعترتني دهشة شديدة أقصى الشدة . لم يسبق أن حدث لي أمر كهذا في يوم من الأيام . ولا حدث لي (وهذه نقطة تفصيلية تافهة) أن غفوت جالساً على المقعد . وبينما أنا أهبُ واقفاً وأثوب الى رشدي ، اذا بالمسدس الملقوم المهيأ لانطلاق الرصاصة منه يخطف بصري ، ولكنني سرعان ما أقصيته عني . آ ... الحياة ! الآن الحياة ! ورفعت ذراعيّ أبتهل الى « الحقيقة » الأبدية ، بل لم أبتهل ، وانما أخذت أبكي وقد أخذت حمىً شديدة ، حمىً لا حدود لها ، ترفع وجودي كله ، وتسمو به . نعم ، يجب أن أحيا وأن أبشرّ ! ونذرت نفسي فوراً لرسالة التبشير ، مدى الحياة طبعاً . سأمضي أبشّر . أريد أبشّر ... بماذا ؟ « بالحقيقة » ، ما دمت قد رأيتها ، رأيتها بعيني رأسي ، رأيتها في كل مجدها !

ومنذ ذلك الوقت انما رحت أبشرّ ! وما أكثر ما أحب أولئك الذين يضحكون مني ! لعلني أحبهم أكثر مما أحب غيرهم . لماذا ؟ لا أدري ، ولا أستطيع أن أجد لهذا تعليلاً أو تفسيراً . ولكن ليس لهذا من شأن . المهم أنهم يدعون الآن أنني أسير في طريق خطأ ، أو يتساءلون عما سأصير اليه وقد سرت في طريق خطأ . هذه حقيقة : لقد ضللت الطريق ، وسيزداد الأمر سوءاً . لا شك في أنني سأغلط مراراً قبل أن اكتشف كيف يجب عليّ أن أبشّر ، أن ما هي الأقوال وما هي الأفعال التي ينبغي أن تكون سبيلي الى التبشير ، لأن رسالة التبشير ليست بالامر السهل . هذا كله أراه أنا أراه رؤية واضحة وضوح النهار منذ الآن . ولكن اسمعوا : من ذا الذي لا يضل الطريق ؟ من ذا الذي لا يسير في

طريق خطأ ؟ ومع ذلك يسير الجميع ويتجهون الى غاية واحدة بعينها ، من أحكم حكيم الى شرّ شرير . كل ما هنالك من فرق هو أنهم يسلكون الى هذه الغاية الواحدة سبلاً مختلفة . تلك حقيقة قديمة . ولكن اليكم على الأقل هذا الأمر الجديد : اننى لن أستطيع أن أُخدع عن نفسى كثيراً ، لأنى رأيت الحقيقة . رأيت ، وصرت أعلم أن البشر يمكن أن يكونوا على جانب كبير من الجمال والسعادة دون أن يفقدوا القدرة على أن يحيوا على هذه الأرض . لا أريد ولا أستطيع أن أصدق أن الشر هو الظرف الطبيعى السوى العادى لأفراد البشر . ومع ذلك فانهم بسبب هذا الاعتقاد وحده انما يسخرون منى ويتهكمون علىّ . ولكن كيف يمكن أن لا يصدقنى الناس ؟ لقد رأيت الحقيقة . رأيتها رؤية ، ولم أتخيلها تخيلاً بالفكر . رأيتها رؤية ، وغمرتنى « صورتها الحية » وملأت نفسى الى الأبد . رأيتها فى كمال مطلق يبلغ من التمام أننى لا أستطيع أن أصدّق أنها لن توجد لدى البشر ! فكيف أضلّ الطريق والحال هذه ؟ وقد أتوه غير مرة ، وقد أنطق بأقوال غريبة ، ولكن ذلك لن يدوم مدة طويلة . ان الصورة الحية لما رأيته ستظل ماثلة فى نفسى على الدوام ، فتعرف كيف تقوّم عوجى وتسدّد خطاى وتوجه سيرى . وانى امرؤ شجاع وان لى قوى نضرة ، فلأمضينّ مبشّراً ولو ألف سنة . أرأيتم ؟ لقد أردت أن أخفى عنكم فى أول الأمر أننى أفسدت الجميع . وكان هذا الكتمان منى خطأً أول . ولكن « الحقيقة » همست تقول لى اننى أكذب ، فصانتنى من الانزلاق ووجهت مسيرى . ماذا يجب أن نعمل لاقامة الجنة ؟ ــ لا أدرى ، لأننى لا أستطيع أن أعبرّ عن هذا بألفاظ . اننى منذ رأيت حلمى قد فقدت استعمال الكلام ، أو فقدت على الأقل استعمال الأقوال الأساسية التى لابد منها ولا غنى عنها . ولكن لن يهمنى هذا . لسوف أمضى ، ولسوف أقول كل شىء بغير كلال ، لأننى قد رأيت بعينى رأسى ، وان كنت لا أستطيع أن أصف ما رأيت . يقولون : « ما رآه هو حلم ، هو

كابوس ، هو هلوسة ٠٠ » ٠ هيه ٠٠ هيه ٠٠ ليس فى هذا الكلام كله نطارة ٠ وما أكثر اعتزازهم به مع ذلك ! حلم ؟ ما الحلم ؟ حياتنا كلها ، أليست حلماً ؟ بل اننى لأمضى الى أبعد من ذلك فأقول : ليس يهمنى ألا تعود تلك الجنة بعد الآن أبداً ، وليس يهمنى أنها لم تعد موجودة (وأنا أدرك ذلك) ، ولكننى سأمضى أبشر بالجنة رغم كل شىء ٠ وما أبسط الأمر مع ذلك ٠ ان من الممكن أن يعاد بناء كل شىء فى يوم واحد ، فى « ساعة واحدة » ٠ وانما المهم أن يحب الانسان قرينه الانسان كما يحب نفسه ٠ ذلك هو الشىء الأساسى الذى هو كل شىء ولا حاجة بنا الى شىء آخر سواه : فمتى وفرتموه عرفتم على الفور كيف تبنون الجنة ٠ على أن هذه حقيقة قديمة ما أكثر ما قرأها الناس وكرروها مليارات المرات ! ولكن اسمعوا : انها لم تغرس جذورها فى النفوس ، انها لم ترسخ فى القلوب ٠ لا يزال الناس يتصورون أن « وعى الحياة أعلى من الحياة ٠ وأن معرفة قوانين السعادة أعلى من السعادة » ٠ وهذا بعينه ما يجب أن نكافحه ٠ ولسوف أكافح ٠ يكفى أن يريد كل الناس حتى يتم بناء كل شىء ٠

أما تلك البنت الصغيرة ، فقد وجدتها ٠ وسأمضى الى أمام ، سأمضى ٠

خطاب عن بوشكين

١٨٨٠

نشر هذا «الخطاب عن بوشكين» اول مرة فى كراسة شهر آب (اغسطس) ١٨٨٠ «من يوميات كاتب» (الفصل الثانى)

خطاب ألقي في ٨ حزيران – يونية
أمام « جمعية أصدقاء الأدب الروسي »

بوشكين ظاهرة من الظاهرات الخارقة ، ولعل النفس الروسية قد تجلت به تجلياً فريداً • كذلك قال جوجول (١) • واني لأضيف الى قوله أن بوشكين كان كذلك ظاهرة نبوة • نعم ، ان ظهوره يكشف لنا نحن الروس عن شيء لا شك أن فيه نبوة • لقد ظهر بوشكين حين أخذنا نعي أنفسنا حقا ، وحين ساهم هذا الوعي الذي كان في مجتمعنا لايزال بذرة بعد الاصلاح الذي قام به بطرس الأكبر ، حين أسهم بظهوره في انارة طريقنا المظلمة ، وفي توجيه سيرنا • بهذا المعنى يكون بوشكين عرافاً ومرشداً • انني أقسم حياة بوشكين الأدبية الى ثلاث مراحل • وليس ناقداً أدبياً من يتحدث في هذه الساعة : انني في نظرتي الى أدب بوشكين الآن لا أريد الا أن أشرح فكرتي عن معنى النبوة الذي لبوشكين عندنا وعما أقصده بكلمة النبوة • ومع ذلك أحب أن ألفت الانتباه ، عابراً ، الى أن مراحل الانتاج عند بوشكين لا يبدو أن بينها حدوداً تفصل بعضها عن بعض فصلاً تاماً • ان بداية « أونيجين » مثلاً تنتمي في رأيي الى المرحلة الأولى ، ولكن « أونيجين » تنتهي في المرحلة الثانية ، بينما كان بوشكين قد اهتدى الى اكتشاف مثله الأعلى على تراب الوطن ، وتشبّع

(١) هذه كلمات جو جول نفسها . في مقالته «بضع كلمات عن بوسكين» التي نشرت سنة ١٨٣٥ (في زخارف عربية) وكان الشاعر الكبير لايزال حياً•وفي مقالة أخرى عنوانها «ماجوهر الشعر الروسي» أشار جوجول الى «الترجيع الخلاق» الذي أثارته في نفس بوشكين قراءة شعراء مختلف الامم ومختلف العصور؛ وهذه فكرة سيعود اليها دوستويفسكي في هذا المقال ويتحدث عنها •

بهذا المثل الأعلى مجدداً اياه تجديداً كاملاً بكل ما تملكه نفسه المحبة البصيرة من قوة • وقد اصطلح الناس أيضاً على أن يقولوا ان بوشكين في المرحلة الأولى من مراحـل ابداعه قلّد الشعراء الأوربيين من أمثال بانى ، وآندره شينييه وغيرهما ، ولا سيما بايرون • نعم ، لا شك أن شعراء أوروبا قد أثروا تأثيراً كبيراً في تفتح عبقريته ، وقد احتفظوا بهذا التأثير فيه الى الأبد • ولكن ذلك لا ينفي أن القصـائد الأولى التي نظمها بوشكين لم تكن تقليداً فحسب ، بل كانت تكشف منذ ذلك الحين عن تمتع عبقريته بأكبر الاستقلال • انكم لن تقعوا يوما ، في أي تقليد أو محاكاة ، على ما تجدونه من أصالة الألم وعمق الوعي في قصيدة « الغجر » مثلاً ، وهي قصيدة أنسـبها الى المرحلة الاولى من مراحـل انتاجه ، ناهيكم عن ذلك التدفق العارم في الابداع ، وهو تدفق ما كان ليتجلى على هذا النحو لو كان الشاعر لا يزيد على أن يقلّد • ان نموذج آليكو ، بطل قصيدة « الغجر » لهو رسمة أولى لتلك الفكرة القوية ، الروسية تماماً ، التي ستتجلى بعد ذلك في رواية « أوجين أو نيجين » متسقةً أعظم الاتساق ، منسجمة أكبر الانسجام ؛ وفي هذه الرواية نرى آليكو ذاك نفسه لا يبقى صورة شبه خيالية ، بل يصبح له وجـه يمكن لمسـه وفهمه فعلاً • لقد اكتشف بوشكين في آليكو ذلك المتشرد الشقي في بلادنا ، ذلك الجوّاب التاريخي الروسي ، الذي يشكل وجوده في هذا المجتمع المنفصـل عن الشعب ظاهرة تاريخية ذات ضرورة قصـوى • اكتشف بوشكين نموذج آليكو وصوّره • ومن نافل القول أن نشـير الى أنه لم يكتشفه عند لورد بايرون فحسب • ان هذا النموذج نموذج حقيقي ، وقد رآه بوشكين بدقة لا يأتيها الباطل ، ووضوح معصوم من الزلل • وهو نموذج سيظل يوجد دائماً ، وسيبقى على الأرض الروسية زمناً طويلاً • ان هؤلاء الجوّابين الذين ليس لهم نارٌ بها يستدفئون ولا مكان اليه يأوون لا يزالون حتى أيامنا هذه يجوبون ، ولا يبدو أنهم سيختفون قبل انقضاء وقت طويل •

واذا صاروا فى زماننا هذا لا يذهبون الى الغجر ملتمسين فى عاداتهم وتقاليدهم المتوحشة مثلاً عليا عامة شاملة ، ولا يذهبون اليهم ناشدين أن يرتاحوا فى أحضان الطبيعة من الحياة السخيفة المضطربة العكرة التى يعيشها الناس فى مجتمعنا الروسى المثقف ، فانهم يندفعون الآن الى الاشتراكية التى لم يكن لها وجود فى زمان آليكو ، ويأخذون على عاتقهم مهمة جديدة ، مؤمنين كما كان يؤمن آليكو بأنهم بهذه الوسيلة الوهمية سيصلون لا الى أهدافهم الخاصة وحدها ، بل الى أهداف البشر أجمعين . ذلك أن الجوّاب الروسى لا يرضى بأقل من سعادة البشر كافةً ليهدأ باله وتطمئن نفسه : انه لا يمكن أن يقبل بأقل من هذا ـ ما ظـل الأمر على صعيد النظرية طبعاً . اننا فى الحالين ازاء ذلك الروسى نفسه ظهر فى فترتين مختلفتين . أعود فأقول ان هذا الرجل انما ظهر فى مجتمعنا المثقف المنفصل عن الشعب ، المنفصل عن القوى الشعبية ، فى بداية القرن الثانى الذى أعقب اصلاح بطرس الأكبر . لا شك أن عدداً كبيراً من المثقفين الروس ، سواء فى زمان بوشكين وفى زماننا ، كانوا يعملون ولا يزالون يعملون بهدوء وسكينة ، موظفين فى المحاكم وفى السكك الحديدية وفى البنوك . وان بينهم كذلك أناساً يحصلون على مال بجميع الوسائل ، حتى ان بينهم من يهتمون بالعلوم ، ويقرءون محاضرات ، وذلك كله على نحو مطرد هادىء وان . وانهم ليقبضون رواتب ، ويلعبون بالورق ، دون أن تراودهم أية نزوة تحض على الهروب الى مخيمات الغجر أو الى أماكن أخرى ألصق بزماننا . وان هناك عدداً كبيراً من الناس يصطفون لأنفسهم صفة اللبراليين ويضيفون الى هذه اللبرالية « مسحة اشتراكية أوروبية » ترفع الدمائة الروسية من شأنها قليلاً . ولكن المسألة مسألة وقت لا أكثر . فليس يغيرّ من حقيقة الأمر شيئاً ألا يكون فلان قد بدأ يحس القلق ، وأن يكون فلان الآخر قد اتسع وقته منذ الآن لأن يمضى الى الباب المغلق فينطح به رأسه . ان مصيراً واحداً ينتظرهما كليهما متى

حان الحين ، اذا هما لم يسيرا فى طريق السلامة ، الذى هو طريق المصالحة مع الشعب . وهبْ ان هذا المصير لن يشارك فيه جميع الناس ، فانه ليكفى أن تشارك فيه « نخبة » ، يكفى أن يظهر عُشْر الناس استياءهم واستنكارهم حتى يقوم السواد الأعظم بفضل ذلك ، فلا يهدأ له بال ولا يعرف الى الراحة سبيلاً . صحيح أن آليكو لا يعرف بعدُ أن يعبِّر لنا على وجه الدقة عن موضوع حنينه . ان ذلك كله لا يزال فيه أمراً مجرداً بعض التجريد . وهو لا يحنُّ الآن الا الى الطبيعة . انه لا يُحسن الا الشكوى من المجتمع الراقى ، والبكاء على حقيقة ضائعة ، ولا يعرف أين يجد هذه الحقيقة ولا كيف ، ولا يفلح فى الاهتداء اليها . ان فيه شيئاً عن جان جاك روسو انه لا يقول لنا ما هذه الحقيقة ، ولا أين يمكن أن تظهر ، ولا كيف يمكن أن تظهر ، ولا يحدِّد لنا الزمان الذى ضاعت فيه . هو لا يذكر لنا شيئاً من ذلك . ولكن هذا لا ينفى أن ألمه صادق . ان الانسان غريب الأطوار نافد الصبر ، لا ينتظر الآن أن يأتيه الخلاص وتأتيه السلامة الا من الأحداث الخارجية . ولابد أن يكون الأمر كذلك . هو يقول : « لابد أن تكون الحقيقة موجودة فى مكان غير نفسى ، لابد أن تكون موجودة فى البلاد الأخرى ، عند الشعوب الأوروبية مثلاً ، تلك الشعوب التى لها بنيان تاريخى متين ، والتى تتصف فيها الحياة الاجتماعية والمدنية بأنها منظمة . » . انه لن يدرك أبداً أن الحقيقة قائمة فى ذاته قبل كل شىء . وأنَّى له أن يدرك ذلك بينما هو كفٌّ على أرضه عن أن يكون عين ذاته ؟ انه منذ قرن طويل قد فقد عادة العمل . انه غير ذى ثقافة . لقد شبَّ كما تشب فتاة فى مدرسة داخلية ، بين جدران عالية وأسوار سامقة ، خاضعاً لالتزامات غريبة لا حصر لعددها ، تتصل بارتباطه بهذه الطبقة أو تلك من الطبقات الأربع عشرة التى ينقسم اليها المجتمع المثقف فى روسيا . هو الآن زغبة منتوفة تتموج على ما تشاء لها الريح . وانه

ليحس بذلك ، وانه يتألم منه ، بل انه ليتألم منه تألماً حاداً جداً في كثير من الأحيان • وما ذا يهمه بعد ذلك ، أن يكون ، بانتمائه الى اسرة نبيلة كما يحتمل هذا ، مالكاً لأفنان ، وأن يكون قد انساق مع نزوة تستبد بنفس نبيـل من نبـلاء الريف ، فبيح لنفسـه ذلك الانقياد لغواية أناس « خارجين عن القانون » ، ويتبع جمـاعةً من الغجـر . ويصير صاحب دب يتفـرّج عليه المتفـرّجون ؟ وطبيعي أن تستطيع المرأة ، « المرأة المتوحشة » على حد تعبير الشاعر ، أقدر من سائر الأشياء على أن تهب له الأمل في أن تشفيه من حنينه الأليم ، ولذلك نراه يرتمي على زمفيرا بايمان طائش لكنه مشبوب الهوى ، قائلاً لنفسـه : « هنـا يمكن أن تكون سعادتي ، هنـا في أحضـان الطبيعة بعيداً عن المجتمع بين هؤلاء الذين ليس لهم لا مدنية ولا قوانين ! » • وماذا يحدث ؟ انه منذ أول احتكاك بعقائد هذه الطبيعة المتوحشة ، يعجز عن السيطرة على نفسه ، ويلطخ بالدم يديه • ان هذا الحالم الشقي ليس عاجزاً عن الانسجام الشامل فحسب ، بل هو عاجز حتى عن الانسجام والتوافق مع الغجر ، وهاهم أولاء يطردونه ، بلا رغبة في الانتقام ، وبلا كره أو ضغينة ، وقد امتلأت نفوسهم جلالاً وحلماً ودماثة •

اتركنا ايها الرجل الصلف
نحن متوحشون ليس لنا قوانين
نحن لانعذب ولانعاقب

ذلك كله خيال طبعاً ، ولكن هذا « الرجل الصلف » انما هو انسان مستمد من الواقع وقد أحسن الشاعر رسمه • وان بوشكين هو أول من أدركه ، وذلك ما لا ينبغي لنـا أن ننسـاه • وبحماسـة عارمة وحشية سيمزق هذا الانسـان نفسـه ، وسـيعاقب نفسه للاساءة التي ارتكبها ، أو هو ـ وذلك سيكاد يكون أسهل عليه أيضاً ، بعد أن تذكر أنه ينتمي الى واحـدة من الطبقات الأربع عشرة ـ سـيتوق طبعاً (لأن ذلك هو

ما حدث) الى قانون قاسٍ يفرض العقاب ، وسيحرّض على اقامة هذا القانون ، ولو لمعاقبة الاساءة التى ارتكبها هو • لا ، ان هذه القصيدة العبقرية ليست تقليداً ومحاكاة ! اننا نرى فيها منذ الآن بزوغ الجواب عن ذلك السؤال ، « السؤال المحتوم » الذى يلقيه الايمان وتلقيه الحقيقة الشعبية : « أيها الانسان الصلف أذلّ نفسك أولاً وحطّم خيلاءك • أذلّ نفسك أيها الانسان الضعيف المغرور • وعلى هذه الأرض التى ولدت فيها اتعب واجهد قبل كل شيء » •

ذلكم هو الجواب الذى يطابق الحقيقة ويطابق عقل الشعب • « ليست الحقيقة فى خارجك ، بل هى فى داخلك • اهتد الى نفسك فى نفسك • أخضع نفسك لنفسك • املك نفسك بنفسك • فترى الحقيقة • ليست هذه الحقيقة فى الأشياء ، ولا هى فى خارج ذاتك ، ولا هى فى أى مكان بعيد ، وانما هى قبل كل شيء فيما تحدثه من تأثير فى نفسك • فاذا تغلبت على نفسك ، اذا انتصرت على نفسك فوجدت السلام والطمأنينة أصبحت حراً حرية لم تتخيل أنك فى يوم من الأيام أنك ستملكها • سوف تقوم بعمل عظيم ، سوف تحرر الآخرين ، وسوف ترى السعادة ، لأن حياتك ستكون ملأى ، وستفهم عندئذ شعبك وحقيقته • ليست الحقيقة فى مكان آخر ، كما لم تكن عند الغجر ، وانما أنت أنت الذى لا تستحقها ولا تكون بها جديراً ، اذا كنت شريراً ومزهواً ، واذا طالبت بما لك على الحياة من حقوق دون أن تؤدى ما للحياة عليك ، دون أن تعطى فى مقابل هذه الحقوق أىّ عطاء ، وحتى دون أن يخطر ببالك أن عليك أن تعطى شيئاً » • ان هذا الجواب عن السؤال ، ان هذا الحل للمشكلة قد أشارت اليه قصيدة بوشكين اشارة قوية • ثم جاءت قصيدة « أوجين أونيجين » فعبّرت عنه تعبيراً أوضح • وهى قصيدة ليست خيالاً كقصيدة الغجر ، وانما هى واقع محسوس ملموس تجسّدت فيها الحياة الروسية الحقيقية تجسداً فيه من القوة والكمال ما لم يشاهد مثله قبل بوشكين ، وربما بعده •

ان آونيجين يصل من بطرسبرج ، ولابد حتماً أن تكون بطرسبرج هي التي يصـــل منها ، ولاشك أن هذا لا غنى عنه للقصـيدة : فما كان لبوشكين أن يدع لأية سـمة من واقع يبلغ هذا المبلغ من الكثافة أن تفوته في قص سـيرة بطله . أعود فأقول مرة أخرى انه صاحبنا آليكو نفسه ، ولا سيما حين يهتف وقد استبد به الحزن كما سنرى بعد قليل :

لماذا لم يشلني الكساح
كما شل المحلف في تولا ؟

ولكنه هنا ، في مستهل القصيدة ، لا يزال مزهوا بعض الزهو ولا يزال من أبناء المجتمع الراقي . ان الحياة التي عاشها أقصر من أن يـكون وقتـه قد اتسع لأن يتخلص تخلصـاً تاماً من وهم الحيـاة . غير أنه قد بدأ يزوره ويحاصره

شيطان نبيل هو شيطان ضجر مستتر خفي

وهو في هذا الركن المنزوي من الريف ، في قلب وطنه ، لا يحس طبعاً أنه في داره . انه لا يدري ما عســاه فاعلاً هنا ، وانه ليشعر ، على كونه في مسكنه ، أنه في هذا المسكن نزيل ، أنه فيه ضيف . وبعد ذلك ، حين سيطوّف مكتئبـاً أسـيان في الأرض التي ولد فيهـا ، وفي الأرض الأجنبية ، هو الرجل الذي لا شـك في أنه ذكي وأنه صـادق ، سوف يشعر ، حتى في الخارج ، أنه غريب عن نفسه مزيداً من الغربة . هو يحب أرضه التي ولد فيها حقاً ، ولكنه لا يؤمن بها . صحيح أنه سمع في تلك الأرض مثـلاً عليا ، لكنه لا يصدّق هذه المثل العليا . انه لا يؤمن الا بشيء واحـد : هو أن كل عمل يحـاول الشروع فيه من أجل بلاده التي ولد فيها ، مستحيل اسـتحالةً مطلقة . أما الذين يؤمنـون بامكان تحقيق هذا العمل والنهوض بهذه المهمة ، والذين كان عددهم في ذلك الزمان قليلاً كقلته في هذا الزمان ، فهو ينظـر اليهم بسخرية حزينة . لعله لم يقتل لنسكي الا سأماً ، من يدري ؟ لعل نوعاً من الســأم الذي

يولّده الحنين الى مثل أعلى شامل هو الذى جعله يقتل لنسكى . أما تاتيانا فانها لا تشبهه : انها انسانة متينة ، قوية الاستناد الى الأرض . ان لها جوهراً لا يملك أونيجين مثله ، وهى تبعاً لذلك أذكى منه . انها بنبل غرائزها وحده تحس أين هى الحقيقة ، وتدرك ما الحقيقة ـ وذلك ما سيعبر عنه ختام القصيدة . ولعل بوشكين كان يحسن احساناً أكبر لو أنه جعل عنوان قصيدته « تاتيانا » بدلاً من أن يجعله « أونيجين » ، لأنها هى بطلة القصيدة بلا مراء . نحن هنا ازاء نموذج ايجابى لا سلبى ، بل نحن هنا ازاء نموذج الجمال الايجابى بعينه ؟ ان الشاعر هنا يمجد المرأة الروسية ، ويهيئها لأن تنطق بفكرة قصيدته فى المشهد الذى يصوّر اللقاء بين أونيجين وتاتيانا . ونستطيع أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان نموذج الجمال هذا الذى يعترف به للمرأة الروسية ليس له فى أدبنا نظير يساويه ، اللهم الا أن نقول ان ليزا التى صورها تورجنيف فى روايته « عش سادة » ، ربما كانت له نظيراً . ولكن طريقة أونيجين فى النظر من أعلى جعلت أونيجين لا يتعرف تاتيانا حين رآها أول مرة فى ذلك الركن من الريف ، فبانت له صورةٌ مسكينة للفتاة الطاهرة البريئة التى تخجل أشد الخجل حين يراها هو أول مرة : انه لم يستطع أن يدرك لدى الفتاة المسكينة ما تشتمل عليه نفسها من كمال وتمام ، ولعلّه عدّها « نطفة روح » ان صح التعبير . ماذا ؟ نطفة ؟ هى ، نطفة ؟ هى ، بعد الرسالة التى كتبتها الى أونيجين منذ قليل؟ ألا أنه لهو الذى يمكن أن يوصف بأنه نطفة روح ، هو أونيجين ، اذا كان فى هذه القصيدة نطفة روح . هو أولاً ما كان فى وسعه أن يتعرفها بحال من الحال . أهو يعرف النفس الانسانية ؟ انه رجل يعيش فى عالم مجرد ، انه حالم قلق طول حياته . وبعد ذلك لم يتعرفها أكثر من هذا فى بطرسبرج ، رغم زعمه فى رسالته الى تاتيانا أنه اكتشف « جميع ما تتحلى به من ألوان الكمال » . ولكن هذه الكلمات ليست الا كلمات : لقد مرت تاتيانا بحياة أونيجين مروراً ،

مرت بجانبه دون أن يعرفها وأن يقدرها حق قدرها . وتلكم هي مأساة روايتهما . آ ... لو قد وصـــل من انجلترا الى تلك القرية في ذلك الأوان ، حين رآها أول مرة ، لو قد وصل رجل اسمه تشايلد هارولد ، أو وصل بايرون نفسه ، فلاحظ ما في تاتيانا من سحر خفي نفّاذ ، فدلّ أونيجين عليه ، وأشار له اليه ، اذن لخطف هذا السحر انتباهه حتماً ، ولأذهله اذهالاً ، لأن لدى شهداء « ألم المجتمع » هؤلاء عبودية روحية تبلغ مبلغاً كبيراً من الانحطاط ! ولكن هذا لم يحدث . وقد رأينا صاحبنا الباحث عن الانسجام الكلي الشامل ، بعد أن يلقي عليها موعظته وبعد أن يتصرف تصرفاً شريفاً على وجه الاجمال ، يمضي مصطحباً ألمه من المجتمع والدم الذي سفحته يداه بحماقته الشريرة ، يمضي يطوّف في البلد الذي ولد فيه ، ولكنه يطوّف في هذا البلد دون أن يرى منه شيئاً ، ويهتف قائلاً في سيل من اللعنات وهو يفيض صحة وعافية :

انا في ريعان الشباب ؛ والحياة قوية في نفسي
فماذا انتظر ؟ انه السأم ثم السأم !

وذلك ما كانت قد أدركته تاتيانا . وفي الأبيـات الخالدة من هذه الرواية الشعرية يصوّر الشاعر بطلته تاتيانا وهي تزور منزل ذلك الرجل الذي لا يزال غريبـاً كل الغـرابة ولا يزال لغزاً خفياً وسراً عجيباً في نظرها . ها هي ذي في مكتب أونيجين ، تلقي نظـرةً على كتبه وأشيائه وتحفه ، وتحاول أن تنفذ الى نفس مالكها من خلالها ، وأن تدرك السر وتحل اللغز من النظر اليها . وتتلبث « النطفة الروحية » أخيراً على فكرة وهي تبتسم ابتسامة غريبة مع احســـاسٍ بأنهـا حلّت اللغز ، ودمدمت شفتاها تقولان :

الايمكن ان يكون نوعا من محاكاة مضحكة ؟

نعـم ، كان لا يمكنهـا الا أن تنطق بهـذا الكلام . لقد أدركت

الحقيقة . وبعد ذلك بمدة طويلة ، أثناء لقائهما الجديد فى بطرسبرج ، كانت تعرفه منذئذ معرفة تامة . وبالمناسبة ، من ذا الذى زعم أن حياة البلاط ، حياة المجتمع الراقى ، قد أحدثت فى نفسها أثراً وبيلاً ، وأن صفتها كسيدة من سيدات المجتمع الراقى والآراء الجديدة التى فى ذهنها عن منزلتها ومكانتها كانت من أسباب الرفض الذى واجهت به أونيجين ؟ لا ، ان الأمر لم يكن كذلك . لا . انها لا تزال تانيا نفسها ، تانيا القروية كما كانت فى الماضى . انها لم تفسد . بالعكس . ان بذخ الحياة البطرسبرجية يرهقها ويضنيها ، وانها لتتألم من ترف هذه الحياة ببطرسبرج . انها تكره مكانتها هذه كسيدة من سيدات المجتمع الراقى . ومن يحكم عليها غير هذا الحكم يكن جاهلاً بما أراد أن يقوله بوشكين . ها هى تكلم أونيجين فتقول له بلهجة جازمة :

لكنى وهبت نفسى لآخر
وسابقى وفية له الى الابد

لقد نطقت بهذه الكلمات نطق امرأة روسية تماماً . وذلك هو تمجيدها . انها تعبر عن حقيقة القصيدة . لن أقول شيئاً عن اعتقاداتها الدينية ، لن أقول شيئاً عن الرأى الذى تراه فى رباط الزواج المقدس . لا . هذه نقطة لن أمسها . ولكن ماذا ؟ هل لهذا رفضت أن تتزوجه ، مع أنها قالت له هى نفسها : « أحبك » ؟ هل لهذا ، من حيث أنها امرأة روسية (لا امرأة من الجنوب ، لا فرنسية ما) تعجز عن القيام بخطوة جريئة ، ولا تقوى على كسر القيد الذى يكبلها ، والتضحية بمفاتن الأمجاد والثراء والمكانة العالية فى المجتمع الراقى والآراء السائدة عن الفضيلة ؟ لا ، ان المرأة الروسية جريئة . المرأة الروسية تتبع الرجل الذى تؤمن

به ، تتبعه ببسالة وجسارة ، ولقد برهنت على ذلك . ولكنها « وهبت نفسها لآخر وستبقى وفيةً له الى الأبد » . فمن الذى ستبقى وفيةً له ؟ وباسم أية واجبات تبقى وفيةً له ؟ أهى وفيـة لذلك الجنرال الذى لا تستطيع أن تحبه لأنها تحب أونيجين ، وانما هى تزوجته لا لشىء الا لأن أمها توسلت اليها أن تتزوجه « دامعةً ضارعة » ، ولأن نفسها التى أهينت وجُرحت لم يكن فيها حينذاك شىء الا اليأس ، ولم يكن ثمة أى دليل على أن جديداً سيحدث ؟ نعم ، لهذا الجنرال انما ستكون وفية ، لزوجها ، للرجل الشريف الذى يحبها ويحترمها ويبجّلها ويبدو فخوراً بها . لا قيمة لالحاحات أمها . انها هى التى وافقت لا غيرها : هى التى حلفت لتكوننّ له الزوجة الوفية . ليس أمراً هاماً أنها تزوجته بعد يأس . هو الآن زوجها . فلو خانته لجللها العار والدنس ، ولقتلها قتلاً . ثم هل يستطيع الانسان أن يبنى سعادته على شقاء غيره ؟ ليست السعادة كل شىء فى مباهج الحب ، بل السعادة فى الانسجام الأعلى الذى يتحقق للروح والفكر . وأنّى للفكر أن يجد الراحة اذا كان يحاصره شبح عمل غير شريف ، عمل شرير ، عمل ليس انسانياً . أيجب عليها أن تهرب لا لشىء الا لأن الأمر أمر سعادتها ؟ أية سعادة يمكن أن يتمتع بها المرء اذا كانت قائمة على شقاء غيره ؟ تصوروا أنكم مكلفون أنتم أنفسكم ببناء صرح المصائر الانسانية لهدف أخير هو أن تجعلوا جميع الناس سعداء ، وأن تهبوا لهم السلام والراحة آخر الأمر . وتخيلوا عندئذ أيضاً أنكم فى سبيل تحقيق ذلك لا غنى لكم عن تعذيب انسان واحد ، واحد لا أكثر ، بل انسان ليس له قيمة كبيرة ، انسان يمكن أن يعد مضحكاً ، فليس هو رجلاً عبقرياً مثل شكسبير ، وانما هو شيخ طيب شريف لا أكثر له زوجة شابة يؤمن بحبها ايماناً أعمى ، زوجة لا يعرف قلبها ، ولكنه فخور بها مرتاح اليها واثق بها . تخيلوا أن هذا الرجل هو الذى يجب عليكم أن تهينوه وأن تخزوه وتلطخوا شرفه وأن تعذبوه .

تخيلوا أن سعادتنا لابد أن تُبنى على دموع هذا الشيخ الذى لا حول له ولا قوة ولا يملك عن نفسه دفاعاً . فهل تقبلون أن تشيدوا ذلك الصرح بهذا الثمن ؟ وهل يمكنكم أن تسلّموا ، ولو دقيقةً واحدة ، أن أولئك الذين بُنى لهم هذا الصرح يرضون هم أنفسهم أن يقبلوا منكم تلك السعادة اذا كانت قد شيدت على آلام مخلوق هو أهون المخلوقات شأناً ، مخلوق عُذّب لهذه الغاية ظلماً بغير شفقة ولا رحمة ؟ وهل تقدرون ، اذا أنتم قبلتم هذه السعادة ، أن تبقوا سعداء الى الأبد ؟ قولوا لى : هل كانت تاتيانا تستطيع أن تعقد عزمها على غير ما عقدته عليه ، وأن تتخذ قراراً غير القرار الذى اتخذته ، هى التى وُهبت لها نفس تبلغ هذا المبلغ من النبل ، وأوتيت قلباً يبلغ هذا المبلغ من الرحمة ؟ لا ، لم يكن فى وسعها أن تفعل غير ما فعلت . هكذا يكون القرار الذى تتخذه نفس روسية نقية . « ألا فلأحرم وحدى من السعادة ، ألا فليكن شقائى أكبر من شقاء هذا الشيخ الى غير حدٍ ولا نهاية ، ألا فليجهل جميع الناس وهذا الشيخ نفسه تضحيتى ، ولا يقدروها حق قدرها الى الأبد ! اننى أوثر ذلك على أن تقوم سعادتى على شقاء غيرى . اننى أرفض أن يكون شقاء غيرى ثمن سعادتى ! » . فى هذا تكمن المأساة ، ولسوف تحدث المأساة ، سوف يفوت أوان تجاوز الحاجز . ذلكم هو السبب الذى جعل تاتيانا تطرد أونيجين . رب قائل يقول : « ولكن أونيجين شقى أيضاً . فهى قد أنقذت واحداً وأهلكت آخر ! » . اسمحوا لى ! هذه مسألة ، ولعلها أخطر مسألة فى القصيدة . يجب أن أشير فى هذه المناسبة الى أن امتناع تاتيانا عن الذهاب مع أونيجين هو عندنا ، فى أدبنا على الأقل ، قصة فريدة جداً فى نوعها . لذلك أبحت لنفسى أن أفيض فى الكلام على هذا الموضوع افاضة طويلة . ان أغرب ما فى الأمر هو أن الحل الأخلاقى لهذه المسألة قد كان موضع شك فى كثير من الأحيان عندنا . فاليكم ما أراه فى الأمر من رأى . اننى أتصور أن تاتيانا ما كان لها أن تذهب مع أونيجين

ولو حدث أن أصبحت حرة طليقة ، أن مات عنها زوجها ، أن أصبحت أرملة . أنحن فى حاجة حقاً الى أن نتعمق طبيعة هذا المزاج ؟ انها تعلم حق العلم من هو أونيجين : هو جوّاب أبدى حدث أن رأى ، على حين فجأة ، المرأة التى سبق أن ازدراها ؟ رآها فى البذخ والترف الذى تنعم به بيئة لا يقدر هو أن يبلغها . هنا جوهر القضية كلها . هذه البيئة هى جوهر القضية كلها . ان تلك البنت الصغيرة التى أوشك فى الماضى أن يحتقرها احتقاراً ، تحظى اليوم بتبجيل المجتمع الراقى ـ هذا المجتمع الذى له على رجل مثل أونيجين سطوة وسلطان ، رغم جميع ميول أونيجين الى الشمول ـ ومن أجل هذا انما هرع اليها مبهوراً ! لقد هتف يقول : « هذا مثلى الأعلى ، هذا خلاصى ، هذا ما يروى ظمئى ، ويشفى غليلى ، ويروى حنينى ! لم أقدر أن أرى السعادة حين كانت فى متناول يدى ، حين كانت قريبة كل القرب منى ! » . وكما يتوق آليكو الى زمفيرا ، يتطلع أونيجين الى تاتيانا . أليست تعرفه تاتيانا وتقرأ ما فى نفسه قراءة واضحة ؟ ألم تكتشف سرّه ، وتفك لغزه منذ مدة طويلة ؟ انها لتعلم الآن علم اليقين أنه لا يحب فى الواقع الا وهمه الجديد ، فهو لا يحبها هى ، هى التى لا تزال كما كانت فى الماضى تاتيانا الهادئة . انها تعلم أنه يعدّها شيئاً آخر غير ما هى . انها تعلم أنه لا يحبها هى ، وأنه ربما كان لا يحب أحداً ، بل أنه قد يكون عاجزاً عن أن يحب أحداً رغم كل ما يقاسيه من تباريح شديدة ! انه يحب وهمه الخاص ، وهو نفسه ليس الا وهماً ! فلو تبعته لصحت من الفتنة وأفاقت من السحر منذ الغد ، ولسخرت مما اندفعت فيه وانقادت له من حماسة . ان أونيجين لا أرض له ، لا تراب له . انه زغبة فى مهب الريح . أما هى فتختلف عن هذا كل الاختلاف . انها حتى فى اليأس والألم اللذين يستبدان بهما حين ترى تهدم حياتها ، يبقى لها شىء ثابت لا يتزعزع ، شىء متين راسخ تستند اليه روحها ، وتعتمد عليه نفسها : وهو ذكريات طفولتها ، ذكريات البلد

الذى ولدت فيه ، ذكريات الركن الصغير من الريف ، الذى فيـه بدأت حياتها الهادئة النقية . هو « الصليب وظل الأغصـــان على قبر مرضعتها المسكينة » . ان هذه الذكريات وهذه الصور الباقية من الماضى لهى أغلى فى نفسها من كل شئ . ان هذه الصـور هى كل ما بقى لها ، وهى هى التى تنقذ روحها من يأس لا مخرج منه . وهذا وحده ليس قليلاً ، بل انه لكثير ، لأنه أساس راسخ ، فيه شئ لا يتزعزع ولا يتهدم . بهذا انما يتم اتصال الانسان بالوطن ، وارتباطه بالشعب ، وتعلقه بما يجله ويقدسه . فما الذى يملكه أونيجين ، ومن هو ؟ انها لا تستطيع أن تتزوجه من باب الرأفة والشفقة ، ملهـاةً يزجّى بهـا وقتـه لا أكثر . انها لا تملك أن تبدّد هذا الكنز من الشفقة المحبة ، من أجل أن تخلق له شبح سعادة ، لأنها تعلم حق العلم أنه سيستهزئ فى غد بهذه السعادة . لا . ان من النفوس نفوسـاً عميقة قوية لا تستطيع ، عامدةً واعية ، أن تسلم للعار شيئاً تحترمه وتقدسه ، ولو أوتيت عطفاً لا نهاية له ، ورأفة لا حدود لها . لا . ما كان فى وسع تاتيانا أن تتزوج أونيجين .

هكذا يتجلى بوشكين ، فى قصـة « أونيجين » ، فى هذه القصـيدة الخالدة التى لاتضـاهى ، يتجلى كاتبـاً قوميـاً لم نعـرف مثله قبله . لقد استطاع بنظرة ثاقبة تبلغ غاية الدقة والحدة أن يرى أعمق أعماق كياننا ، وأن يبصر قرارة هذا المجتمع الذى ينزل عندنا منزلةً فوق طبقة الشعب . ان بوشكين ، بتصويره الجوّابَ الروسى ، بتصـويره المتشرّدَ فى هذا الزمان والمتشرد الذى وُجد حتى الآن ، وبادراكه بحدس العبقرى طبيعة هذا المتشرد ومصيره التاريخى وما يكتسبه من شأن ضـخم فى مصـائر روسيا فى المستقبل ؟ وبوضعه نموذج الجمال الروسى الحق الى جانب ذلك المتشرد متمثلاً فى المرأة الروسية ، قد استطاع ، سابقاً جميع كتاب روسيا ، أن يعرض أمام أبصـارنا فى سائر الآثار التى ألفها فى تلك المرحلة من مراحل حياته الأدبية ، سلسلة كاملة من النماذج الروسية الجميلة حقاً ،

التى اكتشفها فى الشعب الروسى . وأبرز سمات هذا الجمال أن هذه النماذج حقيقة صادقة ، فهو جمال لا يمكن جحوده ، جمال محسوس ملموس ، فلا يستطيع المرء أن ينكر هذه النماذج ، لأنها قائمة أمام بصره كأنها مقدودة من صخر . أعود فأقول مرة أخرى اننى لا أتكلم كلام ناقد من نقاد الأدب . لذلك سأتجنب أن أشرح رأيى فأصدر حكماً مفصّلاً على ما تركه شاعرنا من آثار عبقرية . ان المرء ليستطيع مثلاً أن يؤلف كتاباً كاملاً عن نموذج الراهب العالم بالأخبار ، فيبيّن ما لهذا الوجه المهيب عندنا من شأن كبير ودلالة غنية ، وهو الوجه الروسى الذى اكتشفه بوشكين على الأرض الروسية ، واستخرجه ، ونحت صورته ، ووضعه أمام أبصارنا فأصبحنا نراه الى الأبد بجماله الروحى الهادىء الفخم شاهداً على ما للشعب من روح قوية قادرة على أن تستخرج من قرارة ذاتها وجوهاً لا سبيل الى جحود جمالها أيضاً . ان بوشكين قد استمد هذا الوجه من الواقع ، فهو وجه موجود ، لا يمكن انكاره ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه مبتكر ابتكاراً ، وأنه ثمرة من ثمرات الخيال أو التصور عند شاعر . انكم لتتأملونه أنتم أنفسكم وتسلّمون به : نعم ، هو اذن موجود ، وان روح الشعب الذى خلقته لموجودة أيضاً . ويتبع ذلك أن ما تملكه هذه الروح من قوة حية نشيطة موجودة كذلك ، وكبيرة ورحبة . اننا لنحس فى جميع أعمال بوشكين ايماناً بالطبع الروسى ، ايماناً بطاقته الروحية . واذا وجد الايمان فقد وُجد الأمل أيضاً ، وهو أمل كبير فى الانسان الروسى :

مؤملا مجدا وخيرا

ارنو امامى غير خائف

كذلك قال الشاعر نفسه في مناسبة أخرى ، ولكن هذه الكلمات يمكن أن تصدق على جميع آثاره القومية • وما من كاتب روسي ، لا قبله ولا بعده ، بقي في يوم من الأيام متحداً بشعبه اتحاداً يبلغ هذا المبلغ من العمق ، ويصل الى هذه الدرجة من ارتباط الابن بأبيه وأمه • صحيح أن عندنا كتاباً كثيرين يعرفون الشعب ويتكلمون عنه بموهبة ومقدرة ومحبة • ولكن كل ما تستطيع أن تقوله عن هؤلاء الكتاب ، اذا أنت قستهم ببوشكين (عدا مستثنيين اثنين بين أواخر مقلدى الشاعر) هو أنهم « سادة » يتكلمون عن الشعب • وحتى بين أقواهم موهبة ، حتى لدى المستثنيين الاثنين اللذين ألمعت اليهما ، نحس على حين فجأة بظهور شيء أعلى ، شيء ينحدر من طراز آخر من المعيشة والحياة ، شيء يشبه أن يكون رغبة لدى الكاتب في رفع الشعب اليه ، ونفعه بتصوره • أما بوشكين فانه يملك شيئاً لا أدرى ما هو ، شيئاً يقرّبه من الشعب « نهائياً » ، ويكتسي لديه نوعاً من طبيعة بسيطة ساذجة • انظروا في أسطورة « الدب » ، اقرأوا كيف قتل فلاح « صاحب المعالي الدب » ، أو تذكروا ذلك البيت من الشعر عن « العراب ايفان » ، افعلوا هذا فتدركوا ماذا أريد أن أقول •

ان جميع هذه الكنوز من الفن والحدس التي خلّفها لنا شاعرنا الكبير هي نوع من الهدى للفنانين الذين سيخلفونه ، للفنانين الذين سيحققون رسالتهم بعد الآن على هذا الدرب الذى شقه لهم • حقاً اننا نستطيع أن نقول : لولا أن وُجد بوشكين ، لما وُجدت المواهب التي أعقبته • أو قولوا على الأقل ان هذه المواهب ، مهما تكن عظمتها ، ما كان لها لولاه أن تظهر قوية هذه القوة التي نراها لها اليوم ، ولا واضحة هذا الوضوح الذى تتجلى به في هذا الوقت • ولكن الأمر ليس أمر شعر فحسب ، ليس أمر عمل فني فحسب : ان الشيء الذى كان يمكن ألا يتجلى تجليا قويا هذه القوة التي لا تقاوم، لولا أن وجد بوشكين

(وهذا ما رئى بعد ذلك لدى بعضهم ان لم يكن لديهم جميعاً) انما هو ايماننا باستقلالنا الروسى ، وهذا الأمل الذى أصبح اليوم واعياً كل الوعى ، أعنى أملنا فى شعبنا ، وايماننا بالرسالة التى سيكون علينا ذات يوم أن نحققها فى أسرة الشعوب الأوروبية . وان مأثرة بوشكين هذه تتضح اتضاحاً خاصاً اذا نحن نفذنا الآن الى ما سوف أسميه بالمرحلة الثالثة من حياته الفنية .

أكرر أن هذه المراحل ليس لها تخوم محدّدة تحديداً واضحاً . فبعض أعمال بوشكين ، حتى بين تلك التى تنتمى الى المرحلة الثالثة ، كان يمكن أن تظهر فى بداية حياة شاعرنا الفنية ، لأن بوشكين كان فى جميع الأوقات كائناً حياً مكتملاً ان صح التعبير ، كائناً حياً يشتمل منذ البداية على بذور جميع تطوره ، فهو لم يتلق هذه البذور من خارجه . فالعالم الخارجى لم يزد فى أكثر تقدير على أن حرّك ما كان ثاوياً فى أعماق نفس الشاعر . ولكن هذا الكائن العضوى كان يتطور ، ونحن نستطيع أن نميّز مراحل هذا التطور ، فنرى فى كل مرحلة منها طابعها الخاص ، وسلّم النمو من طور الى طور . وعلى هذا الأساس نستطيع أن ننسب الى المرحلة الثالثة من تطوره ، تلك السلسلة من الأعمال التى تتألق فيها الأفكار العالمية خاصة ، والتى تنشر أمام أبصارنا الصور الشعرية عند الشعوب الأخرى ، وتجسّد لنا عبقرية هذه الشعوب . ان عدداً من هذه الأعمال لم يظهر الا بعد موت بوشكين . وفى هذه المرحلة من حياته الفنية انما يمثل الشاعر شيئاً معجزاً ، شيئاً لا عهد بمثله من قبل ، شيئاً لم يلاحظ فى أى مكان الى أن جاء بوشكين . صحيح أن فى الآداب الأوروبية عبقريات فنية تحتل مرتبة أولى فى العظمة ، أمثال : شكسبير ، وسرفانتس ، وشيلر . ولكن أرونى عبقرية واحدة من تلك العبقريات الكبرى ملكت من القدرة على الترجيع العالمى ما ملكته عبقرية بوشكين . وهذه القدرة التى هى وقف على أمتنا ، هى

بعينها ما يشارك فيه بوشكين شعبنا ، وهي ما تجعل منه شاعراً قومياً . ان أكبر الشعراء الأوروبيين لم يستطيعوا في يوم من الأيام أن يجسد أحدهم عبقرية شعب آخر ، ولو كانت عبقرية الشعب الذى يجاور شعبه ، وأن يفصح عن كل العمق الخبىء في روحه ، وعن كل الحنين الى تحقيق رسالته ، بمثل القوة التى برهن عليها بوشكين في هذا كله . بل ان الشعراء الأوربيين حين كانوا يرجعون الى الشعوب الأخرى ، فانما كانوا في آغلب الأحيان يفعلون ذلك لادخال هذه الشعوب في شعبهم ، وفهمها على طريقتهم . لو نظرت الى شكسبير نفسه لرأيت جميع الايطاليين تقريباً يشبهون في آثاره الانجليز . ان بوشكين ينفرد بين سائر الشعراء العالميين بالقدرة على التجسد في شعب آخر . انظروا الى مشاهد « فاوست » ، انظروا الى « الفارس البخيل » ، انظروا الى أغنية « المغامر الفقير » . انكم اذا أعدتم قراءة « دون خوان » ، لما كان في وسعكم أن تعرفوا أن الانسان الذى كتب هذه القصيدة ليس اسبانياً ، الا أن تروا اسم بوشكين . ما أعمق وما أهول الصور في هذه القصيدة : « المأدبة في زمان الطاعون » ! ألا يحس المرء في هذه الصور الخارقة عبقرية انجلترا ؟ ان هذه الأغنية العجيبة عن الطاعون ، التى يغنيها بطل القصيدة ، وهذه الأغنية التى تغنيها ميرى وتقول فيها هذين البيتين :

من صغارنا في المدرسة الصاخبة
ترجعت الاصوات

لهما أغان انجليزية . انهما سأم الروح البريطانية ، وأسلوب العبقرية البريطانية في البكاء ، واحساسها الأليم بما تتوقعه من مستقبل . وتذكروا تلك الأبيات الغريبة التى جاء فيها :

ان هذا ليكاد يكون نقلاً حرفياً للصفحات الثلاث الأولى من كتاب غيبى صوفى غريب ، كتبه نثراً متشيعٌ دينى انجليزى قديم ، ولكن أهو نقل فحسب ؟ انك من خلال الموسيقى الحزينة المتحمسة التى تسمعها فى هذه الأشعار لتحس روح البروتستانتية الشمالية نفسها ، روح مهرطق انجليزى غيبى صوفى سأمان قد امتلأت نفسه احتقاراً ، وتحس ميوله الغامضة المبهمة ، العارمة التى لا تقاوم وتحس أحلامه الغيبية الصوفية الجامحة المتطرفة . انك حين تقرأ هذه الأشعار ليخيل اليك أنك تسمع روح عصور « الاصلاح » ، فاذا أنت تدرك تلك الشعلة المحاربة ، شعلة البروتستانتية ، وهى فى فجرها ، واذا أنت أخيراً تفهم التاريخ نفسه ، تفهمه لا بالفكر وحده ، وانما تفهمه كما لو كنت أنت هناك ، كما لو كنت تمر بمعسكر أصحاب هذه الملة ، وتتلو معهم أناشيدهم ، وتشاركهم ذرف الدموع فى حماساتهم الصوفية ، وتشاطرهم ايمانهم بما هم به مؤمنون . وفى موازاة هذه الصوفية الدينية ، انظروا الآن الى تلك الأبيات الدينية الأخرى المستمدة من روح القرآن ، أعنى « اقتباسات من القرآن » . ألا تحسون حين تقرءونها أن مسلماً هو الذى يتكلم . ألا تحسون روح القرآن ؟ ألا ترون حسامه ؟ ألا تحسون تلك العظمة البريئة فى عقيدته ، وتلك القوة الهائلة الرهيبة فى تعاليمه ؟ وعودوا بنا الى العالم القديم . اقرءوا قصيدة « ليالى مصر » . ألا ترون آلهة الأرض هؤلاء الذين يحكمون شعوبهم حكم آلهة ، ويزدرون عبقرية شعوبهم وأشواقها ، ولا يؤمنون بها ، والذين يصدق عليهم أنهم آلهة منعزلون ،

أطاشت العزلة عقولهم واحتضروا من الضجر وهم يهدهدون حزنهم بميول حيوانية عجيبة رهيبة ، وشبق كشبق الحشرات ، ولذة كلذة انثى العنكبوت التي تلتهم ذكرها . اني لأقول غير هيّاب : ما عرفت الانسانية شاعراً يضارع بوشكين في قدرته على الترجيع العالمي الشامل . وليس الأمر أمر ترجيع فحسب ، وانما هو أيضاً ذلك العمق المدهش في هذا الترجيع ، وتلك القدرة التي تملكها روح بوشكين على أن تتقمص روح شعوب أخرى تقمصاً يكاد يكون كاملاً فهو معجزة ، لأن هذه الظاهرة لم تتجدد لدى أي شاعر في العالم بأسره من أقصاه الى أقصاه . ان هذا لم يحدث الا عند بوشكين . وبهذا المعنى يكون بوشكين ـ كما سبق أن قلت ـ ظاهرة ليس لها سابقة ، وهو في رأينا ظاهرة نبوة ! ذلك ... ذلك لأن ما هو روسي أكثر من كل ما عداه في بوشكين انما يتجلى في هذا ، أعني العبقرية القومية في شعره ، أعني روح شعبنا في الصورة التي ستصير اليها في المستقبل ، أي روح مستقبلنا التي عرف كيف يستخرجها من بين شوائب الحاضر ، وكيف يعبّر عنها تعبيرَ نبيٍ حقاً . وهل قوة روحنا القومية الا ميلها ـ من خلال الأهداف المحدودة التي تستهدفها ـ الى العالمية الشاملة ، الى التكامل الانساني ؟ ان بوشكين الذي أصبح شاعراً قومياً ، ما ان اتصل بالشعب حتى أحسّ سلفاً بما لهذه القوة الشعبية من دلالة واسعة . فهو من هذه الجهة قد أدرك المستقبل وكان نبيا .

ان في وسعنا أن نتساءل في الواقع : ما اصلاح بطرس بالنسبة الينا ، لا من جهة المستقبل فحسب ، بل من جهة ما كان ، من جهة الماضي ، من جهة ما حدث ووقع ؟ ما ذا كانت دلالة هذا الاصلاح بالنسبة الينا ؟ ذلك أن هذا الاصلاح ، في حقيقة الأمر ، لا يقتصر بالنسبة الينا على أننا استعرنا العادات والأخلاق والاختراعات الأوروبية فحسب . يجب أن نتعمق تعمقاً أشد ، فنرى كيف حدث هذا الاصلاح . من

الجائز جداً ألا يكون بطرس الأكبر نفسه قد خطرت بباله فى أول الأمر الا هذه الفكرة ، فجهد فى تطبيقها ، أى ألا يكون قد استهدف فى البداية الا منافع مباشرة . ولكن ما يملكه بطرس الأكبر من رهافة فى الفكر توجهه فى عمله لابد أنها دفعته بعد ذلك ، أثناء مضيّ فكرته فى تطورها ، الى أهداف بعيدة المدى لا شك فى أنها أرحب من تلك المنافع المباشرة . فنستطيع أن نقول ان الشعب الروسى قد قبل ذلك الاصلاح لا باسم المنفعة المباشرة وانما هو قبلها حتماً لأنه أحس سلفاً بهدف بعيد أعلى كثيراً من تلك المنفعة المباشرة . وأعود فأقول ان هذا الاحساس قد يكون لا شعورياً ، ولكن ذلك لا ينفى أنه كان قوياً وأنه كان راسخاً رسوخاً عميقاً فى نفس الشعب الروسى . لقد كنا جميعاً فى ذلك الأوان نميل الى اعادة بناء وحدة الحياة ، الى اعادة بناء وحدة النوع الانسانى . اننا بالصداقة لا بالعداوة (كما قد يُظن) ، وبالمحبة كلها انما قبلنا فى أنفسنا عبقريات الأمم الأجنبية ، وقبلناها جميعها ، دون أن نفرّق بينها ونجعل بعضها فوق بعض طبقات مختلفة باختلاف الأجناس ، لأننا علمنا بالفطرة ومنذ أول خطوة تقريباً كيف نزيل التناقضات وكيف نعذر ونغفر ، وكيف نحقق المصالحة بين الاختلافات . وبذلك كنا نؤكد منذ ذلك الحين ما نملك من استعداد وميل لأن نعيد بناء الوحدة العالمية ، والوحدة الانسانية بين أسر الجنس الآرى الكبير كلها منذ أن انكشفت هذه الوحدة لأبصارنا . نعم ، ان دلالة الانسان الروسى هى أنه أوروبى وأنه عالمى ، ما فى ذلك ريب . فأن يكون المرء روسياً حقيقياً ، أن يكون روسياً كاملاً ، فذلك انما يعنى (احفظوا هذا !) أنه أخو البشر جميعاً ، أنه مؤمن بالوحدة الانسانية اذا شئتم هذا التعبير . ان كل ما ذهبنا اليه من دعوة الى السلافية ومن دعوة الى التشبه بالغرب ليس الا سوء تفاهم ، وان يكن ضرورياً من الناحية التاريخية . فالروسى الحقيقى يرى أن أوروبا ومصائر الجنس الآرى العظيم كله غالية على نفسه كروسيا نفسها

ومصائر أرضه التى ولد عليها : ذلك أن مصيرنا انما هو العالمية الشاملة ، التى لا تتحقق بالسيف ، بل بالأخوة ، بجهدنا الأخوى فى سبيل أن نردّ البشر الى الأخوة . فلو تعمقتم تاريخنا الروسى الذى تلا اصلاح بطرس الأكبر ، لوجدتم فيه منذ ذلك الحين أثراً من هذا التفكير وقرائن تدل عليه ، أو قولوا ان شئتم أن تستبدلوا بكلمة التفكير كلمةً أخرى ، انكم واجدون فيه آثاراً وقرائن تدل على تلك الأحلام التى عبرّت عنها منذ قليل حين تحدثت عما هو مشترك بيننا وبين الشعوب الأوروبية ، حتى فيما يتعلق بسياسة حكومتنا ؟ اذ ما الذى فعلته روسيا فى مضمار السياسة خلال هذين القرنين ؟ أليس واضحاً أنها خدمت مصالح أوروبا أكثر مما خدمت مصالحها الخاصة ؟ لا أظن أن مردّ ذلك الى جهل رجال السياسة عندنا . لا . ان شعوب أوروبا لا تدرى كم هى عزيزة فى قلوبنا ، غالية فى نفوسنا ! انى لعلى يقين بأن الروس فى المستقبل ، أعنى الروس الذين سيخلفوننا سوف يدركون جميعاً — ولا أستثنى منهم أحداً — أن انتماء الفرد الى الشعب الروسى ، أى أن يكون الفرد روسياً حقيقياً ، انما معناه أن يقوم بمصالحة — هى فى هذه المرة مصالحة نهائية — بين التناقضات الأوروبية ، وأن يبيِّن للحنين الى أوروبا كيف أن هذا الحنين يمكن أن يرتوى من نفسنا الروسية التواقة الى الشمول الانسانى والى الوحدة بين البشر ؛ وأن يجعل جميع اخوتنا فى العالم ينضمون الينا بالحب حتى لقد تكون روسيا هى التى تنطق بالقول الفصل فى الاتساق الشامل والانسجام الكبير والاتفاق النهائى الأخوى بين جميع الشعوب تحت لواء المسيح . انى لأعلم حق العلم أن كلماتى هذه لابد أن تبدو شديدة الحماسة كبيرة الغلو وأن تبدو أوهاماً يتعلق بها الخيال . لا ضير . لست نادماً على أننى قلتها . لقد كان يجب أن تقال ، فى هذا الأوان خاصة ، فى هذه الساعة الجليلة عندنا ، هذه الساعة التى نحتفل فيها بذكرى شاعرنا العظيم الذى جسّد هو نفسه هذه الفكرة وحقّقها فى

فنه . ثم اننى لا أعلن هذا الرأى أول مرة . ان هـذا الرأى ليس بجديد . ولكن الشيء الخطير هو أن يظن بما أقول الغرور . فاذا بمعترض يعترض : « ماذا ؟ أيكون هذا قدر وطننا الجلف البائس ؟ أنكون نحن الذين هيأنا القدر بين سائر الانسانية لأن ننطق بالقول الجديد ؟ » . أى غرابة فى هذا ؟ أأنا أتكلم عن مجد اقتصادى ، عن مجد السيف أو العلوم ؟ لا ! فانما أنا أتكلم عن الأخوة بين البشر ، فأقول ان القلب الروسى ربما كان هو المهيأ أكثر من سائر الشعوب لأن يحقق الوحدة الشاملة الأخوية بين جميع البشر . وقد استقيت علامات ذلك من تاريخنا ، ورأيتها فى نبغائنا ، وشهدتها فى عبقرية بوشكين الفنية . لا يضيرنا أن أرضنا فقيرة بائسة . ان هذه الأرض الفقيرة قد « طاف بها المسيح وباركها فى صورة قن من الأقنان » . فلماذا تستبعدون أن تنطوى نفوسنا نحن على آخر كلمة قالها المسيح ؟ ألم يولد هو نفسه فى مذود ؟ أعود فأقول : اننا على الأقل نستطيع منذ الآن أن نطلع على العالم بشاعرنا بوشكين ، وبالروح العالمية الشاملة التى عبّر عنها ، وبعبريته التى تتصف بأنها انسانية كاملة . لقد استطاع بوشكين أن يضم فى نفسه العبقريات الأجنبية الأخرى كأنها من ذوى قرباه . لقد برهن فى الفن ، أو فى خلقه الفنى على الأقل ، برهاناً لا سبيل الى جحوده ، على توق الروح الروسية الى العالمية الشاملة ، وذلك وحده دليل كبير . اذا كان رأينا وهماً ، فاننا نقع عند بوشكين على ما يصلح أساساً وقاعدة لهذا الوهم يقوم عليها وطيداً راسخاً . لو أن بوشكين عاش عمراً أطول ، فلربما كشف عن جوانب خالدة رائعة من النفس الروسية كان اخوتنا الأوروبيون سيفهمونها فتجذبهم الينا أكثر مما هم منجذبون الينا الآن . لعله كان سيستطيع ، لو عاش عمراً أطول ، أن يشرح لهم أشواقنا الحقيقية ، ولعلهم كانوا سيدركون عندئذ مَنْ نحن ، فيكفون عن النظر الينا بالريبة والاحتقار اللذين لا يزالان يظهرونهما

لنا • لو عاش بوشكين عمراً أطول ، فلربما قلّ ما يقوم بيننا وبينهم الآن من سوء التفاهم ، وما ينشب بينا وبينهم من مشاجرات • ولكن الله أراد غير ذلك • فمات بوشكين وهو فى عنفوان تفتح قواه ، ولا شك أنه حمل معه الى قبره سرا كبيرا • فهذا السر هو ما يجب علينا منذ الان أن نحاول النفاذ اليه بعد غيابه عنا •

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المـــراهـــق ـ٢ـ	٥

الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الأول

الفقراء
المثل
قلب ضعيف

المجلد الثاني

نيتوتشكا نزفانوفنا
الليالي البيضاء
بروخارتشين
الجارة
المهرج
السارق الشريف
البطل الصغير
قصة في تسع رسائل
شجرة عيد الميلاد والزواج
زوجة آخر، ورجل تحت السرير

المجلد الثالث

قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها
حلم العم

المجلد الرابع

مذلون مهانون

المجلد الخامس

ذكريات من منزل الأموات

المجلد السادس

في قبوي
قصة أليمة
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف
التمساح

المجلد السابع

المقامر
الزوج الابدي

المجلد الثامن

الجريمة والعقاب -١-

المجلد التاسع

الجريمة والعقاب -٢-

المجلد العاشر

الأبله -١-

المجلد الحادي عشر

الأبله -٢-

المجلد الثاني عشر

الشياطين -١-

المجلد الثالث عشر

الشياطين -٢-

المجلد الرابع عشر

المراهق -١-

المجلد الخامس عشر

المراهق -٢-
قصص

المجلد السادس عشر

الاخوة كارامازوف -١-

المجلد السابع عشر

الاخوة كارامازوف -٢-

المجلد الثامن عشر

الاخوة كارامازوف -٣-

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعيا يدافع عن "الفقراء" والمذلين المهانين" فاذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف